كتاب السلوك

لمعرفة دول الملوك

لتقي الدين احمد بن علي المقريزي

الجزء الاول

القسم الثاني



كتاب السلوك

لمعرفة دول الملوك

لتقى الدين أحمد بن على المقريزى

الجزء الأول — القسم الثانى

صححه ووضع حواشيه

محمد مصطفى زيادة (Ph. D.)

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

تصـــدير الطبعة الثانية

للقسم الثانى من الجزء الأول من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

للمقريزى

احتراما للرغبة العلمية الواسعة التى دعت إلى إنجاز طبعة ثانية للقسم الأول من الجزء الأول من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ، رأت لجنة التأليف والترجمة والنشر أن أقوم كذلك على إخراج طبعة ثانية للقسم الثاني منه ، وبذا تصبح مجموعة الاقسام الخمسة المطبوعة من هذا الكتاب مكتملة ميسورة ، وتغدو عزيمتى الضئيلة قابلة إلى الانصراف الكلى إلى قسم جديد مما لا يزال مخطوطا من هذا العمل الطويل .

وأود التنبيه هنا ، كما نبهت فى تصدير الطبعة الثانية للقسم الأول ، إلى حرصى على بقاء أرقام الصفحات والحواشى وترتيب الفقرات فى هذه الطبعة الثانية للقسم الثانى على حالها كما فى الطبعة الأولى ، ولذا حرصت على أن تكون التعديلات والتصحيحات الجديدة مساوية فى عدد ألفاظها لما حلت محله من مواضع التعديل والتصحيح ، وهى غير قليلة فى الحواشى .

ثم أود أن أشكر جميع الهيئات والشخصيات التى تعهدت عملى فى هذا الكتاب بالنقد البنائى والتشجيع المتواصل ، وأخص هنا للمرة الثانية صديقى القدير الدكتور مصطفى جواد ، أستاذ الآداب العربية بدار المعلمين العالية ببغداد ، إذ بلغ عدد ملحوظاته القيمة التى أدمجتها فى هذه الطبعة الثانية للقسم الثانى أضعاف ملحوظاته التى انتفعت بها واستخدمتها فى الطبعة الثانية للقسم الأول . وأود كذلك أن أشكر لتلميذى السابق وزميلى الحالى الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، مدرس العصور الوسطى بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، قيامه على تصحيح بروفات هذا القسم ، وهذا عدا شكرى الدائم لجميع تلاميذى وأصدقائى تشجيعهم المستمر ، فضلا عن شكرى الوفير لرجال الإدارة والمطبعة بلجنة التأليف والترجمة والنشر عنايتهم الحميدة .

مصر الجديدة { شوال ١٣٧٦ / مايو ١٩٥٧ }

محمد مصطفى زيادة

تصدير الطبعة الأولى

للقسم الثانى من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى

يشمل هذا القسم بقية ما كتب المقريزى فى الدولة الأيوبية بمصر، وشطراً من تاريخ دولة المماليك الأولى حتى آخر عهد السلطان سلامش، ثانى أولاد السلطان الظاهر بيبرس، وهذا يقابل ما كان قد بقى مما ترجمه (Blochet) من كتاب السلوك فى (Bolchet : Histoire d' Egypt, de Makrizi)، والجزء الأول مما ترجمه منه (Quatremére : Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte, 2 Volumes)[1].

* * *

ولقد أتى على ظهور القسم الأول من الجزء الأول من هذا المؤلف الطويل نحو سنتين، عثرتُ فى أثنائها، بالبحث فى المتحف البريطانى بلندن صيف ١٩٣٤، على بعض معلومات مكملة لما قد كنت ناقشته فى تصدير القسم الأول المذكور من حيث النسخ الخطية المعروفة من كتاب السلوك، وما طبع منها بلغته أو مترجما أو ملخصا، ومن حيث الرسم الإملائى الذى نحاه المقريزى فى الكتابة. ولما كان غرضى فى تصدير هذا القسم الثانى لا يعدو ما كان من غرضى عند تصدير القسم الأول، وهو مجرد التعريف بكتاب السلوك ومؤلفه، وبالنحو الذى سرتُ عليه فى نشره وتحريره ووضع حواشيه، فإنى لهذا مقتصر هنا على إضافة تلك المعلومات التكميلية المشار إليها، على أنْ أرجئ كتابة مقدمة شاملة وافية للجزء الأول كله عند تمامه.

ولذا فإنى أضيف هنا إلى قائمة النسخ الخطية المذكورة فى تصدير القسم الأول نسخة موجودة فى مكتبة الجامعة بكامبردج بإنجلترة، تحت رقمى ٥٢٦، ٥٢٧، وهى مكونة من الجزءين الأول والرابع. انظر (Browne : A Handlist of the Huhammadan Manuscripts in the library of the University of Cambridge p. 97. Cambridge University Press, 1900). وهناك نسخة أخرى يملكها (Mr. A. G. Ellis)

---

(١) انظر هنا ص ٣٦٨ (حاشية ١).

الأمين المساعد للقسم الشرقى بالمتحف البريطانى سابقا ، وقد تفضّل حين وجودى بلندن فى الصيف المذكور فسمح لى بالاطلاع عليها ، وهى مكوّنة من الجزء الثالث فقط . وهاتان النسختان ، وغيرها مما هو مقطوع بوجوده فى شتى المكاتب والمتاحف من كتاب السلوك كما تقدّم بتصدير القسم الأوّل ، ستكون كلها موضع مقارنة ومفاضلة ، لا بدّ منها قبل اختيار أحسن النسخ من الناحية العلمية ، لتهيئة الأجزاء الباقية للطبع .

* * *

أما ما طبع من كتاب السلوك بلغته العربية الأصلية ، أو مترجما أو ملخصا ، فيوجد فى (W. D. Tiesenhausen . Recueil de Materiaux Relatifs à l'Histoire de la Horde d'Or, Tome I. pp. 417-442) كل ما أورده المقريزى فى كتابه خاصا عن القفجاق المعروفين باسم القبيلة الذهبية ، من سنة ٦٥٢ ﻫ إلى سنة ٨١٩ ﻫ ، مجموعا على هيئة متن متصل مرتّب على حسب السنين . وتوجد أيضا فى مجموعة المستشرق (Sylvestre de Sacy) المعروفة باسم كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور (ج ١ : ص ١٧٠ — ١٧٦) ، قطعة من السلوك خاصة بسنة ٧٩٦ ﻫ ، وهى مترجمة إلى الفرنسية فى نفس المرجع المسمى فى تلك اللغة باسم : (Sylvestre de Sacy : Chrestomathie Arabe, 3 Tomes. Paris, 1824-1826) ، حيث توجد القطعة المشار إليها فى (Tome 1. pp. 484-498) . ويوجد أيضا فى (Petitots: Collection dès Mémoires sur l'Histoire de France, Série 1, Tome III. pp. 3-37, Paris 1824) تلخيص لما جاء فى كتاب السلوك من حكم العادل الثانى إلى سنة ٦٤٨ ﻫ[1] .

* * *

أما عن الرسم الإملائى فقد أشرت فى تصدير القسم الأوّل إلى طريقة المقريزى فى نسخته التى كتبها بيده ، وهى المسماة هنا س ، إذ دأب على إهمال الهمزات بأنواعها إهمالا تاما فى سائر المخطوطة ، وتهاون فى النقط حتى إن كثيراً من الألفاظ وارد بغير نقط البتة ، ووقع فى بعض أخطاء نحوية ، كما ضبط بعض الألفاظ ضبطا خطأ . ولا عيب فى شىء من هذا كله على المقريزى ، فإنه سار على أنماط الكتابة والإنشاء الشائعة فى عصره ؛ ومخطوطته هذه فى الواقع

(١) انظر هنا س ٢٦٧ — ٣٨٢ .

ذخيرة لدراسة دور من أدوار تطوّر الـكتابة العربية ، فضلا عن أن غلطاته النحوية نفسها دليل على حال اللغة فى العصر الذى عاش فيه

ذلك أن الخط العربى ، كما نعرفه فى العصر الحاضر ، نتيجة سلسلة طبيعية من التطوّرات والتغيّر ، وخاصّة فى مسألة نقط الحروف . وقد كان الـكتّاب فى عصر المقريزى ، وما سبقه من العصور أيضاً ، يكرهون كثرة النقط ، ويعتبرونها إما تنطّعا أو جهلا من الـكاتب ، أو سوء ظن بالمـكتوب إليه . وقد أوضح ذلك القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ١٥٤) ، وهو من معاصرى المقريزى ومن كتّاب ديوان الإنشاء ، فى العبارة التالية : " النقط مطلوب عند خوف اللّبس [فقط] ، لأنه إنما وُضع لذلك ؛ أما مع أمْنِ اللّبس فالأَوْلى تركه ، لئلا يُظلِم الخط من غير فائدة ... . أما كتّاب الأموال فإنهم لا يرون النقط بحال ، بل تعاطيه عندهم عيب فى الـكتابة " .

* * *

وبعد ، فأريد أن أختم هذا التصدير القصير بكلمات شكر قيمة لمن عاوننى فى إخراج هذا القسم الثانى من الجزء الأوّل من كتاب السلوك . وأوّلهم الأستاذ أحمد أمين ، الأستاذ بكلية الآداب ، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فقد أولانى بمثل ما أولانى به أثناء إخراج القسم الأوّل من دائب العناية والتشجيع ، وقرأ جميع هـذه الصفحات قبل أن أعتمدها نهائيا للطبع ، وإنى أشكره مرة أخرى لتفضّله بكتابة حاشية رقم ١ فى صفحة ٥٥٧ . وأبدى شكرى أيضاً لصديقى محمد نديم افندى ، ملاحظ مطبعة دار الـكتب المصرية ، فقد تعهّد إخراج هذا القسم بفنّه وإتقانه ، فجاء فى مستوى المطبوعات الـكبرى التى اشتهرت مطبعة تلك الدار بإخراجها . وآخر قولى هنا أن أقدم شكرى لمن تولّانى من أصدقائى ، داخل كلية الآداب وخارجها ، بالنقد العلمى وبالتشجيع والتمنيات الطيبة ؟

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة { ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥
٢٩ أغسطس سـنة ١٩٣٦

أسماء المراجع المذكورة فى حواشى القسم الثانى

تحتوى القائمة التالية على أسماء المراجع الإضافية التى استلزمها هذا القسم من الجزء الأول من كتاب السلوك

مراجع عربية مخطوطة ومطبوعة

ابن أبى الفضائل (مفضل ..): كتاب النهج السديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد .
(Texte Arabe publié et traduit en francais par E. Blochet. Patrologia Orientalis T. XII. Fasc. 3. T. XIV. Fasc. 3 Firmin Didot, Paris. 1911, 1920).

ابن شاكر (فخر الدين محمد .. بن أحمد الكتبى) : فوات الوفيات . (بولاق ، ١٢٩٩ هـ) .

ابن الفوطى (أبى الفضل عبد الرزاق ... البغدادى) : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة . (المكتبة العربية ، بغداد ، ١٣٥١ هـ) .

ابن واصل (جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سالم) : مفرّج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جزءان . صور شمسية بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٣١٩ تاريخ ، مأخوذة من النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس[١] .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد): تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة . (إدارة الطباعة المنيرية ، ١٣٥١ هـ) .

النويرى[٢] (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ٣٢ جزءا . صور شمسية بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩ معارف عامة ، مأخوذة من النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس .

---

(١) يعمل الدكتور جمال الدين الشيال ، أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الإسكندرية ، فى إخراج هذا الكتاب فى مطبوعات وزارة التربية والتعليم ، وأنجز منه الجزء الأول . (مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٣) .

(٢) تطبع دار الكتب المصرية هذا المؤلف الكبير وأنجزت منه ستة عشر جزءا .

مراجع أوربية

Bouquet (Martin): Recueil dès Historiens des Gaulès et de la France. Tome 20. (Imprimerie Royale, Paris 1840).

Browne (E. G.): A Literary History of Persia. 4 vols. (Cambridge University Press, 1909-1930).

D'Ohsson (Le Baron C.): Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan etc. 4 Tomes. (Les Frères Van Cleef, La Haye, 1834-1835).

G.-Demombynes : Masalik el-Absar fi Mamalik el-Amsar, d'Ibn Fadl Allah al-Omari. Tome I. L'Afrique, Moins L'Egypte. Traduit et annoté avec une Introduction et 5 cartes. (Bibliothèque des Geographes Arabes T. II. Geutner, Paris, 1927).

Joinville (Sire De): Saint Louis, King of France. Translated by James Hutton. 7th ed. (Sampson Low, London, 1910).

Mayer (L. A.): Saracenic Heraldry. (Clarendon Press, Oxford, 1933).

Oman (Sir Charles): A History of the Art of War in the Middle Ages; 2 vols. (Methuen, London, 1924).

Zetterstéen (K. V.): Beiträge zur Geschichte der Mamlukensultane. (Brill, Leiden, 1919).

المقريزى

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

الجزء الأول — القسم الثانى

السلطان الملك العادل [الثانى](١)

سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب أمه الست السوداء ، المعروفة ببنت الفقيه نصر ، ومولده فى سنة سبع عشرة وستمائة . استقرّ الأمر له بسلطنة مصر ودمشق ، فى يوم الخميس ثانى عشرى رجب ، سنة خمس وثلاثين وستمائة ، الموافق لسادس عشر برمهات . وخُطِب له بالقاهرة ومصر فى رابع شعبان ، وهو السلطان السابع من بنى أيوب بديار مصر . فقدمت عليه القصاد من دمشق بوفاة أبيه واستقراره من بعده ؛ فشرع الأمير سيف الدين قلج(٢) فى تحليف الأمراء للملك العادل فى داره . وحط [الملك العادل(٣)] المكوس(٤) ، ووسع فى العطاء وفى الأرزاق على كل أحد .

---

(١) أضيف الوصف للتمييز بين هذا السلطان وجده الملك العادل أبى بكر بن أيوب .

(٢) لما توفى الملك الكامل بدمشق ، واتفق الأمراء وأرباب الدولة الذين كانوا برفقته على سلطنة ابنه الملك العادل بعده ، وتولية ابن عمه الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل بن أيوب نائباً للسلطنة بدمشق ، رجع معظم الأمراء والجيوش المصرية إلى القاهرة ، لإقامة سلطنة العادل بها ، وبقى بعضهم بدمشق لمؤازرة الجواد فى نيابة السلطنة هناك . (انظر ص ٢٦١) . وكان من الراجعين إلى القاهرة ، حسبما جاء فى ابن واصل (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ص ٣١٤ أ) الأمير سيف الدين قلج ، وثلاثة من أولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه ، وهم مجير الدين وكمال الدين ومعين الدين . وكان من الباقين بدمشق عماد الدين عمر رابع أولاد شيخ الشيوخ ، وكذلك الأمير عز الدين قلج أخو الأمير سيف الدين قلج المذكور هنا ، وقد سماه المقريزى (ص ٢٦١ ، سطر ٩) باسم عماد الدين .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٤ ب) .

(٤) المكوس جمع مكس ، ومن معانيه فى اللغة الضريبة التى "كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق فى الجاهلية" . (محيط المحيط) . والمكوس فى مصطلح مؤرخى مصر الإسلامية كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان ، أو لأصحاب الإقطاعات ، أو لموظفى الدولة ، خارجا عن الخراج الشرعى ؛ وتسمى أيضا المال الهلالى ، (انظر ص ٨٥ ، حاشية ٣) ، وقد عرفت هذه الأموال فى مصر باسم المكوس ، منذ الدولة الفاطمية . ومن أنواعها ما كان يؤخذ فى الثغور البحرية والبرية على المتاجر الواصلة من الخارج ، وما كان مقررا بالقاهرة والفسطاط على مختلف المحاصيل والمصنوعات والأماكن ، مثل مكس القوافل ، ومكس البهار ، ومكس فندق القطن ، ومكس معدية الجسر بالجيزة ، وغيرها . وكانت المكوس السلطانية تبلغ فى زمن المقريزى بضعا وسبعين ألف دينار . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٣ — ١١١ ج ٢ ، ص ١٢١ — ١٢٤ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ — ٤٧١) .

وفى رابع شعبان خُطب له بمصر ، وأعلن بموت الملك الكامل . وفى رابع عشر شعبان ضُربت السكة باسمه .

وفى ثامن عشر رمضان نقش الدينار والدرهم باسمه . وفى عشريه قرئ توقيعه على المنبر ، بإطال جميع المكوس .

وفى سابع عشرى شوال وصل محيي الدين [أبو محمد] يوسف بن الجوزى (١) ، رسولا من بغداد ، بتعزية الملك العادل ، وهنأه بالملك من قبل الخليفة . وكان [العادل] قد بعث إلى دمشق بالخلع والسنجق ، فركب الجواد بالخلع فى تاسع عشر رمضان . وفيها أنفق العادل على العساكر .

وفى ثانى ذى القعدة استحلف ابن الجوزى الملك العادل للخليفة المستنصر . وفيه ورد الخبر بأن الناصر داود تحالف هو والجواد ، وقد اتفقا وخرجا عن طاعة العادل . ووصل الناصر [داود] إلى غزة ، وخطب بها لنفسه . ثم وقع بينه وبين الجواد خلف ، فأظهر الجواد أنه عاد إلى طاعة الملك العادل .

ولما قربت العساكر الواردة من دمشق إلى القاهرة ركب العادل إلى لقائهم وأكرمهم ، وسير إليهم فى منازلهم الأموال والخلع والخيول ، فجددوا له الأيمان والعهود ؛ فاستقر أمره . وأخرج [العادل] الأموال ، و بذلها فى الأجناد ، وأكثر من العطاء والبذل ، حتى بدد فى مدة يسيرة ما جمعه أبوه فى مدد متطاولة . وأخذ فى إبعاد أمراء الدولة عنه ، وقطع رواتب أرباب

(١) تقدم ذكر محيي الدين أبى محمد يوسف بن الجوزى رسولا من الخليفة العباسى ببغداد إلى بنى أيوب أكثر من مرة ، (انظر ص ٢١٩ ، ٢٥٧) . وهو ابن أبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزى الفقيه الحنبلى المؤرخ ، صاحب كتاب المنتظم والملتقط الملتزم فى التاريخ ، وخال شمس الدين أبى المظفر يوسف ابن كزوغلو ، المعروف بسبط ابن الجوزى ، صاحب باب مرآة الزمان . ولد محيي الدين هذا ببغداد سنة ٥٨٠ ﻫ ، وتقلب فى عدة وظائف بها ، فتولى الحسبة ، ودرّس بالمدرسة المستنصرية لطائفة الحنابلة ؛ وسفر للخليفة العباسى فى الرسائل إلى الملوك ، ثم صار أستادارا ببغداد . وكانت وفاته بها ، قتيلا فى وقعة التتر ، سنة ٦٥٣ ﻫ . (ابن خلكان : وفيات الأعيان (Wüstenfeld) ، ج ٤ ، ص ٦٧ — ٦٩) . انظر أيضا (ابن واصل : مفرّج الكروب ، ص ٣٢٤ ب) .

الدولة ، واختص بمن أنشأه . فنفرت قلوب الأكابر منه ، واشتغل [هو] عنهم بالانهماك في شرب الخمر ، وكثرة اللهو والفساد .

وسار[1] الناصر داود من الكرك ، واستولى على غزة والسواحل . واستجد عسكرا كبيرا ، وبرز عن غزة . وبعث إلى الملك العادل يريد منه المساعدة على[2] أخذ دمشق .

وقوى المجاهد [أسد الدين[3]] صاحب حمص بعد موت الكامل ، وأغار على حماة وحصرها . واستمدّ أهل حلب ، واستجدوا عسكرا من الخوارزمية ، وعسكرا من التركمان ؛ و[كان قد] صار إليهم عدّة من أصحاب الملك [الكامل[4]] ، فأكرموهم ؛ وبعثوا إلى السلطان غياث الدين [كيخسرو[5] بن كيقباد] ، ملك الروم ، يسألونه إرسال نجدة ، فأمدّهم بخيار عسكره ؛ وخرجوا فملكوا المعرّة ، ونازلوا حماة ، وقاتلوا المظفر صاحبها ، فثبت لهم ، وامتنع عليهم وقاتلهم .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل على الرَّحْبَة[6] ، منازلا لها ؛ فلما بلغه موت

---

(١) و (٢) العبارة الواردة بين الرقمين مشطوبة فى س ، ويظهر أن المقريزى عمد إلى شطبها لسبق ذكر بعض أخبار الناصر داود (ص ٢٦٨ سطر ٩) ، وقد أثبتت هنا لعدم تعارضها مع تلك الأخبار . وفى ابن واصل (مفرج الكروب ، ص ٣١٤ ب) أن الملك العادل لم يجب الناصر داود إلى ما أراد ، "فأرسل الناصر إليه ثانيا : إن أباك السلطان الملك الكامل كان قد التزم أن يعيد إلىّ مملكة والدى (انظر ص ٢٥٦ ، سطر ١٤) ، و [أما] أنا فقد وليت على البلاد الساحلية لأنها من جملتها ، فتساعدنى على تسليم دمشق وباقى البلاد ، وأكون من قبلك ، ومن طاعتك ، كما كنت مع أبيك . وترددت بينه وبين الملك العادل الرسائل فى هذا المعنى".

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٤ ب — ٣١٥ ا) ، حيث توجد معلومات أوفى عن حركات المجاهد صاحب حمص ، بعد وفاة الملك الكامل .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٦ ا) .

(٥) انظر ص ١٥٤ ، سطر ١٠ ، وابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٦ ا) .

(٦) بغير ضبط فى س ، وتقع الرحبة على شاطىء نهر الفرات ، جنوبى قرقيسيا ، وهى على مسافة مائة فرسخ من بغداد ، ونيف وعشرين فرسخا من الرقة . وتسمى رحبة مالك بن طوق ، نسبة إلى مالك ابن طوق بن عتاب التغلبى ، الذى أسسها فى خلافة المأمون . (ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٦٤ — ٧٦٧) . وكانت الرحبة من أملاك المجاهد صاحب حمص ، وحاصرها الصالح نجم الدين أيوب تنفيذا لتعليمات أبيه الملك الكامل إليه . (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣١٥ ب) .

أبيه الملك (٧١ ب) الكامل رحل عنها ، فطمع فيها من معه من الخوارزمية[(١)] ، وخرجوا عن طاعته ، وهموا بالقبض عليه ؛ فقصد سنجار ، وامتنع بها مدة ، وترك خزائنه وأثقاله ، فانتهبها الخوارزمية ، وتحكموا فى البلاد الجزرية . وطمع فيه السلطان غياث الدين [كيخسرو ابن كيقباد] ، ملك الرومية ، وبعث إلى الناصر [صلاح الدين أبى المظفر[(٢)] يوسف] ، صاحب حلب ، توقيعا بالرها وسروج ، وكانا مع الصالح [نجم الدين أيوب[(٣)]] ؛ وأقطع المنصور ناصر الدين الأرتقى ، صاحب ماردين ، مدينة سنجار ومدينة نصيبين ، [وهما] من بلاد الصالح [أيضا] ؛ وأقطع المجاهد [أسد الدين شيركوه[(٤)]] ، صاحب حمص [بلدة] عانة[(٥)] وغيرها من بلاد الخابور ؛ وعزم[(٦)] السلطان غياث الدين كيخسرو على أن يأخذ لنفسه من بلاد الصالح أيضا آمد وسميساط[(٧)] .

وصار [الملك الصالح] محصورا بسنجار ، فطمع فيه الملك الرحيم بدرالدين لؤلؤ -- صاحب الموصل -- ، وحصره بسنجار فى ذى القعدة ، وأراد حمله إلى بغداد فى قفص حديد ، كراهة فيه ، لما كان عنده من التجبر والظلم والتكبر . فلما أشرف [بدر الدين لؤلؤ] على أخذ سنجار بعث الصالح [إليه] القاضى بدر الدين يوسف بن الحسن الزرزارى[(٨)] قاضى سنجار ، بعد ما حلق لحيته ، ودلاه من السور . [وكان القاضى الزرزارى] متقدما فى الدولة الأشرفية ، ولاه [الملك] الأشرف [موسى[(٩)]] -- لما ملك دمشق -- قضاء بعلبك . ثم [بعد موت[(١٠)] الملك الأشرف]،

---

(١) انظر ص ٢٥٥ ، سطر ٨ . (٢) انظر ص ٢٥٣ ، سطر ١٢ .
(٣) انظر ص ٢٥٧ ، سطر ١٣ .
(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٧ ب) ، انظر أيضا ص ٢٢٣ . سطر ١٤ .

(٥) بلدة على نهر الفرات ، وموقعها بين الرقة وهيت . وإلى هذه البلدة لجأ الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، هاربا من بغداد ، حينما ثار عليه أرسلان البساسيرى ، سنة ٤٥٠ هـ ، (١٠٥٨ م) . انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٩٤ -- ٥٩٥ ؛ و . Muir : The Caliphate, p. 580 et seq).

(٦)و(٧) عبارة السلوك هنا مقتضبة ، وضع بدلها الجملة الواردة بين الرقمين ، بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص٣١٧ب) . ونص عبارة السلوك كالآتى : "وعزم على أن ناخذ منه ايضا امد وسميساط"

(٨) بغير ضبط فى س ، انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٨ أ) . (٩) انظر ص ٢٥٦ .

(١٠) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٨ أ) . ويلاحظ أن عبارة السلوك فى سائر ترجمة القاضى الزرزارى ، وما يليها من أخبار سفارته ، وما وقع للملك الصالح نجم الدين أيوب ، تشبه كثيرا فى أسلوبها وألفاظها ما يقابلها فى ابن واصل ، ومنه أضيف ما بين الأقواس فيما يلى بصدد هذه الأخبار .

ولاه الصالح نجم الدين [أيوب] قضاء سنجار . وكان كثير التجمل[1] جدا واسع البر والمعروف ؛ وله مماليك وغلمان وحواشى ، لهم من التجمل ما ليس لغيرهم . فصار كأحد الأمراء الأكابر ، وصار يقعد لسائر من يرد عليه من أهل العلم وذوى البيوتات .

فتوجه [القاضى] فى خفية إلى الخوارزمية ، واستمالهم وطيب خواطرهم ، بكثرة ما وعدهم به . فمالوا إليه ، بعد ما كانوا قد اتفقوا مع صاحب ماردين ، وقصدوا بلاد [الملك] الصالح [نجم الدين أيوب] ، واستولوا على الأعمال ، ونازلوا حران . — [وكان الملك الصالح قد ترك بها [ولده] المغيث فتح الدين عمر بن الصالح ، [فخاف من الخوارزمية ، وسار مختفيا] حتى فرّ إلى قلعة جعبر . فساروا خلفه ، ونهبوا ما كان معه ، وأفلت منهم فى شرذمة يسيرة إلى منبج . فاستجار بعمة[2] [أبيه ، الصاحبة ضيفة خاتون] ، أم الملك العزيز ، صاحب حلب ، فلم تقبله . فردّ إلى حران ، وفيها أتاه كتاب أبيه يأمره بموافقة الخوارزمية ، والوصول بهم إليه لدفع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . فاجتمع [المغيث عمر ، والقاضى بدر الدين قاضى سنجار ،] بالخوارزمية ، والتزم لهم القاضى أن يقطعوا سنجار وحران والرها . فطابت قلوبهم ، وحلفوا للملك الصالح ، وقاموا فى خدمة ابنه الملك المغيث ، وساروا معه إلى سنجار ، فأفرج[3] عنها عسكر الموصل ، يريدون بلادهم . وأدركهم الخوارزمية ، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة ، فرّ فيها بدر الدين لؤلؤ بمفرده على فرس سابق ، ثم تلاحق به عسكره . واحتوت الخوارزمية على سائر ما كان معه ، فاستغنوا بذلك . — وقوى الملك الصالح [بالخوارزمية وبهذا الفتح] قوة زائدة ، وعظم شأنه ؛ وسير الخوارزمية إلى آمد ، وعليها عسكر [السلطان غياث الدين كيخسرو] ،

(١) فى س التحمل ، وهى مكررة بالحاء فى سياق العبارة نفسها . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٨ أ) .

(٢) فى س "نعمته" ، وهذا خطأ ، يدل عليه ما سبق ذكره بالقسم الأول من الجزء الأول من السلوك ، (انظر ص ١٧٤ سطر ٩ ؛ ص ١٧٦ سطر ٦ ؛ ص ٢٥٣ ، سطر ١٤) ؛ راجع أيضا ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٨ ب) . هذا وقد سبق ورود اسم الصاحبة ضيفة مصحفا بلفظ "صفية" ، بالصفحات المشار إليها من السلوك ، ويريد الناشر أن يتدارك هنا ذلك الخطأ الذى وقع فيه سابقا . أما أصل تسميتها بهذا الاسم فهو أنه كان عند أبيها الملك العادل بن أيوب يوم مولدها بحلب ضيف ، فأسماها ضيفة . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٢١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٣) أفرج الناس عن الطريق أى انكشفوا عنه ، وأفرج الجند عن المكان أى تركوه . (محيط المحيط) .

صاحب الروم ، وبها (١٧٢) المعظم غياث الدين توارنشاه بن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] ، وهو محصور منهم ، فأوقعوا بهم ورحّلوهم عن آمد ؛ فخرج الصالح من سنجار إلى حصن كيفا .

وبعث الملك العادل من مصر إلى أهل حلب يريد منهم أن يجرُوا معه على ما كانوا عليه مع أبيه الملك الكامل — من إقامة الخطبة له على منابر حلب ، وأن تضرب له السكة — فلم يُجَب إلى ذلك .

وقدم رسول [غياث الدين كيخسرو] ملك الروم ، فزوج غازية خاتون ابنة العزيز للسلطان غياث الدين ، وأنكح الملك الناصر — صاحب حلب — أختَ السلطان غياث الدين(١) ؛ وتولى العقد الصاحب كمال الدين [بن أبي جرادة] بن العديم(٢) ، وخرج في الرسالة إلى بلاد الروم ، وعقد للملك الناصر صاحب حلب على ملكة خاتون أخت(٣) السلطان غياث الدين . فبعث غياث الدين رسولا إلى حلب ، فأقيمت له بها الخطبة .

وخرج الملك الجواد من دمشق في أول ذي الحجة ، يريد محاربة الناصر داود صاحب كرك(٤) ،

---

(١) أصل هاتين الزيجتين ، حسبما جاء في ابن واصل (نفس المرجع ص ٣١٦ ب — ٣١٧ ب) أن غياث الدين كيخسرو بعث إلى حلب ، بعد إنفاذ النجدة العسكرية التي طلبتها منه الصاحبة ضيفة خاتون ، يطلب من الصاحبة أن تزوجه بنت ابنها الملك العزيز ، وأن يتزوج السلطان الملك الناصر ، صاحب حلب ، أخت غياث الدين .

(٢) اشتهر ابن العديم في عالم التأليف بكتابه المسمى بغية الطلب في تاريخ حلب ، وبمختصر لهذا الكتاب اسمه زبدة الحلب في تاريخ حلب . وكان مولده بحلب ، سنة ٥٨٨ هـ ، (١١٩٢م) ، ومارس التدريس وتولى القضاء بها . وقد وزر أيضا للملك العزيز صاحب حلب ، ولابنه الملك الناصر بعده ، وسفر بأمرهما عدة مرات إلى بغداد والقاهرة . ولما انثال التيار التترى إلى حلب ، سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، هرب ابن العديم مع الملك الناصر إلى القاهرة . ثم استدعاه إليه هولاكو التترى ، ليوليه منصب قاضى قضاة الشام ، لكنه مات بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ (١٢٦٢م) . انظر (Enc. Isl. Art, Kamal Al-Din) .

(٣) في س "ابنه" ، انظر سطر ٨ .

(٤) كذا في س .

فالتقيا بالقرب من نَابُلُس(١) فانكسر الناصر كسرة قبيحة ، فى يوم الأربعاء رابع عشر ذى الحجة ، وانهزم إلى الكرك . فغنم الجواد ما كان معه ، وعاد إلى دمشق ، وفرّق ستمائة ألف دينار وخمسة آلاف خلعة ، وأبطل المكوس والخمور ، ونفى المغانى . وعاد من كان فى دمشق من عسكر مصر — ومعهم الأمير عماد الدين بن شيخ الشيوخ — إلى القاهرة ، بسناجق الناصر ، فى سادس عشرى ذى الحجة . فلم يعجب الملك العادل ذلك ، وخاف من تمكن الملك الجواد .

و [فيها] قصد التتار بغداد ، فبعث إليهم الخليفة جيشا ، قُتل كثير منه ، وفرّ من بقى .

وفيها مات قاضى القضاة بدمشق ، [وهو] شمس الدين أبو البركات يحيى بن هبة الله بن الحسن ابن سنى(٢) الدولة الشافعى ، فى خامس ذى القعدة . فأعيد فى سابعه قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل الخُوَيّى(٣) ، ورتب مراكز الشهود — وكانوا أولا بدمشق ورّاقين يورقون المكاتيب وغيرها ، فإذا فرغوا من الوراقة مشوا إلى بيوت العدول ، فيشهدونهم على ما يريدون ؛ واقتدى بعد ذلك أهل القاهرة ومصر بهم .

وفيها تولى الشريف شمس الدين محمد بن الحسين الأرموى قضاء العسكر ونقابة الأشراف بديار مصر ، وقرئ سجله بجامع مصر ، بحضرة الأمير جمال الدين [موسى] بن يَغْمُور(٤) والفلك

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بأرض فلسطين ، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ . وهى بلدة رومانية الأصل ، بنيت لذكرى الإمبراطور (Vespasian) ، وأطلق عليها اسم (Flavia Neapolis) ، ومنه اشتقت التسمية العربية (Enc. Isl. Art. Nablus) . وفى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٢٣ — ٧٢٤) قصة لطيفة فى أصل اسم نابلس ، ونصها : "(ص ٧٢٣) وسئل شيخ من أهل المعرفة ، من أهل نابلس ، لم سميت بذلك ، فقال إنه كان هاهنا واد فيه حية ، قد امتنعت فيه ، وكانت عظيمة جدا ، وكانوا يسمونها بلغتهم لس . فاحتالوا عليها حتى (ص ٧٢٤) قتلوها وانتزعوا نابها ، وجاءوا بها فعلقوها على باب هذه المدينة ، فقيل هذا ناب لس ، أى ناب الحية . ثم كثر استعمالها حتى كتبوها متصلة ، نابلس هكذا ، وغلب هذا الاسم عليها ..." .

(٢) كذا فى س ، وبغير ضبط . وقد ترجم هذا الاسم فى (Blochet : Op. cit. p. 431) إلى (Sani) .

(٣) كذا فى س ، بضم الخاء وفتح الواو فقط ، وأهل النسبة إلى خوى ، وهى بلد من أعمال آذربيجان ، ينسب إليه الثياب الخوية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٠١ ، وما بعدها) .

(٤) ضبط هذا الاسم ، وأضيف ما بين القوسين ، بعد مراجعة العينى (عقد الجمان ، ص ٢١٢ ، فى (Rec. Hist. Or. II. 1. ؛ وأبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٩٠ ، فى Rec. Hist. Or. V. ؛

المسيرى[١] ، وفيها بطلت الفلوس . وفيها سار الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول من اليمن يريد مكة ؛ فأحرق الأمير أسد الدين جغريل[٢] ما كان معه من الأثقال ، وخرج هو ومن معه من مكة فى سابع شهر رجب ، قبل وصول ملك اليمن بيومين . فالتقوا بين مكة والسرين ، فانهزم العرب أصحاب الشريف راجح ، وأُسر الأمير شهاب الدين بن عَبْدَان[٣] من أمراء اليمن . فقيده الأمير جغريل ، وبعث به إلى القاهرة ؛ وسار هو إلى المدينة النبوية . فبلغه موت السلطان الملك الكامل ، فسار بمن معه إلى القاهرة ، فدخلوها فى أثناء شهر شعبان متفرقين . وأقام عسكر اليمن بمكة .

***

سنة ست وثلاثين وستمائة . فيها قبض الملك الجواد على صفى الدين بن مرزوق ، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار ، وسجنه بقلعة حمص ، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء . وأقام الجواد بدمشق خادما لزوجته[٤] يقال له الناصح ؛ فصادر الناس ، وأخذ منهم مالا كبيرا .

وقبض [الملك الجواد] على عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ[٥] ، ثم خاف من أخيه فخر الدين . وقلق من ملك دمشق ، وقال : " إيش أعمل بالملك ؟ باز وكلب أحب إلىّ من هذا " . ثم خرج إلى الصيد ، وكاتب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، على أن يعوضه عن دمشق بحصن كيفا وسنجار . فسر الصالح بذلك وتحرك للسير إلى دمشق .

---

(١) كان الفلك هذا وزيرا للملك العادل ، واسمه فلك الدين عبد الرحمن المسيرى ، انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٥١) ، وقد تقدم ذكر هذا الوزير بالقسم الأول من هذا الجزء . انظر الفهرس .

(٢) فى س "جغريل" ، هنا وفى سطر ٥ أيضا . (انظر ص ٢٥٠ ، حاشية ٢) .

(٣) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 432) . (٤) فى س "لزوجته".

(٥) كان عماد الدين بن الشيخ قد رجع من دمشق إلى القاهرة (انظر ص ٢٧٣ ، سطر ٤) ؛ ويتضح مما هو وارد هنا ، ومما جاء فى ص ٢٧٦ ، سطر ٧ ، أنه ظل متنقلا بين العاصمتين الشامية والمصرية ، ثم سافر أخيرا إلى دمشق ، وبقى بها حتى وفاته . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص٣١٩ب).

وفيها قدم رسول ملك الروم إلى القاهرة بالعزاء للملك العادل . وفيها أفرج أهل حلب عن حصار حماة ، بعد ما ضاق الأمر على المظفر صاحب حماة ؛ فلما رحلوا عنه هدم قلعة بارين وكانت حصينة .

وفيها استوحش الأمراء الأكابر من الملك العادل ، لتقريبه الشباب والترابى[1] ، وإعطائهم الأموال والإقطاعات ، والاقتداء (٧٢ ب) بآرائهم ، ولكثرة[2] تحجبه ، واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة . فطمع الناصر داود صاحب الكرك فى ملك مصر ، فسار إليها ومعه تقادم فاخرة : ما بين جوارى جنكيات[3] ، وعوديات ورقاصات ، وأوانى للشرب بديعة . فخرج العادل إلى لقائه فى ثامن شوال ، وأكرمه . وقدّم له الناصر ماانتخبه له من الجوارى والأوانى وغيرها ، فصادف منه[4] الغرض ، وعوضه عنه بأمثاله . ولازم الناصر القيام بخدمة العادل والإقامة فى بابه : فتارة يعمل حاجب الباب ، وتارة أستادارا ، وتارة دوادارا ، ليدخل فى كل وقت عليه ، ويتوصل متى شاء إليه ، وهو يظن أنه يستميل الأمراء عن العادل إلى جهته . فلما تمكن [الناصر داود] منه أوهمه من الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، بأنه قد اتفق مع

(١) أطلق هذا اللفظ أيام الدولة الفاطمية بمصر على الأطفال من أسرى الحروب ، إذا كان يدفع بهم ” إلى الأستاذين فيربونهم ، ويتعلمون الكتابة والرماية ، ويقال لهم الترابى ، وفيهم من صار أميرا من صبيان خاص الخليفة ...“ . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤) .

(٢) فى س ”وكثره“.

(٣) فى س ”جنكيات“ ، وبغير ضبط . والجنكيات الجوارى اللاتى يلعبن على الجنك ، وهو من آلات الطرب ، وأصل اللفظ فارسى معرب . (محيط المحيط) . وقد ترجم (Blochet : Op. cit. p. 433) لفظ الجنكيات وما يتلوه بالآتى : "des jeunes esclaves joueuses de harpe et de luth, et des danseuses" . والجنكى بكسر الجيم ، لاعب آلة الجنك أو غيرها من آلات الموسيقى ؛ وقد أطلق لفظ الجنكى أيضا ، فى عصر المماليك بمصر ، على رقاص المتنديات والأفراح ، وجمعه جنك . وكان أولئك الرقاصون من غلمان وشبان الأرمن ، واليهود واليونان والترك ، وبعض ثيابهم من لبوس الرجال ، وبعضها من لبس النساء ؛ وكانوا يرسلون شعورهم ويضفرونها . وفى عصر الحملة الفرنسية على مصر كان لفظ الجنك يطلق على بنات اليهود اللاتى احترفن تعليم الرقص ، وكن يخرجن فى زفات العرس أحيانا ، راكبات ظهور الحمير ، ويلعبن على الرباب والدف . (Dozy. Supp. Dict. Ar.) .

(٤) الهاء هنا عائدة على الملك العادل .

الملك المعز مجير الدين [يعقوب[١]] ، وأمال إليه عدّة من الأمراء وحسّن له القبض عليه ، فانخدع له [الملك العادل] ، وقبض على فخر الدين واعتقله بقلعة الجبل[٢] ، وأخرج عمه الملك المعز من أرض مصر ، ومعه أخوه الأمجد تقى الدين عباس .

فلما تم للناصر ما أراد خيّل[٣] العادلَ من الملك الجواد نائبه على دمشق ، بأن الأمراء قد مالت إليه ، وقام بأمره الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ . فبلغ ذلك العماد ، فخاف أن يتفق عليه ما اتفق على أخيه ؛ واجتمع بالملك العادل ، والتزم له بإحضار الملك الجواد إلى طاعته بمصر . فسيره [العادل] من القاهرة ، ليحضر الملك الجواد من دمشق ؛ فأكرمه الجواد . وأخذ العماد فى التحدث معه فى المسير إلى الملك العادل ، فسوّف به وماطله ، حتى فطن العماد بامتناعه ؛ فأحضر حينئذ الولاة والمشدين والنوّاب والدواوين[٤] بدمشق وأعمالها ، وقال لهم : " قد عزل السلطانُ الملك العادل الجوادَ عن نيابة دمشق ، فلا تدفعوا إليه مالا ، ولا تقبلوا له قولا " . فعز ذلك على الملك الجواد ، ووكل بعماد الدين ، وسجنه بقلعة دمشق . وتقرر الأمر بين الملك الجواد و بين المجاهد ، صاحب حمص[٥] ، أن يكونا يدا واحدة ؛ ووافقهما الأمير عماد الدين بن قلج ، نائب الملك الجواد بدمشق . فرأوا أن أمرهم لا يتم إلا بقتل العماد

---

(١) كان المعز مجير الدين يعقوب ، وهو أحد إخوة الملك الكامل ، وعم الملك العادل ، مقيما بمصر منذ قدم اليها ، هو وأخوه تقى الدين عباس سنة ٦٢٨ هـ ، فى عهد الملك الكامل . (انظر ص ١٩١ ، سطر ١٩ ؛ ص ١٩٢ ، سطر ١ ؛ ص ٢٤١ ، سطر ٧ ؛ وما يلى هنا أيضاً ، سطر ٣) .

(٢) يقول ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٤ ب) ان العادل قبض على مجير الدين بن شيخ الشيوخ ، لا فخر الدين ، وأن جريمته كانت حسبما أخبر بها الناصر داود ، مكاتبة الصالح نجم الدين أيوب ، واستحثاثه إياه على سرعة القدوم بعساكره إلى الديار المصرية .

(٣) بغير ضبط فى س . وفى محيط المحيط خيل فلان عن القوم ، أى كعّ عنهم ، ومعناه جبن وتخوّف .

(٤) الدواوين جمع ديوان ، وكان يطلق على موظفى الدواوين الحكومية عامة ، من باب إطلاق اسم المكان على القائم بأعماله ، انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . على أن استعمال المقريزى لهذا اللفظ هنا يدل على أن "الدواوين" كانوا من كبار الموظفين ، كالولاة والنواب والمشدين .

(٥) فى س "دمشق" ، وخطأ المقريزى هنا ظاهر .

ابن شيخ الشيوخ : فبعثوا إلى نوّاب الإسماعيلية[(١)] فى ذلك ، ودفعوا إليهم مالا وقرية[(٢)] ؛ فسيروا فداويين[(٣)] قتلاه على باب الجامع ، فى سادس عشرى جمادى الأولى . وأشيع أنهما غلطا فى قتله ، وإنما كانا يريدان قتل الملك الجواد ، فإنه كان كثير الشبه به . فبلغ ذلك الملك العادل فشق عليه[(٤)] .

---

(١) الإسماعيلية فى الأصل فرقة من الشيعة ، سميت بذلك الاسم كما عرفت أيضا بالسبعية ، لأن أصحابها اعتبروا الإمامة منتهية عند الإمام السابع ، وهو إسماعيل بن جعفر الصادق ، المتوفى بالمدينة سنة ١٤٣ هـ ، فى حياة أبيه . نال أتباع تلك الفرقة الدينية السياسية ، كما نال أتباع نظائرها من فرق الشيعة ، كثير من الضر والأذى ، على يد خلفاء الصدر الأول من الدولة العباسية . فاستعانوا بالتقية ، وتلمسوا فى الجهات البعيدة عن مركز الخلافة ملجأ ، مثل ذلك لجوء أصغر ولدى الإمام إسماعيل ، واسمه على ، إلى الشام ثم بلاد المغرب . وكان أكبر ولدى الإمام إسماعيل ، واسمه محمد ، قد لجأ أيضا إلى جهة دماوند قرب الرى ، وتنقلت سلالته وأتباعهم بين بلاد خراسان ، ثم كندهار ، ثم الهند ، حيث توجد حتى الآن بقايا إسماعيلية ، يرأسها الزعيم الهندى أغا خان .

ومن النابهين فى تاريخ الإسماعيلية الأول عبد الله بن ميمون القداح الأهوازى ، المتوفى سنة ٢٦٩ هـ ، وهو الذى من سلالته مؤسسو الدولة الفاطمية بالمغرب ، ثم بمصر . ومن المشهورين أيضا حسن بن الصباح ، المتوفى سنة ٥١٨ هـ ، وهو مؤسس شعبة الإسماعيلية ، المعروف أتباعها باسم الحشيشيين (Assassins) . وقد تفرع عن هذه الشعبة ، التى أسسها ابن الصباح فى قلعة ألَمُوت (Alamut) ، فى الشمال الغربى من بلاد فارس ، فرع بالشام مركزه الأول حلب ، وهذا الفرع الشامى هو الذى يقصد المقريزى هنا - وتختلف شعبة ابن الصباح عن الإسماعيلية الأولى فى نظامها وأساليبها ، فقد كانت تلك الشعبة الجديدة عبارة عن جمعية سرية ، على أعضائها الطاعة العمياء للرئيس الأكبر ، والاغتيال والقتل أهم أساليبها . راجع (Enc. Isl, Arts, Assassins & Ismailiya)

(٢) كذا فى س ، بنقط كاملة ، وبغير ضبط .

(٣) فى س "فداوين" . والفداوى فى نظام جماعة الحشيشيين هو الشخص الذى يناط به اغتيال من تقرر الجماعة قتله من أعدائها (Enc, Isl, Art, Fida'i) . هذا والمفهوم من عبارة المقريزى هنا أن تلك الجماعة كانت تؤجر أحيانا للقتل ، فى مقابل مبلغ من المال ، دون أن تكون لها مصلحة أخرى .

(٤) تختلف عبارة المقريزى هنا ، بصدد ما حدث لعماد الدين بن شيخ الشيوخ ، عما يقابلها فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٠ ب ، وما بعدها) ، فى كثير من التفاصيل . وهذا ما جاء فى ابن واصل المقابلة بين الروايتين ، والمقارنة بين المرجعين ، ونصه مصححا : " (٣٢٠ ب) .... ولما تحقق الملك العادل بن الملك الكامل ، صاحب مصر ، استقلال ابن عمه الملك الجواد بن مودود بملك دمشق ، وعصيانه بها ، أحضر أولاد شيخ الشيوخ الأربعة ، وهم مجير الدين وعماد الدين ومعين الدين وكمال الدين ، وقال [لهم] : أنتم ضيعتم على ملك دمشق ، فإن أبى الملك الكامل فتحها ، وتوفى وهو مالكها ، فسلمتم دمشق وخزائنها إلى الملك الجواد ، فتغلب على (٣٢١ أ) دمشق ، وضيع الخزائن ، وما أعرف عود دمشق إلىّ ؛

وفى العشرين من شوال ورد الخبر بوصول عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، صحبة ولده الملك المغيث جلال الدين عمر ، إلى جِينِين[1] . فجمع الملك العادل والملك الناصر الأمراء وتحالفوا على قتال الصالح : وخرج الناصر داود من القاهرة ، فى تاسع ذى القعدة ، لقتال الصالح ؛ وجهز العادل جماعة من الأمراء ، وعدّة من العساكر بديار مصر ، لتأخذ دمشق . وقدّم [الملك العادل] إلى الملك الجواد رسولا بكتاب فيه أنه (١٧٣) يعطيه قلعة الشوبك وبلادها ، وثغر الإسكندرية ، وأعمال البحيرة وقليوب ، وعشر قرى من بلاد الجيزة بديار مصر ، لينزل عن نيابة السلطنة بدمشق ؛ ويحضر إلى قلعة الجبل ، ليعمل برأيه فى أمور الدولة . فلما ورد

= وانتزاعها من يد الملك الجواد ، إلا منكم ... فضمن عماد الدين بن شيخ الشيوخ رجوعها للملك العادل ... فسير الملك العادل عماد الدين بن شيخ الشيوخ لهذا الأمر إليهم (كذا) ... ولما وصل عماد الدين إلى دمشق ، التقاه الملك الجواد ، فأنزله عنده فى القلعة . فطالبه عماد الدين بتسليم دمشق إلى السلطان الملك العادل ، وأعلمه أنه إن لم يسلم دمشق إليه ، نزلت العساكر المصرية إليه ، وملكوها منه عنوة ، وقبض عليه واعتقل . وإن سلمها قبل أن تنزل العساكر إليه أعطى عوضا عنها خبزا جيدا كثيرا ، بالديار المصرية ، وأحسن إليه . فأجابه الملك الجواد بجواب مغلط (كذا) . وكانت المماليك الأشرفية ، ومقدمهم عز الدين أيبك الأسمر ، قد رحلوا من دمشق على حمية ، بعد رجوع الملك الجواد إلى دمشق ، وساروا إلى الملك العادل ، وخدموا عنده . ولما علم الملك الجواد تصميم الملك العادل على انتزاع دمشق منه ، وعلم أنه لا طاقة له بقتاله ، وأنه إن سلم دمشق إلى الملك العادل لم يعطه إلا خبزا بالديار المصرية ... فعند ذلك سير [الملك الجواد] الشيخ كمال الدين بن طلحة إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، يطلب منه أن يعوضه عن مدينة دمشق بسنجار والرقة وعانة ، ويسلم هو دمشق إليه ... فمضى كمال الدين بن طلحة بذلك إلى الملك الصالح ، فأجاب الملك الصالح إلى ذلك ، وحلف لابن عمه الملك الجواد على العوض المذكور ؛ وزاده الحديثة (انظر الصفحة التالية ، سطر ٨) ، وجعلها باسم مملوك من مماليك الملك الجواد ، يقال له رزيق (فى الأصل وريق) ، وكان أخص مماليكه به . ولما وقع الاتفاق بينهما على ذلك ، توجه الملك الصالح إلى دمشق . فلما علم الملك الجواد تقربه (كذا) منه ، خاف الملك الجواد من عماد الدين بن الشيخ أن يفسد ما بينه وبين الملك الصالح ، فلا يحصل على ماوقع التقرير (٣٢١ ب) عليه ، من العوض الذى طلبه منه . فدس [الملك الجواد] على عماد الدين رجلا وقف (فى الأصل وفق) له بقصة متظلما ، فمد يده عماد الدين إلى القصة ليأخذها من ذلك الرجل ، فضربه ذلك الرجل بسكين فقتله . ثم قبض [الملك الجواد] على ذلك الرجل ، واعتقله مدة ، ثم أطلقه . وأظهر الملك الجواد الحزن الكثير على قتل عماد الدين ... وجهز الملك الجواد عماد الدين ، وحملت جنازته إلى الجامع بدمشق ، وصلى عليه فيه . وتأسف الناس وحزنوا لقتله ، رحمه الله" .

(١) تقع هذه البليدة بين نابلس وبيسان ، وهى من أرض الأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٨٠) .

عليه ذلك أوهمه نائبه عماد الدين قلج من أنه متى دخل مصر ، قبض عليه الملك العادل ، وطالبه أولاد عماد الدين ابن شيخ الشيوخ بدمه ؛ فامتنع من تسليم دمشق .

فبرز الملك العادل من القاهرة يريد دمشق ، يوم الثلاثاء سلخ ذى الحجة ، ونزل بلبيس . فخاف الجواد ، وعلم بعجزه عن مقاومة العادل ؛ فبعث كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله [المشهور بابن العديم[١] العقيلى ، و] ابن طلحة[٢] خطيب جامع دمشق ، إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، صاحب حصن كيفا وديار بكر وغيرها من بلاد الشرق ، يطلب منه أن يتسلم دمشق ، ويعوضه عنها سنجار والرقة وعانة . فوقع ذلك من الملك الصالح أحسن موقع ، وأجابه إليه ، وزاده الجُدَيْدَة[٣] ، وحلف له على الوفاء .

ورتب [الملك الصالح] ابنه الملك المعظم توران شاه على بلاد الشرق ، وألزمه الإقامة بحصن كيفا ؛ وأقام نوابا بآمد وديار بكر ؛ وسلم حران والرها وجميع البلاد الجزرية للخوارزمية ، الذين فى خدمته ؛ وطلب نجدة من الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل — وكان قد صالحه — ، فبعث إليه [بدر الدين] نجدة .

وسار [الملك الصالح] من الشرق يريد دمشق ، فقطع الجوادُ اسمَ الملك العادل من الخطبة ، وخطب للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، وضرب السكة باسمه . ودخل الصالح إلى دمشق ، فى مستهل جمادى الأولى ، ومعه الجواد بين يديه بالغاشية . وقد ندم [الجواد] على ما كان منه ، وأراد أن يستدرك الفائت فلم يقدر ؛ وخرج من دمشق والناس تلعنه فى وجهه ، لسوء أثره فيهم . وبعث الصالح إليه برد أموال الناس إليهم ، فأبى وسار . و[كان قد] وصل مع الصالح أيضا الملك المظفر صاحب

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ١٨ .

(٢) انظر ما سبق بالصفحة السابقة ، سطر ١٦ ، وكذلك ما يلى ، ص ٣٩٦ ، بسطر ١ .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى اسم لقلعة فى كورة بين النهرين ، التى بين نصيبين والموصل ، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٢) . هذا وفى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢١ ا) أن البلدة التى زادها الملك الصالح أيوب هى الحديثة ، وهى واردة هناك بغير نقط البتة . والحديثة اسم يطلق على مواضع عدة : منها حديثة الموصل ، وتقع على نهر دجلة ، قرب الزاب الأعلى ؛ وحديثة الفرات ، وتعرف بحديثة النورة ، وهى على بضعة فراسخ من الأنبار ؛ والحديثة أيضا من قرى غوطة دمشق ، ويقال لها حديثة جرش . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ — ٢٣٦) .

حماة ، وقد تلقاه الجواد ، فكان دخوله يوما مشهودا ، فاستقرّ بقلعة دمشق .

وخرج الجواد إلى بلاده ، فكانت مدة نيابته دمشق عشرة أشهر وستة عشر يوما ، صرف فيها الأموال التي كانت في خزائن الملك الكامل كلها ، وكانت تزيد على ستمائة ألف دينار مصرية ، سوى القماش وغيره ، وسوى ما ظلم فيه الناس من التجار والكتاب ، وسوى ما أخذه من صفي الدين بن مرزوق لما صادره ، وكان ينيف على خمسمائة ألف دينار .

فلما استقرّ الملك الصالح بدمشق سار المظفر إلى حماة ؛ وقدمت الخوارزمية ، فنازلوا مدينة حمص — وهو[١] معهم — مدة ، ثم فارقوها بغير طائل ؛ وعادوا إلى بلادهم بالشرق . وقد زوج الملك الصالح أخته من أمه ، وأبوها الفارس قُلَيْب[٢] مملوك أبيه الملك الكامل ، لمقدّم الخوارزمية (٧٣ ب) الأمير حسام الدين بركه خان .

وفي أثناء ذلك تواترت رسل المظفر صاحب حماة إلى الملك الصالح يستحثه على قصد حمص ؛ وكتب الأمر من مصر تستدعيه إلى القاهرة ، وتعده بالقيام بنصرته . فبرز [الملك الصالح] من دمشق إلى البَثَنِيّة[٣] .

وكانت الخوارزمية ، وصاحب حماة ، على حصار حمص ؛ فأرسل [المجاهد أسد[٤] الدين] شيركوه مالا كثيرا فرّقه في الخوارزمية ، فرحلوا عنه إلى الشرق ؛ ورحل صاحب حماة إلى حماة .

---

(١) الضمير عائد على الملك المظفر ، صاحب حماة . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٢ ب) ؛ وأيضا سطر ١٤ هنا .

(٢) في س "قلب" ، وبغير ضبط ؛ انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٠ ب) ، و (Blochet : Op, cit, p, 437)

(٣) بغير ضبط في س ، واسمها أيضا البثنة ، وهي إحدى نواحي دمشق ، بينها وبين أذرعات . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٩٣) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٢ ب) .

وعاد الملك الصالح إلى دمشق طالبا مصر ، وخرج منها إلى الخربة[١] وعيّد بها عيد الفطر ، وعسكر تحت ثنية العُقاب[٢] ؛ وقد تحير فلا يدرى أيذهب إلى حمص أم إلى مصر ، ومازال بمعسكره إلى أول شهر رمضان . فعاد إلى دمشق ، وتقدم إلى الأمير حسام الدين أبى على بن محمد بن أبى على [الهذبانى][٣] ، أستاداره بدمشق ، أن يرحل بطائفة من العسكر إلى جينين ، فرحل ؛ ولم يزل [هو] تحت عقبة الكرسى ، على بحيرة طبرية ، إلى آخر رمضان .

فلما وردت الأخبار بحركة الملك الصالح إلى القاهرة ، خرج من أمراء مصر سبعة عشر أميرا — منهم الأمير نور الدين على بن فخر الدين عثمان الأستادار ، والأمير علاء الدين بن الشهاب أحمد ، والأمير عز الدين أيبك الكربدى العادلى ، والأمير ، عز الدين بلبان المجاهدى ، والأمير حسام الدين لؤلؤ السعودى ، والأمير سيف الدين بشطر الخوارزمى ، والأمير عز الدين قضيب البان العادلى ، والأمير شمس الدين سنقر الدنيسرى[٤] — فى عدة كثيرة من أتباعهم وأجنادهم ، وخلق من مقدمى الحلقة[٥] والمماليك السلطانية[٥] . وساروا يريدون الملك الصالح بدمشق .

---

(١) بغير ضبط فى س ، ويقصد المقريزى هنا خربة اللصوص (انظر مايلى ، ص٢٨٢ ، سطر ١١)، وهى واقعة على الطريق بين دمشق وبيسان . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٦٢ ، فى . Rec. Hist. Or. V.)

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى ثمر فى طريق المسافر من دمشق إلى حمص . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٩٣٦) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٢ ا) . وكان الملك الصالح قد عين هذا الأمير أتابكا لولده الملك المعظم توران شاه ، فلما عزم على الذهاب إلى الديار المصرية ، استدعاه إليه بدمشق ، وأعاده إلى أستاداريته ، كما كان من قبل ، ووثق به فى كل الأمور . هذا وكان من رجال الملك الصالح فى ذلك الوقت أيضا جمال الدين بن واصل ، صاحب كتاب مفرج الكروب ، وقد رافق العسكر الصلاحى إلى مصر ؛ وكذلك بهاء الدين زهير ، الشاعر المشهور ، وكان يتقلد عند الملك الصالح منصب كاتب الإنشاء . (ابن واصل : نفس المرجع والصفحة ، وأيضا ص ٣٢٣ ب) .

(٤) صححت هذه الأسماء ، وكل نقط بعضها ، بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص٣٢٢ب) ، وكذلك (Blochet : Op. cit p.p. 438-439) . ويلاحظ أن الأسماء الواردة هنا تزيد بكثير عما ورد فى ابن واصل ، وربما استقى المقريزى هنا من كتاب سير الآباء البطارقة . راجع (Blochet : Op. cit. p.p. 438. N. 5.)

(٥) كانت الجنود السلطانية ، زمن الأيوبيين والمماليك بمصر ، مكونة من طبقتين : وهما المماليك السلطانية وأجناد الحلقة . وقد وصفهما القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥ — ١٦) ، فقال إن المماليك السلطانية كانت عند السلطان " أعظم الأجناد شأنا ، وأرفعهم قدرا ، وأشدهم إلى السلطان قربا ، وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة" . أما أجناد الحلقة فهم "عدد جم ، وخلق =

وذلك أن الملك العادل تقدّم بتوجه العسكر إلى الساحل ، وقدّم عليه الركن الهيجاوى ، وأنفق فيهم . فلما نزلوا بلبيس اختلفوا ، وخامر جماعة من الأمراء على العادل ، وعزموا على المسير إلى الملك الصالح . فبعث العادل إليهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وبهاء الدين مَلكيشو(١) ، ليطيب خواطرهم ، فلم يجيبوا . وخرج من القاهرة عدّة من الحلقة ، ومعهم طائفة ، ومنعوا من غلق باب النصر ، وساروا طائفة بعد طائفة على حَمِيَّة .

فَبَطّق(٢) العادل إلى من بقى معه من الأمراء الأكراد بمحاربة من خامر عليه ببلبيس ، قبل قدوم هؤلاء عليهم . فاقتتل الأكراد مع الأتراك ببلبيس ، [و] انكسر الأتراك الخامرون(٣) ، وأخذ منهم أمير ، وانهزم باقيهم وهم فى طلبهم إلى ناحية سُنَيْكَة . فلحق بهم من خرج من الحلقة ومضوا جميعا إلى تل العجول ، وعادت الخزانة التى كانت معهم سالمة إلى القاهرة . ثم بعثوا يطلبون من العادل العفو ، فأمّنهم وحلف لهم ، فلم يرجعوا ، وساروا إلى الملك الصالح . فلما بلغوا غزة أمر الملك الصالح أستاداره بالعود إلى خربة اللصوص ، وخرج [هو] ببقية عسكره من دمشق ، لليلتين بقيتا من شهر رمضان .

= كثير ، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند ، من المتعممين وغيرهم ، بواسطة النزول عن الإقطاعات ... ولكل أربعين نفسا منهم مقدم منهم ، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر [فى الحرب] ، كانت مواقفه معهم ، وترتيبهم فى موقفهم إليه . ومن الأجناد طائفة ثالثة ، يقال لهم البحرية ، يبيتون بالقلعة ، وحول دهاليز السلطان فى السفر ، كالحرس . وأول من رتبهم ، وسماهم بهذا الاسم ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ...".

(١) كذا فى س ، بفتحة على الميم فقط . وقد ترجم (Blochet : Op. cit. p. 440) هذا الاسم إلى (Malkishou)

(٢) فى س "فبطق" ، والمقصود أن العادل أرسل بطاقة — أى رسالة ، إلى الأمراء ... ولفظ بطاقة ، وجمعه بطائق ، معرب الكلمة اليونانية بتاكيون. (محيط المحيط) . انظر أيضا القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٢٣١ ، وما بعدها) .

(٣) فى س "الخامرين" .

(٤) بغير ضبط فى س ، أو فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٧١) . وهى قرية بالشرقية ، بين بلبيس والعباسة ، على الشاطئ القبلى لترعة بحطيط ؛ وإليها ينسب شيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، قاضى قضاة الشافعية فى دولة السلطان الأشرف قايتباى ، ومؤلف كتاب المنهج وشرح المنهاج فى مذهب الإمام الشافعى . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٢ ، ص ٦٢ — ٦٣) .

ونزل [الملك الصالح] الحربة ، ووصل الأمير نور الدين بن فخر الدين بمن معه ، فسر بهم سرورا كثيرا . وأخذوا فى تقوية عزمه على قصد مصر ، فرحل واستولى على نابلس والأغوار وأعمال القدس والسواحل ؛ و بعث ابنه الملك المغيث فتح الدين عمر إلى دمشق ؛ وأقطع من قدم عليه من أمراء مصر نابلس وأعمالها ، ليتقووا بِمَغَلِّها . فخرج الناصر[1] داود من مصر ، وصار إلى الكرك .

فانزعج الملك العادل وأمه لقدوم الصالح انزعاجا عظيما ، وخافاه[2] خوفا كبيرا ، واضطربت مصر اضطرابا زائدا وخرج فخر القضاة نجم الدين بن بصاقة[3] فى الرسالة إلى الملك الصالح من الكرك عن الناصر داود : بأنه فى نصرة الملك الصالح ومعاونته ، و يسأله دمشق وجميع ما كان لأبيه . فلم تقع موافقة على ذلك ، فسار [الناصر] إلى الملك العادل ، ونزل بدار الوزارة من القاهرة ، ليعينه على محاربة أخيه الملك الصالح .

فقدم فى ذى الحجة الصاحب محيى الدين بن الجوزى ، برسالة الخليفة إلى الملك الصالح ، ليصالح أخاه الملك العادل ؛ فأجَلّ [الملك الصالح] قدومه إجلالا (٧٤ ا) كثيرا ومع ذلك فإن كتب الأمراء — وغيرهم — ترد فى كل قليل على الملك الصالح من مصر ، تعده بالقيام معه ، وأن البلاد فى يده ، لا تفاق الكلمة على سلطنته .

وفيها مات المنصور ناصر الدين أرتق بن أرسلان التركمانى الأرتقى ، صاحب ماردين ، — قتله ابنه وهو سكران ، واستولى بعده على ماردين .

وفيها وقعت بين جرم وجذام وثعلبة بالشرقية حروب قُتِل فيها كثير منهم ، وقتل شيخهم شمخ بن نجم[4] . فجرّد الملك العادل إليهم الأمير بهاء الدين بن ملكيشو ، ليصلح بينهم . وكان السلطان فى بلبيس ، قد خرج فى سلخ ذى الحجة من قلعه الجبل ، بعساكر مصر .

(١) ليس فيما سبق هنا ، أو فى ابن واصل ، أو غيره من المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ، ما يدل على أن الناصر داود ذهب إلى القاهرة ، قبل مفاوضة الملك الصالح أولا ، كما يستنتج مما يلى ، سطر ٩ .

(٢) فى س "وخافوه" . (٣) بغير ضبط فى س ، واسمه فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٣ ا) فخر الدين نصر الله بن بزاقة .

(٤) فى س "شمخ بن نجم" ، وبغير ضبط ... وأحصى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٦٧ ، وما بعدها) القبائل العربية بنواحى الديار المصرية ، غير أنه ليس بين أسماء القبائل التى أوردها ما يساعد على ضبط هذا الاسم ، أو تعيين القبيلة التى كان منها .

* * *

سنة سبع وثلاثين وستمائة . أهلت والملك العادل على بلبيس بعساكره يريد الشام ، لمحاربة أخيه الملك الصالح . فأقام على بلبيس(١) ، فقصد الأمراء القبض عليه ، وعمل بعضهم دعوة ، وحضر إليه العادل . ففطن بما هم عليه ، فقام [و] دخل الخَرْ بِشْتَه(٢) لقضاء الحاجة ، وخرج من ظهر الخر بشته ، وركب فرسا وساق إلى القلعة . فبعث إليه الأمراء يطلبونه ، فأظهر أنه ما دخل القاهرة إلا لكسرة الخليج(٣) ، وأنه سيعود(٤) إليهم . ثم ألجأته الضرورة حتى خرج إلى العباسة ، في رابع عشرى المحرم ، وقبض على جماعة من الأمراء .

وفي نصف صفر توجه الناصر داود من العباسة إلى الكرك ، وصحبته [الأمير سيف(٥) الدين على] بن قلج ، وجماعة من أمراء مصر . فبلغ العادل عن فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ أنه يكاتب الصالح ، فقبض عليه واعتقله . هذا ومحيي الدين أبو المظفر يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزى آخذ في الإصلاح بين الملوك ، على أن تكون دمشق للصالح [نجم الدين أيوب] ، ومصر للعادل ، وأن يُرَدَّ إلى الناصر داود ما أخذ من بلاده . وكان [محيي الدين(٦) بن الجوزى] مقيما عند الصالح ؛ وابنه شرف الدين يتردد من نابلس إلى مصر في السفارة ، حتى تقارب الأمر . ثم قدم [محيي الدين] إلى مصر ، ومعه جمال الدين يحيي ابن مطروح ، ناظر ديوان الجيوش للملك الصالح ، فأدّيا الرسالة ، وأقاما عند الملك العادل .

(١) يلى هذا في س عبارة مشطوبة بخط مستقيم ، ونصها : "وقدم طايفه إلى طرف الرمل ، ومعه الناصر داود" . ويوجد في ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٥ ب) ما يقابل هذه العبارة ، غير أنها لم تثبت هنا في المتن ، احتراما لإرادة المقريزى .

(٢) في س "الخرشته" بغير ضبط ، وهو لفظ فارسي ، ومعناه هنا الخيمة (Steingass, Pers.-Eng. Dict.).

(٣) كتب المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٧٠ — ٤٧٩) . (انظر أيضا المقريزى نفس المرجع والجزء ، ص٤٩٣ ؛ ج ٢ ، ص١٨٥) فصلا مطوّلا ذكر فيه ما كان يعمل بالقاهرة ومصر يوم كسر الخليج أيام الفاطميين .

(٤) في س " ويعود إليهم " .

(٥) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٠ ب) .

(٦) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٥ ب) .

وكان قد أخذ الصالح يكاتب عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل فى الوصول إليه بنابلس ، و بعث إليه الطبيب سعد الدين الدمشقى ، ومعه حمام ليسرح إليه بالبطائق على جناحها ما يتجدّد فاتفق أمر عجيب : وهو أنه لما وصل [سعد الدين] إلى قلعة بعلبك أنزله الصالح عماد الدين إسماعيل بدار ، و بدّل عوض الحمام [الذى فى قفص[1] سعد الدين] بحمام آخر ، من حمام القلعة ببعلبك وأخذ [الصالح عماد الدين] فى التدبير على أخذ دمشق ، وانتزاعها من يد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ؛ وأرسل جواسيسه سرا إلى ابن أخيه الملك العادل ، بما عزم عليه من أخذ دمشق ، وأنه منتم إليه وفى طاعته ، و إذا ملك دمشق خطب له على منابرها ، وضرب السكة باسمه . وكتب [الصالح عماد الدين إسماعيل] أيضا إلى المجاهد — صاحب حمص — فى معاونته ؛ وهو يواصل كتبه مع ذلك إلى الملك الصالح نجم الدين ، يعده بالوصول إلى نصرته . وشرع [الصالح عماد الدين] فى جمع الرجال ، ففطن بذلك الطبيب سعد الدين ، وكتب البطائق على أجنحة الحمام بهذا الأمر إلى الملك الصالح نجم الدين : فكان كلما سرح [سعد الدين] منها طائرا وقع فى برجه بقلعة بعلبك ، فأتى به البرّاج إلى الملك الصالح عماد الدين . ثم إن الصالح عماد الدين زوّر بطاقة عن الطبيب سعد الدين : فيها "إن المولى الملك الصالح عماد الدين فى الاهتمام المسير إلى المعسكر المنصور ، و إنه باق على الطاعة" ؛ وسرح هذه البطاقة (٧٤ ب) المزوّرة على جناح طائرة من الطيور التى وصلت مع الطبيب سعد الدين فلما وقف عليها الملك الصالح نجم الدين ، ظن أنها من عند رسوله ، فطاب قلبه . ووالى الصالح عماد الدين إرسال البطائق المزوّرة ؛ وكلما سرح الطبيب طائراً ببطاقة وقع فى قلعة بعلبك ، فيصل إلى الصالح عماد الدين .

واتفق مع ذلك أمر آخر من عجيب ما يجرى : وهو أن المظفر صاحب حماة كان منتميا إلى الصالح نجم الدين ، ومهتما بنصرته ، و يخطب له فى بلاده ؛ [وكان] الحلبيون

---

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٦ أ) ، هذا وعبارة السلوك هنا تشبه مايقابلها فى ابن واصل نفس المرجع ٣٢٥ ب — ٣٢٦ أ) ، فى ترتيب الحقائق والتفاصيل . والراجح أن المقريزى استقى هنا من ابن واصل ، غير أنه تعمد تغيير بعض الألفاظ ، وتعديل بعض الجمل .

والمجاهد صاحب حمص معاندين[1] له ، ومساعدين عليه . فعلم المظفر صاحب حماة ما عليه خاله الصالح عماد الدين صاحب بعلبك ، من قصد دمشق ، وموافقة المجاهد صاحب حمص له . وكانت عساكر دمشق مع الصالح نجم الدين [أيوب] على نابلس ، وهم خمسة آلاف ، وليس بدمشق من يحفظها ؛ فخاف الملك المظفر صاحب حماة على دمشق ، وباطن الأمير سيف الدين [على] بن أبى على[2] [الهذبانى] على أنه يظهر الحَرَد[3] [عليه] ويفارقه ، ويوهم أكابر البلد بأن المظفر قد عزم على تسليم حماة إلى الفرنج ، لما حصل عنده من الغبن من المجاورين له ، وأخذ بلاده منه . وقصد المظفر[4] بهذه الحيلة مكيدة صاحب حمص ، وأن الأمير سيف الدين إذا ذهب بالعسكر وأكابر الرعية إلى دمشق أقاموا بها وحفظوها ، حتى يتوجه الملك الصالح إلى مصر ، أو يعود إلى دمشق[5] . فأظهر سيف الدين

---

(١) فى س " معاندون له ومساعدون " ، وإنما تطلب التغيير الوارد بالمتن ، إضافة فعل " كان " بين القوسين ، بالصفحة التالية سطر ٣٠ ، وذلك لانسجام العبارة كلها .

(٢) فى س " بوعلى " ، انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٧ ا) ، وأضيف ما بين القوسين من نفس المرجع والصفحة . وهذا الأمير سيف الدين هو أخو الأمير حسام الدين بن أبى على ، أو ابنه ؛ وقد تقدم ذكره هنا . (انظر ص ٢٨١ سطر ٤ ؛ وكذلك ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٢٨ ا) .

(٣) معنى الحرد هنا الغضب ، والفعل حرد ، وهو لازم ويتعدى بحرف الجر " على " . (محيط المحيط) . (٤) فى س " الصالح " انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٧ ا) .

(٥) عبارة المقريزى هنا ليست واضحة تماما ، وهذا لأنه قصد اختصار ما جاء فى الأصل الذى يرجح أنه نقل منه ، وهو ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٦ ب — ٣٢٧ ا) ، فغير المعنى قليلا . وهذا نص ما ورد فى مفرج الكروب ، مصححا : " قال جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ : ومن الغرائب التى وقعت فى هذه السنة ما نذكره الآن ، وهو أنا كنا قد ذكرنا انتماء الملك المظفر ، صاحب حماة ، إلى ابن خاله السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأنه عادى جيرانه كلهم بسبب الانتماء إليه ، وإلى والده من قبله . وبلغه أن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بعلبك ، قد اتفق هو والملك المجاهد صاحب حمص ، على قصد دمشق وأخذها من الملك الصالح نجم الدين أيوب . وتحقق [المظفر] أن الملك الصالح مقيم بنابلس فى العساكر كلها ، وأنه لم يترك بدمشق مع ولده الملك المغيث [عمر] عسكرا يحفظها ، وأنه متى قصدها صاحب حمص وصاحب بعلبك (٣٢٧ ا) أخذت لا محالة ، فرأى [المظفر] من المصلحة أن يسير جماعة من عسكره وأهل بلده يحفظونها . وكان الأمير سيف الدين على بن أبى على الهذبانى غالباً على أمره كله ... فاتفق الملك المظفر مع سيف الدين على بن أبى على ، أن يظهر سيف الدين الحرد على الملك المظفر =

الغضب على المظفر ، وأخذ قطعة من العسكر ، ومن أكابر حماة ؛ وخرج فسار حتى نزل على حمص ، عند بحيرة قدس . فلم يخف على المجاهد صاحب حمص ما دبره المظفر من مكيدته ، وخرج من حمص ، و بعث إلى الأمير سيف الدين يريد الاجتماع به . فأتاه [سيف الدين] منفردا ، وأعلمه بأنه كره مجاورة المظفر ، لما هو عليه من الميل للفرنج ، والعزم على تسليمهم حماة . فأظهر له [الملك المجاهد] البشر ولاطفه ، واستدعاه إلى ضيافته بداخل حمص . فلما صار به إلى القلعة ، استدعى أصحابه لينزلوا فى البلد ، فدخل بعضهم وامتنع بعضهم من الدخول إلى حمص . فلما تمكن المجاهد من الأمير سيف الدين قبض عليه ، واعتقله هو ومن دخل من أصحابه ، وفرّ الباقون . فعاقب [المجاهد] من صار فى قبضته أشدّ العقوبة ، واستصفى أموالهم ، وما زال بسيف الدين حتى هلك[1] . فضعف المظفر لتلف[2] رجال عسكره .

وسار الصالح عماد الدين — ومعه المجاهد— إلى دمشق فى جمع كبير ، وأخذاها وأظهرا طاعة الملك العادل (١٧٠ ا) صاحب مصر ؛ وكان ذلك فى سابع عشرى صفر . ثم ملكا قلعة دمشق ، واعتقلا المغيث بن الصالح نجم الدين..

فبلغ ذلك الصالح وهو بنابلس ، فكتم الخبر ، وقدّم الأمير حسام الدين محمد بن أبى على[3] الهذبانى أستاداره فى جماعة ، وسار بعده يريد دمشق . فلما وصل ابن أبى[4] على إلى الكسوة علم بأخذ دمشق من يدهم[5] ، فرجع إلى الصالح — وقد نزل بيسان— فأعلمه الخبر ،

= ومفارقته ، ويوهم سيف الدين أكابر حماة بأن الملك المظفر قد عزم على تسليم حماة للفرنج ، لما قد حصل عنده من الغبن من إساءة المجاورين له ، وقصدهم أخذ بلده منه . وقصد الملك المظفر وسيف الدين ، بهذا الذى اتفقا عليه ، أن تتم هذه الحيلة على الملك المجاهد صاحب حمص ، فلا يتعرض لسيف الدين ، ولا للعسكر الذى معه ، ولا لأكابر حماة ، الذى (كذا) معه أيضاً ، حتى يمضوا إلى دمشق ، فيحفظوها للملك الصالح نجم الدين أيوب إلى أن يملك الديار المصرية ، ويرجع إلى دمشق ".

(١) كان ممن وقع فى قبضة الملك المجاهد أيضاً الحكيم زين الدين سعد الله بن سعد الله بن واصل ، وهو ابن عم مؤلف مفرج الكروب . (انظر ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٢٨ ا) .

(٢) فى س « لتلاف » . (٣) و (٤) فى س « بوعلى » .

(٥) كذا فى س ، وعبارة « من يدهم » ، غير لازمة ، على أنها أبقيت محافظة على المتن .

وسار معه حتى وصل القصير[1] المعينى من الغور فاشتهر عند العسكر أخذ دمشق ، لورود مكاتبات الصالح عماد الدين إليهم ، باستمالتهم إليه . ففسدت نياتهم ، وطمعوا فى الملك الصالح نجم الدين ، لتلاشى أمره ، وفارقوه . فبقى (الصالح نجم الدين) فى دون المائة من أمرائه وأجناده ؛ وتركه من كان معه من أهل بيته وأقاربه ؛ وتركه أيضا بدر الدين قاضى سنجار — وكان أخص أصحابه . وصاروا كلهم إلى دمشق ، وقد أيسوا من أن يقوم بعدها للصالح (نجم الدين[2]) قائمة . وثبت معه الأمير حسام الدين بن أبى[3] على أستاداره ، وزين الدين أمير جانداره ، وشهاب الدين بن سعد الدين كُوَجِبا[4] — وكان أبوه سعد الدين ابن عمة الملك الكامل — ، والأمير شهاب الدين البَوَاشِقِى[5] ، ونحو الثمانين من مماليكه ؛ وثبت معه أيضا كاتبه بهاء الدين زهير . وهرب الطواشى شهاب الدين فاخر ، وأخذ معه شيئا كثيراً من قماش الصالح ، وعدّة من مماليكه الصغار وغلمانه ، وصار مع من لحق بدمشق .

ففتّ فى عضد الصالح مفارقة العسكر له ، وأيقن بزوال أمره . ورحل فى الليل ، فلقيه طائفة من العربان يريدون أخذه ، فحاربهم بمن معه ، حتى خلص منهم إلى نابلس ، فنزل بظاهرها .

ولما وصل العسكر الخارج على الصالح (نجم الدين) ، إلى دمشق ، قبض الملك الصالح عماد الدين على أخويه (الملك المعز) مجير الدين (يعقوب) ، و (الملك الأمجد) تقى الدين

---

(١) القصير المعينى هو قصر معين الدين ، راجع ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٩ ا) .

(٢) كان ابن واصل ، مؤلف كتاب مفرج الكروب ، (نفس المرجع ، ص ٣٢٩ ب) ممن فارقوا إلى دمشق مع عساكر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد أشار الى هذا بعبارة لطيفة نصها : " وكنت أنا مع العسكر الذين دخلوا الى دمشق ، فتواريت ، ولم أظهر خوفا من صاحب حمص " .

(٣) فى س " بوعلى " . (٤) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 449) ، وهو فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٩ ب) شهاب الدين بن سعد الدين بن كمى (؟) .

(٥) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 449) ، ويظهر أن النسبة الى البواشق ، وهو جمع باشق ، والباشق طائر حسن الصورة صغير الجثة ، تصاد به العصافير ، وهو معرب اللفظ الفارسى باشه . (محيط المحيط) .

[عباس[١]] ؛ واعتقل الأمراء المصريين [أيضا] : وهم عز الدين أيبك الكردى[٢] ، وعز الدين قضيب البان ، وسنقر الدنيسرى ، وبلبان المجاهدى ؛ وتوجه نور الدين بن فخر الدين عثمان إلى بغداد .

واتفق تغير الملك العادل على الناصر داود ، ففارقه من بلبيس — وصحبته الأمير [سيف الدين] على بن قلبج — ، وسار إلى الكرك ، وكاتب الصالح نجم الدين ووعده النصرة ، [وكان[٣] ذلك خدعة منه] . ثم سار [الناصر] إلى نابلس بعساكره ، وقبض على الملك الصالح نجم الدين ، ويقال بل بعث إليه من أخذه ، بعد ما صار وحده ، وأركبه على بغلة فى إهانة[٤] ، بغير مهماز ولا مقرعة ، فى ليلة السبت ثانى عشر ربيع الأول .

وبعث [الناصر] به إلى الكرك ، ولم يترك معه غير مملوك واحد ، يقال له ركن الدين بيبرس ؛ وبعث معه جاريته شجر الدر ، أم ولده خليل ؛ وأنزله بالقلعة ، وقام له بجميع ما يحتاج إليه ، بحيث لم يختل من حاله سوى أنه فقد الملك فقط[٥] .

وأقام بهاء الدين زهير عند الناصر داود ، هو وجماعة المماليك ، بعد ما خيَّرهم فاختاروا (٧٠ب) الإقامة عنده . وطلب الأمير حسام الدين بن أبى على[٦] ، وزين الدين أمير جاندار [من الناصر] المسير إلى دمشق فسيَّرهما ؛ وعند ما قدما دمشق اعتقلهما الصالح عماد الدين .

وفى سابع عشر ربيع الأول عاد الملك العادل إلى القاهرة ، بعد ما بعث الركن ...[٧]... الهيجاوى على جماعة ، لحفظ الساحل . فلما بلغ الملك العادل ماجرى على أخيه — من أخذه

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٢٩ أ) ، وكان الملكان ممن فارق الصالح نجم الدين أيوب إلى دمشق .

(٢) تقدم اسم هذا الأمير ، فى ص ٢٨١ ، سطر ٨ ، حيث كتبه المقريزى " الكريدى " .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٣٠ ب — ٣٣١ أ) .

(٤) فى س " اهنة " .

(٥) يوجد فوق هذا اللفظ فى س إشارة إلى عبارة بهامش الصفحة ، وليس ثمة ما تدل عليه هذه الإشارة سوى كلمة " الناصر " وهى مشطوبة .

(٦) فى س " بوعلى " . (٧) بياض فى س .

ذليلا ، ونهب أمواله ، وسجنه بالكرك — سَرَّه ذلك سرورا كثيرا ، وظن أنه قد أمن . ونودي بزينة القاهرة ومصر فزينتا ؛ وعَمِل سماطا عظيما فى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل ؛ وعمل قصوراً من حلوى ، وأحواضا من سكر وليمون ، وألفا وخمسمائة رأس شواء ، ومثلها طعاما ؛ فكان ما عمل من السكر ألف وخمسمائة أبلوجة . ونادى [الملك العادل] فى العامة بالحضور إلى السماط ، فحضر الجليل والحقير . وبلغ ذلك الصالح نجم الدين ، وهو معتقل بالكرك[1] .

ولم يقنع الملك العادل بسجن أخيه ، حتى [أنه] بعث الأمير علاء الدين بن النابلسى إلى الناصر داود ، يطلب منه أن يبعث إليه بأخيه الصالح فى قفص حديد تحت الاحتفاظ ، ويبذل له فى مقابلة إرساله أربعمائة ألف دينار ودمشق ؛ وحلف على ذلك أيمانا عظيمة . فلما وصل الكتاب إلى الناصر أوقف عليه الملك الصالح ، وأدخل إليه بالقاصد الذى أحضره . ثم كتب [الناصر] إلى الملك العادل : " وصل كتاب السلطان ، وهو يطلب أخاه إلى عنده فى قفص حديد ، وأنك تعطينى أربعمائة ألف دينار مصرية ، وتأخذ دمشق ممن هى بيده ، وتعطينى إياها . فأما الذهب فهو عندك كثير ، وأما دمشق فإذا أخذتها ممن هى معه ، وسلمتها إلىّ ، سلمت[2] أخاك إليك . وهذا جوابى والسلام[3] " .

فلما ورد هذا الجواب على الملك العادل أمر بتجهيز العساكر ، ليخرج إلى الشام ؛ وخرج محيي الدين بن الجوزى من القاهرة ، ومعه جمال الدين بن مطروح رسول الصالح نجم الدين ، و[كان] قد استجار به[4] ، بعد ما قبض على الصالح نجم الدين وسجن بالكرك .

وكتب الناصر داود إلى ابن عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو محبوس عنده بالكرك :

(١) ليس فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٢ ا) شىء من تفاصيل هذا التفريع ؛ ويستدل من أمثال هذه الزيادات ، التى انفرد بها السلوك عن مفرج الكروب ، أن المقريزى — بفرض اعتماده على كتاب ابن واصل أحياناً — لم يكتف بذلك المرجع وحده . (٢) فى س " سملت " .

(٣) لا يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٢ ا) شىء من نص هذا الجواب ، أو أى إشارة إلى إرساله من عند الناصر ، وهذا مثل آخر المقارنة بين محتويات السلوك ومفرج الكروب .

(٤) ضمير الهاء هنا عائد على محيي الدين بن الجوزى . راجع ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٢ ب) .

وإذا مَسَّك الزمانُ بضر عظمت عنده الخطوب وجلّتْ

وتوالت منهُ نوائبُ أخرى سئمت عندها النفوس وملّتْ

فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني فالرزايا إذا توالت تولّتْ

وهذه الأبيات لغيره. فكتب إليه الصالح [نجم الدين أيوب] يشكره، وكتب فيما كتب أبيات شمس المعالي قابوس وشمكير[١] :

قل للذي بصروف الدهر عيّرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر

أما ترى البحر تطفو فوقه جيف ويستقر بأقصى قعره الدرر

وإن تكن عبثت أيدي الزمان بنا ومالنا من تمادي بؤسه ضرر

ففي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلى الشمس والقمر

وازداد فيها الرشيد النابلسي :

وكم على الأرض من خضراء مورقة وليس يرجم إلا ماله ثمر

وفي أثناء هذا الاختلاف بين الملوك عَمّر الفرنج في القدس قلعة، وجعلوا برج داود أحد أبراجها، وكان قد تُرِك لما خَرّب الملك المعظم أسوار القدس. فلما بلغ الناصر داود عمارة هذه القلعة سار إلى القدس، ورمى عليها بالمجانيق حتى أخذها، بعد أحد وعشرين يوما — في يوم تاسع جمادى الأولى — عنوة، بمن معه من عسكر مصر. وتأخر أخذ برج داود إلى خامس عشرة فأُخذ [من الفرنج] صلحا على أنفسهم دون أموالهم. وهدم [الناصر][٢] برج داود، واستولى على القدس، وأخرج منه الفرنج، فساروا إلى بلادهم.

واتفق يوم فتح القدس وصول محيي الدين بن الجوزي إلى[٣] [الملك الناصر داود]، ومعه جمال الدين [بن] مطروح. فقال [جمال الدين بن مطروح، يمدح الملك الناصر داود »

(١) كذا في س.

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعه ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٢ ب).

(٣) في س « اليه » وقد حذف الضمير وأثبت عائده للتوضيح، وذلك بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع والصفحة).

ويذكر مضاهاته لعمه الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، فى فتح القدس ، مع اشتراكهما فى اللقب والفعل ، وهو معنى لطيف مليح][1] :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا بالكفر مستوطنا أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهّره أولا وناصر طهّره آخرا

وفى يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول ، وقع بين الفرنج وبين العسكر المصرى المقيم بالساحل حرب ، انكسر فيها الفرنج ؛ وأخذ [من الفرنج] ملوكهم[2] وأكنادهم[3] ، وثمانون فارسا ، ومائتان وخمسون راجلا — وصلوا إلى القاهرة ؛ وقُتل منهم ألف وثمانمائة ، ولم يقتل من المسلمين غير عشرة .

ثم سار ابن الجوزى إلى دمشق ، وحاول إصلاح الحال بين الصالح عماد الدين ، وبين الناصر داود ، وبين الملك العادل . فلم يتأتّ له ذلك ، فعاد إلى القاهرة فى رمضان ، وقد وصل الملك ابن سنقر بخلعة الملك العادل وابنه ، وأمه وامرأته وكاتبه .

ونزل ابن مطروح عند المظفر بحماة ، فبعثه فى الرسالة إلى الخوارزمية بالشرق ، يستحثهم على القيام بنصرة الملك الصالح نجم الدين ، واستصحب معه أيضا رسالة الناصر داود ، [ومنها] : " إنى[4] لم أترك الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لمهجته ، خوفا عليه من أخيه الملك العادل ، ومن

(١) أضيف مابين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٢ ب — ٣٣٣ ا) وقد قوبلت الأبيات التالية على نصها فى مفرج الكروب أيضاً .
(٢) فى س " ملوكهم " .
(٣) لا يوجد فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ، ما يدل على أسماء الملوك والأكناد (جمع كند ، وهو معرب لفظ comte) ، الذين يخبر المقريزى هنا عنهم . أما أصل هذا النشاط الحربى فهو أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين ، منذ أيام السلطان الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثانى ، كانت قد انتهت . وقد وصلت حملة صليبية إلى الشام ، سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) وكان أهم قوادها Theobald Count of Champagne and King of Navarre) راجع (Stevenson : Crusaders In The East, p. 713) هذا وفى (Blochet : Op. cit. p. 453-454) أخبار مطولة عن حركات الفرنج تلك السنة ، وعما وقع لأسرائهم بالقاهرة ، وهى مترجمة من كتاب سير الآباء البطارقة .
(٤) فى س " بأنى " .

عمه الملك الصالح عماد الدين ؛ وسأخرجه ، وأملكه البلاد ، فتحركوا على بلاد حلب ، و بلاد حمص". فسار إليهم [ابن مطروح][1] وقضى الأمر معهم ، وعاد إلى حماة .

فاتفق موت الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه ، صاحب حمص ، يوم التاسع عشر من شهر رجب ؛ فكانت مدة ملكه بحمص نحوا من ست وخمسين سنة . وقام من بعده ابنه الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم ، واتفق مع الصالح عماد الدين على المعاضدة .

فصار الناصر داود مواحشا للملك العادل ، بسبب أنه لم يوافقه على أخذ دمشق ؛ والملك العادل مواحشه ، لأنه لم يسلمه الملك الصالح نجم الدين ، والناصر أيضاً مواحش للصالح عماد الدين ، و يهدده بأنه يطلق الملك الصالح نجم الدين ، و يقوم معه فى أخذ البلاد ؛ والمظفر صاحب حماة لا يخطب للعادل من حين قطع الخطبة للصالح نجم الدين ، لميله إلى الصالح نجم الدين .

فلما دخل شهر رمضان ، سير المظفرُ القاضى شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن أبى الدم — قاضى حماة — رسولا إلى الملك العادل بمصر ، وحمله فى الباطن رسالة إلى الناصر داود بالكرك ، أن يطلق الصالح نجم الدين ، و يساعده على أخذ البلاد . فبلغ [القاضى شهاب الدين[2] الملك] الناصر ذلك ، وتوجه إلى مصر .

فأفرج الناصر داود عن الملك الصالح نجم الدين ، فى سابع عشر من رمضان ، واستدعاه إليه ، وهو بنابلس . فلما قدم عليه التقاه وأجله ، وضرب له دهليز السلطنة ، واجتمع عليه مماليكه وأصحابه ، الذين كانوا عند الناصر : منهم الأمير شهاب الدين بن كعب كوجبا ، وشهاب الدين بن الغرس[3] ، وكاتبه بهاء الدين زهير . وتقدم الناصر للخطيب بنابلس فى يوم عيد الفطر ، فدعا للملك الصالح ، وأشاع (٧٦ ب) ذكره . وسار[4] [الناصر داود والصالح نجم الدين] إلى القدس[5]

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٣٣ ب) .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٣٤ أ) .

(٣) فى س "العرس" ، انظر ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٣٦ أ) .

(٤) فى س "وساروا" .

(٥) كان الغرض من ذهاب الصالح والناصر إلى القدس ، أن يحلف كل منهما لصاحبه على الصخرة المقدسة . ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٣٦ أ) .

وتحالفا على أن تكون ديار مصر للصالح ، والشام والشرق للناصر ، وأن يعطيه[1] مائتى ألف دينار . فكانت مدّة اعتقال الملك الصالح سبعة أشهر وأياماً .

ثم سارا إلى غزة ، فورد الخبر بذلك على الملك العادل بمصر ، فانزعج وأمر بخروج الدهليز السلطانى والعساكر ، وبرز إلى بلبيس فى نصف ذى القعدة ، وكتب إلى الصالح عماد الدين أن يخرج بعساكر دمشق ؛ فخرج الصالح عماد الدين بعساكره إلى القوّار . فخاف الملك الصالح والملك الناصر من التقاء عساكر مصر والشام عليهما ، ورجعا من غزة إلى نابلس ، ليتحصنا بالكرك .

وكان الملك العادل قد شره فى اللعب ، وأكثر من تقديم الصبيان والمساخر[2] وأهل اللهو ، حتى حسبت نفقاته فى هذا الوجه خاصة ، فكانت ستة آلاف ألف وعشرين ألف ألف درم؛ وأعطى [العادل] عبداً أسود ، علمطشت[3] دارة ، يعرف بابن كرسون[4] ، منشور[5]

(١) لم يرد هذا الشرط الأخير فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٦ ا) ، والراجح أن الصالح هو الذى وعد الناصر بمائتى ألف دينار .

(٢) جمع مسخرة ، وهو الشخص الذى تسخر الناس منه ، أو البهلول الذى يلعب لإضحاك النظارة (personne dont on ce moque, dont on se joue, marmouset, petit garçon, petit homme mal fait, . . buffon, baladin) انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٣) كانت وظيفة الطشت دار من الوظائف الصغرى ، وصاحبها تابع للطشت خاناة السلطانية ، وهى حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٠ — ١١) "بيت الطشت ، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذى تغسل فيه الأيد ، والطشت الذى يغسل فيه القماش [السلطانى] ... وفى الطشت خاناه يكون ما يلبسه السلطان ، من القاعد والمخاد والسجادات التى يصلى عليها ، وما شاكل ذلك . ولها أيضا مهتار من كبار المهتارية ، يعرف بمهتار الطشت خاناه ، وتحت يديه عدة غلمان ، بعضهم يعرفون بالطشت دارية ، وبعضهم يعرف بالرختوانية" . انظر أيضا (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٦٩) . هذا والطاشت لفظ عامى ، وصوابه الطست ، أو الطس ، وكلاهما معرب اللفظ الفارسى تست ، وهو إناء غسل اليد . (محيط المحيط) .

(٤) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Biochet : Op. cit. p. 458) .

(٥) المنشور فى مصطلح الدواوين الأيوبية والمماليك بمصر ، عبارة عن أمر سلطانى مكتوب بإقطاع من أرض أو مال ، أو غير ذلك . وكانت المناشير على أربعة أصناف ، يكتب كل صنف منها فى قطع معين من الورق ، يختلف باختلاف طوائف رجال الدولة . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥٨ ، وما بعدها) .

بخمسين فارسا؛ فلما خرج به من باب القلة[1] بقلعة الجبل وجده الأمير ركن الدين الهيجاوى، أحد الأمراء الأكابر؛ فأراه المنشور، فخنق وصكه فى وجهه، وأخذ منه المنشور. وصار بين الأمراء و بين الملك العادل وحشة شديدة، ونفرة عظيمة.

واتفق ما تقدّم ذكره إلى أن نزل [العادل] ببلبيس، فقام الأمير عز الدين أيبك الأسمر — مقدّم الأشرفية، و باطن عدّة من الأمراء والمماليك الأشرفية على خلع العادل والقبض عليه. ووافقهم على هذا جوهر النوبى وشمس الخواص[2] — وهما من الخدام الكاملية، وجماعة أخر من الكاملية. وهم مسرور الكاملى، وكافور الفائزى. وركبوا ليلا وأحاطوا بدهليز الملك العادل، ورموه وقبضوا عليه، ووكلوا به من يحفظه فى خيمة. فلم يتحرّك أحد لنصرته، إلا أن الأكراد اهتموا بالقيام له، فمال عليهم الأتراك والخدّام ونهبوهم، فانهزم الأكراد إلى القاهرة. ويقال إنه بلغ أيبك الأسمر أن الملك العادل سكر مع شبابه وخواصه، وقال لهم: "عن قليل تشربون من دم أيبك الأسمر، وهؤلاء العبيد السوء[4] فلان وفلان وسمّاهم" فاجتمعوا على خلعه، لا سيا لما طلب ابن كرسون منه أن يسلمه الأمير شجاع الدين بن برغش[5] — والى قوص، فأمكنه منه وعاقبه أشد عقوبة، وتنوّع فى عذابه، ولم يقبل فيه شفاعة أحد من الأمراء. وكان الملك العادل قد قرّبه تقريبا زائدا، حتى كان يقضى عنده الحوائج الجليلة، فأنفت الأنفس من ذلك.

وخلع [العادل] فى يوم الجمعة تاسع شوّال، فكانت مدّة ملكه سنتين وشهرين وثمانية

---

(١) كان هذا الباب أحد الأبواب الصغرى بداخل قلعة الجبل، ويتوصل إليه من الباب المدرج، وهو أعظم أبواب القلعة، وموقعه فى أول الجانب الشرقى منها تجاه القاهرة. وكان بين هذين البابين ساحة مستطيلة، ينتهى منها إلى دركاه واسعة، يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول. وقد سمى باب القلة بهذا الاسم فى زمن المماليك، وذلك أنه كانت هناك قلة بناها الملك الظاهر بيبرس. (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٧٢، وما بعدها؛ المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٠٤، ٢١٢).

(٢) كذا فى س، وهو فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٧ أ) الخواص، بفتحة على الواو.

(٣) فى س "تشربوا". (٤) فى س "السو".

(٥) كذا فى س، وبغير ضبط. وقد ترجمه (Blochet: Op. cit. P. 459) إلى (Barghash).

عشر يوما ، أولها يوم الخميس ، وآخرها يوم الخميس تاسع شوّال سنة سبع وثلاثين وستمائة ، أسرف فيها إسرافا أفرط فيه ،(١٧٧) بحيث أن أباه الملك الكامل ترك ما ينيف على ستة آلاف ألف دينار مصرية ، وعشرين ألف ألف درهم فرّقها كلها . وكان [العادل] يحمل المال إلى الأمراء وغيرهم على أقفاص الحمالين ، ولم يبق أحد فى دولته إلا وشمله إنعامه . فكانت أيامه بمصر كلها أفراح ومسرات ، لِلين جانبه ، وكثرة إحسانه . قال الأديب أبو الحسين الجزار فى الملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب : —

هو الليث يخشى بأسه كل مجتر ... هو الغيث يرجو جوده كل مجتدى

لقد شاد ملكا أسسته جدوده ... فأصبح ذا ملك أثيل مشيد

وصح به الإسلام حتى لقد غدت ... بسلطانه أهل الحقائق تقتدى

فقل للذى قد شك فى الحق إنما ... أطعنا أبا بكر بأمر محمد

يشير بذلك إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فإن أباهما الكامل محمدا أقام العادل هذا بمصر ، و بعث الصالح أيوب إلى الشرق .

وقال البرهان بن الفقيه نصر ، لما استقرّ العادل فى السلطنة بعد أبيه : —

قل للذى خاف من مصر وقد أمنت ... ماذا يؤمله منها وخيفته

إن كان قد مات عن مصر محمدها ... فقد أقام أبا بكر خليفته

السلطان الملك الصالح

أبو الفتوح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . لما قُبض على أخيه الملك العادل ، كان الأمير عز الدين أيبك الأسمر يميل إلى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، صاحب دمشق : وكانت الخدّام والمماليك الكاملية تميل إلى الملك الصالح نجم الدين ، وهم الأكثر . فلم يطق [عز الدين][1] مخالفتهم ، فاتفقوا كلهم ، وكتبوا إلى

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ١٣٣٧) .

الملك الصالح نجم الدين يستدعونه[(١)]. فأتته كتبهم، وقد بلغ هو والناصر داود الغاية من الخوف وزُلزلا زلزالا شديدا، لضعفهما عن مقاومة عساكر مصر والشام. فأتاهما من الفرج[(٢)] ما لم يسمع بمثله، وقاما لوقتهما، وسارا إلى مصر. فلما دخلا الرَّمْل[(٣)] لم ينزلا منزلة إلا وقدم عليهما من أمراء مصر طائفة، حتى نزلا بلبيس، يوم الاثنين تاسع... ...[(٤)]، بعد ما خطب له بالقاهرة ومصر يوم الجمعة خامس عشره.

ومنذ فارقا غزة تغير الناصر داود على الملك الصالح [نجم الدين أيوب]، وتحدث في قتله. فلما نزلا[(٥)] بلبيس، سكر الملك الناصر، ومضى إلى العادل، وقال له: "كيف رأيت ما أشرت به عليك، ولم تقبل مني؟" فقال له [العادل]: "ياخوند! التوبة". فقال [الناصر]: "طيِّب قلبك، الساعة أطلقك". ثم جاء [الناصر]، ودخل على الملك الصالح، ووقف. فقال له الصالح: "بسم الله اجلس". قال: "ما أجلس حتى تطلق العادل". فقال له: "اقعد"، وهو يكرر الحديث، فما زال به حتى نام. فقام من فوره الملك الصالح، وسار في الليل ومعه العادل في محفة، ودخل به إلى القاهرة، واستولى على قلعة الجبل، يوم الجمعة ثالث عشرى شوال، بغير تعب.

وجلس [الملك الصالح نجم الدين أيوب] على سرير الملك، واعتقل أخاه العادل ببعض دوره، واستحلف الأمراء، وزينت القاهرة ومصر وظواهرهما وقلعة الجبل زينة عظيمة؛ وسر الناس به سرورا كثيرا، لنجابته وشهامته. ونزل الناصر داود[(٦)] بدار الوزارة من القاهرة؛ ولم يركب الملك الصالح يوم عيد النحر، لما بلغه من خلف العسكر.

(١) في س "يستدعوه". (٢) في س « الفروح ».

(٣) أطلق هذا الاسم على الجهة الواقعة بين العريش والعباسة، وساحل البحر الأبيض المتوسط. (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٨٢ — ١٨٣).

(٤) بياض في س، به آثار كتابة ممحوة. (٥) في س « نزله ».

(٦) كانت هذه الدار بقلعة الجبل، وقد عرفت أيضاً بقاعة الصاحب، لإطلاق لقب الصاحب أحيانا على الوزير بمصر، أيام الأيوبيين والمماليك. (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٠٥، ٢٢٣).

وفى ذى الحجة أحضر الملكُ الصالح إليه الملكَ العادل ، وسأله عن أشياء ؛ ثم كشف بيتَ المال والخزانة السلطانية ، فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم . وقيل له عما أتلفه أخوه ، فطلب القضاة والأمراء الذين قاموا فى القبض على أخيه ، وقال لهم : "لأى شىء قبضتم على (٧٧ ب) سلطانكم ؟" فقالوا : "لأنه كان سفيها" . فقال : "يا قضاة ! السفيه يجوز تصرفه فى بيت مال المسلمين ؟" قالوا : "لا" . قال : "أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال ، كانت أرواحكم عوضه" . فخرجوا وأحضروا إليه سبعمائة ألف وخمسة وثمانين ألف دينار ، وألفى ألف وثلاثمائة ألف درهم . ثم أمهلهم قليلا ، وقبض عليهم[1] واحد بعد واحد .

واستدعى [الملك الصالح] بالقاضى شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم ابن على بن محمد ، المعروف بابن أبى الدم — وكان بمصر منذ قدم من عند المظفر صاحب حماة ، وبعث به مكرما إلى حماة وخلع على ابن الجوزى رسول الخليفة ، وكتب معه إلى الديوان العزيز يشكو منه . وكانت الخلع الخليفتية قد وصلت إلى القاهرة ، فلبسها الملك الصالح ، ونصب منبرا صعد عليه ابن الجوزى ، وقرأ تقليد الملك الصالح ، والملك الصالح قائم بين يدى المنبر على قدميه ، حتى فرغ من قراءته . وشيع [الملك الصالح] أيضا الصاحب كمال الدين بن العديم رسول حلب .

وتخوّف السلطان من الناصر داود ، لكثرة ما بلغه عنه من اجتماعه بالأمراء سرا ، ولأنه

(١) لا يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٧ ب) شىء من أخبار ذلك المجلس .

(٢) كان الصاحب كمال الدين بن أبى جرادة ، المعروف بابن العديم ، قد حضر إلى القاهرة رسولا إلى الملك العادل ، من عند الصاحبة ضيفة خاتون ، والدة الملك العزيز ، صاحب حلب . (انظر ص ٢٧١ ، سطر ٩) . وكانت الصاحبة قد أرسلته ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٨ ا ، وما بعدها) ، ليطلب من العادل أن يسير إليها عماته ، بنات الملك العادل الأول ، فأجابها إلى ذلك . ثم حدث أن صار الملك الصالح أيوب سلطانا على مصر ، قبل رحيل ابن العديم من القاهرة ، فاستحضره الصالح وأكرمه ، وزوده برسالة إلى الصاحبة ضيفة خاتون ، منها " يقبل [الملك الصالح أيوب] الأرض بين يدى المقر العالى ، ويعرفها أنى مملوكها ، وأنى عبد محل الملك الكامل ، وأنا أعرض نفسى لخدمتها (ص ٣٣٨ ب) وامتثال ما ترسم به ... إلخ " .

سأله أن يعطيه قلعة الشوبك ، فامتنع السلطان من ذلك . واستوحش [الناصر] فطلب الإذن بالرحيل إلى الكرك ، فخرج من القاهرة وهو متغيظ ، وقد بلغه أن الصالح إسماعيل خرج من دمشق ، ووافق الفرنج على أن يسلمهم الساحل ؛ ووصل الفرنج إلى نابلس . وتأول السلطان أنه ما حلف للناصر بالقدس إلا مكرها[1] ، لأنه كان إذ ذاك تحت حكمه وفى طاعته . فلما وصل الناصر إلى الكرك طلب من السلطان ما التزم له به من المال ، فحمله إليه ، وماطله بتجريد العساكر معه لفتح دمشق ، مستندا لما تأوله .

وفى أثناء ذلك تحدّث الأشرفية بالوثوب على السلطان ، فخافهم وامتنع من الركوب فى الموكب مدّة . واستوزر [السلطانُ] الصاحبَ معين الدين الحسن بن الشيخ ، وسلم إليه أمور المملكة كلها ، وهو ببركة الحاج ، فى يوم الخميس حادى عشر ذى القعدة قبل الظهر . فشرع [الصاحب معين الدين] فى تدبير المملكة ، والنظر فى مصالح البلاد . وولدت شجر الدر من الملك الصالح ولدا سماه خليلا[2] ، ولقبه بالملك المنصور . وعند ما نزل الملك الصالح العباسة ، فى يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة ، قبض على الركن الهيجاوى [العادلى][3] فى يوم الاثنين ثامن عشره ، و بعثه إلى القاهرة .

وفيها ولى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم خطابة دمشق ، فى يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر ، ولاه الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل ، وخطب لصاحب الروم .

وفيها قتل عثمان بن عبد الحق بن مَحْيُو[4] بن أبى بكر بن حمامة ، أمير بنى مرين ، وهو أوّل من عظم أمره منهم ، وغلب على ريف المغرب ، ووضع على أهله المغارم ، فبايعه

(١) انظر س ٢٩٣ ، سطر ١٥ ، وما يليه .

(٢) فى س "خليل" .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٣٨ ا) .

(٤) مضبوط هكذا فى س .

أكثر القبائل . وامتدت يده إلى أمصار المغرب ، مثل فاس وتازا[١] ومكناسة[٢] ، وفرض عليها ضرائب تحمل إليه . وقام بعد عثمان أخوه محمد بن عبد الحق .

وفيها قدم الشريف شيحة[٣] بن قاسم أمير المدينة إلى مكة ، فى ألف فارس من عسكر مصر ؛ فبعث ابن رسول ملك اليمن بالشريف راجح وعسكر ، ففر شيحة[٤] من مكة ، وملكها عسكر اليمن .

* * *

سنة ثمان وثلاثين وستمائة فيها شرع السلطان الملك الصالح [أيوب] فى النظر فى مصالح دولته ، وتمهيد قواعد مملكته ؛ ونظر فى عمارة أرض مصر ، و بعث زين الدين بن أبى زكرى على عسكر إلى الصعيد ، لقتال العرب . وتتبع من قام فى قبض أخيه الملك العادل ، فقبض عليهم ، واستصفى أموالهم وقتل عدة منهم . وفرّ عدّة من الأشرفية ، وقبض على الأمير عز الدين أيبك الأسمر الأشرفى بالإسكندرية ، ونودى بالقاهرة وظواهرها من أخفى أحدا من الأشرفية نهب ماله ؛ وأغلقت أبواب القاهرة كلها ثلاثة أيام ، ما خلا باب زويلة ، حرصا على أخذ الأشرفية ؛ (١٧٨ ا) فأخذوا وأودعو السجون . وقبض على جوهر النوبى ، وشمس الخواص مسرور ، بدمياط — وكانا من الخدّام الكاملية ، وممن أعان على خلع العادل . وقبض على شبل الدولة كافور الفائزى بالشرقية ، وسجن بقلعة الجبل . وقبض على جماعة من الأتراك ، ومن أجناد الحلقة ، وعلى عدّة من الأمراء الكاملية . وصار [السلطان الملك الصالح أيوب] كلما قبض على أمير أعطى خبزه لمملوك من مماليكه وقدّمه ، فبقى معظم أمراء الدولة مماليكه ، لثقته بهم ، واعتماده عليهم ؛ فتمكن أمره وقوى جأشه .

(١) فى س "تازى" ، و بغير ضبط . وهى بلدة بشرقى المغرب الأقصى . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٥٢ ؛ Al-'Omari : Masalik el-Abṣar, pp. 141, 164, 165, 171, 220, et carte III.

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة بالمغرب الأقصى أيضا ، بينها وبين مراكش أربع عشر مرحلة ، وتبعد عن فاس مرحلة واحدة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦١٥) .

(٣) كذا فى س ، وبغير ضبط ، وهو وارد فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٦٤) "سنجة" .

(٤) بغير نقط البتة فى س .

وفى تاسع ربيع الآخر ، وهو يوم السبت ، ولد للملك الصالح نجم الدين أيوب من حظيته ولد ذكر . وأحب [الصالح] أن يبقى له ذكرا ، فأمر ببناء قلعة الجزيرة — المعروفة بالروضة — قبالة مصر الفسطاط . وشرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان ، وابتدئ ببنائها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشره . وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة ، وتحوّل الناس من مساكنهم التى كانت بها . وبنى [الملك الصالح] فيها الدور السلطانية ، وشيد أسوارها ، وأنفق فيها أموالا تتجاوز الوصف . فلما تكامل بناؤها تحوّل السلطان من قلعة الجبل إليها ، وسكنها بأهله وحرمه ومماليكه ، وكان مغرى بالعمائر[1] .

وفيها عاد العسكر الذى قصد المسير إلى اليمن فى رمضان ، خوفا من المماليك الأشرفية وأتباعهم ، وذلك أنهم [كانوا قد] عزموا على الخروج من القاهرة ، ونهب العسكر ببركة

(١) يقول ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٤٠ ا) إن الملك الصالح أيوب ابتنى قلعة جزيرة الروضة لتكون مركزا لمماليكه وأمرائه ، وإن بناء تلك القلعة استغرق ثلاث سنين . وقد أفاض المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٧٧ — ١٨٥) فى وصف هذه الجزيرة وأبنيتها ، من أول الإسلام إلى زمنه ، وخلاصته أن اسم الروضة كان يطلق فى زمنه على الجزيرة ، التى بين مصر ومدينة الجيزة ، وقد عرفت فى أول الإسلام بالجزيرة ، وبجزيرة مصر . ثم قيل لها جزيرة الحصن ، بعد ما بنى بها أحمد ابن طولون حصنا ، سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) ، ليحرز فيه حرمه وماله . ولم يزل هذا الحصن عامرا أيام بنى طولون ، وأقيمت به دار الصناعة ، التى تنشأ فيها المراكب الحربية . واستمر الحصن دارا للصناعة حتى تولى محمد بن طغج الأخشيد مصر ، ٣٢٣ — ٣٣٤ هـ (٩٣٤ — ٩٤٥ م) ، فنقل دار الصناعة إلى ساحل النيل بمصر ، وجعل موضعها بالجزيرة بستانا سماه المختار . وكان ذلك سنة ٣٢٥ هـ . وظل هذا البستان متنزه الأخشيديين . وفى زمن الفاطميين بمصر ٣٥٨ — ٥٦٧ هـ ، ٩٦٩ — ١١٧١ م) صارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس ، لها وال وقاض . وأنشأ الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الدين الجمالى بساحلها البحرى مكانا نزها سماه الروضة ، وتردد إليه كثيرا ، ومن حينئذ صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة . ومن مخلفات الفاطميين بتلك الجزيرة أيضا قصر الهودج ، الذى بناه الخليفة المستعلى بالله لمحبوبته البدوية ، بجوار البستان المختار . وما برحت جزيرة الروضة متنزها ملكيا ، وسكنا للناس ، إلى أن ولى الديار المصرية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . فأنشأ القلعة بالروضة ، فعرفت بقلعة المقياس ، وبقلعة الروضة ، وبقلعة الجزيرة ، وبالقلعة الصالحية . انظر أيضا أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١١٩ ، فى Rec. Hist. Or. I.) ، إذ يسميها قلعة الجيزة ؛ وقد سماها أيضا المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٩٧) قلعة جزيرة الفسطاط .

الجب . فبطل سفرهم ، و بعث السلطان منهم ثلاثمائة مملوك إلى مكة ، لأخذها من أهل اليمن ، وعليهم [الأمير مجد الدين] أحمد بن التركمانى و [الأمير مبارز الدين على بن الحسين] ابن بِرْطاس . وذلك أن(١) الخبر ورد بأن ملك اليمن بعث جيشاً لأخذ مكة ، فساروا آخر شهر رمضان ، ودخلوا مكة فى أثناء ذى القعدة ، ففرّ من كان بها من أهل اليمن .

وفيها عاد القاضى بدر الدين قاضى سنجار من بلاد الروم ، وكان قد توجه إليها برسالة الملك الصالح عماد الدين صاحب دمشق . فبلغه أن الملك الصالح نجم الدين مَلَك مصر ، فخرج من بلاد الروم ، وقد عزم ألا يدخل دمشق ، فمضى إلى مَصْيَاف(٣) من بلاد الإسماعلية ، وأخذ يتحيّل فى الوصول إلى مصر . فبلغ ذلك الصالح إسماعيل ، فأرسل إليه ليحضر ، فامتنع من الحضور . واستجار بالإسماعيلية ، فأجاروه ومنعوا الصالح [إسماعيل] منه ، وأوصلوه إلى حماة ، فأكرمه المظفر ، وأنزله عنده . وكان قد نزل عنده أيضا جمال الدين بن مطروح ، فصارت حماة ملجأ لكل من انتمى للسلطان الملك الصالح نجم الدين ، ومنها يرد إليه بمصر كل ما يتجدّد بالشام والشرق .

وفيها أيس (٧٨ ب) الناصر داود من إعطاء الملك الصالح نجم الدين له دمشق ، فانحرف عنه ، ومال إلى الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص ، واتفقوا جميعا على الصالح نجم الدين .

وفيها أغار الخوارزمية على بلاد قلعة جعبر وبَالِس(٤) ونهبوها ، وقتلوا كثيراً من الناس ؛ ففر من بقى إلى حلب ومنبج واستولى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على سنجار ، وأخرج

(١) بغير ضبط فى س ، انظر الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٩٩ ، من الترجمة الإنجليزية) . هذا وقد أضيف ما بين الأقواس مما يلى ص ٣١٣ سطر ١ ، ومن المتن العربى فى الخزرجى (نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٦٨) . (٢) فى س " ابن " .

(٣) بغير ضبط فى س ، ومصياف — أو مصياب — (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥٦) إحدى حصون الإسماعيلية بالشام ، وهى واقعة على الساحل ، قرب طرابلس ، وعلى مسيرة يوم من حمص ، وفرسخ من بارين . (Le Strange : Palest. Under Moslems. P. 507.)

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بالشام ، بين حلب والرقة . وكانت أصلا على ضفة الفرات الغربية ، ثم تحول عنها مجرى النهر ، حتى صار بينهما فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٧٧ — ٤٧٩) مسافة أربعة أميال .

منها الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل بن نجم الدين(١) أيوب . فسار [الجواد] إلى الشام ، حتى صار فى يد الناصر داود ، فقبض عليه بغزّة يوم الأحد ثامن عشر ذى الحجة ، و بعث به إلى الكرك . وانضمت الخوارزمية على صاحب الموصل ، فصاروا نحو الاثنى عشر ألفا ، وقصدوا حلب . فخرج إليهم من حلب ، فانكسر وقتل أكثره ، وغنم الخوارزمية ما معهم . فامتنع الناس بمدينة حلب ، وانتهبت أعمال حلب ، وفعل فيها كل قبيح من السبى والقتل والتخريب . ووضعوا السيف فى أهل منبج ، وقتلوا فيها ما لا يحصى عدده من الناس ، وخربوا وارتكبوا الفواحش بالنساء فى الجامع علانية ، وقتلوا الأطفال . وعادوا وقد خرب ما حول حلب .

وكان الخوارزمية يظهرون للناس أنهم يفعلون ما يفعلون خدمة لصاحب مصر ، فإن أهل حلب وحمص ودمشق كانوا حزبا على الصالح صاحب مصر . فسار المنصور [إبراهيم(٢) ابن الملك المجاهد] صاحب حمص ، بعساكره وعساكر حلب ودمشق ، وقطع الفرات إلى سروج والرها ، وأوقع بالخوارزمية ، وكسرهم واستولى على ما معهم ؛ ومضوا هاربين إلى عانة .

وفيها خاف الصالح عماد الدين من الملك الصالح نجم الدين ؛ فكاتب الفرنج ، واتفق معهم على معاضدته ومساعدته ، ومحاربة صاحب مصر ؛ وأعطاهم قلعة صفد و بلادها ، وقلعة الشقيف(٣) و بلادها ، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها ، وجبل عاملة(٤) وسائر بلاد الساحل . وعزم [الصالح عماد الدين] على قصد مصر ، لما بلغه من القبض على المماليك الأشرفية والخدام ومقدمى الحلقة و بعض الأمراء ، وأن من بقى من أمراء مصر خائف على

(١) كذا فى س ، والراجح أن المقريزى غلط هنا ، فخلط بين اسم الملك الجواد يونس بن مودود ابن العادل ، واسم أخيه الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل ، ومات الثانى فى حياة أبيه . انظر ص ١٩١ ، سطر ٩ .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٥ ب) .

(٣) فى س " السقيف " .

(٤) يطلق هذا الاسم على جهة جبلية قرب الساحل ، فى إقليم صفد ، ويوجد بها حصن الشقيف . (Le Strage : Palest. Under Moslems. pp. 75-76).

نفسه من السلطان . فتجهز و بعث إلى المنصور صاحب حمص ، وإلى الحلبيين ، وإلى الفرنج ، يطلب منهم النجدات .

وأذن [الصالح إسماعيل] للفرنج فى دخول دمشق وشراء السلاح ، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق . فأنكر المسلمون ذلك ، ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء واستفتوهم ، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج ، وقطع من الخطبة بجامع (١٧٩) دمشق الدعاء للصالح إسماعيل ، وصار يدعو فى الخطبة بدعاء منه : "اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد ، تعز فيه أولياءك ، وتذل فيه أعداءك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك" ؛ والناس يضجون بالدعاء .

وكان الصالح غائبا عن دمشق ، فكوتب بذلك ، فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام عن الخطابة ، واعتقاله هو والشيخ أبى عمرو بن الحاجب ، لأنه كان قد أنكر ، فاعتقلا . ثم لما قدم الصالح أفرج عنهما وألزم ابن عبد السلام بملازمة داره ، وألا يفتى ، ولا يجتمع بأحد ألبتة . فاستأذنه فى صلاة الجمعة ، وأن يعبر إليه طبيب أو مزين ، إذا احتاج إليهما ، وأن يعبر الحمام ، فأذن له فى ذلك . وولى خطابة دمشق ، بعد عز الدين عبد السلام ، علم الدين داود بن عمر بن يوسف بن خطيب بيت الآبار[1] .

وبرز الصالح من دمشق ، ومعه عساكر حمص وحلب وغيرها ، وسار حتى نزل بنهر الموجاء . فبلغه أن الناصر داود قد خيم على البلقاء ، فسار إليه ، وأوقع به . فانكسر الناصر ، وانهزم إلى الكرك . وأخذ الصالح أثقاله ، وأسر جماعة من أصحابه ، وعاد إلى الموجاء ؛ وقد قوى ساعده ، واشتدت شوكته . فبعث يطلب نجدات الفرنج ، على أنه يعطيهم جميع ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف . ورحل من الموجاء ، ونزل تل العجول فأقام أياما ، ولم يستطع عبور مصر ، فعاد إلى دمشق .

---

(١) يطلق هذا الاسم على جهة من غوطة دمشق ، وبها عدة قرى ، إحداها بيت الآبار أيضاً . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٧٥).

وذلك أن الملك الصالح نجم الدين ، لما بلغه حركة الصالح إسماعيل من دمشق ومعه الفرنج ، جرد العساكر إلى لقائه ، فالتقاهم . وعندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة ، ومالوا جميعا على الفرنج ، فهزموهم وأسروا منهم خلقا لا يحصون . وبهؤلاء الأسرى عمر السلطان الملك الصالح نجم الدين قلعة الروضة ، والمدارس الصالحية بالقاهرة .

وفيها[١] تم الصلح مع الفرنج ، وأطلق الملك الصالح الأسرى بمصر من الكندود والفرسان والرجالة . وفى ذى القعدة كانت وقعة بين أمراء الملك الصالح أيوب المقيمين بغزة ، و بين الجواد والناصر ؛ وكسير[٢] أصحاب الملك الصالح ، وكسير[٣] كمال الدين بن الشيخ . وفيها استقر الصلح بين الملك الصالح والناصر ، ورحل [الناصر] عن غزة بعد قبضه على الجواد[٤] . وفى ذى القعدة وصل الجواد إلى العباسة ، ومعه [الصالح][٥] ابن صاحب حمص ؛ فأنعم عليهما الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولم يمكنهما من دخول القاهرة . فعاد [الجوّاد ؟] ، ولجأ إلى الناصر ، فقبض عليه[٦] .

وفيها عزل القاضى عبد المهيمن عن حسبة القاهرة ، فى تاسع المحرّم ، واستقر فيها القاضى شرف الدين محمد بن الفقيه عباس ، خطيب القلعة . وفى رابع عشره شرع السلطان الملك الصالح نجم الدين فى بناء القنطرة التى على الخليج الكبير ، المجاور لبستان الخشاب ، التى تعرف اليوم بقنطرة السد ، خارج مدينة مصر .

(١) انظر حاشية ٦ .

(٢) ، (٣) فى س "كسروا" . راجع (Blochet : Op. cit. p. 472) .

(٤) انظر ص ٣٠٣ ، سطر ٢ .

(٥) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٤١ أ ، ب) .

(٦) العبارة التى تنتهى هنا ، وتبتدئ عند حاشية ١ ، واردة بهامش الصفحة فى س ، وليس بالمتن إشارة إلى مكانها المناسب ، وقد أدرجت هنا على ترتيب ورودها فى ب (ص ١٩٦ أ) . هذا ويوجد فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٢٠ ، فى (Rec. Hist. Or. I. أنه لما أيس الملك الجواد من السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، سار مباشرة إلى عكا ، وأقام مع الفرنج . فأرسل الملك الصالح إسماعيل إلى عكا ، وبذل للفرنج مالا حتى سلموه الجواد ، فاعتقله ثم خنقه . انظر ما يلى ص ٣١٠ ، سطر ٩ .

(٧٩ ب) وفى سادس عشره أمر [السلطان الملك الصالح أيوب] بتجهيز زَرْدخاناه[1] وشَوَانِى[2] وحَرَارِيق[3] إلى بحر القلزم لقصد اليمن ، وجرد جماعة من الأمراء والأجناد بسبب ذلك .

وفى خامس عشريه نزل خمس نفر فى الليل من الطاقات الزجاج إلى المشهد النفيسى ، وأخذوا من فوق القبرستة عشر قنديلا من فضة ؛ فقبض عليهم من الفيوم ، وأحضروا فى رابع صفر . فاعترف أحدهم بأنه هو الذى نزل من طاقات القبة الزجاج وأخذ القناديل ، وبرأ بقية أصحابه ؛ فشنق تجاه المشهد فى عاشره ، وترك مدّة متطاولة على الخشب ، حتى صار عظاما .

وفى سابع عشرى ربيع الأوّل ولّى الملك الصالح الأمير بدر الدين باخل الإسكندرية ، نقله إليها من ولاية مصر .

وفى شهر ربيع الآخر رتب السلطان نوابا عنه بدار العدل ، يجلسون لإزالة المظالم . فجلس لذلك افتخار الدين ياقوت الجالى ، وشاهدان عدلان ، وجماعة من الفقهاء : منهم الشريف شمس الدين الأرموى ، نقيب الأشراف وقاضى العسكر ومدرس المدرسة الناصرية بمصر ،

(١) الزردخاناه دار السلاح ، وهى كلمة فارسية مركبة ، وقد أطلقها المقريزى على السلاح نفسه . ومن معانى الزردخاناه أيضا ، السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب . (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٢) جمع شينى — أوشينية — وهى نوع من السفن الحربية فى مصر ، يقابلها فى اللغة الفرنسية لفظ "galère" (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ويظهر أن الشوانى كانت أكبر السفن الحربية فى مصر ، وأكثرها استعمالا . راجع المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥) .

(٣) جمع حراقة ، وهى نوع من السفن الحربية ، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية ، كالنار الأغريقية ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو . (محيط المحيط) . وكان فى مصر نوع آخر من الحراقات ، استخدم فى النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية ، والحفلات الرسمية . وفى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ، ٢٩٥) ما يدل على أن معظم الحراريق كانت لتلك الأغراض المحلية : من ذلك أنه لما شرع السلطان الظاهر بيبرس فى إحياء البحرية المصرية ، بعد إهمالها فى عهد سلفه من المماليك ، " استدعى برجال الأسطول ، وكان الأمراء قد استعملوهم فى الحراريق وغيرها ... ... واستدعى بشوانى الثغور إلى مصر ، فبلغت زيادة على أربعين قطعة ، سوى الحراريق والطرائد ، فإنها كانت عدة كثيرة ، وذلك فى شوال سنة تسع وستين وستمائة ... " . وفى المقريزى أيضاً (نفس المرجع والجزء ، ص ١٩٥) أنه فى سنة ٧٠٢ هـ ، أعد السلطان الناصر محمد بن قلاون حملة بحرية لغزو جزيرة أرواد (رودس) ، وجهزت الشوانى بالعدد والسلاح والنفطية والأزودة ، " وزينت الشوانى أحسن زينة ، فخرج معظم الناس لرؤيتها ... ... وعدى الأمراء فى الحراريق إلى الروضة " . انظر أيضا ابن إياس (بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٥٢) ؛ وكذلك (Quatremère : Maml. I. 1. p. 143, N. 17)

والقاضى فخر الدين بن السكرى(١) ، والفقيه عز الدين عباس . فهرع الناس لدار العدل من كل جانب ، ورفعوا ظلاماتهم ، فكشفت . واستراح السلطان من وقوف الناس إليه ، واستمر هذا بمصر .

وفى ذى الحجة سار القاضى بدر الدين [أبو المحاسن(٢) يوسف] السنجارى على الساحل إلى مصر ، فلما قدم على السلطان أكرمه غاية الإكرام . وكان قضاء ديار مصر بيد القاضى شرف الدين ابن عين الدولة الإسكندرى ، فصرفه السلطان عن قضاء مصر والوجه القبلى ، وفوّض ذلك للقاضى بدر الدين السنجارى ، وأبقى مع ابن عين الدولة قضاء القاهرة والوجه البحرى .

وفيها ظهر ببلاد الروم رجل ادّعى النبوّة ، يقال له البابا من التركمان . وصار له أتباع ، وحمل أتباعه على أن يقولوا : "لا إله إلا الله ، البابا رسول الله". فخرج إليه جيش صاحب الروم ، فقاتلهم ، وقتل بينه و بينهم أربعة آلاف نفس ؛ ثم قتل البابا ، فانحل أمره(٣) .

وفيها وصل رسول التتار من ملكهم خاقان(٤) إلى [الملك المظفر شهاب الدين(٥)] غازى بن

(١) كذا فى س ، وبغير ضبط ؛ وقد ترجم (Blochet :Op. cit. p. 473) هذا الاسم إلى (Ibn as. Sokri) .

(٢) انظر ما يلى ص٣٠٩ ، سطر ٣ .

(٣) اسم هذا المتنبى التركمانى ، حسبما ورد فى (Enc. Isl. Art. Kaikhusraw I) بابا إسحاق ، وكان يدعو إلى الزهد والتقشف ، ويقدح فى السلطان غياث الدين كيخسرو وحاشيته ، لانغماسهم فى الترف . وقد انتشر مذهبه فى أنحاء بلاد السلاجقة الروم ، وتطلبت مناهضته مجهودا حربيا طويلا ، حتى بعد مقتل صاحبه . هذا ويرى (Blochet : Op. cit. p.474, N.3) ، أن البابا إسحاق كان من بقايا أتباع القرامطة والفاطميين .

(٤) هذا اللفظ هو الصورة العربية للقب التركى قاغان (Kaghan) ، الذى كان يطلق على رؤساء الترك فى القرن السابع الميلادى ، ومعناه رئيس الرؤساء . وقد استعمل أولئك الترك المتقدمون لقب قان — أو خان — أيضاً بمعنى قاغان ، وربما كان اختصارا له . وظل هذا الاستعمال شائعا بين الترك حتى أيام ملوك المغول ، فصارت كلمة قاغان — أو قان — تطلق على ملك المغول الأعظم ، وقصر لفظ خان على الملوك الذين يتولون جزءاً من الإمبراطورية المغولية . ومثل ذلك التمييز موجود فى الاستعمال الاصطلاحى الكامتى سلطان وملك : فالسلطان هو الملك الأعظم ، والملك هو أحد ولاة السلطان من أبناء بيته . ومثل ذلك عند الفرس ، فإن لقب شاهنشاه مختص بملك الملوك عندهم ، تميزا له عن لقب شاه فقط ، وهو الملك الصغير . انظر (Enc. Isl. Arts. Khākān, Khān) . هذا والراجح أن الخاقان المقصود هنا هو أوغطاى ابن جنكزخان . (Lane-Poole : Muh. Dyns. p.215) .

(٥) انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٢١ فى Rec. Hist. Or. 1) ، وأيضا ص ١٩١ ، سطر ١٨ .

العادل ، صاحب] ميافارقين ، ومعه كتاب إليه ، و إلى ملوك الإسلام ، عنوانه : "من نائب رب السماء ، ماسح وجه الأرض ، ملك الشرق والغرب ، قاقان" . فقال الرسول لشهاب الدين صاحب ميافارقين : "قد جعلك قاقانُ سلاحَ داره ، وأمرك أن تخرب أسوار بلدك" . فقال له [شهاب الدين] : "أنا من جملة الملوك (١٨٠) ، و بلادى حقيرة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر ، فتوجه إليهم ، وما فعلوه فعلتُه" .

وفى يوم الجمعة حادى عشر ذى القعدة رسم الصالح إسماعيل أن يُخْطَب على منبر دمشق للسلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد(١) بن كيخسرو ، ملك الروم ؛ فخطب له ، ونثر على ذلك الدنانير والدراهم ، وكان يوما مشهودا . وحضر رسل الروم وأعيان الدولة ، وخطب بذلك فى جوامع البلد ، وأنعم على الرسول وخلع عليه .

* * *

سنة تسع وثلاثين(٢) وستمائة . فيها شرع الملك الصالح فى عمارة المدارس الصالحية بين القصرين . وفيها غلت الأسعار بمصر ، وأبيع القمح كل أردب بدينارين ونصف . وقدم جمال الدين بن مطروح من طرابلس — فى البحر — إلى القاهرة . وكثرت قصاد المظفر صاحب حماة إلى مصر .

وفى يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأول كسف جميع جرم الشمس ، وأظلم الجوّ ، وظهرت الكواكب ، وشعل الناس السرج بالنهار .

وفيها قدم الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى مصر ، وقد أخرجه الصالح إسماعيل من دمشق . فأكرمه الملك الصالح نجم الدين ، وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر ، وقلده قضاء مصر والوجه القبلى — يوم عرفة ، عوضا عن قاضى القضاة شرف الدين بن عين الدولة ، بعد ما كتب السلطان بخطه إلى ابن عين الدولة ، فى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر [ما نصه :]

(١) فى س "كيقباذ" .

(٢) ليس فى مخطوطة مفرج الكروب لابن واصل المستعملة هنا ، ذكر لهذه السنة أو التى تليها ، حتى سنة ٦٤٤ هـ .

" إن القاهرة لما كانت دار المملكة ، وأمراء الدولة وأجنادها مقيمون بها ، وحاكمها مختص بحضور دار العدل ، تقدمنا أن يتوفر القاضى على القاهرة وعملها لا غير " . وفوض السلطان قضاء القضاة بمصر وعملها — وهو الوجه القبلى — لبدر الدين أبى المحاسن يوسف السنجارى ، المعروف بقاضى سنجار . فلما مات ابن عين الدولة استقر البدر السنجارى فى قضاء القاهرة ، وفُوض قضاء مصر والوجه القبلى لابن عبد السلام .

وفيها كثر تردد الناس إلى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، بعد ما أطلقه السلطان من السجن . فكره السلطان ذلك ، وأمره أن يلازم داره .

وفيها بلغ السلطان أن الناصر داود صاحب الكرك ، قد وافق الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، والمنصور إبراهيم صاحب حمص ، وأهل حلب ، على محاربته . فسير [السلطان] كمال الدين بن شيخ الشيوخ على عسكر [إلى الشام] ، فخرج إليه الناصر وقاتله ببلاد القدس ، وأسره فى عدة من أصحابه ؛ ثم أطلقهم ، وعادوا إلى القاهرة . وكان من خبر ذلك أنه[1] فى يوم الأربعاء ثانى عشر صفر ، وقع عسكر الناصر داود على الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد ، وقد نزل على الفوار ، فكسره وأخذ الأثقال . وكان معه الأمير شمس الدين شرف — المعروف بالسبع مجانين[2] ، وشمس الدين أبو العلاء الكردياني[3] ، وشرف الدين بن الصارم صاحب تبنين . وكان مقدّم عسكر الناصرِ سيفُ الدين بن قاج ، وجماعة من الأيوبية من عسكر مصر .

وفيها سار الخوارزمية إلى الموصل ، فسالمهم [صاحبها بدر الدين] لؤلؤ ، وسلمهم نصيبين ؛ ووافقهم المظفر [شهاب الدين] غازى بن العادل ، صاحب ميافارقين . ثم ساروا إلى آمد ، فخرج إليهم عسكر حلب ، عليه (٨٠ ب) المعظم فخر الدين توران شاه[4] بن

---

(١) فى س " ان " .

(٢) فى ب (١٩٧ ا) " شمس الدين شروه المعروف بالسبع محاسن " .

(٣) كذا فى س ، وهو فى ب (١٩٧ ا) " الكردياني " ، ومترجم فى (Blochet : Op. cit. p. 477) إلى (Kirdiani) .

(٤) فى س " تورنشاه " .

صلاح الدين ، فدفعوهم عنها ، ونهبوا بلاد ميافارقين ، وجرت بينهم وبين الخوارزمية وقائع . ثم عاد العسكر إلى حلب ، فغار[1] الخوارزمية على رساتيق[2] الموصل .

وفيها فلج المظفر صاحب حماة فى شعبان ، وهو جالس بغتة ، فأقام أياما ملقى لا يتحرك ولا يتكلم ؛ ثم أفاق ، وبطل شقه الأيمن . فسير إليه الملك الصالح [نجم الدين أيوب] من مصر بطبيب يعرف بالنفيس بن طليب النصرانى ، فلم ينجع فيه دواء ، واستمر كذلك سنين وشهوراً حتى مات .

وفى خامس عشر ذى القعدة قدم الأمير ركن الدين الطونبا[3] الهيجاوى ، من القاهرة إلى دمشق ، وكان الملك الصالح نجم الدين قد بعثه فى شهر رمضان إلى الناصر داود ، ليصلح بينه وبين الملك الجواد ، حتى يبقى على طاعة الملك الصالح نجم الدين[4] . فلما وصل إلى غزة هرب إلى دمشق ، وأخذ معه جماعة من العسكر ؛ ولحق الجواد بالفرنج ، وأقام عندهم[5] .

وفيها وصل الملك المنصور [نور الدين[6] عمر بن على رسول] من اليمن فى عسكر كبير إلى مكة ، فى شهر رمضان ، ففر المصريون بعد ما أحرقوا دار الإمارة بمكة ، حتى تلف ما كان بها من سلاح وغيره .

* * *

سنة أربعين وستمائة . فى ربيع الأول أبطلت خطبة ملك الروم من دمشق ، وخطب للملك الصالح نجم الدين [أيوب] . وفى يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل الفرنج

---

(١) فى س " فعار " .

(٢) جمع رستاق ، وهو لفظ فارسى ، معناه القرية أو محلة العسكر ، أو البلد التجارى ، ومنه الكلمة العربية الرزداق ، وجمعها الرزداقات والرزاديق . (محيط المحيط ؛ و Steingass. Pers.— Eng. Dict.)

(٣) كذا فى س ، بغير ضبط . وفى (Blochet : Op. cit. p. 478. N. 4) أن إيراد هذا الاسم هكذا خطأ ، وأنه يجب أن يكتب الطون بغا ، (Altoun bogha) . انظر ص ١٧٥ ، سطر ٦ ، وحاشية ٢ بنفس الصفحة .

(٤) ، (٥) العبارة الواردة بين الرقمين ليست واضحة تماما ، وقد لاحظ (Blochet : Op.cit.p. 478, N. 5) نفس الملاحظة .

(٦) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٤٤) .

من عكا إلى نابلس ، ونهبوا وقتلوا وأسروا ، وأخذوا منبر الخطيب ؛ وخرجوا يوم الأحد بعد ما أفسدوا أموالا كثيرة.. وفى يوم السبت ثامن عشر المحرم وصل إلى القاهرة الشريف علاء الدين هاشم بن الأمير السيد علىّ من الديوان[١]. وفى عاشر ربيع الآخر مات الشريف علاء الدين هاشم بن الأمير السيد على .

وفيها وصل التتار إلى أرزن الروم ، وأوقع [الملك] المظفر غازى ، [صاحب ميافارقين[٢]] ، بالخوارزمية . وفيها ماتت ضيفة خاتون ابنة العادل أبى بكر بن أيوب ، ليلة الجمعة لإحدى عشرة خلت من جمادى الأولى . فاستبد ابن ابنها الناصر يوسف بن الظاهر[٣] غازى بمملكة حلب بعدها ، وقام بتدبيره بعد جدته الأمير شمس الدين لؤلؤ الأتابك ، والأمير جمال الدين إقبال [الأسود[٤] الخصى] الخاتونى ، والوزير الأكرم جمال الدين بن القفطى . وخرج إقبال من حلب بعسكر ، وحارب الخوارزمية ، ثم عاد .

وفيها مات الخليفة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد العباسى أمير المؤمنين ، بكرة يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة ؛ وكان سبب موته أنه فصد بمبضع مسموم . فكانت خلافته سبع عشرة سنة غير شهر ، وقيل مات فى ثانى عشريه . وكانت مدته خمس عشرة سنة ، وأحد عشر شهراً وخمسة أيام ؛ وله

---

(١) الديوان هنا هو ديوان الخليفة العباسى ببغداد ، وكان هذا الأمير رسولا إلى القاهرة من عند الخليفة المستنصر . انظر ابن الفرطى : الحوادث الجامعة ، ص ٥٠ ، ٥٣ ، ٩٠ ، ٩٩ .

(١) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٢١ ، فى Rec. Hist. Or. I) . ويلاحظ أنه يوجد خلاف جوهرى بين ما هو وارد هنا ، فى الخوارزمية والمظفر غازى ، وبين ما جاء عنهما فى أبى الفداء (نفس المرجع والصفحة) ، ونصه : " وفى هذه السنة كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازى صاحب ميافارقين ، وبين عسكر حلب ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص ، مصاف قريب الخابور .. فولى المظفر غازى والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة ... ونهبت وطاقات الخوارزمية ونساؤهم ... ووصل عسكر حلب حمص إلى حلب ... مؤيدين منصورين ... " .

(٣) يوجد هنا أيضا فرق جوهرى بين رواية المقريزى ، وما يقابلها فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٢١ ، فى Rec. Hist. Or. I) ، فهناك أن الملك العزيز ، وليس الظاهر غازى ، هو أبو الملك الناصر يوسف .

(٤) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (نفس المرجع والصفحة) .

من العمر إحدى وخمسون(١) سنة ، وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكان حازما عادلا ، وفى أيامه عمرت بغداد عمارة عظيمة ، وبنى بها المدرسة المستنصرية . وفى أيامه قصد التتار بغداد ، فاستخدم العساكر حتى قيل إنها زادت عدتها على مائة ألف إنسان . فقام من بعده فى الخلافة ابنه المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله ، وقام بأمره أهل الدولة ، وحسنوا له جمع الأموال ، وإسقاط أكثر الأجناد . فقطع كثيراً من العساكر ، وسالم التتر ، وحمل إليهم المال .

وفيها بنى بعض غلمان الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ ، وزير الملك الصالح [نجم الدين أيوب] ، بناء بأمر مخدومه على سطح مسجد بمصر ، وجعل فيه طبلخاناه عماد الدين [ابن شيخ الشيوخ] . فأنكر ذلك قاضى القضاة عز الدين بن عبد السلام ، ومضى بنفسه وأولاده ، حتى هدم البناء ، ونقل ما على السطح . ثم أشهد [قاضى القضاة] على نفسه (١٨١ ا) أنه قد أسقط شهادة الوزير معين الدين ، وأنه قد عزل نفسه من القضاء . فلما فعل ذلك ولى الملك الصالح عوضه قضاء مصر صدر الدين أبا منصور موهوب بن عمر ابن موهوب بن إبراهيم الجزرى ، الفقيه الشافعى — وكان ينوب عن ابن عبد السلام فى الحكم ، فى ثالث عشرى ذى القعدة .

وفيها قدم مكة الحاج من بغداد ، بعد ما انقطع ركب العراق سبع سنين عن مكة(٢) . وكان من خبر مكة ، شرفها الله تعالى ، أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بعث ألف فارس عليهم الشريف شيحة بن قاسم أمير المدينة ، فى سنة سبع وثلاثين . فبعث الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول من اليمن بابن النصيرى ، و [معه] الشريف راجح ، إلى مكة فى عسكر كبير . ففر الشريف شيحة بمن معه ، وقدم القاهرة . فجهز السلطان الملك الصالح معه عسكراً قدم بهم مكة ، فى سنة ثمان وثلاثين ، وحجوا بالناس فبعث ابن رسول من اليمن عسكراً كبيراً ، فطلب عسكر مصر من السلطان الملك الصالح نجدة ، فبعث إليهم بالأمير

(١) فى س " خمسين " .

(٢) ما يلى هذا إلى آخر الوارد تحت هذه السنة ، مكتوب على ورقة منفصلة فى س ، بين صفحتى ٨٠ ب ، ٨١ ا ، وليس من إشارة إلى الموضع الذى أراد المقريزى وصله به ، وليست العبارة مذكورة فى ب (١٩٨ ا) البتة .

مبارز الدين على بن الحسين بن برطاس ، والأمير مجد الدين أحمد بن التركانى ، فى مائة وخمسين فارسا . فلما بلغ ذلك عسكر اليمن أقاموا على السرين ، وكتبوا إلى ابن رسول بذلك ، فخرج بنفسه فى جمع كبير يريد مكة ، ففر المصريون على وجوههم ، وأحرقوا ما فى دار السلطان بمكة من سلاح وغيره . فقدم الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول مكة ، وصام بها شهر رمضان ، سنة تسع وثلاثين ، واستناب بمكة مملوكه فخر الدين الشلاح(١) .

* * *

سنة إحدى وأربعين وستمائة . فيها قدم التتر بلاد الروم ، وأوقعوا بالسلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان ، وهزموه وملكوا بلاد الروم وخلاط وآمد . فدخل غياث الدين فى طاعتهم ، على مال يحمله إليهم . وملكوا أيضا سِيوَاس(٢) وقَيْسَارِيّة(٣) بالسيف ، وقرروا على صاحبهما(٤) فى كل سنة أربعمائة ألف دينار . ففر غياث الدين منهم إلى القسطنطينية ، ، وقام من بعده ركن الدين ابنه — وهو صغير — إلى أن قُتِل(٥) .

---

(١) كذا فى س ، وبغير ضبط . واسمه فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٦٩ ، ٧٧) فخر الدين السلاخ .

(٢) بغير ضبط فى س ، وسيواس بلد بآسيا الصغرى ، يمر بواديها نهر قزل إرمك ، وهى واقعة على مسافة ستين ميلا من قيسارية ، وعلى مسيرة يومين من توقات . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٩٠ ؛ ج ٢ ، ص ٨٦٥ ؛ ج ٥ ، ص ٢٢ ؛ وأيضا (Blochet : Op. Cit. p. 483, N. 1 .

(٣) بغير ضبط فى س ، وقيسارية — أو قيصرية — اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد إمبراطوريتهم بالشرق ، وبشمالى إفريقية وإسبانيا أيضا . ومن هذه قيصرية فلسطين ، الواقعة على الشاطئ ، على مسافة أربعة وعشرين ميلا جنوبى حيفا . ومنها قيصرية الروم ، وهى المقصودة هنا بالمتن ، وتقع على نهر قاراصو ، إحدى فروع نهر قزل إرمك (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٤) ، وأيضا (Enc. Isl. Art. Kaisariya) .

(٤) فى س "صاحبها" . والمعروف أن سيواس وقيسارية ، وملطية أيضا ، كانت قد آلت ثلاثتها منذ سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) إلى سلطان السلاجقة الروم ، بعد وفاة صاحبها ذى النون بن دانشمند . راجع (Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 156 ; Enc. Isl Arts. Kaisariya & Danishmandiya) .

(٥) يوجد خلاف جوهرى بين الوارد هنا ، عن غياث الدين كيخسرو ، وبين ما يقابله فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٢١ — ١٢٢ ، فى (Rec, Hist. Or. I. ونصه : " وهرب غياث الدين كيخسرو إلى بعض المعاقل . ثم أرسل إلى التتر ، وطلب الأمان ، ودخل فى طاعتهم ، ثم توفى =

وفيها تكررت المراسلة بين الصالح نجم الدين أيوب ، و بين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، و بين المنصور صاحب حمص : على أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل ، ومصر للصالح أيوب ، وكل من صاحب حمص وحماة وحلب على ما هو عليه ؛ وأن تكون الخطبة والسكة فى جميع هذه البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يطلق الصالح إسماعيل الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك الصالح نجم الدين من الاعتقال ، و [أن] يخرج الأمير حسام الدين أبو على بن محمد بن أبى على بن باشاك[1] المذبانى ، المعروف بابن أبى على ، من اعتقاله ببعلبك ، وأن ينتزع الصالح إسماعيل الكرك من الملك الناصر داود .

فلما تقرر هذا خرج من القاهرة الخطيب أصيل الدين الإسْعِرْدِى[2] — إمام السلطان — فى جماعة ، وسار إلى دمشق . فخُطِب للسلطان [الملك الصالح نجم الدين أيوب] بجامع دمشق وبحمص ؛ وأُفْرِج عن المغيث ابن السلطان ، وأركب ثم أعيد إلى القلعة ، حتى يتم بينهما الحلف ؛ وأُفْرِج عن الأمير حسام الدين ، وكان قد ضيق عليه وجعل فى جب مظلم . فلما وصل [حسام الدين] إلى دمشق خلع عليه الصالح إسماعيل ؛ وسار إلى مصر ، ومعه رسول الصالح إسماعيل ، ورسول صاحب حمص — وهو القاضى عماد الدين بن القطب قاضى حماة ، ورسول صاحب حلب . فقدموا على الملك الصالح نجم الدين ، ولم يقع اتفاق ، وعادت الفتنة بين الملوك .

فاتفق الناصر داود صاحب الكرك ، مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، على محاربة الملك الصالح نجم الدين . وعاد رسول حلب ، وتأخر ابن القطب بالقاهرة . فبعث الناصر داود

= سنة ٦٥٤ ... وخلف [ولدين] صغيرين ، وهما ركن الدين وعز الدين . ثم هرب عز الدين إلى قسطنطينية ، وبقى ركن الدين فى الملك تحت حكم التتر ، والحاكم البرواناه معين الدين سليمان . والبرواناه لقبه ، (١٢٢) وهو اسم الحاجب بالعجمى . ثم إن البرواناه قتل ركن الدين ، وأقام فى الملك ولدا له صغيرا ...“ . هذا وفى (Enc. Isl. Art. Kaikhusraw II.) أن غياث الدين حاول الهرب فعلا إلى بلاد الإغريق ، وسيأتى كل ذلك مفصلا بالمتن هنا .

(١) فى س ” ماشاك “ ، انظر (Blochet : Op. cit, p. 484) .

(٢) بغير ضبط فى س ، والإسعردى نسبة إلى إسعرد ، وهى بلدة بين دجلة وميافارقين . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index.)

والصالح إسماعيل ، ووافقا الفرنج على أنهم يكونون[١] عونا لهم على الملك الصالح نجم الدين ، ووعداهم أن يسلما إليهم القدس . وسلماهم (٨١ ب) طبرية وعسقلان [أيضا] ، فعمّر الفرنج قلعتيهما وحصونهما ، وتمكن الفرنج من الصخرة بالقدس ، وجلسوا فوقها بالخمر ، وعلّقوا الجرس على المسجد[٢] الأقصى .

فبرز الملك الصالح [نجم الدين أيوب] من القاهرة ، ونزل بركة الجب وأقام عليها . وكتب إلى الخوارزمية يستدعيهم إلى ديار مصر ، لمحاربة أهل الشام ؛ فخرجوا من بلاد الشرق .

وفى يوم عيد النحر صرف الملك الصالح نجم الدين قاضى القضاة صدر الدين موهوب الجزرى ، وقلد الأفضل الخَوْنَجِى[٣] قضاء مصر والوجه القبلى . وفيها هرب الصارم ...[٤] المسعودى من قلعة الجبل ، وقد صبغ نفسه حتى صار أسود ، على صورة عبد كان يدخل إليه بالطعام ؛ فأُخِذ من بلبيس ، وأعيد إلى معتقله . وفيها أنشأ شهاب الدين ريحان — خادم الخليفة — رباط الشرابى بمكة ، وعمر بعرفة أيضاً .

* * *

سنة اثنتين وأربعين وستمائة فيها ورد إلى دمشق كتاب بدر الدين لؤلؤ ، صاحب الموصل ، [وفيه يقول] : " إنى قررت على أهل الشام قطيعة للتتر فى كل سنة ، من الغنى عشرة دراهم ، ومن المتوسط خمسة دراهم . ومن الفقير درهم " . فقرأ القاضى محيي الدين بن زكى الدين الكتاب على الناس ، ووقع الشروع فى جباية المال .

---

(١) فى س " يكونوا " .

(٢) شاهد جمال الدين بن واصل ؛ صاحب كتاب مفرج الكروب ، ما أحدثه الفرنج ببيت المقدس . انظر (العينى : عقد الجمان ، ص ١٩٧ ، فى Rec. Hist. Or. II. I.) .

(٣) فى س " الحونجى " ، وبغير ضبط ، والنسبة إلى خونج — أو خونا ، وهى بلدة من أعمال آذربيجان ، بين مراغة وزنجان ، فى طريق الرى ، وسميت فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ — ٥٠٠) كاغد كنان ، أى بلد صناع الكاغد .

(٤) بياض فى س .

وفيها قطع الخوارزمية الفرات ، ومقدموهم الأمير حسام الدين بركه[1] خان ، وخان بردى ، وصاروخان ، وكشلوخان ، وهم زيادة على عشرة آلاف مقاتل . فسارت [منهم] فرقة على بقاع بعلبك ، وفرقة على غوطة دمشق ، وهم ينهبون ويقتلون ويسبون . فانجفل الناس من بين أيديهم ؛ وتحصن الصالح إسماعيل بدمشق ، وضم عساكره إليه ، بعد ما كانت قد وصلت غزة . وهجم الخوارزمية [على] القدس ، وبذلوا السيف فى من كان به من النصارى ، حتى أفنوا الرجال ، وسبوا النساء والأولاد ؛ وهدموا المبانى التى فى قمامة ، ونبشوا قبور النصارى ، وأحرقوا رممهم . وساروا إلى غزة فنزلوها ، وسيروا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب — فى صفر — يخبرونه[2] بقدومهم . فأمرهم بالإقامة فى غزة ، ووعدهم ببلاد الشام ، بعد ما خلع على رسلهم ، وسير إليهم الخلع والخيل والأموال . وتوجه فى الرسالة إليهم جمال الدين أقوش النَّجِيبِى[3] ، وجمال الدين بن مطروح .

وجهز [الملك الصالح نجم الدين أيوب] عسكراً من القاهرة عليه الأمير ركن الدين بيبرس ، أحد مماليكه الأخصاء الذين كانوا معه وهو محبوس بالكرك . فسار إلى غزة ، وانضم إلى الخوارزمية جماعةٌ من القَيْمَرِيَّة[4] ، [كانوا قد] قدموا معهم من الشرق . ثم خرج الأمير حسام الدين أبو على[5] بن محمد بن أبى على الهذبانى بعسكر ، ليقيم على نابلس .

---

(١) روجعت هذه الأسماء على منطوقها فى (Blochet : Op. cit. p. 487) . راجع أيضاً أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٢٤ ، فى Rec, Hist. Or. I) .

(٢) فى س « يخبروه » .

(٣) فى س " النجى " ، وقد ضبط هذا اللفظ على منطوقه فى (Blochet : Op. Cit. P. 488) .

(٤) بغير ضبط فى س ، والقيمرية نسبة إلى قيمر ، وهى قلعة فى الجبال بين الموصل وخلاط ، كان أهلها فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٨) من الأكراد . انظر أيضا أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٣٠ ، فى Rec. Hist Or.I) .

(٥) فى س " بوعلى " .

وجهز الصالح إسماعيل عسكرا من دمشق ، عليه الملك المنصور صاحب حمص . فسار المنصور جريدة إلى عكا ، وأخذ الفرنج ليحاربوا معه عساكر مصر ؛ وساروا إلى نحو غزة ، وأتتهم نجدة الناصر داود صاحب الكرك (١٨٢) مع الظهير بن سنقر الحلبي والوزيرى .

فالتقى القوم مع الخوارزمية بظاهر غزة ، وقد رفع الفرنج الصلبان على عسكر دمشق ، وفوق رأس المنصور صاحب حمص ؛ والأقسة[١] تُصَلِّب ، وبأيديهم أوانى الخمر تسقى الفرسان . وكان فى الميمنة الفرنج ، وفى الميسرة عسكر الكرك ، وفى القلب المنصور صاحب حماة فساق الخوارزمية وعساكر مصر ، ودارت بين الفريقين حرب شديدة . فانكسر الملك المنصور ، وفرّ الوزيرى ، وقُبِض على الظهير وجُرِح . وأحاط الخوارزمية بالفرنج ، ووضعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلا وأسراً ، ولم يفلت منهم إلا من شرد . فكان عدّة من أسر منهم ثمانمائة رجل ، وقتل منهم ومن أهل الشام زيادة على ثلاثين ألفاً . وحاز الخوارزمية من الأموال ما يجل وصفه[٢] ، ولحق المنصور بدمشق فى نفر يسير .

وقدمت البشارة إلى الملك الصالح نجم الدين بذلك فى خامس عشر جمادى الأولى ، فأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرها ، وقلعتى الجبل والروضه . فبالغ الناس فى الزينة ، وضربت البشائر عدّة أيام . وقدمت أسرى الفرنج ورءوس القتلى ، ومعهم الظهير بن سنقر وعدة من الأمراء والأعيان ؛ وقد أُرْكِب الفرنج الجمال ، ومن معهم من المقدمين على الخيول . وشقوا القاهرة ، فكان دخولهم يوماً مشهوداً . وعلقت الرءوس على أبواب القاهرة ، وملئت الحبوس بالأسرى .

---

(١) فى س " الاقسا " بغير ضبط ، والأقسة إحدى صيغ جمع لفظ قس — أو قسيس ، ويجمع أيضا على قسان وقساوسة . وقسيسين وقسوس . (محيط المحيط) .

(٢) لم يذكر المقريزى هنا أقصى ما أحدث الخوارزمية فى تلك الحرب ، وهو حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ١٩٨ ، فى Rec. Hist. Or. II 1.) أنهم تعقبوا فلول الفرنج الى القدس ، وهاجموه به " .. ... وبذلوا فى أهله السيف ، وسبوا ذراريهم ونساءهم ، ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة ، فهدموا المقبرة التى يعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام .... " .

وسار الأمير بيبرس ، والأمير ابن أبى[1] على بعساكرهما إلى عسقلان ، ونازلاها فامتنعت عليهم لحصانتها . فسار ابن أبى[2] على إلى نابلس ، وأقام بيبرس على عسقلان . واستولت نواب الملك الصالح نجم الدين على غزة والسواحل ، والقدس والخليل ، وبيت جبريل والأغوار ؛ ولم يبق بيد الناصر داود سوى الكرك والبلقاء ، والصلت وعجلون .

فورد الخبر بموت الملك المظفر تقى الدين [محمود[3] بن المنصور بن تقى الدين] عمر بن شاهنشاه بن أيوب — صاحب حماة ، فى يوم السبت ثامن جمادى الأول ؛ فاشتد حزن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] عليه[4] . ثم ورد الخبر بموت ابنه[5] الملك المغيث عمر بقلعة دمشق ، فزاد حزنه ، وقوى غضبه على عمه الصالح إسماعيل . وقدم إلى القاهرة الخطيب زين الدين أبو البركات عبد الرحمن بن موهوب من حماة ، بسيف الملك المظفر ، ومعه تقدمة من عند ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ، لتسع مضين من شوال .

وخرج الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على (٨٢ ب) العساكر من القاهرة ، ومعه الدهليز السلطانى والخزائن . وأقامه السلطان مقام نفسه ، وأذن له أن يجلس على رأس

(١) فى س " ابو " . (٢) فى س " بو " .

(٣) انظر ما سبق ، ص ١٠٧ .

(٤) الملك المظفر هذا جد المؤرخ أبى الفداء إسماعيل ، صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر . وقد ترجم له أبو الفداء فى مؤلفه هذا (ص ١٢٢ — ١٢٣ ، فى Rec. Hist. Or. I. ، وذكر ما حدث فى حماة بعده ، ونصه : " وفى هذه السنة توفى جدى الملك المظفر تقى الدين محمود ... وكانت مدة مملكته بحماة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام ... وكان شهما شجاعا ، فطنا ذكيا . وكان يحب أهل الفضائل والعلوم ، واستخدم الشيخ علم (١٢٣ ا) الدين قيصر ، المعروف بتعاسيف ، وكان مهندسا فاضلا فى العلوم الرياضية ، فبنى للملك المظفر المذكور أبراجا بحماة ، وطاحونا على النهر العاصى ؛ وعمل كرة من الخشب مدهونة ، رسم فيها جميع الكواكب المرصودة ، وعملت هذه الكرة بحماة . قال القاضى جمال الدين بن واصل ، وساعدت الشيخ علم الدين على عملها ، وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ، ويسألنا عن مواضع دقيقة فيها . ولما مات الملك المظفر ... ملك بعده ولده الملك المنصور محمد ... وعمره حينئذ عشر سنين وشهر ... والقائم بتدبير المملكة سيف الدين طغريل مملوك الملك المظفر ، وشاركه الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيوخ ، والطواشى مرشد ، والوزير بهاء الدين ابن التاج ؛ ومرجع الجميع إلى والدة المنصور غازية خاتون ، بنت الملك الكامل " .

(٥) ضمير الهاء هنا عائد على الملك الصالح نجم الدين أيوب .

السماط(١) ، ويركب كما هي عادة الملوك ، وأن يقف الطواشي شهاب الدين رشيد أستادار السلطان في خدمته على السماط ، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديه ، كعادتهم في خدمة السلطان ؛ وكتب إلى الخوارزمية أن يسيروا في خدمته . فسار [الصاحب معين الدين] من القاهرة بالعساكر إلى غزة ، وانضاف إليه الخوارزمية والعسكر . وسار إلى بيسان ، فأقام بها مدّة ، ثم سار إلى دمشق فنازلها ، وقد امتنع بها الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم صاحب حمص . وعاثت الخوارزمية في أعمال دمشق ، فبعث الصالح إسماعيل إلى ابن شيخ الشيوخ بسجادة وإبريق وعكاز ، وقال له : "اشتغالك بهـذا أولى من اشتغالك بقتال الملوك" . فلما وصل ذلك إليه جهز إلى الصالح إسماعيل جَنكا وزمرا وغِلالة حرير ، وقال : "السجادة والإبريق والعكاز يليقون بي ، وأنت أولى بالجنك والزمر والغلالة" ؛ واستمر [الصاحب معين الدين] على محاصرة دمشق . فبعث الخليفة المعتصم بمحيي الدين بن الجوزي إلى الملك الصالح نجم الدين ومعه خلعه : وهي عمامة سوداء ، وفرَجية مذهبة ، وثوبان ذهب ، وسيف(٢) بذهب ، وطوق ذهب ، وعلمان حرير ، وحصان وترس ذهب ؛ فلبس [الملك الصالح نجم الدين] الخلعة على العادة . وكانت الأقاويل بمصر قد كثرت لمجيئه(٣) ، وتأخر قدومه . فقال الصلاح ...(٤)... بن شعبان الإربلي : —

(١) السماط هنا المائدة السلطانية ، أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين . (محيط المحيط ؛ و Dozy : Supp. Dict. Ar.) . وفي المقريزي (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٠ — ٢١١) وصف للأسمطة السلطانية ، زمن الأيوبيين والمماليك ، ونصه : "وكانت العادة أن يمد بالقصر ، في طرفي النهار من كل يوم ، أسمطة جليلة لعامة الأمراء ، خلا البرانيين وقليل ما هم . فبكرة يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان ؛ ثم ثان بعده يسمى الخاص ، قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ؛ ثم ثالث بعده ، ويسمى الطارئ ، ومنه مأكول السلطان . وأما في آخر النهار فيمتد سماطان ، الأول والثاني [وهو] المسمى بالخاص ... وفي كل هذه الأسمطة ، يؤكل ما عليها ويفرق نوالات (كذا) ؛ ثم يسقى بعدها الأقسماء المعمولة من السكر ، والأفاويه المطيبة بماء الورد المبردة ... وبلغ مصروف السماط في كل يوم عيد الفطر من كل سنة خمسين ألف درهم ، عنها (لعله منها) نحو ألفين وخمسمائة دينار تنهبه الغلمان والعامة ..." .

(٢) في س "سبق" .

(٣) ضمير الهاء هنا عائد على محيي الدين بن الجوزي ، ويريد المقريزي بهذه العبارة أن يشير إلى إبطاء الخليفة المستعصم بالله ، في الاعتراف بسلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب حتى هـذه السنة . راجع (Blochet: Op. cit. p. 492) .

(٤) بياض في س .

قالوا الرسول أتى قالوا إنه ... ما رام يوما عن دمشق نزوحا

ذهب الزمان وما ظفرت بمسلم ... يروى الحديث عن الرسول صحيحا

وفيها قُتِـل أميرُ بنى مَرِين محمد بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة ، فى حربه مع عسكر الموحدين[١] . وولى بعده أخوه أبو يحيى بن عبد الحق .

و [فيها] ورد كتاب [بدر الدين] لؤلؤ من الموصل بجباية قطيعة[٢] التتر من دمشق ، فقرأ كتابة القاضى محيى الدين بن الزكى على العادة .

وفيها استوزر الخليفة أستاداره مؤيد الدين محمد بن العلقمى ، فى ثامن ربيع الأول ، عوضا عن نصير الدين أبى الأزهر أحمد بن محمد بن على بن الناقد . وفيها استولى التتر على شَهْرَزُور[٣] . وفيها بلغ الأردب القمح بمصر أربعمائة درهم نُقْرَة .

* * *

سنة ثلاث وأربعين وستمائة . فيها كثرت محاربة ابن شيخ الشيوخ لأهل دمشق ومضايقته للبلد ، إلى أن أحرق قَصْر[٤] حَجَّاج فى ثانى محرم ، ورَمَى بالمجانيق وألح بالقتال . فأحرق الصالح إسماعيل فى ثالثة عدة مواضع ؛ ونهبت أموال الناس ، وجرت شدائد ، إلى أن

(١) مؤسس دولة الموحدين بالمغرب هو أبو عبد الله محمد بن تومرت ، المتوفى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) . وقد دال المغرب كله ، وإسبانيا الإسلامية أيضاً ، لملوك تلك الدولة منذ سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) . ثم حدث فى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) أن أوقعت الدول المسيحية بإسبانيا هزيمة منكرة بجيوش الموحدين فى وقعة (Las Navas) . وبهذه الوقعة يبتدئ انكماش دولة الموحدين ، وتألب أعدائها من المسلمين والمسيحيين بإسبانيا والمغرب ، ومن أولئك أمراء بنى مرين بمراكش . وانقضت دولة الموحدين سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٥ م) ، بعد وفاة آخر ملوكها أبى العلاء الواثق . (Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 45-47 ; Enc. Isl. Art. Almohades) .

(٢) القطيعة هنا ما يفرض من المال على بلد أو إقليم ، للإنفاق على الاستعدادات الحربية الدفاعية . (محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى كورة واسعة فى الجبال الواقعة بين إربل وهمذان ، وتبعد عن ديلمستان سبعة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤٠ — ٣٤٢) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهو محلة كبيرة فى ظاهر باب الجابية من مدينة دمشق ، وترجع نسبتها إلى حجاج ابن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١٠) .

أهلّ شهر ربيع الأول . ففيه خرج المنصور صاحب حمص من دمشق ، وتحدث معه بركه خان مقدم الخوارزمية فى الصلح ، وعاد إلى دمشق . فأرسل الوزير أمين الدولة كمال الدين أبو الحسن ...(١) بن غزال المعروف بالسامرى إلى الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ ، يسأله الأمان ليجتمع به ، فبعث إليه بقميص وفرجية وعمامة ومنديل ، فلبس ذلك وخرج ليلا ، لأيام مضت من جمادى الأولى ؛ (١٨٣) فتحادثا ورجع إلى دمشق . ثم خرج فى ليلة أخرى ، وقُرِّرَ أن الصالح إسماعيل يسلم دمشق ، على أن يخرج منها هو والمنصور بأموالهم ، ولا يُعترض لأحد من أصحابهم ولا لشىء مما معهم ؛ وأن يُعوض الصالح عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالها ، وجميع بلاد السواد ؛ وأن يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة . فأجاب [أمين الدولة] إلى ذلك ، وحلف الصاحب معين الدين لهم ؛ فخرج الصالح إسماعيل والمنصور من دمشق .

ودخل الصاحب معين الدين فى يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى ، ومنع الخوارزمية من دخول دمشق . ودبَّر الأمر أحسن تدبير ، وأقطع الخوارزمية الساحل بمناشير كتبها لهم ، ونزل فى البلد . وتسلم الطواشى شهاب الدين رشيد القلعة ، وخطب بها و بجامع دمشق وعامة أعمالها للملك الصالح نجم الدين ؛ وسلم أيضاً الأمير سيف الدين على بن قلج قلعة عجلون لأصحاب الملك الصالح ، وقدم إلى دمشق .

فلما وردت الأخبار بذلك على السلطان أنكر على الطواشى شهاب الدين والأمراء كيف مكنوا الصالح إسماعيل من بعلبك ، وقال : " إن معين الدين حلف له ، و [أما] أنتم فما حلفتم " . وأمر [الملك الصالح نجم الدين] أن يسير الركن الهيجاوى ، والوزير أمين الدولة السامرى ، تحت الحوطة إلى قلعة الروضة ، فَسُيِّرا من دمشق إلى مصر ؛ واعتقلا بقلعة الجبل فاتفق مرض الصاحب معين الدين ووفاته بدمشق ، فى ثانى عشرى شهر رمضان ، فكتب السلطان إلى الأمير حسام بن أبى على الهذبانى ، وهو بنابلس ، أن يسير إلى دمشق و يتسلمها ؛

(١) بياض فى س .

فسار إليها وصار نائباً بدمشق ؛ والطواشى رشيد بالقلعة . وأفرج السلطان عن الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ — وكان قد لزم بيته — وخلع عليه وأمّره وقدّمه ، وبالغ فى الإحسان إليه ، و[كان] لم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره .

وأما الخوارزمية ، فإنهم ظنوا أن السلطان إذا انتصر على عمه الملك الصالح إسماعيل يقاسمهم البلاد ؛ فلما مُنعوا من دمشق ، وصاروا فى الساحل وغيره من بلاد الشام ، تغيرت نياتهم ، واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان ، وساروا إلى داريّا[1] وانتهبوها ، وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس وهو على غزة بعسكر جيد من عساكر مصر ، وحسنوا له أن يكون معهم يداً واحدة ويزوّجوه منهم ، فمال إليهم ؛ وكاتبوا (٨٣ ب) الناصر داود صاحب الكرك ، فوافقهم ونزل إليهم واجتمع بهم وتزوّج منهم ، وعاد إلى الكرك واستولى على ما كان بيد الأمير حسام الدين بن أبى على ، من نابلس والقدس والخليل ، وبيت جبريل والأغوار .

وخاف الصالح إسماعيل ، فكاتب الخوارزمية وقدم إليهم ؛ فحلفوا له على القيام بنصرته ، ونازلوا دمشق . فقام الأمير حسام الدين بن أبى على بحفظ البلد أحسن قيام ، وألح الخوارزمية — ومعهم الصالح إسماعيل — فى القتال ونهب الأعمال ، وضايقوا دمشق ، وقطعوا عنها الميرة ، فاشتد الغلاء بها ، وبلغت الغِرارة القمح إلى ألف وثمانمائة درهم فضة ، ومات كثير من الناس جوعا ؛ وباع شخص دارا قيمتها عشرة آلاف درهم ، بألف وخمسمائة درهم اشترى بها غرارة قمح ، فقامت عليه فى الحقيقة بعشرة آلاف درهم ؛ وأبيع الخبز كل أوقية وربع بدرهم ، واللحم كل رطل بسبعة دراهم . ثم عدمت الأقوات بالجملة ، وأكل الناس القطاط والكلاب والميتات ؛ ومات شخص بالسجن ، فأكله أهل السجن . وهلك عالم عظيم من الجوع والوباء ، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر . وصار من يمر من الجبل يشتم ريح نتن الموتى ، لعجز الناس عن مواراة موتاهم ؛ ولم تنقطع مع هذا الخمور والفسوق من بين الناس .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية كبيرة بالغوطة من قرى دمشق ، والنسبة اليها دارانى ، على غير قياس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٣٦) .

و [أخذ] الملك الصالح نجم الدين مع ذلك فى إعمال الحيل والتدبير ، وما زال بالمنصور إبراهيم صاحب حمص حتى مال إليه ، واتفق [أيضا] مع الحلبيين على محاربة الخوارزمية . فخرج الملك الصالح نجم الدين من القاهرة بعساكر مصر ، ونزل العباسة ؛ فوافاه بها رسلى الخليفة ، وهما الملك [محمد][1] ابن وجه السبع ، وجمال الدين عبد الرحمن بن محيي الدين [أبى محمد يوسف[2]] ابن الجوزى فى آخر شوّال ، ومعهما التقليد والتشريف الأسود : وهو عمامة سوداء ، وجبّة وطوق ذهب ، وفرس بمركوب بحلية ذهب . فنُصِب المنبر ، وصعد عليه [جمال الدين عبد الرحمن] محيي الدين بن الجوزى الرسول ، وقرأ التقليد بالدهليز السلطانى ، والسلطان قائم على قدميه ، حتى فرغ من القراءة . ثم ركب السلطان بالتشريف الخليفتى ، فكان يوما مشهودا . وكان قد حضر أيضا من [عند] الخليفة تشريف باسم الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ ، فوجد [أنه] قد مات ؛ فأمر السلطان أن يفاض على أخيه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، فلبسه .

فلما بلغ الخوارزمية مسير السلطان من مصر ، ومسير [الملك] المنصور [إبراهيم] صاحب حمص[3] بعساكر حلب ، رحلوا عن دمشق يريدون لقاء المنصور . فوجد (١٨٤ ا) أهل دمشق برحليهم فرَجا ، ووصلت إليهم الميرة ، وانحل السعر .

* * *

سنة أربع وأربعين وستمائة . فيها أرسل الملك الصالح نجم الدين أيوب القاضى نجم الدين محمد بن سالم النابلسى ، المعروف بابن قاضى نابلس — وكان متقدّما عنده — إلى مملوكه الأمير ركن الدين بيبرس . فما زال يخدعه ويُمَنِّيه ، حتى فارق الخوارزمية ؛ وقدم معه إلى ديار مصر ، فاعتقل بقلعة الجبل ، وكان آخر العهد به .

---

(١) انظر ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ١٧٩ .

(٢) موضع ما بين القوسين بياض فى س . (انظر ص ٢٦٨ ، سطر ٥) .

(٣) فى س " حماه " ، وقد غيرت إلى " حمص " بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٠ ب ، ٣٤٦ ا — ب ، ٣٤٩ ا) . هذا ولا عبرة بوجود ملك اسمه المنصور محمد بحماة تلك السنة ، فإنه كان إبان تلك الحوادث لا يعدو إحدى عشرة سنة ، وليس من المحتمل أن يقود مثله جيشا ضد الخوارزمية . انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، فى Rec. Hist. Or.) ؛ راجع أيضا ما يلى ، ص ٣٢٤ ، سطر ١٨ .

وفيها عظمت مضرة الخوارزمية ببلاد الشام ، وكثر نهبهم للبلاد ، وسفكهم للدماء وانتهاكهم للحرمات . والتقوا مع [الملك] المنصور [إبراهيم صاحب حمص] وعساكر حلب ، وقد انضم إليهم[1] عرب كثير وتركمان ، نصرة للملك الصالح نجم الدين ؛ وذلك بظاهر حمص أوّل يوم من المحرّم ، وقيل ثانيه . فكانت بينهم وقعة عظيمة انهزم فيها الخوارزمية هزيمة قبيحة ، تبدد منها شملهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة . وقُتل مقدمهم بركه خان وهو سكران ، وأسر كثير منهم . واتصل من فرّ منهم بالتتار ؛ وفيهم من مضى إلى البلقاء ، وخدم الملك الناصر داود صاحب الكرك ؛ فتزوّج [الناصر] منهم ، واختص بهم ، وقويت شوكته . وسار بعضهم إلى نابلس ، فاستولوا عليها ؛ ووصل بعض من كان معهم ممن انهزم إلى حران ؛ ولحق أيبك المعظمى بقلعة صرخد ، وامتنع بها . وسار الصالح إسماعيل إلى حلب فى عدّة من الخوارزمية ، فأنزله الملك الناصر صاحب حلب وأكرمه ، وقبض على من قدم معه من الخوارزمية . ووردت البشرى بهذه الهزيمة إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى المحرّم ، فزينت القاهرة ومصر والقلعتان .

وسار الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى من دمشق ، واستولى على بعلبك بغير حرب فى رجب ؛ وحُمل منها الملك المنصور نور الدين محمود بن الملك الصالح إسماعيل ، وأخوه الملك السعيد عبد الملك إلى الديار المصرية تحت الاحتياط ، فاعتقلوا . وزينت القاهرة لفتح بعلبك زينة عظيمة ، هى ومصر : وكان أخذ بعلبك عند السلطان أحسن موقعاً من أخذه لدمشق ، حنقا منه على عمه الصالح إسماعيل .

وانصلحت الحال بين السلطان وبين المنصور صاحب حمص والناصر صاحب حلب[2] ، واتفقت الكلمة . وبعث السلطان إلى حلب يطلب تسليم الصالح إسماعيل ، فلم يُجَب إلى تسليمه[3] . وأخرج السلطان عسكراً كبيراً ، قدّم عليه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ،

(١) الضمير هنا عائد على المنصور إبراهيم وعساكر حلب .

(٢) فى س " الناصر داود صاحب الكرك " ، وخطأ المقريزى واضح من السطور التالية ، ومن ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٤٦ ب) .

(٣) كان بهاء الدين زهير الكاتب الشاعر المشهور ، هو الذى سار بتلك الرسالة إلى الناصر =

وسيره لمحاربة الـكرك . فسار (٨٤ب) إلى غزة ، وأوقع بالخوارزمية ، ومعهم الناصر داود صاحب الـكرك فى ناحية الصلت ، وكسرهم و بدّد شملهم ، وفرّ الناصر إلى الـكرك فى عدّة .

وكانت الـكسرة على الصلت فى سابع عشرى ربيع الآخر ، وسار [فخر الدين] عنها بعد ما حرقها ، واحتاط على سائر بلاد الناصر ، وولى عليها النوّاب ونازل [فخر الدين] الـكرك ، وخرب ما حولها ، واستولى على البلقاء ، وأضعف الناصرَ حتى سأله الأمان . فبعث [فخر الدين يطلب منه من عنده من الخوارزمية ، فسيرهم [الناصر] إليه ، فسار عن الـكرك وهم فى خدمته . ثم نازل[1] [فخر الدين] بصرى ، حتى أشرف على أخذها ؛ فنزل به مرض أشفى منه على الموت وحمل فى محفة إلى القاهرة ؛ وبقى العسكر حتى استولوا عليها .

وقدم المنصور [إبراهيم] صاحب حمص إلى دمشق منتميا إلى السلطان الملك الصالح [نجم الدين أيوب] ، فنزل به مرض مات به[2] فى صفر . فحزن عليه السلطان حزنا كثيرا . لأنه كان يتوقع وصوله إليه . فقام من بعده بحمص ابنه الأشرف مظفر الدين موسى .

= صاحب حلب وقد امتنع الناصر من تسليم الصالح إسماعيل ، لاستجارته به . وهـذا نص ما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٤٦ ب) عما حدث : " وأما الملك الصالح عماد الدين إسماعيل فإنه بعد الـكسرة سار إلى حلب ، فأقام بها ملتجئا إلى الملك الناصر بن الملك العزيز . وأرسل بعد ذلك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الملك الناصر كاتبه بهاء الدين زهيرا ، يطلب منه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل . فلما ذكر بهاء الدين زهير للملك الناصر صاحب حلب ذلك شق عليه ، وقال كيف يحسن أن يلتجىء إلى خال أبى ، وهو كبير البيت ، وأسيره إلى من يقتله . وليس من المروءة إذا استجار [إنسان] بالسان أن يخفر ذمته ويسلمه إلى عدوه ، هذا شىء لا يكون أبدا . فرجع بهاء الدين زهير إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بهذا الجواب ، فتألم لذلك وسكت عنه ، وكان فى غاية الحنق عليه " .

(١) فى س « فنازل " .

(٢) كان الملك المنصور إبراهيم مسلولا ، واشتد به ذلك المرض بدمشق ، فمات منه . وقد ترجم له ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٤٩ ب) بالآتى : « كان الملك المنصور صاحب حمص ملـكا جليلا شجاعا ، مقداما ذا همة عالية . وكان له أمر عظيم فى عسكر السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، فى سنة سبع وعشرين وستمائة ، مع الملك الأشرف ، فإن والده كان سيره نجدة له . وكسر الخوارزمية مرتين فى الشرق ، وأضعف ركنهم ؛ ثم كسرهم الـكسرة العظمى بعيون القصب ، وقتل ملـكهم وفرق جمعهم . وكان على خلاف طريقة أبيه فى سياسة الرعية ، فإن أباه كان عنده حيف كثير وعسف ، فخرب بذلك حمص وبلادها ، وتفرق أهلها فى البلاد . فلما ولى المنصور إبراهيم أحسن إلى الرعية ، ولطف بهم . =

وفيها تسلم الملك الصالح نجم الدين عجلون، بوصية صاحبها سيف الدين بن قليج عند موته.

وفيها سير الصاحب جمال الدين أبو الحسن [يحيى[1]] بن عيسى [بن][2] إبراهيم بن مطروح إلى دمشق وزيراً وأميراً، وأنعم عليه بسبعين فارسا بدمشق. وصرف الأمير حسام الدين بن أبي على الهذباني عن نيابة دمشق، وولى مكانه الأمير مجاهد الدين إبراهيم، وأقر الطواشي شهاب الدين بالقلعة على حاله. فلما دخل ابن مطروح إلى دمشق خرج منها الأمير حسام الدين، وسار إلى القاهرة. فلما قدم على السلطان، وهو بقلعة الجبل، أقره في نيابة السلطنة بديار مصر، وأنزله بدار الوزارة من القاهرة.

وخرج السلطان بالعساكر في شوال يريد دمشق من قلعة الجبل، واستناب بديار مصر الأمير حسام الدين بن أبي على. فدخل إلى دمشق في سابع عشر ذى القعدة، وكان دخوله يوما مشهودا. فأحسن إلى الناس، وخلع على الأعيان، وتصدق على أهل المدارس والرُّبط وأرباب البيوت بأربعين ألف درهم. وسار بعد خمسة عشر يوما إلى بعلبك، فرتب أحوالها، وأعطى لأهل المدارس والربط وأرباب البيوت عشرين ألف درهم. وسار إلى بصرى، وقد تسلمها نواب السلطان من الأمير شهاب الدين غازى، نائب الملك الصالح إسماعيل، فتصدق على مدارس بصرى وربطها وأرباب البيوت بعشرين ألف درهم. وجهز [السلطانُ] الأميرَ ناصر الدين القيمرى، والصاحب جمال الدين بن مطروح، إلى صَلْخَد[3] — وبها الأمير عز الدين أيبك المعظمى، فما زالا به حتى سلم صلخد، وسار (١٨٥ ا) إلى مصر. وتصدق السلطان

= وكانت عنده سماحة كف وحسن تأنى، فعمرت حمص فى أيامه، وتراجع إليها من أهلها من كان برح عنها؛ وبث فيهم العدل، وأطلق كثيرا ممن كان حبسه أبوه وأطال سجنه. وكان له أخ يقال له الملك المسعود، فخاف منه وحبسه بقلعة الرحبة، فلم يزل فى حبسه إلى أن مات. وكان الملك المسعود رحمه الله ذا حزم ورأى، إلا [أنه] كان قليل السعادة".

(١)، (٢) ليس لما بين الأقواس وجود ظاهر فى س، وذلك لورود الاسم كله بطرف الهامش، عند ملتقى صفحتى ٨٤ ب، ٨٥ ا، ولكنه وارد فى ب (١٠٢ ا).

(٣) كذا فى س بغير ضبط، وهى صرخد المتقدم ذكرها مرارا، وكتابتها باللام أقرب إلى اسمها الأصلى (Salchah). انظر (Le Strange: Palest. Under Moslems. P. 529).

فى القدس بألفى دينار مصرية ؛ وأمر بذَرْع سور القدس ، فكان ذراعه ستة آلاف ذراع بالهاشمى ، فأمر بصرف مغل القدس فى عمارته ، وإن احتاج إلى زيادة حملت[(١)] من مصر .

و [فيها] سار الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بعسكر إلى طبرية ، فنازلها حتى أخذها من يد الفرنج ، وهدم ما استجده الفرنج من القلاع . وسار [أيضاً] إلى عسقلان ، فحاصرها حتى أخذها من الفرنج ، وهدم الحصون .

وفيها مات الملك العادل أبو بكر بن الكامل محمد خنقا ، بقلعة الجبل . وقيل كان خنقه قبل هذه السنة ، وقيل بل كان فى سنة خمس وأربعين ، [والقول[(٢)] الثانى] أثبت . وسبب قتله أنه كان معتقلا فى برج العافية من قلعة الجبل ، فلما عزم السلطان على المسير إلى الشام ، بعث يأمره أن يتوجه إلى قلعة الشوبك ليعتقل بها ، فامتنع من ذلك . فبعث [السلطان] إليه من خنقه ، وأشاع أنه مات ، ثم ظهر أمره . وأُخرج ابنه المغيث عمر إلى الشوبك ، فاعتقل بها . ولما مات العادل دفن خارج باب النصر ، ولم يجسر أحد يبكى عليه ولا يذكره . وترك [العادل] ولدا يقال له الملك المغيث عمر ، أُنزل إلى القاهرة عند عماته ، ثم أخرج إلى الشوبك[(٣)] . وكان عمر [العادل[(٤)]] يوم مات نحو ثلاثين سنة ، وأقام مسجونا نحو ثمانى سنين . وفيها وقع الاختلاف بين الفرنج[(٥)] .

---

(١) فى س "حمل".

(٢) موضع ما بين القوسين بياض فى س ، وقد أضيف ما بينهما بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Adil. II) ، وما بذيل تلك المقالة من المراجع ، وأيضا ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥١ ب — ٣٥٢ ا) .

(٣) كان المغيث عمر هذا شأن كبير فيما بعد . (انظر تحت سنة ٦٤٨) .

(٤) فى س "عمره" ، وقد حذف الضمير وأثبت عائده بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥١ ب — ٣٥٢ ا) . ويوجد فى نفس المرجع (ص ٣٥٢ ا) ترجمة قصيرة للملك العادل نصها : "كان جوادا كثير البذل ، وأنفق الخزائن الذى (كذا) جمعها والده الملك الكامل فى المدة اليسيرة ، وكان قد جمعها [الكامل] فى المدة الطويلة . وكانت أيامه زاهية زاهرة ، والأسعار فى غاية الرخص . إلا أنه لم يكن فيه صرامة وحسن سياسة يضبط بها الجند ، وقدم الأرذال وأخر الأكابر ، ولم يكن له سعادة مع تقدير الله تعالى ، فجرى عليه ما جرى" .

(٥) الراجح أن المقريزى يشير هنا إلى ما وقع إبان تلك السنة (١٢٤٦ م) من أدوار النزاع بين البابا (Innocent IV) والإمبراطور (Frederic II) ، والذى انتهى بوفاة الإمبراطور سنة ١٢٥٠ م . =



سنة خمس وأربعين وستمائة . فيها عاد [السلطان] الملك الصالح من دمشق إلى ديار مصر ، بعد ما أخذ عسقلان وخربها فى جمادى الآخرة ، و [بعد أن] تسلم أيضاً قلعة بارزين(١) من عمل حماة ، فى رمضان . وفى عوده إلى مصر عرض له — وهو بالرمل — وجع فى حلقه ، أشفى منه على الموت ؛ ثم عوفى ودخل إلى قلعته سالماً ، وزينت البلدان والقلعتان(٢) فرحا به . وكتب [السلطان] إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن يسير من بلاد الفرنج بالساحل إلى دمشق ، فسار إليها بمن معه من العسكر ، وأنعم على من بها من الأمراء وغيرهم ، وخلع عليهم . وأخذت عسقلان عنوة ، يوم الخميس ثانى عشر جمادى الآخرة . بعساكر السلطان .

= ويقوى هذا الترجيح أنه لم يقع اختلاف ظاهر بين الفرنج ، بالشام أو فلسطين ، تلك السنة . انظر (Stevenson : Crusaders In The East. pp. 322-324) . هـذا وقد أفاض العينى (عقد الجمان ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، فى Rec. Hist. Or. II. I.) فى وصف ما حدث بين الإمبراطور والبابا ، وذكر حقائق ثابتة من تاريخ أوربا فى القرون الوسطى ، ومثل ذلك قليل نادر فى المراجع العربية . انظر (Camb. Med. Hist. VI. pp. 167-165) . وهذا نص ما جاء فى العينى : "ومنها ، وهى سنة أربع وأربعين وستمائة ، أنه وصلت الأخبار من البحر ، صحبة مركب وصل من صقلية إلى الإسكندرية ، أن البابا غضب على الأنبرور ، وعامل خواصه الملازمين له على قتله وكانوا ثلاثة ، وقال [لهم] قد خرج الأنبرور عن دين النصرانية ، ومال إلى المسلمين ، فاقتلوه وخذوا بلاده لـكم . وأقطع [البابا] كل واحد مملكة : فأعطى واحدا صقلية ، والآخر تصقانة (Tuscany) ، والآخر بولية (Apulia) ، وهذه ممالك الأنبرور . وكتب أصحاب الأخبار إلى الأنبرور بذلك ، فعمد إلى مملوك له فجعله فى مكانه على التخت ، وأظهر أنه قد شرب دواء . وأرسل إلى الثلاثة ، فجاءوا والمملوك نائم على التخت ، فظنوه الأنبرور ؛ وقد اختفى الأنبرور فى مجلس ، ومعه مائة فارس . فلما دخلوا على المملوك مالوا عليه بالسكاكين فقتلوه ، فذبحهم فى يدة ، وسلخهم وحشا جلودهم تبنا ، وعلقهم على باب القصر . وبلغ البابا ، فبعث إلى قتاله جيشا ، والخلف واقع بينهم . وهذا الأنبرور هو الذى أعطاه الملك الـكامل القدس . قال السبط ، ذكر ألقابه الملك الـكبير الأجل ، الخطير الأعز الأثير ، قيصر المعظم ، انبرطور المقتدر بقدرة الله ، المتعلى بعزته ، مالك اللمانية (Allemania) والأنبردية (Lombardy) وصقلية ، وحافظ بيت (ص ٢٠٠) المقدس ، معز إمام رومية ، مالك ملوك النصرانية ، حامى الممالك الفرنجية ، قايد الجيوش الصليبية" .

(١) بغير ضبط فى س ، وكانت تلك البلدة وكفرطاب أيضا فى يد عز الدين بن المقدم ، سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) . انظر أبا شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٦١ ، فى Rec. Hist. Or. IV) .

(٢) فى س « البلدين والقلعتين » .

وفيها تسلم نواب السلطان قلعة الصُّبَيْبَة[١] . وحضر إلى حلب من حماة الطواشى شجاع الدين مرشد المنصورى ، والأمير مجاهد الدين أمير جاندار ، لإحضار سيدة الخواتين عصمة الدنيا والدين عائشة خاتون ، ابنة الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب . فسارت ومعها أمها الستر الرفيع فاطمة خاتون ، ابنة الملك الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب ، فى رمضان — ، وهى فى تجمل زائد ، ومحفتها ملبسة ثوب حرير بذهب مكلل بالجواهر . فتلقاها زوجها الملك المنصور صاحب حماة .

وفيها حكر الناس البستان[٢] الكافورى بالقاهرة ، وعمروا فيه الدور . وفيها قبض على الأمير عز الدين أيبك المعظمى بدمشق ، وحمل إلى القاهرة تحت الحوطة ، فاعتقل بها فى دار صواب . ورافعه ولده بأن ماله الذى حمله من صلخد ، كان مبلغ ثمانين خُرْجاً[٣] أودعها ؛ فلما بلغه ذلك سقط إلى الأرض ، وقال : "هذا آخر العهد بالدنيا" (٨٠ ب) ، ولم يتكلم بعدها حتى مات . وفيها سار السلطان من قلعة الجبل ، ونزل بقصره فى أشموم طناح[٤] . وفيها خُنق الملك العادل أبو بكر بن محمد الكامل ، فى ثانى عشر شوال[٥] .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة بانياس. (Le Strange : Palest. Under Moslems, p. 419) انظر أيضاً (Blochet : Op.cit. p. 503. N. 3.) .

(٢) كان هذا البستان مطلا على الخليج ، وقد أنشأه محمد بن طغج الإخشيد أمير مصر ، واعتنى به وجعل له أبوابا من حديد ، وكان ينزل به ويقيم فيه الأيام . واهتم بشأن هذا البستان من بعد الإخشيد ابناه ، أبو القاسم أونوجور وأبو الحسن على ، فى أيام إمارتهما على مصر بعد أبيهما . فلما استبد بعدهما أبو المسك كافور الإخشيدى بإمارة مصر ، كان كثيراً ما يتنزه به ، ويواصل الركوب إلى الميدان الذى كان فيه ، وكانت خيوله بهذا الميدان . فلما قدم جوهر الصقلى بجيوش الفاطميين لأخذ مصر ، أناخ بجوار هذا البستان ، وجعله من جملة القاهرة ، فصار متنزهاً للخلفاء الفاطميين مدة أيامهم . وكانوا يتوصلون إليه من سراديب وأقباء مبنية تحت الأرض ، ينزلون إليها من القصر الكبير الشرقى ، ويسيرون فيها بالدواب . وما زال هذا البستان عامراً إلى أن زالت الدولة ، فحكر وبنى فيه كما هو مذكور بالمتن هنا ، وعملت السراديب والأقباء أسربة ومجار تصب فى الخليج ، وبقيت كذلك إلى أيام المقريزى ، أى القرن التاسع الهجرى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٥٧) .

(٣) الخرج كيس من الجلد أو الشعر ، ذو عدلين يوضع على ظهر الدابة ، وجمعه خرجة وأخراج وخراج . (محيط المحيط) .

(٤) ليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ، ما يفسر سبب خروج الملك الصالح نجم الدين إلى أشموم طناح تلك السنة ، والراجح أنه خرج إليها للاستشفاء والترويح من مرضه السابق . (انظر ص ٣٢٨ ، سطر ٣) .

(٥) فى هذا الشهر من تلك السنة ، نقلا عن ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٢ ا — ب) ، =

* * *

سنة ست وأربعين وستمائة . فيها كتب السلطان من أشموم طناح إلى نائبه بديار مصر الأمير حسام الدين بن أبي على ، أن يرحل بالحلقة السلطانية والدهليز السلطانى إلى دمشق ؛ وأقام [السلطان] بدله فى نيابة السلطنة بالقاهرة الأمير الجواد جمال الدين ، وأبا الفتح موسى بن يغمور[1] بن جلدك . فسار [الأمير حسام الدين] ، ونزل بالقصور التى أنشأها[2] السلطان الملك الصالح [أيوب] ، وجعلها مدينة بالسائح فى أول الرمل ، [وجعل فيها سوقا جامعا ، ليكون مركز العساكر عند خروجهم من الرمل] ، وسماها الصالحية . وأقام[3] [حسام الدين بالصالحية] مقام السلطان ، [وطال مقامه بها نحو أربعة أشهر . ثم سار] ليدرك الملك الأشرف صاحب حمص ، فإن الأخبار وردت بمسير عساكر حلب مع الأمير شمس الدين لؤلؤ [الأمينى] ، والملك الصالح إسماعيل ، لأخذ حمص . فلم يدركه [حسام الدين] ، وسلم الأشرف حمص ، وصارت للناصر صاحب حلب ، وتعوض [الأشرف] عن حمص تل باشر[4] .

فلما بلغ السلطان ذلك عاد من أشموم طناح إلى القاهرة ، وخرج منها إلى عسكره

= " توفى بقلعة الجبل أيضاً بدر الدين سليمان بن داود بن العاضد ، الذى كان آخر الخلفاء المصريين . وكان [رئيس] بيت الشيعة الإسماعيلية ببغداد ، وعادتهم يعتقدون الإمامة بعد موت العاضد فى ابنه داود ابن العاضد . و[كان هو] وإخوته محبوسين بقلعة الجبل ، وقد منعوا من النساء لينقطع نسلهم . فدس بعض الشيعة جارية إلى داود بن العاضد ، فوطئها فولدت له سليمان ، بعد أن أخرجها الشيعة من القلعة سراً ، وتركوا ولدها فى بعض النواحى . فظفر الملك الكامل به ، فاعتقله فى القلعة وبقى فيها معتقلا . والشيعة ودعاتهم يجتمعون به ، ويعتقدون الإمامة فيه بعد أبيه داود . ولما توفى فى هذه السنة ، ما بقى لهم من يعتقدون إمامته ، (٣٥٢ ب) إلا أنه بلغنى أن فيهم من يعتقدون أن لسليمان هذا ولداً (فى الأصل بهذا ولد) مختفياً بالصعيد ، والله أعلم " .

(١) كان الأمير جمال الدين بن يغمور ، قبل تعيينه لنيابة السلطنة بالقاهرة ، متولياً لدار الصناعة بها ، فأصبح متولياً الوظيفتين . (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٥٢ ب ، ٣٥٥ أ) .

(٢) فى س " انشا " .

(٣) فى س " قام " ، وقد عدل هذا الفعل ، وأضيف ما بين الأقواس بسائر هذه الفقرة ، بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥١ ب ، ٣٥٣ ب) .

(٤) أطلق هذا الاسم على قلعة حصينة ، وكورة واسعة أيضاً ، فى شمالى حلب ، بينها وبين حلب يومان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٦٤) .

بالصالحية ؛ وسار فى محفة لما به من المرض ، بسبب ورم مأبضه[١] . [وكان قد] اشتدّ [به] حتى حصل منه ناصور ، وحدث معه قرحة فى الصدر ؛ إلا أن همته كانت قوية ، فلم يُلقِ نفسه[٢] . وسار [السلطان] إلى دمشق ، ونزل بقلعتها .

وبعث [السلطان] بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، ومعه الأمراء والعساكر ، وفيهم الأمير ابن أبى على الهذبانى ، إلى حمص . فنازلها ورمى عليها بمنجنيق زنة حجره مائة وأربعون رطلا ، ومعه ثلاثة عشر منجنيقا أخر . وسخر الناس فى حمل هذه المجانيق من دمشق ، حتى كان يحمل كل عود ثمنه نحو عشرين درهما بألف درهم ، فإن الوقت كان شتاء صعبا . وألح [الأمير فخر الدين] فى الحصار إلى أن قدم من بغداد الشيخ نجم الدين البادرائى ، رسولا من الخليفة [المستعصم بالله] ، بالصلح بين الحلبيين و بين السلطان . فتقرر الصلح ، ورحل العسكر عن حمص ، بعد ما أشرف[٣] على أخذها .

---

(١) المأبض — أو الأبض ، باطن الركبة أو المرفق ، وجمعها مآبض وآباض . (محيط المحيط) .

(٢) ألم كل ذلك بالسلطان الملك الصالح أيوب ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص٣٠٣ ا)، وهو مقيم بأشموم طناح . وهذا نص عبارة ابن واصل : " وكان الملك الصالح نجم الدين وهو بأشمون طناح (كذا) قد عرض له ورم فى مخاصيه ، ثم فتح وحصل له منه تعسر بول . وبعد ذلك حصلت له قرحة ، تيقنت الأطباء أنه لا خلاص له منها ، لكنه لم يشعر بذلك . وكان من كبر نفسه يحمل ذلك ، وكان له همة عالية تحمله على النهضة والحركة ، ومرضه وضعفه يوجب (كذا) تراخيه على الإنجاد للملك الأشرف ...".

(٣) أجاب السلطان الملك الصالح إلى الصلح ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص٣٠٤ ب) ، " لأمرين : أحدهما ما كان به من المرض ، والثانى أنه بلغه حركة الفرنج وقصدهم الديار المصرية ، فى جموع عظيمة من داخل البحر " . انظر أيضا (نفس المرجع ، ص ٣٠٦ ا) ، و (Stevenson : Crusaders In The East. p. 325) . هذا وقد كانت أخبار الفرنج ، حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٠١ ، فى Rec. Hist Or. II. I.) تتواتر إلى الملك الصالح ... من جهة الانبرور .. فإنه كان مصافيا للملك الكامل أبيه ، وكذلك له ..." ويشير ابن واصل هنا إلى فزع بعض ملوك أوربا ، وأولهم (Louis IX) ملك فرنسا ، من هزيمة الصليبيين عند غزة (انظر ص ٣١٧ ، سطر ٤) ، وتسليمهم بيت المقدس (انظر ص ٣١٨ ، سطر ٣) . وقد قام ملك فرنسا على رأس حملة معظم جنودها من الفرنسيين ، وهى المعروفة فى تاريخ الحروب الصليبية بالسابعة . ووصلت تلك الحملة جزيرة قبرص فى سبتمبر سنة ١٢٤٨ م (رجب سنة ٦٤٦ هـ) ، وقصدت مصر بعد انقضاء شتاء تلك السنة ، وأخبارها واردة هنا فيما يلى . راجع أيضا (Stevenson : Op. cit. pp. 324-326)

وقدم من حلب الشيخ شمس الدين الُخسْرُوَشاهى[١] ، فسأل السلطانَ على لسان الملك الناصر داود صاحب الكرك ، أن يسلم الكرك إلى السلطان ، و يعتاض عنها بالشو بك . فأجيب [الناصر داود] إلى ذلك ، وتوجه من يتسلم منه الكرك . ثم رجع[٢] [الناصر] عن ذلك ، لما بلغه من شدّة مرض السلطان ، وتحرك الفرنج لأخذ ديار مصر . فخرج السلطان من دمشق فى محفة ، وسار إلى الغور ؛ وقدم الأمير حسام الدين بن أبي على[٣] إلى القاهرة ، لينوب عنه بها ؛ واستُدعى بالأمير جمال الدين بن (١٨٦) يغمور من القاهرة ، لينوب بدمشق ؛ وعُزل الصاحب جمال الدين بن مطروح عن دمشق ، وعزل الطواشى شهاب الدين رشيد عن قلعة دمشق ، وفوّض ما كان بيدهما للأمير جمال الدين بن يغمور .

وفيها احترق المشهد الحسينى بالقاهرة ، واحترقت المنارة الشرقية بجامع دمشق . [وفيها] مات قاضى القضاة أفضل الدين الخونجى ، فى شهر رمضان ؛ فولى من بعده ابنه قاضى القضاة جمال الدين يحيى .

وفيها مات الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب ، صاحب الرها ؛ وقام من بعده ابنه الكامل محمد فى سلطنة الرها وميافارقين .

وفيها عزل الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول صاحب اليمن الأمير فخر الدين بن الشلاح عن مكة وأعمالها ؛ وولى عوضه محمد بن أحمد بن المسيب[٤] ، على مال يقوم به ، وقَوَد [عدده] مائة فرس ، كل سنة . فقدم [ابن المسيب] مكة ، وخرج الأمير

(١) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى خسرو شاه ، وهى قرية . فى فارس ، بينها وبين تبريز ستة فراسخ . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٤٣ ، وابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٣١١ ، وسبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ص ٥٢٧ .

(٢) فى س "فرجع" .

(٣) فى س "بو على" ، وقد جمع الأمير حسام الدين بين وظيفتى نيابة السلطنة وتولية دار الصناعة ، كما اتفق قبلا لابن يغمور . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ١٣٥٥) .

(٤) كذا فى س بغير ضبط ، واسمه فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٧٧) ابن المسيب . ويلاحظ أن عبارة المقريزى هنا مشابهة فى لفظها وترتيبها لما يقابلها فى الخزرجى ، ويظهر أن المقريزى اعتمد هنا على ذلك المرجع . هذا وقد أضيف ما بين الأقواس ، بسائر هذه الفقرة ، من نفس المرجع والصفحة .

فخر الدين فساءت سيرة ابن المسيب ، وأعاد الجبايات والمكوس بمكة ، وأخذ الصدقة الواردة من اليمن ، وأخذ ما كان بمكة من مال السلطان ، و بنى حصنا بنخلة [يسمى العطشان] وحلّف هذيلا[1] لنفسه ، ومنع الجند النفقة . فوثب عليه الشريف أبو سعد بن على بن قتادة ، وقيّده وأخذ ماله ، وقال لأهل الحرم : "إنما فعلت به هذا لأنى تحققت أنه يريد الفرار بالمال إلى العراق . وأنا غلام مولانا السلطان والمال عندى محفوظ والخيل والعدد ، إلى أن يصل مرسومه" . فلم يكن غير أيام ، وورد الخبر بموت السلطان نور الدين عمر ابن رسول .

* * *

سنة سبع وأربعين وستمائة . فيها قدم السلطان من دمشق ، وهو مريض فى محفة ، لما بلغه من حركة الفرنج . فنزل بأشموم طنّاح فى المحرم ، وجمع فى دمياط من الأقوات والأسلحة شيئا كثيرا . و بعث إلى الأمير حسام الدين بن أبى على نائبه بالقاهرة ، أن يجهز الشوانى من صناعة مصر ؛ فشرع فى تجهيزها ، وسيرها شيئا بعد شىء . وأمر [السلطان] الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن ينزل على جيزة[2] دمياط بالعساكر ، ليصير فى مقابلة الفرنج إذا قدموا . فتحول [الأمير فخر الدين] بالعساكر ، فنزل بالجيزة تجاه دمياط ، وصار النيل بينه و بينها . ولم يقدر السلطان على الحركة لمرضه ، ونودى فى مصر : "من كان له على السلطان أو عنده [له] شىء ، فليحضر ليأخذ حقه" ؛ فطلع الناس وأخذوا ما كان لهم .

وفى الساعة الثانية من يوم الجمعة لتسع بقين من صفر ، وصلت مراكب الفرنج البحرية ، وفيها جموعهم العظيمة صحبة ريدَافرنس — و يقال له الفرنسيس ، واسمه لُوَيْس بن لُوَيْس وريدَافرنس لقب بلغة الفرنج ، معناه ملك آفرنس[3] — وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله ، فأرسوا

---

(١) كانت هذيل هذه قبيلة صغيرة ، مساكنها شرقى مكة . (الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، ج ٣ من الترجمة الإنجليزية ، ص ٦٤ ، حاشية رقم ٣٧٤) .

(٢) يقول ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٦ ا) إن الأمير فخر الدين نزل على "بحيرة دمياط" ، وفى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٠١ ، فى .Rec. Hist. Or. II. 1) "جزيرة دمياط" .

(٣) ضبط المقريزى بعض ألفاظ هذه العبارة على النحو المثبت هنا ، وقد رؤى عدم إضافة علامات ضبط أخرى ، لبيان مدى حاجة عصر المقريزى لضبط الألفاظ الأجنبية ، ولوضوح العبارة نفسها . وفى =

فى البحر بإزاء المسلمين . وسير ملك الفرنج إلى السلطان كتابا ، نصه بعد كلمة كفرهم : "أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية . وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون [1] إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار . وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، و بذلت لك النصح إلى النهاية . فلو حلفت لى بكل الأيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ماردنى ذلك عن الوصول إليك ، وقتالك (٨٦ ب) فى أعز البقاع عليك . فإن كانت البلاد لى ، فيا هدية حصلت فى يدى ؛ و إن كانت البلاد لك والغلبة علىّ ، فيدك العليا ممتدة إلىّ . وقد عرفتك وحذرتك ، من عساكر قد حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا " .

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرئ عليه ، اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع [2] . فكتب الجواب بخط القاضى بهاء الدين زهير بن محمد ، كاتب الإنشاء ، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين : "أما بعد فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك . فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قِرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه . فلو رأت عيناك — أيها المغرور ! — حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفَتْحَنا منكم الحصون والسواحل ، و إخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل ،

= ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٥ ب) عدا الأسماء والألقاب الواردة هنا ، حقائق عن الملك الفرنسى (Louis IX) ، تشهد بسعة دراية المؤرخين المسلمين بأحوال الدول المجاورة ، ونصها : " وكان هذا اريد افرنس من أعظم ملوك الفرنجية ، وأشدهم بأسا . وافرنس هى أمة من الفرنج ، ومعنى ريد افرنس ملك افرنس ، فإن ريد فى لغتهم معناها الملك . وكان متديناً بدين النصرانية مرتبطاً به ، فحدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج ، إذ هو بيت معبودهم على ما يزعمون ، وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية . وذكر أن جمعه كان ما بين فارس وراجل خمسين ألفاً وأكثر ، وكان خروجه وحركته فى السنة الماضية ، وقصد أولا جزيرة قبرس " .

(١) فى س : " يحملوا " .

(٢) معنى استرجع هنا أنه قال : "إنا لله وإنا إليه راجعون" . (محيط المحيط) .

لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزلّ بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك . فهنالك تسيء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . فإذا قرأت كتابى هذا ، فكن فيه على أول سورة النحل : أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ؛ وكن على آخر سورة ص : "وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى ، وهو أصدق القائلين : كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ؛ و[إلى] قول الحكماء : إن الباغى له مصرع ؛ وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يقلبك ، والسلام" .

وفى يوم السبت نزل الفرنج فى البر الذى عساكر المسلمين فيه ، وضُربت للملك رَيْدا(١) فرنس خيمة حمراء . فناوشهم المسلمون الحرب ، واستشهد يومئذ الأمير نجم الدين (٢) ... بن شيخ الإسلام — وكان رجلا صالحا ، ورتبه الملك الناصر داود مع الملك الصالح نجم الدين ، لما سجن بالكرك ، لمؤانسته . وممن استشهد أيضا الأمير صارم الدين إزبك الوزيرى . فلما أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بمن معه من عساكر المسلمين ، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى ، الذى فيه مدينة دمياط . وخلا البر الغربى للفرنج ، وسار [فخر الدين] بالعسكر يريد أشموم طناح .

فلما رأى أهل دمياط رحيل العسكر ، خرجوا كأنما يسحبون على وجوههم طول الليل ، ولم يبق بالمدينة أحد ألبتة ، وصارت [دمياط] فارغة من الناس جملة . وفروا (١٨٧ ا) إلى أشموم مع العسكر ، وهم حفاة عراة جياع فقراء ، حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء . وساروا إلى القاهرة ، فنهبهم الناس فى الطريق ، ولم يبق لهم ما يعيشون به . فعُدَّت هذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به . وقد كانت دمياط فى أيام الملك الكامل ، لما نازلها الفرنج ، أقل ذخائر وعددا منها فى هذه النوبة ؛ ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة ، عندما فنى أهلها بالوباء والجوع ، وكان فيها هذه المرة أيضا جماعة من شجعان بنى كنانة ، فلم يغن ذلك شيئا .

---

(١) مضبوط هكذا فى س .

(٢) بياض فى س .

وأصبح الفرنج يوم الأحد، لسبع بقين من صفر، سائرين إلى مدينة دمياط. فعندما رأوا أبوابها مفتحة ولا أحدَ يحميها، خشوا أن تكون مكيدة، فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها. فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار، واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية، والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة، والأقوات والأزواد والذخائر، والأموال والأمتعة وغير ذلك، صفوًا عفوًا.

وبلغ ذلك أهل القاهرة ومصر، فانزعج الناس انزعاجا عظيما، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر، لتملك الفرنج مدينة دمياط، وهزيمة العساكر، وقوّة الفرنج بما صار إليهم من الأموال والأزواد والأسلحة، والحصن الجليل الذى لا يُقدر على أخذه بقوّة، — مع شدّة مرض السلطان، وعدم حركته.

وعند ما وصلت العساكر إلى أشموم [طناح]، ومعهم أهل دمياط، اشتدّ حنق السلطان على الكنانيين، وأمر بشنقهم، فقالوا: "وما ذنبنا إذا كانت عساكره جميعهم وأمراؤه هربوا، وأحرقوا الزرد خاناه، فأى شىء نعمل نحن؟" فشنقوا لكونهم[(١)] خرجوا من المدينة بغير إذن، حتى تسلمها الفرنج، فكانت عدّة من شنق زيادة على خمسين أميرا من الكنانية. [وكان] فيهم أمير حَشِيم، وله ابن جميل الصورة. فقال أبوه: "بالله اشنقونى قبل ابنى". فقال السلطان: "لا! بل اشنقوه قبل أبيه". فشنق الابن، ثم شنق الأب من بعده، بعد أن استفتى السلطان الفقهاء فأفتوا بقتلهم.

وتغير السلطان على الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وقال: "أما قدرتم تقفون[(٢)] ساعة بين يدى الفرنج؟ هذا وما قتل منكم إلا هذا الضيف الشيخ نجم الدين". وكان الوقت لا يسع إلا الصبر والتغاضى، (٨٧ ب) وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين، فخاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان، وهموا بقتله. فأشار عليهم فخر الدين بالصبر، حتى يتبين أمر السلطان: "فإنه على حَطّة[(١)]، وإن مات كانت الراحة منه، وإلا فهو بين أيديكم".

(١) فى س "كونهم". (٢) فى س "تقفوا".

(١) معنى "على حطة" أنه قد برح به المرض، وفى (Dozy: Supp. Dict. Ar.) مثل لهذا المعنى، وهو "أمك على حطة"، وترجمته إلى الفرنسية "ta mère est dangereusement malade".

ولما وقع ما ذُكر أمَرَ السلطان بالرحيل إلى المنصورة ، وحمل فى حراقة حتى أنزل بقصر المنصورة على بحر النيل ، فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر . فشرع كل أحد من العسكر فى تجديد الأبنية للسكنى بالمنصورة ، ونصبت بها الأسواق ، وأصلح السور الذى على البحر وستر بالستائر . وقدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجالة ، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد ، من كل النواحى ؛ ووصلت عربان كثيرة جدا ، وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم . وحصن الفرنج أسوار دمياط ، وشحنوها بالمقاتلة .

فلما كان يوم الاثنين سلخ شهر ربيع الأول ، وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العرب ستة وثلاثون أسيرا ، منهم فارسان وفى خامس شهر ربيع الآخر وصل سبعة وثلاثون أسيرا ؛ وفى سابعه وصل اثنان وعشرون أسيرا ؛ وفى سادس عشره وصل خمسة وأربعون أسيرا ، منهم ثلاثة من الخيالة .

ولما بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط ساروا منها ، وأخذوا صيداء من الفرنج ، بعد حصار وقتال فورد الخبر بذلك لخمس بقين من شهر ربيع الآخر ، فسر الناس بذلك .

هذا والأسرى من الفرنج تصل فى كل قليل إلى القاهرة ، ووصل فى ثامن عشر جمادى الأولى خمسون أسيرا . ومع ذلك والمرض يتزايد بالسلطان ، وقواه تنحط ، حتى وقع يأس الأطباء من برئه وعافيته ، لاجتماع مرضين عظيمين ، هما الجراحة الناصورية فى مأبضه والسل .

وأما الناصر داود صاحب الكرك ، فإنه لما ضاقت به الأمور استخلف[1] ابنه الملك المعظم [شرف الدين[2]] عيسى ، وأخذ معه جواهره ، وسار فى البر إلى حلب ، مستجيرا بالملك الناصر يوسف بن الملك العزيز ؛ فأنزله وأكرمه وسيَّر الناصرُ بجواهره إلى الخليفة المستعصم بالله ، لتكون عنده وديعة ؛ فقبض [الخليفة] ذلك ، وسير إليه الخط بقبضه وأراد الناصر بذلك أن يكون الجوهر فى مأمن ، فإذا احتاج إليه

(١) فى س " استحلف " .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٧ ب) .

طلبه ؛ وكانت (١٨٨) قيمته ما ينيف على مائة ألف دينار[١] . فخنق ولدا الناصر — [وهما الملك الظاهر شادى[٢] ، والملك الأمجد حسن] — ، على أبيهما ، لكونه قدم عليهما المعظم ، وقبضا على المعظم ، واستوليا على الكرك . وأقام الملك الظاهر شادى — وهو أسنّ إخوته — بالكرك . وسار الملك الأمجد حسن إلى الملك الصالح نجم الدين ، فوصل إلى المعسكر بالمنصورة ، يوم السبت لتسع مضين من جمادى الآخرة ، وبشّره بأنه هو وأخوه الظاهر أخذا الكرك له ، وسأله فى خبز بديار مصر يقوم بهما . فأكرمه السلطان ، وأعطاه مالا كثيرا ؛ وسير الطواشى بدر الدين الصوابى إلى الكرك نائبا بها وبالشوبك . فتسلمها [بدر الدين] ، وسير أولاد الناصر داود جميعهم ، وأخويه [الملك] القاهر [عبد الملك] ، والملك المغيث [عبد العزيز[٣]] ، ونساءهم وعيالاتهم كلها ، إلى العسكر [بالمنصورة] . فأقطعهم السلطان إقطاعا جليلا ، ورتب لهم الرواتب ، وأنزل أولاد الناصر فى الجانب الغربى قبالة المنصورة . وكان استيلاء نائب السلطان على الكرك يوم الاثنين ، لاثنتى عشرة بقيت من جمادى الآخرة ؛ وسر السلطان بأخذ الكرك سرورا عظيما ، وأمر فزينت القاهرة ومصر ، وضربت البشائر بالقلعتين . وجهز [السلطان] إلى الكرك ألف ألف دينار مصرية ، وجواهر وذخائر وأسلحة ، وشيئا كثيرا مما يعز عليه .

وفى ثالث عشر شهر رجب وصل إلى القاهرة سبعة وأربعون أسيرا من الفرنج ، وأحد

---

(١) لم تقع عين الناصر على تلك الجواهر بعد إيداعها عند الخليفة ، ذلك أن التتر استولوا عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، عندما أخذوا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله . (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٥٧ ا) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٨ ا) . وفى نفس المرجع والصفحة أن الملك الناصر داود فضل ولده المعظم شرف الدين عيسى على سائر إخوته ، وأقامه مقام نفسه بالكرك ، لأن والدته أم ولد تركية ، كان يميل إليها الملك الناصر داود ميلا كثيراً ، ويحب ابنها أكثر من محبته لإخوته الباقين . وكان للناصر ولدان من ابنة عمه الملك الأمجد ابن الملك العادل ، وهما الملك الظاهر شادى ، والملك الأمجد حسن . وكان الملك الظاهر أكبر أولاده ، وقد ولد بقلعة دمشق ، قبل أن تؤخذ دمشق منه . وكان الملك الأمجد نبيها فاضلا ، مشاركا فى علوم شتى . هذا وقد كان للناصر أولاد عدا هؤلاء ، من أمهات أخرى .

(٣) أضيف ما بين الأقواس من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٨ ب) .

عشر فارسا منهم ؛ وظفر المسلمون بعد أيام بمُسَطَّح(١) للفرنج فى البحر ، فيه مقاتلة ، بالقرب من نَسْتَرَاوَة(٢) .

فلما كان ليلة الاثنين نصف شعبان ، مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة ، [وهو] فى مقابلة الفرنج ، عن أربع وأربعين سنة ، بعد ما عهد لولده [الملك المعظم] توارنشاه ، وحلَّف له فخر الدين ابن الشيخ ومحسن الطواشى ، ومن يثق به ؛ وبعد ما علَّم قبل موته عشرة آلاف علامة . يستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته ، حتى يقدم ابنه تورانشاه من حصن كيفا . وكانت أم(٣) [السلطان الملك الصالح] أم ولد ، اسمها ورد المنى ؛ وكانت مدة ملكه بمصر عشر سنين إلا خمسين يوما(٤) . فغسله أحد الحكماء الذين تولوا علاجه ، لكى يخفى موته . وحمل فى تابوت إلى قلعة الروضة ، وأخفى موته ، فلم يشتهر إلى ثانى عشرى رمضان ؛ ثم نقل بعد ذلك بمدة إلى تربته بجوار المدارس الصالحية بالقاهرة .

والملك الصالح هو الذى أنشأ المماليك البحرية بديار مصر : وذلك أنه لَمَّا مَرَّ به ما تقدّم ذكره ، فى الليلة التى زال عنه ملكه ، بتفرق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه ، حتى لم يثبت معه سوى مماليكه ، رعى لهم ذلك . فلما استولى على مملكة مصر أكثر من

---

(١) نوع من السفن ، جمعه مسطحات ، والغالب أنه سمى بذلك لأنه كان له مسطح ، وقد وصفه Dozy بالآتى : (Dozy : Supp. Dict. Ar.) "Sorte de navire, peut - être un navire qui a un pont, un tillac."

(٢) بغير ضبط فى س ، وتسمى أيضاً نسترو ، وكانت تطلق فى تلك العصور على بلدة البرلس الحالية ، وعلى بحيرة البرلس أيضاً . وكانت بلدة نستراوة إذ ذاك ، حسبما جاء فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٨٠ ؛ انظر أيضاً ج ١ ، ص ٥٩٣) ، جزيرة يصاد فيها السمك ، وعلى أهلها ضمان خمسين ألف دينار . ولم يكن عندهم ماء عذب ، وإنما يأتيهم فى المراكب ، فإذا لاحت لهم مراكب الماء ضربوا بوق البشارة سرورا ، ثم يأتى كل رجل بجرته يأخذ فيها الماء ، ويحملها إلى بيته . راجع أيضا Enc. Isl·Art. Burullus)

(٣) فى س " امه " .

(٤) كانت وفاة السلطان الملك الصالح أيوب ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٠٩ أ) " ليلة الأحد لأربع عشر ليلة مضت من شعبان ... ... فكانت مدة ملكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما . وكان عمره نحو أربعين سنة ، لأن مولده سنة ثمان (ثمانية فى الأصل) وستماية " .

شراء المماليك ، وجعلهم معظم عسكره ؛ وقبض على الأمراء [الذين كانوا[1] عند أبيه وأخيه ، واعتقلهم وقطع أخبازهم] ؛ وأعطى[2] [مماليكه] الإمريات ، فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه (٨٨ ب) ، وسماهم بالبحرية لسكناهم معه فى قلعة الروضة على بحر النيل .

وكان ملكا شجاعا حازما مهيبا[3] ، لشدّة سطوته وفخامة ناموسه ، مع عزة النفس وعلو الهمة ، وكثرة الحياء والعفة وطهارة الذيل عن الخنا ، وصيانة اللسان من الفحش فى القول ، والإعراض عن الهزل والعبث بالكلية ، وشدّة الوقار ولزوم الصمت ، حتى إنه كان إذا خرج من عند حرمه إلى مماليكه ، أخذتهم الرعدة عند ما يشاهدونه — خوفا منه — ، ولا يبقى أحد منهم مع أحد . و [كان] إذا جلس مع ندمائه كان صامتا ، لا يستفزه الطرب ولا يتحرك ، وجلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . وإذا تكلم مع أحد من خواصه ، كان ما يقوله كلمات نزرة وهو فى غاية الوقار ، وتلك الكلمات لا تكون إلا فى مهم عظيم ، من استشارة أو تقدّم بأمر من الأمور المهمة ؛ لا يعدو حديثه قط هذا النحو ، ولا يجسر أحد يتكلم بين يديه إلا جوابا . وما عُرف أبدا عن أحد من خواصه أن تكلم فى مجلسه ابتداء البتة ، ولا أنه جسر على شفاعة ولا مشورة ولا ذكر نصيحة ، ما لم يكن ذلك بابتداء من السلطان ؛ فإذا انفرد بنفسه لا يدنو منه أحد . وكانت القصص ترد إليه مع الخدام فيوقع عليها ، ويخرج بها الخدام إلى كاتب الإنشاء ؛ ولا يستقل أحد من أرباب الدولة بانفراد بأمر ، بل يراجع بالقصص مع الخدام . ومع هذه الشهامة والمهابة لا يرفع بصره إلى من يحادثه ، حياء منه وخفرا ؛ ولم يُسمع منه قط فى حق أحد من خدمه لفظة فحش ، وأكثر ما يقول إذا شتم أحدا : "متخلف" ، لا يزيد على هذه الكلمة ؛ ولا عَرف قط من النكاح سوى زوجته وجواريه .

وكانت البلاد فى أيامه آمنة مطمئنة والطرق سابلة ، إلا أنه كان عظيم الكبر زائد الترفع ، بلغ من كبره وترفعه أن ابنه الملك المغيث عمر ، لما حبسه الملك الصالح إسماعيل عنده ،

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٠٩ ا) .

(٢) فى س "اعطاهم" .

(٣) من س "مهابا" .

لم يسأله فيه ولا طلبه منه ، حتى مات فى حبسه .وكان يحب جمع المال ، بحيث أنه عاقب عليه أم أخيه الملك العادل ، إلى أن أخذ منها مالا عظيما وجواهر نفيسة .

وقَتَل [السلطان الملك الصالح أيوب] أخاه الملك العادل ، ومن حين قتله ما انتفع بالحياة ولا تهنّى بها : فنزل به المرض ، وطرقه الفرنج ، وقبض على جميع أمراء الدولة ، وأخذ أموالهم وذخائرهم . ومات فى حبوسه ما ينيف على خمسة آلاف نفس ، سوى من قتل وغرق من الأشرفية فى البحر ولم يكن له مع (١٨٩) ذلك ميل إلى العلم ولا مطالعة الكتب ، إلا أنه كان يجرى على أهل العلم والصلاح المعاليم والجرايات ، من غير أن يخالطهم . ولم[1] يخالط غيرهم ، لمحبته فى العزلة ورغبته فى الانفراد ، وملازمته للصمت ومداومته على الوقار والسكون .

وكان يحب العمارة ويباشر الأبنية بنفسه ، وعمر بمصر ما لم يعمره أحد من ملوك بنى أيوب : فأنشأ قلعة الروضة تجاه مدينة فسطاط مصر ، وأنفق فيها أموالا جمة ، وهدم كنيسة كانت هناك لليعاقبة من النصارى . وأسكن بهذه القلعة ألف مملوك من الترك — وقيل ثمانمائة — سماهم البحرية وكان الماء حينئذ لا يحيط بها ، فلم يزل يُغَرِّقُ السفن ، ويرمى الحجارة فيما بين الجيزة والروضة ، إلى أن صار الماء فى طول السنة محيطا بالروضة . وأقام جسرا من مصر إلى الروضة ، يمرّ عليه الأمراء وغيرهم إذا جاءوا إلى الخدمة ؛ ولم يكن أحد يمرّ على هذا الجسر راكبا ، احتراما للسلطان . فجاءت هذه القلعة من أجلّ مبانى الملوك وبنى أيضا على النيل بناحية[2] اللوق قصورا بلغت الغاية فى الحسن ، جعلها إلى جانب ميدانه الذى يلعب فيه بالكرة ، وكان مغرى بلعبها وبنى قصرا عظيما فيما

(١) فى س " ولا " .

(٢) أطلق اسم ناحية اللوق فى الأصل — ومعنى اللوق الأرض اللينة — على الجهة التى انحسر عنها ماء النيل ، من ساحل المقس إلى منشأة المهرانى بالقاهرة . وعرفت تلك الناحية باسم باب اللوق ، وهو باب الميدان الصالحى المذكور هنا ؛ وقد بقى ذلك الباب إلى ما بعد سنة ٧٤٠ هـ . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١١٧ — ١١٨ ، ١٩٨) .

بين القاهرة ومصر ، سماه الكبش ، على الجبل بجوار جامع ابن طولون . و بنى قصرا بالقرب من العَلَاقِمَة[١] فى أرض السانح ، وجعل حوله مدينة سماها الصالحية ، فيها جامع وسوق ، لتكون مركزا للعساكر بأول الرمل الذى بين الشام ومصر .

وكان له من الأولاد الملك المغيث [فتح الدين[٢]] عمر ، وهو أكبر أولاده ، مات فى سجن قلعة دمشق ؛ والملك المعظم [غياث الدين] تورانشاه ، وملك مصر بعده ؛ والملك القاهر ، ومات فى حياته أيضا وولد له أيضا من شجر الدر ولد سماه خليلا[٣] ، مات صغيرا .

ولما طال مرضه من الجراحة الناصورية — وفسد مخرجه ، وامتد الجرح إلى فخذه اليمين ، وأكل جسمه — اجتهد فى مداواتها ؛ وحدث له مرض السل من غير أن يفطن به . فورد كتابه إلى الأمير حسام الدين بن أبى على بالقاهرة : " إن[٤] الجراحة قد صلحت وجفت رطوباتها ، [ولم يبق إلا ركوبى ولعبى بالصولجة] ، فتأخذ حَظَّك من هذه البشرى " . وفى الحقيقة لم تجف الجراحة إلا لفراغ المواد ، وتزايد عليه بعد ذلك المرض حتى مات .

وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك ، بل قال للأمير حسام الدين بن أبى على : " إذا مت لا تسلم (٨٩ ب) البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه " ؛ فإنه كان يعرف ما فى ولده [المعظم توران[٥] شاه] من الهوج فلما مات السلطان أحضرت زوجته شجرُ الدر الأميرَ فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، والطواشى جمال الدين محسن — وكان أقرب الناس إلى السلطان ،

(١) بغير ضبط فى س . أو فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧١٠) وهى "بليدة ...... دون بلبيس ، فيها أسواق وبازار (كذا) يقوم للعرب " . وفى مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٥٣ — ٥٤) ، أن هذه البلدة كانت فى زمنه إحدى مراكز مديرية الشرقية .

(٢) أضيف ما بين الأقواس ، بسائر هذه الفقرة ، من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٠ ب) .

(٣) فى س " خليل " .

(٤) فى س " ان الجراحه قد صلحت وجفت رطوباتها فاخذ حظك من هذه البشرى " ، وقد أصلحت العبارة ، وأضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦١ ا — ب) .

(٥) كان الملك المعظم ، نقلا عن ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٠ ب) " عنده هوج واضطراب ، وكان أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب يكرهه لذلك " .

و إليه القيام بأمر مماليكه وحاشيته — وأعلمتهما بموت السلطان ، ووصتهما بكتمان موته ، خوفا من الفرنج وكان الأمير فخر الدين عاقلا مدبرا ، خليقا بالملك ، جوادا محبوبا إلى الناس . فاتفقا مع شجر الدر على القيام بتدبير المملكة ، إلى أن يقدم الملك المعظم تورانشاه . فأحضرت [شجر الدر] الأمراء الذين بالمعسكر ، وقالت لهم : " إن السلطان قد رسم بأن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانا بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة " . فقالوا كلهم سمعا وطاعة ، ظنا منهم أن السلطان حى ، وحلفوا بأسرهم ، وحلّفوا سائر الأجناد والمماليك السلطانية .

وكُتب على لسان السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى بالقاهرة ، أن يحلّف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة . فحضر إلى دار الوزارة[1] قاضى القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن قاضى سنجار ، والقاضى بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء — وكان الملك الصالح قد أبعده لأمر نقمه عليه - ، وحلّفا من حضر من الأعيان على ما تقدّم ذكره؛ وكان ذلك فى يوم الخميس ثامن عشر شعبان . واستدعى القاضى بهاء الدين زهير من القاهرة إلى المعسكر بالمنصورة

وقام الأمير فخر الدين بتدبير المملكة ، وأقطع البلاد عناشيره ، وأعاد البهاء زهيرا[2] إلى

---

(١) تقدّم ذكر موضع هذه الدار فى ص ٢٩٧ (حاشية ٦) ، وفى ص ٣٢٦ أيضا (سطر ٧) ، والراجح أن المقريزى قصد دار الوزارة الكبرى بالقاهرة الفاطمية ، وليس دار الوزارة التى كانت بالقلعة فى عهد الأيوبيين والمماليك . (انظر الحاشية رقم ٦ ، المشار إليها) . وكانت دار الوزارة الكبرى من منشآت العهد الفاطمى ، بناها الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى ، بجوار القصر الكبير الشرقى ، لتكون مسكنا لمن يلى إمرة الجيوش . واستمرت تلك الدار الكبرى كذلك سكنا زمن الفاطميين ، ثم سكنها سلاطين الأيوبيين أنفسهم ، من عهد السلطان صلاح الدين إلى زمن السلطان الملك الكامل ، وصارت تسمى بالدار السلطانية . وأول من انتقل عنها من الملوك الأيوبيين السلطان الملك الكامل نفسه ، فإنه سكن قلعة الجبل ، وجعل هذه الدار منزلا لمن يرد إلى مصر من الملوك والرسل ، وبقيت لذلك الغرض زمنا طويلا . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٣٨ — ٤٣٩) .

(٢) فى س "زهير" .

منصبه . فكانت الكتب ترد من المعسكر وعليها علامة[(١)] السلطان الملك الصالح [نجم الدين أيوب] ، فقيل إنها كانت بخط خادم يقال له سهيل[(٢)] ، لا يشك من رآه أنه خط السلطان . ومشى هذا على الأمير حسام الدين نائب السلطنة مدة ، إلى أن أوقفه بعض أصحابه على اضطراب فى العلامة ، يخالف علامة السلطان[(٣)] . ففحص عن خبر السلطان من بعض خواصه الذين بالمعسكر ، حتى عرف موته . فاشتد خوفه من الأمير فخر الدين ، وخشى أن يتغلب على الملك ، فاحتاط لنفسه .

وأخذ الأمير فخر الدين يطلق المسجونين (١٩٠) ، ويتصرف فى إطلاق الأموال والخلع على خواص الأمراء ، وأطلق السكر والكتان إلى الشام فعلم الناس بموت السلطان من حينئذ ، غير أن أحدا لا يجسر أن يتفوه به .

(١) العلامة السلطانية هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكانت صورة علامة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٢ ا — ب) " أيوب ابن محمد بن أبى بكر بن أيوب " . وكان لكل سلطان علامة وتوقيع ، وقد ذكر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١١) صور كل منهما من عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون (٦٩٣ — ٧٠٩ هـ ، ١٢٩٣ — ١٣٠٩ م) إلى زمنه ، ونصه : " قد جرت العادة أن السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به ، فأما مناشير الأمراء والجند وكل من له إقطاع ، فإنه يكتب عليه علامته وكتبها الملك الناصر محمد بن قلاون " الله أملى " ، وعمل ذلك الملوك بعده إلى اليوم . وأما تقاليد النواب ، وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب وبقية أرباب الوظائف ، وتواقيع أرباب الرواتب والإطلاقات ، فإنه يكتب عليها اسمه واسم أبيه إن كان أبوه ملكا ؛ فيكتب مثلا محمد بن قلاون ، أو شعبان بن حسين ، أو فرج بن برقوق . وإن لم يكن أبوه ممن تسلطن ، كبرقوق أو شيخ ، فإنه يكتب اسمه فقط ، ومثاله برقوق أو شيخ . وأما كتب البريد وخلاص الحقوق والظلامات ، فإنه يكتب أيضا عليها اسمه ، وربما كرّم المكتوب إليه ، فكتب إليه : أخوه فلان ، أو والده فلان ، وأخوه يكتب للأكابر من أرباب الرتب . والذى يعلم عليه السلطان إما إقطاع ، فالرسم فيه أن يقال خرج الأمر الشريف ؛ وإما وظائف ورواتب وإطلاقات ، فالرسم فى ذلك أن يقال رسم بالأمر الشريف . وأعلى ما يعلم عليه [السلطان] ما افتتح بخطبة أولها الحمد لله ، ثم ما افتتح بخطبة أولها أما بعد حمد الله .... وتمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد لله أول الخطبة أن تطفر بالسواد ، وتتضمن اسم السلطان وألقابه . وقد بطلت الطغراء فى وقتنا هذا " .

(٢) اسم هذا الخادم " السهيلى " ، فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٢ ب) .

(٣) كان جمال الدين بن واصل ، صاحب كتاب مفرج الكروب (انظر ص ٣٦٣ ا) هو الذى نبه الأمير حسام الدين إلى اختلاف العلامة السلطانية .

وسار من المعسكر الفارس أُقطاى[١] ، وهو يومئذ[٢] رأس المماليك البحرية ، لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا . وبعث الأمير حسام الدين [محمد بن أبى على ، نائب السلطنة[٣] بالقاهرة ، من عنده] قاصدا من قبله أيضا . فلما كان يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان ، أمر [الأميرُ حسام الدين] الخطباء بأن يدعوا يوم الجمعة للملك المعظم ، بعد الدعاء لأبيه ؛ وأن ينقش اسمه على السكة ، بعد اسم أبيه . وتوهم الأمير حسام الدين من الأمير فخر الدين أن يقيم الملك المغيث[٤] عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل ، ويستولى على الأمر ؛ فنقله من عند عمات أبيه بنات الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، من القاهرة إلى قلعة الجبل ؛ ووكل به من يحتاط عليه ، ولا يسلمه لأحد .

هذا والمكاتبات ترد من الأمير فخر الدين ، وعنوانها "من فخر الدين الخادم يوسف" ؛ فيجيب عنها الأمير حسام الدين ، ويجعل العنوان "المملوك أبو على" ، فيتجاملان فى ظاهر الأمر . وأما فى الباطن فإن الأمير فخر الدين أخذ فى الاستبداد والاستقلال بالمملكة ، واختص بالصاحب جمال بن مطروح ، وبالقاضى بهاء الدين زهير ؛ وصار يركب فى موكب عظيم ، وجميع الأمراء فى خدمته ، ويترجلون له عند النزول ويحضرون سماطه[٥] .

ووصل قاصد الأمير حسام الدين إلى حصن كيفا ، وطالع الملك المعظم بأن المصلحة فى السرعة ، ومتى تأخر فات الفوت ، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد ؛ ثم وصل إليه بعد

---

(١) مضبوط على منطوقه فى (Biochet : Op. cit. p. 521, N. 4) ، وهذا الاسم فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٣ ب) " اقطايا " .

(٢) هذا اللفظ محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س ، واستكمله فى ب (١٠٨ ا) .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص٣٦٣ ب) ، وكان القاصد الذى أرسله الأمير حسام الدين أحد مماليكه الخواص ، يعرف بزين الدين العاشق .

(٤) كان الملك المغيث هذا عند عماته منذ وفاة أبيه ، (انظر ص ٣٢٧ ، سطر ١٠ ، وما يليه) ، وكان عمره لما اعتقل بالقلعة حوالى أربع عشرة سنة . (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٦٣ ب) .

(٥) يظهر أن الأمير فخر الدين كان قد حدّث نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت ، فإنه حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٦ ا) : "كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت همته تترقى إلى الملك ... ..." .

ذلك قُصّادُ فخر الدين وشجر الدر . فخرج [المعظم] من حصن كيفا ليلة السبت لإحدى عشرة [ليلة] مضت من شهر رمضان : فى خمسين فارسا من ألزامه . وقصد عانة ليعدى الفرات ، وقد أقام له بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل جماعة ، وأقام له الحلبيون أيضا جماعة ، يقبضون عليه . فنجاه الله منهم وعدى الفرات من عانة ، وسلك البرية ، فخاطر بنفسه وكاد يهلك من العطش .

هذا وشجر الدر تدبر الأمور حتى لم يتغير شيء . وصار الدهليز السلطانى على حاله ، والسماط فى كل [يوم][1] يمد ، والأمراء تحضر الخدمة ، وهى تقول : "السلطان مريض ، ما يصل إليه أحد" .

وأما الفرنج فما هو إلا أن فهموا أن السلطان قد مات [حتى] خرجوا من دمياط ، فارسهم وراجلهم ، ونزلوا على فارس كور[2] ، وشوانيهم فى بحر النيل تحاذيهم ؛ ورحلوا من فارس كور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان فورد فى يوم الجمعة إلى القاهرة من المعسكر كتاب ، فيه حضّ (٩٠ ب) الناس على الجهاد ، أوله : انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وكان كتابا بليغا فيه مواعظ جمة[3] ، فقرئ على الناس فوق منبر جامع[4] القاهرة ، وحصل عند قراءته من

(١) ليس لهذا اللفظ وجود فى س ، ولكنه فى ب (١٠٨ ا) .

(٢) كذا فى س ، وفى ابن واصل (نفس المرجع ، س٣٦٤ ب) ، ويسميها ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٣٨) " الفارسكر " ، وكانت فى زمنه قرية من كورة الدقهلية . وهى الآن من مراكز مديرية الدقهلية ، وكانت كذلك أيام مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٦٤ — ٦٦) .

(٣) يرجح ابن واصل (نفس المرجع ، س٣٦٤ ب) أن هذا الكتاب كان من إنشاء بهاء الدين زهير .

(٤) لعل المقريزى يريد هنا الجامع الأزهر ، ويميل إلى هذا الرأى (Blochet : Op. cit. p. 525) ، إذ ترجم العبارة إلى (la grande mosquée du Caire) . على أنه لا يوجد فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ج ١ ، ص ٢٢٢) ، أو فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ، وما بعدها) ، أو فى ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٦٤ ب) ما يساعد على تعيين الجامع المقصود هنا ، ونص المرجع الثالث كالآتى : " فقرئ هذا الكتاب على الناس بالمنبر بالجامع بالصلاة بالقاهرة " .

البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا يوصف . وارتجت القاهرة ومصر ، لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للسير ، فخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم ، وقد اشتد كرب الخلائق من تمكن الفرنج وقوتهم وأخذهم البلاد ، مع موت السلطان .

فلما كان يوم الثلاثاء أول يوم من شهر رمضان واقع الفرنج المسلمين ، فاستشهد العلائى أمير مجلس ، وجماعة [من الأجناد[١]] ؛ وقتل من الفرنج عدة . ونزل الفرنج[٢] بشارمساح ، وفى يوم الاثنين سابعه نزلوا البرمون ؛ فاشتد الكرب وعظم الخطب ، لدنوهم وقربهم من المعسكر . وفى يوم الأحد ثالث عشره وصلوا إلى طرف بر دمياط ، ونزلوا تجاه المنصورة ، وصار بينهم و بين المسلمين بحر أشموم . [وكان معظم عسكر المسلمين فى المنصورة بالبر الشرقى[٣]] ، وفى البر الغربى أولاد الملك الناصر داود صاحب الكرك : [وهم الملك الأمجد ، والملك الناصر ، والملك المعظم ، والملك الأوحد] ، فى عدة من العسكر — [وكان أولاد الملك الناصر داود ، الأكابر منهم والأصاغر الذين قدموا القاهرة ، اثنى عشر ولدا ذكرا . وكان بالبر الغربى أيضاً أخوا الملك الناصر داود : وهما الملك القاهر عبد الملك ، والملك المغيث عبد العزيز] . فاستقر الفرنج بمنزلتهم هذه ، وخندقوا عليهم خندقا ، وأداروا سورا وستروه بالستائر ، ونصبوا المجانيق[٤] ليرموا بها على معسكر المسلمين ونزلت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل ، ووقفت شوانى المسلمين بإزاء المنصورة ؛ ووقع القتال بين الفريقين برا و بحرا .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره قفز إلى عند المسلمين ستة خيالة ، وأخبروا بضائقة

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب) .

(٢) فى س " ونزلوا " ، راجع ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب) . ومما تجب ملاحظته هنا أن الفرنج زحفوا تلك المرة على نفس الطريق الذى اتبعوه سنة ٦١٥ هـ ، (انظر ص ١٨٨ ، ١٩٤ — ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ — ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ — ٢٠٩) ، وحوادث هذه الحملة مشابهة فى كثير من التفصيلات لسابقتها . راجع (Joinville : St. Louis. pp. 40 et seq.) .

(٣) أضيف ما بين الأقواس ، بسائر هذه الفقرة ، من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب — ٣٦٥ ا) ، وكذلك ص ٣٣٨ ، سطر ٢ ، وما يليه .

(٤) فى س " المناجنيق " .

الفرنج . وفى يوم عيد الفطر أسر كُنْدٌ[١] كبير من الفرنج ، له قرابة من الملك ريدا فرنس . واستمرّ القتال ، وما من يوم إلا ويقتل من الفرنج ويؤسر ، [وقد] لقوا من عامة المسلمين وسوّالهم[٢] نكاية عظيمة ، وتخطفوا منهم وقتلوا كثيرا . وكانوا إذا شعروا بالفرنج ألقوا أنفسهم فى الماء ، وسبحوا إلى أن يصيروا فى بر المسلمين . و [كانوا] يتحيلون[٣] فى خطفهم بكل حيلة : حتى أن شخصا أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه ، وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة ، فما هو إلا أن نزل [أحدهم] فى الماء ليتنا ولها إذ اختطفه المسلم ، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين . وفى يوم الأربعاء سابع شوال ، أخذ المسلمون شِينيا[٤] ، فيه نحو مائتى رجل من الفرنج وكند كبير . وفى يوم الخميس النصف منه (١٩١) ركب الفرنج [والمسلمون][٥] ؛ فدخل المسلمون إليهم البر الذى هم فيه ، وقاتلوهم قتالا شديدا ، قتل فيه من الفرنج أربعون فارسا ، وقتلت خيولهم . وفى يوم الجمعة تاليه وصل إلى القاهرة سبعة وستون أسيرا من الفرنج ، منهم ثلاثة من أكابر الداوية . وفى يوم الخميس ثانى عشريه أحرقت للفرنج مَرَمَّة[٦] عظيمة فى البحر ، واستظهر عليهم استظهارا عظيما .

---

(١) لا يوجد فى (Joinvillie : Op. cit. 50 et seq) ، أو فى غيره من المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ، ما يدل على اسم هذا الكند الذى أسر ذاك اليوم . على أنه من الراجح أن المقريزى يقصد هنا Count of Anjou أحد إخوة ملك فرنسا الذين كانوا معه فى تلك الحملة ، فإنه كاد يقع فى أيدى المسلمين مرة ، حوالى التاريخ الوارد هنا . انظر (Joinville : Op. cit p. 50) .

(٢) يقابل هذا اللفظ كلمة " الحرافشة " فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٥ أ) ، وكذلك فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٠٨ ، ى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، وهم أتباع العسكرات ، الذين لا ينتمون لفرقة معينة أو لقائد خاص .

(٣) فى س « يتحيلوا » .

(٤) فى س « شينى » وفوق يائها المتوسطة علامة السكون .

(٥) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٥ ب) .

(٦) يشير المقريزى هنا إلى البرجين المتحركين اللذين ابتناهما ملك فرنسا حين ذاك على الضفة الشمالية لبحر أشموم ، لوقاية الجنود والعمال المستخدمين فى إقامة جسر هناك عبر المجرى . وقد سلط المسلمون عليهما النار الإغريقية ، وألحوا فى الرمى حتى أحرقوها . (Joinville : Op. cit. pp. 47, 52) .

[وما زال الأمر على ذلك] ، إلى أن كان يوم الثلاثاء خامس ذى القعدة ، دَلَّ بعض منافقى أهل[1] الإسلام الفرنج على مخائض فى بحر أشموم ، فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم فى المسكر . وكان الأمير فخر الدين فى الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على العسكر ؛ فخرج مدهوشا وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ ، وساق لينظر الخبر و يأمر الناس بالركوب ، وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده . فلقيه طُلْبُ الفرنج الداوية[2] وحملوا عليه ، ففر من كان معه وتركوه وهو يدافع عن نفسه ؛ فطعنه واحد برمح فى جنبه ، واعتورته[3] السيوف من كل ناحية ، فمات رحمه الله ونزل الفرنج على جَدِيْلَة[4] ، وكانوا ألفا وأربعمائة فارس ومقدمهم أخو[5] الملك رايد افرنس .

---

(١) المراجع العربية مختلفة فى تعيين من دل الفرنج على هذه المخائض ، ففى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٦ ا) أن بعض المسلمين دلوا الفرنج على مخاضة بسلمون ؛ وفى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٠٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، أن الفرنج خاضوا من مخاضة فى بحر أشموم يقال لها مخاضة سلمون ، دلهم عليها قوم من سلمون ليسوا بمسلمين . هذا وفى (Joinville : Op cit. p. 53) . أن بدويا عرض أن يدل الفرنج على مخاضة ، فى مقابل خمسين قطعة من نقودهم (500 bezants) .

(٢) كان ملك فرنسا قد رتب الجيوش على أن تكون فئة الداوية طليعة ، وأن تليها الفرقة التى يقودها أخوه (Count of Artois) . انظر (Oman : Art of War In The Middle Ages. Vol. I. p. 345)

(٣) فى س " اعتروته " .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى تل مطل على الشاطىء الجنوبى لبحر أشموم ، كان المسلمون قد نصبوا مجانيقهم وأبراجهم عليه ، قبالة معسكر الفرنج والبرجين المتحركين على الشاطىء الآخر . انظر (Rec. Hist. Or. II. I' Index) وكذلك (Oman : Op. Cit. I. p. 317) .

(٥) يقصد المقريزى (Conut of Artois) المتقدم ذكره فى الحاشية رقم ٢ ، وكان قد غلبت عليه الحماسة وحب السبق ، فاندفع بمجرد عبوره المخاضة بفرقته نحو كوكبة مقاربة من خيالة المسلمين ، فطاردها وتعقبها إلى المعسكر ؛ وعلى يد رجاله ورجال فرقة الداوية التى لحقته ، كان حتف الأمير فخر الدين . ثم تقدم (Count of Artois) إلى معسكر المسلمين ، واستولى على الجهة التى كانت بها آلاتهم الحربية (انظر الحاشية السابقة) . ويظهر أنه كان قد تمنى الانفراد بظفر ذاك اليوم ، من دون بقية الجيوش الفرنجية ، فلم يقف منتظرا وصولهم إلى حيث وصل ، بل تقدم مسرعا نحو المنصورة ودخلها منصورا ، كما هو مذكور فيما يلى . انظر (Joinville : Op. cit pp. 54 et seq; Oman : Op. cit I. pp. 346 et seq.)

وما هو إلا أن قتل الأمير فخر الدين ، و إذا بالفرنج اقتحموا على المنصورة . فتفرق الناس وانهزموا يميناً وشمالا ، وكادت الكسرة أن تكون ، فإن الملك ريد افرنس وصل بنفسه[1] إلى باب قصر السلطان إلا أن الله تدارك بلطفه ، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية ، التي تعرف بالبحرية والجدارية ، وفيهم [ركن الدين] بيبرس البُنْدُقَدارى[2] الذى تسلطن بعد هذه الأيام . فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم بها ، وأزاحوهم عن باب القصر . فلما ولوا أخذتهم السيوف والدبابيس ، حتى قتل منهم فى هذه النوبة نحو ألف وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم . وكانت رجالة[3] الفرنج قد أتوا الجسر ليعدوا منه ، فلولا لطف الله لكان الأمر يتم لهم بتعديتهم الجسر .

---

(١) لم يكن ملك فرنسا قد زحف بعد نحو المنصورة ، وإنما المقصود هنا (Count of Artois) ، فإنه تقدم نحو قصر السلطان ، وانتشرت جنوده فى أزقة المنصورة ، حيث أمطرهم السكان وابلا من الأحجار والطوب والسهام . وبينما الشكل على ذلك ، كان المسلمون قد استجمعوا بعض قواهم خارج المدينة ، فدخلت منهم طائفة المنصورة ، وماجوا الفرنج وقتلوا فيهم وأهلكوهم عن آخرهم تقريبا ، وكان (Count of Artois) ممن قتلوا فى هذه المعمعة ، كما هو وارد فيما يلى . هذا والسبب فى تسميته هنا باسم ملك الفرنسيين ، أنه لما وقع صريعا وأخذ كزاغنده لمرضه على السلمين ، وهو مطرز بزهرة الزنبق (Fleur-de-lis) شعار أبناء البيت المالك فى فرنسا ، ظن المتفرجون أن ملك فرنسا كان بين القتلى . (Joinville : Op. cit. p. 69 ; Oman : Op. cit. pp. 348-349). وبعد نزول تلك الطامة اللامة بساعة تقريبا ، وصل ملك فرنسا إلى ميدان القتال ، وحاول الاستيلاء على " جديلة " التى كان عليها آلات المسلمين . وكان غرض الملك من ذلك أن يستكمل بناء القنطرة من الناحية الجنوبية لتعبر الرجالة إليه ، وقد نجح فى ذلك كله ، غير أن الروح المعنوية الجديدة فى صفوف المسلمين أذهبت ذلك سدى ، وخيم الليل فحجز بين الفريقين ، كما هو وارد بالمتن فيما يلى . انظر أيضا (Oman : Op. cit. I. pp. 348 et seq) .

(٢) البندقدارى نسبة إلى البندقدار ، وهو لفظ فارسى مركب ، معناه حامل جراوة — أى كيس البندق ، خلف السلطان أو الأمير (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص١٣٧ ؛ ج ٥ ، ص٤٥٨) . وقد سمى بيبرس هذا باسم البندقدارى ، لأنه كان فى أول أمره مملوكا للأمير أيدكين البندقدار ، ثم انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وصار من مماليك البحرية ، (Lane-poole : A Hist. Of Egypt. p. 263) وكان فى خدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أمير اسمه ركن الدين بيبرس أيضا ؛ وأصله من مماليك الملك الكامل ، وهو الذى انتصر بالخوارزمية وعساكر مصر على الفرنج ، ثم انقلب مع الخوارزمية ضد السلطان ، فما زال به حتى اعتقله وأعدمه كما سبق وروده بالمتن . (انظر ص٣١٦ ، سطر ١١ ؛ ص٣١٨ ، سطر ١ ؛ ص٣٢٢ ، سطر ٧ ؛ وأيضا ابن واصل ، نفس المرجع ، ص ٣٥٩ ا) . وقد أدى هذا الشبه بين الاسمين إلى نسبة وقعة غزة خطأ إلى بيبرس البندقدارى ، كما يفهم من (Stevenson : Op. Cit. Index) وكما هو منصوص فى (Barker : The Crusades. pp. 82, 84) .

(٣) فى س " رجال " . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٦ ا ، ب) .

وكانت المعركة بين أزقة المنصورة ، فانهزموا إلى جديلة منزلتهم ، وقد حال بين الفريقين الليل ، وأداروا عليهم سورا وخندقوا خندقا . وصارت منهم طائفة فى البر الشرقى ، ومعظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط . فكانت هذه الواقعة أول ابتداء النصر على الفرنج[1].

وعند ما هجم الفرنج على المسكر سرح الطائر بذلك إلى القاهرة (٩١ ب) ، فانزعج الناس انزعاجا عظيما . وقدم المنهزمون من السوقة والعسكر ، فلم تغلق أبواب القاهرة فى ليلة الأربعاء لتوارد المنهزمين . وفى صبيحة يوم الأربعاء وقعت البطاقة تبشر بالنصرة على الفرنج ، فزينت القاهرة وضربت البشائر بقلعة الجبل ، وكثر فرح الناس وسرورهم . وبقى العسكر يدبر أمره شجر الدر ، فكانت مدّة تدبير الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، بعد موت الملك الصالح ، لمملكة مصر ، خمسة وسبعين يوما . وفى يوم قتله نهب مماليكه وبعض الأمراء داره ، وكسروا صناديقه وخزائنه ، وأخذوا أمواله وخيوله وأحرقوا داره .

السلطان الملك المعظم غياث الدين تورانشاه

ابن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان . سار من حصن كيفا إلى دمشق ، لإحدى عشرة [ليلة] مضت من شهر رمضان ؛ فنزل عانة فى خمسين فارسا من أصحابه ، يوم الخميس النصف من شهر رمضان سنة سبع وأربعين ؛ وخرج منها يوم الأحد يريد دمشق على طريق السَّماوَة[2] فى البرية . فنزل القُصَيْر فى دهليز ضربه له الأمير جمال الدين موسى بن يغمور نائب دمشق ، يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر رمضان . ودخل [المعظم توران شاه] من الغد — وهو يوم السبت سلخه — إلى دمشق ،

---

(١) يعزو (Oman : Op. cit. pp. 350-352) ، وغيره من المؤرخين الحديثين ، هزيمة الصليبيين عند المنصورة إلى تسرع (Count of Artois) ، ومخالفته تعليمات أخيه ملك فرنسا . هذا وقد فصل المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٩ — ٢٢٢) وقعة المنصورة ، وأضاف هناك بعض معلومات ليست هنا .

(٢) بغير ضبط فى س . وهى الصحراء الممتدة بين الكوفة والشام ، واسمها أيضا بادية السماوة . انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٣١ ؛ و Le Strange : Palest Under Moslems. P. 530)

ونزل بقلعتها ، فكان يوما مشهودا وقام الأمير جمال الدين بخدمته ؛ وحلف له الأمراء ، وتسلطن فى يومئذ . وخلع [المعظم] على الأمراء وأعطاهم أموالا جزيلة ، بحيث أنه أنفق ما كان فى قلعة دمشق ، وهو ثلاثمائة ألف دينار . واستدعى من الكرك مالا آخر حتى أنفقه ، وأفرج عمن كان بدمشق فى حبس أبيه ، وأتته الرسل من حماة وحلب تهنئه بالقدوم . ولأربع مضين من شوّال سقطت البطائق إلى المعسكر والقاهرة ، بوصول الملك المعظم إلى دمشق وسلطنته بها فضربت البشائر بالمعسكر و بالقاهرة .

وسار السلطان من دمشق يوم الأربعاء سابع عشريه يريد مصر ، بعد ما خلع على الأمير جمال الدين ، وأقرّه على نيابة السلطنة بدمشق . وقدم معه القاضى الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى ، وكان مقيما بدمشق عند الأمير جمال الدين . وقدم معه أيضا هبة الله بن أبى الزهر بن حشيش الكاتب النصرانى وقد وعده [السلطان] بوزارة مصر ، فأسلم وتلقب بالقاضى معين الدين (١٩٢ ا) . وسيره [السلطان] أول يوم من ذى القعدة إلى قلعة الكرك ، ليحتاط على خزائنها ، فأنهى أشغاله بها ولحقه فى الرمل ، [وأسلم على يده هناك[1]] .

وعند ما تواترت الأخبار فى القاهرة بقدوم السلطان ، خرج قاضى القضاة بدر الدين السنجارى ، فلقيه بغزة وقدم معه وخرج الأمير حسام الدين [بن] أبى[2] على نائب السلطان إلى الصالحية ، فلقيه بها يوم السبت لأربع عشرة [ليلة] بقيت من ذى القعدة[3] .

ونزل [السلطان المعظم تورانشاه] فى قصر أبيه ، ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح [نجم الدين أيوب] . ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته ، بل كانت الأمور على حالها — والدهليز الصالحى والسماط ومجىء الأمراء للخدمة ، على ما كان عليه الحال فى أيام حياته ؛

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٥ ا) ، واسم هذا الكاتب هناك " النشو بن حشيش النصرانى ، ولقبه معين الدين " .

(٢) فى س " ابو " .

(٣) كان جمال الدين بن واصل ، صاحب كتاب مفرج الكروب ، مقيما بالقاهرة وقت ذاك ، فخرج صحبة الأمير حسام الدين إلى الصالحية ، لاستقبال السلطان المعظم . (انظر نفس المرجع ، ص ٣٦٦ ب — ٣٦٧ ا) .

وشجر الدر تدبر أمور الدولة كلها ، وتقول : "السلطان مريض ، ما إليه وصول" — فلم يتغير عليها شيء ، إلى أن استقرّ الملك المعظم بالصالحية .

فتسلم [السلطان المعظم] مملكة مصر ، وخلع على الأمير حسام الدين [بن] أبى على خلعة سنية ، ومنطقة وسيفا فيهما ثلاثة آلاف دينار مصرية . وأنشده الشعراء عدّة تهانى ، وجرت بين يديه مباحثات ومناظرات فى أنواع من العلوم . وكان [السلطان المعظم] قد مهر فى العلوم ، وعرف الخلاف والفقه والأصول ؛ وكان جدّه الملك الكامل يحبه لميله إلى العلم ، ويلقى عليه من صغره المسائل المشكلة ، ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها فى مجلسه . ولازم [المعظم] الاشتغال إلى أن برع ، إلا أنه فيه هوج وخفة ، مع غرامه بمجالسة أهل العلم من الفقهاء والشعراء .

ثم إنه رحل من الصالحية ونزل تِلْبَانَة[1] ، ثم نزل بعدها منزلة ثالثة ، وسار منها إلى المنصورة . وقد تلقاه الأمراء المماليك ، فنزل فى قصر أبيه وجده ، يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة . فأول ما بدأ به أن أخذ مماليك الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الصغار ، وكثيرا من مُخَلَّفِه ، بدون القيمة ؛ ولم يعط ورثته شيئا ، وكان ذلك بنحو الخمسة عشرة ألف دينار . وأخذ يسب فخر الدين ويقول "أطلق السكر والكتان ، وأنفق المال وأطلق المحابيس . إيش ترك لى ؟" .

وكانت الميرة ترد إلى الفرنج فى منزلتهم من دمياط فى بحر النيل ، فصنع المسلمون عدة مراكب ، وحملوها وهى مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة ، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة ؛ وكانت أيام زيادة النيل . فلما جاءت مراكب الفرنج لبحر المحلة ، وهذه المراكب مكمنة فيه ، خرجت عليها بغتة وقاتلتها . وللحال قدم أسطول(٩٢ ب) المسلمين من جهة المنصورة ، فأخذتْ مراكب الفرنج أخذا وبيلا ، وكانت اثنتين وخمسين مركبا ، وقتل منها وأسر

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية صغيرة بمركز منية القمح من مديرية الشرقية ، واسمها أيضاً تلبانة ديرى ، تمييزا لها من تلبانة عدى من ناحية المرتاحية ، وتلبانة عدى أخرى من ناحية حوف رمسيس ، وتلبانة الأبراج من ناحية حوف رمسيس أيضاً . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٩ ، ص ٤٠ — ٤١) .

نحو ألف إفرنجى ، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات ، وحملت الأسرى على الجمال إلى العسكر . فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج ، ووقع الغلاء عندهم ، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب ، واستضرى المسلمون عليهم وطمعوا فيهم .

وفى أوّل ذى الحجة ، أخذ الفرنج من المراكب التى فى بحر المحلة سبع حراريق ، ونجا من كان فيها من المسلمين . وفى ثانى ذى الحجة تقدّم أمر السلطان إلى الأمير حسام الدين [بن] أبى على بالمسير إلى القاهرة ، والإقامة بدار الوزارة على عادته فى نيابة السلطنة . وفيه وصل إلى السلطان جماعة من الفقهاء : منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وبهاء الدين ابن الجميزى ، والشريف عماد الدين ، والقاضى عماد الدين القاسم بن إبراهيم بن هبة الله بن إسماعيل بن نبهان بن محمد بن المفنشم[1] الحموى — قاضى مصر ، وكان قد ولى القضاء بعد موت الجمال يحيى ، فى جمادى الأولى — ، وسراج الدين الأرموى . فجالس [السلطان المعظم] معهم وناظرهم[2] .

وفى يوم عرفة وصلت مراكب فيها الميرة للفرنج ، [فالتقت بها شوانى المسلمين عند مسجد[3] النصر] ، فأخذت شوانى المسلمين منها اثنتين وثلاثين مركبا ، منها تسع شوانى . فاشتد الغلاء عند الفرنج ، وشرعوا فى مراسلة السلطان يطلبون منه المهدنة . فاجتمع برسلهم الأمير زين الدين أمير جاندار ، وقاضى القضاة بدر الدين السنجارى ؛ فسألوا أن يسلموا دمياط ، ويأخذوا عوضا عنها مدينة القدس وبعض الساحل ، فلم يجابوا إلى ذلك .

وفى يوم الجمعة ، لثلاث بقين من ذى الحجة ، أحرق الفرنج ما عندهم من الخشب ، وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط ، وخرجت السنة وهم فى منزلتهم .

---

(١) كذا فى س بغير ضبط .

(٢) حضر ابن واصل ، صاحب كتاب مفرج الكروب (نفس المرجع ، ص ٣٦٧ ب) أحد هذه المجالس ، وكان موضوع النقاش فى الحديث النبوى " نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه " .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٨ ب) . انظر أيضاً العينى (عقد الجمان ، ص ٢٠٩ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) .

وفى هذه السنة قدم إلى بغداد طائفة من التتر على حين غفلة ، فقتلوا ونهبوا وجفل منهم الناس . وفيها استولى على بن قتادة على مكة ، فى ذى القعدة . وفيها قتل الشريف شيحة أمير المدينة النبوية ، وقام من بعده ابنه عيسى . وفيها قتِل الملك المنصور نور الدين عمر بن على ابن رسول صاحب اليمن ، وملك بعده ابنه المنصور شمس الدين يوسف . وفيها مات متملك تونس أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص ، فى آخر جمادى الآخرة ، عن تسع وأربعين سنة . وكان [أبو زكريا يحيى] قد قام وملك تونس ، واستبدّ بأمرها ودعا لنفسه ، وقد ضعف أمر ملوك الموحدين من بنى عبد المؤمن بن على . فأقام [أبو زكريا يحيى] على مملكة إفريقية ثلاثا وعشرين سنة ؛ وامتدت مملكته إلى تلمسان وسِجِلْمَاسَة وسَبْتة ، وبايعه أهل إشْبِيلِيَّة وشاطِبَة[1] والمَرِيَّة[2] ومَالَقَة وغَرْنَاطَة ، وخلف مالا جما . فبويع بعده ابنه محمد المستنصر . وأبو زكريا هذا هو أول من ملك تونس من الملوك الحفصيين ، و[أما] من كان قبله منهم فإنما كانوا عمالا لبنى عبد المؤمن . وفيها قبض الشريف أبو سعد بن على ابن قتادة على الأمير أحمد بن محمد بن المسيب بمكة فى آخر شوّال ، كما تقدّم فى السنة الخالية ، وقام [هو] بإمرة مكة .

* * *

سنة ثمان وأربعين وستمائة . فى ليلة الأربعاء ثالث المحرم ، رحل الفرنج بأسرهم من منزلتهم يريدون مدينة دمياط ، وانحدرت مراكبهم فى (١٩٣) البحر قبالتهم . فركب المسلمون أقفيتهم ، بعد أن عدوا إلى برهم واتّبعوهم . فطلع صباح نهار يوم الأربعاء ، وقد أحاط بهم المسلمون ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، واستولوا عليهم قتلا وأسرا . وكان معظم الحرب فى فارس كور ، فبلغت عدّة القتلى عشرة آلاف فى قول المقل ، وثلاثين ألفا فى قول المكثر . وأسر من خيالة الفرنج ورجالتهم[3] المقاتلة ، وصناعهم وسوقتهم ، ما يناهز مائة ألف

(١) أسماء هذه المدن ومواقعها معروفة جيداً ، ويكتفى هنا بضبطها والتعريف فقط بغير المشهور منها ، مثل شاطبة ، وموقعها شرق قرطبة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٣٥) .

(٢) تقع هذه البلدة ، واسمها (Almeria) فى الأطالس الحديثة ، على شاطئ إسبانيا الجنوبى ، شرق مالقة (Malaga) .

(٣) فى س " رجالهم " .

إنسان ؛ وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة . واستشهد من المسلمين نحو مائة رجل ؛ وأبلت الطائفة البحرية — لا سيما بيبرس البندقدارى — فى هذه النوبة بلاء حسنا ، وبان لهم أثر جميل .

والتجأ الملك ريدافرنس — وعدة من أكابر قومه — إلى تل [المنية[1]] ، وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى ، ونزلوا على أمانه . وأخذوا إلى المنصورة ، فقيد الملك ريدافرنس بقيد من حديد ، واعتقل فى دار القاضى فخر الدين إبراهيم ابن لقمان — كاتب الإنشاء ، التى كان ينزل بها من المنصورة ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى . واعتقل معه أخوه[2] ، وأجرى عليه راتب فى كل يوم . وتقدم أمر الملك المعظم لسيف الدين يوسف بن الطودى[3] — أحد من وصل معه من بلاد الشرق — بقتل الأسرى من الفرنج ، وكان [سيف الدين] يخرج كل ليلة منهم ما بين الثلثمائة والأربعمائة ، ويضرب أعناقهم ويرميهم فى البحر ، حتى فنوا بأجمعهم .

ورحل السلطان من المنصورة ، ونزل بفارس كور وضرب بها الدهليز السلطانى ، وعمل فيه برجا من خشب ، وأقام على لهوه . وكتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتابا بخطه نصه : " [من] ولده توران شاه الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بنعمة ربك فحدث ، وإن تعدوا

---

(١) انظر ص ٣٥٧ سطر ٩ ، والمقصود هنا منية عبد الله ، القريبة من ناحية شرمساح . انظر العينى (عقد الجمان ، ص ٢١٠ ، فى Rec. Hist. Or. II. I.) .

(٢) كان للملك فرنسا ثلاثة إخوة ، وهم (Robert. Count of Artois) الذى وقع قتيلا بالمنصورة ، و (Alphonse of Poiton) ، و (Charles of Anjou) . راجع (Camb. Med. Hist. VI. p. 338) . وقد أسر المسلمون الأخوين الثانى والثالث ، وأبقوهما فى الأسر مع غيرهما ، حتى تمت مفاوضات الصلح والفدية . وبعد ذلك رأى أمراء المسلمين حفظ أحد الأخوين ، وهو (Count of Poitou) رهينة عندهم ، حتى تدفع الفدية المقررة . (Joinville : Op. cit. pp. 102-108) .

(٣) كذا فى س ، واسمه الطورى فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٠ ب) .

نعمة الله لا تحصوها . نبشر المَجْلِس السَّامِىّ[1] الجَمَالِى ، بل نبشر المسلمين كافة ، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين . فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة ، تمم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرّقنا (٩٣ ب) السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا الله ، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق . فلما كان ليلة الأربعاء تركوا[2] خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين . وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وحلّ بهم الخزى والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء ، قتلنا منهم ثلاثين ألفاً ، غير من ألقى نفسه فى اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس إلى المنية ، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوّته ، وجلاله وعظمته "؛ وذكر كلاما طويلا . وبعث [المعظم] مع الكتاب غِفَارَة[3] الملك الفرنسيس ، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور ، وهى أُشْكَرْلاط[4] أحمر بفرو سنجاب ، [فيها بُكْلَة ذهب[5]] . فقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل :

---

(١) يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٩١ ، وما بعدها) فصل طويل فى أصل الألقاب ، وأنواعها المستعملة فى المكاتبات السلطانية . ويتضح منه أن لقب "المجلس السامى" ، كان فى أوائل الدولة الأيوبية بمصر مقصورا على السلطان فقط ، فلا يكتب به إلى أحد سواه . ثم استقر اصطلاح الدواوين على كتابة هذا اللقب فى المكاتبات الصادرة إلى الملوك ومن فى معناهم ، مثل كبار الأمراء والوزراء وولاة العهد بالسلطنة . وفى عصر دولة المماليك انحط هذا اللقب درجة أخرى ، فصار من ألقاب أرباب السيوف والأقلام عامة ، وجعلت ألقاب أخرى كالجناب والمقر والمقام لمن فوقهم فى الدولة .

(٢) واو الجماعة هنا عائدة على الفرنج .

(٣) الغفار المعطف ، وجمعها غفائر . وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) عدة أمثلة لاستعمال هذا اللفظ . منها : "ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة ، من العمائم والغفائر والبرانس والأكسية". راجع أيضا محيط المحيط

(٤) نوع من القماش ، كان يرد من بلاد إيرلندة ، لونه قرمزى (écarlate) . انظر (Dozy : Supp Dict. Ar.)

(٥) أضيف مابين القوسين من أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص١٩٦ ، فى (Rec. Hist. Or. V. وكان أبو شامة حاضرا ، عند ما لبس الأمير جمال الدين بن يغمور الغفارة المذكورة . هذا والبكلة معرب اللفظ الفرنسى (boucle) ، ومعناه المشبك . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

إن غفارة الفرنسيس التى جاءت حِباء لســيد الأمراء
كبياض القرطاس لونا ولكن صبغتها ســـيوفنا بالدماء

وقال [آخر(١)] :

أسَــيِّدَ أملاك الزمن بأسرهم تنجزت من نصر الإله وُعُودَه
فلا زال مولانا يبيح حمى العدى ويُلبس أســلابَ الملوك عبيدَه

وأخذ الملك المعظم فى إبعاد رجال الدولة ، فأخرج الملكَ المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل من قلعة الجبل إلى الشوبك ، واعتقله بها . وأخرج الملك السعيد فخر الدين حسن بن الملك العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب من مصر [إلى دمشق] ، فلما وصل دمشق قبض عليه ابن يغمور واعتقله . وفى يوم الجمعة لخمس مضين من المحرم ، ورد إلى القاهرة كتاب السلطان إلى الأمير حسام الدين أبى على نائب السلطنة بالقدوم عليه ، وأقام بدله فى نيابة السلطنة بالقاهرة الأمير جمال الدين أقوش النجيبى . ووصل الأمير أبو على إلى العسكر ، فنزل به مُطَّرَحَ الجانب ، بعد ما كان عدّة الملك الصالح وعمدته ، وبعث المعظم إلى شجر الدر يتهددها ، ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر . فداخلها منه خوف كثير ، لما بدا منه من الهوج والخفة ؛ وكاتبت المماليك البحرية بما فعلته فى حقه ، من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة ، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها . فأنفوا لها ، وحنقوا من أفعال السلطان . وكان [السلطان المعظم] قد وعد الفارس أقطاى لما أتاه فى حصن كيفا بأن يُؤَمّره ، فلم يف له بذلك ؛ فتنكر له [أقطاى] وكتم (١٩٤ ا) الشر ، فحرك كتاب شجر الدر منه ما كمنا .

وانضاف إلى هذه الأمور ، أن(٢) [السلطان المعظم] أعرض عن مماليك أبيه الذين كانوا عنده لمهماته ، واطّرح الأمراء والأكابر أهل الحل والعقد ، وأبعد غلمان أبيه وترابيه ،

(١) أضيف ما بين القوسين من المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٢٢) .
(٢) فى س " انه " .

واختص بجماعته الذين قدموا معه ، وولّاهم الوظائف السلطانية . وقدّم الأراذل : وجعل الطواشي مسروراً(١) — [وهو] خادمه — أستادار السلطان ؛ وأقام صبيحا — وكان عبدا حبشياً فَحْلاً — أمير جاندار ، وأنعم عليه بأموال كثيرة وإقطاعات جليلة ، وأمر أن يُصاغ له عصا من ذهب . وأساء [السلطان] إلى المماليك وتوعّدهم ، وصار إذا سكر فى الليل جمع ما بين يديه من الشمع ، وضرب رءوسها بالسيف حتى تنقطع ، ويقول : "هكذا أفعل بالبحرية" ، ويسمى كل واحد منهم باسمه . واحتجب أكثر من أبيه ، مع الانهماك على الفساد بمماليك أبيه ، ولم يكونوا يألفون(٢) هذا الفعل من أبيه وكذلك فعل بخطايا أبيه .

وصار مع هذا جميعُ الحل والعقد ، والأمر والنهى ، لأصحابه الذين قدموا معه . فنفرت قلوب البحرية منه ، واتفقوا على قتله ، وما هو إلا أن مدّ السماط [بعد نزوله(٣) بفارس كور] ، فى يوم الاثنين سادس عشرى المحرم ، وجلس السلطان على عادته ، تقدم إليه واحد من البحرية — وهو بيبرس البندقدارى ، الذى صار إليه مُلك مصر — وضربه بالسيف . فتلقاه(٤) [المعظم] بيده فبانت أصابعه ، والتجأ إلى البرج الخشب [الذى نصب له(٥) بفارس كور] . وهو يصيح : "من جرحنى ؟" قالوا : "الحشيشية(٦)" ، فقال : "لا والله إلا البحرية ! والله لا أبقيتُ منهم بقية !" ؛ واستدعى المزين [ليداوى(٧) يده] .

(١) فى س "مسرور" . (٢) فى س "يالفوا" .

(٣) أضيف مابين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص١٢٩ ، فى Rec. Hist. Or. I.)

(٤) فى س " فلقا " .

(٥) أضيف مابين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص١٢٩ ، فى Rec. Hist. Or. I.)

(٦) المعنى المقصود بهذا اللفظ ، أن الذى جرحه أحد الحشيشيين الباطنية . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧١ ب) .

(٧) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) . هـذا وعبارة مفرج الكروب أحسن وصفا لما حدث للسلطان المعظم ، ونصها : "(٣٧١ ا) ولما جرى ما ذكرنا من تغير قلوب العسكر منه ، خصوصا مماليك أبيه البحرية ، اتفق جماعة من مماليك أبيه على قتله . فلما كان بكرة الاثنين لليلة بقيت من المحرم من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، مد الملك المعظم السماط فى دهليزه ، وجلس على طراحته ، وأكل الناس بين يديه وأكل معهم على ما جرت عادته . ثم فرغت الناس من الأكل ، وتفرقت الأمراء إلى وطاقاتهم ، وقام [المعظم] من مجلسه فطلب الدخول إلى خيمة له صغيرة . =

فقال البحرية بعضهم لبعض : " تمموه وإلّا أبادكم " ، فدخلوا عليه بالسيوف . ففر [المعظم] إلى أعلى البرج وأغلق بابه ، والدم يسيل من يده . فأضرموا النار فى البرج ، ورموه بالنشاب فألقى نفسه من البرج ، وتعلق بأذيال الفارس أقطاى ، واستجار به فلم يجره . ومر [المعظم] هاربا إلى البحر ، وهو يقول " ما أريد ملكا ، دعونى أرجع إلى الحصن . يا مسلمين ! ما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى ؟ " . [هذا] وجميع العسكر واقفون ، فلم يجبه أحد ، والنشاب يأخذه من كل ناحية . وسبحوا خلفه فى الماء ، وقطعوه بالسيوف قطعا ، حتى مات جريحا حريقا غريقا[1] ؛ وفرّ أصحابه واختفوا .

وتُرِك [المعظم] على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخا ، لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه ، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة ؛ فحمل إلى ذلك الجانب ودفن ، فكانت (٩٤ ب) مدّة ملكه أحداً[2] وسبعين يوما . وقيل مرة لأبيه فى الإرسال إليه ، ليحضر من حصن كيفا إلى مصر ، فأبى . وألح عليه الأمير حسام الدين أبو على فى طلب حضوره ، فقال : "متى حضر إلى هنا قتلتُه " . وكان المباشر لقتله أربعة من مماليك أبيه ، وكان [الملك الصالح نجم الدين] لما أراد أن يقتل أخاه العادل ، قال للطواشى محسن : "اذهب إلى أخى العادل فى الحبس ، وخذ معك من المماليك من يخنقه " ؛ فعرض محسن ذلك على جماعة من المماليك ، وكلهم يمتنع إلّا أربعة منهم ، فمضى بهم حتى خنقوا العادل . فقدر الله أن هؤلاء الأربعة هم الذين باشروا قتل ابنه

= فدخل عليه ركن الدين بيبرس ، وكان أحد جدارية أبيه وكان يعرف بالبندقدارى ، وهو الذى ملك مصر بعد ذلك ... فضرب (٣٧١ ب) الملك المعظم بسيف فجرحه فى كتفه ، ورمى ركن الدين السيف من يده . ورجع الملك المعظم ... إلى مجلسه ، واجتمع حوله الناس وأصحابه وبعض مماليك أبيه . فقالوا له : أى شىء جرى ؟ فقال : جرحنى أحد البحرية . وكان ركن الدين بيبرس واقفا ، فقال : ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية ، فقال [المعظم] : ما فعل بى هذا إلا البحرية ؛ فخافت البحرية حينئذ ، واستشعروا منه" .

(١) رواية ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٧١ ب) مختلفة هنا أيضا ، ونصها : "وأحضرت نار ليحرق بها البرج ، فنزل [المعظم] من البرج ، فحمل عليه البندقدارى الذى كان جرحه . فهرب [المعظم] إلى جهة البحر ، وكانت فيه حراريق له ، فأراد أن يسبق إليها ويعتصم بها ، فأدركه فارس الدين اقطايا (كذا) ، وضربه بالسيف فقتله ..." .

(٢) فى س "احد" .

المعظم أقبح قتلة . ورؤى فى النوم الملكُ الصالح [نجم الدين] بعد قتل ابنه الملك المعظم تورانشاه ، وهو يقول :

قتلوه شرّ قتله * صار للعالم مُثْله
لم يراعوا فيه إلًّا * لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قريب * لأقل الناس أَكْلَه

فكان[1] ما يأتى ذكره من الوقعة بين المصريين والشاميين ، بين المعز أيبك والناصر [صلاح الدين] يوسف [بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف ، وهو صاحب حلب] وعدم فيها عدّة من الأعيان[2] . وبقتل المعظم انقرضت دولة بنى أيوب من أرض مصر ، وكانت مدتهم إحدى وثمانين سنة ، وعدّة ملوكهم ثمانية ، كما مرّ ذكرهم . فسبحان الباقى ، وما سواه يزول .

الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر

كانت تركية الجنس ، وقيل بل أرمنية ، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وحظيت عنده بحيث كان لا يفارقها سفرا ولا حضرا . وولدت منه ابنا اسمه خليل[3] ، مات وهو صغير[4] . وهذه المرأة شجر الدر ، هى أوّل من ملك مصر من ملوك الترك المماليك ، وذلك أنه لما قتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كما تقدّم ذكره ، اجتمع الأمراء المماليك البحرية ، وأعيان الدولة وأهل المشورة ، بالدهليز السلطانى ؛ واتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب

(١و٢) هذه العبارة واردة فى س كالآتى : " فكان ما يأتى ذكره من الوقعة بين المصريين والشاميين وعدم فيها عدة من الأعيان بين المعز ايبك والناصر يوسف" ، وهى مكتوبة على هامش الصفحة ، ما عدا ما بين الأقواس فإنه أضيف من أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ٢٠١ ، فى Rec. Hist. Or. V. ؛ وابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٧٤ أ) .

(٣و٤) اعترى بعض حروف الكلمات الواردة بين الرقمين هنا ما محاها تقريبا ، على أنها واردة فى ب (١١٣ أ) .

فى مملكة مصر ، وأن تكون العلامات السلطانية على التواقيع[١] تبرز من قبلها ، وأن يكون مقدّم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى أحد البحرية[٢] . وحلفوا على ذلك فى عاشر صفر ، وخرج عز الدين الرومى من المعسكر إلى قلعة الجبل ، وأنهى إلى شجر الدر ما جرى من الاتفاق ، فأعجبها . وصارت الأمور كلها معدوقة[٣] بها ، والتواقيع تبرز من قلعة الجبل ، وعلامتها عليها " والدة خليل " . وخطب لها على منابر مصر والقاهرة ، ونقش اسمها على السكة ، ومثاله " المستعصمية[٤] الصالحيـة ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين " . وكان الخطباء يقولون فى الدعاء : " اللهم وأَدِم سلطان الستر الرفيع ، والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين ، والدة الملك خليل " ؛ و بعضهم يقول ، بعد الدعاء للخليفة : " واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح " .

و[لما حلف الأمراء والأجناد[٥] واستقرّت القاعدة] ، نُدِب الأمير [حسام الدين محمد ابن] أبى[٦] على للكلام مع الملك ريد افرنس فى تسليم دمياط ، فجرى بينه وبين الملك مفاوضات

(١) التواقيع جمع توقيع ، ومعناه هنا نسخة الأمر بتعيين شخص على إقطاع . (راجع ص ٣٤٤ ، حاشية ١ ، والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٤٤) . انظر أيضاً : (G.-Demombynes : Op. Cit. Introd. p. LVIII) ، حيث ترجم لفظ تواقيع إلى "actes de nomination" .

(٢) كان منصب مقدم العساكر قد عرض ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٢ب) ، أولا على حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، ثم على الطواشى شهاب الدين رشيد ، فامتنعا .

(٣) كذا فى س ، وهو اسم مفعول من فعل عدق ، ومعناه جمع . (لسان العرب) .

(٤) تدل هذه النسبة على أن شجر الدر كانت جارية للخليفة المستعصم ، قبل أن يشتريها الملك الصالح نجم الدين أيوب . (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 526) . غير أن صمت جميع المراجع العربية المتداولة فى هذه الحواشى عن هذه المسألة ، يحمل على الاعتقاد أن شجر الدر ربما أقرت هـذه النسبة فى سكتها وخطبتها ، ترضية للخليفة فى بغداد ، ولأولى الأمر فى القاهرة . ويقوى هذا الفرض أن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان قد أوصى بتسليم مملكته إلى الخليفة المستعصم "ليرى فيها رأيه" ، (انظر ص ٣٤٢ ، سطر ١٣) ، فلا أقل من انتماء شجر الدر — وهى المرأة القادرة ، إلى الخليفة المستعصم على هذا النحو .

(٥) أضيف ما بين الأقواس ، بسائر هذه الفقرة ، من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٢ ب — ٣٧٣ ا) .

(٦) فى س " أبو " .

ومحاورات[1] ومراجعات ، آلت إلى أن وقع (١٩٠ ا) الاتفاق[2] على تسليمها من الفرنج ، وأن يخَلَّى عنه ليذهب إلى بلاده ، بعد ما يؤدى نصف ما عليه من المال المقرر . فبعث [الملك ريد افرنس] إلى من بها من الفرنج يأمرهم بتسليمها ، فأبوا وعاودهم مراراً ، إلى [أن] دخل العلم الإسلامى إليها ، فى يوم الجمعة ثلاث مضين [من] صفر ، ورفع على السور وأعلن بكلمة الإسلام وشهادة الحق . فكانت مدة استيلاء الفرنج عليها أحد عشر شهراً وتسعة أيام .

وأفرج عن الملك ريد افرنس ، بعد ما فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار ، وأفرج عن أخيه وزوجته[3] ومن بقى من أصحابه ، وسائر الأسرى الذين بمصر والقاهرة ، ممن أسر فى هذه الواقعة ، ومن أيام العادل والكامل والصالح . وكانت عدتهم اثنى عشر ألف أسير ومائة أسير وعشر أسارى . وساروا إلى البر الغربى ، ثم ركبوا البحر فى يوم السبت تاليه ، وأقلعوا إلى جهة عكا . فقال الصاحب جمال الدين بن مطروح فى ذلك :

قل للفرنسيس إذا جئته … مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى … من قتل عُبَّاد يسوع[4] المسيح

(١) أورد ابن واصل (نفس المرجع ، س ٣٧٢ ا) قصة إحدى تلك المحاورات ، وليس لها علاقة جوهرية بموضوع تسليم دمياط أو الفدية المطلوبة ، ونصها : " حكى لى الأمير حسام الدين ، قال : كان ريد افرنس ملك الإفرنج عاقلا فطنا إلى الغاية . قال قلت له فى بعض محاورتى ما معناه : كيف خطر للملك ، مع ما أرى فيه من فضله وعقله وصحة ذهنه ، أن يقدم على خشب ويركب متن هذا البحر ، ويأتى إلى هذه البلاد المملوءة خلقا من المسلمين والعساكر ، ويعتقد أنها تحصل له ويملكها ؟ و[قلت له إن] فيما فعل غاية التغرير بنفسه وبأهل مملكته . قال فضحك ولم يرد جوابا . فقلت له إن من شريعتنا من ركب هذا البحر مرة بعد أخرى ، مغرى بنفسه وماله ، لا تقبل شهادته إذا شهد . فقال الملك : ولم ذلك ؟ قال فقلت إنا نستدل بذلك على نقصان عقله ، ومن كان ناقص العقل لا ينبغى قبول شهادته . قال فضحك وقال ، والله لقد صدق هذا القائل وما قصر فيما حكم به " .

(٢) يوجد بين الصفحتين ٩٤ ب ، ٩٠ ا فى س ، ورقة منفصلة بها عدة وفيات ، وضعت هناك خطأ ، وقد أوردت فى مكانها المناسب تحت سنة ٦٥٣ هـ .

(٣) المعروف أن ملكة فرنسا (Margaret of Provence) رافقت زوجها فى تلك الحالة ، وبقيت بدمياط طول مدة وجود الصليبيين بالديار المصرية ، وهى التى جمعت المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية المقررة : (Lane-Poole A Hist. of Egypt. p. 250) ولكن ليس من المعروف فى غير كتاب السلوك أنها أسرت ألبتة .

(٤) يوجد فوق هذا اللفظ فى س كلمة "نصارى" .

أتيتَ مصرًا تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدْهَمٍ ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفًا لا يُرى منهمُ ... إلا قتيل أو أسير[1] جريح
ألهمك الله إلى مثلها ... لعل عيسى منكُم يستريح
إن يكن البابا بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا إنه ... أنصح من شِقّ لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة ... لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

واتفق أن الفرنسيس هذا ، بعد خلاصه من أيدى المسلمين ، عزم على الحركة[3] إلى تونس من بلاد إفريقية ، لما كان فيها من المجاعة والموتان . وأرسل يستنفر ملوك النصارى ، وبعث إلى البابَه[4] خليفة المسيح بزعمهم . فكتب [البابة] إلى ملوك النصارى بالمسير معه ، وأطلق يده فى أموال الكنائس يأخذ منها ما شاء . فأتاه من الملوك ملك الإنكتار[5] ، وملك

(١) فى س "اسير او جريح" . انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ص ١٢٩ ، فى Rec. Hist. Or. I.)

(٢) أى البابا .

(٣) وقعت حركة الملك (Louis IX) على تونس فى آخر سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) ، وسيأتى ذكرها هنا فيما يلى .

(٤) كذا فى س ، والمقصود البابا واسمه (Clement IV) . انظر (Camb. Med. Hist. VI. p. 189)

(٥) أطلق مؤرخو المسلمين هذا الاسم على ملك إنجلترة فى العصور الوسطى ، ويوجد بالقلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٧٥) وصف لإنجلترة وملوكها فى ذلك الأزمنة ، ونصه : "جزيرة انكلطرة ... ويقال انكلترة ... ، وطول هذه الجزيرة من الجنوب إلى الشمال بانحراف قليل أربعمائة وثلاثون ميلا ، واتساعها فى الوسط نحو مائتى ميل ، وفيها معدن الذهب والفضة والنحاس والقصدير ، وليس فيها كروم لشدة البرد بها ؛ وأهلها يحملون الذهب الى بلاد الفرنج ، ويتعاضون عنه بالخمر لعدمه عندهم . وقاعدتها مدينة لندرس ... وصاحب هذه الجزيرة يسمى الانكتار ... " . هذا ويلاحظ أن "الانكتار" المذكور هنا لم يكن ملكا على إنجلترة فى وقت الحملة المشار إليها ، بل كان ولى العهد فقط واسمه (Edward) . أما ملك انجلترة إذ ذاك فكان اسمه (Henry III) ، وهو أبو ولى العهد المذكور .

اسكوسنا(١) ، وملك توْرَل(٢) ، وملك برشلونة واسمه ريدارِكون(٣) ، وجماعة أخر من ملوك النصارى . فاستعد له السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر بالله ابن الأمير أبى زكريا يحيى ابن الشيخ أبى محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص عمر ، ملك تونس ؛ وبعث إليه رسله فى طلب الصلح ، ومعهم ثمانون(٤) ألف دينار . فأخذها [الفرنسيس] ولم يصالحهم ، وسار إلى تونس آخر ذى القعدة سنة ثمان وستين وستمائة ، ونزل بساحل قُرْطَاجَنَّة(٥) فى ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل . وأقام [الفرنسيس هناك] ستة أشهر ، فقاتله المسلمون — للنصف من محرم سنة تسع وستين — قتالا شديدا(٦) ، قتل فيه من الفريقين عالم عظيم . وكاد المسلمون أن يغلبوا ، فأتاهم الله بالفرج وأصبح ملك الفرنجة ميتا ، فجرت أمور آلت إلى عقد الصلح ومسير النصارى . ومن الغريب أن رجلا من أهل تونس ، اسمه أحمد بن إسماعيل الزيات(٧) ، قال :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهّب لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبراً(٨) وطواشيك منكر ونكير

فكان هذا فألا عليه ومات(٩) ...... ؛ وكان ريدا فرنس هذا عاقلا داهيا خبيثا مُفكِّراً .

(١و٢) كذا فى س ، وليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ما يساعد على تعيين المقصود بهذين الاسمين ، ما عدا أنه يوجد فى (Bouquet:Rec. Des Hist. Des Gaules, Tome 20, p. 447. ضمن عبارة طويلة ، أن ملك فرنسا أبحر إلى تونس برفقة الملوك الآتية أسماؤهم ، وهذا هو نص العبارة المذكورة ، وهى مكتوبة بالفرنسية القديمة :

"Quant li roys Loys attendoit ainsi en sa nef au port de Chatiau Castre, le vendredi après ensivant vindrent aussi come ensemble toutes les autres nez qui estoient meues dou port de Marseille et dou port d'Aiguemorte. Lors vindrent li roys de Navarre et li cuens de Poitiers, li conte de Flandres, messire Jehanne de Bretaigne, et pluseurs autres desquelz trop long chose seroit lors de nombrer."

انظر أيضاً (Ibid. Op. Cit. pp. 21, 305 et seq., 440) .

(٢) اسم هذا الملك (James VIII. of Aragon) ، انظر (Camb. Med. Hist.VI.p.415) .

(٤) فى س " ثمانين " .

(٥) بغير ضبط فى س ، وقرطاجنة الحالية إحدى بلاد تونس بإفريقية ، بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٧ — ٥٨) .

(٦) فى س " محاربه سديده " .

(٧) فى س " الرباب " ، انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢٢٣) .

(٨) فى س " قبر " .

(٩) يلى هذا اللفظ بياض فى س ، قدر سطر تقريبا .

ولما استولى المسلمون على دمياط ، سارت البشائر إلى القاهرة ومصر وسائر الأعمال ، فضربت البشائر وأعلن الناس بالسرور والفرح ، (٩٠ ب) وعادت العساكر إلى القاهرة فى يوم الخميس تاسع صفر . فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره خلعت شجر الدر على الأمراء وأرباب الدولة ، وأنفقت فيهم الأموال وفى سائر العسكر .

ووصل خبر قتل الملك المعظم وإقامة شجر الدر [فى السلطنة] إلى دمشق[١] ، بمسير الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الإسعردى ، لاستحلاف الأمراء [بها] . [وكان] فيها الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة ، والأمراء القيمرية ؛ فلم يجيبوه وأخذوا فى مغالطته . واستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب على مال مدينة غزة ، وصار إلى قلعة الصُّبَيْبَة فملكها . فلما ورد الخبر بذلك إلى قلعة الجبل ، [فى يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت[٢] من صفر] ، أُحيط بداره من القاهرة ، وأخذ ما كان له[٣] بها . وثار الطواشى بدر الدين لؤلؤ الصوابى الصالحى — نائب الكرك والشوبك ، وركبَ إلى الشوبك ، وأخرج الملكَ المغيث عمر بن العادل [بن الكامل[٤]] الصغير من الحبس ، وملّكه الكرك والشوبك وأعمالها وحلّف له الناس ، وقام يدبر أمره لصغر سنه .

وكتب الأمراء القيمرية من دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — صاحب حلب ، يخبرونه[٥]

---

(١) فى س " ووصل خبر قتل الملك المعظم إلى دمشق وإقامة شجر الدر " .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٤ أ) .

(٣) كانت قلعة الصبيبة ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) بيد الملك السعيد هذا منذ مات أخوه الملك الظاهر بن العزيز عثمان . ثم أعطاها الملك السعيد لابن عمه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وعوضه السلطان عنها خبزا بالديار المصرية . فلما قتل السلطان الملك المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب ، هرب الملك السعيد إلى غزة ، وفعل ما فعل على الصورة الواردة فى المتن .

(٤) كان السلطان الملك المعظم توران شاه قد أخرج المغيث هذا من محبسه بقلعة الجبل ، ثم أبعده إلى الشوبك خوفا منه . (انظر ص ٣٥٨ ، سطر ٧ ؛ وابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٧٤ ب) .

(٥) فى س " تخبروه " .

بامتناعهم من الحلف لشجر الدر ، ويحثونه [1] على المسير إليهم حتى يملك دمشق . فخرج من حلب فى عساكره مستهل شهر ربيع الآخر ، ووصل إلى دمشق يوم السبت ثامنه ، ونازلها إلى أن كان يوم الاثنين عاشره زحف [عليها] . ففتح الأمراء القيمرية له أبواب البلد ، وكان القائم بذلك من القيمرية [2] الأمير ناصر الدين أبو المعالى حسين بن عزيز بن أبى الفوارس القيمرى الكردى . فدخلها [الناصر صلاح الدين] هو وأصحابه بغير قتال ، وخلع على الأمراء القيمرية ، وعلى الأمير جمال الدين بن يغمور ، وقبض على عدّة من الأمراء المماليك الصالحية وسجنهم . وملك [الناصر صلاح الدين] قلعة دمشق ، وكان بها مجاهد الدين إبراهيم أخو زين الدين أمير جندار ، فسلمها إلى الناصر ، وبها من المال مائة ألف دينار وأربعمائة ألف درهم سوى الأثاث . ففرق الناصر جميع ذلك على الملوك والأمراء ، وأعطى شمس الدين لؤلؤ من خزائنه عشرة آلاف دينار ، وخلعة وفرسا وثلاثمائة ثوب ؛ فرد [شمس الدين] ذلك ، إلا الخلعة والفرس .

وكان الخبر قد ورد إلى قلعة الجبل — فى سادس ربيع الآخر — بخروج الناصر من حلب ، فجدّد الأمراء والمماليك وغيرهم الأيمان لشجر الدر ، ولعز الدين أيبك بالتقدمة على العساكر . ودارت النقباء على الأجناد ، وأمروهم بالسفر إلى الشام . وفى يوم الأربعاء ثانى عشره رُسم أن يسير الأمير أبو على بالعسكر . وفى رابع عشره ورد الخبر بمنازلة الناصر لدمشق ، فوقع الحث على خروج العسكر . وفى حادى عشريه ورد الخبر بأن الناصر مَلَكَ دمشق ، بتسليم القيمرية البلد له . فقُبض على عدّة من أمراء مصر [الذين ليسوا [3] من الترك] ، ووقع اضطراب كثير فى القاهرة ؛ وقبض على القاضى نجم الدين ابن قاضى نابلس ، وعدة (٩٦ ا) ممن يتهم بالميل إلى الناصر . وتزوّج الأمير عز الدين أيبك بشجر الدر ،

(١) فى س " يحثوه ".

(٢) بعض حروف هذه العبارة محجوب بورقة ملصوقة فوقها فى س ، ولكنها واضحة تماما فى ب (١١٤ ب) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٥ ا) .

فى تاسع عشرى شهر ربيع الآخر ، وخلعت [شجر الدر] نفسها من مملكة مصر ، ونزلت له عن الملك ، فكانت مدّة دولتها ثمانين يوما[١] .

الملك المعز عز الدين أيبك[٢] الجاشنكير التركمانى الصالحى

كان تركى الأصل والجنس ، فانتقل إلى مِلك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من بعض أولاد التركمانى[٣] ، فعرف بين البحرية بأيبك التركمانى ؛ وترقى عنده فى الخدم ، حتى صار أحد الأمراء الصالحية ، وعمله جاشنكيرا[٤] ، إلى أن مات الملك الصالح ، وقتل بعده ابنه الملك المعظم . فصار [أيبك] أتابك العساكر ، مع شجر الدر ؛ ووصل الخبر بذلك إلى بغداد ، فبعث الخليفة المستعصم بالله من بغداد كتابا إلى مصر ، وهو ينكر على الأمراء ويقول لهم : " إن كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا " .

---

(١) ينتهى هنا القسم الذى ترجمه (Blochet) من كتاب السلوك إلى الفرنسية ، ويليه القسم الذى ترجم منه إلى الفرنسية أيضاً (Quatremère) . انظر تصدير القسم الأول من الجزء الأوّل ، صفحة ى — ك .

(٢) هذا الاسم مركب من لفظين تركيين ، وهما آى بك . ومعنى أولهما القمر ، ومرادف ثانيهما فى العربية لفظ الأمير . (Quatremère : Hist. des Sultans Mamlouks I. 1. p. 1. n. 2) . ويلاحظ أن أسماء معظم سلاطين المماليك ، وأسماء كل أمراء دولتهم تقريبا ، عبارة عن أسماء أشياء أو حيوانات فى اللغات التركية والفارسية والتترية ، مثل ذلك بيبرس ومعناه الأمير فهد ، وقلاون ومعناه البطة ، وطوغان ومعناه الصقر ، وبكتمر ومعناه الأمير حديد . ومن أسمائهم أيضاً ما يدل على صفات فى إحدى اللغات المتقدمة ، ومنها سلار ومعناه الهاجم ، وازبك ومعناه النبيل . راجع (Lane-Poole : Saracenic Art .p. 4. Note)

(٣) أولاد التركمانى هم بنو رسول الذين استقلوا باليمن (Quatremére : Op. cit. I. 1. P. 1. N.3) انظر أيضاً (ص ١٨١ ، ٢١٣ ، ٢٣٧) . وأصل نسبتهم إلى التركمان ، مع أنهم عرب غسانية ، حسبما جاء فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٢٧ — ٢٨) ، أتوا من بلاد التركمان إلى بغداد ، فى خلافة المستنجد (٥٥٥ — ٥٦٦ هـ ، ١١٦٠ — ١١٧٠ م) فنسبهم من يعرفهم إلى غسان ، ونسبهم من لا يعرفهم إلى التركمان ، " وكانوا بيت شجاعة ورئاسة ، وكان محمد بن هارون جليل القدر فيهم ، فأدناه الخليفة العباسى واختصه برسالته إلى الشام وإلى مصر ... ، فانطلق عليه اسم رسول وشهر به ... ثم (ص ٢٨) انتقل [محمد بن هارون] من العراق إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ، فيمن معه من أولاده ... فلما استوثق الملك لبنى أيوب فى مصر ، لم يزل معهم عصبة من بنى رسول ... فأجمع رأيهم على تسييرهم إلى اليمن صحبة الملك المعظم توران شاه بن أيوب ، فخرجوا صحبته ... ... " ، ومن هنا بدأت علاقة بنى رسول باليمن .

(٤) فى س "جاشنكير".

واتفق ورود الخبر باستيلاء الملك الناصر على دمشق ، فاجتمع الأمراء والبحرية للمَشُوْر[١] ، واتفقوا على إقامة الأمير عز الدين أيبك مقدم العسكر فى السلطنة ، ولقبوه بالملك المعز ؛ وكان مشهوراً بينهم بدين وكرم وجودة رأى . فأركبوه فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر ، وحمل الأمراء بين يديه الغاشية نوباً واحدا بعد آخر إلى قلعة الجبل ، وجلسوا معه على السماط ؛ ونودى بالزينة فزينت القاهر ومصر .

فورد الخبر فى يوم الأحد تاليه بتسلم الملك المغيث عمر الكرك والشوبك ، وبتسلم الملك السعيد قلعة الصبيبة . فلما كان بعد ذلك تجمع الأمراء ، وقالوا : " لا بد من إقامة شخص من بيت المُلْك مع المعز أيبك ، ليجتمع الكل على طاعته ، ويطيعه الملوك من أهله[٢] " . فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك [المسعود[٣] — ويقال له] الناصر [صلاح الدين] — يوسف بن الملك المسعود يوسف — [المعروف باسم] اقسيس[٤] — بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب[٥] ، وله من العمر نحو ست سنين ، شريكا الملك المعز أيبك ، وأن يقوم الملك المعز بتدبير الدولة . فأقاموه سلطانا فى ثالث جمادى الأولى ، وجلس على السماط وحضر الأمراء فى خدمته يوم الخميس خامس جمادى الأولى . فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف والمعز ، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم فى الشركة لا غير ذلك ، وجميع الأمور بيد المعز أيبك . وكان بغزة جماعة من العسكر ، عليهم الأمير ركن الدين خاص ترك ، فرجعوا إلى الصالحية

(١) كذا فى س ، وهى بغير ضبط . والمشور صيغة عامية للفظ المشورة . (محيط المحيط) .

(٢) تدل عبارة ابن واصل فى هذا الصدد (نفس المرجع ، ص ٣٧٦ ا) على أن سبب اجتماع الأمراء على إقامة واحد من بنى أيوب ليشارك فى السلطنة ، هو أنفتهم وخوفهم من المعز أيبك التركمانى . ونصها : " أنفوا من أن يكون عز الدين التركمانى سلطانا ، فاختاروا أن يقيموا صبيا من بنى أيوب ، يكون له اسم الملك ، ويكون هم الذين يدبرون الملك ، ويأكلون الدنيا باسمه ...." (انظر أيضا ص٣٧٨ ، سطر ٦) .

(٣) عبارة س كالآتى : "فأجمعوا على اقامه الملك الاشرف مظفر الدين موسى بن الملك الناصر يوسف ابن الملك المسعود يوسف بن الملك المسعود قسيس بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب " ، وقد صححت إلى الترتيب الوارد هنا ، وأضيف ما بين الأقواس ، بعد مراجعة أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٣٠ ، فى Rec. Hist. Or. I. ؛ والمقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ، وابن واصل: نفس المرجع ، ص ٣٧٦ ا) .

(٤و٥) العبارة الواردة بين الرقمين ليست مترجمة فى (Quatremèae : Op. cit. I. 1. p. 8) . هذا وأقسيس — أو اطسز ، أوطسز — اسم عرف به الملك المسعود يوسف المذكور ، وهو الذى كان آخر ملوك بنى أيوب باليمن . راجع ص٢٣٧ ، سطر ١ — ٦ ؛ وكذلك القلقشندى (صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٣٠) .

(٩٦ ب) واتفقوا مع عدّة من الأمراء على إقامة الملك المغيث عمر بن العادل الصغير ، صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية ، يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة . فلما ورد الخبر بذلك نودى فى القاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى ، وأن الملك المعز عز الدين أيبك نائبه بها ، وذلك فى يوم الأحد سادسه . ووقع الحث فى يوم الاثنين على خروج العساكر ، وجُدِّدت الأيمان للملك الأشرف موسى والملك المعز أيبك ، وأن يبرز اسمهما على التواقيع والمراسيم ، وينقش اسمهما على السكة ، ويخطب لهما على المنابر ، وأقيم شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى المنعوت بالأسعد فى الوزارة[١] .

وتسحب من الصالحية الطواشيان شهاب الدين رشيد الكبير ، وشهاب الدين الصغير ، وركن الدين خاص ترك ، وأَقِش[٢] المُشْرِف[٣] . فقبض على الطواشى شهاب الدين رشيد الصغير ، وأحضر إلى القاهرة فاعتقل بها ، ونجا الباقون . وسارت الخلع لمن بقى بالصالحية ، وعفى عنهم وأُمِّنُوا ، وأرسل إليهم بنفقة .

وفى يوم الخميس عاشره ركب الملكان الأشرف والمعز بالصناجق السلطانية ، وشَقَّا القاهرة ، والمعز يحجب[٤] الأشرف ، والأمراء تتناوب فى حمل الغاشية واحدا بعد واحد .

وقدمت عساكر الملك الناصر إلى غزة ، فخرج الأمير فارس الدين أقطاى الجدار — وكانت إليه تقدمة المماليك البحرية — من القاهرة ، فى يوم الخميس خامس شهر رجب ، بألفى فارس . وسار إلى غزة ، وقاتل أصحاب الناصر وهزمهم .

---

(١) كان شرف الدين أبو سعيد هذا قبطيا ، وهو أول قبطى ولى الوزارة بعصر الإسلامية ، حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٣٧) .

(٢) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op. cit. I. I. P. 10) .

(٣) تقدم وصف وظيفة المشرف فى ص ١٢٧ ، حاشية ١ ، ويوجد فى Quatremère : Op. cit. I. I. P. 10, N. 9.) أمثلة تدل على ماهية تلك الوظيفة بالضبط ، ومنها : "مشرف المماليك مرتبته دون الوزارة" .

(٤) المقصود هنا أن المعز أيبك كان يؤدى وظيفة الحاجب فى ذلك الموكب ، أى أنه كان راكبا أمامه بعصا فى يده . انظر (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥١) . ويؤيد ذلك ماورده فى ابن واصل (نفس

وفى يوم الخميس لخمس بقين من رجب ، اتفق أهل الدولة على نقل [تابوت] الملك الصالح [نجم الدين أيوب] من قلعة جزيرة الروضة ، إلى تربته التى بنيت له بجوار مدارسه الصالحية من بين القصرين . فخرج الناس يوم الجمعة إلى قلعة الروضة ، وحملوا السلطان منها ، وصلوا عليه بعد صلاة الجمعة . وجميع العسكر قد لبسوا البياض ، وقطَّع المماليك شعورهم ، وأقيم عزاؤه ودفن ليلا . ونزل الملكان الأشرف والمعز من قلعة الجبل إلى التربة الصالحية فى يوم السبت ، ومعهما سائر المماليك البحرية والجدارية ، والأمراء والقضاة والأعيان . وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر ، وأقيم المأتم بالدفوف بين القصرين ، واستمرَّ الحضور للعزاء إلى يوم الاثنين . وجعل عند القبر سناجق السلطان (١٩٧) وبُقَجُه[1] وقوسه وتَرْكاشُه[2] ، وترتبت القراء يقرءون عند قبره .

وفى هـذه السنة عزل بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن السنجارى عن قضاء القاهرة ، وولى بعده عماد الدين أبو القاسم ابن المقنشع بن القطب الحوى . فلما مات أفضل الدين الخونجى ، ولى [ابن القطب الحوى] بعده قضاء مصر . ثم ولى صدر الدين موهوب الجزرى قضاء مصر ، عند انتقال ابن القطب إلى قضاء القاهرة . وفى آخر شهر رجب أعيد البدر السنجارى إلى قضاء القاهرة ، وابن القطب إلى قضاء مصر . ثم جُمع

= المرجع ، ص ٢٧٦ ب ٢٧٧ ا) ، فى وصف ذلك الموكب . ونصه : " ولما كان يوم الخميس لعشر خلون فى جمادى الأولى ، ركب السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى بالسناجق السلطانية ، (٢٧٧ ا) والملك المعز عز الدين أيبك التركمانى راكب قدامه ... ... " على أنه من المعروف أيضاً ، حسبما جاء فى (Quatremeére : Op. cit. I. 1. p. 10. N. 10) ، أن المعز أيبك كان قد قرر احتجاب الأشرف موسى عن الناس ، واستدل على ذلك بعبارات من مراجع كثيرة ، ومنها : " وزاد [المعز] على ذلك بأن حجبه ومنعه من الظهور إلى الناس إلا معه " .

(١) البقجة الصرة من القماش ، توضع بها الثياب أو النقود أو الأوراق الخاصة ، وهى فارسية الأصل ، وتجمع على بقج . (محيط المحيط) . وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. l. p. 12. N. 13) هذا اللفظ إلى (coffre) ، أى صندوق أو خزانة ، على أنه لا يوجد بين الأمثلة الواردة هناك للتدليل على ذلك المعنى ما يشير إلى أن البقجة كانت تصنع من مادة غير القماش .

(٢) التركاش لفظ فارسى الأصل ، ومعناه الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب (Quatremère : Op. cit I. l. p. 13. N. 14. ؛ و Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

قضاء مصر والقاهرة للسنجارى ، وصرف ابن القطب عن مصر . وعاد الفارس أقطاى من غزة إلى القاهرة ، فى رابع شعبان . وفى خامسه قبض على الأمير زين الدين أمير جاندار الصالحى ، وعلى القاضى صدر الدين قاضى آمد — وكان من كبراء الدولة الصلاحية ، واعتقلا .

ولاثنتى عشرة بقيت من شعبان وقع الهدم فى مدينة دمياط ، باتفاق أهل الدولة على ذلك ؛ وخرج الحجارون والصناع والفعلة من القاهرة ، فأزيلت أسوارها ومحيت آثارها ، ولم يبق منها سوى الجامع . وسكن طائفة من ضعفاء الناس فى أخصاص على شاطئ النيل من قبليها ، وسموها المنشية وهى موضع دمياط الآن . ولِستٍّ بقين منه قُبض على الأمير جمال الدين النجيبى واعتقل ، وبعده بيوم قبض على أقوش العجمى .

وأخذ الملك الناصر صاحب الشام فى الحركة لأخذ مصر ، بتحريض الأمير شمس الدين لؤلؤ الأمينى له على ذلك . وخرج [الناصر] من دمشق بعساكره ، يوم الأحد النصف من شهر رمضان . ومعه الملك الصالح [عماد الدين[١]] إسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب ، والملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن شيركوه ، والملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين الكبير وأخوه نصرة الدين ، والملك الظاهر شادى بن الناصر داود وأخوه الملك الأمجد حسن[٢] ، والملك الأمجد [تقى الدين] عباس بن العادل ، وعدة ملوك .

فلما ورد الخبر بذلك اضطربت الدولة ، ورُسِم بجمع العربان من الصعيد ، وقبض على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل مع الملك الناصر فى ثانى شوّال ، عند ما ورد الخبر بوصوله

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٩ ا) .

(٢) كان أولاد الناصر داود وأخوته قد انتقلوا إلى القاهرة ، فى أواخر أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، (انظر ص ٣٣٨ ، سطر ٢ ، وما يليه) . وقد بقوا بها حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٩ ا) ، إلى أيام المعز أيبك والأشرف موسى . فلما استولى الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب على دمشق ، أمر الملك المعز إخوة الملك الناصر داود وأولاده وأهله بالخروج من الديار المصرية ، فرحلوا وانضم منهم إلى الناصر صاحب حلب الملك الظاهر شادى وأخوه الملك الأمجد حسن ، كما هو وارد فى المتن .

إلى غزة . وفى غده كثر الإرجاف ووقع التهيؤ للحرب ، وأحضرت الخيول من الربيع [١] .
وفى يوم الاثنين ثامنه برز الأمير حسام الدين أبو على من القاهرة ، وكان الوقت شتاء .
وفى تاسعه (٩٧ ب) برز الأمير فارس الدين أقطاى الجدار — مقدم البحرية — فى جمهور العسكر من الترك . وسارت العساكر فى حادى عشره ، واجتمعت بالصالحية .

وفى يوم السبت ثالث عشره استناب الملك المعز أيبك بديار مصر الأمير علاء الدين البندقدار ، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نوّاب دار العدل ، لترتيب الأمور وكشف المظالم . ونودى يوم السبت العشرين منه بإبطال الخمور ، والجهة [٢] المفردة .

وفيه كثر الإرجاف بوصول الناصر إلى الدّارُوم وفى تاسع عشريه خلع الملك المعز على الملك المنصور محمود ، و [على] أخيه الملك السعيد عبد الملك ، ولدى الملك الصالح إسماعيل [عماد الدين] — وكانا فى حبس الملك الصالح نجم الدين [أيوب] — وأركبهما فى القاهرة ، ليوهم الناس أن الملك الصالح أباهما مباطن له على الملك الناصر ، حتى يقع بينهما .

وفى يوم الثلاثاء أوّل ذى القعدة نودى بالقاهرة أن الصلح انتظم بين الملك المعز والبحرية ، وبين الملك المغيث عمر بن العادل صاحب الكرك . ولم يكن لما نودى به حقيقة ، وإنما قصد بذلك أن يقف الملك الناصر عن الحركة .

وفى يوم الخميس ثالثه نزل الملك المعز من قلعة الجبل فيمن بقى عنده من العساكر ، وسار إلى الصالحية وبها العساكر التى خرجت قبله ؛ وترك بقلعة الجبل الملك الأشرف موسى فاستقرت عساكر مصر بالصالحية إلى يوم الاثنين سابعه ، فوصل الملك الناصر

---

(١) الربيع هنا مكان الرعى ، وفى (Quatremère Op. cit. I. I. p. 16,N.16) أمثلة عدة للدلالة على هذا المعنى ، ومنها : " توجه الى الربيع وأقام به أياما " .

(٢) الجهة هنا الضريبة ؛ وفى (Ibid : Op. cit. I. 1. p. 17, N. 17) أمثلة كثيرة لتقرير هذا المعنى ، ومنها : " نظر الجهات موضوعه التحدث فيما يتحصل من التجار برا وبحرا " . وعلى ذلك فالجهة المفردة هى الضريبة المقررة لديوان المفرد ، وهو الديوان الذى يتولى نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة ، وإيراده من البلاد المفردة له . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٧) .

بعساكره إلى كُراع[1] — وهى قريبة من العباسة ، فتقارب ما بين العسكرين . و [كان] فى ظن كل أحد أن النصرة إنما تكون للملك الناصر على البحرية ، لكثرة عساكره ولميل أكثر عسكر مصر إليه . فاتفق أنه كان مع الناصر جمع كبير من مماليك أبيه الملك العزيز ، وهم أتراك يميلون إلى البحرية لعلة الجنسية ، ولكراهتهم فى الأمير شمس الدين لؤلؤ مدبر المملكة .

فعند ما نزل الناصر بمنزلة الكراع ، قريبا من الخَشَبِيّ بالرمل ، رحل المعز أيبك بعساكر مصر من الصالحية ، ونزل تجاهه بسَمُّوط[2] إلى يوم الخميس عاشره . فركب الملك الناصر فى العساكر ، ورتب ميمنة وميسرة وقلبا . وركب المعز ، ورتب أيضا عساكره . وكانت الوقعة فى الساعة الرابعة ، فاتفق فيها أمر عجيب قلّ ما اتفق مثله ، فإن الكسرة كانت أوّلا على عساكر مصر ، ثم صارت على الشاميين :(١٩٨ ا) وذلك أن ميمنة عسكر الشام حملت هى والميسرة على من بإزائها حملة شديدة ، فانكسرت ميسرة المصريين وولوا منهزمين ، وزحف أبطال الشاميين وراءهم ، وما لهم علم بما جرى خلفهم . وانكسرت ميمنة أهل الشام ، وثبت كل من القلبين واقتتلوا . ومر المنهزمون من عسكر مصر إلى بلاد الصعيد ، وقد نهبت أثقالهم . وعند ما مروا على القاهرة خطب بها للملك الناصر ، وخطب له بقلعة الجبل ومصر ؛ وبات الأمير جمال الدين بن يغمور بالعباسة ، وأحمى الحمام للملك الناصر وجهز له الإقامة . هذا والناصر على منزلة كراع ليس عنده خبر ، و إنما هو واقف بسناجقه وخزائنه وأصحابه . وأما ميمنة أهل الشام ، فإنها لما كُسرت قَتل منهم عسكر مصر خلقا كثيرا فى الرمل ، وأسروا أكثر مما قتلوا .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وقد حدد المقريزى موضعها فيما يلى ، كما ذكر (Quatremère : Op. Cit. I. I. P. 19 N. 18) أنها واقعة بين العباسة والسدير . هذا والكراع فى اللغة طرف الشىء ، وكراع الأرض طرفها البعيد . (محيط المحيط) .

(٢) يوجد بهامش الصفحة فى س ، قبالة اسم هذا البلد العبارة الآتية ، وهى بخط يشبه خط المتن تماما ، ونصها : " الخشبي يعرف اليوم بالسعيدية ، فيما بين بلبيس وبين الصالحية " . ويقع هذا البلد على مسافة ثلاث مراحل من الفسطاط ، وكان به خان ، وهو أول الجفار من ناحية مصر ، وآخرها من ناحية الشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٤٥) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى موضع بين الخشبي والعباسة . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٢٠١ ، فى Rec. Hist. Or. V.) .

وتعين الظفر للناصر وهو ثابت فى القلب ، وتجاهه المعز أيبك أيضا فى القلب . فخاف أمراء الناصر منه أن يفنيهم إذا تم له الأمر ، وخامروا عليه وفروا بأطلابهم إلى الملك المعز : وهم الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ، والأمير جمال الدين أقوش الحسامى ، والأمير بدر الدين بكتوت الظاهرى ، والأمير سليمان العزيزى ، وجماعة [غيرهم] . فخارت قوى الناصر من ذهاب المذكورين إلى الملك المعز ، فحمل المعز بمن معه على سناجق الناصر ، ظنا منه أن الناصر تحتها . وكان الناصر — لما فارقه الأمراء إلى عند المعز — [قد] خرج من تحت السناجق فى شرذمة قليلة ، فخاب ما أمّله المعز أيبك ، وعاد إلى مركزه خائبا . وقد قوى الشاميون بذلك ، وتبعوه يقتلون منه وينهبون .

وسُرّ الأمراء القيمرية بذلك ، وقصدوا الحملة على المعز ليأخذوه ، فوجدوا أصحابهم قد تفرقوا فى طلب الكسب والنهب . فحمل المعز عليهم وثبتوا له ، ثم انحاز إلى جانب يريد الفرار إلى جهة الشوبك . ووقف الناصر فى جمع من العزيزية وغيرهم تحت سناجقه وقد اطمأن ، فخرج عليهم المعز — ومعه الفارس أقطاى — فى ثلثمائة من البحرية ، وقرب منه . فخامر عدّة ممن كان مع الناصر عليه ، ومالوا مع المعز والبحرية ، فولى الناصر فارا يريد الشام فى خاصته وغلمانه . واستولى البحرية على سناجقه ، وكسروا صناديقه ونهبوا (٩٨ب) أمواله .

وساق المعز يريد الأطلاب ، فوقع بطلب الأمير شمس الدين لؤلؤ ، والأمير حسام الدين القيمرى ، والأمير ضياء الدين القيمرى ، وتاج الملوك ابن المعظم ، والأمير شمس الدين الحميدى ، والأمير بدر الدين الزرزارى ، وجماعة [غيرهم] فبدّد [الملك المعز] شملهم ، وأَسَر المعظمَ تورانشاه بن صلاح الدين ، وأخاه نُصرة الدين محمد ، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل ، والملك الأشرف صاحب حمص ، والملك الزاهر ، والأمير شهاب الدين القيمرى ، والأمير حسام الدين طرنطاى العزيزى ، والأمير ضياء الدين القيمرى ، والأمير شمس الدين لؤلؤ مدبر المملكة الحلبية ، وأعيان الحلبيين وخلقا كثيرا . وقُتِل الأمير شمس الدين الحميدى ، والأمير بدر الدين الزرزارى ، وجماعة [غيرهما] .

وكان الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى على ميسرة عسكر المصريين ، فلما وقعت الكسرة على الميسرة تفرق عنه أصحابه ، وتقنطر[1] عن فرسه وكاد يؤخذ ، لولا [أنه] وقف معه من أركبه ، فلحق بالمعز أيبك فأمر الملك المعز بضرب عنق الأمير شمس الدين لؤلؤ ، فأخذته السيوف حتى قطع ؛ وضُربت عنق الأمير ضياء الدين القيمرى . وأُتِى بالملك الصالح إسماعيل وهو راكب ، فسلم عليه الملك المعز وأوقفه إلى جانبه ، وقال للأمير حسام الدين أبى على : " ما تُسَلِّم على المولى الصالح " ، فدنا منه [الأمير حسام الدين] وعانقه وسلم عليه . وجُرح الملك المعظم ، وابنه تاج الملوك ، وضُرب الشريف المرتضى فى وجهه ضربة عظيمة ، وهموا بقتله ثم تركوه .

وتمزق أهل الشام كل ممزق ، ومشوا فى الرمل أياما . وصار الملك الناصر ومعه نوفل الزبيدى وعلىّ السعدى إلى دمشق . وأما العسكر الشامى الذى كَسَر ميسرة المصريين ، فإنه وصل إلى العباسة ونزل بها ، وضرب الدهليز الناصرى هناك ، وفيهم الأمير جمال الدين ابن يغمور نائب السلطنة بدمشق وعدة من أمراء الناصر ، وهم لا يشكُّون أن أمر المصريين قد بطل وزال ، وأن الملك الناصر مُتَقدِم عليهم ليسيروا فى خدمته إلى القاهرة . فبينا هم كذلك إذ وصل إليهم الخبر بهروب الملك الناصر ، وقَتْل الأمراء وأسر الملوك وغيرهم . فهمّ طائفة منهم أن يسيروا إلى القاهرة ويستولوا عليها ، ومنهم من رأى الرجوع إلى الشام ؛ ثم اتفقوا على الرجوع .

وأما من انهزم من (١٩٩) عسكر مصر أولا ، فإنهم وصلوا إلى القاهرة فى يوم الجمعة حادى عشره ، غدِ يوم الوقعة . فما شك الناس فى أن الأمر تم للملك الناصر ، وأن أمر البحرية قد زال وكان بقلعة الجبل الأمير ناصر الدين إسماعيل ...[2] بن يغمور ، أستادار الملك الصالح [عماد الدين] إسماعيل ، فى جب هو وأمين الدولة أبو الحسن بن غزال — المتطبب المعروف بالسامرى وزير الصالح المذكور ، والأمير سيف الدين القيمرى ، وجماعة [غيرهم أيضا] ، لم

---

(١) فى س " تقطر " .

(٢) بياض فى س ، يسع لفظا واحدا

من أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب فى الاعتقال. فلما بلغهم ذلك خرجوا من الجب، وأظهروا الفرح والاستبشار، وأرادوا أخذ القلعة. فلم يوافق الأمير سيف الدين القيمرى على ذلك، وتركهم وقعد على باب دار الملك المعز أيبك التى فيها عياله، وحماها وصدّ الناس عنها. وصاح البقية: "الملك الناصر يا منصور!"

وخُطب للناصر بالقلعة ومصر، وسائر البلاد التى بلغها خبر نصرته. وكان بجامع القاهرة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقام على قدميه وخطب خطبتين خفيفتين، وصلى بجماعة الجمعة، وصلى قوم صلاة الظهر. فما هو إلا أن انقضت صلاة الجمعة، [حتى] وردت البشارة بانتصار الملك المعز وهزيمة الناصر، فدُقَّت البشائر. وقدم جماعة ومعهم نصرة الدين ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فاعتقلوه بقلعة الجبل. وقُبض على الأمير ناصر الدين ابن يغمور، والوزير أمين الدولة[1] [أبى الحسن بن غزال]، ومن كان معهما، وأعيدوا إلى الجب. ونودى آخر النهار فى القاهرة ومصر بالزينة.

وأما الملك المعز فإنه ساق — بعد ما تقدم ذكره من قتله الأسراء — إلى العباسة، فلما رأى دهليز الملك الناصر[2] توهم، وعرج عن الطريق على العلاقمة إلى بلبيس، ظنا أن واقعة وقعت بالقاهرة. فبلغ من كان بالدهليز الخبر فهدموه فى الليل، وساروا إلى الشام. فبلغ ذلك الملك المعز وهو فى بلبيس، فرحل يريد القاهرة وقد اطمأن؛ ودخلها يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة بالأسرى بين يديه، وسناجقهم مقلبة وطبولهم مشققة[3]، وخيولهم وأموالهم بين يديه، إلى أن وصل إلى بين القصرين. فلعبت المماليك بالرماح وتطاردوا، والملك المعز فى الموكب، وإلى جانبه الأمير حسام الدين أبى على، وقدامه الملك الصالح

(١) فوق هذا اللفظ فى س إشارة إلى هامش غير موجود بالصفحة، ولعل المقريزى قصد أن يكمل الاسم على الصورة الواردة بالصفحة السابقة، ثم أغفل ذلك أو نسيه.

(٢) كان العسكر الشامى الذى كسر ميسرة المصريين، وتقدم إلى العباسة فنزل بها، قد ضرب الدهليز الناصرى هناك استعداداً لوصول الناصر. (انظر ص ٣٧٦، سطر ١٠).

(٣) فى س "مشقعة".

إسماعيل تحت الاحتياط. فعند ما (٩٩ ب) وصل إلى تربة الملك الصالح نجم الدين أحدق المماليك البحرية بالصالح إسماعيل، وصاحوا "ياخوند! أين عينك ترى عدوك إسماعيل؟" ثم ساروا إلى قلعة الجبل، واعتقل الصالح إسماعيل بها وبقية الملوك، وألقى الأسرى من الشاميين في الجباب. وعند ما دخل الملك المعز [إلى القلعة[1]]، تلقاه الملك الأشرف موسى وهنأه بالظفر؛ فقال الأمير فارس الدين أقطاي للأشرف: "كلما حصل بسعادتك، وما سعينا إلى في تقرير ملكك"، وكان يؤثر بقاء الأشرف خوفا من استبداد المعز أيبك. وكان هذا اليوم من أعظم أيام القاهرة، واستمرت الزينة بالقاهرة ومصر وقلعة الجبل وقلعة الروضة عدة أيام.

وفي يوم الاثنين رابع عشره شُنق الأمير ناصر الدين إسماعيل بن يغمور، أستادار الصالح إسماعيل؛ وشنق بكجا[2] ملك الخوارزمي[3]، وأمين الدولة أبو الحسن السامرى الوزير، على باب قلعة الجبل، ومعهم المجير بن حمدان من أهل دمشق. وظهر لأمين الدولة من الأموال والتحف والجوهر ما لا يوجد مثله إلا عند الخلفاء، بلغت قيمة ما ظهر له سوى ما كان مودوعا ثلاثة آلاف ألف دينار؛ ووجد له عشرة آلاف مجلدة، كلها مخطوط منسوبة، وكتب نفيسة.

وفي ليلة الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة، قُتل الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة الجبل؛ وعمره نحو الخمسين سنة. قال ابن واصل: من أعجب ما مرّ بي أن الملك الجواد مودودا[4]، لما كان في حبس الملك الصالح إسماعيل، سير إليه [الملك الصالح إسماعيل] من خنقه، وفارقه ظنا أنه قد مات، فأفاق فرأته امرأة هناك،

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٤ أ)

(٢) كذا في س بغير ضبط، وهو في ب (١١٨ أ) "بكجا"، وقد رسمه Quatremère (Bekdjesa) إلى Op cit I 1 p 80)

(٣) كذا في س

(٤) في س "مودود"

فأخبرتهم أنه قد أفاق ، فعادوا إليه وخنقوه حتى مات . وفى هذه الليلة لما أخرجوا الملك الصالح إسماعيل بأمر المعز أيبك إلى ظاهر القلعة ، وكان معهم ضوء فأطفأوه ، وخنقوه وفارقوه ظنا أنه قد مات ، فأفاق فرأته امرأة هناك ، فأخبرتهم أنه أفاق ، فعادوا إليه وخنقوه حتى مات . فانظر ما أعجب هذه الواقعة ! ودفن هناك[١] ؛ وكانت أمه رومية ، وكان رئيس[٢] (؟) النفس نبيل القدر ، مطاعا له حرمة وافرة ، وفيه شجاعة .

وفى ثامن عشريه أخرج الملك المعز كل من دخل القاهرة من عسكر الملك الناصر ، إلى دمشق على حمير ، هُمْ وأتباعهم ؛ ولم يمكن أحدا منهم أن يركب فرسا ، إلا نحو الستة أنفس فقط ، وكانوا نحو الثلاثة آلاف رجل .

وفيها وصل إلى الملك الناصر من قبل القان[٣] ملك التتر طَمْغَا[٤] صورة أمان ، فصار يحملها فى حياصته[٥] ، وسير إلى القان هدايا كثيرة . فلما خرج هولاكو واستولى على الممالك ، تغافل الناصر عنه ولم يبعث إليه شيئا ؛ فعز ذلك عليه ، وصار فى كل قليل ينكر تأخر تقدمة الناصر الهدايا والتحف إليه .

---

(١) قصة خنق الملك الصالح إسماعيل مرتين ، وموافقتها فى التفاصيل لما حدث فى خنق الملك الجواد ، واردة بألفاظها وترتيبها فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٨٤ ب) . ويلاحظ أن هذه أول مرة فى كتاب السلوك ، يشير فيها المقريزى لابن واصل .

(٢) فى س "ريس" .

(٣) كان قان — أو خاقان — التتر فى تلك السنة كيوك (٦٤٤ — ٦٤٦ هـ ، ١٢٤٦ — ١٢٤٨ م) . انظر (Lane-Poole : Muh. Dyns. P. 215) . وهو ابن أوغطاى بن جنكزخان ، واسمه فى المراجع الإنجليزية (Kuyuk) ، وفى الفرنسية (Couyouk) . وقد أرسل ذلك الخان ، حسبما جاء فى (D'Ohsson : Hist. Des Mongols, III. p. 91) إلى الملك الناصر صاحب دمشق صورة أمان ، صار الناصر يحملها فى حياصته ، كما فى المتن هنا .

(٤) الطمغا كلمة تركية ، معناها هنا البراءة (diploma) التى تصدر من قبل السلطان أو الملك ، بالعفو عن مجرم أو تأمين خائف . والطمغا أيضا شعار السلطان أو الأمير (blazon) . انظر : (Steingass : Pers.- Eng. Dict.) وأيضا (Mayer : Saracenic Heraldry, pp. 18,33,53,206)

(٥) الحياصة هنا الحزام أو المنطقة ، (Quatremère Op. cit. I. 1. p. 31, N. 31) ، وهى فى الأصل السير الذى يشد به حزام سرج الحصان . (محيط المحيط)

وفيها كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ، ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الأموال ، وسبوا الحريم وبالغوا فى الفساد ، حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم .

وفى سابع عشر ذى الحجة ، سار الأمير فارس الدين أقطاى من القاهرة فى ثلاثة آلاف إلى غزة ، واستولى (١١٠٠) عليها .

وفى هذه السنة قدم البطرك أثناسيوس[١] ابن القس أبى المكارم ، فى يوم الأحد رابع شهر رجب ، الموافق لخامس بابه سنة سبع [وستين[٢]] وتسعمائة للشهداء . فأقام فى البطركية إحدى عشرة سنة وخمسة وخمسين يوما ، ومات يوم الأحد أول كيهك سنة ثمان وسبعين وتسعمائة للشهداء ، الموافق لثالث المحرم سنة ستين وستمائة هجرية ؛ وخلا الكرسى بعده خمسة وثلاثين يوما . وفيها مات الإمبراطور[٣] ملك الفرنج الألمانية بصقلية[٤] ، وقام من بعده ابنه .

وخرجت هذه السنة والناصر يوسف بدمشق ، وبيده ملك الشام والشرق ؛ ومملكة مصر بيد الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ، ويخطب معه للأشرف موسى ، والمعتمد عليه فى أمور الدولة من البحرية ثلاثة أمراء : وهم الأمير فارس الدين أقطاى ، وركن الدين بيبرس البندقدارى ، وسيف الدين بلبان الرشيدى .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الملك المعظم غياث الدين توارنشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ، قتيلا فى يوم الاثنين تاسع عشرى المحرم . ومات الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ، قتيلا فى ليلة الأحد سابع عشرى ذى القعدة ، عن نحو خمسين سنة . ومات الأمير شمس لؤلؤ الأمينى ، مقدم عسكر حلب ، قتيلا فى يوم الخميس عاشر

---

(١) اسم هذا البطريق (Athanasius III)، وهو السادس والسبعون من بطارقة الأقباط بالإسكندرية (Butcher : Op. cit. I. p. XIV ; II. pp. 163-165).

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Quatremère : Op. cit, I. 1. p. 31)

(٣) فى س "الانبرطوز" .

(٤) الإمبراطور المقصود هنا هو (Frederic II) ، وقد توفى بحصن (Fiorentino) الواقع بين بلدتى (Foggia & Lucera) ، بإقليم (Apulia) بإيطاليا نفسها . (Camb. Med. Hist. VI. p. 164)

ذي المقدة . وتوفى رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن طاهر بن على بن فتوح[(١)] بن رواج[(٢)] الإسكندرى المالكى ، عن أربع وتسعين سنة ، فى ....[(٣)] . وتوفى الحافظ شمس الدين أبو الحجاج يوسف بن خليل بن قراجا بن عبد الله الدمشقى بحلب ، عن ثلاث وتسعين سنة .



سنة تسع وأربعين وستمائة . فيها استولى الأمير فارس الدين أقطاى على الساحل ونابلس إلى [نهر] الشَّرِيعَة[(٤)] ، وعاد إلى القاهرة . فسير الملك الناصر عسكرا من دمشق إلى غزة ليكون بها ، فأقاموا على تل العجول . فخرج المعز أيبك ، ومعه الأشرف موسى والفارس أقطاى وسائر البحرية ، ونزل بالصالحية . فأقام العسكر المصرى بأرض السانح قريباً من العباسة ، والعسكر الشامى قريبا من سنتين[(٥)] ، وترددت بينهما الرسل . وأحدث الوزير الأسعد الفائزى ظلامات عديدة على الرعية .

وفيها أمر الملك المعز أيبك بإخلاء قلعة الروضة ، فتحول من كان فيها من المماليك والجرَكسية[(٦)] وغيرهم . وفيها عزل قاضى القضاة عماد الدين أبو القاسم بن أبى إسحاق ابن المقنشم — المعروف بابن القطب الحموى ، عن قضاء مصر ؛ وأضيف [ذلك] إلى قاضى القضاة بدر الدين السنجارى . وسافر الأمير حسام الدين أبو على إلى الحجاز — وترك طلبه بالسانح وفيه من ينوب عنه — من البحر إلى قوص ، ثم ركب البحر الملح إلى مكة . وفيها أشيع وصول البادرائى رسول الخليفة ، ليصلح بين الناصر والمعز . فلما أبطأ قدومه ، وكثرت

(١) كذا فى ب (١١٩ ا) ، وهو فى س "فتو ح" . (٢) كذا فى س .

(٣) بياض فى س . (٤) أطلق هذا الاسم على نهر الأردن ، بعد زمن الحروب الصليبية ، وخصوصا جزؤه الواقع بين بحيرة طبرية إلى مصبه فى البحر الميت ، ويعرفه البدو بهذا الاسم حتى الآن .
(Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 82. N. 37) و؛ (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 52)

(٥) كذا فى س ، وقد أوردها (Quatremère : Op. Cit I. 1. p.33) على أنها موضع اسمه "سنين" ، وترجمها إلى (Sattin) . هذا وفيما يلى تحت سنة ٦٥٤ ، أن السلطان الملك المعز أقام بعساكره بأرض السانح ثلاث سنين ، فلعل المقصود هنا بلفظ "سنتين" مدة زمنية ، وليس موضعا لإقامة العساكر .

(٦) جمع جرجى ، وهو الجندى الموكل بحراسة مكان من الأمكنة ، (un soldat destiné à garder une place) انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 33. N. 40) .

الأقاويل ، قال الأمير شهاب الدين غازى بن أياز[1] المعروف بابن المعمار — أحد المجردين صحبة الأمير جمال الدين موسى بن يغمور :—

يُذكِّرنا زمانُ الزهد ذكرى زمانِ اللهو فى تلٍّ العجول
ونطلب مسلماً يروى حديثا صحيحا من أحاديث الرسول

وفيها وقع بمكة غلاء عظيم . ومات فى هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة ببغداد ، [واسمه] كمال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن عبد السلام بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إبراهيم اللمغانى الحنفى . و [فيها] توفى بهاء الدين أبو الحسن على بن هبة الله بن سلامة الجميزى الشافعى ، خطيب القاهرة — وقد انتهت إليه مشيخة العلم — عن تسعين سنة ، فى يوم ......[2] . و [فيها] توفى الصاحب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم ابن مطروح — الوزير بالشام ، [و] الشاعر [أيضاً] — عن سبع وخمسين سنة ، فى ......[4] . [وفيها] توفى رشيد الدين أبو محمد عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدى شيخ القراآت ...[5] و [فيها] توفى علم الدين قيصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مسافر — المعروف بتعاسيف ، الفقيه الحنفى ، بدمشق فى ...[6] رجب ؛ ومولده بأَصْفُون[7] من صعيد مصر سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، وهو أحد الأئمة فى العلوم الرياضية .

* * *

سنة خمسين وستمائة . فيها قدم الأمير حسام الدين أبو على من الحجاز ، فنزل فى المعسكر من أرض السانح بالصالحية ؛ وقدم من بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد

---

(١) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 35) .

(٢) الوفيات الواردة هنا مكتوبة على ورقة منفصلة فى س ، بين الصفحتين ٩٩ ب ، ١٠٠ ا ، ولم يشر المقريزى كعادته إلى مكانها المناسب ، على أنها وقعت فى سنة ٦٤٩هـ انظر (Quatremère : Op. cit. I. 1. pp. 35-36, et notes)

(٣) و (٤) و (٥) و (٦) بياض فى س .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهى إحدى قرى المطاعنة بالوجه القبلى ، وتقع على الشاطىء الغربى للنيل ، وتسمى أسفون أيضا . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٥٧ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٠٠) .

ابن الحسن بن أبي سعد البادرائي ، رسولا من الخليفة للإصلاح بين الملك المعز أيبك والملك (١٠٠ ب) الناصر . فتلقاه القاضي بدر الدين الخضر بن الحسن السنجاري من قطيا ، ومعه جماعة ، وتحدّث [معه] في ذلك . فأراد الناصر أن تقام له الخطبة بديار مصر ، فلم يرض الملك المعز ، و [زاد بأن] طلب أن يكون بيده — مع مصر — من غزة إلى عقبة فِيق[1] .

و [فيها] وردت الأخبار بأن منكوخان[2] ملك التتر سير أخاه هولاكو لأخذ العراق فسار[3] وأباد أهل بلاد الإسماعيلية قتلا ونهبا وأسرا وسبيا[4] ، ووصلت غاراته إلى ديار بكر وميافارقين ؛ وجاءوا إلى رأس عين وسروج ، وقتلوا ما ينيف على آلاف ، وأسروا مثل ذلك ؛ وصادفوا قافلة سارت من حران تريد بغداد ، فأخذوا منها أموالا عظيمة ، من

---

(١) في س " فيق " .

(٢) اسم هذا الخان في المراجع الأوربية الحديثة (Mangu) ، وهو ابن تولوى بن جنكزخان ، وقد وقع تتويجه وإعلانه خانا أعظم سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) ، في مجمع رؤساء التتر (Kurilay) تلك السنة ، أي بعد ثلاث سنين من وفاة كيوك . وفي ذلك المجمع قر الرأي على تجهيز حملتين حربيتين ، تقصد إحداها الصين ويكون قائدها قوبيلاى ، وتذهب الأخرى إلى بلاد فارس بقيادة هولاكو ، وكلاهما أخ لمنكوخان (Browne: A Lit. Hist. Of Persia, II. p. 452)

(٣) وصل هولاكو إلى بلاد الإسماعيلية الفرس بقوهستان ، وهي جهات الجبال الواقعة بين هرات ونيسابور ، بعد السنة المذكورة هنا بكثير . فقد سار من قراقوم (Karakorum) عاصمة التتر العظمى ، سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٠ م) ، بتعليمات مشددة فحواها محق الإسماعيلية بفارس ، وهدم الخلافة العباسية ببغداد . ووصل هولاكو بلاد الإسماعيلية سنة ٦٥٤ هـ (١٣٥٦ م) ، وكان عند التعليمات التي لديه : فأتى عليهم وعلى جميع معاقلهم بما في ذلك ألموت ، وأسر آخر رؤسائهم وهو شيخ الجبل ركن الدين خورشاه ، وأرسله إلى (Karakorum) حيث أمر منكوخان بقتله. (Browne: A Lit. Hist. of Persia, II. pp. 452-460)

(٤) أحس الإسماعيلية بخطر المغول قبل ذلك بعدة سنين ، كما أحست به جميع دول أوربا أيضا ، وذهب رسول من الإسماعيلية إلى انجلترة وفرنسة ، سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) ، يرجوها الغوث على المغول ، ولكنه لم يلق نجحا . يشهد بذلك ما قاله أسقف مدينة (Winchester) بإنجلترة ، حسبما جاء في (Browne: Op. cit.III. p. 6) ، وهذا نصه :

"Let these dogs devour each other and be utterly wiped out, and then we shall see, founded on their ruins, the Universal Catholic Church, and then shall truly be one shepherd and one flock."

جملتها ستمائة حمل سكر من عمل مصر ، وستمائة ألف دينار ؛ وقتلوا الشيوخ والعجائز ، وساقوا النساء والصبيان معهم . فقطع أهل الشرق الفرات ، وفرّوا خائفين .

فعند ذلك أزال الملك المعز اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة ، وانفرد باسم السلطنة ، وسجن الأشرف ، واستولى على الخزائن . وشرع فى تحصيل الأموال : فأحدث الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهيب الفائزى حوادث ، وقرر على التجار وعلى أصحاب العقار أموالا ، ورتب مكوساً وضمانات سمّاها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية ، وأخذ الجوالى[1] من الذمة مضاعفة ، وأحدث التصقيع والتقويم[2] وعدّة أنواع من المظالم ، ورتب الملك المعز مملوكه الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة بديار مصر ، وأمّر عدة من مماليكه . فقويت شوكة البحرية وزاد شرهم ، وصار كبيرهم ، الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار الصالحى ملجأ لهم ، يسألونه فى حوائجهم ، ويكون هو المتحدّث مع الملك المعز . وفيها أقطع الفارس أقطاى ثغر الإسكندرية ، وكُتب له به منشور . وتعدى شر البحرية ، وكثر تمرّدهم وطغيانهم .

وخرجت السنة والملك المعز والعساكر بالسانح ، وعساكر الشام بغزة ، والملك الناصر مقيم بدمشق ، والملك المغيث عمر بالكرك . وكان النيل عاليا : بلغ ثمانية عشر ذراعا وسبعة عشر إصبعا ، وسدّ باب البحر عند المقس .

وفيها وقع بمدينة حلب حريق عظيم ظهر أنه من الفرنج ، [و]تلف فيه أموال لا تحصى ، واحترقت ستمائة دار . وحج فى هذه السنة ركب العراق .

---

(١) تقدم شرح لفظ الجوالى فى ص ٨٦ (حاشية ٤) ، ويزاد عليه هنا أن الجوالى جمع جالية ، وأن لفظ جالية يطلق على أهل الذمة ، وقد "قيل لهم ذلك لأن الإمام عمر أجلاهم عن جزيرة العرب ، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة ... وإن لم يجلوا من أوطانهم" . (محيط المحيط) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. II. 1, p.1 32. N. 16)

(٢) التصقيع هنا إحصاء البيوت والعقارات ، لأجل فرض ضريبة عليها . والتقويم تقدير قيمة كل من البيوت المحصاة من أجل الغرض نفسه (Quatremère : Op. cit. I. 1. pp. 87, et p. 89. N. 124).

. ومات فى هذه السنة من الأعيان العلامة رضى الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر[1] العمرى الهندى الصنعانى الحنفى اللغوى ، [مات] ببغداد ، ودفن بمكة عن ثلاث وسبعين سنة . وتوفى فخر القضاة أبوالفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقى بن هبة الله ابن الحسين بن يحيى بن بصاقة الكنانى ، الكاتب الوزير للناصر دواد ، [و] الأديب المنشىء ، فى ...[2] وتوفى شمس الدين أبو عبدالله محمد بن سعد بن عبدالله بن سعد الأنصارى القدسى ، الفقيه الشافعى المحدّث المقرئ ، النحوى الأديب الكاتب المجوّد ، [مات] بدمشق عن تسع وسبعين سنة . وتوفى مُسْنَدُ العراق المؤتمن أبو القاسم يحيى بن نصر بن أبى القاسم بن الحسن بن قميرة[3] التميمى ، التاجر السفار ، عن خمس وثمانين سنة ، حدّث بمصر وغيرها . وتوفى نقيب الأشراف — وقاضى العسكر ، ومدرّس المدرسة الشريفية بمصر — الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد العلوى الحسينى الأرموى ، [على ما] حدّثنا[4] الأشراف ، فى ثالث عشر شوّال سنة خمسين وستمائة . وكان إماما فى الفقه والأصول مناظرا ، تفقّه على الصدر ابن حمويه ، وشرح المحصول ، ومات عن نيف وسبعين سنة .

* * *

سنة إحدى وخمسين وستمائة . فيها تقرّر الصلح بين الملك المعز أيبك وبين الملك الناصر صاحب دمشق ، بسفارة نجم الدين البادرائى . وقد قدم [نجم الدين] إلى القاهرة ، وصحبته عز الدين أزدمر ، وكاتب الإنشاء بحلب نظام الدين أبو عبد الله محمد بن المولى الحلبى ، لتمهيد القواعد . فلم يبرحا إلى أن انفصلت القضية : على أن يكون للمصريين إلى الأردن ، وللناصر ما وراء ذلك ؛ وأن يدخل فيما للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله ؛

(١) اسم هذا العلامة فى بعض المراجع العربية ، (انظر (Quatremère Op. cit. I. I. p. 38 Ns. 50, 51) حسن بن عمر ، ومولده بمدينة لاهور بالهند ، سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ، ومن مؤلفاته فى النحو كتاب مجمع البحرين فى اثنى عشر مجلداً ، وكتاب العباب الزاخر فى عشرين مجلداً ، وكانت وفاته ببغداد فى يوم الجمعة تاسع عشر شعبان .

(٢) بياض فى س .

(٣) كذا فى س ، وهو فى ب (١٢٠ ب) " قيمرة " .

(٤) فى س " حدسا " . انظر (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 38 N. 53) .

وأن المعز يطلق جميع من أسره من (١١٠١) أصحاب الملك الناصر . وحلف كل منهما على ذلك ، وكتبت به العهود . وعاد الملك المعز وعسكره إلى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء سابع صفر ، ونزل البادرائي بالقاهرة . وأطلق الملك المعز الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأخاه نصرة الدين ، وسائر أولاد الملوك والأمراء ؛ وأحضرهم دار الوزارة ليشهدوا حلفه للملك الناصر . ثم قدّم [الملك المعز أيبك] للملك المعظم تقدمة سنية ؛ وأعطى نظام الدين بن المولى ، ورفيقه عز الدين أزدمر ، عشرة آلاف دينار .

وفيها قويت البحرية — وكبيرهم فارس الدين أقطاى — على المعز ، وكثر تعنتهم واستطالتهم وتوثبهم على الملك المعز ، وهمّوا بقتله . وفيها تسلم المصريون قلعة الشوبك ، فلم يبق مع الملك المغيث سوى الكرك والبلقاء و بعض الغور . وفيها قطع المعز خبز الأمير حسام الدين بن أبي على ، فلزم داره ، ثم خرج إلى بلاد الشام بإذن الملك المعز له ، فأكرمه الملك الناصر وأقامه في خدمته بمائة فارس .

وفيها ثارت العربان ببلاد الصعيد وأرض بحرى ، وقطعوا الطريق برا وبحرا ، فامتنع التجار وغيرهم من السفر . وقام الشريف حصن الدين ثعلب بن الأمير الكبير نجم الدين على بن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب ابن يعقوب بن مُسْلِم[١] بن أبي جميل[٢] الجعدى ، وقال : "نحن أصحاب البلاد ، " ومَنَع[٣] الأجناد من تناول الخراج ، وصرّح هو وأصحابه : "بأنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد" . وأنفوا من خدمة الترك ، وقالوا إنما هم عبيد للخوارج ؛ وكتبوا إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستحثونه[٤] على القدوم إلى مصر .

(١) مضبوط هكذا في س .

(٢) في هامش الصفحة في س تكملة لهذا النسب ، نصها : "أبو جميل دحية بن جعفر بن موسى ابن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب" ، وفي هامش ملاصق قبالة لفظ دحية ، ضبط لهذا الاسم أيضاً ، نصه : "بضم الدال المهملة ، وفتح الحاء المهملة ، وتشديد الياء آخر الحروف" .

(٣) في س "منعوا" . (٤) في س "يستحثوه" .

واجتمع العرب — وهم يومئذ فى كثرة من المال والخيل والرجال ، إلى الأمير حصن الدين ثعلب ، وهو بناحية دَهْرُوط[١] صَرَبان ؛ وأتوه من أقصى الصعيد ، وأطراف بلاد البحيرة والجيزة والفيوم ، وحلفوا له كلهم . فبلغ عدّة الفرسان اثنى عشر ألف فارس ، وتجاوزت عدّة الرجالة الإحصاء لكثرتهم . فجهز إليهم الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار ، والأمير فارس الدين أقطاى المستعرب ، فى خمسة آلاف فارس . فساروا إلى ناحية ذَرْوَة[٢] ، وبرز إليهم الأمير حصن الدين ثعلب ، فاقتتل الفريقان من بكرة النهار إلى الظهر . فقدر الله أن الأمير حصن الدين تقنطر[٣] عن فرسه ، فأحاط به أصحابه ، وأتت الأتراك إليه ، فقتل حوله من العرب والعبيد أربعمائة رجل ، حتى أركبوه . فوجد العرب قد تفرقوا عنه ، فولى منهزما . وركب الترك أدبارهم ، يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل ، فحووا (١٠١ ب) من الأسلاب والنسوان والأولاد والخيول والجمال والمواشى ، ما عجزوا عن ضبطه ، وعادوا إلى المخيم ببلبيس . ثم عدوا إلى عرب الغربية والمنوفية من [قبيلتى] سِنْبِس[٤] ولَوَاتَة[٥] ، وقد تجمعوا بناحية سخا وسنهور ؛ فأوقعوا بهم وسبوا حريمهم وقتلوا الرجال ، وتبدد شمل عرب مصر وخمدت جَمَرَتُهم من حينئذ .

---

(١) بغير ضبط فى س . وتسمى تلك الناحية دروت سربام ، ودروط سربان ، وذروة سربام ، ودروط الشريف ، وديروط الشريف ، والتسمية الأخيرة عائدة على صاحب تلك الناحية ، وهو الشريف ابن ثعلب . وكان موقع تلك الناحية بين النيل وترعة المنهى ، التى هى الآن بحر يوسف . وقد حولت تلك الترعة إلى جنوبى دروط صربان ، فصارت الترعة فى غربيها . هذا ودهروط هى ديروط الحالية ، إحدى مراكز مديرية أسيوط . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٣ — ٦ ؛ ابن شاهين . زبدة كشف الممالك ، ص ١١٨) . انظر أيضا القسم الأول من هذا الجزء ، ص ١٣٠ ، حاشية ٤ .

(٢) بغير ضبط فى س ، وفى مبارك (الخطط التوفيقية ، ١١ ، ص ٧٣) قريتان بهذا الاسم ، إحداهما بمديرية المنوفية ، والثانية فى المرتاحية ، من قسم توسة الغيط . والراجح أن الثانية هى المقصودة هنا ، بدليل أن معسكر جيش الملك المعز كان فى بلبيس . (انظر ما يلى ، سطر ١١) .

(٣) فى س "تقطر" .

(٤) بغير ضبط فى س ، وكان مقر تلك القبيلة مدينة سخا بالغربية ، حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧١) . انظر أيضا مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وكانت لواتة بالمنوفية . (انظر المرجعين السابقين) .

ولحق الشريف حصن الدين من بقى من أصحابه، و بعث يطلب من الملك المعز الأمان، فأمنه ووعده بإقطاعات له ولأصحابه، ليصيروا من جملة العسكر وعونا له على أعدائه. فانخدع [الشريف حصن الدين]، وظن أن الترك لا تستغنى عنه فى محاربة الملك الناصر، وقدم فى أصحابه وهو مطمئن إلى بلبيس. فلما قرب من الدهليز نزل عن فرسه ليحضر مجلس السلطان، فقبض عليه وعلى سائر من حضر معه، وكانت عدتهم نحو ألفى فارس وستمائة راجل. وأمر [الملك المعز] فنُصبت الأخشاب من بلبيس إلى القاهرة وشُنق الجميع؛ و بعث بالشريف حصن الدين إلى ثغر الإسكندرية، فحبس بها وسلم لواليها الأمير شمس الدين محمد بن باخل. وأمر المعز بزيادة القطيعة[1] على العرب، وبزيادة القَوْد[2] المأخوذ منهم، ومعاملتهم بالعسف والقهر. فذلوا وقلوا، حتى صار أمرهم على ما هو عليه الحال فى وقتنا.

وفيها صاهر الأمير فارس الدين أقطاى الملك المظفر صاحب حماة، وسير إليه فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا — قبل أن يتقلد أبوه الوزارة، وإنما كان قد ترشح لها — لإحضار ابنة المظفر من حماة؛ فحملها إلى دمشق فى تجمل عظيم. فطلب أقطاى من الملك المعز أن يسكن قلعة الجبل بالعروس، فشق ذلك عليه وأخذ يتحيل فى قتله. وكان قد ثقل عليه، وصار ليس له مع البحرية أمر ولا نهى ولا حل ولا عقد، ولا يسمع أحد منهم له قولا: فإن رسم لأحد بشىء لا يُمَكَّن من إعطائه، وإن أمر لأحد منهم بشىء أخذ أضعاف ما رسم له به. واجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاى، و[قد] استولى على الأمور كلها. وبقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه، ولا يقدر أحد يفتح كتابا، ولا يتكلم بشىء ولا يبرم أمرا، إلا بحضور أقطاى لكثرة خُشْداشيته[3].

(١) القطيعة ما يفرضه السلطان على ولاية أو ناحية من المال سنويا، أو ما يقرره فى أحوال غير عادية كالغرامة الحربية (Quatremère : Op. cit. I. 1. p, 14. N, 85,).

(٢) القود ما يبعث به من قبائل العرب إلى السلاطين من الهدايا، من نحو الخيل والإبل والحيوانات العزيزة. (Ibid : Op. cit. 1. 1. P. 42, N. 59).

(٣) جمع "خشداش"، وهو معرب اللفظ الفارسى خواجاتاش، أى الزميل فى الخدمة. (Steingass : Pers. Eng. Dict.). والخشداشية — أو الخواشداشية أو الخجداشية أو الخوجداشية =

وفى هذه السنة حج من البر والبحر عالم كبير، فإنها كانت وقفة الجمعة. وفيها أخذ الشريف جماز بن حسن مكة، وأقام بها إلى آخر ذى الحجة.

ومات فى هذه السنة من الأعيان الشريف أبو سعد الحسن بن على بن قتادة بن إدريس الحسنى أمير مكة، واستقر بعده فى الإمارة ابنه أبو نمى، وأخوه إدريس بن على. ومات الملك الصالح أحمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان، صاحب عينتاب، عن إحدى وخمسين سنة. وتوفى كمال الدين أبو محمد عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف بن نبهان الأنصارى الزّملكانى[1] الدمشقى الشافعى، بدمشق. وتوفى جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن مكى بن عبد الرحمن الإسكندرى، سبط الحافظ أبى الطاهر السلفى، وقد انتهى إليه علو الإسناد.

* * *

سنة اثنتين وخمسين وستمائة. فيها استفحل أمر الفارس أقطاى الجمدار وانحازت إليه البحرية، بحيث كان أقطاى إذا ركب من داره إلى القلعة شَعَل[2] بين يديه جماعة بأمره، ولا يُنكِر [هو] ذلك [منهم]. وكانت أصحابه تأخذ أموال الناس

= فى اصطلاح عصر المماليك بمصر، الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد، فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمة، ويقابلها فى الفرنسية (camarades). ويوضح هذا المعنى تماما العبارة الآتية، وهى من الأمثلة الواردة فى (Quatremère : Op. cit I. 1. p. 43. N. 61)، ونصها: "كان يعد نفسه غريبا فى بيت السلطان، لكونه لم يكن له خجداش". ولهذه الرابطة أثر ظاهر فى حوادث تاريخ المماليك بمصر، ومثلها فى الأهمية التاريخية علاقة الأستاذ — أو السيد — بمماليكه الذين شراهم لنفسه. (انظر ص ٣٩٣ سطر ١٠ وما يليه). ولعل ذلك راجع إلى قلة الروابط الأخرى بين الأمراء، إذا كانوا يجلبون من مختلف أسواق النخاسة، وليس بينهم من الروابط سوى ما جد عليهم بمصر.

(١) بغير ضبط فى س، والنسبة إلى زملكان، وهى قرية بغوطة دمشق، يقال لها زملكا أيضا. (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٤٤ — ٩٥٥) هذا وفى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 45, N. 63) أن كمال الدين هذا كان مبرزا فى علم المعانى والبيان وأنه تولى التدريس فى بعلبك والقضاء فى صرخد، وأنه كان شاعرا مجيدا.

(٢) فى س "سعمل" أو ما يقرب من ذلك. وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 47) العبارة كلها إلى "Toutes les fois que cet officier montait à cheval pour se rendre de sa maison au château, il avait devant lui une troupe de Mamlouks tout prêts à exécuter ses ordres....."

ونساءهم وأولادهم بأيديهم ، فلا يقدر أحد على منعهم . وكانوا يدخلون الحمامات و يأخذون النساء منها غصبا ، وكثر ضررهم .

[هذا] والمعز يحصل الأموال ، وقد ثقل عليه أقطاى ، فواعد طائفة من مماليكه على قتله : و بعث [المعز] إليه وقت القائلة من يوم الأربعاء ثالث شعبان ، ليحضر إليه بقلعة الجبل فى مَشْوَر (١٠٢ ا) يأخذ رأيه فيه . فركب [أقطاى] على غير أهبة ولا اكتراث فعند ما دخل من باب القلعة ، وصار فى قاعة العواميد[١] ، أغلق باب القلعة ، ومُنِع مماليكه من العبور معه . فخرج عليه جماعة بالدهليز قد أعدّوا لقتله : وهم قُطُز و بَهَادُر وسَنْجَر[٢] الغَتِمِى ، فَهَبَرُوه[٣] بالسيوف حتى مات . فوقع الصريخ فى القلعة والقاهرة بقتله ، فركب فى الحال من أصحابه نحو السبعمائة فارس ووقفوا تحت القلعة ، وفى ظنهم أنه لم يقتل وإنما قبض عليه ، وأنهم يأخذونه[٤] من المعز . وكان أعيانهم بيبرس البندقدارى ، وقلاون الألفى ، وسنقر الأشقر ، وبَيْسرِى ، وسِكِز ، وبِرامِق[٥] . فلم يشعروا إلا وأرس أقطاى قد رَمَى بها المعز إليهم ، فسُقِط فى أيديهم وتفرقوا بأجمعهم . وخرجوا فى الليل من القاهرة ،

---

(١) كان بالقلعة عدة قاعات ، وكلها مخصصة لحاجات السلطان المنزلية ، حسبما جاء فى ابن شاهين (زبدة كشف الممالك ، ص٢٦ — ٢٧) "ومنها القاعدة البيسرية ... ، ومنها القاعة الكبرى وتعرف بالعواميد برسم خوند الكبرى ، ومنها قاعة رمضان [و] بها خوند الثانية ، ومنها قاعة الظفرية [و] بها خوند الثالثة ، ومنها القاعة المعلقة وبها خوند الرابعة ، ومنها قاعة البربرية برسم السرارى ، و [كان بها] غير ذلك من القياع (كذا) والمنازل والأماكن المتسعة مما يطول شرحها " .

(٢) ضبطت هذه الأسماء على منطوقها فى (Quatremère : Op. cit. I 1. p. 48) .. هذا وليس فى نية الناشر أن يدأب على ضبط جميع أسماء الأمراء المماليك لكثرتها وهو يحيل القارىء فى ضبطها إلى Mayer) Saracenic Heraldry وإلى (Zetterstèen : Beitrage zur Geschichte Mamlūkensultane) .

(٣) فى س "نهبروه" ، والمعنى أنهم قطعوه بالسيوف . (محيط المحيط) .

(٤) فى س " ياخذوه " .

(٥) ضبطت هذه الأعلام على منطوقها فى (Quatremère :OP. cit. I. 1. p. 48) ، وكل نقطها منه أيضا .

وحرقوا باب القراطين فعرف بعد ذلك بالباب المحروق إلى اليوم[١] فمنهم من قصد الملك المغيث بالكرك ، ومنهم من سار إلى الملك الناصر بدمشق ، ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقاء والكرك والشوبك والقدس ، يقطع الطريق ويأكل بقائم سيفه

واتفق أن اثنى عشر من البحرية مرّوا فى تيه بنى إسرائيل ، فأقاموا به خمسة أيام حائرين ، فلاح لهم فى اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه : فإذا مدينة عظيمة ، ذات أسوار وأبواب حصينة ، كلها من رخام أخضر . فطافوا بداخل المدينة ، وقد غلب عليها الرمل فى أسواقها ودورها ، وصارت أوانيهم وملابسهم إذا أخذت تتفتت وتبقى هباء . فوجدوا فى صوانى بعض البزاز بن تسعة دنانير ، قد نقش عليها صورة غزال حوله كتابة عبرانية . وحفروا مكانا ، فإذا بلاطة ، فلما رفعوها وجدوا صهريجا فيه ماء أبرد من الثلج ، فشربوا وساروا ليلتهم . فإذا بفريق عرب فحملوهم إلى الكرج ، فعرضوا تلك الدنانير على الصيارف ، فقال بعضهم هذه ضربت فى أيام موسى عليه السلام وسألوا عن المدينة ، فقيل هذه للمدينة الخضراء ، بنيت لما كان بنو إسرائيل فى التيه ، ولها طوفان من رمل يزيد تارة وينقص أخرى ، ولا يقع عليها إلا تائه . وصرفوا كل دينار بمائة درهم[٢]

وسار منهم[٣] فشقمر العجمى ، وشار باش العجمى ، وسنجر الحاوولك ، والركن الفارقانى وسنقر الجبيلى ، وسنقر الحُبَيْشى[٤] الكبير ، والحبيشى الصغير الحاجب ، والصقيلى ، والفتمى ، وبلبان النجمى ، وبكتش المسعودى ، وأبو عبية ، والنيسى ، وفخر الدين ماما ، وأيدمر الجدار الرومى ، وسنقر الركنى ، والحسام قريب سكز ، وإيدغدى الفارسى ، وبلبان الزُهَيرى[٥] ،

---

(١) ليس فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٣٨٣) ما يزيد هذه المعلومات ، كأن يعين موضع باب القراطين أو يوضح أصل تسميته هذا والباب المحروق . وهو باب القراطين قبلا كما بالمتن ، هو باب القاهرة الشرقى . (Lane-Poole : Cairo, p. 129) .

(٢) يرى (Quatremère : OP. cit. I 1. p. 49. N. 71) أن المدينة التى عثر عليها هؤلاء المماليك هى البتراء .

(٣) الضمير هنا عائد على الأمراء الذين خرجوا من القاهرة بعد مقتل أقطاى

(٤) مضبوط هكذا فى س (٥) مضبوط هكذا فى س

وسنجر البدزى ، و إزدمر السيفى ، و إزدمر البواشقى مملوك الرشيدى الكبير ، والعنتابى ، والمستعربى ، وسنقر البُدَيْرِى[١] ، وأيبك الشقارى ، و إيدغدى فتنة ، وسيف الدين الأشل ، والخولانى ، وسنجر الشكارى ، والطروحى ، وأيبك الفارسى ، وأياس المقرى[٢] ، فى جماعة كبيرة من المماليك الصغار الجدارية الصالحية . وكان الحاكم المقدم على هؤلاء الأمير علم الدين سنجر الباشقردى — وهو أعقلهم وأعرفهم — ، والأمير شمس الدين سنقر الجيبلى — وهو أفرسهم وأشهرهم بالشطارة[٣] . فمضى هؤلاء إلى السلطان علاء الدين ملك [السلاجقة] الروم .

فلما أصبح الملك المعز أيبك ، وعلم بخروج الجماعة من القاهرة ، قبض على من بقى منهم ، وقتل بعضهم وحبس باقيهم ، وأوقع الحوطة على أملاكهم وأموالهم ونسائهم وأتباعهم ، واستصفى أموالهم وذخائرهم وشونهم . وظفر للفارس أقطاى بأموال عظيمة . ونودى فى القاهرة (١٠٢ ب) ومصر بتهديد من أخفى أحدا من البحرية ، وتمكن عند ذلك الملك المعز ، وارتجع الإسكندرية إلى الخاص السلطانى ، وخفف بعض ما أحدث من المصادرات والجبايات .

فلما وصل البحرية إلى غزة : وفيهم ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وسيف الدين بلبان الرشيدى ، وعز الدين أزدمر السيفى ، وشمس الدين سنقر الأشقر ، وسيف الدين سكز[٤] ، وسيف الدين قلاون ، وبدر الدين بيسرى — كتبوا إلى الملك الناصر بأنهم قد وصلوا إلى خدمته ، فأذن لهم . وعَرَوا[٥] على بلاد الفرنج بالساحل ، فقتلوا ونهبوا حتى قاربوا دمشق .

(١) مضبوط هكذا فى س .

(٢) قوبلت هذه الأسماء على منطوقها فى (Quàtremère : Op. cit. I. 1. p. 50.) ، وكل نقطها منه .

(٣) الشطارة هنا المهارة والقدرة ؛ ويجىء لفظ الشاطر أيضا فى العربية والفارسية ، بمعنى اللص قاطع الطريق ، وبمعنى ساعى المراسلات . (Ibid : Op. cit. I. 1. p. 50, N. 72) . انظر أيضا محيط المحيط

(٤) فى س "سكر" . انظر ص ٣٩٠ ، سطر ١٢ .

(٥) عراه يعروه ، أى ألم به وأتاه طالبا معروفا ، وهو فعل متعد . (محيط المحيط) . غير أنه يتضح من بقية الجملة أن المقريزى تجوز فى استعمال هذا الفعل .

فخرج إلى لقائهم الملك الناصر ، وخلع عليهم وأعطاهم . [هذا] وهم يحثونه على قصد مصر ، وهو يدافعهم .

فخاف المعز غائلتهم ، وكتب إلى الناصر يوهمه منهم ، و يخوفه عاقبة شرهم . وطلب منه الناصر البلاد التى كان قد أخذها بالساحل لأجل البحرية ، وأنها فى إقطاعاتهم . فأعادها المعز إلى الملك الناصر ، فأقر كل إقطاع منها بيد من كان له ، وكتب مناشيرها عنه للبحرية .

وكتب المعز إلى سلطان الروم بأن : " البحرية قوم مناحيس أطراف[١] ، لايقفون[٢] عند الأيمان ، ولا يرجعون[٣] إلى كلام من هو أكبر منهم ، وإن استأمنتهم خانوا ، وإن استحلفتهم كذبوا ، وإن وثقت بهم غدروا . فتحرّز منهم على نفسك ، فإنهم غدّارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك " . فخاف سلطان الروم منهم ، وكانوا مائة وثلاثين فارسا ، فاستدعاهم وقال : " يا أمراء ! مالكم ولأستاذكم ؟ " فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى ، وقال : " يا مولانا ! من هو أستاذنا ؟ " قال : " الملك المعز صاحب مصر " . فقال الباشقردى : " يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان الملك المعز قال فى كتابه إنه أستاذنا فقد أخطأ ، إنما هو خوشداشنا ونحن ولیناه علینا ، وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرا وأفرس وأحق بالمملكة فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا ، فهربنا منه وتشتتنا فى البلاد ، ونحن التجأنا إليك " . فأعجب سلطان الروم بهم ، واستخدمهم عنده .

وفيها وقع الصلح بين الملك الناصر وبين الفرنج أصحاب عكا ، لمدة عشر سنين وستة أشهر وأربعين يوما أولها مستهل المحرم ، على أن يكون للفرنج من نهر الشريعة مغربا ، وحلف الفريقان على ذلك[٤] .

---

(١) جمع طرف ، وهو هنا الرجل الذى لا يثبت على صحبة أحد . (محيط المحيط) . وقد ترجم لفظ الأطراف إلى "des hommes vils, ou des hommes d'une condition inferieure". (Quatremère Op. cit. I. 1. p. 51. N. 75)

(٢) فى س "لا يقفوا" .

(٣) فى س "لا يرجعوا" .

(٤) كان مما دعى الفرنج إلى الصلح تلك السنة ، اضطرار لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى كان مقيما بالشام منذ رحيله عن دمياط ، إلى السفر إلى مملكته. (Stevenson : Crusaders In The East p. 331) .

وفيها أقطع الملك المعز أيبك الأمير علاء الدين إيد غدى العزيزى دمياط ، زيادة على إقطاعه ، وارتفاعها يومئذ ثلاثون ألف دينار . وفيها خرج الملك المعز من قلعة الجبل بالعساكر وخيم بالبارِدَة[١] قرب العباسة (١٠٣ ا) ، خوفا من البحرية لنزولهم بالعوجاء .

وفيها سَفَّر الملك المعز أيبك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن الملك المسعود إلى بلاد الأشكرى منفيا ، وفيها درّس الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بالمدرسة[٢] الصالحية بين القصرين . وفيها وصل الشريف عز الدين أبو الفتوح مرتضى بن أبى طالب أحمد بن محمد بن جعفر الحسينى إلى دمشق ، ومعه الخوندة ملكة خاتون بنت السلطان علاء الدين كيقباد[٣] ملك [السلاجقة] الروم ، وزوجة الملك الناصر يوسف . فزفت إليه ، وقد احتفل بقدومها ، وبالغ فى عمل الوليمة لها .

وفيها ظهرت نار بعدن روّعت القلوب . وفيها ولّى المنصورُ [قضاء] حماة شمسَ الدين إبراهيم بن هبة الله البارزى ، بعد المحيى حمزة بن محمد .

وفيها مات ملك التتر طَرْطَق[٤] خان بن دوشى خان بن جنكزخان ، فكانت مدّته سنة

---

(١) بغير ضبط فى س ، ويوجد قبالة السطر بهامش الصفحة العبارة التفسيرية الآتية : "الباردة يقال لها السعيدية" ، وعلى هذا تكون بلدة الباردة هى التى سميت فيما بعد باسم الخشبى . (انظر ص ٣٧٤ حاشية ٢) .

(٢) بدأ الملك الصالح نجم الدين أيوب بناء تلك المدرسة ، على قطعة من موضع القصر الفاطمى المعروف بالكبير شرقى ، سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) ، وهى أول مدرسة بمصر رتبت بها دروس المذاهب الأربعة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣٧٤) .

(٣) فى س "كيقباذ" .

(٤) بغير ضبط فى س ، واسمه فى المراجع الأوربية الحديثة (Sartak) ، وهو ابن باطوخان ابن جوشى خان (دوشى هنا فى المتن) ابن جنكزخان . (Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 230) . لكن تلقيب طرطاق هذا بملك التتر ، من غير تعيين الفرع التترى الذى حكمه فعلا ، خطأ مضل يتطلب توضيحه الرجوع إلى معرفة تقسيم الإمبرطورية التترية بين أولاد مؤسسها جنكزخان . ذلك أنه لما قسم جنكزخان إمبراطوريته وأملاكه بين أولاده الأربعة ، (انظر ص ٢٢٨ ، حاشية ٢) ، كان نصيب جوشى وهو أكبر أبنائه ، البلاد الواقعة بين نهر إرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين . وكان اسم تلك البلاد عامة القبشاق ، ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية (Golden Horde) ، نسبة إلى خيم معسكراتها ذوات اللون الذهبى (Sir Orda, i.e. Golden Camp) وكان غالب أهلها ترك وتركمان . =

وشهورا . فقام من بعده بركه[1] خان بن جوشى خان بن جنكز خان ، وأسلم وأظهر شعائر الإسلام فى مملكته واتخذ المدارس وأكرم الفقهاء[2] . وأسلمت زوجته ججك[3] ، واتخذت لها مسجدا من الخيم ، وذلك على يد الشيخ نجم الدين كبرا[4] .

و[فيها] توفى مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم بن محمد بن

= مات جوشى قبيل وفاة أبيه جنكزخان بستة شهور ، سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م) ، واقتسمت بلاده أنصبة بين أولاده الأربعة عشر . وكان أكبر أولئك الأبناء أوردا (Orda) ، وهو الذى خلف أباه على سائر المملكة فى أول الأمر ؛ وثانيهم باطو (Bātū) الذى فضلته قبائل القسم الغربى من المملكة وأعلنته ملكا عليها ، واعترف بذلك جنكزخان نفسه قبل مماته . لهذا انكمش سلطان أوردا إلى القسم الشرقى فقط ، وعرف باسم القبشاق الشرقى أو القبيلة البيضاء (Āḳ Orda, i.e. White Horde) ، كما عرفت بلاد باطو باسم القبشاق الغربى أو القبيلة الزرقاء (Ḳoḳ Orda, i.e. Blue Horde)

وكان مركز مملكة باطو — وهو الشخصية التى تهم هذه الحاشية — الجهات الواقعة على الشاطىء الأيسر لنهر الفولجا ، وقد اتخذ بها عاصمة سماها (Sarāī) . وهو الذى غزا أوربا : فتوغل فى الروسيا وبولندا والمجر ودلماشيا (٦٣٥ — ٦٤٠هـ ؛ ١٢٣٧ — ١٢٤٠م) ، وبلغت شهرته حتى اعتبره سائر قبائل التتر بجميع بلاد القبشاق أحق أبناء جوشى خان بالملك ، برغم وجود أوردا على قيد الحياة . وصار باطو بعد ذلك يلقب بخان القبيلة الذهبية ، وهو لقب شامل لجميع بلاد القبشاق شرقيها وغربيها ، فأصبح يعدل فى السلطان والعظمة الخان الأعظم منكوخان ، الذى خلف كيوك سنة ٦٤٧هـ (١٢٤٠م) .

مات باطو خان سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) ، وتولى بعده مباشرة ولده طرطق المذكور هنا ، ولكنه توفى فى نفس السنة المذكورة ، وظلت سلالة باطو من بعده حافظة للقب خان القبيلة الذهبية ، حتى سنة ٧٨٠هـ (١٣٧٨م) . راجع (Howorth : Op. cit. II. 1. pp. 36-132 ; Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 222-231 ; Enc. Isl. Art. Bātū Khān)

(١) فى س "بركة خان بن باطوا خان بن دوشى خان بن جنكز خان" ، وهذا الخطأ متواتر فى مؤلفات كثير من المؤرخين ، والصواب أن بركة خان ثالث أبناء جوشى خان (Enc. Isl. Art. Bereke).

(٢) تختلف الروايات فى إسلام بركة ، وأرجحها مايقول إنه اعتنق الإسلام وتعلم القرآن فى حداثته حين كان ببلدة خوقند (Khodjand) ، على يد أحد فقهائها ، وذلك قبل أن يصير ملكا على القبيلة الذهبية ويظهر أن بركه كان مهتما بنشر الإسلام فى بلاده ، بدليل إنه أمر بأن يكون فى حاشية كل واحدة من زوجاته وكل أمير من أمرائه أيضا ، إمام ومؤذن لإقامة شعائر الدين على أنه لم يكن متعصبا تعصبا أعمى ، يشهد بذلك أن عاصمته صراى كانت ، منذ سنة ٦٦٠ (١٢٦١م) ، كرسيا لأسقفية مسيحية. (Enc Isl. Art. Bereke

(٣ ، ٤) ضبط كل من هذين اللفظين على منطوقه فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. pp. 56, 57) .

تَيمِيَة[١] الحرانى الحنبلى ، عن اثنتين وستين سنة . وتوفى كمال الدين أبو سالم محمد ابن[٢] أحمد بن هبـة الله بن طلحة النصيبينى الشافعى خطيب دمشق بحلب ، وقد قدم القاهرة .

وفيها أخذ مكة الشريف راجح [بن قتادة[٣]] من الشريف جماز بن حسن ، بغير قتال ؛ ثم أخذها ابنه غانم بن راجح فى ربيع الأول بغير قتال ؛ فقام عليه الشريف أبونُمَىّ [بن أبى سعيد بن على بن قتادة] فى شوّال ومعه الشريف إدريس[٤] ، وحارباه وملكا مكة . فقدم فى خامس عشرى ذى القعدة مبارز الدين الحسين[٥] بن على بن برطاس من اليمن ، وقاتلهما وغلبهما ، وحج بالناس .

* * *

سنة ثلاث وخمسين وستمائة . فيها سار الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى إلى بلاد الصعيد ، وأظهر الخروج عن طاعة الملك المعز ، وجَمَع العربان . فسير إليه الملك المعز الوزيرَ الصاحب الأسعد شرف الدين الفائزى ، ومعه طائفة من العسكر ، حتى سكّن الأمور . وأخرج الملك الناصر عسكراً إلى جهة ديار مصر ، ومعهم البحرية : وهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيد ، وعز الدين أزدمر ، وشمس الدين سنقر الرومى ، وشمس الدين سنقر الأشقر ، وبدر الدين بيسرى ، وسيف الدين قلاون ، وسيف الدين بلبان المسعودى ، وركن الدين بيبرس البندقدارى ، وعدة من مماليك الفارس أقطاى .

(١) بغير ضبط فى س ، وهو جد تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ... بن تيمية ، الفقيه الحنبلى الشهير ، صاحب الآراء الجريئة فى أصول الدين . (Enc. Isl. Art. Idn. Taimiya) .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٢٧٩ ، بسطر ٤ ، وحاشية ٢ .

(٣) انظر الحاشية التالية .

(٤) العبارة التالية ، إلى آخر الوارد هنا تحت هذه السنة ، موجودة فى ب (١٢٣ ب) فقط ، وليس منها فى س سوى بقايا كتابة خافية تماما ، لورودها بطرف هامش الصفحة ، حيث اعتراها ما محاها تقريبا . هذا وقد قورنت العبارة كلها على ما يقابلها فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ١١٥) ، وأضيف ما بين الأقواس بسائر هذه الفقرة ، وضبطت بعض الأسماء أيضا ، بعد مراجعة الترجمة الإنجليزية لنفس المرجع انظر (Ibid : Op. Cit. III. Ns. 535-537) .

(٥) فى ب "البارز بن على بن برطاش" . انظر ص ٣٠٢ ، سطر ٢ ، وكذلك الترجمة الإنجليزية لكتاب العقود اللؤلؤية للخزرجى (Ibid : Op. Cit I. p. 146.) .

وفيها قَتَل الملكُ المعز الأميرَ علاء الدين إيدغدى العزيزى ، بعد ما قبض عليه ؛ و[كان قد قبض أيضاً] على الفارس أقطاى العزيزى ، والفارس أقطاى الأتابك ، وهرب [منه] أقش الركنى ، وأمر الملك المعز ألا تخرج امرأة من بيتها ، ولا يمشى رجل بلا سراويل . فقال أبو الحسين الجزار فى ذلك :

حَتَــا الملك المعز على الرعايا وألزمهم قوانين المُرُوَّة
وصان حريمهم من كل عار وألبسهم سراويل الفتــوَّة

وفيها توجه الناصر داود بن المعظم عيسى إلى بغداد ، يطلب ما أودعه عنـد الخليفة من الجوهر ، وقيمته مائة ألف دينار . فمُطِل مدة ، فتوجه إلى الحجاز ، واستشفع إلى الخليفة فى ردّ وداعته ، وعاد إلى العراق . فعوض عن جوهره بما لا يذكر ، ورُدّ إلى الشام ، وفيها قدم مكة أبو نُميّ وإدريس ، ومعهما جماز بن شيحة[1] أمير المدينة ، فقاتلوا المبارز بن برطاس ، وأخذوا مكة[2] .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير شرف الدين يوسف بن أبى الفوارس بن موسك القيمرى بنابلس ، ودفن بدمشق . وتوفى نقيب الأشراف بحلب ، [وهو] الشريف عز الدين أبو الفتوح مرتضى بن أبى طالب أحمد بن أحمد بن أبى الحسن محمد بن جعفر بن زيد بن جعفر بن إبراهيم محمد بن ممدوح أبى العلاء ، عن أربع وسبعين سنة بحلب . وتوفى نظام الدين أبو عبد الله محمد بن محمـد بن محمد بن عثمان البلخى الحنفى البغدادى ، بحلب عن تسع وسبعين سنة . وتوفى ضياء الدين أبو محمد جعفر بن يحيى بن سالم بن يحيى بن عيسى بن صقر المحلى الشافعى ، عن نيف وتسعين سنة بحلب ، قدِم مصر وحدَّث بها .

* * *

سنة أربع وخمسين وستمائة . فيها ورد الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن البادرائى ، من قبل الخليفة المستعصم بالله ، ليجدد الصلح الأول بين الملك الناصر والملك المعز .

---

(١) فى س " سبحه " .

(٢) هنا تنتهى أخبار هذه السنة فى س ، على أن الوفيات التالية واردة فى ب (١٢٤١) ، وقد وردت فى س خطأ على ورقة منفصلة بين الصفحتين ٩٤ ب ، ١٩٥ ، (انظر ص ٣٦٣ ، حاشية ٢) . ولا شك فى صحة وضعها هنا ، ففى (Quatremère : Op. cit. I. 1, p. 60. Ns. 85-88) دلائل مادية كافية للبرهان على ذلك .

فبعث السلطان إلى القائد برهان الدين خضر السنجارى ، فسار إلى قَطْيَا[١] ، ومعه جماعة من أعيان الفقهاء ، حتى قدم به . فقرّر الصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب من الساحل ببلاد الشام ، مع مُلك مصر ؛ وأن الملك الناصر لا يأوى عنده أحدا من البحرية ، فمضوا إلى الملك المغيث بالكرك . وتولى الصلح قاضى القضاة بدر الدين السنجارى ؛ فلما تم الصلح عاد البادرائى ، ورحل الملك الناصر عن تل العجول إلى دمشق ، وعاد المعز من العباسة — بعد إقامته عليها ثلاث سنين — إلى قلعة الجبل .

وسار الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولا إلى الخليفة ببغداد ، صحبة الشيخ نجم الدين البادرائى ، يلتمس تشريفه بالتقلد والخلع والألوية للملك المعز ، أسوة من تقدمه من ملوك مصر ؛ فسار إلى بغداد . وبعث [الملك المعز] إلى الملك المنصور ابن المظفر صاحب حماة ، وإلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، يخطب ابنتيهما[٢] لنفسه . فشق ذلك على زوجته شجر الدر وتغيرت عليه ، فتنكرلها وفسد ما بينهما ، فأخذت تدبر فى قتله .

وفى خامس جمادى الآخرة ظهرت نار بأرض الحجاز ، واستمرت شهرا فى شرق المدينة النبوية ، بناحية وادى شَظَا[٣] تلقاء جبل أُحُد[٤] ، حتى امتلأت تلك الأودية (١٠٣ ب) منها . وصار يخرج منها شرر يأكل الحجارة ، وزلزلت المدينة بسببها . وسمع الناس أصواتا مزعجة قبل ظهورها بخمسة أيام ، أولها يوم الاثنين أوّل الشهر ، فلم تزل الأصوات ليلا ونهارا ، حتى ظهرت [النار] يوم الجمعة . وقد انبجست الأرض عن نار عظيمة عند وادى شظا ، وامتدت أربعة فراسخ فى عرض أربعة أميال وعمق قامة ونصف ، وسال الصخر منها ، ثم صار فحما

(١) فى س " قطيا " .

(٢) كذا فى س ، ويمكن قراءة هذا اللفظ أيضا " اختيهما " ، على أن الوارد بالمتن هنا هو الراجح ويؤيده أبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ١٣٥ ، فى Rec. Hist Or. I.) ، وكذلك ما يلى ، ص ٤٠٢ ، سطر ٣ .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو جبل بمكة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٩٢) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهوجبل بشمالى المدينة بينه وبينها قرابة ميل ، وعنده كانت الواقعة الإسلامية المشهورة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٤٤) .

أسود . وأضاءت بيوت المدينة منها فى الليل ، حتى كأن فى كل بيت مصباحا[1] ؛ ورأى الناس سناها بمكة ؛ فالتجأ أهل المدينة إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودَعَوا واستغفروا الله تعالى ، وأعتقوا عبيدهم وتصدقوا ، وقال بعضهم :

يا كاشف الضر صفحا عن جرائمنا ... لقد أحاطت بنا يا رب بأساء
نشكو إليك خطوبا لا نطيق لها ... حَمْلا ونحن لها حقا أحِقّاء
زلازلا تخشع الصم الصلاب لها ... وكيف يقوى على الزلزال شماء
بحرا من النار تجرى فوقه سفن ... من الهضاب لها فى الأرض إرساء
ترى لها شررا كالقصر طائشة ... كأنها دِيْمَة تنصبُّ هطلاء
تُحَدِّث النيراتِ السبعَ ألسُنُها ... بما تلاقى[2] به تحت الثرى الماء
منها تكاثف فى الجوّ الدخان إلى ... أن عادت الشمس منها وهى دهماء
فيالها آية من معجزات رسول الله يعقلها القوم الألباء
فاسمحْ وهبْ وتفضلْ وامحُ واعفُ وجُد ... واصفح فكل لفرط الحلم خُطَّاء

وذكر غير واحد من الأعراب الذين كانوا بحاضرة بلدة بُصْرى من أرض الشام ، أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم فى[3] ضوء هذه النار . وفى ليلة الجمعة مستهل شهر رمضان ، احترق مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من مَسْرَجه القيِّم ، وذهبت سائر سقوفه وبعض عمده ، واحترق سقف الحجرة الشريفة .

وفيها غرقت بغداد وهلك بها عالم عظيم ، وسارت السفن فى أزقتها . وفيها قوى أمر هولاكو بن طولوخان بن جنكز خان ، وظهر اسمه ، وفتح عدّة قلاع بالشرق[4] . وفيها دخل

(١) فى س "مصباح" .

(٢) فى س "يلاق" .

(٣) يتضح من هذه العبارة ، أن أهل الحجاز رأوا فى تلك الظاهرة البركانية علامة لانتهاء الدنيا واقتراب الآخرة

(٤) كان هولاكو تلك السنة يقوم بالشطر الأول من تعليماته (انظر ص ٣٨٣ ، حاشية ٣) ، وهو استئصال الإسماعيلية الفرس ، وأوشك أن ينتهى منهم فى أواخر تلك السنة ، وذلك حينما سلم =

مُقَدَّم من التتار إلى أرض الروم [السلاجقة] ، ففر منه السلطان غياث الدين كيخسرو[(١)] ومات فى فراره ، فقام من بعده أولاده الثلاثة . وأخذ التتار قيسارية وما حولها ، فصار لهم من بلاد الروم مسافة شهر . وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد ابن العلقمى ببغداد ، وتحدّثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد بعدة مواعيد ، والخليفة فى لهوه لا يعبأ بشىء من ذلك[(٢)] .

وفيها ولى تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن أبى القاسم ابن بنت الأعز قضاء القضاة ، عوضا عن بدر الدين يوسف السنجارى . وفيها سار إدريس إلى راجح ، وأخذ مكة

= إليه شيخهم ركن خورشاه ، ووقعت ألموت نفسها فى أيدى التتر . على أنه بقى بعد ذلك من حصون الإسماعيلية اثنان ، استولى التتر على أحدهما وهو حصن لا مسار (Lamsar) فى ذى الحجة سنة ٦٥٤ هـ ، وامتنع عليهم ثانيهما عدة سنين واسمه حصن جردى كوه (Gird-i-Kuh) . راجع (Enc. Isl. Art. Hulagu ; Browne. Op. Cit. II. P. 459) . انظر أيضا ابن الفوطى . الحوادث الجامعة ، ص ٣١٣ ، وابن العبرى : مختصر الدول ، ص ٤٦٤ ، وما بعدها .

(١) فى س "كيخسروا" . وقد أخطأ المقريزى فى إيراد ذلك الحادث تحت هـذه السنة ، إذ المعروف أن التتر غزوا بلاد الروم السلاجقة قبل ذلك بعدة سنين — ٦٣٩ هـ ، ١٢٤١ م — بقيادة أحد مقدميهم المسمى (Baidju Noyon) . وقد انهزم أمامهم السلطان غياث الدين كيخسرو المذكور هنا ، عند بلدة (Közädagh) فى سـنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) ، وفر إلى قونية . ثم خضع للتتر من بلاد السلاجقة الروم مدينة سيواس ، وامتنعت قيسارية وتوقات من التسليم إليهم ، فدخلوها عنوة ونهبوها . ومات غياث الدين كيخسرو سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) ، وخلفه فى السلطنة ابنه الأكبر عز الدين كيكاوس فأشرك معه فى الحكم أخويه ركن الدين قلج أرسلان ، وعلاء الدين كيقباد . هذا ويظهر أن منشأ خطأ المقريزى أن القائد (Baidju Noyon) غزا بلاد الروم السلاجقة مرة أخرى ، سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) ، فى عهد السلطان عز الدين كيكاوس المتقدم ذكره ، فهزم السلطان المذكور عند أقصرا ، وألجأه إلى الفرار مدة ، كما بالمتن . انظر ؛ (D,Ohsson : Op. cit. III. pp. 73 et seq., esp. N. 1, en p. 82 ; Enc. Isl. Arts. Kaikhusrau II, & Kaikā'ūs II).

(٢) يفهم من هذه العبارة ، أن هولاكو أخذ فى التمهيد للشطر الثانى من تعلياته ، وهو الاستيلاء على بغداد ، ولما ينتهى تماما من أمر الشطر الأول منها ، وهو استئصال الإسماعيلية الفرس . وتثورهنا مسألة موقف ابن العلقمى من مشروع التتر على بغداد ، وهل كان خائنا للخليفة المستعصم ، غير أن آراء المعاصرين أنفسهم متضاربة فى هذه النقطة . انظر (Browne : Op. cit. II pp. 464-465) . ومن أمثال تلك الآراء ما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٨٦ أ) ، ونصه : "وكان الوزير مؤيد الدين قد أطمع نفسه بأن الأمور تكون مفوضة فى العراق إليه ، وكان قد عزم على أن يحسن لهولاكو ملك التتر أن يقيم ببغداد خليفة من الشرفاء الفاطميين ، فلم يتم له ذلك واطرحه التتر وبقى معهم على صورة بعض الغلمان ، فمات بعد قرب كمدا ، وندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم" .

أبو نمى ، فجاء راجح مع إدريس وأصلح بينه وبين أبى نمى . وفيها قدم مكة ركب الحاج من العراق ، ولم يحج بعدها ركب من العراق .

ومات فى هذه السنة من الأعيان شمس الدين يوسف[(١)] بن قزغلى بن عبد الله أبو المظفر — [وهو] سبط الحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى — الفقيه الحنفى الواعظ . وتوفى شرف الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن هبة الله بن قرناص الخزاعى الحموى الفقيه الشافعى الأديب . [وتوفى] زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبى الأصبع الفقيه الشافعى النحوى الأديب ، عن خمس وستين سنة . [وتوفى] الشيخ أبو الروح عيسى بن أحمد بن إلياس اليونينى[(٢)] ببعلبك . ومات ملك الروم غياث الدين كيخسرو ابن علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ابن سليمان بن قتلمش ، وقد ملك الططر قيصرية ومسيرة شهر معها ، فقام بعده ابنه عز الدين[(٣)] كيقباد بن كيخسرو .



سنة خمس وخمسين وستمائة . فيها تزايدت الوحشة بين الملك المعز أيبك وبين شجر الدر ، فعزم على قتلها . وكان له منجم قد أخبره أن سبب قتلته امرأة ، فكانت هى شجر الدر . وذلك أنه كان قد تغير عليها ، وبعث يخطب ابنة صاحب الموصل .

واتفق أن[(٤)] [المعز] قبض على عدة من البحرية ، وهو على أم البارد[(٥)] ، وسيرهم

(١) فى س "شمس الدين بن يوسف" ، وخطأ المقريزى هنا واضح . انظر (Enc. Isl. Art. Ibn al-Djawzī, Sibt) ، وقد لاحظ بعض من اطلع على هذه النسخة من السلوك هذا الخطأ ، فعقب عليه بالآتى ، وهو وارد قبالة وفيات تلك السنة ، بخط مخالف طبعا ، ونصه : "وهم المؤرخ فى هذا ، إنما هو يوسف ولكن لقبه شمس الدين ، ومن هنا اتاه الوهم والله اعلم" .

(٢) كذا فى س ، بغير ضبط .

(٣) فى س "علا الدين" . (انظر ص ٤٠٠ ، حاشية ١) . ويلاحظ أن ورود هذه الوفاة الأخيرة هنا خطأ ، وقد تقدم التنبيه إلى منشأه بالحاشية المشار إليها ، أما بقية الوفيات فليس من سبب يدعو إلى التشكك فى وقوعها تلك السنة .

(٤) فى " انه " .

(٥) لعلها "الباردة" ، المذكورة فى ص ٣٩٤ ، سطر ٣ .

ليعتقلوا بقلعة الجبل ، وفيهم أيدكين(١) الصالحى . فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجر الدر ، علم [أيدكين] أنها هناك ، فخدم(٢) برأسه وقال بالتركى : "الملوك أيدكين بشمقدار(٣) . والله ياخوند ما عملنا ذنبا يوجب مسكنا ! إلا أنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ، ماهان علينا لأجلك ، فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم(٤) ، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ماترين(٥)" . فأومأت(٦) [شجر الدر] إليه بمنديل ، يعنى : "قد سمعت كلامك" . فلما نزلوا بهم إلى الجب(٧) قال أيدكين : "إن كان حبسنا فقد قتلناه" .

وكانت شجر الدر قد بعثت نصرا(٨) العزيزى بهدية إلى الملك الناصر يوسف ، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز ، والتزوج(٩) به وتمليكه مصر . فخشى [الملك الناصر يوسف] أن يكون هذا خديعة ، فلم يجبها بشىء .

وبعث بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحذر(١٠) [الملك المعز] من شجر الدر وأنها باطنت الملك الناصر [يوسف] ، فتباعد ما بينهما ، وعزم على إنزالها من القلعة إلى دار

---

(١) مضبوط على منطوقه فى (Zetterstéen : Op. cit. pp. 188, 189) .

(٢) معنى هذا أن إيدكين حنى رأسه تحية وإجلالا ، انظر (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 64. N. 95)

(٣) البشمقدار — أو الجمقدار — هو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير ، ويتركب هذا الإسم من لفظين ، أحدهما من اللغة التركية وهو بشمق ومعناه النعل ، والثانى من اللغة الفارسية وهو دار ومعناه ممسك ، ويكون المعنى ممسك النعل . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٩) . انظر أيضا تحديد معنى لفظ بشمق فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) المقصود هنا الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٥) فى س "ما ترى" .

(٦) فى س "فاومت" .

(٧) وصف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٣) جب القلعة بالآتى : "كان بالقلعة جب تحبس فيه الأمراء ، وكان مهولا مظلما كثير الوطاويط كريه الرائحة ، يقاسى المسجون فيه ماهو كالموت أو أشد . عمره الملك المنصور قلاون فى سنة إحدى وثمانين وستمائة ، فلم يزل إلى أن قام الأمير بكتمر الساقى فى أمره مع الملك الناصر محمد بن قلاون ، حتى أخرج من كان فيه من المحابيس ونقلهم إلى الأبراج ، وردمه وعمر فوق الردم طباقا ، فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة" .

(٨) فى س "نصر" .

(٩) فى س "التزويج" .

(١٠) فى س "يحذره" .

الوزارة . وكانت [شجر الدر] قد استبدت بأمور المملكة ولا تطلعه عليها ، وتمنعه من الاجتماع بأم ابنه علىّ وألزمته بطلاقها ، ولم تطلعه على ذخائر الملك الصالح .

فأقام [الملك المعز] بمناظر اللوق أياما ، حتى بعثت [شجر الدر] من حلّف عليه . فطلع القلعة وقد أعدت له [شجر الدر] خمسة ليقتلوه : منهم محسن الجَوْجَرِى[1] ، وخادم[2] (١٠٤ ا) يعرف بنصر العزيزى ، ومملوك يسمى سنجر . فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشرى شهر ربيع الأوّل ، ركب [الملك المعز] من الميدان بأرض اللوق ، وصعد إلى قلعة الجبل آخر النهار . ودخل إلى الحمام ليلا ، فأغلق عليه الباب محسن الجوجرى ، وغلام كان عنده شديد القوّة ، ومعهما جماعة . وقتلوه بأن أخذ بعضهم بأنثييه وبعضهم بخناقه ، فاستغاث [المعز] بشجر الدر فقالت اتركوه ، فأغلظ لها محسن الجوجرى فى القول ، وقال لها : "متى تركناه لا يبقى علينا ولا عليك" ؛ ثم قتلوه .

وبعثت شجر الدر فى تلك الليلة أصبع المعز وخاتمه إلى الأمير عز الدين أيبك الحلبى الكبير ، وقالت له : "قم بالأمر" ؛ فلم يجسر . وأشيع أن[3] [المعز] مات فجأة فى الليل ، وأقاموا الصائح فى القلعة ، فلم تصدق مماليكه بذلك : وقام الأمير علم الدين سنجر الغتمى — وهو يومئذ شوكة البحرية وشديدهم — ، وبادر هو والمماليك إلى الدور السلطانية ، وقبضوا على الخدام والحريم وعاقبوهم ، فأقروا بما جرى . وعند ذلك قبضوا على شجر الدر ، ومحسن الجوجرى ، وناصر الدين حلاوة ، وصدر الباز ؛ وفرّ نصر العزيزى إلى الشام .

فأراد مماليك المعز قتل شجر الدر ، فحماها الصالحية ، ونُقلت إلى البرج الأحمر[4] [بالقلعة] . ثم

---

(١) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى قرية جوجر ، بمركز سمنود من مديرية الغربية . وهى واقعة على الشاطىء الغربى لفرع دمياط ، وقبالتها على الشاطىء الشرقى منية بدر خميس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ، ١٤٣ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٧٠ — ٧١) .

(٢) فى س " وخادما " .

(٣) فى س " انه " .

(٤) كان بقلعة الجبل عدّة أبراج ، ومنها هذا البرج الذى بناه السلطان الملك الكامل بن العادل أبى بكر بن أيوب . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٣) .

لما أقيم ابن المعز فى السلطنة ، حُمِلت [شجر الدر] إلى أمه فى يوم الجمعة سابع عشريه ، فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت . وألقوها من سور القلعة إلى الخندق ، وليس عليها سوى سراويل وقميص ، فبقيت فى الخندق أياما ، وأخذ بعض أراذل العامة تكتة سراويلها . ثم دفنت بعد أيام — وقد نتنت ، وحملت فى قفة — بتربتها قريب المشهد النفيسى . وكانت من قوة نفسها ، لما علمت أنها قد أحيط بها ، أتلفت شيئا كثيرا من الجواهر واللآلىء ، كسّرته فى الهاون .

وصُلب محسن الجوجرى على باب القلعة ، ووُسِّط[1] تحت القلعة أربعون طواشيا ، وصلبوا من القلعة إلى باب زويلة . وقبض على الصاحب بهاء الدين بن حنا ، لكونه وزير شجر الدر ، وأخذ خطه بستين ألف دينار .

فكانت مدّة سلطنة الملك المعز سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوما ، وعمره نحو ستين سنة . وكان ملكا حازما شجاعا سفاكا للدماء : قتل خلقا كثيرا ، وشنق عالما من الناس بغير ذنب ، ليوقع فى القلوب مهابته ؛ وأحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده . ووزر له الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، ثم صرفه ؛ واستوزر القاضى الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى ، فتمكن منه تمكنا زائدا . وأحدث [القاضى الأسعد] حوادث شنيعة من المظالم ، واستناب فى الوزارة القاضى زين الدين يعقوب ابن الزبير — كان يعرف اللسان التركى — ، ليحفظ له مجالس أمراء الدولة ويطالعه بما يقال عنه .

---

(١) معنى وسط هنا "قطع نصفين" ، وفى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 72. N. 103) أمثلة عديدة للدلالة على استعمال هذا الفعل بذلك المعنى ، ومنها : "وسطه بالسيف نصفين" . وكان هذا النوع من القتل شائعا فى مصر زمن المماليك وفى غيرها من بلاد الشرق أيضا ، وطريقته أن يعرى المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب ويطرح على ظهر جمل ، وتسمى هذه العملية بالتسمير ، وربما طيف بالمحكوم عليه شوارع القاهرة على هذه الحال ، وهذا هو التشهير . ثم يأتى السياف فيضرب المحكوم عليه ضربة بقوة تحت السرة ، تقسم الجسم نصفين من وسطه فتنهار أمعاؤه إلى الأرض ، وهذا هو التوسيط .

الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز أيبك

أقامه أمراء الدولة سلطانا بقلعة الجبل ، يوم الخميس سادس عشرى شهر ربيع الأول ، سنة خمس وخمسين وستمائة ، وعمره خمس عشرة سنة تقريبا . وحلفوا له واستحلفوا العسكر ، ما خلا الأمير عزالدين أيبك الحلبي المعروف بأيبك الكبير ، فإنه توقَّف وأراد الأمر لنفسه ، ثم وافق خوفا على نفسه . فركب الأمير قطز — هو والأمراء — ، وقبض على الأمير سنجر الحلبي ، يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر ، واعتقله . فركب الأمير أيبك [الحلبي] الكبير في الأمراء الصالحية فلم يُوفَّق ، وتقنطر[1] عن فرسه خارج باب زويلة ، فأدخل إلى القاهرة ميتا.

وأقيم الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة على عادته ، و [صار] مدبر دولة[2] [الملك المنصور على] . و [أقيم] الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب الصالحى أتابك العساكر، عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الحلبى (١٠٤ ب) . واستمر الوزير شرف الدين الفائزى على عادته فَنَقَل عنه الأمير سابق الدين بوزنا[3] الصيرفى ، والأمير ناصر الدين محمد بن الأطروش الكردى أمير جاندار ، أنه قال : "المملكة ما تمشى بالصبيان ، والرأى أن يكون الملكُ الناصرَ" . فتوهمت أم المنصور من أنه يرسل إلى الملك الناصر ، وقبضت عليه وأدخلته إلى الدور ، وأخذ خطه بمائة ألف دينار . واستقر فى الوزارة بعده قاضى القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن السنجارى ، مضافا إلى القضاء وقد أعيد إليه . وأحيط بأموال الفائزى ، وقبض على جماعة بسببه . ثم إن السنجارى استعفى من الوزارة وتركها فى ربيع الآخر، فتقلد الوزارة قاضى القضاه تاج الدين عبدالوهاب بن خلف العلائى ، المعروف بابن بنت الأعز، بعد السنجارى .

وفى ليله الخامس عشر من جمادى الآخرة ، خسف القمر بحمرة شديدة ؛ وأصبحت الشمس حمراء ، فأقامت كذلك أياما وهى ضعيفة اللون متغيرة .

---

(١) فى س " تقطر " . (٢) فى س "دولته" .

(٣) فى س "بوزبا" والصيغة المثبتة هنا من ب (١٢٦ ا) ، وقد ترجم Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 74) هذا الاسم الى (Bourna) .

وفيها بلغ البحرية الذين كانوا ببلاد [السلاجقة] الروم موت الملك المعز ، فساروا فى البر والبحر ، ووصلوا إلى القاهرة . فلم تطل مدتهم حتى كرهوا المنصور بن المعز ، لكثرة لعبه بالحمام ومناقرته بالديوك ، ومعالجته بالحجارة وركوبه الحمير الفُرْه فى القلعة ، ومناطحته بالكباش.

وفيها دخل الصارم أحمر[(١)] عينه الصالحى بجماعة ، فقتلوا الوزير الفائزى فى جمادى الأولى. وأخرج فى نخ[(٢)]. قال ابن[(٣)] واصل : حكى القاضى برهان الدين أخو الصاحب بهاء الدين بن حنا قال : "دخلتُ على شرف الدين الفائزى وهو معتقل ، فسألنى أن أتحدّث فى إطلاقه ، بحكم أنه يحمل فى كل يوم ألف دينار عينا . فقلت له : وكيف تقدر على ذلك ؟ فقال : أقدر عليه إلى تمام السنة ، وإلى أن تمضى سنة يفرج الله تعالى" . فلم يلتفت مماليك الملك المعز إلى ذلك وعجلوا بهلاكه وخنقوه ، وحمل إلى القرافة ودفن بها .

وفيها وقعت الوحشة بين الملك الناصر وبين من عنده من البحرية ، ففارقوه فى شوّال ، وقصدوا الملك المغيث صاحب الكرك . فأخرج الأمير سيف الدين قطز العسكر إلى الصالحية ، فواقعوهم فى يوم السبت خامس عشر ذى القعدة ، وأسروا الأمير سيف الدين قلاون ، والأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ؛ وقُتِل الأمير سيف الدين بلغان[(٤)] الأشرفى . وانهزم عسكر الكرك ، وفيهم بيبرس البندقدارى[(٥)] الذى ملك مصر . وعاد العسكر إلى القاهرة ، فضَمَن الأميرُ شرف الدين قيران[(٦)] — المعزى [وهو] استادار السلطان — الأميرَ قلاون وأطلقه . فأقام [قلاون] بالقاهرة قليلا ، ثم اختفى بالحسينية عند سيف الدين قطليجا[(٧)] الرومى ، فزوّده وسار إلى الكرك .

---

(١) كذا فى س .

(٢) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 75) هذا اللفظ إلى (couverture) أى غطاء ، والنخ البساط الطويل ، وجمعه أنخاخ . (محيط المحيط) .

(٣) هذه المرة هى الثانية ، التى يشير المقريزى فيها إلى ابن واصل . (انظر ص ٣٧٩ ، حاشية ١) .

(٤) كذا فى س ، وبغير ضبط ، وهو مترجم إلى (Belban) ، فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 76)

(٥) نصف هذا اللفظ زائل تقريبا فى س ، وهو وارد كما هنا فى ب (١٢٦ ب) .

(٦) فى س "قيران" ، وقد كمل نقطه من (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 76) .

(٧) فى س "قطليجا" ، وقد أصلح هذا الاسم على منطوقه فى (Ibid : Op. cit. I. 1. p. 76) .

وفيها بعث الخليفة إلى الناصر يوسف بدمشق خلعة وتقليدا وطوقا . وفيها حسّن البحرية للملك المغيث أخذ ملك مصر ، فكاتب عدّة من الأمراء ووعدهم . وفيها قوى هولاكو بن تولى بن جنكزخان ، وقصد بغداد و بعث يطلب الضيافة من الخليفة[1] . فكثر الإرجاف ببغداد ، وخرج الناس منها إلى (١٠٠٥) الأقطار . ونزل هولاكو تجاه دار الخلافة[2] وملك ظاهر بغداد ، وقتل من الناس عالما كبيرا[3] .

وفيها قدم إلى دمشق الفقراء الحَيْدَرِيّة[4] ، وعلى رءوسهم طراطير ، ولحاهم مقصوصة وشواربهم بغير قص . وذلك أن شيخهم حيدر ، لما أسره الملاحدة قصوا لحيته وتركوا شاربه . فاقتدوا به فى ذلك ، وبنوا لهم زاوية خارج دمشق ، ومنها وصلوا إلى مصر .

ومات فى هذه السنة من الأعيان نجم الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن بن أبى سعد البادرائى[5] البغدادى الشافعى ، رسول الخلافة وقاضى بغداد ، عن إحدى وستين سنة . وتوفى الوزير الصاحب الأسعد شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى . وتوفى

---

(١) يوجد فى (D'Ohsson : Op. cit. III. p. 215 et seq.) ترجمة فرنسية لهذا الكتاب الذى بعثه هولاكو إلى الخليفة المستعصم ، وفحواه دعوة الخليفة إلى تسليم نفسه وعاصمته بغداد إلى التتر ، أو الويل والثبور ؛ وكان جواب المستعصم على هذا سخرية من هولاكو ومطالبه ، وقد حمله إلى هولاكو شرف الدين عبد الله بن الجوزى . (Browne : Op. cit. II. p. 461) .

(٢) ينتهى هنا النقص الموجود بنسخة مفرج الكروب لابن واصل المذكورة فى هذه الحواشى . انظر (نفس المرجع ، ص ٣٨٥ ا) .

(٣) تحرك هولاكو من همذان ، حيث كان معسكرا منذ الانتهاء من حرب الإسماعيلية ، إلى بغداد مباشرة فى ذى القعدة سنة ٦٥٥ هـ (نوفبر ١٢٠٧ م) ؛ وأرسل فى نفس الوقت جيشا بقيادة (Baidju Noyon) ، للزحف على بغداد أيضا من طريق تكريت والموصل . وكان عدد الجيش الذى بقيادة هولاكو ثلاثين ألفا على حسب تقرير المؤرخين المعاصرين ، وكانت عدة الجيش الذى جهزه الخليفة المستعصم عشرين ألفا . وتقدمت الجيوش التترية ، فتناوبت النصر والهزيمة هى وجيوش الخليفة ، حتى حاصرت بغداد نفسها فى المحرم سنة ٦٥٦ هـ (يناير ١٢٥٨ م) (Browne : Op. cit II. p. 460 et seq.) . انظر أيضا ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٨٥ ا) .

(٤) ترجم (Quatremère Op. Cit. T. I. P 76) هذا اللفظ إلى (Haidaris) ، بغير تعليق .

(٥) فى س "الباذراى" .

عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن أبى الحديد المدائنى ، مؤلف كتاب الفلك الدائر على المثل السائر . ومات متملك الروم علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين[١] كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان . وقام بعده أخوه عز الدين كيكاوس بن غياث كيخسرو ، فملك الططر قونية منه ، ففر منها إلى العلايا[٢] .

---

(١) كان علاء الدين كيقباد أصغر الأخوة الثلاثة ، الذين تشاركوا فى حكم بلاد السلاجقة الروم (انظر ص ٤٠٠ ، حاشية ١) . ومات علاء الدين كيقباد هذا مقتولا ، وهو فى الطريق إلى منكوخان إمبراطور التتر . ولما كان أخوه الثانى ، وهو ركن الدين قلج أرسلان ، مسجونا بأمر عز الدين كيكاوس وهو الأخ الثالث ، فإن الجو خلا لعز الدين هذا بعد وفاة علاء الدين كيقباد . وعز الدين كيكاوس هو الذى انهزم على يد القائد التترى (Baidju Noyon) سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، ولجأ بعد هزيمته إلى الأشكرى (Theodore II Lascaris) ، إمبراطور الدولة البيزنطية فى نيقية . وهذه الأخبار هى التى قصد المقريزى إيرادها تحت سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦م) ، فاختلط عليه الأمر وأخطأ ، على الصورة التى سبق ورودها . (انظر ص ٤٠٠ حاشية ١) . وكان التتر قد أخرجوا ركن الدين قلج أرسلان من السجن ، وأقاموه مقام أخيه سلطانا على السلاجقة الروم . ثم حدث بمجرد رحيل الجيوش التترية عن البلاد ، أن رجع عز الدين إلى قونية ، وكان أخوه ركن الدين قد استقر بقيصرية ، فاتفق الأخوان فيما بينهما على اقتسام البلاد ، وجعل نهر قزل إرمك حدا بين القسمين . ثم ذهب الأخوان الى حضرة هولاكو وكان وقتئذ بتبريز ، للتصديق على ذلك الاتفاق ، وتم الأمر . بعد ذلك غضب هولاكو على عز الدين ، لمفاوضته سلطان المماليك بمصر وهو عدو التتر ، فعزله هولاكو وألجأه إلى الفرار إلى العلايا سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) ، وهى إحدى الثغور الجنوبية فى آسيا الصغرى . (انظر الحاشية التالية) . وسافر عز الدين بعد ذلك إلى القسطنطينية ، وكان قد رجع إليها سلطان البيزنطيين ، فأقام بها حتى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) . واتهم عز الدين تلك السنة بالاشتراك فى مؤامرة على حياة الإمبراطور (Michael Palaeologus) ، غرضها إقامة عز الدين نفسه إمبراطورا . لذلك أخرج عز الدين منفيا إلى بلدة (Ainos) ، وبقى هناك حتى أرسل إليها منكوتيمور خان القبشاق جيشا سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٨ م) فاحتلها ، وأطلق سراح عز الدين وأحضره إلى بلاد القرم حيث تزوج من إحدى بنات بركة خان ، وبقى بها حتى وفاته سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩) . انظر (Enc. Isl. Art. Kaika'us II.) . وقد انفرد ركن الدين قلج أرسلان بالملك منذ لجوء أخيه إلى البيزنطيين ، على أن مقاليد الحكم كانت فى يد الوزير معين الدين سليمان ، وعلى يد هذا الوزير كان مقتل ركن الدين سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦) م . (Enc. Isl. Art. Kilidj Arslan IV) (Cam. Med. Hist. IV. pp. 503 et seq., 510) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهو ثغر بجنوبى آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، واسمه الأصلى (Galonoros) أى الثغر الجميل باللغة اليونانية ، وكان يحكمه أمير (baron) أرمنى مستقل بنفسه . ثم استولى السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقى على هذا الثغر حوالى سنة ١٢٢٠م ، وبنى به الأسوار والعمائر وجعله مشتى لبلاطه ، وسماه العلايا نسبة إليه . فلما انتهت دولة الروم السلاجقة من آسيا الصغرى ، ظل ثغر العلايا بيد أبناء تلك الدولة ، وعاشوا به حتى استولى عليه منهم الأتراك العثمانيون ، سنة ١٤٧١ م . (Enc. Isl. Art. Alāya)



سنة ست وخمسين وستمائة - فيها وقع الغلاء بسائر البلاد ، وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر ، وأبيع المكوك[١] القمح بحلب بمائة درهم ، والشعير بستين درهما ، والبطيخة الخضراء بثلاثين درهما ، و بقية الأسعار من هذه النسبة[٢] .

وفى رابع شهر رمضان سقطت إحدى مسالّ فرعون التى بعين شمس ، فوُجِد فيها نحو المائتى قنطار نحاس ، وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار .

وفيها ملك هولاكو بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم بالله عبد الله[٤] فى سادس صفر ، فكانت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام . وانقرضت بمهلكه دولة بنى العباس [من بغداد] ، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة ؛ فصحّ حديث حبيب بن أبى ثابت ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، أن رسول الله قام فقال : "يامعشر

---

(١) المكوك هنا — وجمعه مكاكيك — مكيال للحبوب يسع صاعا ونصفا ، والصاع قدر نصف ويبة ، والويبة ثلاث كيلات . (محيط المحيط) . على أن هذه المكاييل ليست ذات سعة واحدة فى أنحاء البلاد الإسلامية ، كما يتضح من (Enc. Isl. Art. Kaila) .

(٢) يلى هذا اللفظ بياض فى س ، قدر نصف سطر تقريبا .

(٣) جمع مسلة ، وكان ببلدة عين شمس ، حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٢٨ — ٢٣١) مسلتان فقط ، سقطت إحداهما فى رمضان من تلك السنة ، وبقيت الثانية أو جزء منها إلى الآن .

(٤) أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد ، فى أول يوم من تلك السنة (٣٠ يناير سنة ١٢٥٨م) ، ودحر جيوش الخليفة المستعصم بعد ذلك بتسعة أيام ، ولم يبق فى طريقه إلى أبواب بغداد مقاومة . وفى يوم ٤ صفر (١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) ، سلم الخليفة نفسه وعاصمته بلا قيد ولا شرط ، بعد أن وعده هولاكو بالأمان . وبعد ذلك بعشرة أيام قتل الخليفة وولداه أبو العباس أحمد وأبو الفضائل عبد الرحمن ، وممن قتل أيضا محي الدين بن الجوزى ، وأولاده جمال الدين وتاج الدين وشرف الدين ، وغيرهم كثير . على أن الروايات تختلف فى كيفية قتل التتر للخليفة المستعصم ، وفى هذا يقول ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٨٥ ب) : "وأما الخليفة رحمه الله فانهم قتلوه ، لكن لم يطلع أحد على قتله كيف كان ، فقيل إنه خنق ، وقيل وضع فى عدل ورفس حتى مات ، وقيل غرق فى الدجلة ، والله أعلم بحقيقة ذلك" . هذا وقد كان من تقاليد التتر ألا يريقوا دما ملكيا ، فالغالب أن المستعصم لقى حتفه بإحدى الوسائل المتقدمة ، وليس بالسيف . راجع (Browne : Op. cit. II. p. 463) ، وانظر أيضا (Enc. Isl. Arts. Baghdad & Hulagu)

قريش ! إن هذا الأمر لا يزال فيكم ، وأنتم ولاته حتى تحدثوا أعمالا تخرجكم منه . فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شر خلقه ، فالتحوكم كما يلتحى القضيب"[(١)] .

وقُتِل الناس ببغداد وتمزقوا فى الأقطار ، وخرب[(٢)] [التتر] الجوامع والمساجد والمشاهد[(٣)] ، وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات ، واستمروا على ذلك أربعين يوما . وأمر هولاكو بعَدِّ القتلى ، فبلغت نحو الألفى ألف قتيل ، وتلاشت الأحوال بها . وملك التتار إربل[(٤)] ، ودخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى طاعتهم .

وفيها كثر الوباء ببلاد الشام ، فكان يموت من حلب فى كل يوم ألف ومائتا[(٥)] إنسان . ومات من أهل دمشق خلق كثير ، وبلغ الرطل التمر هندى ستين درهما .

وفيها أنفذ الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو ، ومعه تقادم وعدة من الأمراء فلما وصل [الملك العزيز] إلى هولاكو قدّم إليه ما معه ، وسأله على

---

(١) تقدم ذكر هذا الحديث ، على هامش العبارات الافتتاحية من هذا الكتاب . انظر ص ٨ ، حاشية ٢ .

(٢) فى س "خربوا" .

(٣) يفهم من (Enc. Isl. Art. Baghdad) ، أن بغداد — مع فداحة الكارثة التى حلت بها — لم تلق على يد التتر مثل الذى لقيته بلاد أخرى على يدهم . والسبب فى ذلك أن هولاكو كان يريد أن يحتفظ ببغداد لنفسه ، وقد أمر فيما بعد بإصلاح بعض ما أفسدت جيوشه ، مثل إعادة بناء جامع القصر الذى كان من أكبر جوامع بغداد .

(٤) كان هولاكو إبان شروعه فى الزحف على بغداد ، قد أرسل جيشا بقيادة (Oroctou Noyon) للاستيلاء على اربل . وكان بها منذ سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) قوم من الكرد ، استطاعوا أن يقاوموا جيوش هولاكو مقاومة عنيدة مدة ، وذلك رغم ذهاب قائدهم الشريف ابن صلايا إلى جيوش التتر ، ورجوعه الى اربل لينصح الناس بالتسليم . ثم حدث أن أنجد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل جيوش التتر على اربل ، فانكسرت المقاومة الكردية وسلمت المدينة . وكان القائد التترى قد أرسل الشريف ابن صلايا إلى حضرة هولاكو بهمدان ، بعد ما تبين عجزه عن إقناع الأكراد بالتسليم ، فأمر هولاكو بقتله عملا بمشورة بدر الدين لؤلؤ . وفى هذا يقول ابن واصل (نفس المرجع ، ص٣٨٦ ا) : "وأما الشريف ابن صلايا فقتل ، وقد ذكر والله أعلم أن بدر الدين لؤلؤ هو [الذى] كان السبب فى قتله ، وأنه قال لهولاكو هذا شريف علوى ، وربما يطاول أن يكون خليفة ، وتبايعه على ذلك خلق عظيم ، فتقدم بقتله" . انظر أيضا (D'Ohsson : Op. Cit. III. P. 256-257 ; Enc. Isl. Art. Irbil)

(٥) فى س "مائتى" .

لسان أبيه فى نجدة ليأخذ مصر من المماليك ، فأمر [هولاكو] أن يُتَوَجَّه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس . فطار هـذا الخبر إلى دمشق ، فرحل من كان بها من المماليك البحرية ، وساروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك وحرّضوه على أخذ مصر ، فَجمَع الملكُ المغيث وسار .

فتجهز الأمير قطز ، وخرج من القلعة بالعساكر فى ......[1] . فلما وصل إلى الصالحية تسلل إلى الملك المغيث من كان كاتبه من الأمراء وساروا إليه ، فلقيهم قطز وقاتلهم . فانهزم الملك المغيث فى شرذمة إلى الكرك ، ومضى البحرية نحو الطور[2] ، واتفقوا مع الشَّهْرَزُورِيَّة[3] من الشرق . واستولى المصريون على من بقى من عساكر[4] [المغيث] وأثقاله ، وأسروا جماعة ، وعادوا إلى قلعة الجبل . وقد تغير قطز على عدّة من الأمراء ، لميلهم إلى الملك المغيث : فقبض على الأمير عز الدين أيبك الرومى الصالحى ، والأمير سيف الدين بلبان الكافورى الصالحى الأشرفى ، والأمير بدر الدين بكتوت الأشرفى ، والأمير بدر الدين بلغان الأشرفى ، وجماعة غيرهم ؛ وضرب أعناقهم فى سادس عشرى ربيع الأوّل (١٠٥ ب) ، وأخذ أموالهم كلها .

وفيها فر طائفة من [الأكراد من وجه] عسكر هولاكو ، يقال لهم الشهرزورية ، وقدموا دمشق وعدّتهم نحو الثلاثة آلاف ، ومعهم أولادهم ونساؤهم . فسر بهم الملك الناصر واستخدمهم ليتقوى بهم ، فزاد عنتهم وكثر طلبهم حتى خافهم ، وأخذ يداريهم وما يزيدهم ذلك إلا تمرداً عليه ، إلى أن تركوه وساروا إلى الملك المغيث بالكرك ، فسر بهم

(١) بياض فى س .

(٢) الراجح أن الطور المقصود هنا هو طور سيناء ، وليس الطور المذكور بالقسم الأول ، ص ٩٥ ، حاشية ١ .

(٣) فى س "السهرز" فقط ، وبقية اللفظ زائل ، على أنه فى ب (١٢٧ ب) . والشهرزورية نسبة إلى شهرزور ، وهى إحدى جهات كردستان ، حيث توجد مدينة بهذا الاسم أيضا . وكان بتلك الجهة جماعة الأكراد الكوسية (Kusa Kurds) ، وقد ظلوا بها حتى استولى هولاكو على بغداد ، وتقدمت جيوشه شمالا نحو شهر زور وغيرها ، ففر الشهرزورية من وجه التتر إلى الشام ومصر ، كما بالمتن .
(Enc. Isl. Art. Shehrizur).

(٤) فى س "عساكره" .

وتاقت نفسه إلى أخذ دمشق . فخاف الناصر وتخيل من الأمراء القيمرية الذين فى دمشق ، فاضطرب وتحير .

وفيها مات أمير بنى مرين أبو يحيى بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة ، فى رجب . وقام من بعده ابنه عمر ، ونازعه عمه يعقوب بن عبد الحق . وأبو يحيى هو الذى فتح الأمصار ، وأقام رسوم المملكة ، وقسم بلاد المغرب بين عشائر بنى مرين ، وقام بدعوة الأمير أبى زكريا بن أبى حفص صاحب تونس . وأبو يحيى أول من اتخذ الموكب الملكى(١) منهم ، وملك مدينة فاس . وقد استبد [أبو يحيى] بملك المغرب الأقصى ، وبنو عبد الواحد بملك المغرب الأوسط ، وبنو أبى حفص بإفريقية . وهذا وقد أشرفت دولة الموحدين بنى عبد المؤمن على الزوال .

وفى سنه ست وخمسين [هذه] قدم أولاد حسن مكة ، وقبضوا على إدريس وأقاموا ستة أيام ، فجاء أبو نمىّ وأخرجهم ولم يُقتل بينهم أحد .

ومات فى هذه السنة من الأعيان ...(٢) المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر منصور بن الظاهر بالله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد ، آخر خلائف بنى العباس ، مقتولا فى سادس صفر ، بعد ما أتلف عساكر بغداد لنهمته فى جمع المال فدُهِى الإسلام وأهله بأبينه ، وإسناده الأمر إلى وزيره ابن العلقمى ، فإنه قطع أرزاق الأجناد ، واستجرّ(٣) التتار حتى كان ما كان . ومات الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ، صاحب دمشق والكرك ، بعد ما مرّت به خطوب كثيرة ، عن ثلاث وخمسين سنة خارج دمشق ؛ وله شعر بديع . وتوفى الحافظ زكى الدين أبو عبد الله عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله بن سلامة المنذرى الشافعى الإمام الحجة ، عن خمس وسبعين سنة . ومات محيى الدين أبو المظفر يوسف بن الحافظ جمال الدين أبى الفرج

(١) فى س "الملوكى" .

(٢) النصف الثانى من كلمة الأعيان محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س ، وكذلك بقية السطر أيضا . ولعل هذه البقية ، وهى المشار إليها هنا بنقط ، عبارة عن لفظى "الخليفة العباسى" ، أو شيء مثل ذلك .

(٣) انظر ص ٤٠٠ ، حاشية ٢ .

عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن محمد بن جعفر بن الجوزى البكرى البغدادى الحنبلى ، محتسب بغداد ورسول الخلافة ، عن ست وسبعين[1] سنة . وتوفى الصاحب محيى الدين أبو عبد الله محمد بن نجم الدين أبى الحسن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زيد بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عامر أبى جرادة العقيلى ابن العديم الحنفى ، عن ست وستين سنة بحلب . وتوفى نظام الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد المجيد بن المولى الأنصارى الحلبى ، صاحب الإنشاء بحلب . وتوفى ناظر الجيش بحلب ، [واسمه] عون الدين أبو المظفر سليمان بن البهاء أبى القاسم عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن العجمى الحلبى ، عن خمسين سنة . وتوفى الصاحب عز الدين أبو حامد محمد بن محمد بن خالد بن محمد نصر بن القيسرانى الحلبى ، ناظر الدواوين بدمشق . وتوفى الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى الأزدى المكى ، الكاتب الشاعر الماهر ، صاحب الإنشاء بديار مصر ، عن خمس وسبعين سنة . وتوفى الأمير سيف[2] الدين على بن سابق الدين عمر بن قزل — المعروف بالمشدّ ، عن أربع وخمسين سنة ؛ وشعره الغاية فى الجودة . وتوفى شاعر بغداد جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور الصرْصَرى[3] الحنبلى شهيدا ، عن ثمان وستين سنة . وتوفى الأديب شرف الدين أبو الطيب أحمد بن محمد بن أبى الوفاء بن الحُلاَوِى[4] الموصلى ، عن ثلاث وخمسين سنة بالموصل . و [توفى] الأديب سعد الدين أبو سعد محمد بن محيى الدين

---

(١) توفى فى تلك السنة أيضا ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٨٧ ب) ، الشيخ شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزى ، مؤلف كتاب مرآة الزمان .

(٢) كان هذا الأمير قريب جمال الدين بن يغمور ، وابن أخ الأمير فخر الدين عثمان أستا دار الملك الكامل (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٨٩ ا) .

(٣) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى صرصر ، وهو اسم يطلق على قريتين من سواد بغداد ، وهما صرصر العليا وصرصر السفلى ، وكلتاها على ضفة نهر عيسى الذى يسمى أحيانا نهر صرصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٨١) .

(٤) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى بلدة حلاوة : انظر ياقوت (معجم البلدان : ج ٢ ، ص ٣٠٢) .

محمد بن على بن عربى ، بدمشق . و [توفى] الأديب نور الدين أبو بكر محمد عبد العزيز ابن عبد الرحيم بن رستم الإسعردى ، بدمشق . و [توفى] الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الحق بن يوسف الشاذلى الزاهد ، بصحراء عيذاب . و [توفى] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن أحمد بن أبى الفتح ، خطيب مَرَدا[١] ، التركى الحنبلى ، عن سبعين سنة ، بمردا من عمل دمشق ، [وكان قد] حدّث بالقاهرة .

* * *

سنة سبع وخمسين وستمائة . فيها نازل التتار ماردين فلم ينالوا منها شيئا ، فرحلوا عنها إلى ميافارقين وحاصروا أهلها ، حتى أكلوا من عدم الأقوات جلود النعال التى تلبس فى الرجلين[٢] .

وفيها خرج الملك المغيث من الكرك بعسا كره يريد دمشق ، فخرج الملك الناصر من دمشق إلى محاربته ، ولقيه بأرِيحَا[٣] وحاربه ، فانهزم المغيث إلى الكرك . وسار الناصر إلى القدس فأقام به أياما ، ثم رحل إلى زَيْزاء[٤] فخيم على بركتها . وأقام [هناك] مدّة ستة أشهر ، والرسل تتردّد بينه وبين المغيث إلى أن وقع الاتفاق بينهما ، على أن الناصر يتسلم من المغيث الطائفة البحرية جميعهم ، وأن المغيث يبعد عنه الشهرزورية ، فسارت الشهرزورية من بلاد الكرك إلى الأعمال الساحلية .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية قرب نابلس ، تنطق بألف مقصورة دائما . (ياقوت معجم . البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٩٣) .

(٢) كان هولاكو قد عزم إبان ، تلك السنة على غزو الشام ، ووقعت محاولاته على ماردين وميافارقين فى الطريق إليها . وكان من ضمن قواده إذ ذاك ولده يشموط (Yschmout) ، وقد ناط به أخذ مدينة ميافارقين (D'Ohsson : Op. cit III. pp. 306-308) . وكان صاحب ميافارقين الملك الكامل محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وقد صابر حصار التتر واستمر على المقاومة مدة سنتين ، حتى نفدت عنده الأزواد ، وفنى أهل ميافارقين بالوباء والقتل ، وضعف من بقى منهم لديه عن القتال . عند ذلك استولى التتر عليها ، وقتلوا صاحبها الملك الكامل المذكور ، كما سيلى بالمتن .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بالغور من أرض الأردن بالشام ، بينها وبين بيت القدس يوم للفارس ، وتسمى أيضا أريحا وأريحاء . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قرية كبيرة تابعة للبلقاء ، وتطل على بركة واسعة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩٦٦) .

وسيّر الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى إلى الملك الناصر يلتمس منه الأمان ، فحلف له وحضر [ركن الدين بيبرس] إليه على بركة زيزاء : ومعه بدر الدين بيسرى ، وإيتمش المسعودى ، وطيبرس الوزيرى ، وبلباى الرومى الدوادار ، وأقوش الرومى ، ولاجين الدرفيل الدوادار ، وكشتغدى المشرف ، وإيدغمش [الشيخى ؟] ، وأيبك الشيخى ، وبلبان المهرانى ، وخاص ترك الكبير ، وسنجر المسعودى ، وأياز الناصرى ، وسنجر الهمامى ، وأيبك العلائى ، وطمان [الشقيرى ؟] ، ولاجين الشقيرى ، وسلطان الإلدكزى ، وبلبان الأقسيسى ، وعز الدين بيبرس(١) . فأكرمه [الملك الناصر] ، وأقطعه نصف نابلس وجينين وأعمالها ، بمائة وعشرين فارسا . وبعث المغيث سائر البحرية إلى الملك الناصر ، فرحل عن زيزاء إلى دمشق ، وقبض على البحرية واعتقلهم .

وفيها قدم الملك العزيز بن الملك الناصر من عند هولاكو ، وعلى يده كتابه ونصه : "الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب ، أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها ، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . واستحضرنا خيلفها(٢) ، وسألناه(٣) عن كلمات فكذب ، فواقعه الندم واستوجب منا العدم . وكان قد جمع ذخائر نفيسة ، وكانت نفسه خسيسة ، فجمع المال (١٠٦ ا) ولم يعبأ بالرجال . وكان قد نمى ذكره وعظم قدره ، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال .

إذا تم أمر دنا نقصه * توقَّ زوالا إذا قيل تم
إذا كنت فى نعمة فارعها * فإن المعاصى تزيل النعم
وكم من فتى بات فى نعمة * فلم يدر بالموت حتى هجم

(١) قوبلت جميع هذه الأسماء على ترجمتها فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 88) .
(٢) كذا فى س ، ولعلها صيغة تحقير وتصغير على غير قياس ، فان مصغر خليفة يكون خُلَيْفَة .
(٣) فى س "سالنا" .

إذا وقفت على كتابى هذا ، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه[١] رُوىْ زَمِيْن ، تأمن شره وتنل[٢] خيره ، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى . ولا تعوّق رسلنا عندك كما عَوّقت رسلنا من قبل ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان[٣] سراى ، فإن كانوا فى الجبال نسفناها ، و إن كانوا فى الأرض خسفناها .

أين النجاة ولا مناص لهارب * ولىَّ البسيطان الثرى والماء
ذلّت لهيبتنا الأسود وأصبحت * فى قبضتى الأمراء والوزراء

فانزعج الناصر وسير حريمه إلى الكرك ، وخاف الناس بدمشق خوفا كثيراً لعلمهم أن التتر قد قطعوا الفرات[٤] ، وسار كثير منهم[٥] إلى جهة مصر ، وكان الوقت شتاء فمات خلائق بالطريق ، ونُهب أكثرهم . وبعث الناصر ، عند ما بلغه توجه هولاكو نحو الشام ، بالصاحب كمال الدين عمر بن العديم إلى مصر ، يستنجد بعسكرها .

فلما قدم [ابن العديم] إلى القاهرة ، فى يوم[٦] ... ، عُقِد مجلس بالقلعة عند الملك المنصور ، وحضر قاضى القضاة بدر الدين حسن السنجارى ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وسُئلا فى أخذ أموال العامة ونفقتها فى العساكر ، فقال ابن عبد السلام : " إذا لم يبق فى بيت المال

(١) فى س "روازمين" ، ومعنى شاهنشاه روى زمين = ملك الملوك على وجه الأرض (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 84. N. 119 & Richardson : A Dict. Pers. Ar. Eng.)

(٢) فى س "تنال" .

(٣) ترجم (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 48) هذا اللفظ ترجمة حرفية الى (Karavanserai) أى محط الرحال أو فندق المسافرين . غير أنه توجد فوق هذا اللفظ فى س إشارة إلى عبارة بهامش الصفحة ، ونصها : "يعنى مصر" ، وهى بخط المتن . ويفهم من هذا أن مصر كانت تعرف فى بلاد التتر باسم كروان سراى ، وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية إليها من سائر جهات الشرق والغرب ، فى القرون الوسطى .

(٤) كان هذا الخبر مفعما بالمبالغة ، فالمعروف أن هولاكو لم يعبر الفرات إلا بعد الاستيلاء على آمد وغيرها ، وسيأتى ذكر ذلك كله فيما يلى . (انظر ص ٤١٩ ، سطر ١) .

(٥) الضمير هنا عائد على أهل دمشق .

(٦) بياض فى س .

شيء ، وأنفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة ، وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب ، ولم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها ، ساغ أخْذ شيء من أموال الناس فى دفع الأعداء . إلا أنه إذا دهم العـدو ، وجب على الناس كافة دَفْعُه بأموالهم وأنفسهم" ؛ وانفضوا(١) . فوجد الأمير سيف الدين قطز سبيلا إلى القول ، وأخذ ينكر على الملك المنصور وقال : " لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة" . وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور علىّ بن المعز أيبك ، واستهتر فى اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور . وطمع الأمير يوسف الدين قطز فى أخذ السلطنة لنفسه ، وانتظر خروج الأمراء للصيد : فلما خرج الأمير علم الدين سنجر الغتمى ، والأمير سيف الدين بهادر ، وغيره من المعزية لرمى البندق — وكان يوم السبت رابع عشرى ذى القعدة — قبض [قطز] على المنصور وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما ، واعتقلهم فى برج بقلعة الجبل . فكانت مدّة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام .

الملك المظفر سيف الدين قَطز(٢)

جلس على سرير الملك بقلعة الجبل يوم السبت ، الرابع والعشرين من ذى القعدة ، سنة سبع وخمسين وستمائة . وهو ثالث ملوك الترك بمصر . وفى خامسه وَلِى الوزراء زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير ، وصُرف تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، فبلغ ذلك الأمراء فقدموا إلى قلعة الجبل ، وأنكروا ما كان من قَبْض(٣) [قطز] على الملك المنصور ، وتوثبه على المُلْك . فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة الشام ومصر ، والتخوف مع هذا من الملك الناصر صاحب دمشق ، [وقال] : " وإنى ما قصدت إلاّ أن

(١) كان من بين الحاضرين هذا المجلس ابن واصل . انظر (نفس المرجع ، ص ٣٩١ ب) .

(٢) ضبط إسم هذا السلطان على منطوقه فى (Enc. Isl. Art. Kutuz) ، وفى هذا المرجع أن اسم قطز الأصلى محمود بن ممدود ، وأنه كان قريب (nephew) الملك جلال الدين خوارزمشاه ، وقد أسر فى حروب التتر ، وبيع بدمشق للسلطان الملك المعز أيبك .

(٣) فى س "قبضه" .

نجتمع على قتال التتر ، ولا يتأتى ذلك بغير مَلِك . فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدوّ فالأمر لكم ، أقيموا فى السلطنة من شئتم" فتفرقوا عنه ، وأخذ يرضيهم حتى (١٠٦ ب) تمكّن . فبعث بالمنصور وأخيه وأمه إلى دمياط ، واعتقلهم فى برج عمره وسماه برج السلسلة ، ثم سيرهم الى بلاد الأشكرى(١) . وقبض على الأمير علم الدين سنجر الغتمى المعظمى ، والأمير عز الدين أيدمر النجيبى الصغير ، والأمير شرف الدين قيران المعزى ، والأمير سيف الدين بهادر ، والأمير شمس الدين قرا سنقر ، والأمير عز الدين أيبك النجمى الصغير ، والأمير سيف الدين الدود(٢) خال الملك المنصور على بن المعز ، والطواشى شبل الدولة كافور لالا(٣) الملك المنصور ، والطواشى حسام الدين بلال المغيثى الجدار . واعتقلهم ، وحلّف الأمراء والعسكر لنفسه ، واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير فى خامس ذى القعدة واستمر بالأمير فارس الدين أقطاى الصغير الصالحى المعروف بالمستعرب أتابكا(٤) . وفوّض إليه وإلى الصاحب [زين الدين ؟] تدبير العساكر واستخدام الأجناد وسائر أمور الدولة ، واحتفل باستخدام الجنود والاستعداد للجهاد .

وورد الخبر بقدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق ، فكتب إليه الملك المظفر قطز وقد خافه كتابا يترقق فيه ، ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه فى الملك ولا يقاومه ، وأنه نائب عنه بديار مصر ، ومتى حلّ بها أقعده على الكرسى ، [وقال فيه أيضاً] : "وإن اخترتنى خَدَمْتُك ، وإن اخترتَ قدمتُ ومن معى من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فإن كنت لا تأمن حضورى سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره" . فلما قدم على الملك الناصر كتاب قطز اطمأن .

---

(١) المقصود ببلاد الأشكرى هى الإمبراطورية البيزنطية بنيقية ، وصاحبها تلك السنة Theopore Lascaris II.) انظر (Camb. Med. Hist, III. pp. 501-506) .

(٢) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit.I. I. p. p. 86) هذا الاسم الى (Addoud) .

(٣) اللالا لفظ فارسى ، معناه هنا الشخص المكلف بالعناية بالأطفال (Steingass : A Pers. Eng' Dict.).

(٤) فى س "اتابك" .

وفيها سار هولاكو من بغداد بنفسه إلى ديار بكر، ونزل على آمد يريد حلب، ونازل حران ونصب عليها المجانيق - وكانت فى مملكة الناصر يوسف - حتى أخذها. وقطع بعضُ جيشه الفرات وعاثوا فى البلاد[1]، فأجمع أهل حلب على الرحلة منها، وخرجوا جافلين. فاحترز نائبها المعظم تورانشاه بن الناصر يوسف، وجمع أهل الأطراف. وتقدم التتار حتى دنوا من حلب، فقتلوا كثيراً من عسكرها الذين خرجوا إليهم، ثم رحلوا عنها عاجلا.

فاضطرب الناصر وعزم على لقاء هولاكو، وخيَّم على بَرْزَة[2]. وكتب إلى الملك المغيث صاحب الكرك، وإلى الملك المظفر قطز، يطلب منهما نجدة. ومع هذا فكانت نفس الناصر قد ضعفت وخارت، وعظم خوف الأمراء والعساكر من هولاكو: فأخذ الأمير زين الدين الحافظى يعظم شأن هولاكو، ويشير بأن لا يقاتل وأن يدارَى بالدخول فى طاعته. فصاح به الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى، وضربه وسبه وقال: "أنتم سبب هلاك المسلمين"، وفارقه إلى خيمته. فمضى الزين الحافظى إلى الملك الناصر، وشكا إليه ما كان من الأمير بيبرس. فلما كان الليل (١٠٧ ا) هجم طائفة من المماليك على الملك الناصر، ليقتلوه ويملِّكوا غيره، وكان فى بستان، ففر هو وأخوه الملك الظاهر إلى قلعة دمشق. فبادر الأمراء القيمرية جمال الدين بن يغمور والأكابر إلى القلعة، وأشاروا على الناصر بأن يخرج إلى المخيم، فخرج. وعند ما خرج ركب بيبرس وسار إلى غزة، وبها

(١) سار هولاكو بعد حصار ماردين وميافارقين إلى آمد، وترك على حصارها الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. (انظر ص ٤٢١، سطر ٧). ثم زحف هو على نصيبين واستولى عليها، وتقدم حتى عسكر قرب حران فأسرع أهلها إلى التسليم، وحذا حذوهم أهل الرها، وشذ أهل سروج فلم يرسلوا فى طلب الأمان، فكفاهم هولاكو بسيوف عسكره مؤونة التسليم. (D'Ohsson : Op. cit. III. pp. 308-313). لم يبق بعد ذلك بين جيوش التتر ونهر الفرات سوى مسافة قصيرة، فأنفذ هولاكو جزءا من الجيش بقيادة ولده يشموط، فسبق الجيش الرئيسى إلى عبوره والتقدّم نحو حلب عن طريق ناحية تل باشر وبلدة نهر الجوز. وهذه المحاولة على حلب هى التى أسماها ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٩٣ ا) المنازلة الأولى". (انظر ياقوت: معجم البلدان: ج ٢، ص ١٥١).

(٢) بغير ضبط فى س، وهى قرية بالغوطة شمالى دمشق. (ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٥٦٣؛ ابن واصل: نفس المرجع، ص ٣٩٢ ا).

الأمير نور الدين بدلان كبير الشهرزورية ، فتلقاه وأنزله . وسيّر [بيبرس[(١)]] إلى الملك المظفر قطز علاء الدين طيبرس الوزيرى ليحلّفه ؛ [فكتب إليه الملك المظفر أن يقدم عليه . ووعده الوعود الجميلة . ففارق بيبرس الناصرية ، ووصل فى جماعة إلى مصر ، فأنزله الملك المظفر بدار الوزارة ، وأقبل عليه وأقطعه قليوب وأعمالها[(٢)]] .

و بلغ الناصر أن هولاكو أخذ قلعة حران وسائر تلك النواحى ، وأنه عزم على أخذ حلب ، فاشتد جزعه وسيّر زوجته وولده وأمواله إلى مصر ، وخرج معهم نساء الأمراء وجمهور الناس . فتفرقت العساكر ، و بقى [الناصر] فى طائفة من الأمراء . ونزل هولاكو على البيرة وأخذ قلعتها — وأخذ منها الملك السعيد بن العزيز [عثمان[(٣)] بن العادل] ، وله بها تسع سنين فى الاعتقال ، وولاه الصبيبة و بانياس — ، ونزل على حلب .

ففر أهل دمشق وغيرها ، وباعوا أموالهم بأبخس ثمن وساروا و كان الوقت شتاء ، فهلك منهم خلق كثير . وسير الملك المغيث من بقى عنده من البحرية مقيدين على الجمال ، وهم نحو الخمسين : منهم الأمير سنقر الأشقر . وسار أربعة من البحرية إلى مصر : وهم قلاون الألفى ، و بكتاش الفخرى أمير سلاح ، و بكتاش النجمى ، والحاج طيبرس الوزيرى .

وفيها كثرت الزلازل بأرض مصر . وفى ثانى عشر جمادى الآخرة جُبى التصقيع من أملاك القاهرة ومصر . وفى شعبان قُبض على رجل يعرف بالكورانى ، وضرب ضربا مبرحا بسبب بدع ظهرت منه ؛ وجَدّد إسلامه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأطلق من الاعتقال فأقام بالجبل الأحمر .

وفيها بنى [هولاكو] الرَّصَد بمدينة مَرَاغة[(٤)] ، بإشارة الخواجا[(٥)] نصير الدين محمد

---

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٤ ا) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ص ١٢٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، فى Rec, Hist. Or. I.) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى من بلاد آذربيجان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٧٦) .

(٥) الخواجا هنا أو الخواجه — العلم ، ومن معانيه الكاتب والتاجر ؛ (Dozy : Supp. Dict. =

الطوسى ، وهو دار للفقهاء والفلاسفة والأطباء ، بهـا من كتب بغداد شىء كثير ، وعليها أوقاف لخدامها .

وفيها[1] استقل يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة ، ملك بنى مرين ، بملك فاس وعامة المغرب الأقصى . وفيها سار عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أرسلان ابنا كيخسرو بن كيقباد من قونية إلى هولاكو ، فأقاما عنده مدّة ثم عادا إلى بلادهما[2] .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأتابكى صاحب الموصل ، فى ثالث عشر شعبان عن ثمانين سنة ، دبّر فيها الموصل نحو خمسين[3] سنة . وقام من بعده ابنه الصالح إسماعيل ، وسار ابنه علاء الدين علىّ مفارقا لأخيه إسماعيل إلى الشام . وتوفى الشريف منيف بن شيحة الحسينى أمير المدينة النبوية . وتوفى صدر الدين أبو الفتح أسعد ابن المنجا التنوخى الدمشقى الحنبلى ، ناظر الجامع الأموى ، عن ستين سنة بها . وتوفى نجم الدين أبو الفتح مظفر بن محمد بن إلياس بن السيرجى الأنصارى الدمشقى الشافعى ، محتسب دمشق ووكيل بيت المال بها . وتوفى الأديب بهاء الدين أبو عبدالله محمد بن مكى بن محمد بن الحسين بن الدجاجية القرشى الدمشقى بها عن ست وستين سنة .

= (.Ar) أما نصير الدين الطوسى ، المولود بطوس سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) ، فكان من البارزين فى شتى العلوم فى عصره ، واشتهر خاصة بالاشتغال بالفلك . وقد أقام نصير الدين عند الإسماعيلية ببلدة ألموت مدة ، وهو الذى أغرى ركن الدين خورشاه رئيس الإسماعيلية بالتسليم إلى هولاكو . ودخل نصير الدين بعد ذلك فى خدمة هولاكو ، وكان مسموع الكلمة عنده ، وهو الذى أقنعه حينما كان يفكر فى مصير الخليفة المستعصم ، أن إعدام الخليفة لن يستجلب غضب أحد فى السماء أو الأرض . (Browne : Op. Cit. II. pp. 456-457, 460, 465, 484-486)

(١) انظر الحاشية التالية .

(٢) العبارة المبتدئة من رقم الحاشية السابقة والمنتهية هنا ، مكتوبة بقلم مخالف لقلم المتن المعتاد ، على أنها بخط المقريزى ، والراجح أن مكانها كان بياضا ملأه المقريزى فيما بعد ، بعد أن اعترى خطه شىء من الهزة . هذا وقد تقدم ذكر أخبار هذين الملكين السلجوقيين فى ص ٤٠٠ ، حاشية ١ .

(٣) يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٨٦ ا — ب) فقرة طويلة فى تاريخ أعمال بدر الدين لؤلؤ . انظر أيضا (نفس المرجع ، ص ٣٩١ ا — ب) ، حيث توجد له ترجمة قصيرة .

* * *

سنة ثمان وخمسين وستمائة. فى المحرم نزل هولاكو على مدينة[1] حلب، وراسل متوليها الملك المعظم توارنشاه بن الملك الناصر يوسف، على أن يسلمه البلد ويؤمنه ورعيته، فلم يجبه [إلى طلبه[2]] وأبى إلا محاربته. فحصرها التتار سبعة أيام وأخذوها بالسيف، وقتلوا خلقا كثيرا وأسروا النساء والذرية ونهبوا الأموال مدّة خمسة أيام، استباحوا فيها دماء الخلق حتى امتلأت الطرقات من القتلى. وصارت عساكر التتر تمشى على جيف من قُتِل، فيقال (١٠٧ ب) إنه أسر منها زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان. وامتنعت قلعة حلب، فنازلها [هولاكو] حتى أخذها فى عاشر صفر، وخربها وخرب جميع سور البلد وجوامعها ومساجدها وبساتينها، حتى عادت موحشة. وخرج إليه الملك المعظم توارن شاه ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فلم يعترضه بسوء لكبر سنه، فمات بعد أيام[3]. ووجد [هولاكو] من البحرية تسعة أنفس فى حبس الملك الناصر، فأطلقهم وأكرمهم: منهم سنقر الأشقر، وسيف الدين سكز، وسيف الدين

(١) يوجد فوق هذا اللفظ عبارة "فى ثالث صفر"، ولما كان من المعروف، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٩٠ ا — ب)، أن هولاكو نزل على نواحى حلب مثل جبرين والملاحة فى المحرم، وأنه لم يزحف على مدينة حلب نفسها حتى ثانى صفر، وذلك بعد رجوع رسوله من عند صاحبها الملك المعظم، (انظر الحاشية التالية)، فيظهر أن المقريزى كتب العبارة المشار إليها لمجرد الاختصار.

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص٣٩٤ ب). وكان مضمون الرسالة إلى الملك المعظم نائب حلب: "إن هولاكو يقول لكم إنكم تضعفون عن لقاء المغل، ومالكم قدرة بهم، ونحن نقصد الملك الناصر ومن معه من العساكر. فتجعلون لنا عندكم شحنة بالقلعة وشحنة بالمدينة، ونتوجه نحن إلى الملك الناصر. فان كانت الكسرة علينا فالأمر اليكم، إن شئتم أبقيتم على الشحنتين وطردتموهما عنكم، وإن شئتم قتلتموهما. وإن كانت النصرة لنا، فحلب وغيرها لنا وتكونون آمنين على أنفسكم. فلما أدى الرسول الرسالة على (كذا) الملك المعظم، قال الملك المعظم نحن لا نجيب (فى الأصل نجب) إلى هذا أبدا، وما بيننا وبينه إلا السيف. فانصرف الرسول متعجبا من هذا الجواب ومتألما، لما يعلم أن من هذا الجواب يكون وباله (كذا) على أهل حلب والمسلمين. ولما بلغ هولاكو ما أجاب به الملك المعظم، ركب فى جحافله وعساكره الكثيرة ورحل الى حلب، وأحاط بها ثانى صفر من هذه السنة".

(٣) لا يوجد فى نسخة ابن واصل المتداولة هنا (نفس المرجع، ص٣٩٤ ب — ١٣٩٥)، سوى أول أخبار هذا الحصار، وذلك لفقد الصفحات التى بها بقية أخبار تلك السنة، وجزء من أخبار السنة التالية أيضا.

برامق ، وبدر الدين بكش المسعودى ، ولاجين الجدار الصالحى ، وكندغدى[1] الصغير .

فلما وصل الخبر إلى دمشق بأخذ قلعة حلب اضطربت بأهلها ؛ وكان الملك الناصر قد صادر الناس ، واستخدم لقتال التتر ، فاجتمع معه ما يناهز مائة ألف ما بين عرب وعجم . فتمزق حينئذ الناس ، وزهدوا فى أمتعتهم وباعوها بأبخس الأثمان ، وخرجوا على وجوههم . ورحل الملك الناصر عن برزة ، يوم الجمعة منتصف صفر ، بمن بقى معه يريد غزة ، وترك دمشق خالية ، وبها عامتها قد أحاطت بالأسوار ، وبلغت[2] أجرة الجمل سبعمائة درهم فضة ، وكان الوقت شتاء . فلم يثبت الناس عند خروج الناصر ، ووقعت فيهم الجفلات حتى كأن القيامة قامت ، وكانت مدة مملكة الناصر بحلب ودمشق ثلاثا وعشرين سنة وسبعة أشهر ، منها مدة تملكه لدمشق عشر سنين تنقص خمسين يوما .

ولحق الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص بهولاكو ، وسار الملك المنصور ابن المظفر صاحب حماة إلى مصر بحريمه وأولاده ، وجفل أهل حمص وحماة .

وسار هولاكو إلى دمشق ، بعد أخذ حلب بستة عشر يوما[3] ، فقام الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر العَقْرَبانى[4] المعروف بالزين الحافظى ، وأغلق أبواب دمشق ،

---

(١) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremére : Op. Cit. I. 1. p. 90.) هذا الاسم إلى (Kidgadi)

(٢) فى س "بلغ" .

(٣) يفهم مما يلى ، ومن (Enc. Isl. Art. Hulagu ; D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 323) ، أن هولاكو لم يزحف بنفسه على دمشق .

(٤) بغير ضبط فى س ، ويوجد بين صفحتى ١٠٧ ب — ١٠٨ ا هامش على ورقة منفصلة ، فيه تعريف بهذا الأمير وتوضيح لنسبته إلى عقرباء ، التى هى إحدى قرى دمشق . انظر (ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ، ص ٦٩٥) . وهذا نص الهامش مصححا : "سليمان بن على بن عامر الأمير زين الدين بن المؤيد المعروف بالزين الحافظى ، وكان أبوه خطيب عقربا (كذا) من قرى دمشق ، واشتغل هو بالطب حتى مهر فيه ، وخدم به الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن [العادل] أبى بكر بن أيوب صاحب جعبر ، فخوله فى دولته (فى الأصل لخوله فى دوليه) وداخل أولاده . ثم انتقل إلى خدمة الملك الناصر يوسف بحلب ، فصارت له عنده يد ورفعة ، وكثرت أمواله وصار مكينا فى دولته ، ويرسل عنه إلى هولاكو . فازج (فى الأصل فاز ح) التتار وأطمعهم فى البلاد ، وعاد فهول بهم على الناصر حتى هرب . فقام بأمر دمشق للتتار ، ودعوه بالملك زين الدين وسار معهم خوفا من الملك المظفر قطز ، فقتله وقتل أولاده" .

وجمع من بقى بها وقرر معهم تسليم المدينة إلى هولاكو. فتسلمها منه فخر الدين المردغانى[1]، وابن صاحب أرزن، والشريف على — وكان هؤلاء قد بعث بهم هولاكو إلى الملك الناصر وهو على برزة. فكتبوا بذلك إلى هولاكو، فسير طائفة من التتر وأوصاهم بأهل دمشق، ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهما فما فوقه.

فلما كان ليلة الاثنين تاسع عشر صفر، وصل رسل هولاكو صحبة القاضى محيى الدين ابن الزكى، — وكان قد توجه من دمشق إلى هولاكو بحلب، فخلع عليه وولاه قضاء الشام، وسيره إلى دمشق ومعه الوالى. فسكن الناس، وجُمعوا من الغد بالجامع، فلبس ابن الزكى خلعة هولاكو وجمع الفقهاء وغيرهم وقرأ عليهم تقليد هولاكو. وقُرئت فرمانات هولاكو بأمان أهل دمشق، فكثر (١٠٨ ا) اضطراب الناس واشتدّ خوفهم.

وفى سادس عشر شهر ربيع الأول وصل نوّاب هولاكو، فى جمع من التتر صحبة كتبغا[2] نُوين[3]، فقرئ فرمان بالأمان. وورد فرمان على القاضى كمال الدين عمر التفليسى، نائب الحكم عن قاضى القضاة صدر الدين أحمد بن سنى الدولة، بأن يكون قاضى القضاة بمدائن الشام والموصل وماردين وميافارقين، وفيه تفويض نظر الأوقاف إليه من جامع وغيره؛ فقرئ بالميدان الأخضر.

---

(١) فى س " المردغاى "، وقد ترجم (Quatremére ; Op. cit. I. 1. p. 97) هذا الاسم إلى (Merdegaï)

(٢) فى س " كتبغا " بغير ضبط. انظر (Zetterstéen : Op. Cit. P, 33.). ويرد اسم هذا القائد، وهو صهر هولاكو، على صيغ مختلفة مثل كتبوغا وكتبوقا وكيتبوقا وكيتوبوقا. انظر (Quatremére : Op. Cit. I. 1. p. 97. N. 129)

(٣) بغير ضبط فى س، وهو لفظ فارسى، كثير الورود فى (D'Ohsson Op. cit.) مقرونا بأسماء قواد التتر، ومعناه مقدّم ألف، وهو حسبما جاء بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٦، ص ٣٣) "من ألقاب كفال الممالك بالممالك القانية، ككاتب السلطة وأمراء الألوس والوزير ونحوهم، ...... والنوينى نسبة إليه للمبالغة ...... وهو بمثابة الكافلى فى ألقاب النوّاب ..." . راجع أيضاً (Richardson : Dict. Ar.Pers. Eng.)

وغارت جمائع التتر على بلاد الشام ، حتى وصلت أطراف بلاد غزة وبيت جبريل والخليل و بركة زيزاء والصلت ، فقتلوا وسبوا وأخذوا ما قدروا عليه ، وعادوا إلى دمشق فباعوا بها المواشي وغيرها .

واستطال النصارى بدمشق على المسلمين ، وأحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم و إقامة دينهم : فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان ، ورشّوه على ثياب المسلمين فى الطرقات ، وصبّوه على أبواب المساجد . وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم ، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب ، وصاروا يمرون[1] به فى الشوارع إلى كنيسة مريم[2] ، و يقفون به و يخطبون فى الثناء على دينهم ، وقالوا جهرا "ظهر الدين[3] الصحيح دين المسيح" . فقلق المسلمون من ذلك ، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو [وهو كتبغا[4]] فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظّم قدر قسوس النصارى ، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم[5] . وجمع الزين الحافظى من الناس أموالا جزيلة ، واشترى بها ثيابا وقدّمها لكتبغا نائب هولاكو ، ولبَيْدَرا[6] وسائر الأمراء والمقدمين من التتر ؛ وواصل حمل الضيافات إليهم فى كل يوم . ثم خرج كتبغا و بيدرا إلى مَرْج بَرَغُوث[7] .

ووصل الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو ، و بيده مرسوم أن يكون نائب السلطنة بدمشق والشام . فامتثل ذلك كتبغا ، وصارت الدواوين وغيرها تحضر إلى[8]

(١) فى س "يمروا" .

(٢) كانت تلك الكنيسة تابعة للطوائف اليونانية المسيحية ، ولا يعد لها عندهم سوى كنيسة القيامة ببيت المقدس . (Le Strange : Palest. Under Moslems. PP. 254, 264).

(٣) فى س "الرب" ، وهو فى ب (١٣١ ب) كما بالمتن هنا .

(٤) انظر ما يلى ، سطر ١١ .

(٥) كان كتبغا ، نقلا عن (D' Ohsson : Op. Cit III. P. 325. N. 1.) ، من قبيلة تترية اعتنقت الدين المسيحى منذ قرون .

(٦) مضبوطة على منطوقه فى (Quatremére : Op. Cit I. I. p. 99).

(٧) بغير ضبط فى س ، وهو على مسافة يوم من دمشق . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، س ٣٨٤ ، ٤٩٥ ، فى Rec. Hist. .Or. IV.)

(٨) فى س "اليه"

[الأشرف] . ثم بعد أيام ثار الأمير بدر الدين محمد بن قَرَنْجاه[1] والى قلعة دمشق ، هو والأمير جمال الدين بن الصيرفى ، وأغلقا أبوابها . فحضر كتبغا بمن معه من عساكر التتار ، وحصروا القلعة فى ليلة السادس من ربيع الآخر . فبعث الله مطرا وبردا ، مع ريح شديدة ورعود وبروق وزلزلة ، سقط منها عدّة أماكن ، وبات الناس بين خوف أرضى وخوف سمائى . فلم ينالوا من القلعة شيئا ، واستمرّ الحصار عليها (١٠٧ ب) بالمجانيق — وكانت تزيد على عشرين منجنيقا - إلى ثانى عشرى جمادى الأولى . [عند ذلك] اشتدّ الرمى ، وخرب من القلعة مواضع ، فطلب من فيها الأمان ودخلها التتر فنهبوا سائر ما كان فيها ، وحرقوا مواضع كثيرة ، وهدموا من أبراجها عدّة ، وأتلفوا سائر ما كان فيها من الآلات والعدد . وساروا إلى بعلبك فخربوا قلعتها ، وسارت طائفة منهم إلى غزة ، وخربوا بانياس وأسعروا البلاد حربا وملأوها قتلا ونهبا .

وفى يوم السبت ثانى عشرى شهر ربيع الأول قدم الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى إلى القاهرة ، فركب الملك المظفر قطز إلى لقائه ، وأنزله فى دار الوزارة بالقاهرة ، وأقطعه قصبة قليوب الخاصة .

وفيها ملك هولاكو ماردين ، وقتل أمراءها وخرب أسوار قلعتها . وفيها وصل الملك الناصر إلى قطيا ، فخافه قطز وبرز بالعسكر إلى الصالحية . ففارق الناصر عدة من أمرائه ومن الشهرزورية ، ولحقوا بقطز وأقاموا ببلبيس : منهم حسام الدين طرنطاى ، وبدر الدين طيدمر الأخوث ، وبدر الدين أيدمر الدوادار ، وإيد غدى الحاجى . فعاد الناصر من قطيا ، وقد تمزق ملكه وتفرق الناس عنه ، فنزل البلقاء .

ورجع قطز إلى قلعة الجبل ، وقبض على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور ، واعتقله بقلعة الجبل . وصادر كل من وصل إليه من غلمان الملك الناصر وكُتابه وأخَذ أموالهم ، وألزم زوجة الملك الناصر بإحضار ما عندها من الجواهر ، فأخذ منها جوهرا كثيرا ؛ وأخذ من

(١) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op. Cit I· 1. p. 99) .

نساء الأمراء القيمرية أموالا جمة ، وعاقب بعضهن وأما الملك الناصر ، فإن شخصا من غلمانه — يعرف بحسين الكردى الطَّبَرْدار[1] — قبض عليه وعلى ولده الملك العزيز ، وعلى أخيه غازى ، و إسماعيل بن شادى ومن معه ، و بعث بهم إلى هولاكو .

وفيها رحل هولاكو عن حلب يريد الرجوع إلى الشرق[2] ، وجعل كتبغا نوين نائبا عنه بحلب ، و بيدرا نائبا بدمشق . وأخذ [هولاكو] معه من البحرية سبعة : منهم سنقر الأشقر ، وسكز ، و برامق ، و بكمش المسعودى .

وفيها وصلت رسل هولاكو إلى مصر بكتاب نصه : "من ملِك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز ، الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا[3] إلى هذا الإقليم ، يتنعمون[4] بأنعامه ، و يقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته ، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى (١١٠٩) أرضه ،

---

(١) بغير ضبط فى س ، والطبردار هو الذى يحمل طبر — أى فأس — السلطان عند ركوبه فى المواكب وغيرها ؛ وأمير طبر هو الذى يتحدث على الطبردارية الذين يحملون الأطبار . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٨ ، ٤٦٢) انظر أيضا (Quatremére : Op. Cit. I. I. p. 100. N. 131.) حيث توجد معلومات أوفى عن أصحاب تلك الوظيفة .

(٢) سبب رجوع هولاكو إلى الشرق — والمقصود بذلك بلاد فارس — أن أخبارا وصلت إليه بوفاة أخيه منكوخان الخان الأعظم على جميع التتر ، سنة ٦٥٥ هـ . وكان هناك أخ ثالث اسمه قوبيلاى ، وكان واليا على الصين من قبل أخيه ، وهو الذى خلف منكوخان على جميع بلاد التتر ، بعد أن تغلب على الطامعين فى الملك من أبناء بيت جنكزخان ، سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) . وقد حكم قوبيلاى حتى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) ، واستولى فى أثناء حكمه على البقية الباقية من بلاد الصين ، ونقل عاصمة التتر من قراقوم (Karakorum) إلى خان بالق (Khan Balik) ، وهى بكين الحالية . وانصبغت دولة قوبيلاى من ذلك الوقت بصبغة صينية من دون سائر دول التتر ، وعرفت الأسرة الحاكمة بها باسم (Yuen Dynasty). انظر (Enc. Isl. Art. Kubilai; Lane- Poole: Muh. Dyns. pp. 212- 512).

(٣) هنا إشارة مبهمة إلى أصل قطز ، وقد تقدم القول (ص ٤١٧ ، حاشية ٢) بأنه كان من الخوارزمية .

(٤) فى س "يتمعو" .

(٥) فى س "يقتلوا" .

خلقنا من سخطه ، وسلطنا ، على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب . فأى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يُسمع . فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفّون[١] عند كلام ، وخُنتم العهود والأيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان . فأبشروا بالمذلة والهوان ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ . وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ . فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم مالنا وعليكم ما علينا ؛ وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم . فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أنْ نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلّطنا عليكم من له الأمور المقدّرة والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شِرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرازا . وتُدْهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصرٍ ها هُلاوُن[٢] قد أتى بحدّ سيوف تُنتضى وبواتر

---

(١) فى س "تعفوا".

(٢) كذا فى س بغير ضبط ، وهى صيغة لاسم هولاكو ، ترد كثيراً فى كتب المؤرخين المعاصرين ، انظر (Quatremére: Op. Cit. I. I. p. 102. N. 132) ، وقد ضبطت تلك الصيغة على منطوقها فى هذا المرجع . انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٧٢ ، حاشية ٧) .

يَصــــير أعز القوم منها أذلة ويُلحق أطفالا لهم بالأكابر

فجمع قطز الأمراء ، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية : فقبض (١٠٩ ب) على الرسل واعتقلوا ، وشرع فى تحليف من تخيّره من الأمراء ، وأمر بالمسير ، والأمراء غير راضين بالخروج كراهة فى لقاء التتر . فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان ، خرج الملك المظفر بجميع عسكر مصر ، ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم ، من قلعة الجبل يريد الصالحية .

وفيه أحضر [قطز] رسل التتر ، وكانوا أربعة : فوسط واحدا بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ووسط آخر بظاهر باب زويلة ، ووسط الثالث ظاهر باب النصر ، ووسط الرابع بالريدانية . وعلقت رءوسهم على باب زويلة ، وهذه الرءوس أوّل رءوس علّقت على باب زويلة من التتار . وأبقى الملك المظفر على صبى من الرسل ، وجعله من جملة مماليكه .

ونودى فى القاهرة ومصر ، وسائر إقليم مصر ، بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ، ونصرة لدين رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتقدّم [الملك المظفر] لسائر الولاة بإزعاج الأجناد فى الخروج للسفر ، ومن وُجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع . وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر ، فطلب الأمراء وتكلم معهم فى الرحيل ، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل . فقال لهم : "يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون[1] أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر[2] ذلك يرجع إلى بيته . فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين" . فتكلم الأمراء الذين تخيّرهم وحلّفهم فى موافقته على المسير ، فلم يسع البقية إلا الموافقة ؛ وانفضّ الجمع .

فلما كان فى الليل ركب السلطان ، وحرك كوساته وقال : "أنا ألقى التتار[3] بنفسى" ، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره . وأمر [الملك قطز] الأميرَ ركن الدين

(١) فى س "ماكلوا" . (٢) فى س "مختار" .

(٣) فى س "التتا" .

بيبرس البندقدارى أن يتقدّم فى عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار [بيبرس] إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله، وملك [هو] غزة.

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوما، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة. فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر.

وأمر [الملك قطز] (١١١٠) بالأمراء فجمعوا، وحضّهم على قتال التتر، وذكّرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوّفهم وقوع مثل ذلك، وحثّهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذّرهم عقوبة الله. فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد فى قتال التتر ودفعهم عن البلاد. فأمر [السلطان] حينئذ أن يسير الأمير [ركن الدين] بيبرس [البندقدارى] بطليعة(١) من العسكر، فسار حتى لقى طليعة التتر. فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. وأخذ فى مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه(٢) السلطان على عين(٣) جالُوت.

وكان كتبغا وبيدرا نائبا(٤) هولاكو، لما بلغهما مسير العساكر [المصرية]، جمعا من تفرق من التتر فى بلاد الشام، وسارا يريدان(٥) محاربة المسلمين؛ فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها. فلما كان يوم الجمعة خامس عشرى شهر رمضان التقى الجمعان، وفى قلوب المسلمين وهمٌ عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس. وقد امتلأ الوادى،

(١) ترجم (Quatremére: Op. Cit. I. I. p. 104) هذا اللفظ إلى (un corps de troupes)، ولم يزد (Dozy: Supp. Dict. Ar.) على هذا كثيرا، إذ ترجمه إلى (corps d'infantrie, de cavalrie).

(٢) فى س "وفاه".

(٣) بغير ضبط فى س، واسمها فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٣، ص ٧٦٩) عين الجالوت، وهى بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين.

(٤) فى س "نواب". (٥) فى س "ساروا يريدون".

وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ؛ فتحيز التتر إلى الجبل . فعند ما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منه ، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض ، وصرخ بأعلى صوته : "وا إسلاماه[١] ! " ، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره وقُتل كتبغا مقدم التتر ، وقُتل بعده الملك السعيد حسن بن العزيز — وكان مع التتر . وانهزم باقيهم ، ومنح الله ظهورهم المسلمين يقتلون ويأسرون ، وأبلى الأمير بيبرس أيضا بلاء حسنا بين يدى السلطان .

ومما اتفق فى هذه الوقعة ، أن الصبي الذى أبقاه السلطان من رسل التتر وأضافه إلى مماليكه ، كان راكبا وراءه حال اللقاء . فلما التحم القتال فوّق سهمه نحو السلطان ، فبصر به بعض من كان حوله فأمسك وقُتل مكانه . وقيل بل رمى [الصبي] السلطانَ بسهمه فلم يخطئ[٢] فرسه وصرعه إلى الأرض ، وصار السلطان على قدميه ، فنزل إليه فخر الدين ماما وأركبه فرسه ، حتى حضرت الجنائب[٣] فركب فخر الدين منها .

وسر العسكر فى أثر التتر إلى قرب بيسان ، فرجع التتر وصافوا مصافا ثانيا أعظم من الأول ، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم . وكان قد تزلزل المسلمون زلزالا شديداً فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : "وا إسلاماه[٤] ! " ثلاث مرات ، "يا الله ! انصر عبدك قطز على التتار" . فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب ، وأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم .

(١) فى س " واسلاماه "

(٢) فى س " محط ".

(٣) الجنائب جمع جنيب ، وهى الخيول التى كانت تسير وراء السلطان فى الحروب لاحتمال الحاجة إليها ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 106.) هذا اللفظ إلى (des cheveux de main) ، انظر أيضا محيط المحيط ؛ و (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) فى س "واسلاماه" .

فورد الخبر بانهزام التتر إلى دمشق ليلة الأحد سابع عشريه ، وحملت رأس كتبغا مقدم التتار إلى القاهرة ، ففرّ الزين الحافظى ونوّاب التتار من دمشق ، وتبعهم أصحابهم . فامتدّت (١١٠ ب) أيدى أهل الضياع إليهم ونهبوهم ، فكانت مدة استيلاء التتر على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام .

وفى يوم الأحد المذكور نزل السلطان على طبرية ، وكتب إلى دمشق يبشّر الناس بفتح الله له وخذلانه التتر ، وهو أوّل كتاب ورد منه إلى دمشق . فلما ورد الكتاب سر الناس به سرورا كثيرا ، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوها وأخربوا ما قدروا على تخريبه ، وهدموا كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وأحرقوها حتى بقيتا[1] كوما ، وقتلوا عدة من النصارى ، واستتر باقيهم . وذلك أنهم فى مدّة استيلاء التتر هموا مرارا بالثورة على المسلمين ، وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم ، وأعلنو بضرب الناقوس وركبوا بالصليب ، وشربوا الخمر فى الطرقات ورشوه على المسلمين .

وفى ثامن عشريه نهب المسلمون اليهود بدمشق حتى لم يتركوا لهم شيئا ، وأصبحت حوانيتهم بالأسواق دكا ؛ فقام طائفة من الأجناد حتى كفوا الناس عن حريق كنائسهم وبيوتهم . وفيه ثار أهل دمشق بجماعة من المسلمين كانوا من أعوان التتار وقتلوهم ، وخربوا الدور المجاورة للكنائس ، وقتلوا جماعة من المُغُل ، فكان أمرا مهولا .

وفى تاسع عشريه وصل بكرة النهار الأمير جمال الدين المحمدى الصالحى بمرسوم الملك المظفر قطز ، فنزل بدار السعادة ، وأمن الناس ووطنهم .

وفى يوم الأربعاء آخر شهر رمضان وصل الملك المظفر بعساكره إلى ظاهر دمشق ، فخيم هناك وأقام إلى ثانى شوال ، فدخل إلى دمشق ونزل بالقلعة . وجرد الأمير ركن الدين بيبرس إلى حمص ، فقتل من التتر وأسر كثيرا ، وعاد إلى دمشق .

(١) فى س " احرقوها حتى تطيب " .

(٢) فى س " مواذن " .

واستولى الملك المظفر على سائر بلاد الشام كلها من الفرات إلى حد مصر ، وأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام ، واستناب الأمير علم الدين سنجر الحلبي في دمشق ، ومعه الأمير مجير الدين أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشي[(١)] الكردي . وبعث [إليه] الملك الأشرف موسى — صاحب حمص ، ونائب هولاكو ببلاد الشام — يطلب الأمان فأمّنه . وبعث [السلطان أيضا] بالملك المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار إلى حلب نائبا بها ، وأقطع أعمالها بمناشيره . وأقر الملك المنصور على حماة وبارين ، وأعاد عليه المعرة — وكانت بيد الحلبيين من سنة خمس وثلاثين وستمائة ؛ وأخذ سلمية منه وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب . ورتّب الأميرَ شمسَ الدين أقوش البُرْلي[(٢)] العزيزى أميراً بالساحل وغزة ، ومعه عدة من العزيزية — وكان قد فارق الناصر يوسف وسار إلى القاهرة فأكرمه السلطان ، وخرج معه فشهد وقعة عين جالوت . وأمر بشنق حسين الكردى الطبردار ، فشنق من أجل أنه دل على الملك الناصر .

(١١١ ا) وثار عدة من الأوشاقية[(٣)] مماليك السلطان بالنصارى ونهبوا دورهم ، [وكان] معهم عدة من عوام دمشق ، فشنق منهم[(٤)] نحو الثلاثين نفسا . وأمر [السلطان] أن يقرر على نصارى دمشق مائة وخمسون[(٥)] ألف درهم ، فجمعوها وحملت إلى السلطان ، بسفارة الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابك العسكر .

(١) كذا فى س ، ويوجد فى أبى شامة (كتاب الروضتين ، س ١٧٦ ، فى Rec. Hist. Or. V) أمير اسمه ابن خشترين الأزكى ، وقد توفى بحران سنة ٦١٦ هـ .

(٢) بغير ضبط فى س ، ولفظ البرلى محرف من الكلمة التركية بُرُنْلُو ، ومعناها ذو الأنف الكبير . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، فى Rec. Hist. Or. I.) . انظر أيضا ص ٧٦٩ فى نفس المجلد .

(٣) بغير ضبط فى س ، والواحد أوشاقى — ويقال أوجاقى أيضا — وهو الذى يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٤) .

(٤) لعل الضمير هنا عائد على النصارى ، انظر (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 108) .

(٥) فى س "خمسين" .

وأما التتر فإنهم لما لحقهم الطلب إلى أرض حمص ، ألقوا ما كان معهم من متاع وغيره وأطلقوا الأسرى ، وعرجوا نحو طريق الساحل . فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقا كثيراً ، وأسروا أكثر . فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليه ، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ، ورحل من يومه .

وكان [هولاكو] لما قدم عليه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب الشام أكرمه وأجرى له راتبا ، واختص به وأجلسه على كرسى قريبا منه ، وشرب معه ، ثم كتب له فرمانا[(١)] وقلده بمملكتى الشام ومصر ، وأخلع عليه وأعطاه خيولا كثيرة[(٢)] وأموالا ، وسيّره إلى جهة الشام . فأمر [هولاكو] لما ورد عليه خبر الكسرة برده ، فأحضر وقُتل بجبال سَلَماس[(٣)] فى ثامن عشر شوّال ؛ وقتل معه أخوه الملك الظاهر غازى ، والملك الصالح ابن شيركوه ، وعدة من أولاد الملوك . وشفعت طُقُز خاتون زوجة هولاكو فى الملك العزيز ابن الناصر ، فلم يسلم من القتل غيره ؛ ورجع هولاكو إلى بلاده .

وتراجع الناس الى دمشق ، وسارت الأسعار بها غالية جدا لقلة الأقوات . وعدمت الفلوس فيها ، وتضرر الناس فى المعاملة بسبب الدراهم وعزّ كل ما كان قد هان .

فلما رتب السلطان أحوال النوّاب والولاة والشادين ببلاد الشام ، خرج من دمشق يوم الثلاثاء سادس عشرى شوّال يريد مصر بعد ما كان قد عزم على المسير الى حلب ، فثناه عن ذلك ما بلغه من تنكر الأمير بيبرس وتغيره عليه ، فإنه قد عزم على القيام بمحاربته : وسبب ذلك أن[(٥)] [الأمير بيبرس] سأل السلطان أن يوليه نيابة حلب[(٦)] ، فلم يرض فتنكر عليه ،

(١) فى س "فرمان" .

(٢) فى س "كثيرا" .

(٣) بغير ضبط فى س ، وسلماس مدينة فى آذربيجان ، بينها وبين أرمية يومان ، وبينها وبين تبريز ثلاثة أيام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢٠) .

(٤) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op Cit. I. I. p. 109) .

(٥) فى س "انه" .

(٦) كان قطز قد أعطى قبل ذلك نيابة حلب إلى علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ . انظر ص ٤٣٣ ، سطر ٥ .

ليقضي الله أمراً كان مفعولا . فخافه [السلطان] وأضمر له السوء ، وسار إلى جهة مصر . وبلغ ذلك بيبرس ، فاحترس كل منهما من الآخر ، وعمل فى القبض عليه . وحدّث بيبرس جماعة من الأمراء فى قتل السلطان : منهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير سيف الدين بهادر المعزى ، والأمير بدر الدين بكتوت الجُوكَندار المعزى ، والأمير بيدغان الركنى ، والأمير بلبان الهارونى ، والأمير (١١١ ب) بدر الدين أنس الأصبهانى .

فلم يزل السلطان سائرا إلى أن خرج من الغرابى وقارب الصالحية ، فانحرف[٢] فى مسيره عن الدرب للصيد ومعه الأمراء . فلما فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطانى ، طلب منه الأمير بيبرس امرأة من سبى التتر ، فأنعم بها عليه . فأخذ [بيبرس] يد السلطان ليقبلها ، وكانت إشارة بينه و بين الأمراء : فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف [و] ضرب به عاتقه ، واختطفه الأمير أنس وألقاه عن فرسه ، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه ؛ وذلك يوم السبت خامس عشر ذى القعدة ، ودفن بالقُصَيْر[٣] ، فكانت مدّة ملكه أحد عشر شهرا وسبعة عشر يوما .

وحمل [قطز بعد ذلك] إلى القاهرة ، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقى الدين قبل أن تعمر ؛ ثم نقله الحاج قطز الظاهرى إلى القرافة ، ودفن قريبا من زاوية ابن عبود . ويقال إن اسمه محمود بن ممدود ، و إن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، و إن أباه ابن عم السلطان جلال الدين ؛ و إنما سبى عند غلبة التتار ، فبيع بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة[٤] .

(١) بغير ضبط فى س ، والجوكندار — والعامة تقول جكندار — هو الذى يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة والصوالجة التى تعرف الآن باسم (Polo) ، والجوكان المحجن الذى تضرب به الكرة ، ويعبر عنه بالصولجان أيضا . (القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٨) . وكانت الجوكان عصى مدهونة طولها نحو من أربعة أذرع ، وبرأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد عن نصف ذراع . انظر (Quatremére : Op. Cit. I. I. p. 122).

(٢) فى س " انحرف " .

(٣) فى س "بالقصير" ، بغير ضبط ، وهو بلد بمصر بطريق الرمل ، بينه وبين الصالحية مرحلة . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٤ ، فى (Rec. Hist. Or. I. .

(٤) يلى هذا فى ب (١٣٥ أ — ب) وفيات ، هى فى الواقع تابعة لسنة ٦٥٦ هـ ، وقد وردت =

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى

كان [بيبرس] تركى الجنس ، فاشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وترقى فى خدمته واستفاد من أخلاقه . فلما مات [الملك الصالح] ، قام [بيبرس] فى خدمة [ابنه] الملك المعظم [تورانشاه] إلى أن قُتل ، فلم يزل يترقى إلى أن قُتل الفارس أقطاى ، فخرج[1] من القاهرة وتنقل فى بلاد الشام . ثم عاد إلى مصر ، وخرج مع الملك المظفر قطز إلى قتال التتر . فلما قتل قطز ، سار الأمراء الذين قتلوه إلى الدهليز السلطانى [بالصالحية[2]] ، واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس . فقام الأمير أقطاى المستعرب الأتابك — وكان بالدهليز — وقال للأمراء عند حضورهم : "من قتله منكم ؟" فقال الأمير بيبرس : "أنا قتلته" . فقال [الأمير أقطاى] : "يا خوند ! اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه" . فجلس [بيبرس] ، وبايعه [أقطاى] وحلف له ، ثم تلاه الأمير بلبان الرشيدى ، والأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير سيف الدين قلاون ، والأمير بِيلِيك[3] الخازندار ، ثم بقية الأمراء على طبقاتهم .

وتلقب [بيبرس] بالملك القاهر ، وذلك فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة المذكور . فقال له الأمير أقطاى الأتابك : "لا تتم السلطنة إلا بدخولك إلى قلعة الجبل" . فركب [بيبرس] لوقته ، ومعه الأمير أقطاى ، والأمير قلاون ، والأمير بيسرى ، والأمير بلبان ،

= هناك فى موضعها المناسب ، وذلك حسبما جاء فى س ، فضلا عن دلائل مادية (انظر ص ٤١٣ ، حاشية ١) ، تثبت وقوعها حيث أوردت . ولما كان (Quatremére : Op. Cit. I. I. pp. 113-116) قد اعتمد فى ترجمته على نسخة ب ، فانه انزلق إلى خطئها ، وأثبت تلك الوفيات تحت هذه السنة التى لم تنته بعد .

(١) فى س "خرج" .

(٢) أضيف مابين القوسين بعد مراجعة أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص١٤٤ ، ١٤٥ ، فى (Rec. Hist. Or. I.

(٣) فى س "بيليك" ، بغير ضبط . ويتكرر ورود هذا الاسم ، بالصفحات التالية فى س ، على ذلك الرسم الناقص أو ما يشبهه ، وسيصلح فيا يلى الى الصيغة المثبتة هنا بالمتن ، من غير تعليق . انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٦ ، ١٥٩ ، فى (Rec. Hist. Or. I. .

هذا وقد دأب (Quatremére : Op. Cit. I. I. p. 119, et seq.) على ترجمة هذا الاسم الى Bilbek)

والأمير بيليك ، ومماليكه . وتوجه إلى قلعة الجبل ، فلقيه الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة بديار مصر ، و [كان] قد خرج إلى لقاء الملك المظفر قطز . فأعلمه [بيبرس] بما جرى لخلاف له الحلى وتقدّمه إلى القلعة ، ووعد من فيها من الأمراء بمواعيد جيدة عن بيبرس ، فلم يخالف منهم أحد . وجلس [الأمير عز الدين أيدمر الحلى] على باب القلعة حتى قدم بيبرس والأمراء فى الليل ، فتسلم القلعة ليلة الاثنين تاسع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة[1] ، وحضر إليه الصاحب الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير ، وأشار عليه أن يغير اللقب بالملك القاهر ، فإنه ما تلقب به أحد فأفلح ، فاستقر لقبه الملك الظاهر .

وكانت القاهرة قد زيّنت لقدوم الملك المظفر قطز ، والناس فى (١١١٢) فرح ومسرات بقتل التتر . فلما طلع النهار نادى المنادى فى الناس : "ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس" ؛ ثم فى آخر النهار أمر بالدعاء للملك الظاهر . فغم[2] [الناس] ذلك ، وخافوا من عودة دولة المماليك البحرية[3] ، وسوء ملكتهم[4] وجورهم .

وكان قطز قد أحدث فى هذه السنة حوادث كثيرة عند حركته لقتال التتر : منها تصقيع الأملاك وتقويمها ، وأخذ زكاتها من أربابها ، وأخذ من كل واحد من الناس من جميع أهل إقليم مصر دينارا ، وأخذ من الترك الأهلية[5] ثلثها . فأبطل الملك الظاهر جميع ما أحدثه

---

(١) فى س " وملمائة " .

(٢) فى س " فغمهم " .

(٣) يستنتج من هذه الجملة أن السلطان قطز لم يكن من المماليك البحرية ، وهو استنتاج صحيح يدعمه الواقع التاريخى ، إذ ليس قطز من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب حتى تصح له هذه النسبة ، بل كان مملوكا للسلطان الملك المعز أيبك التركمانى . (انظر ص ٤١٧ ، حاشية ٢ ، وابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٩١ ا ، ب) . وعلى هذا فليست تسمية دولة سلاطين المماليك ، الذين تداولوا الحكم حتى سنة ١٣٨٢ م ، باسم دولة المماليك البحرية متفقة مع الحقائق التاريخية ، بل هى تسمية اصطلح عليها المؤرخون المحدثون من باب التعميم .

(٤) فى س " ملكتهم " .

(٥) المقصود بذلك التركات التى مات عنها أصحابها من غير المماليك . (المقريزى : المواعظ والاعتبار — بولاق — ج ١ ، ص ١٠٥) ، لا كما جاء فى ترجمة (Quatremére :Op. Cit. I. I. p. 117) بمعنى عناصر الترك المقيمة بمصر من زمن طويل (Turce domiciles).

قطز ، وكتب به توقيعا قرئ على المنابر ، فكان جملة ما أبطله ستمائة ألف دينار . فسر الناس ذلك ، وزادوا فى الزينة .

وفى يوم الاثنين صبيحة قدوم السلطان ، جلس [الملك الظاهر بيبرس] بالإيوان من القلعة ، وحلّف العساكر ، واستناب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ، واستقر الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكا [1] على عادته ، والأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى أستادارا [2] ، والأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى أمير جاندار ، والأمير حسام الدين لاجين الدرفيل والأمير سيف الدين بلبان الرومى دوادارية ، والأمير بهاء الدين أمير آخور [3] على عادته . ورتب فى الوزارة الصاحب زين الدين يعقوب ابن الزبير ، والأمير ركن الدين إياجى والأمير سيف الدين بكجرى حاجبين [4] . وكتب بإحضار البحرية البطالين من [5] البلاد ؛ وكتب إلى الملوك والنواب يخبرهم بسلطنته ، فأجابوا كلهم بالسمع والطاعة ، خلا الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق : فإنه لما استقر فى نيابة دمشق [كان قد] عمر سورها وحصنها ، فورد عليه الخبر بقتل قطز وسلطنة بيبرس فى أوائل ذى الحجة ، فامتعض لذلك وأنف من طاعة بيبرس . ودعا لنفسه وحلّف الأمراء وتلقب بالملك المجاهد ، وخُطب له يوم الجمعة سادس ذى الحجة ، فدعا الخطيب الملك الظاهر أوّلا ثم الملك المجاهد ثانيا ؛ وضُربت السكة باسمهما . ثم ارتفع المجاهد عن هذا ، وركب بشعار السلطنة والغاشية بين

(١) فى س " اتابك " . (٢) فى س " اسادار " .

(٣) تقدمت الإشارة الى ماهية الوظائف المذكورة هنا ما عدا وظيفة أمير آخور ، وهى التى يتحدث متوليها على إصطبل السلطان أو الأمير ، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل فى حكم الإسطبلات . هذا وأمير آخور مركب من لفظين ، أحدهما عربى وهو أمير ، والثانى فارسى وهو آخور ومعناه المعلف ، فيكون معنى أمير آخور أمير المعلف ، لأنه المتولى لأمر الدواب . وهناك أيضاً وظيفة السراخور — والعامة تقول سراخورى ، ويقال أيضاً سلاخورى — ، وهى مركبة من لفظين فارسيين ، أحدهما سرا ومعناه الكبير ، والثانى خور ومعناه العلف ، والمراد كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٠ — ٤٦١) . انظر أيضاً (Quatramére: Op. Cit. I. I. p. 119. N. 3).

(٤) فى س " حجابا " .

(٥) يوجد بهامش الصفحة فى س ، قبالة هذا السطر تقريباً ، عبارة مكتوبة هكذا ٣٣ . ولعل المقريزى أراد بهذا أن يشير إلى السنة التى وصل فيها إلى ذلك الحد من مؤلفه ، أى سنة ٨٣٣ هـ .

يديه ؛ وشرع فى عمارة قلعة دمشق ، وجمع لها الصناع وكبراء الدولة والناس ، وعملوا فيها حتى عملت النساء أيضا ، وكان عند الناس بذلك سرور كبير . فقدم رسول الملك الظاهر [بيبرس] بكتابه بعد يومين ، فوجد الأميرَ سنجر قد تسلطن ، فعاد إلى مصر . فكتب الملك الظاهر إليه يعنفه و يقبح فعله ، فغالطه فى الجواب .

فولى دمشق فى هذه السنة — من أوّلها إلى نصف صفر — الملك الناصر ؛ ثم ملكها هولاكو إلى أن سار إلى الشرق ، فاستناب بها كتبغا و بيدرا ، فحكم فيها التتر إلى خامس عشرى رمضان ؛ ثم صارت فى مملكة قطز إلى (١١٢ ب) أن قتل فى خامس عشرى ذى القعدة ، فملكها الملك المجاهد علم الدين سنجر الحلبى[١] بقية السنة . وكان القضاء بها أولا بيد القاضى صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن سنى الدولة ؛ ثم ولّى التترُ القاضى كمال الدين عمر ابن بندار التفليسى ، ثم بعده القاضى محيى الدين بن الزكى ، ثم القاضى صدر الدين أبو القاسم[٢] . ثم ولى القاضى صدر الدين بعلبك ، فاستقل ابن الزكى بالقضاء [بدمشق] إلى أن صرفه قطز بنجم الدين أبى بكر محمد بن صدر الدين أحمد بن سنى الدولة .

وفيها ثار بحلب العزيزية والناصرية على الملك السعيد[٣] علاء الدين بن [بدر الدين] صاحب الموصل ، وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه ، وقدّموا عليهم الأمير حسام الدين لاجين

---

(١) فى س " الحلى " ، وقد صححت إلى الحلبى لسبق ورودها بهذه الصيغة الثانية فى س (ص٣٤٨ ، سطر ١٠) ، وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٦٨) . انظر أيضاً (Quatremére Op. Cit. I. I. p. 121)

(٢) س "القسم" .

(٣) كان الملك السعيد علاء الدين هذا نائباً على حلب منذ ولاه السلطان قطز عليها ، (انظر ص ٤٣٣ ، سطر ٥) غير أنه أساء السيرة وظلم وعسف ، وجلب من الحلبيين خمسين ألف دينار ، فأغضب بذلك عامة الناس والعسكر . ثم حدث بعد ذلك بقليل أن أغار القائد بيدرا التترى على البيرة ، فجرد الملك السعيد اصده شرذمة قليلة من عسكر حلب ، ولم يأبه لرأى كبار العزيزية والناصرية الذى كانوا قد أشاروا عليه بعدم التعرض للتتر البتة . فلما انهزمت تلك الشرذمة على يد بيدرا قرب البيرة ، ازداد غيظ الأمراء العزيزية والناصرية على الملك السعيد ، وثاروا به وقبضوا عليه ، ثم حملوه إلى قلعة الشغروبكاس واعتقلوه بها ، وأقاموا مكانه الأمير حسام الدين لاجين كما بالمتن . وفى أثناء ذلك اقترب التتار من حلب ، فأفرج الثوار عن الملك السعيد ، وجلوا جميعاً عن حلب إلى حماة . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٧٠ ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٥ ، فى (Rec. Hist. Or. I. . انظر أيضاً : (D'Ohsson Op. Cit. III pp. 358-359)

العزيزى الجوكندار . [وكان الأمير حسام(١) الدين المذكور قد أخذ إذنا من الملك المظفر قطز ، رحمه الله تعالى ، وتوجّه لاستخلاص ما بقى له من الإقطاع والودائع التى كانت له من أيام الملك الناصر . فلما اتفق ما اتفق وهو بحلب أجمع الحلبيون على تقديمه ، فكتب إليه الملك المجاهد علم الدين سنجر الحلبى بأن يخطب له فى حلب وأن يكون نائبا له ، وأن يزيده على إقطاعه زيادات كثيرة] . فامتنع [لاجين] من إجابة الملك المجاهد سنجر ، [وقال : " أنا نائب لمن ملك مصر "] ، وأقام على طاعة الظاهر بيبرس ؛ فبعث إليه الظاهر بالتقليد بنيابة حلب.

وفيها ثار جماعة من السودان والركبدارية(٢) والغلمان(٣) ، وشقوا القاهرة وهم ينادون " يا آل على ا " ، وفتحوا دكاكين السيوفيين بين القصرين وأخذوا ما فيها من السلاح ، واقتحموا إصطبلات الأجناد وأخذوا منها الخيول . وكان الحامل لهم على هذا رجل يعرف بالكورانى ، أظهر الزهد وحمل بيده سبحة وسكن قبة بالجبل ، وتردد إليه الغلمان فحدثهم فى القيام على أهل الدولة ، وأقطعهم الإقطاعات وكتب لهم بها رقاعا . فلما ثاروا فى الليل ركب العسكر وأحاطوا بهم وربطوهم ، فأصبحوا مصلبين خارج باب زويلة ، وسكنت الثائرة . وخرجت السنة ولم يركب الملك الظاهر [بيبرس] بشعار السلطنة على العادة .

ومات(٤) فى هذه السنة من الأعيان الملك المعظم تورانشاه بن الناصر يوسف بن العزيز

(١) أضيف ما بين الأقواس ، بسائر هذه الفقرة ، من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٧٠ — ٧١) .

(٢) الركبدارية — أو الركابدارية — هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب الحفلة ، كموكب العيد ونحوه . وهم تابعون للركاب خاناه ، وهو بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم والكبابيش ، وله موظف موكل بحواصله يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه . (القلقشندى: صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧ ، ١٢) .

(٣) أطلق هذا اللفظ — ومفرده غلام — على من يقوم بخدمة الخيل ، وفى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧١) أن لفظ غلام "فى أصل اللغة مخصوص بالصبى الصغير والمملوك ، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم ، وكأنهم سموه بذلك لصغره فى النفوس ، وربما أطلق على غيره من رجال الطست خاناه (كذا) ونحوهم " .

(٤) الوفيات الآتية واردة على ورقة منفصلة فى س ، بين الصفحتين ١١٢ ب ، ١١٣ ا ، وهى غير واردة فى ب (١٣٧ ا) ، أو فى (Quatremère Op : Cit I. I. P. 129) . على أنه لاشك فى مناسبة وقوعها هنا ، ويستدل على ذلك بمراجعة تواريخ وفاة الملوك الأيوبيين المذكورين ضمن هذه الوفيات . انظر (Enc. Isl. Supp. Art. Aiyubids.)

شادى بن [الظاهر غازى بن[1] صلاح الدين يوسف بن أيوب] كبير البيت الأيوبى ، وناثب حلب ، عن ثمانين سنة . ومات الملك الكامل محمد بن المظفر غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى صاحب ميافارقين ، وكان عالما عادلا محسنا ، قتله التتار وحملوا رأسه إلى دمشق[2] . وتوفى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب ابن شادى ، صاحب قلعة الصبيبة وبانياس ، بعد ما أخذتا منه وسار إلى البيرة ، فأعاده التتار إلى.ولايتهما ، وحضر معهم عين جالوت ، فأسِر وضُرب عنقه . ومات الملك السعيد إيلغازى بن المنصور أرتق بن إيلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق ، صاحب ماردين بها ؛ وقام من بعده ابنه المظفر قرا أرسلان . وتوفى قاضى القضاة بدمشق صدر الدين أبو العباس أحمد بن أبى البركات يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن سنى الدولة التغلبى الدمشقى الشافعى ببعلبك ، عن ثمان وستين سنة . وتوفى شيخ الإسلام تقى الدين أبو عبد الله محمد بن أبى الحسين أحمد بن عبد الله بن عيسى اليونينى الحنبلى ، عن ست وثمانين سنة ببعلبك . وتوفى الصاحب مؤيد الدين أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم القفطى الشيبانى ، وزير حلب ، بها عن أربع وستين سنة . وتوفى الأديب مخلص الدين أبو عبد الله

(١) موضع ما بين القوسين بياض فى س ، وقد أضيفت هذه الأسماء بعد مراجعة : Lane-Poole : Saladin, Table II; Enc. Isl. Supp. Art. Aiyubids) على أنه ليس فى هذين المرجعين ما يشير إلى أن العزيز ابن الظاهر غازى كان يسمى شادى ، بل كان اسمه محمدا .

(٢) حمل التتر رأس الملك الكامل محمد هذا على رمح ، ومروا به على البلاد التى استولوا عليها بالشام مثل حلب وحماة ، وطافوا به دمشق بالمغانى والطبول ، وهناك علقوه فى شبكة بسور باب الفراديس ، حيث ظل الرأس معلقا حتى عادت دمشق إلى المسلمين ، فدفن بمشهد الحسين . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٢ ، فى Rec. Hist. Or. I.)

(٣) انضم الملك السعيد هذا إلى التتر سنة ٦٥٧هـ ، بعد أن خلصه هولاكو من سجنه بالبيرة وولاه على الصبيبة وبانياس . (انظر ص ٤٢٠ ، سطر ٨) . وقد أغرق هذا الملك بعد ذلك فى التنكر والفساد ، فأعلن بالفسق والفجور وسفك دماء المسلمين ، وحارب فى صفوف التتر فى وقعة عين جالوت ، وهناك وقع أسيرا فى يد المظفر قطز فأمر بضرب عنقه ، جزاء على ما كان قد اعتمده من السفك والفتن . أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، فى Rec. Hist. Or. I) .

المبارك يحيى بن المبارك بن فضيل الغسانى الحمصى ، بهـا فى الجفلة . و [توفى] الأديب جلال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن محمد بن عبد الله الصفار المـارديني الشاعر ، بها قتيلا عن ثلاث وثمانين سنة . وتوفى الشيخ أبو بكر بن قوام بن على بن قوام البالسى الصالحى الزاهد ، ببلاد حلب عن أربع وسبعين سنة .

* * *

سنة تسع وخمسين وستمائة . فيها عظم الفار فى أرض حَوْرَان[1] أيام البيادر[2] حتى أكل معظم الغلال ، فيقال إنه أكل ثلاثمائة ألف غرارة قمح .

وفيهـا اجتمع من التتار ستة آلاف فارس ، وقاموا بحمص[3] . فبرز إليهم الملك الأشرف موسى شيركوه صاحب حمص ، والملك المنصور صاحب حماة ، واجتمع إليهما قدر ألف وأربعمائة فارس ؛ وقدم زامل بن على أمير العرب فى عدة من العربان . وواقعوا التتر يوم الجمعة خامس المحرم على الرَّسْتَن ، فأفنوهم قتلا وأسرا ، ووردت البشارة إلى مصر بذلك . وكانت التتار فى ستة آلاف ، والمسلمون ألف وأربعمائة ؛ وحُملت رءوس القتلى إلى دمشق . وفيها اشتد الغلاء بدمشق .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى كورة واسعة من أعمال دمشق ، وبها قرى كثيرة ومزارع ؛ وقد صارت حوران فى زمن سلاطين المماليك نيابة قائمة بذاتها وسميت باسم القبلية ، وكان مقر نائبها بلدة أذرعات . هذا وسلسلة جبال حوران هى جبل الدروز الحالى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ — ٣٥٨ ، Enc. Isl. Art. Hawran) .

(٢) جمع بيدر ، وهو الموضع الذى تدرس فيه الغلال . (محيط المحيط) .

(٣) كان معظم ذلك الجيش التترى مكونا من فلول الـكتائب التى بقيت بعد وقعة عين جالوت ، وقد جمعها القائد بيدرا من أطراف الشام والعراق ، وذلك بعد ذيوع خبر وفاة السلطان قطز . وزحف بيدرا بهذا الجيش أولا على البيرة ، وهزم الفئة القليلة التى أرسلها لصده الملك السعيد علاء الدين نائب حلب . وكانت تلك الهزيمة من أسباب ثورة المماليك العزيزية والناصرية على الملك السعيد . وتقدم التتر بعد ذلك إلى حلب واحتلوها ، بعد أن بادر بالجلاء عنها إلى حماة نائبها الجديد حسام الدين لاجين العزيزى (انظر ص ٤٣٩ ، حاشية ٣) . ثم سار التتر إلى حماة ، فتقهقر عنها إلى حمص صاحبها الملك المنصور محمد ، والأمير حسام الدين لاجين العزيزى أيضا ، وقصد التتر بعد ذلك حمص ، والتقوا قبل وصولهم إليها بجيوش صاحب حمص وحلفائه كما بالمتن . (D'Ohsson : Op. Cit. III. pp. 358 et seq.) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى فى نصف الطريق بين حماة وحمص . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٧٨) .

وفى يوم الاثنين سابع صفر ركب الملك الظاهر [بيبرس] من قلعة الجبل بشعار السلطنة(١) إلى خارج القاهرة ، ودخل من باب النصر . فترجل(٢) الأمراء والعسكر ومشوا بين يديه إلى

(١) المقصود بشعار السلطنة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات ، التى كان السلطان يظهر بها فى المواكب الحفلة ، مثل موكب السلطنة وموكب الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل وموكب صلاة العيدين ، ونحوها . ومن هذه الملابس والأدوات ، زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر ، وذلك حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧ — ٨) ، "الغاشية وهى غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه [أى السلطان] عند الركوب فى المواكب الحفلة ، كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها [أحد] الركاب دارية رافعاً لها على يديه يلفتها يميناً وشمالا ، وهى من خواص هذه المملكة . ومنها المظلة ويعبر عنها بالجتر ... وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، على أعلاها طائر من فضة (ص ٨) مطلية بالذهب ، تحمل على رأسه فى العيدين ، وهى من بقايا الدولة الفاطمية ... ومنها الرقبة وهى رقبة من أطلس أصفر مزركشة بالذهب ، بحيث لا يرى الأطلس لتراكم الذهب عليها ، [و] تجعل على رقبة الفرس فى العيدين والميادين ، من تحت إذنى الفرس إلى نهاية عرفه ، وهى من خواص هذه المملكة . ومنها الجفتة وهما اثنان من أوشاقية إصطبله قريبان فى السن ، عليهما قباءان أصفران من حرير بطراز من زركش ، وعلى رأسيهما قبعتان من زركش ، وتحتهما فرسان أشهبان برقبتين وعدة نظير ما السلطان راكب به ، كأنهما معدان لأن يركبهما ، [و] يركبان أمامه فى أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة فى الميدان الكبير ونحو ذلك ، وهما من خواص هذه المملكة . ومنها الأعلام وهى عدة رايات ، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه وتسمى العصابة ، وراية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش ، ورايات صفر صغار تسمى السناجق ... ".

ويلاحظ مما تقدم أنه كان لكل موكب ترتيب معين ، وأن بعض ما كان يستخدم من الأدوات فى العيدين غير موجود فى بعض المواكب الأخرى . انظر القلقشندى (نفس المرجع والجزء ، ص ٤٤ — ٤٩). هذا ويوجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٠٩) وصف لموكب السلطنة ، وهو إن كان غير شامل لمواكب السلطنة فى سائر الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر ، فإنه يعطى فكرة لما كان عليه ترتيب تلك المواكب فى زمن معين ، ونصه : " وكانت العادة أيضاً أنه إذا ولى أحد المملكة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، فإنه عند ولايته يحضر الأمراء إلى داره بالقلعة ، وتفاض عليه الخلعة الخليفية السوداء ، ومن تحتها فرجية خضراء ، وعمامة سوداء مدورة . ويقلد بالسيف العربى المذهب ، ويركب فرس النوبة ، ويسير الأمراء بين يديه والغاشية قدامه ، والجاويشية تصيح والشبابة السلطانية ينفخ بها والطبردارية حواليه ، إلى أن يعبر من باب النحاس إلى درج ... الإيوان [المعروف بدار العدل] . فينزل عن الفرس ويصعد إلى التخت فيجلس عليه ، ويقبل الأمراء الأرض بين يديه ، ثم يتقدمون إليه ويقبلون يده على قدر رتبهم ، ثم [يؤدى ذلك] مقدمو الحلقة . فإذا فرغوا حضر القضاة والخليفة ، فتفاض التشاريف على الخليفة ويجلس مع السلطان على التخت ، ويقلد السلطان المملكة بحضور القضاة والأمراء ، ويشهد عليه بذلك ، ثم ينصرف ومعه القضاة . فيمد السماط للأمراء ، فإذا انقضى أكلهم قام السلطان ودخل المقصورة ، وانصرف الأمراء" .

(٢) فى س "فنزحل" .

باب زويلة ، (١١٣ ا) ثم ركبوا إلى القلعة ، وقد زينت القاهره ، ونثرت الدنانير والدراهم على السلطان ، وخلع على الأمراء والمقدمين وسائر أرباب الدولة ، وكان هذا أول ركوبه ، ومن حينئذ تابع الركوب إلى اللعب بالأكرة[1] . وكتب إلى ملوك الغرب واليمن والشام والثغور بقيامه فى سلطنة مصر والشام .

وفيها بعث [السلطان] الملك الظاهر [بيبرس] الأمير جمال الدين المحمدى إلى دمشق ، ومعه مائة ألف درهم وحوائص وخلع بألفى دينار عينا ، ليستميل الناس على المجاهد سنجر . فقدم دمشق ثالث صفر وعَمِل ما أمر به ، فأجابه الأمراء القيمرية وخرجوا عن دمشق : ومعهم الأمير علاء الدين إيدكين البندقدار[2] الصالحى ، والأمير بهاء الدين بُغْدِى[3] الأشرفى ، والأمير قرا سنقر الوزيرى ، وعدّة من الأمراء . ونادوا باسم الملك الظاهر بيبرس ، فارتجت دمشق .

وبعث المجاهد [سنجر] إليهم بعسكر فانهزم ، فخرج بنفسه وحمل بأصحابه ، ففروا عنه ثم عادوا عليه ، فخرج وقتل عدّة من جماعته ، والتجأ [هو] إلى القلعة فامتنع بها فى يوم

(١) الأكرة لغة فى الكرة (محيط المحيط) ، والمراد بلعب الأكرة اللعبة المعروفة الآن باسم (Polo) ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك فى ص ٤٢٥ ، حاشية ١ . هذا ويوجد فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٧) وصف لهيئة ركوب السلطان للعب الكرة بالميدان الأكبر زمن الأيوبيين والمماليك بمصر ، ونصه : "عادته أن يركب لذلك بعد وفاء النيل ثلاث مرات متوالية فى كل سبت ، [و] ينزل من قصره أول النهار من باب الإصطبل وهو راكب على الهيئة المذكورة فى العيد (انظر نفس المرجع والجزء ، ص ٤٦) ، ما عدا الجتر فإنه لا يحمل على رأسه . وتحمل الغاشية أمامه فى أول الطريق وآخره ، ويصير إلى الميدان فينزل فى قصوره ، وينزل الأمراء منازلهم على قدر طبقاتهم . ثم يركب للعب الكرة بعد صلاة الظهر والأمراء معه ، ثم ينزل فيستريح ، ويستمر الأمراء فى لعب الكرة إلى أذان العصر ويركب على الهيئة التى كان عليها فى أول النهار ، ويطلع إلى قصره" . أما الميدان الأكبر فهو الميدان السلطانى ، الذى بناه الملك الصالح نجم الدين أيوب بخط باب اللوق . (انظر ص ٣٤١ ، سطر ١٧ ؛ القلقشندى : نفس المرجع : ج ٣ ، ص ٣٧٨) .

(٢) فى س "البندقدارى" .

(٣) فى س "بغدى" ، وبغير ضبط . انظر (Zettersteen: Op. Cit. P. 24). ويرد هذا الاسم كثيراً بالصفحات التالية فى س ، على هذا الرسم الناقص أو ما يشبهه ، وسيصلح إلى الصيغة المثبوتة هنا بغير تعليق .

السبت حادى عشر صفر . فدخل الأمير إيدكين البندقدار — أستاذ[١] الملك الظاهر — إلى المدينة وملكها ، وحلّف الناس للملك الظاهر وقام بأمرها . وخاف المجاهد على نفسه ففر من قلعة دمشق إلى بعلبك ، فأرسل إليه الأمير إيدكين وأحضره محتفظا به . فلما بلغ الملك الظاهر [بيبرس] ذلك قرر الأمير علاء الدين طيبرس الحاج الوزيرى فى القلعة ، وجعل إليه التحدث فى الأموال ، واستدعى الأمير سنجر الحلبى ، وأقام إيدكين مدّة شهر فى نيابة دمشق ، ثم صرفه عنها بالأمير طيبرس الوزيرى . وسار الأمير سنجر مع الأمير بدر الدين بن رحال[٢] ، وأحضر فى سادس عشر صفر وهو مقيد إلى مصر . فندب الملك الظاهر إلى لقائه الأمير بيسرى ، وأدخله ليلا من باب القرافة على خفية واعتقله بالقلعة ، من غير أن يعلم به أحد من الناس .

وفيها جهز الملك الظاهر [بيبرس] الأموال والأصناف صحبة الأمير علم الدين اليغمورى لعمارة الحرم النبوى بالمدينة ؛ و بعث الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس ، وكانت قد وَهَت . وأخرج ما كان فى إقطاعات الأمراء من أوقاف الخليل[٣] عليه السلام[٤] ، ووقف عليه قرية تعرف باذنا[٥] . ورسم للأمير جمال الدين بن يغمور بعمارة ما تهدم من قلعة الروضة ، فرمّ ما فسد منها ورتب بها الجندارية وأعاد لها حرمتها ، وفرق أبراجها على الأمراء : وهم الأمير قلاون ، والأمير عزالدين الحلى ، والأمير عزالدين أوغان ، والأمير بيسرى ،

---

(١) كذا فى س ، وقد ورد فى ب (٣٧ ا ب)"اسادار" ، وترجمه فى (Quatremère : Op.Cit. I. I. p. 139) إلى (Majordome) .

(٢) كذا فى س بغير ضبط ، وهو مترجم فى (Ibid : Op. Cit. I. I. p. 139) إلى (Radjal) ، اعتمادا على الرسم الوارد فى ب (١٣٧ ب) .

(٣) الخليل اسم لبلدة بفلسطين بها قبر سيدنا الخليل إبراهيم ، واسمها الأصل حبرون ، وهى بقرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٦٨) .

(٤) فوق هذه الكلمة بالمتن فى س ، إشارة إلى هامش ذهب كل ألفاظه سوى الأخير منها ، وهو لفظ "وقف" .

(٥) فى س "باذنا" بغير ضبط ، وليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى مايدل على قرية بفلسطين بهذا الاسم .

وغيرهم — لكل أمير منهم برج . وأمرهم أن تكون إصطبلاتهم و بيوتهم فيها ، وسلمهم مفاتيح القلعة . وأمر بعمارة القناطر بجسر شبرامنت[١] من الجيزية ، لكثرة ما كان يشرق من الأراضى فى كل سنة (١١٣ ب) ، فانتفعت البلاد بهذه القناطر . وأمر بعمارة أسوار الإسكندرية ، ورتب لذلك جملة من المال فى كل شهر . وبنى بثغر رشيد مرقبا لكشف البحر . وأمر بردم فم بحر دمياط ، فخرج جماعة الحجارين وألقوا فيه القَرَابِيص[٢] ، حتى يضيق وتمتنع السفن الكبار من دخوله ، واستمر ذلك إلى اليوم .

وأمر [السلطان] بإخراج الأمير سيف الدين الرشيدى إلى بحر أشموم ، فتوجه إليه وأحضر الولاة وحفر هذا البحر ، وأزال منه ما ترّبى به من الأطيان ، وغرّق عدة مراكب حتى ردّ إليه الماء . وأمر بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام : وهى قلعة دمشق ، وقلعة الصلت ، وقلعة عجلون ، وقلعة صرخد ، وقلعة بصرى ، وقلعة بعلبك ، وقلعة شيزر ، وقلعة الصبيبة ، وقلعة شُمَيْمِيْش[٣] ، وقلعة حمص . فعمرت كلها ونظفت خنادقها ، ووسعت أبراجها وشحنت بالعدد ، وجرد إليها المماليك والأجناد ، وخزنت بها الغلات والأزواد . وحملت غلال كثيرة إلى دمشق ، وفرقت فى البلاد لتصير تقاوى الفلاحين . ورتب [السلطان] بدمشق دار العدل ؛ وبنى مشهدا فى عين جالوت عرف بمشهد النصر .

ورتب [السلطان] البريد[٤] فى سائر الطرقات ، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق فى أربعة أيام ويعود فى مثلها . فصارت أخبار الممالك ترد إليه فى كل جمعة مرتين ، ويتحكم فى سائر الممالك من العزل والولاية وهو مقيم بقلعة الجبل ، وأنفق فى ذلك

---

(١) فى س "شيرمنت" بغير ضبط . انظر (Quatremère: Op. Cit. I. I. p. 140. N. 9.) . وهى قرية من مديرية الجيزة ، تعرف أيضا باسم شبرامنت وبنى يوسف ، وتقع فى شمالى بوصير ، وفى قبليها جسر ممتد من النيل إلى الجبل . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٢ ، ص ١٣٤ — ١٣٥) .

(٢) القرابيص من الحجارة ، ومفردها قرباص ، ويظهر أن أصل اللفظ يونانى. (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى إحدى بلاد كورة حمص . (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 42).

(٤) قبالة هذا اللفظ بهامش الصفحة فى س كلمة "البريد" ، بخط يشبه خط المتن .

مالا عظيما حتى تمّ ترتيبه . ونظر فى أمر الشوانى الحربية ، وكان قد أهمل أمر الأسطول بمصر وأخذ الأمراء رجاله واستعملوهم فى الحراريق وغيرها ، فأعادهم إلى ما كانوا عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب . وأنشأ عدة شوانى بثغرى دمياط والإسكندرية ، ونزل بنفسه إلى [دار] الصناعة ورتب ما يجب ترتيبه ، وتكامل عنده ببرّ مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد ونحوها .

فلما كان ذات يوم حضر إليه رجل من أجناد الأمير الصيقلى (١) ، وأخبره أن أستاذه فرق مالا على جماعة من المعزية وقرر معهم قتل السلطان : منهم الأمير علم الدين الغتمى ، والأمير بهادر المعزى ، والأمير شجاع الدين بكتوت ؛ فقبض على الجميع فى ثامن ربيع الأول .

[و] فيها قُبض على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ، وعوق فى قاعة الوزارة ؛ فشفع فيه الأمير سيف الدين أنس ، فخلع عليه فى يومه . ولم يقم سوى أيام وقبض السلطان على الأمير أنس ، وقبض على الصاحب زين الدين [ابن الزبير] فى صبيحة مسكه . ثم طلب قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ليلى الوزارة فأبى ، وأقام الأمير فارس الدين أتابك يراوده زمانا وهو لا يقبل ، ثم نزل إلى داره . فطلب [السلطان] بهاء الدين على بن سديد الدين محمد بن سليم بن حنا ، فولى الوزارة ، (١١٤ ا) وفُوّض إليه تدبير المملكة وأمور الدولة بأسرها ، وخلع عليه . فركب معه جميع الأعيان والأكابر ، وعدّة من الأمراء منهم الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار .

وورد الخبر من عكا أن سبع جزائر من جزائر الفرنج فى البحر خسف بها وبأهلها ، بعد ما نزل عليهم دم عشرة أيام ، فهلك بها خلق كثير ، وصار أهل عكا فى خوف واستغفار وبكاء .

وجهز السلطان الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى فى جماعة ، ولم يعرف بقصده فى ذلك أحد ممن جرده ولا غيرهم ، فساروا إلى الشوبك وتسلموها من نواب الملك المغيث فتح الدين عمر فى سادس عشرى ربيع الآخر . واستقر فى نيابتها الأمير سيف الدين بلبان المختصى (٢)

(١) فى س "الصقلى" ، وقد ترجم (Quatremère : Op. cit I. p. 144) هذا الاسم إلى (Saikal).

(٢) كذا فى س بغير ضبط ، وقد ترجم (Ibid : Op. Cit. I. I. p. 145) هذا اللفظ إلى (Mokhtassi).

واستخدم فيها النقباء والجنادرة ، وأفرد بخاص القلعة ما كان فى الأيام الصالحية . وفيه قبض على الأمير بهاء الدين بغدى[1] ، وحبس بقلعة الجبل حتى مات .

وفى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى فُوِّض قضاء القضاء القضاة بديار مصر للقاضى تاج الدين عبدالوهاب ابن القاضى الأعز خلف ، المعروف بابن بنت الأعز ، عوضا عن بدر الدين السنجارى ، بعد عدّة شروط اشترطها على السلطان أغلظ فيها . وقصد [القاضى تاج الدين] بكثرة الشروط أن يعفى من ولاية القضاء ، فأجاب السلطان إلى قبول ما اشترط عليه رغبة فيه وثقة به ، وصلى بالسلطان صلاة الظهر وحكم بعد ذلك . وقبض السلطان على البدر السنجارى وعوقه عشرة أيام ، ثم أفرج عنه .

وفيها سار الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله العباسى — الذى يقال له الزراتيتى[2] لقب لقبه به العامة — ، مع جماعة من العرب بنى مهنا ، يريد دمشق . وكان قد فرّ من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله ، ونزل عند عرب العراق فى هذه المدة ، ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر [بيبرس] بمصر . فوردت مكاتبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب دمشق : "بأنه ورد إلى الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر ابن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر ، وهو عم المستعصم وأخو المستنصر ، ومعه جماعة من عرب خفاجة فى قريب الخمسين فارسا ، وأن الأمير سيف الدين قلج البغدادى عَرف أمراء العرب المذكورين ، وقال بهؤلاء يحصل المقصود" . فكتب [السلطان] إلى النوّاب بالقيام فى خدمته وتعظيم حرمته ، وأن يسير معه حجاب من دمشق ، (١١٤ ب) فسار من دمشق بأوفر حرمة إلى جهة مصر . فخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع شهر رجب

(١) كذا فى س ، وقد صحح (Blochet) ، ناشر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص٧٩) ، هذا الاسم إلى يغدى ، وترجمه إلى (Yaghoudaï) . انظر ص ٤٤٤ ، حاشية ٣ .

(٢) كذا فى س بغير ضبط ، وقد ترجم (Quatremère: Op. Cit. I. I. p. 146) هذا اللفظ إلى (Zerâtini) . ويوجد أيضا فى ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٧٧٢) شخص اسمه شمس الدين محمد الزراتيتى ، فلعل هذه النسبة راجعة إلى بلد بهذا الاسم .

إلى لقائه ، ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاء تاج الدين بن بنت الأعز ، وسائر الأمراء وجميع العسكر ، وجمهور أعيان القاهرة ومصر ، ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين . وخرجت اليهود بالتوراة ، والنصارى بالإنجيل . فسار [السلطان] به إلى باب النصر ، ودخل إلى القاهرة وقد لبس الشعار العباسى ؛ وخرج الناس إلى رؤيته ، وكان من أعظم أيام القاهرة . وشق القصبة إلى باب زويلة ، وصعد قلعة الجبل وهو راكب ؛ فأنزل فى مكان جليل قد هيئ له بها ، وبالغ السلطان فى إكرامه وإقامة ناموسه .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره حضر قاضى القضاة ونواب الحكم ، وعلماء البلد وفقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية ، والأمراء ومقدمو العساكر ، والتجار ووجوه الناس ؛ وحضر [أيضا] الشيخ عز الدين بن عبد السلام[١] . فمثلوا كلهم بحضرة الأمير أحمد ، وجلس السلطان متأدبا معه بغير كرسى[٢] ولا طراحة[٣] ولا مسند . وشهد العربان وخادم من البغاددة بأن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين ابن الإمام الناصر أمير المؤمنين ، وشهد بالاستفاضة القاضى جمال الدين يحيى بن عبد المنعم بن حسن المعروف بالجمال يحيى نائب الحكم بمصر ، والفقيه علم الدين محمد بن الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق ، والقاضى صدر الدين موهوب الجزرى ، ونجيب[٤] الدين الحرانى ، وسديد الدين عثمان بن

---

(١) فوق هذا اللفظ ، بين سطور المتن ، ثلاثة ألفاظ بخط دقيق تعذرت قراءتها .

(٢) يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٦ — ٧) وصف لأنواع المقاعد التى يجلس عليها السلطان فى أوقات مختلفة ، زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر ، ونصه : "سرير الملك ، ويقال له تخت الملك ... وهو منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذى يجلس فيه ، وهو على هيئة منابر (ص٧) الجوامع إلا أنه مستند إلى الحائط ، وهذا المنبر يجلس عليه السلطان فى يوم مهم كقدوم رسل عليه ونحو ذلك ، وفى سائر الأيام يجلس على كرسى من خشب مغشى بالحرير ، إذا أرخى رجليه كادت أن تلحق الأرض . وفى داخل قصوره يجلس على كرسى صغير من حديد ، يحمل معه إلى حيث يجلس" .

(٣) الطراحة وجمعها طراريح مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar. ؛ ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٧١ أ) .

(٤) فى س "محب" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 148) ، حيث ترجم هذا الاسم إلى (Mouhibb) .

عبد الكريم بن أحمد بن خليفة ، [و] أبو عمرو بن أبى محمد الصنهاجى التَّزْمَنْتِى(١) ، أنه أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر . فقبل قاضى القضاة تاج الدين شهادات القوم ، وأسجل على نفسه بالثبوت ، وهو قائم على قدميه فى ذلك المحفل العظيم حتى تم الإسجال والحكم .

فلما تم ذلك كان أول من بايعه القاضى تاج الدين ، ثم بعده قام السلطان و بايع أميرَ المؤمنين المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ثم الأمراء وكبار الدولة(٢) . فلما تمت البيعة قلد الإمامُ المستنصر [بالله] السلطانَ الملك الظاهر البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . ثم قام الناس فبايعوا الخليفة المستنصر [بالله] على اختلاف طبقاتهم . وكتب فى الوقت إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة على من قبلهم للخليفة المستنصر بالله أبى القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، وأن يُدعى له (١١١٠) على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده ، [وأن] تنقش السكة باسمهما .

---

(١) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى قرية تَزمنت التابعة لعمل البهنسى بصعيد مصر ، وتقع على غربى النيل . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٤٨) .

(٢) يفهم من عبارة أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٧ ، فى Rec. Hist. Or. I.) فى هذا الصدد ، أنه كان شاكا فى نسبة الخليفة الجديد إلى العباسيين ، وهذا نصها : "وفى هذه السنة فى رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، وزعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله ابن الإمام الناصر ، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر . فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلسا حضر فيه جماعة من الأكابر ... ، فشهد أولئك العرب أن الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد بن الإمام الناصر ، فيكون عم المستعصم . وأقام القاضى [ابن بنت الأعز] جماعة من الشهود ... ، فأثبت ... نسب أحمد المذكور ، ولقب المستنصر بالله أبا القاسم ... وبايعه الملك والناس بالخلافة . واهتم الملك الظاهر بأمره ، وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة ، واستخدم له عسكرا ، وغرم على تجهيزه جملا طائلة ، قيل إن مقدار ما غرمه عليه كان ألف ألف دينار ... وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود ... وتوجها إلى دمشق ..." . انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٠٥) ، حيث سمى هذا الخليفة باسم "المستنصر بالله الأسود".

فلما كان يوم الجمعة سابع عشره خطب الخليفة المستنصر بالله فى جامع القلعة ، فاستفتح بقراءة صدر سورة الأنعام ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وترضى عن الصحابة وذكر شرف بنى العباس ، ودعا للملك الظاهر ، وقضى الخطبة ؛ فاستحسن الناس ذلك منه ، واهتم السلطان بأمره ، ونثر عليه جملا مستكثرة من الذهب والفضة . فلما شرع فى الخطبة تلكأ فيها ، ثم نزل بعد تمامها وصلى بالناس الجمعة[(١)] .

وكان منصب الخلافة شاغرا ثلاث سنين ونصف[(٢)] [سنة] ، منذ قتل الخليفة المستعصم فى صفر سنة ست وخمسين ، فكان الخليفة المستنصر بالله هو الثامن والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، وبينه وبين العباس أربعة وعشرون أبا . وكان أسمر اللون وسيما ، شديد القوى عالى الهمة ، له شجاعة و إقدام . واتفق له ما لم يتفق لغيره ، وهو أنه لقب بالمستنصر لقب أخيه بانى المدرسة [المستنصرية] ببغداد ، ولم يقع لغيره أنّ خليفة لقب بلقب أخيه سواه .

وفى يوم الأحد تاسع عشره ركب الخليفة والسلطان من قلعة الجبل إلى مدينة مصر ، وركبا فى الحراريق وسارا فى النيل إلى قلعة الجزيرة ، وجلسا فيها ، وأحضرت الشوانى الحربية ، فلعبت فى النيل على هيئة محاربتها العدو فى البحر . ثم ركبا إلى البر وسارا إلى قلعة الجبل ، وقد خرج الناس لمشاهدتهما ، فكان من الأيام المشهودة[(٣)] .

وفيه قلد السلطان الأمير علم الدين سنجر الحلبى — [الذى ثار[(٤)] قبلا] بدمشق — نيابة حلب ، وجهز معه أمراء لكل منهم وظيفة : وهم الأمير شرف الدين قيران الفخرى

---

(١) الفقرة التالية واردة بهامش الصفحة فى س ، وقد أشار المقريزى إلى مكانها المناسب من المتن ، على أنها غير واردة فى ب (١٤٠ أ) ، أو فى ترجمة (Quatremère: Op. Cit. I. I. p. 149) .

(٢) فى س "ونصفا" .

(٣) الفقرة التالية ، حتى نهاية سطر ٤ بالصفحة التالية ، غير واردة فى ترجمة (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 149) ، على أنها موجودة فى ب (١٤٠ ا) .

(٤) فى س "علم الدين سنجر الحلبى الثائر بدمشق" ، وكان السلطان بيبرس قد عفا عن هذا الأمير قبل ذلك بمدة . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٧٨) .

أستادار ، والأمير بدر الدين جماق(١) أمير جاندار ، والأمير علاء الدين أيدكين الشهابى شاد الدواوين . وسار [الأمير علم الدين] من القاهرة كما تسافر الملوك ، فدخل حلب فى ثالث شعبان، فحضر إليه جماعة من العزيزية والناصرية وسألوا الأمان — وكانت العزيزية والناصرية قد اختلفوا وخرجوا إلى الساحل ، فأقطعهم السلطان إقطاعات ، وأحضر منهم عدة إلى مصر .

وفى يوم الاثنين رابع شعبان ركب السلطان إلى خيمة ضربت له فى البستان الكبير خارج القاهرة ، ومعه أهل الدولة . وحُملت الخلع صحبة الأمير مظهر الدين وشاح الخفاجى ، وخادم الخليفة المستنصر بالله . فدخل السلطان إلى خيمة أخرى ، وأفيضت عليه الخلع الخليفتية وخَرَج بها : وهى عمامة سوداء مذهبة مزركشة ، ودُرّاعة(٢) بنفسجية اللون ، وطوق ذهب ، وقيد من ذهب عُمل فى رجليه(٣) ، وعدة سيوف تقلد منها واحدا — وحُملت البقية خلفه ، ولواءان منشوران على رأسه ، وسهمان كبيران وترس . فقُدّم له فرس أشهب ، فى عنقه مِشَدّة(٤) سوداء وعليه كُنْبُوش(٥) أسود . وطلب الأمراء واحداً بعد واحد وخلع عليهم ؛ وخلع على

---

(١) هكذا فى س .

(٢) الدراعة جبة مشقوقة المقدم ، ولا تكون إلا من صوف ، والجمع دراريع . (محيط المحيط) . والدراعة أيضا صدرية تلبسها البنات . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) فى س "وعمل منه من ذهب فى رجليه" ، وقد غير ترتيب الجملة للانسجام مع أسلوب بقية العبارة.

(٤) ترجم (Dozy : Supp. Dict. Ar.) هذا اللفظ إلى (écharpe au cou d'un cheval) ، وعلى هذا تكون المشدة مرادفة للفظ "الرقبة" المذكورة فى القلقشندى (صبح الأعشى : ج ٤ ، ص٨) ، فى باب رسوم الملك وآلاته . (انظر ص ٤٤٣ ، حاشية ١) . هذا وفى محيط المحيط أن الشد عند العامة شال من الحرير يعتم به أو يتمنطق ، والمشد نطاق تشد المرأة به نفسها . أما كون المشدة هنا — أو الرقبة — سوداء فراجع إلى رغبة السلطان بيبرس فى إحياء شعار العباسيين وهو السواد .

(٥) فى س "كنفوش" بغير ضبط ، ولعل هذا هجاء ثان لكلمة كنبوش ، وهى البرذعة تجعل تحت سرج الفرس (محيط المحيط) . وإنما يقابل هذه الكلمة فى (Dozy : Supp. Dict.Ar.) اللفظ الفرنسى (housse) ، الذى من معانيه غاشية الفرس ، وقد تقدم شرحها . (انظر ص ٢١٤ ، حاشية ٥) . هذا والكنبوش — بفتح الكاف — اللثام الذى يستعمله أهل بلاد المغرب لتغطية الوجه من الذقن إلى الخيشوم ، اتقاء لبرودة هواء الصباح ورطوبته . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

قاضى القضاة تاج الدين ، وعلى الصاحب بهاء الدين ، وعلى فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء . ونُصب منبر ، فصعد عليه ابن لقمان بعد ما جلل بثوب حرير أطلس أصفر ، وقرأ تقليد الخليفة للسلطان ، وهو من إنشائه ، ونصه بعد البسملة : " الحمد لله الذى (١١٠ ب) اصطفى الإسلام بملابس الشرف ، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف ، وشيّد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف ، وقيّض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف . أحمده على نعمه التى رتعت الأعين منها فى الروض الأُنُف ، وألطافه التى وقف الشكر عليها فليس له عنها منصرف . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة توجب من المخاوف أمنا ، وتسهل من الأمور ما كان حزنا . وأشهد أن محمدا عبده الذى جبر من الدين وهنا ، ورسوله الذى أظهر من المكارم فنونا لا فنا ، صلّى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لا تفنى ، وأصحابه الذين أحسنوا فى الدنيا فاستحقوا الزيادة من الحسنى " .

" وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا فى تسطير مناقبه وبره ، من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدّما ، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان مُنجِدا ومُتْهِما ، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما ، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام[(١)] العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان

(١) تقدمت الإشارة (ص ٣٥٧ ، حاشية ١) إلى بعض ما جاء فى الألقاب وأنواعها بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ٤٩١ ، وما بعدها ؛ ج ٦ ، ص ٥ ، وما بعدها) ، ومنه يتضح أن لفظ المقام كان من الألقاب الخاصة بالملوك والسلاطين ، وأنه كان يستعمل فى المكاتبات السلطانية للكناية عن السلطان تعظيما له عن التفوه باسمه ، فيقال المقام الأشرف أو المقام الشريف العالى أو المقام العالى ؛ وكان لفظ العالى فقط من الألقاب التى يشترك فيها أيضا أرباب السيوف والأقلام . أما لفظ المولوى فنسبة للمبالغة من كلمة مولى ، ويظهر أنه كان من الألقاب المتجنبة ، لأن المولى لفظ مشترك يقع فى اللغة على السيد وعلى المملوك والعتيق . أما السلطانى فهو السلطان ، وقد أدخلت عليه ياء النسب للمبالغة ، وكذلك الحال فى لفظ الملكى أيضا ، على أن لفظ الملكى كان من الألقاب المشتركة بين الملك نفسه وأتباعه المنسوبين إليه ، من الأمراء والوزراء ومن فى معناهم .

العزيز[1] النبوى الإمامى[2] المستنصرى أعز الله سلطانه ، تنويها بشريف قدره ، واعترافا بصنعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية ، بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت[3] ما كان من محاسن وإحسان ، وأعتب دهرها المسىء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب . فأعاده لها سلما بعد أن كان عليها حربا ، وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها واسعا رحبا ؛ ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا ، وأظهر من الولاء رغبة فى ثواب الله ما لا يخفى ؛ وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمرا لو رامه غيره لامتنع عليه ، ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل الوصول إليه . لكن الله تعالى ادخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه ، ويخفف بها يوم القيامة حسابه ، والسعيد من خفف من حسابه . فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها فى صحيفة صنعه ، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه بعد أن (١١١٦ ا) حصل الإياس من جمعه " .

"وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لا تسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ؛ وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا فى الأدنى " .

"فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا ، وخلص نفسك من التبعات اليوم ففى غد تكون مسئولا لا سائلا ، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلا ،

---

(١) كان هذا اللفظ من ألقاب ديوان الخلافة خاصة ، فيقال الديوان العزيز كما بالمتن هنا ، وقد جرى المصطلح على عدم إضافة ياء النسب إلى هذا اللفظ . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٢٠) .

(٢) كان لفظ الإمام من ألقاب الخلفاء أنفسهم ، على أنه كان يقع أيضا فى ألقاب أكابر العلماء ، وقد تضاف إليه ياء النسبة أحيانا للمبالغة . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٩) .

(٣) فى س "واذهب" .

وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا . فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة ، وقدّم لنفسه زاد التقوى فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة . وابسط يدك بالإحسان والعدل ، فقد أمر الله بالعدل وحثّ على الإحسان ، وكرّر ذكره فى مواضع من القرآن ، وكفّر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما ، وجعل يوما واحدا منها كعبادة العابد ستين عاما . وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنيت ثماره من أفنان ، ورجع الأمر به بعد بُعد تداعى أركانه وهو مشيد الأركان ، وتحصن به من حوادث زمانه والسعيد من تحصن من حوادث الزمان ، وكانت أيامه فى الأيام أبهى من الأعياد ، وأحسن فى العيون من الغرر فى أوجه الجياد ، وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد" .

"وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نوّاب وحكام . وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام ، فإذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقّب عليه تنقيبا ، واجعل عليه فى تصرفاته رقيبا . وسل عن أحواله ففى يوم القيامة تكون عنه مسئولا وبما أجرم مطلوبا ، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا . وأمُرْهم بالأناة فى الأمور والرفق ، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق ، وأن يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق ، وألا يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق ؛ وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخوانا ، وأن يوسعوهم برا وإحسانا ، وألا يستحلوا حرماتهم (١١٦ ب) إذا استحل الزمان لهم حرمانا ، فالمسلم أخو المسلم ولو كان أميرا عليه وسلطانا . والسعيد من نسج ولاته فى الخير على منواله ، واستنُّوا بسنته فى تصرفاته وأحواله ، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله" .

"ومما تؤمرون به أن يُمحَى ما أحدث من سيء السنن ؛ وجدّد من المظالم التى هى من أعظم المحن ، وأن يُشترى بإبطالها المحامد فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن . ومهما جبى منها[1] من الأموال فإنما هى باقية فى الذمم حاصلة ، وأجياد الخزائن وإن أضحت بها حالية

---

(١) ضمير الهاء هنا عائد على المظالم .

فإنما هي على الحقيقة منها عاطلة . وهل أشقى ممن احتقب إثما ، واكتسب بالمساعى الذميمة ذمّا ، وجعل السواد الأعظم له يوم القيامة خصما ، وتحمل ظلم الناس فيما صدر عنه من أعماله وقد خاب من حمل ظلما . وحقيق بالمقام الشريف المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله ، وعزائمه تخفف ثقلا لا طاقة لهم بحمله . فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لغيره ممن تقدّم من الملوك وإن جاء آخرا . فاحمدِ الله على أن وصل إلى جانبك إمامُ هدى أوجب لك مزية التعظيم ، ونبّه الخلائق على ما خصّك الله به من هذا الفضل العظيم . وهذه أمور يجب أن تُلاحَظ وترعى ، وأن توالى عليها حمد الله فإن الحمد يجب عليها عقلا وشرعا وقد تبين أنك صرت فى الأمور أصلا وصار غيرك فرعا" .

"ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذى يرجع به مسود الصحائف مبيضا . وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصّهم بالجنة التى لا لغو فيها ولا تأثيم . وقد تقدمت لك فى الجهاد يد بيضاء أسرعت(١) فى سواد الحُسّاد ، وعرفت منك عزمة هى أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد ، وأشهى إلى القلوب من الأعياد . وبك صان الله حمى الإسلام من أن يتبدّل ، وبعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول ، وسيفُك أثّر فى قلوب الكافرين قروحا لا تندمل ، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه فى الأيام الأُول . فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجما ، وكن فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا ، وأيّد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا" .

"ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له (١١٧ ا) الثغور ، واحتفال يبدّل ما دجى من ظلماتها بالنور . واجعل أمرها على الأمور مقدما ، وشيِّد منها كل ما غادره العدو منهدما ؛ فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهى على العدو داعية افتراق لا اجتماع . وأولاها بالاهتمام

(١) كذا فى س ، ولعلها أشرعت أو أشرقت أو أشرفت ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. I. P. 156) هذه العبارة إلى كلها (faits éclatants, qui ont fait pâlir les envieux) .

ما كان البحر له مجاورا ، والعدو له ملتفتا ناظرا ، لا سيما ثغور الديار المصرية ، فإن العدو وصل إليها رابحا وراح خاسرا ، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثرا" .

"وكذلك أمر الأسطول[1] الذي تزجي[2] خيله كالأهلة ، وركائبه سابقة بغير سائق[3] مستقلة . وهو أخو الجيش السليماني : فإن ذاك غدت الرياح له حاملة ، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة . وإذا لحظها جارية في البحر كانت كالأعلام ، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع بالأيام" .

"وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب ، وأتاك من أصالة الرأي الذي يريك المغيب ؛ وبسط بعد القبض منك الأمل ، ونشط بالسعادة ما كان من كسل ؛ وهداك إلى مناهج الحق وما زلت مهتديا إليها ، وألزمك المراشد ولا تحتاج إلى تنبيه عليها . والله يمدك بأسباب نصره ، ويوزعك شكر نعمه ، فإن النعمة ستتم بشكره" .

ولما فرغ من قراءته ، ركب السلطان بالخلعة والطوق الذهب والقيد الذهب ، وكان الطالع برج السنبلة . وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبي أستادار السلطان ، ثم حمله الصاحب بهاء الدين وسار به بين يدي السلطان ، وسائر الأمراء ومن دونهم مشاة سوى الوزير . ودخل [السلطان] من باب النصر وشق القاهرة ، وقد زينت وبسط أكثر الطريق بثياب فاخرة مشى عليها فرس السلطان . وضج الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره وأن يخلدها خلع الرضى ، إلى أن خرج من باب زويلة وسار إلى القلعة ، فكان يوما مشهودا تقصر الألسنة عن وصفه .

وشرع السلطان في تجهيز الخليفة للسفر ، واستخدم له عساكر ، وكتب للأمير سابق الدين

---

(١) تقدم ذكر كلمة أسطول أكثر من مرة ، ولم ينتبه إلى أصلها أو أنواع استعمالها في كتب المؤلفين بالعربية . وأسطول لفظ يوناني الأصل . يطلق في العربية أحياناً على المراكب الحربية المجتمعة ، وأحيانا على مركب حربي واحد فقط والأسطول هو العسكري الذي يعمل في البحر ، أما الذي ينتظم في سلك الجيوش البرية فهو الجندي (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 157 N. 33) .

(٢) في س " ترجى ".

(٣) في س "سابقه بغير سايق".

بوزبا[١] أتابك العسكر الخليفتي[٢] بألف فارس ، وجعل الطواشي بهاء الدين صندل الشرابي[٣] الصالحي شرابيا بخمسمائة فارس ، والأمير ناصر الدين بن صيرم خازندارا[٤] بمائتي فارس ، والأمير الشريف نجم الدين جعفر أستادارا[٥] بخمسمائة فارس ، وسيف الدين بلبان الشمسي دوادارا[٦] (١١٧ ب) بخمسمائة فارس ، والأمير فارس الدين أحمد بن أزدمر اليغموري دوادارا أيضا ، والقاضي كمال الدين محمد بن عز الدين السنجاري وزيرا ، وشرف الدين أبا حامد كاتبا[٨] ؛ وأقام عدة من العربان أمراء . وحمل [السلطان] إلى الجميع الخزائن والسلاح وغيره من الصناجق والطبلخاناه ، وأنفق أموالا كثيرة . واشترى مائة مملوك كبارا وصغارا ، ورتبهم سلاحدارية وجامدارية ، وأعطى كلا منهم ثلاثة أرؤس من الخيل وجملا لعدته . ورتب سائر ما يحتاج إليه الخليفة : من صاحب ديوان وكاتب إنشاء ودواوين وأئمة ، وغلمان

(١) كذا في س ، وقد تقدم ورود هذا الاسم (ص ٤٠٥ ، سطر ١١) على أنه "بورنا" ، اعتمادا على رسم وروده في ب (١٢٦ ا) . انظر ص ٤٠٥ ، حاشية ٣ ، هـذا وفي ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٣) ، أن اسم هذا الأمير ابورتا ، وهو في ابن واصل (نفس المرجع ، ص ١٣٩٥) "روما" ، بغير نقط البتة .

(٢) هذا اللفظ وارد بهامش الصفحة في س ، بدون إشارة كالمعتاد إلى موضعه المقصود ، وقد وضع هنا لمناسبته المعنى .

(٣) الغالب أن الشرابي هو الذي يصنع الأشربة والأدوية ، وأنه كان أحد رجال الشراب خاناه ، مثل الشربدار . انظر القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٩) . ويقوى هذا الفرض أن صانع الأدوية يسمى شرائبي وشرباني في (Dozy : Supp. Dict Ar) ، وأنه يوجد بالمقريزي (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٦) حارة تسمى بحارة الشرابية ، وقد "عرفت بذلك لأنها كانت موضع سكن الغلمان الشرابية ، [وهم] إحدى طوائف العسكر ... " . هذا وقد ترجم (Blochet) ، ناشر ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٣) هذا اللفظ إلى (èchanson) ، ويقابل ذلك مصطلح دولة المماليك كلمة الساقي (Dozy: Supp. Dict. Ar.).

(٤) في س " خازندار " .

(٥) في س " استادار " .

(٦و٧) في س " دوادار " .

(٨) الكاتب في العرف العام بالديار المصرية ، زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية ، هو كاتب المال ومن في معناه . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٢) .

وجرائحية(١) وحكاء وبيوتات(٢)؛ وكلها كلها مما تحتاج إليه . ورتّب الجنائب وخيول الإصطبلات ، واستخدم الأجناد . وعيّن لخاص الخليفة مائة فرس وعشر قُطُر(٣) بغال وعشر قُطُر جمال ، وطشت خاناه وشراب خاناه وحوائج(٤) خاناه؛ وكتب لمن وفد معه من العراق تواقيع ومناشير بالإقطاعات .

فلما تهيأ ذلك كله برز الدهليز الخليفتي والدهليز السلطاني إلى البركة ظاهر القاهرة ، وركب الخليفة والسلطان من قلعة الجبل في السادسة من نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان، وسار إلى البركة فنزل كل منهما في دهليزه ، واستمرت النفقة في أجناد الخليفة . وفي يوم عيد الفطر ركب السلطان مع الخليفة تحت المظلة ، وصليا صلاة العيد ، وحضر الخليفة إلى خيمة السلطان بالمنزلة وألبسه سراويل الفتوة(٥) بحضرة الأكابر . ورتب السلطان الأمير عز الدين أيدمر الحلي نائب السلطنة بديار مصر ، وأقام معه الصاحب بهاء الدين بن حنا .

(١) الجرائحية جمع جرائحي ، وهذا الجمع ومفرده صيغة عامية للفظي جراحيون وجراحي ، والجراحي — ويقال الجراح أيضاً — الطبيب الذي يعالج الجراح . (محيط المحيط) .

(٢) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. I. P. 160) هذا اللفظ إلى (des maisons garnies de toutes sortes d'accessoires utiles) ويفهم من ذلك أن السلطان أعطى الخليفة بيوتا مفروشة بكامل الأثاث والمفروشات .

(٣) جمع قِطْر ، وهو عدد من البغال أو غيرها من الماشية ، تكون على نسق واحد . (محيط المحيط) .

(٤) الحوائج خاناه بيت الحوائج ، وهي حسبما جاء في القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢ — ١٣) ، "جهة تحت يد الوزير ، منها يصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطاني والدور السلطانية ، ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين ، وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ (ص ١٣) أسماؤهم الدفاتر ؛ وكذلك توابل الطعام للمطبخ السلطاني والدور السلطانية ، ومن له توابل مرتبة من الأمراء وغيرهم ؛ و [كذلك] الزيت للوقود ، والحبوب وغير ذلك من الأصناف المتعددة . ولها مباشرون منفردون بها يضبطون أسماء المستحقات ومقادير استحقاقهم ؛ وهي من أوسع جهات الصرف ، حتى أن ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين ألف درهم في كل يوم ، خارجا عما عداه من الأصناف ، وربما زاد على ذلك".

(٥) تقدمت الإشارة إلى الفتوة وسراويلها (انظر ص ١٧٢ ، حاشية ١ ، ٢) ، وقد أورد ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٤ — ٨٥) فقرة طويلة في هذا الصدد ، ونصها : "ثم تجهيز السلطان [بيبرس] إلى الشام في تاسع عشر رمضان ، ورغب في لباس الفتوة فألبسه [الخليفة] قبل سفره . ونسبة الفتوة من الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، لسلمان الفارسي ، لعلي التوني ،! =

وفى يوم السبت سادس شوّال رحل الخليفة وصحبته الملك الظاهر بجميع العساكر، فساروا إلى الكسوة ظاهر دمشق، وخرج إلى لقائهم عسكر دمشق فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة، فنزل الخليفة بالتربة الصالحية فى سفح قاسِيُون[1]، ونزل السلطان بقلعة دمشق. وفى يوم الجمعة عاشره دخل الخليفة [الجامع الأموى بدمشق] من باب البريد[2]، وجاء السلطان من باب الزيادة، واجتمعا بمقصورة الجامع حتى فرغا من صلاة الجمعة، وخرجا إلى باب الزيادة فمضى الخليفة وعاد السلطان.

وكان قد قدم إلى السلطان وهو بقلعة الجبل الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وولده [الملك[3] السعيد] علاء الملك[4] وأهله، فى شعبان إلى القاهرة فأقبل السلطان عليه وأحسن إليه، وأمر له ولمن معه بالإقامات والأموال من دمشق إلى القاهرة، وتلقاه وأنزله بدار تليق به. ثم وصل أخوه الملك المجاهد سيف الدين (١١٨ ا) إسحاق صاحب الجزيرة، فتلقاه [السلطان] كما تلقى أخاه. وكان أخوهما الملك السعيد[5]

= للحافظ الكندى، لعوف الغسانى، لأبى (ص٨٥) العز النقيب، لأبى مسلم الخراسانى، لهلال النبهانى، لجوشن الفزارى، للأمير حسان، لأبى الفضل القرشى، لأبى الحسن النجار، الملك أبى كلنجار، لروزبه الفارسى، للأمير وهزان، للقائد عيسى، لهنا العلوى، لعلى الصوفى، لمعز بن أنس، لأبى القاسم بن حنا، لنفيس العلوى، لبقا بن الطباخ، لحسن بن الشرابدار، لأبى بكر بن الجحيش، لعمر بن الرصاص، لعبد الله بن المعين، لعلى بن زعيم، لعبد الجبار، للإمام الناصر، لحفيده".

(١) بغير ضبط فى س، وهو جبل مطل على الشمال الغربى من دمشق، ويقال إنه (Mons Casius) الرومانى. راجع (Le Strange: Palest. Under Moslems, pp. 240. Note *, 482) ؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣).

(٢) باب البريد أحد الأبواب الأربعة التى لجامع دمشق، وهى: باب البريد، وباب جيرون ويسمى أيضا باب الساعات، وباب الزيادة ويعرف هـذا بباب الصرماياتية وباب الساعات أيضا، وباب العمرة وكان معروفا قديما باسم باب الفراديس وباسم باب الناطفيين أو الناطفانيين (Le Strange: Palest. Under Moslems, p. 226).

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٩٦ ا).

(٤) يلى هذا بياض فى س يسع لفظا تقريبا.

(٥) فى س " المظفر ". انظر الحاشية التالية.

علاء الدين علىّ صاحب سنجار قد رتبه الملك المظفر قطز فى نيابة حلب[1] ، فقبضه العزيزية واعتقلوه ، فسأل إخوتُه الملكَ الظاهر فيه فأفرج عنه ، وبالغ فى إكرامهم وعطائهم . و[كان السلطان] لما نزل بالبركة خارج القاهرة ، [قد] جهز إليهم خيل النوبة[2] والعصائب[3] والجدارية والخلع ، وكتب لهم تقاليد ببلادهم التى فوضت إليه من الخليفة : فكتب للملك الصالح بالموصل ونصيبين وعَقْر[4] [و] شُوش[5] ودارا والقلاع العمادية[6] ، وكتب للمجاهد بالجزيرة ، وكتب للمظفر بسنجار . فقبلوا الأرض عند لبس الخلع ، وسير [السلطان] إليهم الكوسات والسناجق والأموال ، وأعفوا من الحضور والخدمة . فساروا إلى دمشق ، وحضروا بمجلس الشام بقلعة دمشق ، ولبسوا الخلع وقبلوا الأرض ، وخرجوا والأتابك فى خدمتهم بشعار السلطنة ؛ وأعطاهم [السلطان] فى لعب الكرة شيئا كثيرا .

(١) تقدمت الإشارة إلى هذا الملك ، وما حدث له منذ تولى نيابة حلب (ص ٤٣٩ ، حاشية ٣) ، واسمه هناك الملك السعيد ، وكان السلطان قطز لقبه بذلك اللقب . (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 359. N. 1) . انظر أيضا ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة — طبعة القاهرة — ج٧ ، ص١٠٣ .

(٢) خيل النوبة هى التى تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب ، وتسمى أيضا فرس النوبة . وللفظ النوبة فقط معان اصطلاحية أخرى ، أحدها فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس نوبات ويكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح . والنوبة عند المغنين اسم لآلات الطرب إذا أخذت معها ، ويقابلها فى الفرنسية (aubade, concert, fanfares, musique symphonie, orchestre) ، وربما أطلقت على المطربين بها إذا اجتمعوا ، ويقال لهم النوبتجية عند الأتراك . هذا ويقال ضربت النوبة بمعنى صدر الأمر للعسكر بالتقهقر ، والنوبة أيضا الوقعة الحربية . (محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) جمع عصابة ، وقد تقدم وصفها فى ص ٤٤٣ ، حاشية ١ .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة فى الجبال الواقعة شرقى الموصل ، وتعرف بعقر الحميدية نسبة إلى أهلها الأكراد المعروفين بهذا الاسم . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٩٦) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة عالية جداً قرب عقر الحميدية (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٤) . ويلاحظ أن المقريزى اعتبر هذه القلعة والتى قبلها كأنهما موضع واحد ، غير أنه ليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ما يسند هذا التركيب المزجى . (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 166. N. 49)

(٦) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة فى شمالى الموصل ، عمرها عماد الدين زنكى سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢م) ونسبت إليه ، وكان اسمها قبل ذلك آشب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧١٧) . ويتضح من (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 166. N. 49) أن قلعتى عقر وشوش كانتا تدخلان فى عمل القلاع العمادية ، وهذا يفسر تسمية المقريزى لها جميعا باسم القلاع العمادية .

ووصل إلى دمشق الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص ، والملك المنصور صاحب حماة . فوصل [السلطان] كلا منهما بثمانين ألف درهم وحملين من الثياب وخيول ، وركب كل منهما بدمشق والأمراء مشاة فى خدمته بشعائر السلطنة . وكتب [السلطان] لهما التقاليد باستقرارهما على ما بأيديهما وزادهما ، ثم عادا إلى بلادهما .

وكان السلطان قد عزم أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد ، ويكونَ أولاد صاحب الموصل فى خدمته . فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألا يفعل : "فإن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر" . فرجع إليه [الوسواس] ، ولم يبعث مع الخليفة سوى ثلثمائة فارس . وجرّد [السلطان] الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير شمس الدين سنقر الرومى الى حلب ، وأمرهما بالمسير إلى الفرات ، و إذا ورد عليهما كتاب الخليفة بأن يسير أحدهما إليه سار .

وركب السلطان لوداع الخليفة ، وسافر [الخليفة[1]] فى ثالث عشر ذى القعدة ، ومعه أولاد صاحب الموصل الثلاثة . ففارقوه فى أثناء الطريق وتوجه كل منهم[2] إلى مملكته . فوصل الخليفة إلى الرحْبَة[3] ، وأتاه الأمير على بن حذيفة من آل فضل بأربعمائة فارس من العرب ، وانضاف إليه من مماليك المواصلة نحو الستين مملوكا ، ولحق به الأمير عز الدين بركه من حماة فى ثلاثين فارسا ورحل [الخليفة] من الرحبة إلى مشهد على ، فوجد رجلا[4] ادّعى

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٦ ا) .

(٢) فى س "منهما" .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى رحبة مالك بن طوق ، وموقعها على شاطىء الفرات جنوبى قرقيسيا ، وتبعد عن بغداد مائة فرسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٦٤) .

(٤) يقصد المقريزى بهذا الرجل الأمير أبا العباس أحمد ، الذى أتى مصر فيما بعد وصار خليفة بها وتلقب بالحاكم بأمر الله . (انظر ص٤٦٧ ، سطر ٦) . وقد ترجم السيوطى (تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٧ ، وما بعدها) لهذا الأمير العباسى ، وفصل ما حدث له منذ نجاته من أيدى التتر بعد وقعة بغداد ، وهذا نص ما جاء به مصححا ، ومضافا إليه زيادات توضيحية بين الأقواس من نفس المرجع (ص٣١٦ — ٣١٧) : "الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبى علىّ الحسن القبى — بضم القاف وتشديد الباء الموحدة — ابن على بن أبى بكر بن الخليفة المسترشد بن المستظهر بالله ، كان اختفى وقت أخذ بغداد ونجا ، ثم خرج =

أنه من بنى العباس قد اجتمع إليه سبعمائة فارس من التركمان ، كان الأمير شمس الدين أقوش البرلى قد جهزهم من حلب . فبعث الخليفة إلى التركمان واستمالهم ففارقوه وأتوا الخليفة ، فبعث اليه الخليفة يستدعيه (١١٨ ب) وأمّنه ورغّبه فى اجتماع الكلمة على إقامة الدولة العباسية ، ولاطفه حتى أجاب وقدم اليه ، فوفى له وأنزله معه . وسار [الخليفة] إلى عانة ثم إلى الحديثة ، وخرج يريد هيت ؛ وكتب إلى الملك الظاهر [بيبرس] بذلك .

وأما حلب فإن الأمير سنجر الحلبى فارقها وسار الى دمشق ، فاستولى عليها الأمير شمس الدين أقوش البرلى و بعث بالطاعة إلى السلطان ، فأبى إلا حضوره . فلما سار الأمير سيف الدين الرشيدى والأمير سنقر الرومى من دمشق رحل أقوش عن حلب ، فدخلاها وسارا منها الى الفرات ، وأغارا على بلاد أنطاكية ؛ وكسب العسكر وغنم ، وحرق غلال الفرنج وسبا كبهم وعاد . فولى السلطان الأمير علاء الدين بندقدار[1] نيابة حلب ؛ فأقام بها فى شدّة من غلاء الأسعار وعدم القوت ، ثم رحل عنها .

وقدمت الإقامات من الفرنج[2] إلى السلطان ، وسألوا الصلح فتوقف وطلب منهم أمورا

= منها وفى صحبته جماعة ، فقصد حسين بن فلاح أمير بنى خفاجة فأقام عنده مدّة . ثم توصل مع العربى الى دمشق ، وأقام عند الأمير عيسى (ص٣١٨) بن مهنا مدة ، فطالع [ابن مهنا] به الناصر صاحب دمشق فأرسل يطلبه ، فبغته مجىء التتار . فلما جاء الملك المظفر [قطز] دمشق سير فى طلبه الأمير قلج البغدادى ، فاجتمع به وبايعه بالخلافة ، وتوجه فى خدمته جماعة من العرب ، فافتتح الحاكم [بأمر الله] عانة بهم والحديثة وهيت والأنبار ، وصاف التتار وانتصر عليهم . ثم كاتبه علاء الدين طيبرس نائب دمشق يومئذ والملك الظاهر يستدعيه (كذا) ، فقدم دمشق فى صفر ، فبعثه إلى السلطان . وكان المستنصر بالله قد سبقه بثلاثة أيام إلى القاهرة ، فما رأى أن يدخل إليها خوفا من أن يمسك فرجع الى حلب . فبايعه بها صاحبها [شمس الدين أقوش] ورؤساؤها [و] منهم عبد الحليم بن تيمية ، وجمع خلقا كثيرا وقصد عانة . فلما رجع المستنصر وافاه بعانة ، فانقاد الحاكم [بأمر الله] له ودخل تحت طاعته ...» . كما بالمتن ، ويتضح من هذا أن سلاطين المماليك قبل بيبرس فكروا فى اجتذاب الخلافة العباسية إلى القاهرة ، وأن أبناء البيت العباسى كانوا يعتبرون عاصمة الديار المصرية ملجأ أمينا لإيوائهم وحمايتهم .

(١) كذا فى س .

(٢) من أخبار السلطان بيبرس والفرنج تلك السنة ، وهذا نقلا عن العينى (عقد الجمان ، ٢١٦ ، ق =

لم يجيبوا إليها ، فأهانهم . وكان العسكر قد خرج للغارة على بلادهم من جهة بعلبك ، فسألوا رجوعه . واتفق الغلاء ببلاد الشام ، فتقرر الصلح على ما كان الأمر عليه إلى آخر أيام الملك الناصر[١] ، و إطلاق الأسارى من حين انقضت الأيام الناصرية . فسارت رسل الفرنج لأخذ العهود وتقرير الهدنة لصاحب[٢] يافا ومتملك بيروت ، فكاسر الفرنج فى أمر الأسارى ، فأمر السلطان بنقل أسرى الفرنج من نابلس إلى دمشق واستعمالهم فى العمائر . فتعلل الفرنج بالعوض عن زرعين ، فأجيبوا : "بأنكم أخذتم العوض عنها فى الأيام الناصرية مرج عيون ، وقايضتم صاحب تبنين[٣] والمقايضة فى أيديكم . فكيف تطلبون العوض مرتين ؟ فإن بقيتم على العهد وإلا فما لنا شغل إلا الجهاد" . وخرج الأمير جمال الدين المحمدى فى عسكر ، وأغار على بلاد الفرنج وعاد غانما سالما .

وسارت عدة من العسكر فأوقعوا بعرب زُبَيد[٤] لكثرة فسادهم ، وقتلوا منهم جماعة وعادوا

= (Rec. Hist. Or. II. I) أن السلطان جهز إلى إمبراطور الدولة الغربية ، وهو مانفرد بن فردريك الثانى (Manfred, son Of Frederic II) هدية من جملتها عدد من الزراف ، وجماعة من أسرى التتار المأخوذين فى نوبة عين جالوت ، بخيولهم التترية وعدتهم . انظر كذلك (Camb. Med. Hist. VI. p. 177) . على أن الفرنج المقصودين هنا بالمتن هم ملوك وأمراء الصليبيين بالشام ، ومنهم صاحب يافا ومتملك بيروت ، واسم كل منهما (John of Ibelin) انظر (Stevenson : The Crusaders In The East. p. 336; King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. P. 258)

(١) المقصود بالملك الناصر هنا السلطان الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، وكان بينه وبين (John of Ibelin) صاحب يافا معاهدة قديمة . راجع (Lane-Poole : A Hist. of. EgyPt In The Middle Ages. P. 268. N. I.)

(٢) اسم هذا الأمير فيما يلى كنديافا ، أى (Count of Jaffa) .

(٣) فى س ، ب (١٤٤ ا) سيس ، وقد ترجمها (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 169) على هذا الاعتبار . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٢٩٨ ب) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وزبيد اسم لقبيلة كانت مساكنها حول دمشق ، وقد عرف كل فرع من فروعها باسم نواحى دمشق التى سكنتها ، وهذه الفروع هى زبيد الغوطة ، وزبيد المرج ، وزبيد صرخد ، وزبيد حوران ، وزبيد الأحلاف التى كانت مساكنهم قرب الرحبة بجوار منازل آل فضل . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٣ – ٢١٤) .

غانمين . وأحضر السلطان أمراء العربان ، وأعطاهم وأقطعهم الإقطاعات ، وسلمهم دَرَك[1] البلاد وألزمهم حفظ الدروب إلى حدود العراق ؛ وكتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا .

وفوّض [السلطان] إلى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى نيابة دمشق ، وفوّض قضاءها للقاضى شمس الدين أبى[2] العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان — وكان قد خرج معه من مصر — ، عوضا عن نجم الدين أبى بكر محمد بن أحمد بن يحيى بن السنى ، ووكّل به وسفّره إلى (١١١٩) القاهرة . وقرئ تقليد ابن خلكان يوم الجمعة تاسع ذى الحجة ، وفُوِّض إليه الحكم من العريش إلى الفرات ، والنظر فى جميع أوقاف الشام من الجامع والمارستان والمدارس والأحباس وتدريس سبع مدارس .

وخرج السلطان من دمشق يوم السبت سابع عشره يريد مصر . وصُرف قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز فى سلخ شوّال عن قضاء مصر والقبلى ، واستقر مكانه قاضى القضاة برهان الدين السنجارى ، وبقى قضاء القاهرة والوجه البحرى بيد ابن بنت الأعز . وأمر السلطان ببناء مشهد على عين جالوت .

وفيها كتب السلطان إلى الملك بركة [خان] يغريه بقتال هولاكو ويرغبه فى ذلك ، وسببه تواتر الأخبار بإسلام بركة . وفيها أغار التتار الذين تخلّفوا على أعمال حلب وعاثوا ، ونزل مقدمهم بيدرا على حلب ، وضايقها حتى غلت أسعارها وتعذّر وجود القوت ، فلما بلغهم توجه عسكر السلطان إليهم رحلوا . وفيها استولى الأمير شمس الدين أقوش البُرْلى[3] العزيزى على حلب ، وجمع معه التركمان والعرب ، فأقام نحو أربعة أشهر . ثم توجه إلى البيرة

---

(١) الدرك التبعة ، فيقال درك السلطان أمراء العربان بالبلاد أى جعلها تحت دركهم وتبعتهم وخفارتهم ، وهو فعل مولد . انظر (محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar) . هذا وعبارة ابن واصل فى هذا الصدد (نفس المرجع ، ص ٣٩٨ ب) توضح هذا المعنى تماما ، ونصها : "وجمعهم السلطان بخلعه وأطلق رسومهم وكتب مناشيرهم ، وسلم إليهم خفر البلاد وألزمهم حفظها إلى حدود العراق" .

(٢) فى س "أبو" .

(٣) هذا اللفظ مضبوط فى س بسكون على الراء فقط .

وأخذها ومضى إلى حران فأقام بها ، وصار يقرب من حلب و يبعد عنها خوفا من السلطان . وفيها عدى بنو مرين العَدْوَة[1] لقتال الفرنج فظفروا . وفيها حج الملك المظفر يوسف بن عمر رسول ملك اليمن ، وكسا الكعبة وتصدق بمال .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى ، صاحب حلب [و] دمشق — و [هو] آخر ملوك بنى أيوب — ، بعد أربعة وعشرين عاما من ملكه ، واثنتين وثلاثين سنة من عمره ، مقتولا بأمر هولاكو[2] . ومات الملك الصالح إسماعيل بن المجاهد شيركوه ابن القاهر محمد بن المنصور أسد الدين شيركوه بن شادى ، صاحب حمص ، مقتولا [بأمر هولاكو[3] أيضا] . وتوفى الأديب مخلص الدين أبو العرب إسماعيل بن عمر بن يوسف بن قرناص الحموى .

* * *

سنة ستين وستمائة . فى ثانى المحرم وصل السلطان من دمشق . واشتد الغلاء بدمشق ، فبلغت الغرارة القمح أربعمائة وخمسين درهما فضة ، وهلك خلق كثير من الجوع .

(١) بغير ضبط فى س ، وقد أطلق المؤرخون هذا الاسم — ويقال بر العدوة أيضا — على الشاطىء المراكشى لبوغاز جبل طارق ، ويستعمل لفظ عدوة فى مراكش الحالية بمعنى شاطىء نهر ، ويسمى قسما مدينة فاس القديمة باسم العدوتين . انظر (G.-Demombynes : Masalik el Abṣār, p. 137. N. 1.) .

(٢) تقدم ذكر وقوع الملك الناصر هذا وأخيه الملك الظاهر غازى وغيرهما فى يد التتر ، وإرسالهم جميعا إلى هولاكو بتبريز . (انظر ص ٤٢٧ ، سطر ١) . ويفهم مما يلى هنا سطر ٢٠ ، أن الناصر رأى وقت ذاك أن السلامة لا تكون إلا باظهار الميل إلى التتر ، فأعلن أنه لاجىء بحمى هولاكو ورحمته ، ولذا أقبل عليه هولاكو وعلى من معه ، ووعده برده إلى مملكته . أما سبب قتله ، نقلا عن أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٧ ، فى Rec. Hist. Or. I.) ، فهو أنه "لما بلغ هولاكو كسرة عسكره بعين جالوت وقتل كتبغا ، ثم كسرة عسكره على حمص ثانيا ، غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر يوسف ، الذى كان قد التجأ إليه ... وأحضر معه أخاه الملك الظاهر غازى ، وقال له : أنت قلت إن عسكر الشام فى طاعتك ، فغدرت بى وقتلت المغل . فقال له الملك الناصر : لو كنت بالشام ما ضرب أحد فى وجه عسكرك بالسيف ، ومن يكون بتوريز كيف يحكم على من بالشام ؟ فاستوفى (كذا) هولاكو لعنه الله ياصجا (une flèche أى سهم أو نبلة أو رمح) وضربه به . فقال له الناصر : يا خوند ! الصنيعة ! فنهاه أخوه الظاهر وقال : قد حضرت : ثم رماه [هولاكو] بفردة ثانية فقتله ، ثم أمر بضرب رقاب الباقين ، فقتلوا الظاهر أخا الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص ، والجماعة الذين كانوا معهم" .

(٣) انظر الحاشية السابقة .

و[فيه] سار قرابُغا[1] مقـدم التتار من بغـداد — وكان قد استخلفه هولاكو عليها[2] عند عوده إلى بلاد الشرق — يريد لقاء الخليفة المستنصر بالله ومحاربته ، فنهب الأنبار وقتل جميع من فيها ، وتلاحقت به بقية التتار من بغداد . ولقيهم الخليفة وقد رتَّب عسكره : فجعل التركمان والعرب فى جناحى العسكر ، واختص جماعة جعلهم فى القلب ، وحمل بنفسه على التتار فكسر مقدَّمتهم ، وخذله العرب والتركمان فلم يقاتلوا . وخرج كمين للتتار ففر العرب والتركمان ، وأحاط التتار بمن بقى معه فلم يفلت منهم سوى الأمير أبى العباس أحمد الذى قدم إلى مصر وتلقب بالحاكم بالله ، والأمير ناصر الدين بن مهنا ، والأمير ناصر الدين ابن صيرم ، والأمير سابق الدين بوزبا الصيرفى[3] ، والأمير أسد الدين محمود ، فى نحو الخمسين من الأجناد . ولم يعرف للخليفة خبر : فيقال قتل بالمعركة فى ثالث المحرم ، ويقال بل نجا مجروحا فى طائفة من العرب فمات عندهم . وكانت هذه الواقعة فى العشر الأول من المحرم ، فكانت خلافته دون السنة . وبلغت نفقة الملك الظاهر على الخليفة والملوك المواصلة ألف ألف دينار وستين ألف دينار عينا .

واستقر الملك الصالح عماد الدين اسماعيل [بن بدر الدين لؤلؤ] فى مملكته بالمواصل ، وسار أخواه إسحاق وعلىّ إلى الشام خوفا من التتار ، وقدما على السلطان بقلعة الجبل فأبَرَّ مقدمهما ، وسألاه فى تجهيز نجدة لأخيهما[4] . فرسم [السلطان] بتجريد الأمير شمس الدين سنقر الرومى

---

(١) مضبوط على منطوقه فى (Quatremére : Op. Cit. I. I. p. 17I) .

(٢) كان قرابغا ، نقـلا عن (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 368) ، قائدا عاما على الجيوش التترية بسائر العراق العربى ؛ أما القائد الذى استخلفه هولاكو على بغداد فاسمه بهادر على (Bahdir Ali) ، وقد سار القائدان معا لملاقاة الخليفة المستنصر على الأنبار ، كما يلى بالمتن .

(٣) فى س "الصيرى" .

(٤) كان رحيل الملك الصالح هذا قبلا الى حضرة السلطان بيبرس (انظر ص ٤٦٠ ، سطر ٧) قد أغضب أهل الموصل والمندوب التترى المقيم بها . وكان ممن خرج من الموصل لتوديع الملك الصالح وقت ذاك أحد قواده واسمه علم الدين سنجر ، فلما رجع هذا القائد إلى الموصل منعه المندوب التترى من دخول المدينة . ثم استطاع علم الدين أن يدخلها مع رجاله خفية ، واضطر المندوب التترى الى اللجوء الى القلعة ، وتلا ذلك إيقاع علم الدين بالمسيحيين وبكنائسهم وأديرتهم . وبينما الموصل مائجة بتلك الحركة الانتقامية ،＝

فى جماعة من البحرية والحلقة ، وساروا من القاهرة فى (١١٩ ب) رابع جمادى الأولى . وكتب إلى دمشق بخروج عسكرها صحبة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس ، فسار العسكران من دمشق فى عاشر جمادى الآخرة .

وفوّض السلطان وزارة دمشق لعز الدين عبد العزيز بن وداعة . وتسلم نوّاب السلطان قلعة البيرة . ووقع الصلح بين السلطان و بين الملك المغيث صاحب الكرك . و باشر السلطان عرض عساكر مصر بنفسه ، وحلفهم لولىّ عهده الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركة خان .

وفى يوم الأحد ثانى عشرى صفر ، وصل الأمير أبو العباس أحمد الذى تلقب بالحاكم بأمر الله إلى دمشق ، وخرج منها يريد مصر فى يوم الخميس سادس عشريه ، فوصل إلى ظاهر القاهرة فى سابع عشرى شهر ربيع الأول . فاحتفل السلطان للقائه ، وأنزله فى البرج الكبير داخل قلعة الجبل ، ورتب له ما يحتاج[1] إليه . وفى نصف رجب قدم جماعة من البغادرة مماليك الخليفة [المستعصم[2]] ، الذين تأخروا بالعراق بعد قتل الخليفة ، ومقدمهم الأمير سيف الدين سلار . فأكرمهم السلطان ، وأعطى الأمير سلار[3] إمرة خمسين فى الشام ونصف مدينة نابلس ، ثم نقله إلى إمرة طبلخاناه بمصر . وفيها أطلق السلطان الأمير

= وصلها جيش تترى على رأسه قائد مسيحى اسمه صندغون (Sandaghoun) ، فحاصرها وأخذ يعد العدة لهدم الثورة بها . ثم جاء إلى ذلك القائد أن الملك الصالح قد عاد من مصر وأنه على مقربة من الموصل يريد الدخول إليها ، فرفع الحصار عنها وانتحى موضعا خفيا حتى دخلها الملك الصالح ، وعاد بعدئذ إلى حصارها ونصب عليها خمسة وعشرين منجنيقا . عند ذلك أرسل الملك الصالح يطلب نجدة السلطان بيبرس ، كما بالمتن هنا وفى ص ٤٧٥ . وراجع (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٩٤ ، وما بعدها ؛ D'Ohsson : Op. Cit. pp. 370 et seq).

(١) انظر ص ٤٦٢ ، حاشية ٤ .

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٨ ، فى Rec. Hist. Or. I).

(٣) أصل هذا الأمير مملوك قبشاق من قبيلة دوروت (Dourout) ، وقد اشتراه الخليفة الظاهر العباسى (٦٢٢ — ٦٢٣ هـ) ، وترقى فى خدمته حتى أصبح فى عهده واليا على واسط والكوفة والحلة ، وظل كذلك حتى آخر عهد المستعصم ووقوع بغداد فى يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ . عند ذلك انضم الأمير =

سيف الدين قلج البغدادى المستنصرى من الاعتقال ، وكان قد اعتقله ، فمنّ عليه وأذن له فى لعب الكرة معه[(١)]

وفى شعبان قدم الأمير سيف الدين الكرزى[(٢)] ، والقاضى أصيل الدين خواجا إمام ، من عند الأنبرور ملك الفرنج بكتابه[(٣)]. ثم قدم رسوله بهدية ومعه نفران من البحرية[(٤)] ، فاعتقلا بقلعة الجزيرة تجاه مصر . وقدم الأمير شرف الدين الجاكى ، والشريف عماد الدين الهاشمى ، من عند صاحب الروم — وهو السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ، ومعهما رسل المذكور [وهما الأمير ناصر الدين نصر الله بن كوج رسلان[(٥)] أمير حاجب والصدر صدر الدين الأخلاطى] ، وكتابه المتضمن أنه نزل عن نصف بلاده للسلطان ، وسيّر

= سلار بما كان لديه من العسكر إلى جيش وإلى شستر ، وظن أنه يستطيع معه محاربة التتر . فخاب ظنه ولجأ إلى بلاد الحجاز ، وامتنع من الذهاب إلى حضرة هولاكو رغم الوعود التى وصلته منه بإرجاعه إلى ولاياته بالعراق ، ثم جاء إلى مصر بناء على طلب السلطان بيبرس والحاحه . (D'Ohsson : Op. Cit. III. pp. 375-377).

(١) قبالة هذه العبارة فى س أرقام مرسومة هكذا ٨٣٣ ، ويظهر أن المقريزى قصد بهذه الأرقام أن يشير إلى الشهر والسنة التى وصل فيها إلى هذا الشطر من كتاب السلوك ، أى ربيع الأول سنة ٨٣٣ هـ .

(٢) كذا فى س ، بنقطة تحت الكاف لعلها إشارة إلى وجوب ضبط هذا الحرف بالكسر ، وقد ورد هذا الاسم فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٠ ب) برسم "الكردى" .

(٣) هذان الرسولان هما اللذان كانا قد ذهبا قبلا إلى الإمبراطور بهدية السلطان بيبرس ، التى كان من محتوياتها زراف (انظر ص ٤٦٣ ، حاشية ٢) ، وقد ذكر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٠ ب) أخبار ما حدث للرسولين فى بلاد الإمبراطور ، ونصه مصححا : "أن الأنبرور اهتم بهما اهتماما عظيما وتجمل لهما تجملا عظيما ، وأعرضت (كذا) عليه الهدية فأعجبته الزرافة إعجابا عظيما ، ورأى من التحف ما أذهله وملأ عينه . وقرىء عليه كتاب السلطان إحدى عشرة مرة وهو يردده ويتفهمه ، وأحسن إلى الرسل غاية الإحسان ، وجهز رسولا وهدية فيما بعد ، وكانت هدية لا تحصى" .

(٤) يفهم مما جاء فى ابن واصل فى هذا الصدد (نفس المرجع والصفحة) أن هذين البحريين كانا ممن ذهب مع الهدية التى أرسلها بيبرس إلى الإمبراطور ، وأنهما أساءا الأدب هناك ، فأعادهما الإمبراطور مع رسول من عنده إلى مصر ، كما بالمتن . "فلما شاهدهما السلطان أمر بتأديبهما ، لأنه بلغه سوء اعتمادهما ، فسيرهما إلى قلعة الجزيرة يعملان فيها مقيدين" . وقد علق ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) على تلك العقوبة بالآتى : "وفى ذلك تأديب وحسن سياسة وردع للمعتدى ، وحفظ (فى الأصل وحفظا) لناموس السلطنة وإقامة لحرمة المملكة" .

(٥) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٠ ب — ٤٠١ أ) .

دُرُوجا(١) فيها علائم(٢) بما يُقطع من البلاد لمن يختاره السلطان و يؤمّره ، وسأل أن يكتب له [السلطان] منشورا(٣) [قرين منشوره(٤)] . فأكرمهم السلطان ، وشرع فى تجهيز جيش نجدة لصاحب الروم ، و [أمر] بكتابة(٥) المناشير(٦) . وعين [السلطان] الأمير ناصر الدين أغلمش(٧) السلاح دار الصالحى لتقدمة العسكر ومعه ثلثمائة فارس ، وأقطعه إقطاعا ببلاد الروم منه آمد و بلادها .

و [فى شهر رجب(٨)] قدم الأمير عماد الدين بن مظفر الدين صاحب صهيون ، رسولا من جهة أخيه الأمير سيف الدين ، وصحبته هدية . (١٢٠ أ) فأكرمه السلطان وكتب له منشورا بإمرة ثلاثين فى حلب ، ومنشورا آخر بإمرة مائة فى بلاد الروم . و [فى هذا التاريخ(٩)] ورد كتاب ملك الروم ، بأن العدوّ هولاكو لما بلغه اتفاق الروم مع السلطان خاف من هيبته وولى هاربا ، وأنه سيّر إلى قونية يحاصرها ليأخذها(١٠) من أخيه .

(١) الدروج جمع درج ، وهو كما عرفه القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٣٨) "الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، وهو فى عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير" ، وكان يكتب فيه ويلف . (محيط المحيط) .

(٢) العلائم جمع علامة ، وقد تقدم شرحها فى ص ٣٤٤ ، حاشية ١ .

(٣) فى س "منشور" . والراجح أن المقصود بلفظ المنشور هنا كلما يصدر عن سلطان أو ملك من المكاتبات ، مما لايحتاج إلى ختم ، كالمكتوب بالولاية والمكتوب بالحماية والمكتوب بالإقطاع أيضا . انظر القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥٧) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ١٤٠١) .

(٥) فى س "كتابه" وقد أضيف حرف الجر ، وما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص١٤٠١) .

(٦) المناشير جمع منشور ، ومعنى المنشور هنا ما يكتب فى الإقطاعات خاصة ، وقد جرى الاصطلاح بهذا التخصيص فى عهد دولة المماليك بمصر ، وقبلها كان المكتوب بالإقطاع معروفا بالتوقيع فى أيام الأيوبيين ، وبالسجل فى أيام الفاطميين ، وبالمقاطعة فى الدولة الإسلامية زمن العباسيين ، وبالقطيعة فيما سبق ذلك . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١١٨ — ١٥٧) .

(٧) كذافى س ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 176.) هذا الاسم إلى (Ogulmusch) وهو فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ١٤٠١) "اغلمس" .

(٨و٩) أضيف ما بين الأقواس من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ١٤٠١ — ب) .

(١٠) انظر ص ٤٠٨ سطر ٣ .

و [فى هـذا التاريخ(١)] قدم كتاب الملك المنصور صاحب حماة ، وصحبته قصاد من التتار معهم فرمان(٢) له ، فشكره السلطان على ذلك ، واعتقل التتار . وفى(٣) [هذا التاريخ] سار الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار بعسكر إلى بلاد الصعيد ، وأوقع بالعربان و بدّد شملهم ، وذلك أنهم كثر طمعهم وهمّوا بتغيير الممالك ، ووثبوا على الأمير عز الدين المواش والى قوص وقتلوه .

و [فى شـعبان(٤)] كثر قدوم العزيزية والناصرية الذين كانوا صحبة الأمير البرلى ، فأكرمهم السلطان وعفا عنهم(٥) . و [فى هذه المدّة وصل الأمير فارس الدين أقوش المسعودى الذى كان قد توجه رسولا إلى الأشكرى . وكان] الأشكرى قد بعث يطلب(٦) من السلطان بطركا للنصارى الملكية ، فعين الرشيد الكحال لذلك ، وسيّره إليه مع الأمير فارس الدين أقوش المسعودى فى عدّة من الأساقفة . فلما وصلوا إليه أكرمهم وأعطاهم ، وأوقف الأمير أقوش على جامع بناه بالقسطنطينية ليكون فى صحيفة السلطان ثوابه . وعاد الأمير أقوش وصحبته البطرك المذكور ، فقدّم البطرك ما ورد على يده من هـدية الأشكرى للسلطان ، وقدّم أيضا ما حصـل له من المـال ، فرد السلطان ذلك عليـه . وجهز السلطان برسم جامع قسطنطينية الحصر العَبْدانى(٧) ، والقناديل المذهبة والستور المرقومة ، والمباخر والسجادات

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، س ٤٠١ ب) .

(٢) الفرمان فى اللغة ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء والقصاد ، يعلن فيها تنصيبهم ومأموريتهم ، والجمع فرمانات وفرامين وفرامنة . (Dozy : Supp. Dict. Ar. ؛ محيط المحيط) . ويظهر أن هؤلاء القصاد كانوا قد حضروا الى الملك المنصور من قبل التتار ليرسلهم الى السلطان بيبرس ، وأن فرمانه كان لتعريف السلطان بيبرس بهم .

(٣) فى س "وفيها" ، وقد أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، س ٤٠٢ ا) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) .

(٥ و ٦) فى س "وبعث الاشكرى يطلب ..." ، وقد عدلت الجملة وأضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) . هذا والأشكرى المقصـود هنا هو الإمبراطور (Michael VIII Palaeologus) ، وهو الذى أعاد الدولة البيزنطية إلى القسطنطينية تلك السـنة (Camb. Med. Hist. IV. pp. 607 et seq.) ، وقد صادف وصول الأمير فارس الدين إلى حضرته بعد ذلك بقليل . (ابن واصل : نفس المرجع ، س ٤٠٢ ا) .

(٧) بغير ضبط فى س ، والنسبة الى عبادان — فيقال عبادانى وعبدانى وعبادى أيضاً ، وهى بلد جنوبى البصرة قرب الخليج الفارسى ، وتقع فى جزيرة محاطة بمياه مصبات دجلة والفرات ، وكانت مشهورة بصنع الحصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ س ٥٩٧ وما بعدها ، Dozy : Supp. Dict. Ar.)

[إلى غير ذلك من البسط الرومية[1]] ، والعود والعنبر والمسك وماء الورد . وفيها أغار الأمير شمس الدين سنقر الرومى على أنطاكية ، ونازل صاحبها البرنس[2] وأحرق الميناء بما فيها من المراكب ، وكان معه [الملك الأشرف موسى] صاحب حمص ، [والملك المنصور[3]] صاحب حماة . ثم حاصر السويداء ، واستولى عليها وقتل وأسر وعاد ، فوصل إلى القاهرة يوم الخميس لليلة بقيت من شهر رمضان ، وصحبته من الأسرى نحو مائتين وخمسين أسيرا . فأكرمه السلطان ، وأحسن إلى الأمراء ، وسير الخلع إلى الملكين المذكورين .

وفى ثالث شهر رمضان عزل السلطان قاضى القضاة برهان الدين السنجارى عن قضاء مصر والوجه القبلى ، وأعاد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، فصار بيده قضاء القضاة بديار مصر كلها . وكان متشددا فى أحكامه ، فرسم له فى ذى القعدة أن يستنيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية (١٢٠ ب) والحنابلة ، فاستنابهم ١
فى الحكم عنه ، ولم يعرف ذلك بمصر قبل هذا الوقت : فجلس القاضى صدر الدين سليمان الحنفى ، والقاضى شرف الدين عمر السبكى المالكى ، والقاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى ، فى أول ذى القعدة وحكموا بين الناس بمذاهبهم . وفى رابعه قبض على الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى نائب الشام ، وحمل إلى مصر فاعتقل بقلعة الجبل ، وكانت مدة نيابته سنه وشهرا . وحكم فى دمشق بعده الأمير علاء الدين أيدغدى ١
الحاج الركنى إلى أن يحضر نائب .

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٢ ب) .

(٢) هذا تعريب واضح للفظ (prince) أى أمير ، وكان أمير أنطاكية تلك السنة بوهمند السادس (Bohemond VI of Antioch) ، وهو من أولئك الصليبيين الذين رأوا أن مصادقة التتر هى الوسيلة الباقية لمناوأة القوى الإسلامية بالشام ، ولذلك كان بيبرس يتحين الفرص لمحاربته . فلما هدأت أمور حلب على يد الأمير شمس الدين سنقر الرومى المذكور ، أمره السلطان بالإغارة على أنطاكية ، وقد رافقه إلى تلك الغارة الملك المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص ، كما بالمتن . (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٤٠٣ ا ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٨ ، فى (Rec. Hist. Or. I .

(٣) انظر الحاشية السابقة .

وفيها كثر الإرجاف فى دمشق بحركة التتار ، فكتب السلطان برحيل أهل الشام بأهاليهم إلى مصر . فحضر من تلك البلاد خلق كثير ، بعد ما كتب [السلطان] إلى الولاة بتخفيرهم[1] ، وألا يؤخذ منهم مكس ولا زكاة ، ولا يُتعرض لما معهم من متجر ولا غيره ، ولا تُفتش تجارة[2] ، فاعتمد ذلك . وكتب [السلطان] إلى حلب بتحريق الأعشاب ، فسيرت[3] جماعة إلى بلاد آمد وغيرها وحرقت الأعشاب التى كانت بالمروج التى [جرت] عادة هولاكو أن ينزلها . فعمّت النار مسيرة عشرة أيام حتى صارت كلها زمادا ، وعمّ الحريق بلاد خلاط ، وقُطع السنبل وهو أخضر .

و [فيها] خرجت الكَشّافة[4] من دمشق وغيرها ، فظفروا بكثير من التتار يريدون القدوم إلى مصر مستأمنين . وقد كان الملك بركه بعثهم نجدة إلى هولاكو ، فلما وقع بينهما كتب يستدعيهم إليه ، ويأمرهم إن تعذّر عليهم اللحاق به أن يصيروا إلى عساكر مصر . وكان سبب عداوة بركه وهولاكو أن وقعة كانت بينهما[5] ، قُتل فيها ولد هولاكو وكُسر

(١) فى س "لتحفيرهم" .

(٢) فى س "نفش محاره" .

(٣) فى س "فسير" .

(٤) الكشافة جمع كشاف ، ومعناها هنا فئة معينة من العسكر ، وكان عملها الخروج لكشف أخبار العدو . (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 180. N. 61) .

(٥) توجد أقوال كثيرة فى تعليل سبب العداوة بين هولاكو وبركه ، ومنها عدا ما ورد بالمتن أن بركه لم يرض عما فعله هولاكو ببلاد المسلمين وأنه عنفه لقتله الخليفة المستعصم ، ومنها أن تأسيس دولة هولاكو بفارس لم يرق فى عين بركه ولا سيما بعد إدماج بلاد أرّان وآذربيجان داخل حدودها ، مع أنهما كانتا من إرث جوشى أبى بركه حسب وصية جنكزخان . (Enc. Isl. Art. Berke) . هذا وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٠١ ، وما بعدها) أن العداوة بين هولاكو وبركه نشأت من عدم مظاهرة بركه للخان الأعظم قوبيلاى ، وانتصاره لأخ صغير اسمه (Arigha-Buga) . ولهذا القول نصيب من الاعتبار ، لأن المعروف أن بركه اعترف بهذا الأخ الصغير خانا أعظم على جميع بلاد التتر . انظر (D'Ohsson; Op. Cit. III. pp. 377 et seq.; (Enc. Isl. Art. Berke) وقد ذكر ابن أبى الفضائل (نفس المرجع ، ص١٠٢ ، وما بعدها) سببا ثانيا لتلك العداوة قد لا يقل عن سابقه فى القيمة ، وهو أن هولاكو كان منذ صار بركه ملكا على مغول القبشاق قد منع عن ذلك الفرع المغولى نصيبه المعتاد من مغانم الحروب ، وهذا نص ما جاء فى المرجع المذكور : " ومما نقله الصاحب عز الدين بن =

عسكره وتمزقوا فى البلاد ، وصار هولاكو إلى قلعة بوسط بحيرة آذربيجان محصورا بها .
فلما بلغ ذلك السلطان سُرّ به ، وفرح الناس باشتغال هولاكو عن قصد بلاد الشام .
وكتب [السلطان] إلى النوّاب بإكرام الوافدية من التتار . والإقامة لهم بما يحتاجون إليه من العليق والغنم وغيره ؛ وسيرت إليهم الخلع والإنعامات والسكر ونحوه . وساروا إلى القاهرة ، فخرج السلطان إلى لقائهم فى سادس عشرى ذى الحجة ولم يتأخر أحد عن مشاهدتهم ، فتلقاهم وأنزلهم فى دور بنيت لهم فى اللوق[1] ظاهر القاهرة ، وعمل لهم دعوة عظيمة هناك ، وبعث إليهم الخلع والخيول والأموال . وأمّر [السلطان] أكابرهم ، ونزل باقيهم فى جملة البحرية ؛ وكانوا مائتى فارس بأهاليهم ، فحسنت حالهم ، ودخلوا فى الإسلام[2] .

= شداد فى سيرة الملك الظاهر [بيبرس] لما نقل هذه السنة ، وسبب الخلف الذى وقع بين التتار ، قال حكى لى علاء الدين بن عبد الله البغدادى أحد أصحاب الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار ، قال أخذونى (كذا) التتار أسيرا من بغداد لما (١٠٣) أخذوها (كذا) التتار ، وكنت قد عدت عندهم مختلطا بهم ومتطلعا على أخبارهم . فلما كانت سنة ستين وستمائة ورد من عند بركه [خان] رسولان ، أحدهما يسمى بلاغيا والآخر ططرشاه ، برسالة ضمنها ما جرت به العادة ، ومن جملتها حمل ما جرت به العادة إلى بيت باتو [خان] ، مما كانوا يحملونه من فتوح البلاد . وكانت العادة أن يجمع [التتر] ما يحصل فى البلاد التى يملكونها ويستولون (فى الأصل يستولوا) عليها من نهر جيحون مغرّبا فيقسم خمسة أقسام ، قسمان للقان الكبير وقسمان للعسكر وقسم لبيت باتو [خان] . فلما مات باتو وجلس بركه على التخت منع هولاوون (كذا) قسمه ، فبعث بركه رسله إلى هولاوون وبعث فيهم سحرة يفسدون (فى الأصل يفسدوا) سحرة هولاوون . وكان عند هولاوون ساحر يسمى (١٠٤) يكشا ، فأعطوه هدية بعثها بركه إليه ، وسألوه أن يوافقهم على غرضهم فاتفق معهم . وكان هولاوون [قد] جعل لهؤلاء الرسل من يخدمهم ، وجعل فى الجملة ساحرة تسمى كشا لتطلعه على أخبارهم . فلما علمت أخبارهم أخبرته بذلك ، فأمر بالقبض عليهم فى قلعة تلا ، ثم قتلهم بعد خمسة عشر يوما من قبضهم ، وقتل الساحر الذى كان له المسمى يكشا . فلما بلغ بركه قتل رسله وسحرته أظهر العداوة لهولاوون ، وبعث رسله إلى الملك الظاهر [بيبرس] يحرضه على اجتماع الكلمة على بيت هولاوون ...» .

(١) كانت أراضى اللوق هذا حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١١٧) بساتين ومزروعات ، ليس فيها من الأبنية سوى ما كان قد عمره بها القاضى الفاضل لنفسه ، فكان مجىء أولئك التتار سببا لبناء دور للسكن بها لأول مرة . وقد تكاثر الوافدون من التتر بعد ذلك على مصر ، نتيجة حسن معاملة السلطان بيبرس لإخوانهم السابقين ، فأدى تكاثرهم إلى زيادة العمارة بأرض اللوق . (انظر الحاشية التالية)

(٢) توجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١١٧ — ١١٨) تفصيلات أوفى عما اتفق لهؤلاء التتر ومن جاء بعدهم إلى مصر ، ومنها يتبين أن أعدادا كثيرة منهم اندمجت فى سلك المماليك وحيت حياتهم الحربية ، وهذا نصها : «فأعطى [السلطان] كبراءهم إمريات ، فنهم من عمله أمير مائة ومنهم =

وكتب [السلطان] إلى الملك بركه كتابا ، وسيره مع الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كسريك(١) .

وفيها (١٢١ ا) سار صَنْدَغُوْن(٢) مقدم التتار إلى الموصل ، ونصب عليها خمسة وعشرين منجنيقا ، ولم يكن بها سلاح ولا قوت فاشتد الغلاء . وحاصرها [صندغون] حتى خرج إليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك الرحيم [بدر الدين] لؤلؤ الأتابكى ، فى يوم الجمعة النصف من شعبان ، فقبض عليه وعلى من معه . ووقع التخريب فى سور المدينة وقد اطمأن أهلها ، ثم اقتحموها ووضعوا السيف فى الناس تسعة أيام ، ووسّطوا علاء الدين(٣) بن الملك الصالح ، ونهبوا المدينة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والذرية ، وهدموا المبانى وتركوها بلاقع ، ورحلوا بالملك الصالح إسماعيل ، ثم قتلوه(٤) [وهم فى طريقهم إلى هولاكو] .

وفيها خرج الأمير شمس الدين أقوش البُرْلى(٥) من حلب نجدة للملك الصالح ، فأدركه التتار بسنجار وواقعوه ، فانهزم منهم إلى البيرة فى رابع عشر جمادى الآخرة . ثم(٦) استأذن

= دون ذلك ، ونزل بقيتهم من جملة البحرية ، وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير فى خدمته الأجناد والغلمان ، وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم ، وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الإسلام . فلما (١١٨) بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء وفد عليه منهم جماعة ، وهو يقابلهم بمزيد الإحسان ، فتكاثروا بديار مصر ، وتزايدت العمائر باللوق وما حوله ، وفى سادس ذى الحجة من سنة إحدى وستين [وستمائة] قدم من المغل والبهادرية زيادة على ألف وثلاثمائة فارس ، فأنزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهاليهم وأولادهم " .

(١) كذا فى س . انظر ما يلى (ص ٤٧٩ ، سطر ١٤) ، حيث سمى المقريزى هذا الأمير باسم سيف الدين كشتك ، وهو مترجم إلى (Keschtek) فى (Quatremère: Op. Cit. I. I. p. 181) .

(٢) فى س "صدغون" بنقط النون من تحتها ، وبغير ضبط ، راجع ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٩٤) . وقد تقدمت الإشارة إلى سبب مسير هذا القائد التترى إلى الموصل تلك السنة . انظر ص ٤٦٧ ، حاشية ٤ .

(٣) كان عمر علاء الدين هذا تلك السنة ثلاث سنين ، وقد سقاه التتر خمرا قبل قتله ، ثم وسطوه بحبل قوس شدّوه حول وسطه حتى انقطع جسمه نصفين . (D'Ohsson. Op. Cit. III. p. 374) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٩٤) ، وهناك رواية أخرى فى مصرع الملك الصالح ، وهى أنه وصل فعلا إلى حضرة هولاكو فأمر بوضعه فى جلد شاة ، وتركه فيها معرضا لحرارة الشمس مدة شهر كامل ، حتى مات . (D' Ohsson. Op. Cit. III p. 374) .

(٥) مضبوط هكذا فى س . (٦) فى س "واستاذن".

[الأميرُ شمس الدين السلطانَ] في العبور إلى مصر ، فأذن له وسار إلى القاهرة فدخلها أوّل ذى القعدة ، فأنعم عليه السلطان وأقطعه إمرة سبعين فارسا . وولى [السلطان] بعده نيابة حلب الأمير عز الدين أيدمر الشهابي ، فواقع أهل سيس وأخذ منهم جماعة ، و بعثهم إلى مصر فوُسّطوا .

وفيها وفد على السلطان بعيد كسرة المستنصر شيوخ عبادة وخفاجة ، من هيت والأنبار إلى الحلة والكوفة[(١)] ، وكبيرهم خضر بن بدران بن مقلد بن سليمان بن مهارش العبادى ، وشهري[(٢)] بن أحمد الخفاجي ، ومقبل بن سالم ، وعياش بن حديثة ، ووشاح وغيرهم . فأنعم السلطان عليهم وكانوا له عينا على التتار .

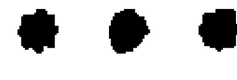
ومات في هذه السنة من الأعيان الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد العباسى ، قتيلا في المعركة قريبا من هيت . وتوفى شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن المهذب السلمى الشافعى ، عن اثنتين وستين سنة ، فى ...[(٣)] . وتوفى الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن نجم الدين أبى الحسن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن العديم الحنفي بالقاهرة[(٤)] ، عن نيف وستين سنة . وتوفى الأديب محيى الدين أبو العز يوسف بن يوسف بن يوسف بن سلامة بن ز بلاق الهاشمى الموصلي الأديب الشاعر الكاتب ، قتيلا بالموصل ، عن سبع و خمسين سنة .

(١) يلاحظ أن هذه البلاد كانت حتى مقتل الخليفة المستعصم بيد الأمير شمس الدين سلار ، وهو الذى جاء إلى السلطان بيبرس قبلا فأكرمه وأحسن إليه . (انظر ص ٤٦٨ ، حاشية ٣) . وقد كتب الأمير شمس الدين بعد ذلك إلى من تأخر من خشداشيته وإلى أصحابه من خفاجة ، وأخبرهم بما ناله من الإحسان على يد السلطان (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٤٠٠ ا) ، فلحقوا به كما بالمتن .

(٢) كذا في س .

(٣) بياض في س ، وقد ورد في ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٨ ب) أنه توفي بمصر .

(٤) جاء في (Enc. Isl. Art. Kamal al Din) أن الصاحب كمال الدين ابن العديم ، وهو مؤلف كتاب تاريخ حلب المشهور ، كان قد هرب مع الناصر صاحب حلب من وجه التتر إلى القاهرة . ثم استدعاه هولاكو إلى الشام ليوليه قضاء القضاة بها ، غير أنه ظل مقيما بالقاهرة حتى مات .



سنة إحدى وستين وستمائة . فى الخميس ثامن المحرم جلس الملك الظاهر مجلساً عاما جمع فيه الناس ، وحضره التتار الذين وفدوا من العراق والرسل المتوجهون إلى الملك بركه . وجاء الأمير أبو العباس أحمد بن أبى بكر على بن أبى بكر بن أحمد بن المسترشد بالله العباسى ، وهو راكب ، إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل . وجلس إلى جانب السلطان ، وقُرئ نسبه على الناس بعد ما ثبت على قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، ولُقب بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين[1] ، وتولى قراءة نسبه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر . فلما ثبت ذلك مدّ السلطان يده وبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد أعداء الله . وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها ، والوفاء بالعهود وإقامة الحدود ، وما يجب على الأئمة فعله فى أمور الدين وحراسة المسلمين . فلما تمت البيعة أقبل [الخليفة] على السلطان وقلده أمور البلاد والعباد ، وجعل إليه تدبير الخلق ، وأقامه قسيمه فى القيام بالحق ، وفوّض إليه سائر الأمور ، وعلّق[2] به صلاح الجمهور . ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم فى مبايعته ، فلم يبق ملك ولا أمير ولا وزير ولا قاض ولا (١٢١ ب) مشير ولا جندى ولا فقيه إلا وبايعه . فلما تمت البيعة تحدث السلطان معه فى إنفاذ الرسل إلى الملك بركه ، وانفض الناس .

فلما كان يوم الجمعة ثانى هذا اليوم ، اجتمع الناس وحضر الرسل المذكورون ، وبرز الخليفة الحاكم بأمر الله وعليه سواده ، وصعد المنبر لخطبة الجمعة فقال : "الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا وظهيرا ، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا . أحمده على السراء والضراء ، وأستنصره على دفع الأعداء . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا

(١) ليس فى ما يقابل هذه العبارة فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٨ ، فى Rec. Hist. Or. I. تشكيك فى صحة نسبة هذا الخليفة كتشكيكه السابق بصدد الخليفة المستنصر ، (انظر ص ٤٥٠ ، حاشية ٢) ، على أن عبارته لم تخل من الغمز ، وهذا نصها "وفى أواخر ذى الحجة من هذه السنة جلس الملك الظاهر مجلساً عاما ، وأحضر شخصاً ... من نسل بنى العباس يسمى أحمد ، بعد أن أثبت نسبه ، وبايعه بالخلافة . ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ...".

(٢) فى س "عدق".

عبده ورسوله صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء الأربعة الخلفاء ، وعلى العباس عمه وكاشف غمه أبى السادة الخلفاء الراشدين[1] والأئمة المهديين ، وعلى بقية الصحابة التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . أيها الناس ! اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ، ولا يقوم عَلَم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد ، ولا سُبيت الحُرُم إلا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم . فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام[2] ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا الرجال والأبطال والأطفال ، وهتكوا حرم الخليفة والحريم ، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم ، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل ، وعَلَت الضجّات من هول ذلك اليوم الطويل . فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم طفل بكا فلم يرحم ابكائه . فشمّروا عن ساق الاجتهاد فى إحياء فرض الجهاد وَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُم ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُم ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . فلم تبق معذرة عن أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين " .

" وهذا السلطان الملك الظاهر ، السيد الأجل العالم العادل المجاهد المرابط ركن الدنيا والدين ، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار ، وشرّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار . فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود ، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود . فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تُنصروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ولا يُرَوِّعنّكم ما جرى ، (١٢٢ ا)[3] فالحرب سجال والعاقبة للمتقين ، والدهر يومان والأخرى المؤمنين . جمع الله على التقوى أمركم ، وأعزّ بالإيمان نصركم ، وأستغفرُ الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم " .

وجلس [الخليفة] جلسة الاستراحة ، ثم قام للخطبة الثانية وقال . " الحمد لله حمدا يقوم

(١) كذا فى س ، والمقصود بالسادة الخلفاء الراشدين هنا بنو العباس .

(٢) المقصود بهذا بغداد ، والإشارة إلى سقوطها فى يد التتار .

(٣) يوجد بهامش هذه الصفحة فى س ، علامة مكتوبة هكذا ٣٣ ، ولعلها إشارة أخرى إلى السنة التى وصل المقريزى فيها إلى هذا الشطر من السلوك ، أى سنة ٨٣٣ هـ . (انظر ص ٤٣٨ ، حاشية ٥ ؛ ص ٤٦٩ ، حاشية ١) .

بشكر نعمائه ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له عدة للقائه ، وأشهد أن محمدا سيد رسله وأنبيائه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلق فى أرضه وسمائه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، إن أحسن ما وعظ به الإنسان كلام الملك الديان : يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلكم خير لكم وأحسن تأويلا . نفعنا الله وإياكم بكتابه ، وأجزل لنا ولكم من ثوابه ، وغفر لى ولكم وللمسلمين أجمعين ، والحمد لله رب العالمين[(١)]" . ثم نزل [الخليفة] وصلى بالناس صلاة الجمعة ، وانصرف .

وفى هذا اليوم خُطب على منابر القاهرة ومصر بالدعاء للخليفة الحاكم بأمر الله ، وكُتب إلى الأعمال بذلك ، فخطب له بدمشق فى يوم الجمعة سادس عشره . وقد قيل فى نسبه إنه أبو العباس أحمد بن الأمير محمد بن الحسن بن أبى بكر بن الحسن بن على القُبّى[(٢)] بن الحسن ابن أمير المؤمنين الراشد بن المسترشد ؛ وهو الخليفة التاسع والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، وليس فيهم بعد السفاح والمنصور من ليس أبوه وجده خليفة غيره ، وأما من ليس أبوه خليفة فكثير .

وتجهز الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كش تك[(٣)] ، وكُتب على يدهما كتب بأحوال الإسلام ومبايعة الخليفة ، واستمالة الملك بركة وحثه على الجهاد ، ووصف عساكر المسلمين وكثرتهم وعدة أجناسهم ، وما فيها من خيل[(٤)] وتركمان وعشائر وأكراد ، ومن

(١) يوجد نص هذين الخطبتين فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٠ ا — ب) .

(٢) كذا فى س ، بضم القاف فقط . ولعل هذه النسبة مأخوذة من قبة الحمار ، وهى دار أنشأها الخليفة المكتفى بالله فى بغداد ، وسميت بذلك الاسم لأنه كان يصعد إليها على حمار له . وكانت بلدة الرحبة تعرف باسم قبة الكوفة ، ومن هذه التسمية خرّج ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٣) تلك النسبة .

(٣) كذا فى س ، وقد تقدّم ذكر هذا الأمير باسم "كسريك" ، (انظر ص ٤٧٥ ، سطر ٢) وهو وارد بهذا الرسم المتقدم من غير نقط فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٩ ا) ، وأصله حسبما جاء فى نفس المرجع والصفحة ، "رجل تركى كان جدار خوارزم شاه ، له معرفة بالبلاد وخبرة بالألسنة".

(٤) فى س "حيل" ، وفى ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) "خيل تركمان" ، بغير واو بين اللفظين أو نقط البتة .

واتقها وهاداها وهادنها ، وأنها كلها[1] سامعة مطيعة [لإشارته ، إلى غير ذلك من] الإغراء بهلاون وتهوين أمره والإشلاء عليه وتقبيح فعله ، ونحو ذلك . وجهز [السلطان] معهما أيضا نسخة نسبة الخليفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأُذْهِبَت وكتب فيها الإسجال بثبوتها . وجُمعت الأمراء والقفاردة[2] وغيرهم وقرئت عليهم الكتب ، وسلمت إلى الرسل . وسُيِّر معهما نفران من التتر أصحاب الملك بركه ليعرفاهما[3] بالطرق ، وساروا فى الطرائد ومعهم زوادة أشهر . فوصلوا إلى الأشكرى فقام بخدمتهم ، واتفق وصول رَسَلٍ[4] الملك بركه إليه (١٢٢ ب) فسيّرهم صحبته وعاد الفقيه مجد الدين لمرض نزل به ، ومعه كتاب الأشكرى بمسير الأمير سيف الدين ورفقته . وسار الأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى إلى نيابة دمشق ، ومعه الصاحب عز الدين عبد العزيز بن وداعة وزير دمشق ، وعلى يده تذاكر[5] شريفة بعد ما خلع عليهما .

وفى سابع ربيع الآخر سار السلطان من قلعة الجبل إلى بلاد الشام ، ونزل خارج القاهرة ، ورحل فى حادى عشره ، ودام الصيد إلى أن دخل غزة ، بعد ما ضرب حلقة بثلاث آلاف

(١) عبارة المقريزى هنا غير مستقيمة ، ونصها : "وانها كلها سامعه مطيعه واغراه بهلاوون..." ، وقد عدلت وأضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) .

(٢) جمع مفردى ، والقفاردة نوع من عساكر حلقة السلطان . ويظهر أنهم أفردوا بهذه التسمية لتبعيتهم مباشرة لديوان المفرد ، وهو ديوان يرجع تأسيسه إلى أيام الفاطميين ، وكانت تخرج منه فى زمن الدولة المملوكية نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة . (انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٠٧ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٧ (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 187. n. 66 ; G.- Demombynes: Op. Cit. Introd. P. XXXIII).

(٣) فى س "ليعرفهما" .

(٤) الرسل ، كما هو مضبوط بالمتن ، الجماعة والقطيع من كل شىء ، وجمعه أرسال . (محيط المحيط) .

(٥) التذاكر جمع تذكرة ، وهى كما يدل معناها اللفظى كل مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه بالأقاليم المصرية ونيابات الشام ، أو إلى قصاده الذين يرسلهم فى مهام الدولة ، لتذكرتهم بتفاصيل ما يوكل إليهم ، وليكون بمثابة ورقة اعتماد وحجة عند الجهات التى يقصدونها . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٧٩ — ١٠٤) . انظر أيضاً (G.-Demombynes : OP.Cit. Introd. P. LXX) ، حيث ترجم لفظ تذكرة إلى (note résumée) ؛ وقد ترجمه (Quatremère : Op. Cit. I. I. P. 188. N. 68) إلى (un acte, un rescrit émané du prince) .

فارس فى العريش ، فوقع فيها صيد كثير جدا . وتقطر[1] الأمير شمس الدين سنقر الرومى [عن فرسه] ، فسار السلطان إليه ونزل عنده ، وجعل رأسه على ركبته وأخرج من خريطته مُومِيا[2] وسقاه ، وأخذه معه إلى خيمته . وتقطر الأمير سيف الدين قلاون ، فاعتمد [السلطان] معه مثل ذلك .

وقدم عليه فى غزة جماعة منهم أم الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب صاحب الكرك ، فأنعم عليها إنعاما كثيرا وأعطى سائر من كان معها ، [وحصل الحديث فى حضور ولدها[3] إلى السلطان] ، وعادت إلى ابنها بالكرك . ومن جملة ما زوّدها به [السلطان] من صيده خمسة عشر حملا ، وسار معها الأمير شرف الدين الجاكى المهمندار ، برسم تجهيز الإقامات للملك المغيث إذا حضر . ونظر السلطان فى أمر التركمان ، وخلع على أمرائهم وعلى أمراء [العربان[4] من] العايد[5] وجرم وثعلبة ، وضمّنهم البلاد وألزمهم القيام بالعِدَاد[6] ، وشرط عليهم خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه . وكتب إلى ملك شيراز وأهل تلك الديار ، وإلى عرب خفاجة ، يستحثهم على قتال هولاكو ملك التتار ، وأن الأخبار قد وردت من البحر بكسر الملك بركة له غير مرة .

(١) كذا فى س وقد دأب الناشر على إصلاح هذا الفعل " تقنطر" فيما سبق من الصفحات ، على أن الصيغة الموجودة بالمتن هنا واردة فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، مقرونة باستشهاد على صحتها فى اللغة العربية الفصحى .

(٢) المومیا — وهى لفظة يونانية الأصل — مادة دواء يستعمل شربا ومروخا وضمادا ، ويستخدم كثيرا لجبر العظام المكسورة . وهى مادة تنحدر من بعض الجبال مع الماء ، وتفوح منها وهى جامدة رائحة مثل رائحة الزفت . وتطلق المومیا أيضا على الدواء المعروف بقفر اليهود ، وهى حجارة سود فيها تجويف توجد فى صنعاء اليمن ، وتكسر هذه الحجارة فيوجد فى تجويفها ماء سائل أسود ، فتغلى الحجارة والسائل فى الزيت لتقذف جميع ما فيها من تلك الرطوبة السوداء السيالة . (محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، س ٤١٢ ب) .

(٤) أضيف ما بين الأقواس من ابن واصل (نفس المرجع ، س ٤١٢ ب) .

(٥) فى س "العابد" . راجع القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، س ٢٠٥ ، ٢١١) .

(٦) العداد هنا زكاة مفروضة للسلطان سنويا على قطعان القبائل العربية والتركمانية ، وفى (Quatremère : Op. Cit. I. I. p. 189. N. 69) أمثلة لتوضيح هذه الزكاة ، منها أنه كان يتحصل من التركمان "فى كل سنة عشرات آلاف من الغنم ، تؤخذ منهم عن زكاة أغنامهم ، يقال لها العداد" . (انظر أيضا محيط المحيط) .

ثم رحل [السلطان] من غزة [إلى جهة الساحل]، ونزل الطور فى ثانى عشر جمادى الأولى، وقدم [إليه[1] هناك] الملك الأشرف صاحب حمص فى خامس عشره بإذن [منه]. فتلقاه السلطان وأكرمه، وبعث إليه سبعين غزالا فى دفعة واحدة، وقال: "هذا صيد يومنا هذا، جعلته لك". وخرج [إليه] الملك المغيث من الكرك، بعد ما كاتبه الملك الظاهر يستدعيه وهو يسوّف به. فأظهر السلطان من الاحتفال به شيئاً كثيرا، وخدعه أعظم خديعة، وكتم أمره عن كل أحد. فلما وصل [المغيث] بيسان ركب السلطان إلى لقائه فى سادس عشرى جمادى الأولى، ووافاه فى أحسن زىّ. فعند ما التقيا ساق الملك المغيث إلى جانب السلطان، فسار به إلى (١٢٣ ا) الدهليز السلطانى، ودخلا إلى خركاه، وللوقت قُبض عليه. وأحضر [السلطانُ] الملوكَ والأمراء، وقاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان — وكان قد استدعاه من دمشق، والشهود والأجناد ورسل الفرنج. وأخرج [السلطان] إليهم كُتُب الملك المغيث إلى التتار وكُتُب التتار إليه، وأخرج أيضا فتاوى الفقهاء بقتاله، وأحضر أيضا القصاد الذين كانوا يسفرون بينه و بين هولاكو. ثم قال[2] الأميرُ الأتابكُ لمن حضر: "السلطان الملك الظاهر يسلم عليكم، ويقول ما أخذتُ الملك المغيث إلا بهذا السبب"، وقرئت الكتب المذكورة عليهم[4]. فكُتب بصورة الحال، وأثبت القضاة خطوطهم فى المكتوب، وانفض الجمع. وجلس السلطان وأمر فكتب إلى من بالكرك يعدهم و يحذرهم، وسير الأمير بدر الدين بيسرى، والأمير عز الدين الأستادار، بالكتب والخلع والأموال إلى الكرك. وأرسل الملك المغيث عِشاء إلى مصر مع الأمير

(١) أضيف ما بين الأقواس فى هذه الفقرة كلها من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٣ أ).

(٢) فى س "وقال".

(٣) فى س "الملك الظاهر السلطان".

(٤) كانت هذه الكتب حسبما ورد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٣ ب) أجوبة كتب من الملك المغيث "مضمونها شكر هلاوون ملك التتر منه، واعتداده باعتزايه (كذا) إليه، ويعده بوعود حسنة، ويقول فى أمور منها قد أطعمتك من بصرى إلى غزة، ويقول قد عرفت ما أشار إليه من طلب عشرين ألف فارس يسيرها إليه يفتح مصر، ويعده بارسالها ويوصيه على أمور جمة".

شمس الدين آقسنقر الفارقانى السلاح دار ، فسار به إلى قلعة الجبل وسجنه بها ؛ وأطلق [السلطان] حواشيه ، و بعث بحريمه إلى مصر ، وأطلق لهم الرواتب .

ولما خلا بال السلطان من همّ الملك المغيث ، توجه بكليّته إلى الفرنج : فإنهم [كانوا قد] شرعوا فى التعلل وطلبوا زرعين ، فأجابهم السلطان "بأنكم تعوضتم عنها فى الأيام الناصرية ضياعا من مرج عيون(١) " ، [وهم لا يزدادون إلّا شكوى . وآخر الحال طلب الفرنج من والى غزة كتابا بتمكين رسلهم إذا حضروا(٢) ، فكتب لهم الكتاب ، وتواصلت بعد ذلك كتبهم] . ووردت كتب النواب بشكواهم ، وأنهم اعتمدوا أمورا تفسخ الهدنة فلما صار السلطان فى وسط بلادهم وردت عليه(٣) كتبهم ، وفيها : "ما عرفنا بوصول السلطان" . فكتب(٤) إليهم : "من يريد [أن] يتولى أمرا ينبغى أن يكون فيه يقظة ، ومن خفى عنه خروج هذه العساكر ، وجهل ما علمته الوحوش فى الفلاة والحيتان فى المياه ، من كثرتها التى [لعل] بيوتكم ما فيها موضع إلا ويُكْنَسُ منه التراب الذى أثارته خيل هذه العساكر ، ولعلّ وقع سنابكها قد أصمّ أسماع من وراء البحر من الفرنج ، ومن فى مُوقان(٥) من التتار . فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون ، فأى شىء تعلمون ؟ [وماذا تحيطون به علما ؟ ولمَ لا أعطيتم لوالى غزة الكتاب الذى كنا سيرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر ؟ " فقال الرسول : " نسينا ، وما علمنا كيف عُدِم .

---

(١) وقعت تلك المفاوضات الأولى ، حسبما سبق وروده هنا ، سنة ٦٥٩ هـ . (انظر ص ٤٦٤ ، سطر ٥) .

(٢) عبارة السلوك هنا مختصرة جدا ، وتنقصها بعض حقائق لازمة لفهم تسلسل الحوادث ، وقد أضيف ما بين الأقواس فى هذه الفقرة وما يليها من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٤ ا ــ ب) .

(٣) فى س " علهم " .

(٤) يفهم من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) أنه لما وصلت كتب شكاوى النواب من تعدى الفرنج ومن عدم احترامهم للهدنة القائمة ، أجاب السلطان الظاهر بأنه سيحقق تلك الأمور جميعا عند مجيئه إلى الشام ، وأشار بدعوة الفرنج إلى حضرته من أجل ذلك . فلما جاء إلى الشام ورد إليه رسول من الفرنج وهنأه بسلامة الوصول ، وقال له بأن الفرنج لم يعرفوا بمجيئه ، وكان جواب السلطان للرسول كما يلى بالمتن . ويلاحظ أن المفهوم من عبارة المقريزى هنا أن ذلك كله حدث بالمكاتبة .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى إحدى أقسام آذربيجان ، ويطلق عليها أهلها موغان أيضا ، وبها مروج كثيرة تحتلها التركمان للرعى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٨٦) .

فكان الجواب : "إذا نسيتم هذا فأى شىء تذكرون ؟ وإذا ضيّعتموه فأى شىء تحفظون ؟" وانفصل الحال على هـذا] . ووصلت نوّاب يافا ونوّاب أرسوف بهدية ، فأخذت منهم [تطمينا لقلوبهم ، وتسكينا لهم . هذا] و [قد] أمر السلطان ألا ينزل أحد فى زرع الفرنج ولا يسيب فرسا ، ولا يؤذى لهم ورقة خضراء ، ولا يتعرض إلى شىء من مواشيهم ولا إلى (١٢٣ ب) أحد من فلاحيهم .

وكانت كتبهم أولا ترد بندمهم على المدنة وطلبهم فسخها ، فلما قرب السلطان منهم صارت ترد بأنهم باقون على العهد متمسكون بأذيال المواثيق[(١)].

وفى اليوم الذى قُبض فيه على الملك المغيث ، أمر السلطان بإحضار بيوت[(٢)] الفرنجية وقال: "ما تقولون ؟" قالوا : "نتمسك بالمدنة التى بيننا". فقال [السلطان] : "لمَ لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان ، وإنفاق الأموال التى لو جرت لكانت بحارا ؟ ونحن [لما حضرنا إلى هاهنا[(٣)]] ما آذينا لكم زرعا ولا غيره ، [ولا نُهب لكم مال ولا ماشية ، ولا أُسر لكم

---

(١) انظر ملحق رقم ١ فى آخر هذا الجزء ، وهو نص لمضمون كتب وردت إلى السلطان بيبرس من عند مقدم هيئة الفرسان الاسبتارية تلك السنة ، وجواب السلطان عليها .

(٢) المقصود بالبيوت هنا الدويلات الصليبية الباقية بالشام ، مثل بيت الاسبتار وبيت الداوية وإمارة يافا وإمارة أنطاكية . وفى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٤ أ) مثل على هذا الاستعمال ، ونصه : "ولما استقل ركاب الملك الظاهر وسار إلى وسط بلاد الفرنج ، ورد رسول منهم يذكرون أن البيوت يقبلون الأرض ويهنون بالسلامة ..." . على أن تسمية الدويلات الصليبية باسم "البيوت" له معناه ، فإن بيتى الإسبتارية والداوية كانا قد أصبحا — فى تلك الأيام الباقية للصليبيين بالشرق — القوة الحربية التى يعتد بها هناك . ولقد كان من بين الرسل الفرنج الذين جاءوا لحضرة السلطان تلك السنة ، واحد من قبل (Hugh Revel) رئيس الاسبتار ، وآخر من عند (Thomas Bernard) رئيس الداوية . انظر : King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. pp. 258-259).

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص٤١٥ أ) . وسيلاحظ القارئ كثرة الإضافات بالصفحات التالية ، وكلها من نفس المرجع (ص ٤١٥ أ — ٤٢٦ ب) ، وسبب كثرة هذه الإضافات أن المقريزى اختصر ما أورده هنا من هذه الوثائق اختصارا مخلا ، مع أن المقام كان يقتضى منه النقل الحرفى . على أنه ليس مفهوما تماما سبب اختصار المقريزى لهذه الوثائق ، وقد يكون ذلك راجع إلى أن بعض الحقائق المتعلقة بها غير موجودة فى صلب كتاب السلوك ، أو لأن المقريزى نقل هنا من مرجع مختصر .

أسير] . وأنتم منعتم الجَلَب(1) والميرة عن العسكر، [وحرّمتم خروجَ شيء من الغلات والأغنام وغير ذلك ، ومن انفرد من غلمان العسكر أسرتموه .] وسَيّرتم إلينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها ، وسَيّرنا نسخة يمين [من عندنا] لم تحلفوا عليها ، وعملتم أنتم نسخة حلفتم عليها ، وشرط اليمين الأولى تتعلق بالثانية . وسيرنا الأسارى إلى نابلس ومنها إلى دمشق ، وما سيرتم أنتم أحد ، وكلّ بيت يحيل على الآخر؛ [وما سيرنا الأسارى إلا وفاء بالعهد وإقامة الحجة عليكم]. وسَيّرنا كمال الدين بن شيث رسولا يعلمكم بوصول الأسرى ، فلم تبعثوا أحدا ، ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم ، كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم . وأموال التجار شَرَطتم القيام بما أخذتموه منها ، ثم قلتم ما أُخِذَت من بلادنا وإنما أخذت في أنطرسوس ، وحُمل المال إلى خزانة [بيت](2) الديوية والأسرى في بيت الديوية ، فإن كانت أنطرسوس ماهى لكم فالله يحقق ذلك . ثم إنا سيرنا رسلا الى [بلاد السلاجقة] الروم ، وكتبنا إليكم بتسفيرهم فى البحر فأشرتم عليهم بالسفر الى قبرس [فسافروا بكتابكم وأمانكم] ، فأُخِذوا وقُيدوا وضُيّق عليهم ، وأُتلف أحدهم [على ما ذكر . فإن كان هذا برضاكم فقبيح أن يُعتمدوا هذا الاعتماد] . هذا مع إحساننا إلى رسلكم [وتجاركم ، والوفاء أحد أركان الملك] . وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذَى ، وما زالت الحرب قائمة والرسل تتردّد ، [وما القدرة على الرسول بشيء يسكن غيظا] . فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص فى حرمتكم ، [وإذا كان صاحب جزيرة قبرس من أهل ملتكم ، يخرق حرمتكم ولا يفى بعهدكم ولا يحفظ ذمامكم ولا يقبل شفاعتكم ، فأى حرمة تبقى لكم وأى ذمام يوثق به منكم ، وأى شفاعة تقبل عند المسلمين والفرنجية ؟] . وهل كانت الملوك [الماضية] تقى النفوس [والرجال] والأموال إلا بحفظ الحرمة ؟ و[ما] صاحب [جزيرة] قبرس [ملك عظيم ، ولا صاحب حصن منيع ،

---

(١) الجلب هنا ما تجلبه البلاد من الأطعمة للجيوش النازلة بقربها ، ويتضح هذا المعنى من العبارة الآتية وهى من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٠٨) ، ونصها : "فأرسل الله سبحانه [من] الأمطار ما منعت الجلب ، فغلت الأسعار ولحق العسكر مشقة عظيمة" .

(٢) هذه صيغة أخرى للفظ الداوية . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٥ ب) .

ولا قائد جيش كثير ، ولا هو خارج عنكم . بل] أكثر تعلقاته فى عكا والساحل ، وله عندكم المراكب والتجار [والأموال والرسل] ، وليس هو منفرد بنفسه ، وعنده الديوية وجميع البيوت والنوّاب مقيمون عنده ، وعنده كُنْد يافا [وغيره] . فلو كنتم لا تؤثرون ذلك كنتم قمتم جميعكم عليه ، وأحطتم على كل ما يتعلق به [وأصحابه ، واسترحتم من هذه الفضيحة] ، وكتبتم إلى ملوك الفرنجية وإلى البابا بما فعله . [وإذا قلتم صاحب قبرس لا يسمع منكم ولا يطيعكم ، فإذا لم يسمع منكم صاحب قبرس وهو من أهل ملتكم ، فمن يسمع منكم ؟ وهل لهذه التقدمة إلى الأمر والنهى ؟ ولا سيما أنتم تقولون أن أموركم دينية ، ومن ردّها عصى المعبود ، ويغضب عليه المسيح . فكيف لا يعصى المعبود ويغضب المسيح على صاحب قبرس ، وقد ردّ أمركم وأغرى بكم وقبّح قولكم ؟ وكنا لو اشتهينا أخذنا حقنا منه ، وإنما الحق عندكم نحن نطالب منكم ، وأنتم تطلبون منه] . وأنتم فى أيام [الملك] الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف ، على أنكم تنجدونه[1] على السلطان الشهيد الملك الصالح نجم الدين [أيوب] . وخرجتم (١٢٤ ا)[2] جميعكم فى خدمته ونجدته ، وجرى ما جرى من خذلانه ، وقُتِلكم وأسركم [وأسر ملوككم وأسر مقدّميكم ؛ وكل أحد يتحقق ما جرى عليكم من ذهاب الأرواح والأموال] . و[قد] انتقضت تلك الدولة ، ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عن فتوحه البلاد ، وأحسن إليكم فقابلتم ذلك بأن رحتم إلى الرايدا[3] فرنس ، وساعدتموه وأتيتم صحبته إلى مصر ، حتى جرى ما جرى من القتل والأسر . فأىّ مرة وفيتم فيها لمملكة مصر ، أم أى حركة أفلحتم [فيها] ؟ وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من [الملك] الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام ، وطاعة ملكها ونصرته [والخروج فى خدمته ، وإنفاق الأموال فى نجدته]. وقد صارت [بحمد الله] مملكة الشام وغيرها لى ، وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجدتكم ، [ولم يبق لى عدو أخافه] . فردّوا ما أخذتموه من البلاد ، وفكّوا أسرى المسلمين جميعهم ، فإنى لا أقبل غير ذلك " .

---

(١) فى س "تنجدوه" . (٢) يوجد بين الصفحتين ١٢٣ ب ، ١٢٤ ا فى س ورقة ملصقة فيها وفيات تابعة لسنة ٦٦١ هـ ، وستورد فى مكانها المناسب فى ذيل هذه السنة .

(٣) انظر ص ٣٣٢ ، سطر ١٧ .

[فلما سمع رسل الفرنج هذه المقالة بهتوا] ، وقالوا(١): "نحن لا ننقض المدنة ، وإنما نطلب مراحم السلطان في استدامتها ، [ونحن] نزيل شكوى النوّاب ، ونخرج من جميع الدعاوى] ونفك الأسرى ، [ونستأنف الخدمة]". فقال السلطان : "كان هذا قبل خروجي من مصر ، في هذا الشتاء وهذه الأمطار ، ووصول العساكر [إلى هنا]". وانفصلوا على هذه الأمور] ، فأمر [السلطان] بإخراجهم وألا يبيتوا في الوطاق . ووجّه الأميرَ علاء الدين طيبرس إلى كنيسة الناصرة ، وكانت أجل مواطن عباداتهم ويزعمون أن دين النصرانية ظهر منها ، فسار إليها وهدمها ، فلم يتجاسر أحد من الفرنج [أن] يتحرك . ثم وجه [السلطان] الأمير بدر الدين الأيدمري في عسكر إلى عكا ، فساروا إليها واقتحموا أبوابها وعادوا . ثم ساروا ثانياً ، وأغاروا على مواشى الفرنج ، وأحضروا منها شيئاً كثيرا إلى المخيم .

واستمر جلوس السلطان كل يوم على باب الدهليز بصُفَّة(٢) عمرها ، من غير احتجاب عن أحد ؛ [فمن وقف له أحضره وأخذ قصته(٣) وأنصفه(٤)] ، وهو في أمر ونهى وعطاء وتدبير ، واستجلاب [قلوب] أهل الكرك . وقدمت رسل دار(٥) الدعوة بالهدايا ، فأحسن

---

(١) في س " فقالوا" .

(٢) الصفة هنا مسطبة مرتفعة تستعمل للجلوس عليها (محيط المحيط) ، ومن معانيها في (Dozy: Supp. Dict. Ar.) اللفظ الإنجليزي (sofa) أي الأريكة أو المقعد ، وفي الشبه بين منطوق اللفظين العربي والإنجليزي ما يوجب الالتفات . وفي ابن واصل (نفس المرجع ، ص٤١٦ ب) أن هذه الصفة التي عمرها السلطان بيبرس كانت مبنية بالحجر المنحوت ، وعليها اسم السلطان .

(٣) القصة هي الطلب أو الالتماس (requête, placet) ، ويرفعها صاحب الحاجة أو الشكوى إلى حضرة السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصة دار . وقد تكون القصة خاصة بطلب تجديد إقطاع انتهى عقده ، أو بارتجاع إقطاع انتقل عن صاحبه لسبب من الأسباب ، وفي مثل هذه الحالة تعرض القصة أولا على ناظر الجيش ، ليكشف عنها قبل عرضها على السلطان . انظر (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٠٤ ، (Dozy : Supp. Dict. Ar. .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٩٦ ب) .

(٥) المقصود بدار الدعوة هنا مركز الإسماعيلية بالشام (Quatremère: Op. Cit. I. I. p. 198) وهو ثغر مصياف (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 352) ، واسمه مصياب أيضا ، وموقعه بالساحل قرب طرابلس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥٦) .

إليهم وعادوا. وأمَّر جماعة فى الشام والساحل، وأعطى الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار إقطاعا جيدا بمصر. وطلب أهلَ بلاد الساحل من الفلاحين، وقرر عليهم أموالا سمَّاها جِنَايات[١]، وألزمهم بحملها إلى بيت المال، عن ديات من قتل وليس له وارث وعما نهبوه من مال جهل مالكه. فحملت من ذلك أموال كثيرة جدا من بلاد نابلس وبلاد الساحل، وانكسرت شوكة أهل العيث والفساد بذلك بعد ما كان الضرر عظيما بهم، من تسلطهم على الرعية (١٢٤ ب) ونقلهم الأخبار للفرنج. فرأى [السلطان] عقوبتهم بهذا الفعل أولى من قتلهم، فإنهم أصحاب زرع وضرع.

ولما كان ليلة السبت رابع جمادى الآخرة، ركب السلطان وجرَّد من كل عشرة فارسا، واستناب الأمير شجاع الدين الشبلى المهمندار فى الدهليز السلطانى، وساق من منزلة الطور نصف الليل. فصبح عكا وأطاف بها من جهة البر، وندب جماعة لحصار برج كان قريباً منه فشرعوا فى نقبه، وأقام [السلطان] على ذلك إلى قريب المغرب وعاد. وكان قصده بذلك كشف مدينة عكا، فإن الفرنج كانوا يزعمون أن أحدا لا يجسر أن يقرب منها، فصاروا ينظرون من أبواب المدينة ولا يستطيعون حركة. ولما عاد السلطان إلى الدهليز ركب لما أصبح، وأركب الناس معه، وساق إلى عكا. فإذا الفرنج قد حفروا خندقا حول تل الفضول، وجعلوا معاثر[٢] فى الطريق، ووقفوا صفوفا على التل. فلما أشرف [السلطان] عليهم رتب العسكر بنفسه، وشرع الجميع فى ذكر الله وتهليله وتكبيره، والسلطان يحثهم على ذلك حتى ارتفعت أصواتهم. وللوقت رُدمت الخنادق بأيدى غلمان العساكر وبمن حضر من الفقراء المجاهدين، وصعد المسلمون فوق تل الفضول، وقد انهزم الفرنج إلى المدينة.

---

(١) الجنايات جمع جناية، ومعناها فى الاصطلاح التاريخى ما يفرضه السلطان من الضرائب والغرامات التأديبية على رعيته. (Quatremère : Op. Cit. I. p. 199. N. 79). انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٢) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. l. p. 200) هذا اللفظ إلى (chausse-trapes)، ولعل المعاثر جمع المعثور، وهو ما يعد فى الأرض من حفرة ونحوها ليقع فيه أحد، وتأتى أيضا بمعنى المهلكة من الأرض، وبمعنى البئر. (محيط المحيط).

وامتدت الأيدى إلى ماحول عكا من الأبراج فهدمت ، وحرقت الأشجار حتى اتسد الجو من دخانها . وساق العسكر إلى أبواب عكا ، وقتلوا وأسروا عدة من الفرنج فى ساعة واحدة ، والسلطان قائم على رأس التل يعمل الرأى فى أخذ المدينة ، والأمراء تحمل على الأبواب واحدا بعد واحد . ثم حملوا حملة واحدة ألقوا فيها الفرنج فى الخنادق ، وهلك منهم جماعة فى الأبواب . فلما كان آخر النهار ساق السلطان إلى البرج الذى نُقب ، وقد تَعَلَّق حتى رُمى بين يديه ، وأُخِذ[1] منه أربعة من الفرسان ونيف وثلاثون راجلا ، وبات [السلطان على ذلك] . فلما أصبح عاد على بلاد الفرنج وكشفها مكانا مكانا ، وعبر على الناصرة حتى شاهد خراب كنيستها وقد سُوِّى بها الأرض ، وصار إلى الصفة التى بناها قبالة الطور ، فوافاها ليلا وجلس عليها . وأحضر الشموع[2] [التى] بالمنجنيقات ونصب عليها خيمة ، وأحضر الصاحب فخر الدين محمد بن حنا وزير الصحبة وجماعة كتاب الدَّرْج[3] وهم

---

(١) هذا اللفظ مضبوط فى س بضم الألف فقط .

(٢) الشموع جمع شمعة ومعنى الشموع هنا الأعمدة الخشبية الدقيقة (mince pilier) . انظر (محيط المحيط ;Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٣) كان كتاب الدرج من موظفى ديوان الإنشاء ، وكذلك كتاب الدست ، وقد شرح القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، وما بعدها) عمل كل من هاتين الطبقتين من الكتاب وعددهما فى زمنه وقبله ، وبين أصل تسميتها أيضا ونصه : " وأما ما استقر عليه الحال فى زماننا فكتاب الديوان على طبقتين : الطبقة الأولى كتاب الدست ، وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواكب ، على ترتيب منازلهم بالقدمة ، ويقرءون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم ، ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر . وسموا كتاب الدست إضافة إلى دست السلطان ، وهو مرتبة جلوسه ، لجلوسهم للكتابة بين يديه . وهؤلاء هم أحق كتاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم . و... كانوا فى أوائل الدولة التركية ، فى الأيام الظاهرية بيبرس وما والاها ، قبل أن يلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر ، ثلاثة كتاب .... ثم زادوا بعد ذلك قليلا إلى أن صاروا فى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عشرة أو نحوها ، ثم تزايدوا بعد ذلك شيئاً فشيئا ، خصوصا فى سلطنة الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج ، حتى جاوزوا العشرين وهم آخذون فى التزايد ......؟ ، (ص ١٣) الطبقة الثانية كتاب الدرج ، وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست ، أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار ، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والإيمان والأمانات ، ونحو ذلك مما يجرى مجراه . وسموا كتاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها فى دروج الورق ، والمراد بالدرج فى العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، =

(١٢٥ ا) صبحة : الصاحب فخر الدين بن لقمان ، والصدر بدر الدين حسن الموصلى ، والصدر كمال الدين أحمد بن العجمى ، والصدر فتح الدين بن القيسرانى ، والصدر شهاب الدين أحمد بن عبيد الله ، والصدر برهان الدين و [أحضر] كتاب الجيش ، وأمر الأمير سيف الدين الزينى أمير علم[١] أن يجلس مع كتاب الجيش ، لأجل كتابة المناشير وتجهيز الطبلخاناه ، وأن يكون الأتابك بين يدى السلطان . واستدعى من الجُشارات[٢] بخمسمائة فرس لأجل الطبلخاناه وخيول الأمراء ، وأحضرت خلع كثيرة ، وأمر السلاح دارية أن يستريحوا بالنوبة ويحضروا . فلم تزل المِثالات[٣] والمناشير[٤] تكتب وهو يعلّم ، فكُتب

= وهو فى عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير ... ... ، ويجوز أن يطلق عليهم [أى كتاب الدرج] كتاب الإنشاء ، لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات وغيرها مما تقدّم ذكره ، ولا يجوز أن يطلق عليهم لقب الموقعين ، لما تقدم أن المراد من التوقيع الكتابة على جوانب القصص ونحوها . وكلما زاد عدد كتاب الدست فى العدد زاد كتاب الدرج حتى خرجوا عن الحد ، وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كاتبا ... ... على أن كتاب الدست الآن هم المتصدّرون لكتابة المهم من كتابة الدرج ، كتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير . وصار كتاب الدرج مخصوصين بالمكاتبات فى خلاص الحقوق وما فى معناها ، وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير مما يكتب فى القطع الصغير . وربما شارك أعلاهم كتاب الدست فى التقاليد وكبار التواقيع وما فى معناها ، إذا كان حسن الخط ...". انظر أيضا القلقشندى (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٥ ؛ G.-Demombynes : Op. Cit. Index) .

(١) كان صاحب هذه الوظيفة هو الذى يتولى أمر الأعلام السلطانية والطبلخاناه ، وسرت العادة فى أيام المماليك أن يكون المتحدث عليها من طبقة أمير عشرة . وكان هناك أيضا وظيفة علم دار ، وصاحبها هو الذى يحمل العلم فى ركاب السلطان . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢ ؛ ج ٥ ، ص ٤٥٦ ، ٤٦٣) .

(٢) الجشارات جمع جشار ، وهو مكان رعى الماشية من خيل وغيرها . وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) مثل لتوضيح هذا المعنى ، ونصه :"... ... وهجم على جشارهم ، فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس ومائة من البقر".

(٣) المثالات جمع مثال ، وهو أول ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إيذانا باعطاء أحد المماليك إقطاعا من الإقطاعات الخالية . وكان المثال يخرج من ديوان الجيش ، ويقدّمه ناظر هذا الديوان إلى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل ، فإذا شمله السلطان بالموافقة أرسله ناظر ديوان الجيش إلى ديوان النظر لتسجيله وحفظه ، ويكتب بذلك " مربعة " فيها اسم المعين على الإقطاع ورتبته وغير ذلك من التفصيلات اللازمة ، ثم ترسل المربعة إلى ديوان الإنشاء ، فيكتب كاتب السر بمقتضاها منشور الإقطاع ، والمنشور آخر أدوار تلك العملية . (القلقشندى صبح الأعشى ج ١٣ ، ص ١٥٣ ، وما بعدها ؛ G.-Demombynes : Op. Cit. Introd. p. XLIII et seq.)

(٤) انظر الحاشية السابقة ، وكذلك ص ٤٧٠ ، حاشية ٦ .

بين يديه تلك الليلة ستة وخمسون منشورا كبارا بخطب لأمراء كبار . و[ظل] الصاحب فخر الدين يعلّم ، وفتح الدين بن سناء الملك صاحب ديوان الجيش وصاحب ديوان الخزائن يعلّم ، والأمير بدر الدين الخازندار واقف ، والمستوفى ينزّل ، حتى كملت بين يديه . وأصبح [السلطان] فخلا بنفسه ، وجهز الطبلخاناه والسناجق والخيل والخلع إلى الأمراء ، وجعل الأمير ناصر الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية .

ورحل [السلطان] من الطور يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة ، وسار إلى القدس فوافاه يوم الجمعة عشره : وكشف أحوال البلد وما يحتاج إليه المسجد من العمارة ، ونظر فى الأوقاف وكتب بحمايتها ، ورتّب برسم مصالح المسجد فى كل سنة خمسة آلاف درهم ، وأمر ببناء خان خارج البلد ، ونقل إليه من القاهرة باب القصر المعروف بباب العيد(١) ، ونادى بالقدس ألا ينزل أحد فى زرع .

ثم سار [السلطان] إلى الكرك فنزله يوم الخميس ثالث عشريه بعساكره ، وأحضر السلالم الخشب من الصلت وغيره ، والحجارين والبنائين والنجارين والصناع من مصر ودمشق . وكتب إلى من فى الكرك فخافوا ، وترددت الرسل بينهم وبينه ، حتى استقر الحال على أنه يعطى الملك العزيز عثمان بن الملك المغيث إمرة مائة فارس ، فأنعم بذلك . ونزل أولاد المغيث ، وقاضى المدينة وخطيبها وعدة من أهلها ، ومعهم مفاتيح المدينة والقلعة ، فحلف لهم السلطان وأرضاهم ؛ وسير الأمير عز الدين أيدمر الأستادار ، والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا ، فى (١٢٠ ب) ليلة الجمعة رابع عشريه ، فتسلما القلعة . وفى بكرة الجمعة دُعى للسلطان على الأسوار ، ونُصبت سناجقه على الأبراج ، وركب فى الساعة الثالثة وطلع الى القلعة ورتب أمر جيش الكرك ، وأنفق(٢) فيهم ثلاثة أشهر

(١) كان ذلك الباب أحد أبواب القصر الكبير الفاطمى ، وقيل له باب العيد لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيدين إلى الصلاة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص٤٣٥ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٥٠) .

(٢) فى س " نفق " .

من غزاتنه واهتم [السلطان] ببلادها وعين لها خاصا ، وزاد جماعة ، وأنعم على أولاد الملك المغيث بجميع ما كان فى القلعة من مال وقماش وأثاث . وصلى بها صلاة الجمعة ، ونزل قريب المغرب ، ولم يتعرض أحد من العسكر لأهلها بسوء . وأصبح [السلطان] فبعث إلى العزيز بن المغيث الخلع والقماش ، وإلى الطواشى بهاء الدين صندل ، والأمير شهاب الدين صعلوك أتابكه . وكُتب بالبشارة إلى مصر والشام بأخذ الكرك ، وأن تُحمل إليه الغلات والأصناف وطلع [السلطان] إليها يوم الاثنين ، وأحضر الدواوين ورتب الإقطاعات للعربان والأجناد ، فكتب بين يديه زيادة على ثلاثمائة منشور ، وسلمت لأربابها بعدما حلفوا بين يدى السلطان ، وكتبت أيضا تواقيع لأهل الكرك بمناصب دينية وديوانية . وجرّد [السلطان] بها عدة من البحرية والظاهرية ، وحلّف مقدمى الكرك ونصاراها ، وقال لأهل الكرك : " اعلموا أنكم قد أسأتم إلىّ فى الأيام الماضية ، وقد اغتفرت لكم ذلك لكونكم ماخاصتم على صاحبكم . وقد ازددت فيكم محبة ، فتناسوا الحقود ". وأحضر الأمير عبية[1] وغيره من عرب بنى مهدى[2] ، وألزمهم أدراك البلاد وخفّرهم إلى أرض الحجاز . وأمر بعمارة ما يحتاج إليه فى السور وحصّنه ، وحفر الخندق وأحاطه بالحصن ، ولم يكن قبل ذلك كذلك . وأشحن الحصن بالأسلحة والغلال وآلات الحرب والأقوات ، ووضع فيه مبلغ سبعين ألف دينار عينا ومائة وخمسين ألف درهم نقرة . واستناب بالكرك الأمير عز الدين أيدمر من مماليكه ، وأضاف إليه الشوبك وأعطاه ثلاثين ألف درهم وكثيرا من القماش .

ورحل [السلطان] إلى مصر ، ومعه أولاد الملك المغيث[3] وحريمه ، فى يوم الأربعاء تاسع عشرينه . فدخل القاهرة فى سابع عشر رجب وقد زينت أحسن زينة ، فشق

---

(١) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit I. I. p. 207) هذا الاسم إلى (Otba) ويعزز هذه الصيغة الثانية ابن واصل (نفس المرجع ، ص١٩٤ ب) ، حيث اسم هذا الأمير العربى "عتبة من بنى عقبة" . (انظر الحاشية التالية) .

(٢) المقصود هنا عرب بنى عقبة الذين كانت مساكنهم حول الكرك ، وهم أحد فروع بنى مهدى . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٢ — ٢١٣ ، ٢٤٢ — ٢٤٣) .

(٣) يوجد فوق هذا اللفظ فى س إشارة إلى سقطة موجودة بهامش الصفحة ، وهى "وسرف الدين"

القصبة إلى قلعة الجبل على شقق الحرير الأطلس والعتابي ؛ وخلع على الأمراء والمقاودة والمقدمين وجميع حاشيته (١٢٦ ا) وغلمانه ومباشريه ، وأعطى العزيز بن الملك المغيث إمرة مائة فارس وخلع عليه وأعطاه طبلخاناه ، وأطلق لأخويه وحرم أبيه سائر ما يحتاجون إليه هم وغلمانهم ، وأنزلهم بدار القطبية بين القصرين من القاهرة .

وأصبح [السلطان] فقبض على الأمير سيف الدين الرشيدى واعتقله . وفى تاسع عشره قبض على الأمير عز الدين أيبك الدمياطى والأمير شمس الدين آقوش البرلى واعتقلهما ، فكان آخر العهد بأقوش البرلى . ولما قبض [السلطان] عليهما أحسن إلى مماليكهما وحواشيهما ، ولم يغير على أحد منهم ولا تعرض إلى بيوت الأمراء . وكان سبب تنكره على هذه الأمراء أنه [كان قد] فوّض إلى الرشيدى أمر المملكة حتى تصرفت يده فى كل شىء ، وأطلق له فى كل جمعة خِوَانين [من عنده] يُمَدّان له حتى ماء الورد ، ورتّب له كل شهر كلوتتين (١) زركش قيمة كل منهما مبلغ خمسين دينارا عينا وقيمة

(١) هذا اللفظ مثنى كلوتة ، وهى غطاء الرأس يلبس وحدها أو بعمامة ؛ وتجمع على كلوتات وكلاوات ، وتسمى أيضا كلفة وكلفتاة وكلفتة ، ويقابلها فى الفرنسية لفظ (calotte) . وقد اختلف الأصوليون فى أصل هذا الاسم ، فيقول بعضهم إنه من اللفظ اللاتينى (calva) أى غطاء أعلى الرأس (superior pars capitis) ، ويقول آخرون إنه من لفظ لاتينى آخر هو (calautica) كما يقول فريق ثالث إنه معرب اللفظ الفارسى " كلوته " (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . وقد استحدث سلاطين الأيوبيين لبس الكلوتة بمصر ، فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رءوسهم بغير عمائم ، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها ، وكذلك كان يفعل أمراؤهم وجندهم ومماليكهم . ولم يزل السلاطين والجند يلبسون الكلوتات الصفراء بغير عمامة إلى أواسط دولة المماليك البحرية ، فلما ولى السلطان المنصور قلاون السلطنة غير هذا الزى ، إذ أضاف لبس الشاش على الكلوتة . وفى عهد ابنه الأشرف خليل رسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مماليكهم بالكلوتات الزركش ، وتركت الكلوتات الجوخ الصفر لمن دونهم ، على أنها ظلت تلبس فوق ذوائب الشعر المرخاة على ما كان عليه الأمر أولا . فلما ملك السلطان الناصر محمد بن قلاون استجد العمائم الناصرية وهى صغار ، وحلق رأسه وحلق الأمراء رءوسهم ، وتركت ذوائب الشعر . ثم حلت الكلوتات اليلبغاوية المنسوبة إلى الأمير يلبغا الخاصكى العمرى محل العمائم الناصرية ، وظل الأمر على ذلك حتى عهد السلطان الظاهر برقوق أو سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، فأحدث هذا السلطان الكلوتات الجركسية ، وهى أكبر من اليلبغاوية . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٥ — ٦) ومن أغطية الرأس أيضا فى تلك الأزمنة الشربوش والطاقية ، وقد تقدم وصف أولها فى ص ٢٠١ ، حاشية ١ ، ويضاف إليه هنا أن الشربوش كان يلبس عادة مع الخلع السلطانية ، وفى ذلك يقول المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٩) : "وأما الخلع فإن السلطان كان =

كلبندها[١] مبلغ أربعين دينارا ، [ورتب له برسم مشروبه اثنى عشر ألف دينار فى كل سنة[٢] . هذا] سوى ما له من الإقطاعات الجليلة والمرتبات الكثيرة ، وسوى الإنعامات وجوامك البَزْدارِيّة[٣] والفَهّادة[٤] وعليق الخيل . فأقبل [الرشيدى] على اللهو وشرب الخمر ، وحمت حواشيه عدّة بلاد ، وحدثت منه أمور لا تسر ، فأغضى عنه السلطان . فلما كان بالطور بلغه أن الرشيدى قد فسدت نيته ، فأقام عليه عيونا تحفظ كل ما يجرى منه : فبلغه عنه أنه كان يكاتب المغيث بالكرك ويحذره من القدوم على السلطان ويشير عليه ألا يسلم نفسه ، وأنه كتب إلى أهل الكرك أيضاً بعد القبض على المغيث يأمرهم بألا يسلموا الكرك ؛ فأسرّ [السلطان] ذلك فى نفسه إلى أن سار إلى الكرك ، فبلغه عنه أنه يريد

= إذا أمر أحدا من الأتراك ألبسه الشربوش ، وهو شىء يشبه التاج كأنه شكل مثلث ، يجعل على الرأس بغير عمامة ... وقد بطل الشربوش فى الدولة الجركسية ". أما الطاقية، فالمفهوم من المقريزى (نفس المرجع والجزء ، ص ١٠٤) أنها كانت أولا للصبيان والبنات ، ثم " كثر لبس رجال الدولة من الأمراء والمماليك والأجناد ومن يتشبه بهم للطواقى فى الدولة الجركسية ، وصاروا يلبسون الطاقية على رءوسهم بغير عمامة ، ويمرّون كذلك فى الشوارع والأسواق والمواكب ، لا يرون بذلك بأسا ، بعد ما كان نزع العمامة عن الرأس عارا وفضيحة . ونوّعوا هذه الطواقى ما بين أخضر وأحمر وأزرق وغيره من الألوان ، وكانت أولا ترتفع نحو سدس ذراع ، ويعمل أعلاها مدوّرا مسطحا . فحدث فى أيام الملك الناصر فرج شىء عرف بالطواقى الجركسية ، يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثى ذراع ، وأعلاها مدوّر مقبب . وبالغوا فى تبطين الطاقية بالورق والكثيرة (كذا) ، فيما بين البطانة المباشرة للرأس والوجه الظاهر للناس ، وجعلوا من أسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو القرض الأسود يقال له القندس ، فى عرض نحو ثمن ذراع ، يصير دائرا بجبهة الرجل وأعلى عنقه . وهم على استعمال هذا الزى إلى اليوم (أى زمن المقريزى) ، وهو من أسمج ما عانوه ، ويشبه الرجال فى ذلك بالنساء ".

(١) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I, 1. p. 211.) هذا اللفظ إلى (turban) أى عمامة . غير أن المفهوم من سياق العبارة أن الكلبند هذا كان جزءا من غطاء الرأس ، سواء أكان عمامة أو كلوتة . (انظر الحاشية السابقة) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٠ ب) .

(٣) البزدارية جمع بزدار أو بازدار ، وقد تقدم شرح هذا اللفظ . (انظر ص ٣٦ ، حاشية ٦) .

(٤) الفهادة هم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود .

المبادرة إلى أخذ الكرك ، فسارع إليه ولاطفه وركب[1] معه إلى الكرك وأخذها .
و [بلغ السلطان[2] عنه أيضا] عدّة أمور من هذا النحو .

وقدمت رسل الملك بركه تطلب[3] النجدة على هولاكو — وهم الأمير جلال الدين ابن القاضى ، والشيخ نور الدين[4] على ، فى عدة — ، [و] يخبرون بإسلامه وإسلام قومه ، وعلى يدهم كتاب مؤرّخ بأوّل رجب سنة إحدى وستين [وستمائة[5]] . وقدم أيضا رسول الأشكرى ، [ورسول مقدّم الجَنَوِية[6] ، ورسول صاحب الروم السلاجقة] ؛ فأحسن [السلطان] إلى الرسل وعمل لهم دعوة بأراضى اللوق ، وواصل الإنعام عليهم فى يومى الثلاثاء والسبت عند اللعب فى الميدان .

وفى يوم الجمعة ثامن عشرى شعبان خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بحضور رسل الملك بركه ، ودعا للسلطان وللملك بركه فى الخطبة ، وصلى بالناس صلاة الجمعة ، واجتمع بالسلطان وبالرسل فى مهمات أمور الإسلام .

وفى ليلة الأربعاء ثالث شهر رمضان سأل [السلطانُ] الملكُ الظاهر الخليفةَ الحاكم

---

(١) فى س "وركب به معه" .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، س ٤٢٠ ا — ٤٢٢ ا) حيث هذه الأخبار واردة بتفصيل أكثر ، ومن ضمنها شرح سبب غضب السلطان على البرلى والدمياطى .

(٣) فى س "بطلب" .

(٤) اسم هذين الأميرين فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١١٠) جلال الدين ابن قاضى توقات ، وعز الدين التركمانى .

(٥) أورد ابن واصل (نفس المرجع ، س ٤٢٢ ا — ب) مضمون هذا الكتاب ، وهذا نص عبارته : "وقرىء كتاب الملك بركه ، [و] مضمونه الشكر والحمد وطلب الإنجاد على هلاوون ، وأنى قدمت أنا وإخوتى لحربه من سائر الجهات ، لإقامة منار الإسلام ، وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة وذكر الله والأذان والقرانة والصلاة ، وأخذ ثأر الأئمة والأمة . ويلتمس إنفاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لمسك الطريق على هلاوون (٤٢٢ ب) ، ووصى على صاحب الروم" . هذا وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١١٠ ، وما بعدها) مضمون لتلك الرسالة أيضا ، وهو لايخرج فى معناه ملخص عن ابن واصل .

(٦) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، س ٤٢٢ ا) ، والجنوية أهل مدينة جنوة . انظر القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٥) .

(٢٦١ ب) بأمر الله : "هل لبس الفتوة من أحد من أهل بيته الطاهرين أو من أوليائهم المتقين ؟" فقال : "لا" ، والتمس من السلطاق أن يصل سببه[1] بهذا المقصود . فلم يمكن السلطان إلا طاعته المفترضة ، وأن يمنحه ما كان ابن عمه رضى الله عنه [قد] افترضه . ولبس [الخليفة] فى الليلة المذكورة بحضور من يُعتبر حضوره فى مثل ذلك ، وباشر اللبس الأتابك فارس الدين أقطاى بطريق الوكالة عن السلطان ، بحق لبسه[2] عن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين ولد الإمام الظاهر — وأبوه لجده الناصر [لدين الله] — والناصر لعبد الجبار ، لعلى بن دُغيم[3] ، لعبد الله بن القير[4] ، لعمر بن الرصاص ، لأبى بكر بن الجحيش ، لحسن ابن السارباد[5] ، لبقاء بن الطباخ ، لنفيس العلوى ، لأبى هاشم بن أبى حية ، لعمر بن ألبس ، لأبى على الصوفى ، لمهنا العلوى ، للقائد عيسى ، لأمير وهران ، لرؤبة الفارسى ، للملك أبى كاليجار ، لأبى الحسن النجار ، لفضل القرقاشى ، للقائد شبل بن المسكدم ، لأبى الفضل القرشى ، للأمير حسان ، لجوشن الفزارى ، للأمير هلال النبهانى ، لأبى مسلم الخراسانى ، لأبى العز النقيب ، لموفق الشسانى[6] ، لحافظ الكندى ، لأبى على النوبى ، لسلمان الفارسى ، للإمام الطاهر

---

(١) كذا فى س ، ويقابل هذه العبارة فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ) مانصه : "والتمس من السلطان أن يصل نسبته هذا المقصود" .

(٢) الضمير هنا عائد على السلطان ، وقد تقدمت الإشارة إلى لبس السلطان بيبرس لباس الفتوة على يد الخليفة المستنصر بالله (انظر ص ٤٥٩ ، حاشية ٥) ، والمفهوم من سياق العبارة هنا أن بيبرس أصبح رئيس الفتوة بعد موت الخليفة المذكور عند هيت . (راجع ص ٤٦٧ ، سطر ٩) .

(٣) كذا فى س بضم الدال فقط . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٥) ، حيث صحح هذا الاسم من مثل الصيغة الواردة هنا بالمتن إلى "زعيم" .

(٤) كذا فى س . انظر نفس المؤلف والمرجع والصفحة ، حيث صحح هذا الاسم من "القير" إلى "العين" .

(٥) كذا فى س ، وهو وارد بمثل هذا الرسم فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ) ، بغير نقط البتة ، وقد أورده ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٥) "الشرابدار" .

(٦) فى س "الصانى" ، وقد نقطه كاتب نسخة ب (١٥٢ ب) وصيره "القبانى" ، والصيغة المثبتة هنا من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٤) ، أما فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ) فقد ورد هذا اللفظ برسم "السانى"

النقى التقى على بن أبى طالب رضى الله عنه[1] . وحمل السلطان[2] إلى الخليفة من الملابس لأجل ذلك ما يليق بجلاله .

وفى الليلة الثانية حضر رسل الملك بركه إلى قلعة الجبل ، وألبسهم الخليفة بتفويض الوكالة للأتابك ، وحمل إليهم من الملابس ما يليق بمثلهم . وجهز السلطان هدية[3] جليلة للملك بركه ، وكتب جواب كتابه[4] فى قطع النصف فى سبعين ورقة بغدادية[5] بخطه

---

(١) سيلاحظ القارئ تجنب الضبط بسائر هذه الفقرة ، والسبب هو أنه يوجد خلاف واضح بين صيغ معظم الأسماء والألقاب كما هى واردة هنا ، وبين كل مما يقابلها فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ ا) ، وابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٤ — ٨٥) .

(٢) فى س : " وحمل إليه السلطان من الملابس " .

(٣) احتوت هذه الهدية ، على حد تعبير ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٢ ب) ، "من كل شىء على اختلافه" ، وكان من جلتها "حتمة شريفة يذكر أنها خط عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بغلاف أطلس مزركش ، ضمن درج أحمر أدم مبطن بعتابى ، وكرسى لها أبنوس وعاج مخروم بنقط فضة ، ومعها هدية عظيمة مالا توصف (كذا) . ومن جملة الهدية سيوف وملحوريه (كذا) بإسقاط ذهب وفضة وهى عدد كثير ، ومن الدبابيس والقسى الحلق (كذا) الدمشقية جملة كثيرة ، ومن قسى البندق بأوتارها عدة كثيرة . ومن جملة الهدية قناديل كبار مذهبة شىء كثير ، ومن الجوارى الطباخات جماعة ، ومن الخيل الجياد السبق عدد كثير ، ومن الدواب الفره التى لا تلحق عدد كثير ، وأصناف كثيرة ما ذكرناها لطول شرحها" . والغالب أن الأصناف التى لم يذكرها ابن واصل "لطول شرحها" هى المذكورة فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١١١ ، وما بعدها) ، وهذا نص عبارته : "وكان من جملة الهدية ، من الوحوش الغريبة فى تلك الأرض : فيل وزرافة وقرود ، وحمير وحشية عتابية وهجن وجم مصرية ، وجملة كثيرة من ملبوس ومصاغ وشمعدانات فضة وحصر عبدانية ، وأمتعة وأوانى صينية ، وثياب سكندرية (ص ١١٢) ومن عمل دار الطراز ، وسكر نبات وسكر نياشى شيئا كثيرا" .

(٤) يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٢ ب) ملخص لجواب السلطان بيبرس ، وهذا نص العبارة كلها : "وكتب الملك الظاهر جواب الملك بركه فى سبعين ورقة بغدادية ، من الأحاديث النبوية والآيات من القرآن الكريم ، فى الترغيب فى الجهاد وفى مصر وما ورد فيها من الأحاديث النبوية والآيات ، وقتال المشركين ، وفيه من ذكر مواطن العبادات ومواضع الزيارات فى سائر الشام . وجمع فى هذا الكتاب من الترغيب والاستمالة والإغراء على هلاون ، وإظهار الميل إليه ، ووصف جنود الديار المصرية وما هى عليه وأهلها من حب الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وأنها موافقة له فى نصرة الإسلام ، إلى غير ذلك من الأمور الملوكية والأحوال الجهادية ، مالا جمع فى كتاب" .

(٥) كان الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة ، وكان مخصوصا لكتابة المصاحف ، ولا يستعمل فيما عدا ذلك من أغراض الكتابة سوى مكاتبة كبار الملوك . ويوجد فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ ، وما بعدها) فصل فى أسماء وأجناس الورق المستعمل للكتابة فى التولى ←

محيي الدين بن عبد الظاهر ، و [هو الذى] قرأه على السلطان بحضور الأمراء . وسُلّمت الهدية للأمير فارس الدين أقوش المسعودى ، والشريف عماد الدين الهاشمى ؛ فسارا فى طريدة بحرية فيها عدة رماة وجَرْخية[1] وزرّاقين[2] ، وأشحنت بالأزودة لمدة سنة ، وسارا فى سابع عشره . وخرجت النجابة إلى مكة والمدينة بأن يدعى للملك بركة ويعتمر عنه ، وأمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر بمكة والمدينة والقدس و بمصر والقاهرة ، بعد الدعاء للسلطان الملك الظاهر .

(١٢٧ أ) وفى سادس شوّال توجه السلطان إلى جهة الإسكندرية ، فأقام بتَرُوجَة[3] أياما ، ودخل البرّية وضرب حلقة فوقع فيها كثير من الصيد . واهتم [السلطان بأمر المياه ، وولى أمرها الأمير شجاع الدين الزاهدى أحد الحجاب ، وأحضر من الإسكندرية

= الإسلامية ، ونصه : "... وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادى ، وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء ، وقطعه وافر جدا ، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة ، وربما استعمله كتاب الإنشاء فى مكاتبات القانات ونحوها ... " . ودونه فى الرتبة الشامى وهو على نوعين ، نوع يعرف بالحموى وهو دون القطع البغدادى ، و [نوع] دونه فى القدر وهو المعروف بالشامى وقطعه دون القطع الحموى . ودونهما فى الرتبة الورق المصرى وهو أيضا على قطعين ، القطع المنصورى وقطع العادة ، والمنصورى أكبر قطعا وقلما يصقل وجهاه جميعا ، أما العادة فإن فيه ما يصقل وجهاه ويسمى فى عرف الوراقين المصلوح ..." . هذا وقد كان هناك نوعان من الورق البغدادى . أحدهما "قطع البغدادى الكامل ، وعرض درجه ... ذراع واحد بذراع القماش المصرى ، وطول كل وصل من الدرج المذكور ذراع ونصف بالذراع المذكور . وفيه كان (كذا) تكتب عهود الخلفاء وبيعاتهم ، وفيه تكتب الآن عهود أكابر الملوك والمكاتبات إلى الطبقة العليا من الملوك ، كأكابر القانات من ملوك الشرق" ، فيكون هذا النوع هو البغدادى المذكور هنا . أما النوع الثانى فاسمه "قطع البغدادى الناقص ، وعرض درجه دون عرض البغدادى الكامل بأربع أصابع مطبوقة ، وفيه يكتب للطبقة الثانية من الملوك ، وربما كتب فيه للطبقة العليا لإعواز البغدادى الكامل" . (نفس المؤلف والمرجع ، ج ٦ ، ص ١٩٠ ، وما بعدها) .

(١) الجرخية جمع جرخى أى رامى الجرخ ، ويقابل الجرخ فى الفرنسية لفظ (arbalète) أى البندق . انظر (Dozy Supp. Dict. Ar.)

(٢) جمع زراق ، ومعناها رامى النفط من الزراقة ، ويقابل لفظ الزراقة فى (Ibid : Op. Cit) العبارة التفسيرية الآتية : (le tube avec lequelle on lancait le naphte) ، أى الأنبوبة التى يزرق بها النفط .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى قرية من كورة البحيرة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٤٥) ، وهى الآن موضع خرب فى الجنوب الغربى من دمنهور . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

الرجال لحفر الآبار . ثم سار [السلطان] من تروجة إلى الإسكندرية ، وكان الصاحب بهاء الدين ابن حنا قد سبق إليها وحصل جملا كثيرة من المال : منها حمل بلغ خمسة وتسعين لفة من القماش السكندرى ، [ولم يعامل أحد من أهلها بغير العدل] ، ولم يضرب بها أحدا [بمقرعة].[1] فضرب السلطان خيامه[2] ظاهر المدينة ، ونادى ألا يقيم بالثغر جندى ولا ينزل أحد فى دار.

وفى يوم الخميس مستهل ذى القعدة دخل [السلطان] إلى المدينة من باب رشيد ، فتلقاه الناس [بالسرور والفرح والدعاء][3] . واستدعى [السلطان] بالخزائن والأمتعة ، وشرع فى تعبئة ما يعبيه للأمراء على قدر مراتبهم ، ورسم بمكتوب برد مال السهمين[4] وصلة أرزاق الفقراء ، وسامح بما كان يؤخذ من أهل الإسكندرية وهو ربع دينار عن كل قنطار يباع من .. ..[5] . ولعب بالكرة وخلع على الأمراء ، وأعطى الأتابك ثلاثة آلاف دينار ، وأعطى الأمراء على [حسب] مراتبهم ؛ وركب لزيارة الشيخ المعتقد محمد بن منصور ابن يحيى أبى القاسم القبارى[6] ، فلم يمكنه من الطلوع إليه ولم يكلمه إلا وهو فى البستان والشيخ فى علّيته ؛ ثم مضى لزيارة الشيخ الشاطبى .

وحضر إلى السلطان رجلان من أهل الثغر : أحدهما يقال له ابن البورى والآخر يعرف بالمكرم بن الزيات ، ومعهما أوراق تتضمن استخراج أموال ضائعة . فاستدعى السلطان فى يوم الثلاثاء سادسه الأتابك والصاحب والقضاة والفقهاء ، وأمرت فقرئت الأوراق وصار

---

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٣ ب) .

(٢) فى س "خامه" .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ٤٢٤ أ) وقد كان ابن واصل حاضرا ذلك كله ، وعبارته فى هذا الصدد أكثر تفصيلا مما هنا . انظر (نفس المرجع ، ص ٤٢٣ ب) .

(٤) كذا فى س .

(٥) بياض فى س يسع كلمة واحدة لعلها "البهار" ، فإنه كان أهم متاجر أهل الإسكندرية فى تلك العصور .

(٦) يظهر أن النسبة إلى قبار (fossoyeur) ، وهو الرجل الذى يتولى حفر القبور ودفن الأموات . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . هذا وفى محيط المحيط أن القبارة عمال الصيد الذين يجمعون "ما يبرز من الشباك من الصيد" .

بكلما ذكر له باب مظلمة سدّه ويعود على المذكورين بالإنكار ، حتى انتهت القراءة . فقال : " اعلموا أنى تركت لله تعالى ستمائة ألف دينار ، من التصقيع[1] والتقويم والراجل والعيد والجلزية وتقويم النخلى[2] فعوضنى الله من الحلال أكثر من ذلك ؛ وطلبت جرائد الحساب فزادت بعد حط المظالم جملة ، ومن ترك شيئا لله عوّضه الله خيرا " ؛ وأمر بإشهار ابن البورى .

وفى سابعه قدم البريد من البيرة وحلب بأن جماعة مستأمنة وردت إلى الباب العزيز ، [عدّتها] فوق الألف وثلثمائة فارس (١٢٧ ب) من المغل والبهادرية ، فكتب بالإحسان إليهم . وفى يوم الخميس ثامنه جلس السلطان بدار العدل ، وأمر بتطهير الثغر من الخواطى[3] الفرنجيات .

وفى ثامن عشره سار [السلطان] من الإسكندرية يريد القاهرة ، فنزل تروجة وأمر عربانها بالسباق بين يديه ، فاجتمع ألف فارس من عرب تروجة ، وانضم اليها جملة من خيل العسكر . وعيّن [السلطان] لهم المدى ، ووقف على تل ، وأوقف الرماح وعليها الثياب الأطلس والعتابى وفيها المال . فأقبلت الخيل فى الحلبة ، وأخذ كل راكب سبق ما قرض له . ثم سار [السلطان] إلى قلعة الجبل ، فلما وصل فوّض قضاء الثغر للفقيه برهان الدين إبراهيم بن محمد بن على البوشى المالكى ، وكان زاهدا عابدا يأوى إلى مسجد بمصر ؛ وفوّض الخطابة للقاضى زين الدين أبى الفرج محمد بن القاضى الموفق بن أبى الفرج الاسكندرانى ، الذى كان حاكما بالثغر .

وفى آخر ذى القعدة نزل السلطان الى القاهرة ، وعاد الأمير سيف الدين قلاون الألفى والأمير علاء الدين الحاج أيدغدى الركنى ، والأمير حسام الدين بن بركه[4] خان . وفى ليلة الأربعاء خامس ذى الحجة توفى الأمير حسام الدين بن بركه خان ، فحضر السلطان جنازته ومشى فيها مع الناس .

(١) فى س " التسقيع " ، بثلاث نقط تحت السين .

(٢) فى س " النحل " .

(٣) الخواطى جمع خاطيئة ، وهى المرأة الفاجرة ، وتسمى أيضا مخطئة ، والجمع مخطيات . (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٤) تقدم ذكر ماحدث لبعض هؤلاء الأمراء فى الصيد عند العريش . (انظر ص ٤٨٩ ، سطر ٧)

وفى سادسه وصلت التتار المستأمنة ، وأعيانهم كَرَمُون(١) وامطغية ونُوكَيه وجَبْرك وَقِيَان وتاضميه وطيشور ونبتو وصحى(٢) وجوجلان واجقرقا وارقرق وكراى وصلاغيه ومتقدم وصراغان . فركب السلطان إلى تلقيهم ، فنزلوا عند مشاهدته عن خيولهم وقبلوا الأرض وهو راكب ، فأكرمهم وعادوا إلى القلعة .

وفى ثامنه خلع عليهم [السلطان] ، ونزل إلى تربة ابن بركه خان . ثم وردت الكتب بقدوم طائفة أخرى ، فاحتفل بهم وركب لتلقيهم . ثم وردت طائفة ثالثة ، فاعتمد معهم مثل ذلك وأمر بإكرامهم ، وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وختنوا بأجمعهم .

واتفق أن الأمير بهاء الدين أمير آخور ضرب بعض دلالى سوق الخيل ، فمات بعد ما حمل إلى داره ؛ فغضب السلطان غضبا شديدا خاف منه ، فهرب إلى بيت الأمير قلاون واستتر عنده . فدخل [قلاون] على الأتابك فى أمره ، وأخرج لأولاد الميت من ماله خمسة آلاف درهم ومائة أردب غلة وكسوة ، فأبرءوه وأقروا أن أباهم مات بقضاء الله وقدره . ودخل الأتابك إلى السلطان وحدثه فى ذلك ، فاشتد غضبه ، فقال له الأتابك : "تغضب والشرع معنا ؟ فإن كان قد قتله عمدا أو خطأ فقد أبرأ الأولياء" . وتحدث الأمراء فى العفو عنه فعُفى ، وأمر (١١٢٨) بعمل جامع من الثياب المفصلة يضرب على يمنة الخيمة السلطانية ، فعمل ونصبت محاريبه وأبوابه وعملت فيه مقصورة برسم السلطان .

وفى هذه السنة جددت دار العدل تحت قلعة الجبل ، وجلس بها السلطان فى يومى الخميس والاثنين لعرض العساكر . وفيها وردت هدية من بلاد اليمن . وفيها أمر بتنصيب أربعة قضاة نوابا لقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، فاستناب حنفيا ومالكيا [وشافعيا] ، ولم يجد من يستنيبه من الحنابلة فولى عاقدا(٣) حنبليا . وفيها جهز السلطان عرب

(١) مضبوط هكذا فى س ، وقد روجعت الأسماء التالية على منطوقها فى (Quatremére : Op. Cit. L. I. p. 222) ، واكتفى بإثبات ضبط مضبوطها منها فى س .

(٢) فى س "صحى" ، وهذا الاسم مترجم فى (Ibid ; Op. Cit. L. I. p. 222) بلفظ (Sobhi) .

(٣) العاقد هو الذى يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج ، وهو دون القاضى . =

خفاجة بالخلع إلى أكابر أهل العراق ، وكتب إلى صاحب شيراز وغيره يغريهم بهولاكو ، وألبس عدة من أمراء خفاجة الفتوة ، وجهز معهم الأمير عز الدين إلى شيراز . وفيها جهز السلطان فى البحر جماعة من البنائين والنجارين والنشارين والعتالين ، وعدة أخشاب وغيرها من الآلات ، برسم عمارة الحرم النبوى . وعُملت كسوة الكعبة على العادة ، وحملت على البغال وطيف بها فى القاهرة ومصر ، وركب معها الخواص وأرباب الدولة والقضاة ، والفقهاء والقراء والصوفية والخطباء والأئمة . وسُفّرت إلى مكة فى العشر الأوسط من شوال ؛ وفوّضت عمارة الحرم لزين بن البورى .

وفيها جمع الفرنسيس ملك الفرنج عساكره يريد أخذ دمياط ، فأشار عليه أصحابه بقصد تونس أولا ، ليسهل أخذ دمياط بعدها . فسار إلى تونس ونازلها حتى أشرف على أخذها ، فبعث الله فى عسكره وباء هلك فيه[1] هو وعدة من أكابر أصحابه ، وعاد من بقى منهم

ومات فى هذه السنة الأمير الكبير مجير الدين أبو الهيجاء بن عيسى بن خشترين الأزكشى[2] الكردى بدمشق . وتوفى[3] عز الدين أبو محمد عبد الرزاق بن رزق الله بن أبى بكر بن خلف الرسعنى الحنبلى ، شيخ البلاد الجزرية ، بسنجار عن اثنتين وسبعين سنة وتوفى علم الدين

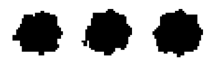
= فى الرتبة . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . على أنه لا يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٣ ، وما بعدها) ، فى باب ألقاب أرباب الأقلام ، موظف بهذا اللقب . راجع أيضا نفس المؤلف والمرجع (ج ٤ ، ص ٣٤ ، وما بعدها) .

(١) تعرف هذه الحملة باسم الحملة الصليبية الثامنة ، وقد تقدمت إشارة المقريزى لها عرضا فى ص ٣٦٤ ، وهى آخر الحملات الكبرى التى أرسلتها أوربا لتنفيذ أغراض الحروب الصليبية . وقد أدركت الوفاة قائدها (Louis IX) ملك فرنسا بعيد نزول جنودها قرب تونس ، وذلك قبل أن تقوم الحملة بشىء مذكور . فقام على قيادتها أخوه (Charles of Anjou) ملك صقلية ، غير أن القائد الجديد انصرف عن غرض الحملة إلى ما تطلبته مصالح مملكته الصقلية ، فاستدفع ملك تونس وهو المستنصر محمد بن يحيى بن عبد الوهاب مبلغا من المال كغرامة حربية ، وأستأداه جزية سنوية تدفع إلى خزانة مملكته . Barker : The Crusades, pp. 87 - 89) ؛ ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ١٢١) .

(٢) كذا فى س ، وقد تقدم ورود هذا الاسم هنا برسم مخالف (انظر ص ٤٣٣ ، سطر ٣) ، وهو فى ب (١٥٤ ا) "... عيسى بن جشقن بن الازكشى..."، وترجمه (Quatremère : Op. Cit. (Isâ ben - Khaschken le curde) إلى I. 1. p. 224.) .

(٣) الوفيات التالية مكتوبة فى قاعدة الصفحة فى س ، بدون أى إشارة إلى الوضع المناسب لإثباتها بالمتن على أنها واردة كما هنا فى ب (١٥٤ ا) ، وأيضا فى (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 224) ، وليس ثمت شك فى وقوعها هذه السنة . انظر (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٧) .

أبو محمد القاسم بن أحمد بن موفق جعفر المرسى اللورقى بدمشق ، وقد انتهت إليه مشيخة الإقراء ، عن ستين[1] سنة .



سنة اثنتين وستين وستمائة : استفتح السلطان هذه السنة بالجلوس فى دار العدل ، فأحضرت إليه ورقة مختومة مع خادم أسود تتضمن مرافعة فى شمس الدين شيخ الحنابلة ، أنه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته ، لأنه ما جعل للحنابلة نصيبا فى المدرسة التى أنشأها بجوار قبة الملك الصالح ، ولا ولى حنبليا قاضيا ، وذكر أشياء قادحة فيه . فبعث [السلطان] بها إلى الشيخ ، فأقسم أنه ما جرى منه شىء ، " وإنما هذا الخادم طردته من خدمتى " . فقال السلطان : " ولو شتمتنى (١٢٨ ب) أنت فى حلّ " ؛ وأمر فضرب الخادم مائة عصا .

وفى المحرّم نودى بالقاهرة ومصر أن امرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتزيّا بزى الرجال ، ومَنْ فعلت[2] ذلك بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من الكسوة وطُلب الطواشى شجاع الدين مرشد الحموى إلى قلعة الجبل ، وأنكر عليه السلطان اشتغال مخدومه صاحب حماة باللهو ، وقرّر معه إلزام الأجناد بإقامة البرك وتكميل العدد ، وكتب له تقليدا[3] وسافر إلى حماة . وقدم

(١) يظهر من العبارة التالية ، وهى من مخطوطة ابن واصل المتداولة فى هذه الحواشى (نفس المرجع ، ص ٤٢٥ ا) أن مؤلف مفرج الكروب وقف عن الكتابة أثناء سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) ، وأن بقية هذه المخطوطة التى تنتهى بسنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١م) من تلخيص الكاتب الذى استملاه ، وذلك من كتاب آخر لابن واصل أوغيره اسمه التاريخ . أما سبب انقطاع ابن واصل عن الإملاء ، فالراجح أنه راجع إلى ذهابه إلى صقلية حوالى ذلك الوقت رسولا من عند السلطان بيبرس إلى صاحبها الملك ما نفرد (Manfred) وإقامته هناك عدة سنين . (انظر (Enc. Isl. Art. Ibn Wāṣil) . وهذا نص العبارة : "قال الفقير إلى رحمة الله تعالى وعفوه نور الدين على بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفرى ، انتهى إلى هاهنا إملاء القاضى الإمام العالم العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل رحمه الله تعالى ، ولم نستوعب حوادث سنة إحدى (فى الأصل أحد) وستين وستمائة . وجرت أمور كثيرة ، ونحن نذكر بعون الله تعالى مختصرا من تمام التاريخ على حسب الطاقة ، ونسأل الله تعالى المعونة فى ذلك ، إنه على كل شىء قدير وإليه المصير".

(٢) فى س " فعل " ، هذا وليس من المفهوم سبب تقليد النساء الرجال فى الملابس ، فى هذا العصر الأول من تاريخ المماليك ، إلا إذا كان ما أشار إليه المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٠٤) بخصوص عصر المماليك الجراكسة ، موجودا أيضا فى عصر بيبرس .

(٣) فى س " تقليد " .

الأمير جلال الدين يشكر بن الدوادار المجاهد دوادار الخليفة ببغداد — وكان قد تأخر حضوره فأحسن إليه السلطان وأعطاه إمرة طبلخاناه .

وفى يوم الأحد الخامس من صفر اجتمع أهل العلم بالمدرسة الظاهرية بين القصرين عند تمام عمارتها[1] ، وحضر القراء وجلس أهل كل مذهب فى إيوانهم . وفُوّض تدريس الحنفية للصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين بن العديم ، وتدريس الشافعية للشيخ تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين ، والتصدير لإقراء القرآن للفقيه كمال الدين المحلى ، والتصدير لإفادة الحديث النبوى للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى . وذكروا الدروس ومدّت الأسمطة ، وأنشد جمال الدين أبو الحسين الجزار يومئذ : —

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ... ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك[2] همة ... بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنى
تجمع فيها كل حسن مفرّق ... فراقت قلوبا للأنام وأعينا
ومذجاورت قبر الشهيد فنفسه الـ ... ـنفيسة منها فى سرور وفى هنا
وما هى إلا جنة الخلد أزلفت ... له فى غد فاختار تعجيلها هنا

وأنشد عدّة من الشعراء أيضا [ومنهم السراج الورّاق ، والشيخ جمال الدين يوسف[3] بن الخشاب] ، فخلع عليهم وكان يوما مشهودا . وجعل [السلطان] بهذه المدرسة خزانة كتب جليلة ، وبنى بجانبها مكتبا للسبيل ، وقرّر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز فى كل يوم والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف .

وفيه ورد الخبر مع الحاج بأنه خُطب للسلطان بمكة ، وأن الصدر جمال الدين حسين بن

---

(١) بدأ السلطان بيبرس بناء هذه المدرسة فى ربيع الآخر سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، على أنقاض قاعة الخيم ، وهى إحدى قاعات القصر الكبير الفاطمى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ — ٣٧٩) .

(٢) فى س "السلطان" . انظر (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٩) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من المقريزى (نفس المرجع والصفحة) ، حيث يوجد أيضا نص الأشعار التى أنشدت فى ذلك الحفل الافتتاحى .

الموصلى ، كاتب الإنشاء المتوجه إلى مكة ، تسلم مفتاح الكعبة وقفله بالقفل المسير صحبته ، وألبح الكعبة للناس مدة ثلاثة (١١٢٩ ا) أيام بغير شىء يؤخذ منهم . وفيه قرئ كتاب وقف الخان بمدينة القدس فى مجلس السلطان بقلعة الجبل ، وحضر قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز قراءته ، وكتب به عدة نسخ . ووقف [السلطان] أيضا إصطبلين تحت القلعة ، يعرف أحدهما بجوهر النوبى[١] ، على وجوه البر . وفيه ورد الخبر بأنه رُتّب بمدينة الخليل السماط والرواتب للمقيمين والواردين ، وكان قد بطل ذلك من مدة أعوام كثيرة .

وفيه سار السلطان إلى وَسِيم[٢] ومضى إلى الغربية ، فصار يسير منفردا فى خفية و يسأل عن والى الغربية الأمير ابن الهمام وعن سيرة نوابه وغلمانه ومباشريه ، فذكرت له عنه سيرة سيئة ، فقبض عليه وأدبه وأقام غيره ؛ وشُكى إليه من ظلم بعض المباشرين النصارى ، فأمر به فشُنِق من أجل أنه تكلم بما يوجب ذلك . ودخل [السلطان] دمياط ، ثم عاد إلى أشموم ، وسار من المنزلة إلى الشرقية . وفيه سأل الفرنج أن يؤذن لهم فى زراعة ما بيدهم من بلاد الشام وتقويتها بجملة من الغلال ، فتقررت الهدنة معهم إلى أيام ، وأذن لهم فى ذلك فزرعوا .

وفى يوم الجمعة حادى عشريه مات الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد شيركوه بن الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادى ابن مروان صاحب حمص ، عن غير ولد ولا أخ ولا ولى عهد . فبعث [السلطان] إلى الأمير بدر الدين بيليك العلائى أحد الأمراء ، فتسلمها فى سابع عشريه وحلف الناس بها للملك الظاهر ؛ وتسلم الرحبة أيضا ، و بعث السلطان إليها عشرين ألف دينار عينا ؛ وولّى مدينة

(١) فى س "النوبى" ، ولعل هـذا الإصطبل كان مبنيا على جزء من الموضع المسمى فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١١٩) باسم "حكر جوهر النوبى" ، وموقعه تجاه حارة الوزيرية فى شرقى بستان العدة بالقاهرة . وكان ذلك الحكر بستانا إلى نحو سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، ثم حكر وبنيت فيه الدور . أما جوهر النوبى فأمير خصى من أمراء الملك الكامل ، وهو أحد الذين ثاروا بالملك العادل الثانى وخلعوه ، فلما تسلطن الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أخيه العادل قبض على جوهر المذكور فى سنة ٦٣٨ هـ .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من مديرية الجيزة ، غربى ناحية إنبابه . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٧ ، ص ٥٧ — ٦١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٩٢٩) .

خزانى الأمير جمال الدين الجاكى، وولى مدينة الرقة أميرا آخر. وورد الخبر بأن متملك جزيرة دَهْلَك[1]، ومتملك جزيرة سَواكِن[2]، يتعرضان إلى أموال من مات من التجار. فسير [السلطان] إليهما أحد رجال الحلقة رسولا، ينكر عليهما.

وفى هذه[3] السنة بلغ ثمن القُرْط[4] الذى قضمته الخيول السلطانية وجمال المُناخات[5] بأرض مصر، ما مبلغه خمسون ألف دينار. وفى هذه السنة ارتفعت الأسعار بمصر، فبلغ الأردب القمح نحو المائة درهم نقرة، فأمر السلطان بالتسعير فاشتدّ الحال وعدم الخبز. و بلغ القمح مائة درهم وخمسة دراهم (١٢٩ ب) الأردب، والشعير إلى سبعين درهما الأردب، والخبز ثلاثة أرطال بدرهم، واللحم كل رطل بدرهم وثلث؛ وبلغ بالإسكندرية الأردب القمح ثلاثمائة وعشرين درهما من الوَرْق[6]. ثم اشتد الحال بالناس حتى أكلوا ورق اللفت

(١) بغير ضبط فى س، وهى أكبر الجزر المعروفة باسم أرخبيل دهلك بالبحر الأحمر، وموقعها قبالة مصوّع، ولقد امتدّ سلطان الإسلام إلى هـذه الجزيرة إبان الفتوح العربية الأولى، واستخدمها خلفاء الأمويين والعباسيين منفى للمبعدين، ثم انسلخت من الخلافة العباسية وصارت تابعة لأمراء زبيد باليمن، وظلت كذلك حتى زالت تلك الدولة. ثم استقلت بشؤونها مدة طويلة حتى كان زمن المماليك بمصر، فعمل متملكوها على نموّ العلاقات الحسنة بينهم وبين سلاطين المماليك، وذلك ردّا لمادية الدولة الرسولية باليمن. (Enc. Isl. Art. Dahlak).

(٢) بغير ضبط فى س، وهى سواكن الحالية وتقع على ساحل البحر الأحمر، وقد وصفت بأنها جزيرة لقيامها فعلا فى وسط جزيرة يوصلها بالشاطىء لسان ضيق من الأرض. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٨٢؛ Enc. Isl. Art. Sawakin).

(٣) عبارة س كالآتى: "وبلغ ثمن القرط الذى قضمته الخيول السلطانية وجمال المناخات فى هـذه السنة بأرض مصر...".

(٤) القرط هو البرسيم (محيط المحيط)، وهو مترجم فى (Dozy : Supp. Dict Ar.) إلى الألفاظ الفرنسية (luzerne, foin, fourrage).

(٥) المناخات جمع مناخ، وهى هنا الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية، كالإسطبلات لأصناف الخيل (Dozy : Supp. Dict. Ar.)، ومنها مناخ الجمال البخاتى ومناخ الجمال النفر ومناخ الهجن والنياق. وكانت هذه المناخات، وكذلك إسطبلات الخيل وغيرها من أنواع الحيوان كالفيلة والسباع والفهود، تابعة لإدارة الإسطبلات السلطانية. (ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ١٢٥؛ المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٢٤ — ٢٢٥).

(٦) بغير ضبط فى س، والدراهم الورق بضبط المتن — ويقال أيضا الوُرْق والوِرْق والوَرِق — هى الدراهم المضروبة، وتجمع على أوراق ووِرَاق؛ ويقال لهذه الدراهم أيضا الرِّقة. (محيط المحيط).

والكرنب ونحوه ، وخرجوا إلى الريف فأكلوا عروق الفول الأخضر . فلما كان يوم الخميس سابع ربيع الآخر نزل السلطان إلى دار العدل وأبطل التسعير ، وكتب إلى الأهراء[1] ببيع خمسمائة أردب كل يوم لضعفاء الناس ، ويكون البيع من ويبتين إلى ما دون ذلك حتى لا يشترى من يخزن . ونودى للفقراء فاجتمعوا تحت القلعة ، ونزل الحجاب إليهم فكتبوا أسماءهم ، ومضى إلى كل جهة حاجب فكتب ما بقى فى القاهرة ومصر من الفقراء ، وأحضروا عدّتهم فبلغت ألوفا . فقال [السلطان] : " والله لو كانت عندى غلة تكفى هذا العالم لفرّقتها " . ثم أخذ ألوفا منهم ، وأعطى لنوّاب ابنه الملك السعيد مثل ذلك ، وأمر ديوان الجيش فكتب باسم كل أمير جماعة على قدر عدته ، وأعطى الأجناد والمفاردة من الحلقة والمقدمين والبحرية ، وعزل التركمان ناحية والأكراد ناحية .

(١) الأهراء السلطانية هى الأماكن التى تخزن بها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان ، احتياطا لأمثال الطوارئ الاقتصادية الواردة بالمتن ، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة . وكان لخاص السلطان أيضا شون ، وهذه يوضع بها ما يستهلك طول السنة من الغلال والأحطاب والأتبان وما أشبه ذلك . (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٢ — ١٢٣) ويوجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٦٤ ، وما بعدها) وصف للأهراء السلطانية فى زمن الخلفاء الفاطميين ، ونصه : "وكانت أهراء الغلال السلطانية فى دولة الخلفاء الفاطميين حيث المواضع التى فيها الآن خزانة شمائل ، وما وراءها إلى قرب حارة الوزيرية . قال ابن الطوير وأما الأهراء فإنها كانت عدة (ص ٤٦٥) أماكن بالقاهرة هى اليوم إصطبلات ومناخات . وكانت تحتوى على ثلاثمائة ألف أردب من الغلات وأكثر من ذلك ، وكان فيها مخازن يسمى أحدها بغدادى ، وآخر الفول ، وآخر القرافة . ولها الحماة من الأمراء والمشارفين من العدول ، والمراكب واصلة إليها بأصناف الغلات إلى ساحل مصر وساحل المقس ، والحمالون يحملون ذلك إليها بالرسائل على يد رؤساء المراكب وأمنائها من كل ناحية سلطانية ، وأكثر ذلك من الوجه القبلى . ومنها إطلاق الأقوات لأرباب الرتب والخدم وأرباب الصدقات وأرباب الجوامع والمساجد ، وجرايات العبيد السودان بتعريفات . و [منها] ما ينفق فى الطواحين برسم خاص الخليفة ، وهى طواحين مدارها سفل وطواحينها علو ، حتى لا تقارب زبل الدواب ، ويحمل دقيقها للخاص وما يختص بالجهات فى خرائط من شقق حلبية . ومن الأهراء تخرج جرايات رجال الأسطول وجرايات السودان ، ومنها ما يستدعى بدار الضيافة لأخباز الرسل ومن يتبعهم ، وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول ..." . وكان فى زمن القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٣) وظيفة تسمى " نظر الأهراء بمصر بالصناعة ، وهى شونة الغلال السلطانية التى يتكلم عليها الوزير ، وموضوعها التحدث فيما يصل إليها من النواحى من الغلال وغيرها ، وما يصرف منها على الإصطبلات الشريفة والمناخات السلطانية ، وغير ذلك " .

وأمر أن يُعطى كل فقير كفايته مدّة ثلاثة أشهر ، وأعطى للتجار طائفة من الفقراء ، وأعطى الأغنياء على اختلاف طبقاتهم كل أحد بقدر حاله . وأمر أن يُفرّق من الشون السلطانية على أرباب الزوايا فى كل يوم مائة أردب ، بعد ما يعمل خبزا بجامع ابن طولون . ثم قال [السلطان] : " هؤلاء المساكين قد جمعنام اليوم وانقضى نصف النهار ، فادفعوا لكل منهم نصف درهم يتقوّت به خبزا ، ومن غدٍ يتقرّر الحال " ؛ ففرّق فيهم جملة كبيرة . وأخذ الصاحب بهاء الدين طائفة العميان ، وأخذ الأتابك جماعة التركمان ، فلم يبق أحد من الخواص ولا من الحواشى ولا من الحجاب ، ولا من الولاة وأرباب المناصب وذوى المراتب وأصحاب المال ، حتى أخذ جماعة من المساكين . وقال السلطان للأمير صارم الدين المسعودى والى القاهرة : " خذ مائة فقير أطعمهم لله " . فقال [الأمير] : " قد فعلتُ ذلك ، وأخذتُهم دائما " . فقال [السلطان] : " ذلك فعلتَه ابتداء من نفسك ، وهذه المائة خذها لأجلى " ، فأخذ مائة مسكين أخرى . وشرع الناس فى فتح المخازن وتفرقة الصدقات ، فانحط السعر عشرين درهما الأردب ، وقلّت الفقراء . واستمرّ الحال إلى شهر رمضان ، فدخل المغل الجديد وانحل (١٣٠) السعر فى يوم واحد أربعين درهما الأردب .

وفى اليوم الذى جلس فيه السلطان بدار العدل ، رُفعت إليه قصة ضُمّان دار الضرب فيها بوقف(١) الدراهم ، وسألوا إبطال الدراهم الناصرية ، وأن ضَمانهم مبلغ مائتى ألف وخمسين ألف درهم : فأمر [السلطان] أن يحط من ضمانهم مبلغ خمسين ألف درهم ، وقال : " لا نؤذى الناس فى أموالهم " .

وفى العشرين من ربيع الآخر كانت زلزلة عظيمة هدمت عدّة أماكن . وفى ثالث عشريه رُسم بمسامحة بنات الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار العزيزى بما وجب للديوان

---

(١) فى س " رفعت إليه قصه ضمان دار الضرب منها بوقف الدراهم " ، وقد ترجم (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 233) العبارة كلها إلى "on lui apporta un placet addressé per les fermiers de l'hôtel de la monnaie; ils représentaient que la fabrication du dirhem était arrêtée ..." هذا وقد كانت دار الضرب من منشآت الفاطميين ، وقد بنيت سنة ٦١٥ بجهة القشاشين ، وسميت بالدار الآمرية نسبة إلى الخليفة الآمر بالله . وما زالت دار الضرب هذه باقية حتى أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى ، فنقلت إلى الموضع الذى عرف فيما بعد باسم درب الشمسى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٤٠٦ ، ٤٤٥) .

فى تركة أيبهن(١) - وكان قد مات بدمشق فى رابع عشر المحرم - وهو مبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة ، خارجا عن ماله من الأملاك والغلال والخيل . وكتب [السلطان] بذلك إلى الشام ، وقصد بذلك أن يفهم أمراءه أن من مات فى خدمته وحَفظ يمينه ؛ ينظر فى أمر ورثته ويبقى عليهم ما يخلفه . ومات الأمير شهاب الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية ، فأعطى ابنه إقطاعه وهو مائة طواش . ولما أسر الفرنج الأمير شجاع الدين والى سَرْمِيْن(٢) ، أبقى [السلطان] إقطاعه بيد إخوته وغلمانه ، كل ذلك استجلابا للقلوب(٣) .

---

(١) فى س "ايبهم" .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من أعمال حلب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٣) .

(٣) يفهم من كل هذا أن الإقطاع فى العرف المملوكى - وفى عرف الدول الإسلامية جميعاً - كان أمرا شخصيا بحتا ، لادخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه ، فكان المقطع يحل فى الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته فحسب ، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها ، أو بسبب وفاة المقطع إذا كان الإقطاع لمدة الحياة ، أو بسبب إخلال المقطع بشروط العقد التام ، وسواء فى ذلك ما يسمى باسم إقطاع التمليك وهو الإقطاع العادى ، أو إقطاع الاستغلال وهو إقطاع شخص خراج جهة معينة . راجع (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٠٤ - ١١٧) . وقد بين (G. Demombynes : La Syrie, Introd. p. CXIV.) ذلك كله بوضوح فى العبارة الآتية "La dotation foncière (iqtà) ne donne ni la propriété, ni la possession, ni la jouissance du fonds; elle fait seulement participer le titulaire au revenus du sol, dont elle lui copière l'impôt; le mouqta' est substitué au souverain pour la perception de celui-ci" وهذه الصفة الشخصية فقط تجعل الإقطاع فى البلاد الإسلامية مشابها للإقطاع الأوربى فى أوائل القرون الوسطى ، أى حتى القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى تقريبا) ، إذ كان الإقطاع هبة من الملك لأتباعه ، وليس ثمت حدود مقررة تعين حقوق كل من الطرفين سوى مشيئة الملك (precariae verbo regis) . انظر (Camb. Med. Hist. II. p. 646 et seq.) . غير أن الإقطاع الأوربى تطوّر فيما بعد القرن العاشر ، فصار المقطع ملكية انتفاع أو ارتفاق واستغلال معينة (dominium utile) ، وصار بينه وبين المالك الأصلى أو الأول (dominium eminens) عقد شامل لالتزامات كل من الطرفين . ومع أن توارث الخلف الشرعى للمقطع لم يكن من شروط العقد الإقطاعى فى أوربا ، فإن العادة كانت أن يخلف الوارث سلفه بإذن المالك الأصلى ، بعد تأدية مبلغ معين من المال (relevium) بمثابة رسم دخول إلى الإقطاع . انظر (Camb. Med. Hist. III. p. 458 et seq.) وفى هذه الظاهرة الأخيرة وحدها أحد الأشياء التى تجعل الإقطاع زمن المماليك مختلفاً فى صميمه عن الإقطاع الأوربى المعاصر له ، مع ما بينهما من الشبه العام . ويتضح من هذا أن ما أراد به السلطان بيبرس "استجلاب القلوب" ، كان محاولة غير مقصودة للتقريب بين النظام الإقطاعى فى الدولة المملوكية ونظيره فى أوربا . على أن ذلك التطور فى =

وفيه ورد الخبر أن هيتوم ملك الأرمن[١] جمع وسار إلى هرقلة ، ونزل على قلعة صَرْفَنْدْ[٢] . فخرج البريد من قلعة الجبل إلى حماة وحمص بالمسير إلى حلب ، فخرجوا وأغاروا على عسكر الأرمن ، وقتلوا منهم وأسروا . فانهزم الأرمن واستنجدوا بالتتار ، فقدم منهم من كان فى بلاد الروم ـ وهم سبعمائة فارس ـ ، فلما وصلوا إلى حارم رجعوا من كثرة الثلج ، وقد هلك منهم كثير .

وورد الخبر بأن خليج الإسكندرية قد انسد وامتلأت فوهته بالطين ، وقل الماء فى ثغر الإسكندرية بهذا السبب . فسيّر السلطان الأمير عز الدين أمير جاندار لحفره ، وبعث الأمير جمال الدين موسى بن يغمور الأستادار لحفر بحر جزيرة بنى نصر عند قلة ريها .

وفى جمادى الأول سافر الأمير سيف الدين بلبان الزينى أمير علم إلى الشام برسم تجهيز مهمات القلاع ، وعَرْض عساكر حماة وحلب ورجال الثغور ، وإلزام الأمراء بتكميل العَدد والعُدة[٣] ، وإزاحة[٤] الأعذار بسبب الجهاد . وكتب على يده عدة تذاكر بما يعتمده ، وأن يحمل من دمشق خزانة كبيرة إلى البيرة برسم نفقاتها . ورحلت جماعة من (١٣٠ ب) عرب خفاجة كانوا قد وردوا بكتب من جماعتهم بالعراق ، يخبرون فيها بأنهم أغاروا على التتار حتى وصلت

= الإقطاع الإسلامى لم يكن الأول من نوعه ، فقد كانت العادة زمن السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، حسبما ورد فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٦) ، أنه "إذا مات الجندى [من أجناده] أعطى [السلطان] إقطاعه لولده ، فإن كان صغيراً رتب معه من يلى أمره حتى يكبر . فكان أجناده يقولون الإقطاعات أملاكنا يرثها أولادنا الولد من الوالد ، فنحن نقاتل عليها ، وبه اقتدى كثير من ملوك مصر ..". راجع أيضا (المقريزى : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٥ — ٩٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٥٠ — ٥١) .

(١) المقصود بمملكة الأرمن هنا بلاد قليقية ، وهى أرمينية الصغرى ، وكان ملكها هيتوم (Hethum 1, 1226-1270) قد انضم إلى هولاكو ، رغبة منه فى حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب ، وصارت تلك المملكة بذلك ولاية تابعة لدولة التتر بفارس . (Camb. Med. Hist. IV. p. 175, & Enc. Isl. Art. Armenia)

(٢) بغير ضبط فى س . انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ٦٩٢ ، فى Rec. Hist. Or. I)

(٣) كذا فى س ، بضم العين فقط ، ولم يضبط لفظ العدة الأول بفتح العين .

(٤) فى س "اراحة الاعدار"، والمصحح من ب (ص ١٥٧ ا) .

غاراتهم باب مدينة بغداد ، ويخبرون بأحوال مدينة شيراز ، فأجيبوا وأحسن إليهم . وفيه توجه قصادٌ إلى الملك بركه ؛ وأسلَمَ عالم كبير على يد السلطان من التتار الواصلين ومن الفرنج المستأمنين والأسرى ومن النوبة القادمين من عند ملكها ، ففرّق فيهم فى يوم واحد الأمور بدر الدين الخازندار مائة وثمانين فرسا .

وفى جمادى الآخرة قبض على جاسوسين من التتار . وتنجّز البرج الذى بناه السلطان فى قارَة[1] ، وشرع فى بناء برج أكبر منه لحفظ الطرقات من عادية الفرنج . واهتم ملك الأرمن بالمسير إلى بلاد الشام ، وأعدّ ألف قباء تترى[2] وألف سراقوج[3] ، ألبسها الأرمن ليوهم أنهم نجدة من التتر . فلما ورد الخبر بذلك خرج البريد إلى دمشق بخروج عسكرها إلى حمص ، وخروج عسكر حماة ، وألا يخرج عربان الشام فى هذه السنة إلى البرية . فخرجت العساكر ، ووالت الغارات من كل جهة ، فانهزم الأرمن . ونزل العسكر على أنطاكية فقتل وأسر وغنم ، وأغار العسكر أيضا ببلاد الساحل على الفرنج حتى وصل إلى أبواب عكا . وشرع [السلطان] البناء فى شقيف تيرون ، وكان قد خرب من سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فلما تم بناؤه حَمل إليه زردخاناه وذخائر ، و بعث إلى عسكر الساحل مائتى ألف درهم فرّقت فيهم . وورد البريد بأن جماعة من شيراز ، ومن أمراء العراق وأمراء خفاجة ، وصلوا وافدين إلى الأبواب السلطانية .

وفى أوّل رجب رفعت قصة بأن على باب المشهد الحسينى مسجدا[4] ، إلى جانبه موضع من حقوق القصر قد بيع بستة آلاف درهم حملت إلى الديوان . فأمر [السلطان] بردها

(١) فى س " قارا " بغير ضبط ، وهى قرية جنوبى حمص ، على مسافة ستة وثلاثين ميلا منها ، وتقع على الطريق بين حمص ودمشق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢ — ١٣ ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥١ ، فى (Rec. Hist. Or. I.) .

(٢) فى س "قباتترى" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 1. P. 235) .

(٣) فى س " سراكوج " ، وهى قلنسوة تترية ، وتجمع على سراقوجات (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) فى س " مسجد " .

وعَمل الجميع مسجدا ، وأمر بعمارته . ووقف أحد الجند بيتيم معه ذكر أنه وصيه ، فقال السلطان لقاضي القضاة : " إن الأجناد إذا مات أحدهم استولى خشداشيته على موجوده ، ويُجعل اليتيم من الأوشاقية . فإذا مات اليتيم أخذ الوصي موجوده ، أو يكبر[1] اليتيم فلا يجد شيئاً ولا تقوم له حجة على موجوده ، أو يموت الوصي فيذهب مال اليتيم في ماله . والرأى أن أحداً من الأوصياء لا ينفرد بوصية ، وليكن نظر الشرع (١٣١ ا) شاملا ، وأموال اليتامى مضبوطة ، وأمناء الحكم يحاققون على المصروف " . وطلب [السلطان] نوّاب الأمراء ونقباء العساكر وأمرهم بذلك ، فاستمرّ الحال عليه .

وفى ثالثه قدم الوافدون من شيراز ، ومقدمهم الأمير سيف الدين بكلك[2] ، ومعهم سيف الدين اقتبار الخوارزمى جمدار جلال الدين خوارزم شاه ، وغلمان أتابك سعد وهم شمس الدين سنقرجاه ورفقته . ووصل صحبتهم مظهر الدين وشاح بن شهرى ، والأمير حسام الدين حسين بن ملاح أمير العراق ، وكثير من أمراء خفاجة . فتلقاهم السلطان بنفسه ، وأعطى سيف الدين بكلك إمرة طبلخاناه ، وأحسن إلى سائرهم .

وفى شعبان أمر السلطان الأمراء والأجناد والمماليك بعمل العدد الكاملة ، فوقع الاهتمام من كل أحد بعمل ذلك ، وكثر الازدحام بسوق السلاح ، وارتفع سعر الحديد وأجْر الحدادين وصناع آلات السلاح . ولم يبق لأحد شغل إلا ذلك ، حتى صار العسكر لا ينفق متحصله فى شيء سوى السلاح ، ولا يشتغل أحد منهم إلا بنوع من أنواع الحرب كالرمح ونحوه ، وتفننوا فى أنواع الفروسية . وورد كتاب أمير المدينة النبوية أنه سار مع كسوة الكعبة حتى علّقها فى البيت .

وفى شهر رمضان تنجزت كسوة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وتعيّن سفرها مع الطواشى جمال الدين محسن الصالحى . ووقع الشروع فى تجهيز الشمع والبخور وَالزَّيْت[3] وَالطِّيب .

---

(١) فى س "مكبر".

(٢) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 238) هذا الاسم إلى (Beklemek) .

(٣) هذان اللفظان مضبوطان هكذا فى س .

وخرج البريد إلى الأمير ناصر الدين القيمرى بالغارة على قَيْسَارِيّة[١] وعَثْلِيث[٢] ، فساق إلى باب عثليث ونهب وقتل وأسر ، ثم ساق إلى قيسارية ففعل مثل ذلك بالفرنج . وكان الفرنج قد قصدوا يافا ، فخافوا ورجعوا عنها . وفيه جرى السلطان على عادته فى إجراء الصدقات بمطابخ القاهرة ومصر برسم الفقراء ، فكان يصرف فى كل ليلة من ليالى رمضان جملة كبيرة من الخبز واللحم المطبوخ ؛ وجرى أيضاً على عادته فى عتق ثلاثين نسمة على عادة الملوك الماضين[٣] ، سوى من أعتقه من مماليكه . وورد الخبر بأن الفرنج أخذوا أخيذة كبيرة للمسلمين ، فكتب إلى نوّاب الشام بالاجتهاد فى ردّها ؛ فورد كتاب الأمير ناصر الدين القيمرى بأن الفرنج ردّوها ، وكانت تشتمل على عالم كبير من الناس وجملة من المواشى . فسمع فى ساعة ردها ، من اختلاف الأصوات بدعاء (١٣١ ب) الرجال والنساء وبكاء الأطفال ، ما تكاد ترق له الحجارة . وقدم البريد من البيرة بأن صارم الدين بكتاش الزاهدى أغار على باب قلعة الروم مرارا . وورد كتاب الملك شارل[٤] أخى الفرنسيس ملك الفرنج ، ومعه هدية وكتاب أستاداره : " بأن مخدومه أمره أن يكون أمرُ الملك الظاهر نافذاً فى بلاده ، وأن أكون نائبَ الملك الظاهر كما أنا نائبه " .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وقيسارية المقصودة هنا بلد على ساحل فلسطين قبالة طبرية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٤) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهو حصن بساحل الشام بين حيفا وقيسارية ، وكان يعرف بالحصن الأحمر ، واسمه فى الحوليات الصليبية (Castellum Peregrinorum) أى حصن الحجاج ، وقد زادت هيئة الفرسان الداوية فى تحصينه فى أواخر أيام الحروب الصليبية ، وجعلته المركز الرئيسى لقوّاتها بالشام ، (Le Strange : Palest. Under Moslems. P. 403 ; Stevenson : Crusaders In The East. P. 308) . انظر أيضا (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ٦١٦) .

(٣) يفهم من هذه العبارة أن عتق هذا العدد كان عادة سنوية منظمة فى الدولة المملوكية .

(٤) فى س "شارك" . والملك شارل المقصود هنا هو (Charles d' Anjou) ملك صقلية ، وقد تقدمت الإشارة إليه وإلى أخيه لويس التاسع (Louis IX) ملك فرنسا المتوفى فى تونس . (انظر ص ٥٠٢ ، حاشية ١) . أما الكتاب المشار إليه فكان الغرض منه عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك ومملكة صقلية . انظر (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt in the Middle Ages p. 266) .

وفي يوم الجمعة خامس عشريه قرئ مكتوب في جامع مصر بإبطال ما قرّر على ولاية مصر من الرسوم ، وهي مائة ألف درهم وأربعة آلاف درهم نقرة . وورد الخبر بأن الأشكرى (١) عوّق الرسل إلى الملك بركه بالهدية عن المسير إليه ، حتى هلك أكثر ما معهم [من الحيوان (٢)] . فأحضر السلطان البطاركة والأساقفة ، وسألهم عمن خالف الأيمان وما كتب به الأشكرى ، فأجابوا بأنه يستحق أن يحرم من دينه . فأخذ [السلطان] خطوطهم بذلك ، وأخرج لهم حينئذ نسخ أيمان الأشكرى ، وقال : " إنه قد نكث بإمساك رسلي ، وماله إلى جهة هولاكو " . ثم جهز إليه الراهب الفيلسوف اليوناني (٣) ، ومعه قسيس وأسقف ، بحرمانه من دينه ؛ وكتب له كتابا أغلظ فيه . وكتب [السلطان] أيضا إلى الملك بركه [كتابا] ، وسيّره إلى الأمير فارس الدين أقوش المسعودى المتوجه بالهدية إلى الملك بركه .. فلما وصلوا إلى الأشكرى أطلقهم (٤) لوقته ، فساروا إلى الملك بركه (٥) ..

(١) سمى ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١١٢) هذا الأشكرى باسم "الباسلوس كرميخائيل" ، وهو الإمبراطور (Michael VIII Palaeologus, 1259-1282) ، والباسلوس معرب اللفظ اللاتيني (Basileus) ومعناه الإمبراطور ، وقد تلقب به أباطرة الدولة البيزنطية منذ أوائل القرن السابع الميلادى . راجع (Camb. Med. Hist. IV. pp. 726 et seq., 905) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١١٣) ، وقد تقدم ذكر ما احتوته تلك الهدية من أنواع الحيوان . (انظر ص ٤٩٧ ، حاشية ٣) . هـذا ويوجد في نفس المرجع (ص ١١٣ — ١١٤) تفصيلات كثيرة فيما حدث لرسل السلطان في هذا السفر ، ومنها أن سبب تعويقهم أنه كان عند الإمبراطور وقت وصولهم رسول "من جهة هولاوون ، فاعتذر إليهم [الإمبراطور] عن تأخير سيرهم ، لخوفه لئلا يطلع هلاوون على ذلك ..." .

(٣) ليس في المراجع المتداولة في الحواشي ، ما يساعد على التعريف بالراهب المذكور ، وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. I. p. 240) العبارة إلى " un moine philosophe grec. " .

(٤) الضمير عائد على الرسل الذين كانوا قد عوقوا قبلا .

(٥) يوجد في ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١١٦ ، وما بعدها) وصف لوصول السفارة المملوكية إلى حضرة بركه خان ، وقد ضمنه كثيرا من عادات التتر وتقاليدهم ، وصورة دقيقة لشخص بركه خان ، ونصه مصححا من الحواشي المتعلقة به : "فلما قاربوا [معسكر بركه خان] التقاهم الوزير شرف الدين القزويني ، وهو يتحدث بالعربية والتركية ، فأنزلهم في منزلة حسنة وحمل إليهم الضيافة من اللحم والسمك والتبن وغير ذلك . وأصبح الملك بركه نزل (كذا) في منزلة قريبة ، واستحضر الرسل . وكانوا قد عرفوهم ما يفعلونه =

وقدم البريد من البلاد الشامية بأن عدّة من التتار ومن الأتراك والبغاددة قد قصدوا البلاد مستأمنين ، فأمر [السلطان] بجمع الأمراء وأعلمهم بذلك ، وقال : "أخشى أن يكون فى مجيئهم من كل جهة ما يستراب منه ، والرأى أن نخرج إليهم ، فإن كانوا طائعين عاملناهم بما ينبغى ، وإلا فنكون على أهبة . ومن احتاج من العسكر إلى شىء أعطيته ، وما أنا إلا كأحدكم يكفينى فرس واحد ، وجميع ما عندى من خيل وجمال ومال كله لكم ولمن يجاهد فى سبيل الله" .

= عند دخولهم : وهو الدخول من جهة اليسار ، وإذا أخذ (كذا) الكتب منهم ينتقلون الى جهة اليمين ، ويكون الجلوس على الركبتين ، وأن لايدخل أحد الى خركاته بسيف ولاسكين ولا (ص ١١٧) عدة ، ولا يدوس برجله عتبة الخركاه ، وإذا قلع أحد عدّته يقلعها على الجانب الأيسر ، وينزع قوسه من القربان ويفك وتره ، ولا يدع فى تركاشه نشابا ، ولا يأكل ثلجا ، ولا يغسل ثوبه فى الأردو ، وإن اتفق غسله ينشره خفية . ثم إنهم وجدوا الملك بركه فى خركاه كبيرة تسع خمسمائة فارس ، وهى مكسوة لباد أبيض ، ومن داخلها مسترة بصنداب وخطائى ، مكللة بجواهر ولؤلؤ . وهو جالس على تخت مرخى الرجلين على كرسى ، وعلى الكرسى مخدة ، فإنه (فى الأصل فان) كان به وجع النقرش (كذا) ؛ وإلى جانبه الخاتون الكبرى واسمها طنطناى خاتون ، وله امرأتان غيرها وهما ججك خاتون وكهار خاتون ... (ص ١١٨) وكان عمر الملك بركه إلى ذلك التاريخ ستا وخمسين سنة ، وصفته خفيف اللحية كبير الوجه فى لونه صفرة ، يلف شعره عند أذنيه ، فى أذنه حلقة ذهب فيها جوهرة مثمنة ، عليه قباء خطائى ، وعلى رأسه سراقوج ، وحياصة ذهب مجوهرة بسولو بلغارى أخضر ، وفى رجليه خف كيمخت أحمر . ويلبس فى (ص ١١٩) وسطه سيفا ، وفى حياصته قرون سود معوجة مقمعة بذهب ، وعنده خمسون أميرا على كراسى فى خركاته . فلما دخلوا عليه وأدوا الرسالة ، أعجبه ذلك عجبا عظيما ، وأخذ الكتاب وأمر الوزير بقراءته . ثم نقلهم عن يمينه ، وأسندهم مع جنب الخركاه خلف الأمراء بين يديه ، وأحضر لهم القمز وبعده العسل المطبوخ ، ثم أحضر لهم لحما وسمكا فأكلوا . ثم أمر بإنزالهم عند زوجته ججك خاتون ، ولما أصبحوا ضيفتهم الخاتون فى خركاتها ، ثم انصرفوا آخر النهار إلى منازلهم . وصار السلطان بركه يطلبهم فى سائر أوقاته ، ويسألهم عن الفيل والزرافة ، وسأل عن النيل وعن مطر مصر ، وقال سمعت أن عظما لابن آدم ممتد على النيل ، يعبروا (كذا) (ص ١٢٠) الناس عليه ، فقالوا هذا ما رأيناه ولا هو عندنا . وأقاموا عنده ستة وعشرين يوما ، وأعطاهم شيئا من الذهب الذى يتعاملون به فى بلاد الأشكرى . ثم خلعت عليهم زوجته المذكورة ، وأعطاهم جوابهم . وسيرهم ومعهم الرسل ، وهم أربوقا وأزتيمور وتيمورتاش . وكان عند الملك بركه رجل فقير من أهل الفيوم ، اسمه الشيخ أحمد المصرى ، له عندنا حرمة كبيرة . وكل أمير عنده له مؤذن وإمام ، ولكل خاتون مؤذن وإمام ، والصغار الذين عندهم لهم مكاتب ويتلون القرآن . وأقاموا (كذا) الرسل مدة غيبتهم إلى سنة خمس وستين وستمائة" . انظر الترجمة الفرنسية لهذا النص فى نفس المرجع والصفحات ، لتفسير ما به من الألفاظ الغريبة أو الغامضة .

فأشار الأمراء حينئذ بسلطنة ولده ، ليكون مقيما بديار مصر فى غيبته . فلما كان يوم الخميس ثالث عشر شوّال ، أركب السلطان ابنه الملك السعيد بشعار السلطنة ، وخرج بنفسه فى ركابه وحمل الغاشية راجلا بين يديه ، فأخذها منه الأمراء ، ورجع إلى مقر ملكه . ولم تزل الأمراء والعساكر فى خدمته إلى باب النصر ، ودخلوا به من (١٣٢ ا) القاهرة رجالة يحملون الغاشية ، وقد زينت [المدينة] أحسن زينة ، واهتم الأمراء بنصب القباب . فسار [الملك السعيد] ، والأمير عز الدين أيدمر الحلى راكب إلى جانبه وقد تقرّر أن يكون أتابكه ، والثياب الأطلس والعتابى تفرش تحت فرسه ، حتى عاد إلى قلعة الجبل . ولم يبق أمير حتى فرش من جهته الثياب الحرير ، فاجتمع من ذلك أحمال تفرّقها المماليك السلطانية . وكتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر تقليد الملك السعيد ، بتفويض عهد السلطنة له .

وفى يوم الاثنين سابع عشره اجتمع الأمراء والقضاة والفقهاء ، وقرئ التقليد المذكور ، وشُرع فى ختان الملك السعيد ، فأمر [السلطان] الناس بالتأهب للعرض عليه بالأسلحة وآلات الحرب . وقدمت[1] طائفة من جهة التتار المستأمنة ، فكتب [السلطان] إلى أمراء خفاجة بخدمتهم . وظهر كوكب الذؤابة[2] بالشرق وذؤابته نحو الغرب . وصار يطلع قبيل الفجر ، ويتقدّم قليلا قليلا حتى صار يطلع مرتفعا ، وأضاء ذنبه كثيرا . ولم يتغير عن منزلة الهَقْعَة[3] ، وبعده منها إلى جهة المشرق نحو رمح طويل . واستمرّ من آخر رمضان إلى أوّل ذى القعدة ، وكان يظهر له قبل بروزه شعاع عظيم فى الجو . وظهر أيضا فى الغرب مما يلى الشمال ، بعد عشاء الآخرة فى ليال[4] عديدة من أخريات رمضان وأوائل شوّال ، خطوط مضيئة شبه الأصابع مرتفعة فى جو السماء . واحمرّت الشمس فى رابع شوّال قبيل الغروب ، وذهب ضوءها حتى

(١) فى س "قدم" .

(٢) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 241) هذا اللفظ الى (comète) أى النجم المذنب ، بغير تعليق .

(٣) ضبط هذا اللفظ على منطوقه فى (Ibid. Op. Cit. I. 1. p. 241) .

(٤) فى س "ليالى" .

صارت كأنها منكسفة إلى أن غربت ؛ فلما كان بعد عشاء الآخرة أصاب القمر مثل[(١)] ذلك . وأحضر من للقس ظاهر القاهرة طفل ميت ، له رأسان وأربع[(٢)] أعين وأربع أرجل وأربع أيدى ؛ وُجِد بساحل المقس . وفيه قتل الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل صاحب الكرك . وورد الخبر بوصول الرسل إلى الملك بركه ، وإكرامه إيام[(٣)] وتجهيزه لهم .

وفى أوّل ذى القعدة جلس السلطان لعرض العساكر عند طلوع الشمس ، وقد ملأوا الدنيا : فساق كل أمير فى طُلْبه وهو لابس لامة حربه ، وجرّوا الجنائب وعليها عُدد الحرب ؛ وأمر السلطان ألا يلبس أحد فى هذا اليوم إلا شعار الحرب . فما زال السلطان جالسا على الصُفّة التى بجانب دار العدل ، والعساكر تسوق وهى لابسة ، وديوان الجيش (١٣٢ ب) بين يديه ، والعساكر تعبر خمسة ، ثم عبرت عشرة عشرة . وكاد الناس يهلكون من الزحام وحُمُوّ الحديد ، فعبروا بغير حساب . وهلك عدة من الناس فى الزحام ، منهم أيبك مملوك الأمير عز الدين أيدمر الحلى ، فدفن ثم نبش ودفن فى قبر آخر . فقال فى ذلك القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر : —

ما نقلوا أيبك من قبره لحادثٍ كلاّ ولا عن ثبور
لكنه فى يوم عرض قضى والعرض لا بد له من نشور

وأراد السلطان ركوب العسكر فى يوم واحد حتى لا يقال إن أحدا استعار شيئا ، فكان من يعرض يدخل من باب القرافة ، ويخرج من جهة الجبل إلى باب النصر إلى الدهليز المضروب هناك . فلما قرب غروب الشمس ركب السلطان بقباء أبيض لا غير ، وساق فى وسط العساكر اللابسة — ومعه يسيرٌ من سلاح داريته وخواصه — إلى الدهليز ، فنزل به ورتب المنازل ، ثم عاد إلى القلعة وقت المغرب . ثم إن الناس اهتموا باللعب ،

(١) أفزعت تلك الظواهر السماوية جميع من شاهدوها ، وقالوا إنها من علامات قرب اجتياح التتر لبلاد المسلمين مرة أخرى . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٧ ا) .
(٢) فى س "اربعه" ، فى العبارة كلها . (٣) انظر ص ٥١٤ ، حاشية ٥ .

ولبّسوا خيولهم التّشاهير(١) والبراسم(٢) البحرية ، والمزاوات(٣) والأهلة الذهب والفضة ، والأطلس الخطائى . ونزل السلطان ، وجنائبه تجر ، فكان منظرا يبهر العيون حسنه . وكان الذى دخل فى المراوات من البنود الأطلس الأصفر قيمته عشرة آلاف دينار ، وما تجدّد بعد ذلك لا يحصى . وساق السلطان إلى ميدان العيد(٤) وقُدّامه جنائبه ، وشرّط لكل أمير يصيب القَبَق(٦) فرسا من الجنائب بما عليه من التشاهير ، وخلعة لكل مفردى أو مملوك أو جندى . وساق هو والأمراء ، ثم المفاردة والبحرية والظاهرية والحلقة والأجناد ، ودخل الناس بالرماح بكرة النهار . ونزل السلطان وقت الصلاة للصلاة و إطعام الطعام ، ثم ركب الناس ولبسوا ، وركب السلطان لرمى النشاب وأعطى وخلع .

(١) التشاهير هى الأشرطة التى توضع حول صدر الحصان ، وقد شرحها (Dozy : Supp. Dict. Ar.) بالعبارة الفرنسية التالية "les bandes plus ou moins large, qui serrent la poitrine du cheval."

(٢) كذا فى س ، وقد قرأها (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 243) "البراسم الحربية" ، وترجمها إلى (de caparacons de guerre) أى السروج الحربية .

(٣) المزاوات قطع من المعدن أو غيره ، يزان بها سرج الحصان ، وقد فسرها (Dozy : Supp. Dict. Ar.) بالعبارة الفرنسية التالية "des plaques de métal ou autres, qui décoraient le harnais du cheval" ويظهر مما يلى (سطر ٣) أن المراوات كانت تخاط بقماش السرج .

(٤) الأطلس الخطائى نوع من الحرير ، وأصل صناعته فى بلاد الخطا أى شمالى الصين ، وكان فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨١٢) من مصنوعات تبريز أيضا . راجع (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٥) انظر الحاشية التالية .

(٦) القبق — أو القباق — لفظ تركى معناه نبات القرعة العسلية (une courgette) ، وقد أطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى لعب الرماية المعروف باسم القبق أيضا . وكانت طريقة لعب القبق أن ينصب صار طويل من خشب ، يكون فى رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة هدف ، ويكون فى القرعة طير حمام . ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل ، فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام حاز السباق وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة . (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 243. N. 118 ; Dozy : Supp. Dict. Ar.) . وقد وصف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١١١) لعب القبق وصفا يختلف قليلا عن الوصف المتقدم ، ونصه : "والقبق عبارة عن خشبة عالية جدا ، تنصب فى براح من الأرض ، ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة ، لكى تمر من داخلها إلى غرض هناك ، تمرينا لهم على إحكام الرمى ، ويعبر عن هذا بالقبق فى لغة الترك" . وكان لرمى القبق ميدان خاص خارج القاهرة ، وكان موضعه حسبما جاء بالمقريزى =

وفى هذا اليوم حضر رسل الملك بركه ، فشاهدوا من كثرة العساكر وحسن زيهم واهتمام السلطان وبهجة الخيول وجلالة الفرسان ما بهر عقولهم ، ووقفوا بجانب السلطان يشاهدون حركات العساكر وإصابة رميها . واستمر ذلك أياما .

وفى تاسعه خلع السلطان على الملوك والأمراء والبحرية والحجاب والحلقة ، وأرباب العمائم والوزراء والقضاة وذوى البيوت ، وحضروا بالخلع ، واستمر اللعب بقية النهار . فسألت الرسل عن العساكر ، هل هى عساكر مصر والشام ، فقيل لهم : "هذا عسكر مصر فقط ، غير من فى الثغور مثل إسكندرية ودمياط ورشيد وقوص ، (١٢٣ ا) والمجردين والذين سافروا فى إقطاعاتهم" . فكثر تعجّبهم من ذلك .

وفى عاشره عُمل السماط بقلعة الجبل ، وحضر الملك السعيد وفى خدمته أولاد الملوك وأولاد الأمراء . فختن الملك السعيد ، ثم ختن ابن الأمير عز الدين الحلى الأتابك ، وابن

= (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١١١ ، وما بعدها) "فيما بين النقرة التى ينزل من قلعة الجبل إليها وبين قبة النصر التى تحت الجبل الأحمر ، ويقال له أيضا الميدان الأسود وميدان العيد ,والميدان الأخضر وميدان السباق ، وهو ميدان السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى . [وقد] بنى به مصطبة فى المحرم من سنة ست وستين وستمائة ، عندما احتفل برمى النشاب وأمور الحرب وحث الناس على لعب الرمح ورمى النشاب ونحو ذلك ، وصار ينزل كل يوم إلى هذه المصطبة فلا يركب منها إلى العشاء الآخرة ، وهو يرمى ويحرّض الناس على الرمى والنضال والرهان ، فما بقى أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله ، وتوفر الناس على الرمح ورمى النشاب . وما برح من بعده من أولاده ، والملك المنصور سيف الدين قلاون الألفى الصالحى النجمى ، والملك الأشرف خليل بن قلاون ، يركبون فى الموكب لهذا الميدان ، وتقف الأمراء والمماليك السلطانية تسابق بالخيل فيه قدامهم ، وتنزل العساكر فيه لرمى القبق ... ... (ص ١١٣) ... وما برح هذا الميدان فضاء من قلعة الجبل إلى قبة النصر ليس فيه بنيان" ، والملوك فيه من الأعمال ما تقدم ذكره ، إلى أن كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون . فترك النزول إليه ، وبنى مصطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش ، وصار ينزل هناك . ثم ترك [الناصر] تلك المصطبة فى سنة عشرين وسبعمائة ، وعاد إلى ميدان القبق هذا وركب إليه على عادة من تقدمه من الملوك ، إلى أن بنيت فيه الترب شيئا بعد شيء حتى انسدت طريقه ، واتصلت المبانى من ميدان القبق إلى تربة الروضة خارج باب البرقية ، وبطل السباق به ورمى القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاون ... ... وأنا أدركت هناك عواميد من رخام قائمة بهذا الفضاء ، تعرف بين الناس بعواميد السباق ، بين كل عمودين مسافة بعيدة ، وما برحت قائمة هناك إلى ما بعد سنة ثمانين وسبعمائة ..." . راجع أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ١٣٠٤) .

الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الرومى ، وابن الأمير سيف الدين سكز[١] ، وابن حسام الدين ابن بركه خان ، وابن الملك المجاهد ابن صاحب الموصل ، ثم أولاد الملك المغيث صاحب الكرك الثلاثة ، وابن فخر الدين الحمصى ، وعدّة من أولاد الأمراء . و[كان] ذلك بعدما عمل لعدّة من الأيتام وأبناء الفقراء بمصر والقاهرة كسوة ، فأحضروا فى هذا اليوم وختنوا . ومنع السلطان الأمراء والخواص من التقدمة التى جرت العادة بها للملوك فى مثل هذا المهم ، فلم يقدّم أحد من الخاصة شيئا البتة .

ولما انقضى هذا المهم خرج السلطان الى الطَّرَّانَة[٢] ، وسار إلى وادى[٣] هُبَيْب ونزل الأديرة [التى هناك] ، ومضى إلى تروجة وسار منها إلى الحمامات ، وسلك إلى العقبة وضرب الحلقة برسم الصيد ، وأدركه عيد النحر هناك . وجرد جماعة لأخذ عربان بلغه كثرة فسادهم ، وأحضر هوارة وعرب سليم ، وألزمهم بإشهاد كتب عليهم بعمارة البلاد ، وألا يؤوا أحدا من أهل الفساد . ثم عاد إلى ثغر الإسكندرية ، وعمّ المقاردة والأمراء والخواص بتفرقة المال والقماش ؛ ولعب الكرة بالميدان ، وزار الشاطبى . ثم سار إلى القاهرة ، فنزل تروجة ؛ ورسم بتقديم سيف الدين عطا الله بن عزاز على عرب برقة ، وألزمه بجباية زكاة المواشى وأخذ عُشر الزروع والثمار بفريضة الله ، فالتزم بذلك . وأنعم عليه بسنجق ونقارات ، وتوجه لحفظ البلاد واستخراج الزكاة والعشور من العربان ببرقة .

ووصل السلطان إلى قلعة الجبل ، فقدم شِحْنَة[٤] تكريت بجماعة . وجهز [السلطان] الأمير أمين الدين موسى بن التركمانى ، ومعه عدة من الرماة والمقاتلة ، وخزانة مال وعدة خلع ، وكثير

(١) كذا فى س .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة واقعة على الشاطىء الغربى لفرع رشيد ، بينها وبين القاهرة نحو أربعين ميلا . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ٣٤ ، وما بعدها) . انظر أيضا (P. Omar Toussoun : La Geographie de L'Egypte A L'Epoque Arabe I. 2. Planche 1).

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو وادى النطرون . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٧ ، ص ٤٨ ، وما بعدها) .

(٤) الشحنة اسم وظيفة ، وقد تقدمت الإشارة إليها . (انظر ص ٤٠ ، حاشية ٥) .

من أمراء عربان الكرك وبحريتها ، ومبلغ من الغلال والذخائر . فساروا إلى خيبر[1] واستولوا على قلعتها .

وكثر فى هذه السنة قتل الناس فى الخليج ، وفُقِد جماعة ، والتبس الأمر (١٣٣ ب) فى ذلك . ثم ظهر بعد شهر أن امرأة جميلة يقال لها غازية كانت تخرج بزينتها ومعها عجوز ، فإذا تعرض لها أحد قالت له العجوز : "لا يمكنها المصير إلى أحد ، ولكن من أرادها فليأت منزلنا" ؛ فإذا وافى الرجل إليها خرج إليه رجال فقتلوه وأخذوا ما معه . و [كانت المرأة] فى كل قليل تنتقل من منزل إلى منزل ، حتى سكنت خارج باب الشعرية على الخليج . فأتت العجوز إلى ماشطة مشهورة بالقاهرة واستدعتها إلى فرح ، فسارت [الماشطة] معها بالحلى على العادة ومعها جاريتها ، ودخلت الماشطة وانصرفت جاريتها ، فقتل الجماعة الماشطة وأخذوا ما كان معها . وجاءت جاريتها إلى الدار تطلب مولاتها فأنكروها ، فمضت إلى الوالى وعرّفته الخبر ، فركب إلى الدار وهجمها فإذا بالصبية والعجوز ، فقبض عليهما وعرضهما على العذاب ، فأقرّتا فحبسهما . واتفق أن رجلا جاءهما لتفقد أحوالهما ، فقُبِض عليه وعوقب فدلّ على رفيقه ، فإذا هو صاحب أقنة طوب فعوقب [أيضا] . فوجد أنهم كانوا إذا قتلوا أحداً ألقوه فى القمين حتى تحترق عظامه ، وأظهروا من الدار حفائر قد ملئت بالقتلى ، فسُمِّروا جميعا . ثم أطلقت المرأة بعد يومين ، فأقامت قليلا وماتت . [ثم عملت الدار التى كانوا بها مسجدا ، وهو المعروف بمسجد[2] الخَنّاقة] .

وفى هذه السنة وقف السلطان عدّة قرى بأعمال الشام والقدس ، لصرف ريعها فى ثمن خبز ونعال لمن يرد إلى القدس من المشاة ، ومبلغ فلوس . وأنشأ خانا وفرنا وطاحونا بالقدس ، وجعل النظر فى ذلك للأمير جمال الدين محمد بن نهار .

---

(١) كذا فى س .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ص ١٢٦) ، والقصة كلها واردة بذلك المرجع (ص ١٢٤ — ١٢٦) ، وهى هناك أكثر تفصيلا .

وفيها قبض الأشكرى صاحب قسطنطينية على عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن كيقباد صاحب بلاد الروم : وسبب[1] [وجود عز الدين عند الأشكرى هو] اختلافه مع أخيه [ركن الدين قلج أرسلان] ، حتى غلبه أخوه ففرّ منه ، وملك أخوه ركن الدين قلج أرسلان بلاد الروم . فمضى عز الدين إلى الأشكرى ، فآواه وأنزله ومن معه من الأمراء ، وقام بأمرهم مدّة ، حتى بلغه أنهم قصدوا قتله وأخذ المملكة منه ، فقبض عليهم واعتقل عز الدين ، وكحل أصحابه كلهم فأعماهم .

[وفيها[2]] ولى محيى الدين أبو المكارم محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن علوان ابن الأستاذ الأسدى الشافعى قضاء حلب ، عوضا عن ابن عمه كمال الدين أبى بكر أحمد[3] [المتوفى[4]] .

ومات[5] فى هذه السنة من الأعيان الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى صاحب الكرك ، مقتولا بقلعة الجبل ، عن ثلاثين سنة . ومات الملك الأشرف موسى بن المنصور بن إبراهيم بن المجاهد شيركوه بن القاهر محمد بن المنصور بن شيركوه بن شادى صاحب حمص ، عن خمس وثلاثين سنة بها ، وهو آخر من ملك حمص من أولاد شيركوه . ومات الأمير حسام الدين لاجين العزيزى الجوكندار بدمشق ، عن نحو خمسين سنة . وتوفى قاضى قضاة دمشق عماد الدين أبو الفضائل عبد الكريم بن جمال الدين

---

(١) فى س "وسببه" ، وقد تقدّمت الإشارة إلى ما حدث لعز الدين المذكور على يد الأشكرى (Theodore II Lascaris) إمبراطور الدولة البيزنطية . انظر ص ٤٠٨ ، حاشية ١ ، وهى التى منها أضيف ما بين الأقواس للتوضيح .

(٢و٣) العبارة الواردة هنا بين الرقمين موجودة بهامش صفحة ١٢٣ ب فى س .

(٤) انظر الصفحة التالية ، سطر ٣ .

(٥) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٢٣ ب ، ١٢٤ ا فى س ، (انظر ص ٤٨٦ ، حاشية ٢) ، ولا شك فى مناسبة وضعها هنا تحت سنة ٦٦٢ هـ ، فقد سبق ورود خبر وفاة كل من الملك المغيث عمر ، والملك الأشرف موسى ، بين أخبار تلك السنة . (انظر ص ٥٠٥ ، سطر ١٢ ؛ ص ٥١٧ ، سطر ٣ ؛ وكذلك أبا الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٠ ، فى Rec. Hist Or. I. ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٧ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٠٣) . هذا وليس لهذه الوفيات وجود فى ب (١٠٩ ب) ما عدا واحدة ، وهى وفاة قاضى قضاة دمشق عماد الدين الحرستانى . (انظر سطر ١٥) .

أبى القاسم عبد الصمد بن محمد بن الفضل بن الحرستانى الدمشقى الشافعى ، وهو معزول و بيده خطابة الجامع وتدريس الحديث بالأشرفية ، عن خمس وخمسين سنة بدمشق . وتوفى قاضى القضاة بحلب كمال الدين أبو بكر أحمد بن زين الدين أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن علوان الأسدى الشافعى ، المعروف بابن الأستاذ ، عن إحدى وخمسين سنة . وتوفى شيخ الشيوخ بحماة شرف الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارى ، عن ست وسبعين سنة ، فى ثامن رمضان ، ومولده فى جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة . وتوفى الرجل الصالح أبو القاسم بن منصور بن يحيى القبارى بالإسكندرية ، عن خمس وسبعين سنة .

* * *

سنة ثلاث وستين وستمائة . فى المحرم توجه الملك الظاهر من قلعة الجبل إلى الصيد فأقام بوسيم ، ثم سار إلى العباسة ورمى البندق ؛ وادّعى له[1] جماعة منهم الأمير فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث صاحب الكرك . فورد الخبر بنزول التتر على البيرة ، فجهز [السلطان] من فوره الأميرَ بدر الدين الخازندار على البريد ، ليخرج أربعة آلاف فارس من بلاد الشام . وركب السلطان من موضعه وساق إلى القلعة ، وكانت الخيول على الربيع ، فلم يقم بقلعة الجبل بعد عوده من الصيد غير ليلة . وعين الأمير عز الدين إيغان المعروف بسم الموت[2] لتقدمة العساكر ، ومعه من الأمراء فخر الدين الحمصى ، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى ، والأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى ، وعدّة من الأمراء والحلقة تبلغ

---

(١) المعنى المقصود هنا بفعل "ادعى له" — وضمير الهاء عائد على السلطان بيبرس — أن الأمير فخر الدين عثمان المذكور انتسب إليه واعتبره أستاذه فى الصيد . ذلك أن العادة فى دوائر الصيد كانت فى تلك الأزمنة أن المبتدىء لا يصير فى زمرة هواة هذا الفن إلا بعد الانتساب لأحد رماة الصيد القدماء ، فإذا تم له ذلك قيل إنه ادعى لفلان أى انتسب إليه . وكانت وسيلة "الادعاء" هذه أن ينجح المبتدىء فى إصابة رميته من طير أو غيره ، وعند ذلك يختار الانتساب إلى من يشاء من رجال الصيد المعروفين ، سلطانا كان أو أميراً أو فقيها أو عامياً . انظر (Quatremère : Op. Cit. II, 1. P. 75. N. 83) .

(٢) س " سم الموب " ، وصحح الاسم كله من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣١) .

أربعة آلاف فارس (١٢٣٤) ؛ فخرجوا من القاهرة جرائد فى رابع شهر ربيع الأول ثم عين الأمير جمال الدين المحمدى ، والأمير جمال الدين أيدغدى الحاجبى ، ومعهما أربعة آلاف أخرى ؛ فبرزوا ثانى يوم خروج الأمير عز الدين إيغان إلى ظاهر القاهرة ، وساروا فى عاشره .

[وفى يوم السبت رابع ربيع الآخر] شرع[1] السلطان فى السفر ، وخرج بنفسه فى خامس شهر ربيع الآخر ومعه عساكر كثيرة . فوقع فناء فى الدواب هلك منها عدد كثير ، وصارت الأموال[2] مطروحة ، والسلطان لا يقصر فى المسير . فلما شُكى إليه قلة الظَّهر قال : "ما أنا فى قيد الجمال ، أنا فى قيد نصرة الإسلام" . ونزل [السلطان] غزة فى العشرين منه ، فورد الخبر بأن العدوّ نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقا ، فكتم ذلك ولم يعلم به سوى الأمير شمس الدين سنقر الرومى والأمير سيف الدين قلاون فقط . وكتب [السلطان] للأمير إيغان : "متى لم تدركوا قلعة البيرة ؟ وإلا سقت إليها بنفسى جريدة" ، فساق [الأمير إيغان] العسكر . ورحل السلطان من غزة ، ونزل قريبا من صيداء ، فركب للصيد فتقطّر عن فرسه وانهشم وجهه ، فتجلد ورحل . وأتاه قسطلان[3] يافا بتقادم .

ونزل السلطان بِيُبْنَى[4] فى سادس عشريه ، فورد البريد من دمشق وهو فى الحمام بالدهليز ، فلم يمهل وقرئ عليه الكتاب وهو عريان : فإذا هو يتضمن بأن بطاقة الملك المنصور صاحب حماة سقطت بأنه وصل إلى البيرة بالعساكر ، صحبة الأمير عز الدين إيغان وجماعة الأمراء — يوم الاثنين ، وأن التتار عند ما شاهدوهم هربوا ، ورموا مجانيقهم وغرّقوا مراكبهم ؛ وكان من حين كتابتها بالبيرة إلى حين وصولها يبنى أربعة أيام . ثم توالت كتب الأمراء بالبشارة ، فكتب بذلك إلى القاهرة وغيرها . واستشهد على البيرة الأمير

---

(١) فى س "فشرع" ، وقد أضيفت العبارة الافتتاحية لهذه الجملة من أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣٢) .

(٢) المقصود هنا الأموال التى ستحملها الدواب مع جيش السلطان

(٣) معرب اللفظ اللاتينى (Castellanus) ، ومعناه مستحفظ القلعة ، انظر ص ٣٥ ، حاشية ٥ ؛ ص ٤٠ ، حاشية ٦) ، ويقابله فى الفرنسية (Châtelain) ، راجع (Dozy. Supp. Dict. Ar.) هذا ولعل المقصود بقسطلان يافا فى تلك السنة هو صاحبها ومتملكها (John II d'Ibelin) ، وتقدمت الإشارة إليه فى ص ٤٦٤ ، سطر ٤ .

(٤) فى س "يبنا" .

صارم الدين بكتاش الزاهدى ، وترك موجودا كبيرا و بنتا واحدة ؛ فرسم [السلطان] أن يكون جميع الإرث لها لا يشاركها فيه أحد وكتب [السلطان] بعمارة ما خرب من البيرة ، وحمل آلات القتال والأسلحة اليها من مصر والشام ، وأن يعبأ فيها كل يحتاج إليه أهلها فى الحصار لمدة عشر سنين . وكتب للأمراء واصاحب حماة بالإقامة على البيرة ، حتى ينظف الخندق من الحجارة التى ردمها العدوّ فيه ؛ فكانت الأمراء تنقل الحجارة على اكتافها مدّة . و بعثوا بخبر ذلك إلى السلطان ، وهو واقف على سور قيسارية ليهدمه بنفسه ، وفى يده القطّاعة[1] وقد تجرّحت يده . فكتب جوابهم : "إنا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة ، ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة . ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل (١٣٤ ب) والنهار ، وناقل الأحجار ومُرابط الكفار . وقد تساوينا فى هذه الأمور ، وما ثمّ ما تضيق به الصدور". وكتب [السلطان] إلى القاهرة باستدعاء مائتى ألف درهم ومائتى تشريف ، وإلى دمشق بتجهيز مائة ألف درهم ومائة تشريف ، وحمل جميع ذلك إلى البيرة . وكتب إلى الأمير إيغان بأن يحضر أهل قلعة البيرة ويخلع على سائر من فيها من أمير ومأمور وجندى وعامى ، و ينفق فيهم المال حتى الحرّاس وأرباب الضوء[2] ؛ فاعتمد ذلك كله . وكتب إلى الديار المصرية بتبطيل المِزر ، وأن تعفّى آثاره وتخرب بيوته وتكسر مواعينه ، و[أن] يسقط ارتفاعه من الديوان ، "ومن كان له على هذه الجهة شىء نعوّضه من مال الله الحلال" ؛ فاعتمد ذلك ، وعوّض المقطعون بدل ما كان لهم على جهة المزر .

ثم ركب [السلطان] من العوجاء بعد ركوب الأطلاب للتصيد فى غابة أرسوف ، ورسم للأمراء من أراد منهم الصيد فليحضر ، فإن الغابة كثيرة السباع وساق إلى أرسوف

---

(١) القطاعة هى المطرقة تستعمل لقطع الصخر أو هدم البناء ، وجمعها قطاطيع . (محيط المحيط
(Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٢) فى س "أرباب الضوء" ، وزيدت الهمزة على اللفظ الثانى بعد مراجعة (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 4. N. 6) حيث ترجمت العبارة إلى الآتى : (les hommes prèposès a l' éclairage) أى الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة ويقال لهم الضوية والشاعلية أيضا . (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

وقيسارية ، فشاهدها وعاد إلى الدهليز ، فوجد أخشاب المنجنيقات قد أحضرت صحبة زرد خاناه ، فأمر بنصب عدّة مجانيق وعملها . وجلس [السلطان] مع الصناع يستحثهم ، فعمل فى يوم واحد أربع منجنيقات كبار سوى الصغار . وكتب إلى القلاع بطلب المجانيق والصناع والحجارين ، ورسم للعسكر بعمل سلالم . ورحل [السلطان] إلى قريب عيون الأساور[1] من وادى عارَة وعَرْعَرة[2] ، فلما كان بعد عشاء الآخرة أمر العسكر كله فلبسوا آلة الحرب ، وركب آخر الليل وساق إلى قيسارية ، فوافاها بكرة نهار الخميس تاسع جمادى الأولى على حين غفلة من أهلها ، وضرب عليها بعساكره . وللوقت ألقى الناس أنفسهم فى خندقها ، وأخذوا السَّكَك[3] الحديد التى برسم الخيول — مع المَقاوِد والشُّبُح[4] ، وتعلقوا فيها من كل جانب حتى صعدوا ، وقد نُصبت المجانيق ورمى بها . فحرقوا أبواب المدينة واقتحموها ، ففر أهلها إلى قلعتها ، وكانت من أحصن القلاع وأحسنها وتعرف بالخضراء وكان قد حمل عليها الفرنج العُمُد الصوّان ، وأتقنوها بتصليب العمد فى بنيانها ، حتى لا تعمل فيها النقوب ولا تقع إذا عُلِّقت . فاستمر الزحف والقتال عليها بالمجانيق والدبابات والزحافات[5] ورمى

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى منزلة قرب قيسون والرملة من أعمال فلسطين . (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٧ ، حاشية ١ ، ٢ ، فى Rec. Hist. Or. III ؛ ياقوت معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٨) .

(٢) ضبط هذين الاسمين على منطوقهما فى (Quatremère : Op. Cit I. 2. p. 6) ، حيث ترجما إلى (Arah et Ararah) .

(٣) السكك جمع سكة ، وهى الوتد الذى يربط به مقود الحصان . (محيط المحيط . (Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٤) هذا اللفظ مضبوط بضم الشين فقط فى س ، وهو جمع شبحة ، وهى السلسلة التى يربط بها قدم الحصان ، وفى أحد طرفيها عروة تزرر فى القدم ، وفى طرفها الآخر وزة تدق فى الأرض . (محيط المحيط . (Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٥) فى س "الرجافات" . والصيغة المثبتة هنا من ب (١٥٩ ب) ، والزحافات مشروحة ضمنا فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) فى العبارة التالية : " برج الزحف ou آلة الزحف est une sorte de toure dans laquelle se trouvent des soldats munis d'arbaléte et de machines de guerre, et qui est placée sur un chariot que l'on pousse contre les murailles d'une place forte, que l'on assiege." . هذا وليس فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٦ ، وما بعدها) فى باب آلات الحصار ذكر للزحافات ، على أنه أورد المجانيق ومكاحل البارود وقوارير النفط والستائر .

النشاب . وخرجت تجريدة من عسكر السلطان إلى بيسان مع الأمير شهاب الدين القيمرى ، فسيّر جماعة من التركمان والعربان (١٣٠ ا) [1] إلى أبواب عكا ، فأسروا جماعة من الفرنج .

[هذا] والقتال مُلِحٌّ على قلعة قيسارية ، والسلطان مقيم بأعلى كنيسة تجاه القلعة ليمنع الفرنج من الصعود إلى علو القلعة ، وتارة يركب فى بعض الدبابات ذوات العجل التى تجرى حتى يصل إلى السور ليرى النقوب بنفسه . وأخذ [السلطان] فى يده يوما من الأيام ترسا وقاتل ، فلم يرجع إلا وفى ترسه عدة سهام .

فلما كان فى ليلة الخميس النصف من جمادى الأولى سلّم الفرنج القلعة بما فيها ، فتسلّق المسلمون من الأسوار ، وحرقوا الأبواب ودخلوها من أعلاها وأسفلها ، وأذّن بالصبح عليها . وطلع السلطان ومعه الأمراء إليها ، وقسّم المدينة على الأمراء والمماليك والحلقة ، وشَرع فى الهدم ونزل وأخذ بيده قطّاعة وهدم بنفسه . فلما قارب الفراغ من هدم قيسارية بعث [السلطانُ] الأميرَ سنقر الرومى والأمير سيف الدين المستعرب فى جماعة ، فهدموا قلعة كانت للفرنج عند المَلُّوحَة [2] قريب دمشق — وكانت عاتية [3] — حتى دكّوها دكّاً .

وفى سادس عشره سار السلطان جريدة إلى عثليث ؛ وسيّر الأمير سنقرا السلاح دار ، والأمير عز الدين الحموى ، والأمير سنقرا الألفى ، إلى حيفا . فوصلوا إليها ، ففرّ الفرنج إلى المراكب وتركوا قلعتها ، فدخلها الأمراء بعد ما قتلوا عدّة من الفرنج وبعد ما أسروا كثيرا ، وخربوا المدينة والقلعة وأحرقوا أبوابها فى يوم واحد ، وعادوا بالأسرى والرؤوس والغنائم

---

(١) توجد بين الصفحتين ١٣٤ ب ، ١٣٥ ا ، فى س ، ورقة منفصلة بها وفيات تابعة لسنة ٦٦٤ هـ ، وستورد فى موضعها .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى حسبما ورد فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٦٨) قرية كبيرة من قرى حلب وتقع فى الجنوب الشرقى منها ، على مسافة ثمانية عشر ميلا تقريبا . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index).

(٣) فى س "عاتبه" ، وهى فى ب (١٦١ ا) "عالية" ، وقد غيرها (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 8. N. 9) إلى "عاصية" ، وترجمها على هذا المعنى . على أنه يحتمل أن تكون الصيغة الواردة فى س هى المقصودة بالذات ، إذ يوجد فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) فى مادة عتب ما يفيد أن العتب هو التسقيف (toiture) ، ولعل المراد بلفظ عاتية هنا مأخوذ من هذا المعنى .

سالمين . ووصل السلطان إلى عثليث فأمر بتشعيثها وقطع أشجارها ، فقطعت كلها وخربت أبنيتها فى يوم واحد . وعاد إلى الدهليز بقيسارية ، وكَمَّلَ هدمها حتى لم يدع لها أثرا . وقدمت منجنيقات من الصبيبة وزرد خاناه من دمشق . وورد عدّة من الفرنج للخدمة ، فأكرمهم السلطان وأقطعهم الإقطاعات .

وفى تاسع عشريه رحل السلطان من قيسارية ، وسار من غير أن يعرف أحد قصده . فنزل على أرسوف مستهل جمادى الآخرة ، ونقل إليها من الأحطاب ما صارت حول المدينة كالجبال الشاهقة وعمل منها ستائر ، وحفر سربين[1] من خندق المدينة إلى خندق القلعة وسقّفه بالأخشاب . وسلّم أحدهما للأمير سنقر الرومى ، والأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير بدر الدين الخازندار ، والأمير شمس الدين الذكر[2] الكركى (١٣٠ ب) ، وجماعة [غيرهم] . وسلّم الآخر للأمير سيف الدين قلاون ، والأمير علم الدين الحلبى الكبير ، والأمير سيف الدين كرمون ، وجماعة [غيرهم] . وعمل [السلطان] طريقا من الخندقين إلى القلعة ، وردمت الأحطاب فى الخندق ، فتحيّل الفرنج وأحرقوها كلها . فأمر السلطان بالحفر من باب السربين إلى البحر ، وعمل سروبا تحت الأرض يكون حائط خندق العدو ساترا لها ، وعمل فى الحائط أبوابا يرمى التراب منها وينزل فى السروب حتى تساوى أرضها أرض الخندق . وأحضر المهندسين حتى تقرر ذلك ، وولى أمره للأمير عز الدين أيبك الفخرى . فاستمر العمل ، والسلطان بنفسه ملازم العمل بيده فى الحفر وفى جرّ المنجنيقات ورمى التراب ونقل الأحجار ، أسوة غيره من الناس . و[كان] يمشى بمفرده وفى يده ترس ، تارة فى السرب وتارة فى الأبواب التى تفتح ، وتارة على حافة البحر يرامى مراكب الفرنج .

---

(١) يوجد فى محيط المحيط فى مادة ذنب ، وصف لنوع من أنواع الأسربة التى تحتفر فى حصار المدن ، واسمه طريق ذنب الفار ، وهو "سرب كثير التعاريج يحتفر فى حصار المدن والحصون ، ليتوصل به إليها من غير أن يصيب السالكين فيه ما يرشقهم به أهلها" .

(٢) فى س "الدكر" ، انظر (Zettersteen : Op. Cit. p. 141) . هـذا ولقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 8) هذا الاسم إلى (Aldekiz) ، وتبعا (Blochet) هذا النحو فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣٩) .

و[كان] يجرّ فى المجانيق ، ويطلع فوق الستائر يرمى من فوقها ، ورمى فى يوم واحد ثلاثمائة سهم بيده . وحضر فى يوم إلى السرب وقعد فى رأسه خلف طاقة يرمى منها ، فخرج الفرنج بالرماح وفيها خطاطيف ليجبذوه[1] ، فقام وقاتلهم يدا بيد — وكان معه الأمير سنقر الرومى ، والأمير بيسرى ، والأمير بدر الدين الخازندار ، فكان سنقر يناوله الحجارة — حتى قتل فارسين من الفرنج ، ورجعوا على أسوأ حال . وكان يطوف بين العساكر فى الحصار بمفرده ، ولا يجسر أحد ينظر إليه ولا يشير إليه بأصبعه .

وحضر فى هذه الغزاة جمع كبير من العباد والزهاد والفقهاء وأصناف الناس ، ولم يعهد فيها خمر ولا شىء من الفواحش . بل كانت النساء الصالحات يسقين الماء فى وسط القتال ، يعملن فى جرّ المجانيق . وأطلق السلطان الرواتب من الأغنام وغيرها لجماعة من الصلحاء ، وأعطى الشيخ على البكا[2] جملة مال . ولا سُمِع عن أحد من خواص السلطان أنه اشتغل عن الجهاد فى نوبته بشغل ، ولا سيّر أميرٌ غلمانَه فى نوبته واستراح . بل كان الناس فيها سواء فى العمل ، حتى أثّرت[3] المجانيق فى هدم الأسوار ، وفرغ من عمل الأسربة التى بجانبى الخندق ، وفتحت فيها أبواب متسعة .

فلما تهيأ ذلك وقع الزحف على أرسوف فى يوم الخميس ثامن رجب ، ففتحها الله فى ذلك اليوم عند ما وقعت الباشورة[4] . فلم يشعر الفرنج إلا بالمسلمين قد تسلّقوا وطلعوا إلى (١١٣٦) القلعة ، ورُفعت الأعلام الإسلامية على الباشورة ، وحَفَّت[5] بها المقاتلة وطَرَحت النيران فى أبوابها . هذا والفرنج تقاتل ، فدفع السلطان سنجقه للأمير سنقر الرومى وأمره أن يؤمن الفرنج من القتل ، فلما رآه الفرنج تركوا القتال . وسُلِّم السنجق للأمير

(١) فى س "ليجبدوه" ، والجبذ فى اللغة الجذب ، وفعل جبذ مرادف لفعل جذب (محيط المحيط) .

(٢) كذا فى س . وهو مترجم إلى (Bakka) فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 9) .

(٣) فى س "ابرت" . انظر (Ibid : Op. Cit. I. 2. p. 10. n. 10) .

(٤) تقدم شرح هذا اللفظ فى ص ١٥٠ ، حاشية ٤ .

(٥) المعنى أن المقاتلة من المسلمين أطافوا بالقلعة وأحدقوا بها (محيط المحيط) .

علم الدين سنجر المسروري المعروف بالخياط الحاجب ، ودُلّيت له الحبال من القلعة فربطها فى وسطه والسنجق معه ، ورُفع إليها فدخلها وأخذ جميع سيوف الفرنج وربطهم بالحبال وساقهم إلى السلطان والأمراء ، صفوف وهم ألوف .

وأباح السلطان القلعة للناس ، وكان بها من الغلال والذخائر والمال شيء كثير ، وكان فيها جملة من الخيول والبغال لم يتعرّض [السلطان] لشيء منه ، إلا ما اشتراه ممن أخذه بالمال ووجد فيها عدّة من أسرى المسلمين فى القيود فأطلقوا ، وقيد الفرنج بقيودهم . وعين [السلطان] جماعة مع الأسرى من الفرنج ليسيروا بهم ، وقسم أبراج أرسوف على الأمراء ، وأمر أن يكون أسرى الفرنج يتولون هدم السور ؛ فهدمت بأيديهم .

وأمر [السلطان] بكشف بلاد قيسارية وعَمَلِ متحصلها ، فعملت بذلك أوراق ؛ وطَلَب قاضي دمشق وعدوله ووكيل بيت المال بها ، وتقدم بأن يُمَلَّك الأمراء المجاهدون من البلاد التى فتحها الله عليه ما يأتى ذكره . وكتبت تواقيع كل منهم من غير أن يطلعوا على ذلك ، فلما فرَغت التواقيع فُرِّقت على أربابها ، وكتب بذلك مكتوب جامع بالتمليك ، ونسخته . "أما بعد حمد الله على نصرته المتناسقة العقود ، وتمكينه الذى[1] رفلت به الملة الإسلامية فى أصفى البرود ، وفتحه الذى إذا شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه علمت لأمرٍ مّا يسود من يسود . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى جاهد الكفار بالسيف البتار ، وأعلمهم لمن عقبى الدار ، وعلى آله وصحبه صلاة تتواصل بالعشيّ والإبكار فإن خير النعمة نعمة وردت بعد اليأس ، وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس ؛ فأكرم بها نعمة وصلت للأمة المحمدية أسبابا ، وفتحت للفتوحات الإسلامية أبوابا ، وهزمت من التتار والفرنج العدوين ، ورابطت من الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين ، وجعلت عساكر الإسلام تذلّ الفرنج بغزوهم فى (١٣٦ ب) عقر الدار ، وتجوس من حصونهم المانعة خلال الديار والأمصار ، وتقود مَنْ فَضَلَ عن شِبَع السيف

(١) فى س "التى" .

الساغب إلى حلقات الإسار . ففرقة منها تقتلع للفرنج قلاعا وتهدم حصونا ، وفرقة تبنى ما هدم التتار بالمشرق وتعلية تحصينا ، وفرقة تتسلم بالحجاز قلاعا شاهقة وتتسنّم هضابا سامقة . فهى بحمد الله البانية الهادمة ، والقاسمة الراجحة . كل ذلك بمن أقامه الله وجرّده سيفا فَرَى ، وحملت رياح النصرة ركابه تسخيرا فسار إلى مواطن الظفر وَسَرَى ، وكوّنته السعادة ملكا إذا رأته فى دستها قالت تعظيما له ما هذا بَشَرا . وهو السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس ، جعل الله سيوفه مفاتح البلاد ، وأعلامه أعلاما من الأسنة على رأسها نار بهداية العباد ، فإنه آخذ البلاد ومعطيها ، وواهبها بما فيها . وإذا عامله الله بلطفه شَكَرَ ، وإذا قدر عفى وأصلح فواقه القدر ، وإذا أهدت إليه النصرة فتوحات قسمها فى حاضريها لديه متكرما وقال لمن حضر ، وإذا خوّله الله تخويلا وفتح على يديه قلاعا جعل الهدم للأسوار ، والدماء للبتار ، والرقاب للإسار ، والبلاد المزروعة للأولياء والأنصار . ولم يجعل لنفسه إلا ما تسطره الملائكة فى الصحائف لصِفَاحِه[1] من الأجور ، و[ما] تطوى عليه طويات السير التى غدت بما فتحه الله من الثغور باسمه باسمةَ الثغور .

فتى جعل البلاد من العطا فأعطى المدْن واحتقر الضياعا
سمعنا بالكرام وقد أرانا عيانا ضعف ما فعلوا سماعا
إذا فعل الكرام على قياس جميلا كان ما فعل ابتداعا

"ولما كان بهذه المثابة ، وقد فتح الفتوحات التى أجزل الله بها أجره وضاعف ثوابه ، وله أولياء النجوم ضياء ، وكالأقدار مضاء ، وكالعقود تناسقا ، وكالوَبْل تلاحقا إلى الطاعة وتسابقا ، رأى ألا ينفرد عنهم بنعمة ، ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ ، وبعزائمهم تستخلص ، وأن يؤثرهم على نفسه ، ويقسم عليهم الأشعة من أنوار شمسه ، ويبقى للولد منهم وولد الولد ، ما يدوم إلى آخر الدهر ويبقى على الأبد ، ويعيش الأبناء فى نعمته

(١) الصفاح جمع صفح ، وهو عرض السيف ، وربما أريد هنا به السيف كله ؛ هذا ويقال للسيف أيضا الصفيحة وهى السيف العريض ، وكذلك الصفحة وتجمع على صفحات . (محيط المحيط) .

كما عاش الآباء ، وخير الإحسان ما شمل وأحسنه ما خلد . فخرج الأمر (١٢٣٧) العالى لا زال يشمل الأعقاب والذرارى ، و ينير إنارة الأنجم الدرارى ، أن يُمَلَّك أمراؤه وخواصه الذين يُذكرون ، وفى هـذا المكتوب يُسطرون ، ما يُعيّن من البلاد والضياع ، على ما يُشرح و يبين من الأوضاع : وهو الأتابك فارس الدين أقطاى الصالحى عَتِّيل[1] بكمالها ، الأمير جمال الدين إيدغدى العزيزى النصف من زيتا[2] ، الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى الصالحى نصف طُوْركَرَم ،[الأمير بدر الدين[3] بيليك الخازندار نصف طوركرم] ، الأمير شمس الدين الذكر[4] الكركى ربع زيتا ، الأمير سيف الدين قلج البغدادى ربع زيتا ، الأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير الصالحى أُفَرَاسِينْ بكمالها ، الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحى باقة[5] [الشرقية] بكمالها ، الأمير عز الدين أيدمر الحلبى الصالحى نصف قَلَنْسُوَة ، [الأمير شمس الدين سنقر الرومى نصف قلنسوة] ، الأمير سيف الدين قلاون الألفى الصالحى نصف طَيِّبة الاسم ، الأمير عز الدين إيغان سم الموت نصف طيبة الاسم ، الأمير جمال الدين [أقوش] النجيبى نائب سلطنة الشام أم الفَحْم بكمالها من قيسارية ، الأمير علم الدين سنجر الحلبى الصالحى بَتَان[6] بكمالها ، الأمير جمال الدين أقوش المحمدى الصالحى نصف بُورين ، الأمير فخر الدين الطنبا الحمصى نصف بورين ، الأمير جمال الدين أيدغدى الحاجبى الناصرى نصف بيزّين[7] ، الأميرى بدر الدين بيليك الأيدمرى الصالحى نصف بيزّين ، الأمير فخر الدين عثمان

(١) ضبط هذا الاسم من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣٩) . وستلى هنا جملة أسماء الجهات التى أقطعها السلطان بيبرس لأمرائه ، وهى قرى وضياع حول قيسارية وأرسوف ، وليس لأحدها تعريف فى معجم البلدان لياقوت ، وقد قوبلت جميعها وضبطت حسبما جاء فى ابن أبى الفضائل (نفس المرجع ، ص ١٣٩ ، وما بعدها) ، كما صححت منه أيضا أسماء الأشخاص الواردة معها . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 13 et seq.; Smith. The Historical Geography Of The Holy Land. Index).

(٢) فى س "زيبا" .

(٣) أضيف ما بين الأقواس فى سائر هذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (نفس المرجع ، ص ١٣٩ ، وما بعدها) .

(٤) كذا فى س . انظر ص ٥٢٨ ، حاشية ٢ . (٥) فى س "بامه" .

(٦) فى س "سان" . (٧) فى س "بيرين" .

ابن الملك المغيث ثلث حَلْبة(١) ، [الأمير شمس الدين سلار البغدادى ثلث حلبة] ، الأمير صارم الدين صراغان ثلث حلبة(٢) ، الأمير ناصر الدين القيمرى نصف البرج الأحمر ، الأمير سيف الدين بلبان الزينى الصالحى نصف البرج الأحمر ، الأمير سيف الدين إيتامش السعدى نصف بمّا(٣) ، الأمير شمس الدين آقسنقر السلاح دار نصف بمّا ، الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة نصف دَنَابة(٤) ، الملك المظفر صاحب سنجار نصف دنابة ،(٥) ، الأمير بدر الدين محمد بى(٦) ولد الأمير حسام الدين بركه خان دير القُصُوْن(٧) بكمالها ، الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار نصف الشُوَيْكَة ، الأمير سيف الدين كرمون أغا التترى نصف الشويكة ، الأمير بدر الدين الوزيرى نصف طُبَرْس(٨) ، الأمير ركن الدين منكورس الدويدارى(٩) نصف طبرس ، الأمير سيف الدين قشتمر العجمى عَلاّر بكمالها ، الأمير علاء الدين أخو الدويدار(١٠) نصف عَرْعَرَا ، الأمير سيف الدين قَنْجَق(١١) البغدادى نصف عرعرا ، الأمير سيف الدين دكجل(١٢) البغدادى نصف فَرْعُوْن ، الأمير علم الدين (١٣٧ ب) سنجر الأزكشى نصف فرعون ، الأمير علم الدين طرطج(١٣) الأسدى أَقْتَابَة(١٤) بكمالها ، الأمير حسام الدين إيتمش بن أطلس خان سِيْدا بكمالها ، الأمير علاء الدين كندغدى الظاهرى أمير مجلس الصُّغْرا(١٥) [بكمالها] ، الأمير عز الدين أيبك الحموى الظاهرى نصف أَرْتاح ، الأمير شمس الدين سنقر الألفى نصف أرتاح ، الأمير علم الدين طيبرس الظاهرى نصف باقة الغربية ، [الأمير علاء الدين التنكزى نصف باقة الغربية] ، الأمير عز الدين الأتابك الفخرى القصير بكمالها ، الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الظاهرى أخصاص بكمالها ، الأمير ركن الدين بيبرس المغربى نصف قَقَين ، الأمير شجاع الدين طغريل الشبلى أمير مهمندار نصف كفر راعى ، الأمير علاء الدين كندغدى الحُبيشى مقدم

(١و٢) فى س "جلبة" . (٣) فى س "تما" . (٤و٥) فى س "ذنابه" ، بضم الذال فقط . (٦) كذا فى س ، وقد أغفل (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 14) هذا اللفظ فى ترجمته ، وأورد ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ١٤١) الاسم كله كالآتى : "الأمير ناصر الدين بن بركتخان" . (٧) فى س "العصفور" . (٨) فى س "طرس" .

(٩) كذا فى س . (١٠) كذا فى س . (١١) فى س "سجق" .

(١٢) فى س "بكلك" . (١٣) فى س "طردج الامدى" .

(١٤) فى س "سباهيا" . (١٥) فى س "الصعر القوقا" .

الأمراء البحرية نصف كفر راعى ، الأمير شرف الدين بن أبى القاسم نصف كستا[(١)] ، الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى نصف كستا ، الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستادار العالية نصف بَرْنِيكِيَّة[(٢)] ، الأمير علم الدين سنجر الحلى الغزاوى نصف برنيكية[(٣)] ، الأمير علم الدين سنجر نائب أمير جاندار نصف حانُوتا من أرسوف ، الأمير سيف الدين بيدغان الركنى فَرْدِيسِيا[(٤)] بكمالها من قيسارية ، الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الكرك ثلث حَبْلَة من أرسوف ، الأمير جمال الدين أقوش السلاح دار الرومى ثلث حبلة ، الأمير شمس الدين سنقر جاه الظاهرى ثلث حبلة ، الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح ثلث جُلْجُولِيَّة ، الأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى ثلث جلجولية ، الأمير بدر الدين بكتوت بجكا الرومى ثلث جلجولية .

وكُتب من كتاب التمليك الشرعى الجامع نسخ ، وفُرّقت على كل أمير نسخة ، وخُلع على قاضى دمشق وعاد إلى بلده . ونُقلت المنجنيقات إلى القلاع ، وهى الكرك وعجلون ونحوها .

ورحل السلطان من أرسوف بعد استكمال هدمها فى يوم الثلاثاء ثالث عشرى شهر رجب إلى غزة . وسار منها إلى مصر ، فخرج الملك السعيد والأتابك عز الدين الحلى نائب السلطنة إلى لقائه ببركة الحجاج ، فلقوه [هناك] . ودخل [السلطان] من القاهرة فى يوم الخميس حادى عشر شعبان والأسرى بين يديه حتى خرج من باب زويلة ، وصعد إلى قلعة الجبل فاستراح . وعَرَض ما حصّله الأمير عز الدين الحلى ، والصاحب بهاء الدين بن حنا ، من الخزائن . ولم يترك أحدا من أمير ولا وزير ولا مقدم ولا مفردى ، ولا [أحدا من] خواصه ولا بَرْدَدَارِيته[(٥)] ، وبَرْدَدَارِيته[(٦)] وسائر حواشيه ، (١٢٨ ا) حتى عمّ الجميع بالخلع .

(١) فى س "كسفا" ، فى الحالتين . (٢و٣) فى س "برديكه" .

(٤) فى س "افرادنسيفا" .

(٥) فى س "بردارمه" . انظر ص ٤٩٤ ، حاشية ٣ .

(٦) جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٨ وما بعدها) ، فى باب ألقاب أرباب الوظائف من الأتباع والحواشى والخدم ، أن البرددار "هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجملة ، متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه ... وأصله (٤٦٩) فرددار ... وهو مركب من لفظين فارسيين ، أحدهما فردا ومعناه الستارة ، والثانى دار ومعناه ممسك ، والمراد ممسك الستار ؛ وكأنه فى أول الوضع كان يقف بباب الستارة ، ثم نقل الى الديوان" .

وأحسن إلى رسل الملك بركه ، وكتب إلى اليمن وإلى الأنبرور بالبشارة ، وأخرج جملة من الدراهم والغلة والكساوى تصدّق بها على الفقراء .

وكان قد كثر الحريق بالقاهرة ومصر فى مدّة سفر السلطان ، وأشيع أن ذلك من النصارى . ونزل بالناس من الحريق فى كل مكان شدّة عظيمة ، ووُجد فى بعض المواضع التى احترقت نفط وكبريت . فأمر السلطان بجمع النصارى واليهود ، وأنكر عليهم هذه الأمور التى تفسخ عهدهم وأمر بإحراقهم . فجَمع منهم عالم عظيم فى القلعة ، وأحضرت الأحطاب والحَلْفاء ، وأمر بإلقائهم فى النار ؛ فلاذوا بعفوه وسألوا المنّ عليهم . وتقدم الأمير فارس الدين أقطاى أتابك العساكر فشفع فيهم ، على أن يلتزموا بالأموال التى احترقت ، وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار . فأفرج عنهم [السلطان] ، وتولى البطرك[1] توزيع المال ، والتزموا أن لا يعودوا إلى شيء من المنكرات ، ولا يخرجوا عما هو مرتّب على أهل الذمة ، وأطلقوا[2] .

وكان الأمير زامل بن علىّ لا تزال الفتنة بينه وبين الأمير عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن غضية بن فضل بن ربيعة . فلما طلعت العساكر إلى الشام مع الأمير طيبرس قبضوا على زامل بالبلاد الحلبية ، وحُمل إلى قلعة عجلون . ثم نُقل إلى القاهرة واعتقل ، ثم أفرج عنه وصار يلعب مع السلطان فى الميدان . وحضر الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وأحمد بن حجى والأمير هارون ، وأصلح السلطان بينهم وبين زامل ، وردّ على زامل إقطاعه وإمرته ، وأذن لهم فى السفر . فساروا حتى دخلوا إلى الرمل ، فساق[3] زامل وهجم على بيوت عيسى وأفسد ، وقبض على قصّاد السلطان المتوجهين إلى شيراز ، وأخذ منهم الكتب وسار بها إلى هولاكو وأطمعه فى البلاد ؛ فأعطاه [هولاكو] إقطاعا بالعراق .

---

(١) اسم بطرك الأقباط تلك السنة ، حسبما جاء فى (Butcher : The Story Of The Church Of Egypt. I. p. XIV, II. p. 165 et seq.) أثناسيوس الثالث .

(٢) أخبار هذه الحرائق واردة بتفصيل أكثر مما هنا فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣٣ ، وما بعدها) .

(٣) فى س "ساق" .

وسافر [زامل] إلى الحجاز فنهب وقتل ، وعاد إلى الشام . وكان السلطان قد أعطى إقطاعه لأخيه أبي بكر ، فضاقت عليه الأرض ، وكتب يطلب من السلطان العفو . فقرر [السلطان] معه الحضور إلى مدة عيّنها له ، وأنه متى تأخر عنها فلا عهد له ولا أيمان فلما تأخر عن المدة المعينة وحضر بعدها قبض عليه ، واعتقل بقلعة الجبل .

وفى خامس عشريه جلس السلطان بدار العدل ، وطلب تاج الدين بن[1] القرطى . فلما حضر قال [السلطان له] : "أضجرتنى بما تقول . عندى مصالح لبيت مال للسلمين ، فتحدث الآن بما عندك". فتكلم [القرطى] فى حق (١٣٨ ب) قاضى القضاة ، وفى حق صاحب سواكن ، و[قال] إن الأمراء الذين ماتوا أخذ ورثتهم أكثر من حقوقهم . فأمر السلطان بإحضار زيَار[2] ، وأراه لمن حضر وقال : "من يصبر على هذا الزيار[2] يُسْتَكْثَر عليه إقطاع ، أو يستكثر على ورثته موجود يخلفه لهم ؟ "، وأنكر عليه وأمر به فحبس . وتحدث [السلطان] فى أمر الجند ، وأنهم إذا كانوا فى البيكار[3] وفى مواطن الجهاد لا يصل إليهم شاهد ، فَيُشْهِدُ أحدهم أصحابه [عند موته[4]] ، فإذا حضروا لا تقبل شهاداتهم ، وتضيع أموال الناس بهذا السبب . وقال : "الرأى أن كل أمير يعين من جماعته من فيه دين وخير ليسمع قوله ، وكل[5] مقدم وكل جماعة من الجند يعين من فيها ممن هو من أهل الخير والصلاح ، لتسمع أقوالهم ، حتى تحفظ أموال الناس". فسرّ الأمراء بذلك ، وشرع قاضى القضاة فى اختيار الناس الجياد من الجند لذلك .

وجلس [السلطان] فى تاسع عشريه بدار العدل ، فوقف شخص وشكا أن من سكن

---

(١) كذا فى س ، وهو فى ب (١٦٤ أ) "تاج الدين القرطبى" ، وترجمه (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 17) على هذه الصيغة .

(٢) الزيار — أو الزيارة — وجمعه زيارات ، آلة حربية كالقوس الذى يرمى به البندق ، وهو مترجم إلى (arbaléte) فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 17) . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٣) تقدم شرح هذا اللفظ فى ص ١٠٥ ، حاشية ١ .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ترجمة (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 18.).

(٥) هذا اللفظ مكرر فى س .

فى شىء من الأملاك الديوانيـة لا يُمَـكَّن من الخـلو ، فأنكر [السلطان] ذلك وأمر بتمكين السـاكن من الخلو عند انقضاء الإجارة . ووردت رسـل الأنبرور ، ورسل الملك الأشـكرى ، بالهدايا .

وفى سابع شهر رمضان قدمت العسـاكر من البيرة ، مع الأمير جمال الدين المحمدى ، والأمير عز الدين إيغان . وقدمت هـدية ملك الـكرج[1] . وورد الخبر باستيلاء عز الدين السكندرى نائب الرحبة على قرقيسياء[2] ، وقتلوا من كان فيها من التتر والـكرج ، وأسروا نيفا وثمـانين رجلا فى نصف شهر رمضان .

وفيه رسم بتحصيل المراكب لتغرق فى بحر أشموم ، فلما كان ثانى شوّال سار السلطان إلى أشموم بنفسه ، وقسّم عمل البحر على الأمراء ، وعمل بنفسه وحمل القفة مملوءة بالتراب على كتفه ، والناس تشاهده فوقع الاجتهاد فى الحفر ، واستمر السلطان على العمل بنفسه فى كل يوم ، و [صار] يركب فى المراكب وتُغَرّق المراكب قدامه . فتنجّز العمل فى ثمانية أيام ، وتـكامل الحفر فى بحر أشموم ، وفى الجهة التى من ناحية جَوْجَر[3] . وسار [السلطان] إلى منزله ابن حسون ، وعاد إلى قلعة الجبل فى حادى عشريه . ورسم بإبطال حواصة

---

(١) كانت مملـكة الـكرك قد انضوت تحت حكم المغول منذ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ، وكان ملـكها صاحب الهدية الواصلة إلى القاهرة هذه السنة داود أولو (David Ulu) ، أى داود الضخم . وقد اشترك داود هذا وجنوده الـكرجية فى وقعة هولاكو على بغداد ، ووقعة انهزام التتر فى عين جالوت على يد السلطان قطز . ثم حدث أن ثار داود ضدّ الحـكم التترى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) ، فتخلى عنه معظم أمرائه وصالحوا التتر ، وهرب هو بعد هزيمته إلى بلدة (Kutais) حيث كان ابن عمه داود ناربن (David Narin) ، أى داود الماهر . وحوالى ذلك الوقت نشبت الحرب بين هولاكو وبركه خان ، فرأى هولاكو ترضية داود الضخم وإعادته إلى مملـكته وتبعيته للمغول ، وقد ظل داود حتى وفاته سـنة ١٢٦٩ م راضيا بتلك التبعية فى الظاهر ، غير أنه كان فى نفس الوقت يكيد لهولاكو عند كل من الملك بركه خان والسـلطان بيبرس ، على النحو المشار إليه بالمتن . (Allen : A Hist. Of The Georgian People. pp. 109 et seq).

(٢) فى س "قرقيسيا" بغير ضبط ، وكثيرا ما ترد هذه الصيغة المقصورة فى الشعر ، وتسمى أيضا قرقيساء ، وتقع عند ملتقى نهير الخابور بالفرات . (ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ، ص ٦٦) . هذا ويوجد بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية : "قرقيسيا هى حصن الزبا التى أخذت جذيمة الأبرش" .

(٣) انظر ص ٤٠٣ ، حاشية ١ .

النهار[١] بالقاهرة ومصر وكانت جملة كبيرة ، وكُتب توقيع بإبطالها ، وكُتب أيضا بمسامحة الأعمال الدقهلية والمرتاحية[٢] أربعة وعشرين ألف درهم نقرة[٣] عن رسوم[٤] الولاية والمال المستخرج برسم النقيدى[٥] . وتوجه شجاع الدين بن (١٣٩ ا) الداية الحاجب إلى الملك بركة رسولا ، ومعه ثلاث عُمَر اعتمر بها عنه بمكة ، عُملت فى أوراق مذهبة ، وشىء من ماء زمزم ودهن بلسان وغيره .

وفى آخره نزل بالسلطان وعك ، فداوى بالصدقة وأعطى الفقراء مالا جزيلا .

وفى ذى القعدة قدم الراهب كرنانوس[٦] بكتاب الملك الأشكرى . وكان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى يكره قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ويضع من قدره ويحطّ عليه عند السلطان ، بسبب تشدّده فى الأحكام وتوقّفه فى القضايا التى لا توافق مذهبه . فاتفق جلوس السلطان بدار العدل فى يوم الاثنين ثانى عشر ذى الحجة ، فرفع إليه بنات الملك الناصر قصة، فيها أن ورثة الناصر اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى فى حياته ، فلما مات ذكر ورثته أنها وقف . فعند ما قُرئت أخذ الأمير أيدغدى يحطّ على الفقهاء وينقصهم ، فقال السلطان للقاضى تاج الدين : "يا قاضى ! هكذا تكون القضاة ؟". فقال [تاج الدين] : "يامولانا ! كل شاة معلّقة بعُرقوبها". قال "فكيف

(١) أشار المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٦) إلى "حراسة النهار" بما لا يزيد عما هو وارد هنا ، وقد ترجم (Quatremére : Op. Cit. I. 2. P. 19) هذين اللفظين إلى (La garde du jour).

(٢) فى س "المرتا" ، وبقية اللفظ مطموس تماما فى س ، لكنه وارد فى ب (١٦٤ ب) .

(٣) معظم هذه الكلمة ضائع فى س ، وهى تامة فى ب (١٦٤ ب) .

(٤) عرّف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ٨٩) رسوم الولاية المذكورة هنا ، بأنها "كانت جهة تتعلق بالولاة والمقدمين ، فيجبيها المذكورون من عرفاء الأسواق وبيوت الفواحش . ولهذه الجهة ضامن ، وتحت يده عدة صبيان ، وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم ، وكانت تشتمل على ظلم شنيع وفساد قبيح وهتك قوم مستورين وهجم بيوت أكثر الناس".

(٥) كذا فى س ، ويفهم مما يلى ص ٥٤٣ ، سطر ١٤ ، أن النقيدى اسم موضع قربه فم خليج الإسكندرية .

(٦) فى س "كرنانوس"، وقد صحح على منطوقه فى (Quatremére : Op. Cit. I. 2. P. 19.) ، حيث يوجد رسم آخر لهذا الاسم وهو (Germanos) ، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا الراهب فى ص ٥١٤ ، سطر ٧ .

الحال فى هذا ؟" قال : "إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة". فقال السلطان : "فإذا لم يكن مع الورثة شيء ؟" قال [القاضى] . "يرجع الوقف إلى أصله ، ولا يستعاد الثمن" . فغضب السلطان من ذلك ، وماتم الكلام حتى تقدم رسول أمير المدينة النبوية وقال : "يامولانا السلطان ! سألتُ هذا القاضى أن يسلم إلىّ مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده ، لينفقه صاحب المدينة فى فقراء أهلها ، فلم يفعل" . فسأل السلطان القاضى عما قاله ، فقال : "نعم" . قال السلطان : "أنا أمرتُه بذلك فكيف رددتَ أمرى ؟" قال: "يامولانا ! هذا المال أنا متسلمه وهذا الرجل لا أعرفه ، ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته ، فإن كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه" . فقال السلطان : "تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى ؟" قال : "نعم" . قال [السـلطان] : "لا تدفعه إلا لمن تختاره[1]" . ثم تقدم بعض الأمراء وقال : "شهدتُ عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته" ، فسأل السلطان القاضى عن ذلك فقال : "ما شهد أحد عندى حتى أثبته" ، فقال الأمير : "إذا لم تسمع قولى فمن تريد ؟" قال السلطان : "لم لا سمعت قوله[2]؟» فقال : « لا حاجة فى ذكر ذلك » . فقال الأمير أيدغدى : « يا قاضى لمذهب الشافعى لك ، ونولّى من كل مذهب قاضيا[3] » . فصغى السلطان لقول أيدغدى (١٣٩ ب) وانقضى المجلس ، إلى أن كان يوم الاثنين تاسع عشره ، ولّى السلطان القاضى صدر الدين سليمان بن أبى العز بن وُهَيب[4] الأذرعى الحنفى مدرس المدرسة الصالحية ، والقاضى شرف الدين عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى بن خالد بن على بن عمر ابن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب السبكى المالكى ، والقاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى ، [ليكونوا] قضاة القضاة بديار مصر وجعل [السلطان] لهم أن يولّوا فى سائر الأعمال المصرية ، مضافا لقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ؛ وأبقى على ابن بنت الأعز النظر فى مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت

(١) فى س "تختاره".

(٢) بعض ألفاظ العبارات الواردة هنا بين الشولات المقلوبة زائل أو مطموس تماما فى س ، ولكنها كلها واضحة فى ب (١٦٥ أ) .

(٣) فى س "قاضى".

(٤) مضبوط هكذا فى س .

المال ، وكتب لكل منهم تقليدا وخلع عليهم . فصار بديار مصر قضاة القضاة من حينئذ أربعة ، يحكم كل منهم بمذهبه ، ويلبس كل منهم الطَّرْحات[1] فى أيام الخدمة السلطانية . ورسم [السلطان] أيضاً لمجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم بخطابة القاهرة .

وفى رابع عشرى ذى الحجة قبض [السلطان] على الأمير شمس الدين سنقر الرومى واعتقل ؛ وتقدم إلى الخليفة الحاكم بأمر الله ألا يجتمع بأحد ، فاحتجب عن الاجتماع بالناس . وفيها تولى الأمير نور الدين على بن مجلى الهكارى نيابة حلب ، عوضا عن أيدكين الشهابى .

وفيها نزل السلطان من قلعة الجبل بالليل متنكرا ، وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس ، فرأى بعض المقدمين وقد أمسك امرأة وعرّاها سروالها بيده ، ولم يجسر أحد ينكر عليه . فلما أصبح [السلطان] قطع أيدى جماعة من نوّاب الولاة والمقدمين ، والخفراء وأصحاب الرباع بالقاهرة .

---

(١) الطرحات جمع طرحة ، وهى من مميزات لباس قضاة القضاة فى عصر المماليك بمصر ، وقد وصفها القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٢) فقال :" ويتميز قضاة القضاة الشافعى والحنفى بلبس طرحة ، تستر عمامته وتنسدل على ظهره " . انظر أيضا (Quatremére : Op. Cit. I. 2. P. 21. N. 23) ، حيث يفهم أن تلك الطرحة التى امتاز بها قضاة القضاة فى مصر ، وكذلك العمامة والشاش ، كانت كلها من قماش أسود . هذا ويوجد بالقلقشندى (نفس المرجع والجزء ، ص ٤١ — ٤٢) وصف دقيق لأزياء أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء فى تلك الأزمنة ، ونصه :" ويختلف ذلك (أى ملبوس رجال الدين) باختلاف مراتبهم ، فالقضاة والعلماء (ص ٤٢) منهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق ، ويلبس فوق ثيابه دلقا متسع الأكمام طويلها ، مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج ، سابلا على قدميه . ويتميز قضاة القضاة الشافعى والحنفى بلبس طرحة ، تستر عمامته وتنسدل على ظهره ، وكان قبل ذلك مختصا بالشافعى . ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف ، ويلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من قدامه ، من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار . وليس فيهم من يلبس الحرير ولا ما غلب فيه الحرير ، وإن كان شتاء كان الفوقانى من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطى ، ولا يلبسون الملون إلا فى بيوتهم ، وربما لبسه بعضهم من الصوف فى الطرقات ، ويلبسون الخفاف الأديم الطائفى بغير مهاميز " .

وفيها ولى السلطان إمرة عرب آل فضل لعيسى بن مهنا ، فسار وطرد التتار عن البيرة وحران . وفيها هلك القان[١] هولاكو بن طولوخان بن جنكزخان — فى تاسع عشر[٢] شهر ربيع الأول ، بالقرب من كورة مراغة — بالصرع ، عن نيف وستين سنة ، منها مدة سلطنته عشر سنين[٣] . وقام من بعده ابنه أباغا[٤] ، وجهز جيشا لحرب الملك بركه خان ، فانهزم هزيمة قبيحة .

ومات[٥] فى هذه السنة من الأعيان الأمير جمال الدين موسى بن يغمور الياروقى ، نائب السلطنة بديار مصر ودمشق ، وهو معزول ، بالقصير من عمل مصر ، عن أربع وستين سنة .

وتوفى قاضى القضاة بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن على السنجارى الشافعى ،

---

(١) تقدمت الإشارة إلى لفظ القان (س ٣٠٧ ، حاشية ٤) . غير أن الصيغة الصحيحة لهذا اللقب ، فيما يخص هولاكو وخلفاءه على المملكة المغولية بفارس ، أن يكتب إيلخان (IlKhan) أى الخان التابع . وكان هولاكو قد اتخذ هذا اللقب تعيينا لمركزه من مقام أخيه قوبيلاى خان الخان الأعظم على جميع الممالك المغولية بآسيا ، ولصق هذا التلقيب بسلالة هولاكو ، وأطلق اسم دولة إيلخانات على البلاد التى حكموها . (Lane-Poole : Muh. .Dyns. P. 217 et seq).

(٢) يوجد بين المراجع المتداولة هنا خلاف طفيف على تاريخ موت هولاكو ، ففى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد س ١٤٠) ، أنه مات فى سابع ربيع الآخر ، وفى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، س ١٠٠ ، فى (Rec. Hist. Or. I. تاسع ربيع الآخر ، وفى (Enc. Isl. Art. Hulagu) يوم الأحد تاسع عشر ربيع الآخر ، وهو أصح هذه التواريخ . انظر ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، س ٣٠٣ .

(٣) يوجد بهامش الصفحة فى س وصف لمملكة هولاكو ، ونصه مصححا : " كان بيد هولاكو إقليم خراسان وكرسيه نيسابور ، وعراق العجم — ويعرف ببلاد الجبل — وكرسيه أصفهان ، وعراق العرب وكرسيه بغداد ، وآذربيجان وكرسيه تبريز ، وخوزستان وكرسيه تستر — ويسميها العامة شستر ، وفارس وكرسيه شيراز ، وديار بكر وكرسيها الموصل ، والروم وكرسيه قونية " . ويظهر أن المقريزى نقل هذه العبارة من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ، س ١٥١ ، فى (Rec. Hist. Or. I. ، أو من مرجع آخر مشابه له فى العبارة .

(٤) الصيغة المتواترة لهذا الاسم فى الكتب العربية هى الواردة بالمتن هنا ، غير أنه وارد فى المراجع الفرنجية مثل (Enc. Isl. Art. Abaka) بما يقابل القاف بدل الغين ، هذا وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، س ١٤٧) أنه كان لهولاكو عدا أباغا هذا ستة عشر ولدا ذكورا .

(٥) الوفيات التالية إلى آخر السنة واردة بورقة منفصلة بين الصفحتين ١٣٩ ب ، ١٤٠ ا فى س ، بغير إشارة إلى موضعها المناسب ، على أنه لا شك فى وقوعها هنا . انظر (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، س ٣١٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، س ٣٧ — ٣٨) .

وهو مصروف ، بالقاهرة عن نيف وستين سنة . وتوفى نجم الدين أبو المظفر فتح بن موسى ابن حماد القصرى المغربى ، قاضى سيوط بها .

• • •

سنة أربع وستين وستمائة . فى المحرم عقد الأمير سيف الدين قلاون عقده على ابنة الأمير سيف الدين كرمون التترى الوافد . فنزل السلطان من قلعة الجبل ، وضرب الدهليز بسوق الخيل ، عند ما دخل الأمير قلاون عليها . وقام [السلطان] بكل ما يتعلق بالأسمطة ، وجلس على الخوان ، ولم يبق أحد من الأمراء حتى بعث إلى قلاون الخيل و بقج الثياب . وأرسل إليه السلطان تعابى(١) قماش وخيلا وعشرة مماليك ، فقبل [قلاون] التقدمة واستعفى من المماليك ، وقال : « هؤلاء خوشداشيتى فى خدمة السلطان » ، فأعفى .

وفيه كتب إلى دمشق بثلاثة(٢) تقاليد : أحدها بتقليد(٣) شمس الدين عبد الله محمد بن عطا الحنفى قاضى القضاة ، والآخر بتقليد زين الدين أبى محمد عبد السلام بن على بن عمر الزواوى المالكى قاضى القضاة المالكية ، والثالث بتقليد شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبى عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلى قاضى القضاة الحنابلة . فصار بدمشق أربعة(٤) قضاة ، وكان قاضى القضاة الشافعى شمس الدين أحمد بن خلكان ، فصار الحال كما هو بديار مصر ، واستمر ذلك(٥) . واتفق أنه لما قدمت عهود القضاة الثلاثة(٦) لم يقبل المالكى ولا الحنبلى ، وقبل الحنفى فورد مرسوم السلطان بإلزامهما بذلك ، وأخذ ما بأيديهما من الوظائف إن لم يفعلا ، فأجابا . ثم أصبح المالكى وعزل نفسه عن القضاء والوظائف ، فورد المرسوم بإلزامه فأجاب ، وامتنع هو والحنبلى من تناول جامكية على القضاء . وقال بعض أدباء دمشق لما رأى اجتماع قضاة كل واحد منهم لقبه شمس الدين :

---

(١) التعابى جمع تعبية ، وقد ترجم (Quatremére : Op. Cit. 1. 2. p. 23) تعابى قماش إلى (des robes) أى ثياب ، وترجمها (Dozy : Supp. Dict. Ar.) إلى (piéces d'etoffe) أى قطع من قماش

(٢) فى س "بثلاث" . (٣) فى س "تقليد" . (٤) فى س "اربع" .

(٥) العبارة الآتية ، الى آخر سطر ٦ بالصفحة التالية ، واردة على ورقة منفصلة بين صفحتى ١٣٧ ب ، ١٣٨ ا فى س ، وليس من سبب إلى ذكر هذا سوى أن تلك الورقة موضوعة هناك خطأ .

(٦) فى س "الثلاث" .

أهل دمشق استرابوا من كثرة الحكام
إذ هم جميعا شموس وحالهم فى ظلام

وقال آخر :

بدمشق آية قد ظهرت للناس عاما
كلما وُلّى شمس قاضيا زادت ظلاما

وكان استقلالهم بالقضاء فى سادس جمادى الأولى .

وفيه وردت رسل الأنبرور ، ورسل الفنش[1] ، [ورسل[2] ملوك الفرنج] ، ورسل ملك اليمن[3] ، ومعهم (١٤٠ ١) هدايا إلى صاحب قلاع الإسماعيلية . فأخذت منهم الحقوق [الديوانية] عن الهدية ، [إفسادا لنواميس الإسماعيلية ، وتعجيزا لمن اكتفى شرّهم بالهدية] .

وفى ثامن صفر كانت وقعة بين الأمير علم الدين سنجر الباشقردى نائب حمص ، وبين البرنس [بيمند بن بيمند[4]] ملك الفرنج بطرابلس ، انهزم فيها الفرنج . وفيه كُتب إلى دمشق بعمل مراكب ، فعُملت وحملت إلى البيرة . وفيه توجّه السلطان إلى الإسكندرية ، واهتم بحفر خليجها و باشر الحفر بنفسه ، فعمل فيه الأمراء وسائر الناس ، حتى زالت الرمال التى كانت على الساحل بين النقيدى وفم الخليج . ثم عدى [السلطان] إلى برأبْيار[5] ، وغرّق

(١) كذا فى س ، ولعل المقصود بهذا الاسم هو (Alphonse of Seville) ، الذى عقد مع بيبرس معاهدة تجارية سنة ٦٦٩ هـ ، (١٢٧٠ م) . انظر (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 266). هذا وفى (Rec. Hist. Or. II. 1. p. 223. N. 1) أن لفظ الفنش خطأ قلمى ، وأن المقصود هو "البرنس" صاحب طرابلس . انظر حاشية ٤ .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٣ ، فى (Rec. Hist. Or. II. 1.

(٣) كان ملك اليمن فى تلك السنة السلطان المظفر شمس الدين يوسف بن عمر على بن رسول ، وقد امتد حكمه سنين كثيرة ، (٦٤٧ — ٦٩٩هـ ، ١٢٥٠ — ١٢٩٥م) . انظر الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٨٨ ، ٢٧٥) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٣ ، فى (Rec. Hist. Or. II. 1 ، حيث توجد فى هذا الصدد معلومات أكثر تفصيلا . أما ملك الفرنج المقصود هنا فهو (Bohemond, Seigneur de Tripoli) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من مديرية الغربية بقسم محلة منوف ، وتقع على بحر سيف شرق كفر الزيات . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٨ ، ص ٢٨ ، وما بعدها) . وكانت أبيار فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٠٨) قرية بجزيرة اسمها بنو نصر . (انظر ص ٥١٠ ، سطر ٨) .

هنالك عدّة مراكب ، وألقى فوقها الحجارة . ثم عاد إلى قلعة الجبل ؛ وحفر بحر مصر بنفسه وعسكره ، ما بين الروضة والمنشاة بجوار جرف الروضة ؛ وجهز المحمل وخلع على المتوجّه به إلى الحجاز ، وهو الأمير جمال الدين ...(١)... نائب دار العدل ، وسيّر معه مبلغ عشرة آلاف درهم لعمارة حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسُيّرت الغلال لجرايات الصناع .

وفى جمادى الأولى قدم فخر الدين بن جلبان(٢) من بلاد الفرنج بعدة من الأسرى ، قد افتكّهم بمال الوقف المسيّر من جهة الأمير جمال الدين النجيبى نائب دمشق . فحضر عدّة من النساء والأطفال ، فسيّرت(٣) النساء إلى دمشق ليزوّجهن القاضى من أكفائهن . وفيه سافر الأمير جمال الدين بن نهار المهمندار الصالحى لبناء جسر على [نهر] الشَّرِيعَة(٤) ، ورسم لنائب دمشق بحمل كل ما يحتاج إليه من الأصناف . وفيه كمل بناء الدار الجديدة عند باب السر المطل على سوق الخيل من قلعة الجبل ، فعمل بها دعوة للأمراء .

وفى جمادى الآخرة سار الأمير أقوش السفيرى ، ومعه أزبعون ديوانا لاستخراج زكاة عرب بلاد المغرب ، فوصل إليهم وأخذ منهم الزكاة التى فرضها الله وأخذ منهم الحقوق .

وفى ثالث رجب اهتم السلطان بأمر الغزو ، وسير إلى أعمال مصر بإحضار الجند من إقطاعاتهم ، فتأخروا . فأرسل سلاح داريته إلى سائر الأعمال ، فعلقوا الولاة بأيديهم ثلاثة أيام تأديبا ، لكونهم ما سارعوا إلى إحضار الأجناد ؛ فحضروا بأجمعهم .

وخرج السلطان فى مستهل شعبان ، ورحل فى ثالثه وسار إلى غزة . وقدم الأمير أيدغدى العزيزى ، والأمير قلاون ، فى عدّة من العسكر إلى العوجاء . ومضى السلطان إلى الخليل ثم إلى القدس ، ومنع أهل الذمة من دخول مقام الخليل ، وكانوا قبل ذلك يدخلون ويؤخذ منهم مال على ذلك ، فأبطله واستمر منعهم . وسار [السلطان] إلى عين جالوت .

(١) بياض فى س .

(٢) فى س "حلبان" ، والرسم المثبت هنا من (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 25) .

(٣) فى س "فسير" .

(٤) انظر ص ٣٨١ ، حاشية ٤ .

ووصـل العسكر إلى حمص ، وأغاروا على الفرنج ونزلوا على حصن الأكراد ، وأخذوا قلعة عَرْقَة[1][وحَلْبَاء[2]] والقُلَيْعات[3] وهدموها . (١٤٠ ب) فلما ورد الخبر بذلك جرّد السلطان الأمير علاء الدين البندقدار ، والأمير عز الدين أوغان[4] ، فى عدّة من العسكر إلى صور . فأغاروا على الفرنج ، وغنموا وأسروا كثيرا . وتوجه الأمير إيتامش إلى صيداء ، وسار السلطان إلى مدينة عكا ؛ وبعث الأمير بدر الدين الأيدمرى ، والأمير بدر الدين بيسرى إلى جهـة القَرْن[5] ؛ و [أرسل] الأمير فخر الدين الحمصى إلى جبل عاملة . فأغارت العساكر على الفرنج من كل جهة ، وكثرت الغنائم بأيديهم حتى لم يوجد من يشترى البقر والجاموس وصارت الغارات من بلاد طرابلس إلى أرسوف . ونزل عسكر السلطان على صور ، وأقام السلطان فى جهة عكا ، والأمير ناصر الدين القيمرى فى عثليث ؛ فطلب أهـل عكا من الأتابك التحدث فى الصلح . فاهتم السلطان بأمر صفد ، وأحضر العساكر المجردة ؛ ورحل الأمير بكتاش الفخرى أمير سـلاح بالدهليز السلطانى ونزل على صـفد ، وتبعه الأمير البنـدقدار والأمير عز الدين أوغان فى جماعة ، وحاصروها .

[هذا] والسلطان مقيم على عكا حتى وافته العساكر ، وعمـل عدّة مجانيق . ثم رحل والعساكر لابسة ، وساق إلى قرب باب عكا ، ووقف على تل الفضول . ثم سار إلى عين جالوت ، ونزل على صفد[6] يوم الاثنين ثامن شهر رمضان وحاصرها . فقدم عليه رسول

---

(١) فى س "عرقا" ، وهى فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ص ٦٥٢) بكسر العين ، وموقعها شرق طرابلس على مسافة أربعة فراسخ ، وتسمى فى الحوليات الصليبية بأسماء مختلفة مثل ,Arch, Arcados, Archis) . انظر (Le Strange : Palest. Under Moslems. 397 et seq.).

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥١ ، فى (Rec. Hist. Or. I.

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى اسم حصن قرب طرابلس . (Rec. Hist. Or. I. Index).

(٤) كذا فى س ، انظر (Quatremére : Op. Cit p. I. 2. 27) ، حيث ترجم هـذا الاسم إلى (Ighan) .

(٥) بغير ضبط فى س ، ولعلها قرن الحامرة إحدى قرى دمشق . (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 481)

(٦) كانت صفد إحدى معاقل هيئة الفرسان الداوية . (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 260 et seq)

متملك صور ورسول القداوية[1] ، ورسول صاحب بيروت ، ورسل صاحب يافا ، ورسل صاحب صهيون . وصار [السلطان] يباشر الحصار بنفسه ؛ وقدمت المجانيق[2] من دمشق إلى جسر يعقوب وهو منزلة من صفد — وقد عجزت الجمال عن حملها ، فسار إليها الرجال من الأجناد والأمراء لحملها على الرقاب من جسر يعقوب . وسار السلطان بنفسه وخواصه ، وجرّ الأخشاب مع البقر هو وخواصه ، فكان غيره من الناس إذا تعب استراح ثم يعود إلى الجرّ ، وهو[3] لا يسأم من الجرّ ولا يبطله ، إلى أن نُصبت [المجانيق] رُمى بها فى سادس عشريه ؛ وصار [السلطان] يلازم الوقوف عندها وهى ترمى .

وأتت العساكر من مصر والشام ، فنزلوا على منازلهم إلى أن كانت ليلة عيد الفطر فخرج[4] الأمير بدر الدين الأيدمرى للتهنئة بالعيد ، فوقع حجر على رأسه ، فرسم السلطان بألا يجتمع أحد لسلام العيد ، ولا يبرح [أحد] من مكانه خشية انتهاز العدوّ غِرّة العسكر ونودى يوم عيد الفطر فى الناس : "من شرب خمرا أو جلبها شُنق" .

وفى ثانيه وقع الزحف على (١١٤١) صفد ، ودفع الزرّاقون النفط . ووعد السلطان الحجارين أنه من أخذ أوّل حجر كان له مائة دينار ، وكذلك الثانى والثالث إلى العشرة . وأمر حاشيته بألا يشتغلوا بخدمته . فكان بين الفريقين قتال عظيم استشهد فيه جماعة ، وكان الواحد من المسلمين إذا قُتل جرّه رفيقه ووقف موضعه . وتكاثرت النقوب ودخل النقابون إليها ، ودخل السلطان معهم . وبذل [السلطان] فى هذا اليوم من المال والخلع كثيرا ، ونصب خيمة فيها حكماء وجرائحية وأشربة ومآكل[5] ، فصار من يُجرح من العربان والفقهاء والفقراء وغيرهم يحضر إليها .

---

(١) كذا فى س ، ولعل المقصود "الداوية" ، على أن (Quatremére : Op. Cit. I, 2. p. 28) اعتبر أن المقصود بهذه التسمية فرقة الإسماعيلية بالشام .

(٢) فى س "المناجنق" .

(٣) الضمير عائد على السلطان .

(٤) فى س "خرج" .

(٥) فى س "ما اكل" .

وفى ثامنه كانت بين[١] [الفريقين] أيضا مَقَاتِل[٢]. وفى ليلة رابع عشره اشتد الزحف من الليل إلى وقت القائلة ، فتفرّق الناس من شدة التعب . فغضب السلطان من ذلك ، وأمر خواصه بالسّوق إلى الصاواوين وإقامة الأمراء والأجناد بالدبابيس ، وقال : "المسلمون على هذه الصورة ، وأنتم تستريحون ؟" ، فأقيموا . وقبض [السلطان] على نيف وأربعين أميرا ، وقيّدهم وسجنهم بالزردخاناه ؛ ثم شُفع فيهم فأطلقهم وأمرهم بملازمة مواضعهم . وضُربت الطبلخاناه واشتد الأمر إلى أن طلب الفرنج الأمان ، فأمّنهم [السلطان] على ألا يخرجوا بسلاح ولا لامة حرب ولا شىء من الفضّيات[٣] ، ولا يتلفوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولا هدم ؛ [وأن يفتشوا عند خروجهم[٤] ، فإن وُجد مع أحد منهم شىء من ذلك انتقض العهد] .

ولم تزل الرسل تتردد بينهم إلى يوم الجمعة ثامن عشره ، [ثم] طلعت السناجق الإسلامية ،وكان لطلوعها ساعة مشهودة . [هذا] والسلطان راكب على باب صفد حتى نزل الفرنج كلهم ، ووقفوا بين يديه فرسم بتفتيشهم : فوجد معهم ما يناقض الأمان من السلاح والفضيات ، ووجد معهم عدّة من أسرى مسلمين أخرجوهم على أنهم نصارى . فأخذ ما وُجد معهم وأُنزلوا عن خيولهم ، وجعلوا فى خيمة ومعهم من يحفظهم . وتسلم المسلمون صفد ، وولى السلطان قلعتها الأمير مجد الدين الطورى ، وجعل الأمير عزالدين العلائى نائب صفد . فلما أصبح حضر إليه الناس ، فشكر اجتهادهم واعتذر إليهم عما كان منه إلى بعضهم ، وأنه ما قصد إلا حثّهم على هذا الفتح العظيم ، وقال : "من هذا الوقت نتحالل" ، وأمرهم فركبوا. وأُحضرت خياله الفرنج وجميع من أُخرج من صفد ، فضربت أعناقهم على تل قرب صفد حتى لم يبق منهم سوى نفرين : أحدهما الرسول ، فإنه اختار أن يقيم عند السلطان ويسلم ،

(١) فى س "بينهما" . (٢) فى س "مقاتل".

(٣) فى س "الفضيات" ، وقد ترجم (Quatremére : Op. Cit. I, 2, p. 30) هذا اللفظ إلى (ustensile d'argent) ، غير أنه يفهم من عبارة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، س ١٤٩) فى هذا الصدد أن المال هو المقصود بالفضيات هنا .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، س ١٤٩) .

فأسلم وأقطعه السلطان إقطاعا وقرّبه ؛ والآخر (١٤١ ب) تُرِك حتى يخبر الفرنج بما شاهده[1] . وصعد السلطان إلى قلعة صفد ، وفرّق على الأمراء العدد الفرنجية والجوارى والمماليك ، ونقل إليها زردخاناه من عنده . وحمل [السلطان] على كتفه من السلاح إلى داخل القلعة ، فتشبّه به الناس ونقلوا الزردخاناه فى ساعة واحدة . واستدعى [السلطان] الرجال من دمشق للإقامة بصفد ، وقرّر نفقة رجال القلعة فى الشهر مبلغ ثمانين ألف درهم نقرة واستخدم على سائر بلاد صفد ، وعمل بها جامعا فى القلعة وجامعا بالربض ؛ ووقف على المجنون نصف وربع الحباب[2] ، والربع الآخر على الشيخ إلياس . ووقف قرية منها على قبر خالد بن الوليد بحمص .

---

(١) كان الشخص الذى أسلم فارسا من الداوية ، وكان الثانى من فرسان الإسبتار . (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 261) وفى نفس المرجع والصفحة أنه لم يكن هناك إخلال بشروط التسليم من جانب جنود حامية صفد ، وإنما السلطان بيبرس هو الذى نكث بعهده ، وأنه فعل ذلك طبقاً للمبدأ الصليبي القائل لا أمان لكافر ، ويوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٤٨ ، وما بعدها) فى هـذا الصدد روايتان ، تدل إحداهما على أن جنود حامية صفد الصليبيين لم تخل بالشروط ، وأن السلطان لم يكن مرتبطا معهم شخصيا بعهد أمان ، ونصه :"ثم نزل العسكر على صفد فى ثامن رمضان... ، وفتحها يوم الثلاثاء خامس عشر شوال ، بعد أن طلبوا الأمان . وشرط عليهم ألا يستصحبوا (١٤٩) معهم مالا ولا سلاحا ، وأن يفتشوا عند خروجهم ، فإن وجد مع أحد منهم شىء من ذلك انتقض العهد ... ، ووقف السلطان على بابها فأخرج من كان بها من الداوية والإسبتار وغيرهم ... . ثم قيل إن جماعة من الفرنج فتشوا ، فوجد معهم أشياء من الأموال ، فأمر السلطان بضرب رقابهم ... (١٥٠) ... وحكى الأمير ركن الدين بيبرس العلائي أن السلطان لم يحلف لأهل صفد ، وإنما أجلس مكانه كرمون أغا التترى ، وأوقف الأمراء فى خدمته . فحلف لهم كرمون ، وعمل عليهم الوزير الذى كان لهم (كذا) وكان نصرانيا ، فنزلوا عن يمين كرمون . فلما نزلوا جعلوا عليهم الحجة أنهم أخذوا معهم ما لم يقع عليه اليمين ، فضربت رقابهم عن آخرهم ، وكانوا نحوا من ألفى فارس . فلما قتلوا سير (فى الأصل سيروا) أهل عكا رسولا يقول للسلطان تصدق علينا بنقل أجساد هؤلاء الشهداء إلى عكا لأجل البركة ؟ فنزل السلطان الرسول عنده ، ثم إنه أخذ (١٥١) جماعة من العسكر وساق من أول الليل ، فما أصبح الصبح إلا وهو على باب عكا . فلما فتحوا باب عكا وخرجوا لقضاء حوائجهم ، ساق [السلطان] عليهم فقتل منهم خلقا كثيرا ، وعاد فى فوره . فلما وصل [السلطان] إلى الدهليز طلب الرسول وقال[له] ما تريد ، فأعاد الرسالة . فقال [له] عد إليهم فقد عملنا عندكم شهداء ، وكفينا كم مؤونة النقل وكلفته ".

(٢) بغير ضبط فى س ، أو ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨١) . وهى إحدى بلاد وادى القرى ، بين دمشق والمدينة ، ويمر بها حاج الشام . وقد ورد هذا اللفظ فى ب (١٦٧ ب) "الحساب" وترجمه (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 31) إلى (revenus) أى الدخل . هـذا ويوجد فى س فوق لفظ الحباب حرفا "وا"، ولعل المقريزى كان يقصد أن يضيف بعض أسماء بلاد أخرى قريبة من الحباب مثل وادى القرى والحجر (ياقوت : نفس المرجع والصفحة) ، ثم أغفل ذلك أو نسيه ، ويقوى هذا الفرض الجملة التالية .

وفى سابع عشريه رحل [السلطان] من صفد إلى دمشق ، فنزل الجسورة(١) وأمر ألا يدخل أحد من العسكر إلى دمشق ، بل يبقى العسكر على حاله حتى يسير إلى سِيْس(٢) ودخل [السلطان] إلى دمشق جريدة ، فبلغه أن جماعة من العسكر قد دخلوا إلى دمشق ، فأخرجهم مُكتّفين بالحبال . وأقام الملك المنصور صاحب حماة مقدّما على العساكر وسيرهم معه ، وفيهم الأمير عز الدين أوغان ، و [الأمير] قلاون ؛ فساروا فى خامس ذى القعدة إلى سيس .

وفى ثالث ذى القعدة مات كرمون أغا . وفى ثامنه أنعم السلطان على أمراء دمشق وقضاتها وأرباب مناصبها بالتشاريف ، ونظر فى أمر جامع دمشق ، ومنع الفقراء من المبيت فيه ، وأخرج ما كان به من الصناديق التى كانت للناس .

وفى عاشره جلس الأتابك — هو والأمير جمال الدين النجيبى نائب دمشق ــ لكشف ظلامات الناس والتوقيع على القصص ، بدار السعادة . وخرج السلطان للصيد فضرب عدّة حلق ، وسار إلى جَرُوْد(٣) ثم إلى أَفَامِيَةَ . وجهّز [السلطان] إلى مصر شخصا كان [قد] حضر إلى دمشق [و] ادّعى أنه مبارك بن الإمام المستعصم [وصحبته جماعة(٥) من أمراء العربان] ، فلم يعرفه جلال الدين(٦) بن الدوادار ولا الطواشى مختار ، و تبيّن كذبه [فسير إلى مصر تحت الاحتياط] . وجهّز [السلطان] بعده شخصا آخر أسود إلى مصر ، ذكر أنه من أولاد الخلفاء ، فسُيّر(٧) إلى مصر أيضا ، وكان قد وصل إلى دمشق فى ذى القعدة] .

(١) فى س"الحسورة"، وصححت إلى الرسم الوارد بالمتن من (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 278; Quatremére. Op. Cit. I. 2. p. 13)

(٢) بغير ضبط فى س ، وصحة هذا الاسم سيسية ، غير أن عامة أهلها يقولون سيس ، وهى عاصمة أرمينية الصغرى (قليقية) ، وموقعها بين أنطاكية وطرسوس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢١٧) .

(٣) فى س"حرود"بغير ضبط ، وهى من إقليم معلولا من أعمال غوطة دمشق (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٥) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى إحدى بلاد حمص ، وتسمى أيضا فامية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٢٣) .

(٥) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من النويرى (نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٨ — ٣٩).

(٦) فى س"جلا الدين" ، انظر ما سبق ، ص ٥٠٤ ، وكذلك ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٣٥٠ .

(٧) يتضح من العبارة كلها أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن انتهت تماما بإقامة الحاكم بأمر الله فى الخلافة بالقاهرة سنة ٦٦١ هـ . (انظر ص ٤٧٧ ، سطر ٩ ، وما يليه) .

وفيه استولى السلطان على هُونَيْن[1] وتِبْنِيْن وعلى مدينة الرملة ، فعمرها وصيّر لها عملا وولّى فيها. وفيه أبطل السلطان ضمان الحشيشة الخبيثة ، وأمر بتأديب من أكلها. وقدم رسول الاسبتار ملك الفرنج ، يسأل استقرار الصلح على بلادهم من جهة حمص وبلاد الدعوة[2]. فقال السلطان : "لا أجيب إلا بشرط إبطال ما لكم من القطائع على مملكة حماة وهى أربعة آلاف دينار ، وما لكم من القطيعة على بلاد أبى قبيس[3] وهى ثمانمائة دينار ، وقطيعتكم على بلاد الدعوة وهى ألف ومائتا دينار ومائة مدّ حنطة وشعير نصفين". فأجابوا إلى إبطال ذلك ، وكُتبت المدنة وشُرط فيها الفسخ للسلطان متى أراد ، ويعلمهم قبلُ بمدّة . وورد الخبر بأن فرنج ، عكا وجدوا أربعة من المسلمين فى (١١٤٢) طين[4] شيحا فشنقوهم ، فرسم السلطان بالإغارة على بلاد الفرنج ، فقتلت العساكر منهم فوق المائتين ، وساقوا جملة من الأبقار والجواميس وعادوا[5]. وورد كتاب والى قوص أنه وصل إلى عيذاب ، وبعث عسكراً إلى سواكن ، ففر صاحب سواكن ، وعادوا إلى قوص وقد تمهدت البلاد ، وصارت رجال السلطان بسواكن .

وفى يوم الاثنين النصف من ذى الحجة جلس الأمير عزالدين الحلى نائب السلطنة بديار مصر ، ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة ، بدار العدل على العادة : وإذا بإنسان يخرق

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهو بلد فى جبال عاملة قرب بانياس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٩٩٦ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 456) ، وهو المسمى (Chateauneuf) فى المراجع الفرنجية . (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 261).

(٢) المقصود بهذا بلاد فرقة الإسماعيلية بالشام ، انظر (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 32).

(٣) فى س "بوقبيس" بغير ضبط ، وهذه الصيغة المختصرة كثيرة الورود فى الحوليات الصليبية ، وأبو قبيس حصن فى مقابلة شيزر . (Le Strange : Palest. Under Moslems, p. 352 ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٠٣) .

(٤) لعل المقصود هنا الأرض الزراعية الواقعة قرب جبل شيحان ، وهو جبل مشرف على جميع المرتفعات التى حول بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤٩) . انظر أيضا (Quatremére Op. Cit. I, 2. p. 32. N. 36).

(٥) فى س "عادت" .

الصفوف — و بيده قصة — حتى وقف قدام الأمير ، ووثب عليه بسكين أخرجها من تحت ثيابه ، وطعنه فى حلقه . فأمسك الأمير بيده فجرحها ، ورفسه برجله ونام على ظهره . فوقع [المجرم] وقصد أن يضرب الأمير ضربة أخرى ، أو يضرب الصاحب ، فرجعت السكين فى فؤاد الأمير صارم الدين المسعودى ، فمات من ساعته . فقام الأمير فخر الدين والى الجيزة وقبض عليه ورماه ، فوقع على قاضى القضاة ، وأخذته السيوف حتى هلك . وحُمل الأمير عز الدين الحلى إلى داره بالقلعة ، وحضر المزينون إليه فوجدوا الجرح بين البلعوم والمنحر . وكان الذى ضربه جندارٌ به شعبة من جنون ، وتعاطى أكل الحشيشة فقوى جِنّه وكتب بهذا الحادث إلى السلطان ، فوافاه الخبر وهو راجع من أفامية ، فشقّ عليه ذلك وقال "والله يهون على موت ولدى بركه ، ولا يموت الحلى". فقال له الأتابك : "ياخوند ! والله طّيبتَ قلوبنا إذا كنت تشتهى لو فديتَ غلاما من غلمانك بولدك وولىّ عهدك". ثم ورد الخبر بعافية الحلى مع مملوكه ، فخلع عليه السلطان وأعطاه ألف دينار ، وأعطى رفيقه ثلاثة آلاف درهم نقرة ، وأحسن إلى ورثة الصارم المسعودى .

وأما الملك المنصور ومن معه ، فإنهم ساروا إلى [حصن] دَرْبَسَاك(١) ودخلوا الدَّرْبَنْد(٢) ، وقد بنى التكفور(٣) هيتوم بن قسطنطين بن باساك(٤) ملك الأرمن على رءوس

(١) فى س "درب بساك" بغير ضبط ، وهو وارد برسم "دربساك" فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٢١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) ، وموقعه قرب أنطاكية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٤٦) .

(٢) الدربند — والجمع دربندات — لفظ فارسى ، ومن معانيه المضايق والطرقات والمعابر الضيقة ، وقد تقدمت الإشارة إليه فى ص ٢٤٨ ، حاشية ٣ ، والمراد هنا الطرقات المؤدية إلى بلدة سيس ، وقد وصفه ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣١ — ٢٣٢) بالآتى : "وباب الدربند الذى بسيس يعرف بالدروب ، ويعرف (٢٣٢) بالعواصم ...".

(٣) التكفور لفظ أرمنى معناه الملك المتوج (roi, celui porte la couronne) ، وأطلقه الأرمن على ملوكهم ، كما أنه يطلق أحيانا على ملوك الدولة البيزنطية . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 124. n. 153).

(٤) كذا فى س ، وهو فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) "هيتوم ابن قسطنطين بن باسيل" . هــذا ويوجد فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٣٦ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) أخ لهذا الملك اسمه فاساك (Vassak) ، ولعل هــذه الصيغة الأخيرة هى الأقرب للصحيح .

الجبال أبراجا — وهو[١] الذى تزهّد فيما بعد ، وترك الملك لولده ليفون[٢] — فاستعدّ ووقف فى عسكره . فعندما التقى الفريقان أسِر ليفون [ابن][٣] ملك سيس ، وقتل أخوه وعمه ، وانهزم عمه الآخر ، وقتل[٤] ابنه [الآخر] ؛ وتمزّق الباقى من الملوك — وكانوا اثنى عشر ملكا — ، وقُتلت أبطالهم وجنودهم . وركب العسكر أقفيتهم وهو يقتل ويأسر ويحرق ، وأخذ العسكر قلعة حصينة للديوية[٥] ، فقُتلت الرجال وسُبيت النساء وفرّقت على العسكر وحُرقت القلعة بما فيها من الحواصل . ودخلوا سيس (١٤٢ ب) فأخربوها وجعلوا عاليها سافلها ، وأقاموا أياما يحرقون ويقتلون ويأسرون . وسار الأمير أوغان إلى جهة الروم ، والأمير قلاون إلى المصيصة وأذنة وأياس وطرسوس ، فقتلوا وأسروا وهدموا عدّة قلاع وحرقوا ؛ [هذا] وصاحب حماة مقيم بسيس . ثم عادوا إليه و [قد] اجتمع معهم من الغنائم ما لا يعد ولا يحصى ، حتى أبيع الرأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه .

فورد الخبر بذلك والسلطان فى الصيد بجرود[٦] ، فأعطى المبشر ألف دينار وإمرة طبلخاناه . ودخل السلطان إلى دمشق ، وتجهّز وخرج للقاء العسكر فى ثالث عشر ذى الحجة

---

(١) عبارة س كالآتى :"وكان قد تزهد وترك الملك لولده ليفون فاستعد ووقف فى عسكره ..."، ويفهم من إيراد العبارة بهذا الوضع الزمنى أن هيتوم ملك الأرمن كان قد تزهد وترك الحكم لولده قبل مجىء جيوش بيبرس إلى بلاده بعدة سنين ، مع أن المعروف أن هيتوم هو الذى وقف لجيوش المماليك ، وقد وقع ابنه ليفون المذكور هنا أسيرا فى الموقعة التى وقعت بسيس . (انظر سطر ٢) . وقد ظل هيتوم ملكا على أرمينية الصغرى حتى سنة ١٢٧٠ م (٦٦٩ هـ) وصالح السلطان بيبرس ١٢٦٨ م (٦٦٦هـ) على شروط منها أن يسلم إلى السلطان بلاد "بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيح الحديد" ، وفى مقابلها يطلق السلطان سراح ليفون . وقد سلم هيتوم الحكم إلى ولده العائد بعد ذلك ، وانزوى فى دير حيث عاش حتى سنة ١٢٧٥ م (٦٧٤هـ) . (انظر أبا الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، Rec. Hist. Or. I. ؛ Camb. Med. Hist. IV. p. 175) .

(٢) اسم هـذا الابن لما ملك ليون الثالث (Leon III) ، وقد امتد حكمه من ١٢٧٠ إلى ١٢٨٩ م (٦٦٩ — ٦٨٨ هـ) . انظر المراجع المذكورة بالحاشية السابقة .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٥٢) .

(٤) فى س "اسر" ، انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥١ ، فى Recl Hist. Or. I.)

(٥) لعلها قلعة الداديين المذكورة فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) وهى حصن بأرمينية الصغرى . (Ibid : Op. Cit. Index) .

(٦) فى س "بجرود" .

فشكى إليه وهو بقارا[1] من أهلها [وهم نصارى[2]] : أنهم يتعدون على أهل الضياع، ويبيعون من يقع إليهم إلى الفرنج بحصن عكا، فأمر العسكر بنهبهم فنهبوا، وقتل كبارهم وسبى النساء والأولاد. وقدم عليه العسكر المجهز إلى سيس، وقدّموا له نصيبه من الغنائم ففرّق الجميع على عساكره؛ وأحسن إلى متملك سيس[3] ومن معه من الأسرى. وعاد، [السلطان] إلى دمشق في رابع عشريه — ومتملك سيس بين يديه —، وخلع على الأمراء والملوك والأجناد، فامتلأت دمشق بالمكاسب، وأبيع من الجواهر والحلي والدقيق والحرير ما لا يحصى كثرة، ولم يتعرض السلطان لشيء من ذلك. وعاد صاحب حماة إلى مملكته، بعد ما أنعم عليه السلطان بكثير من الخيول والأموال والخلع[4].

و [فيها] قدمت رسل الملك أبغابن هولاكو بهدايا وطلب الصلح. وفيها أمر [السلطان] بجمع أصحاب العاهات، فجُمعوا بخان السبيل ظاهر باب الفتوح من القاهرة، ونُقلوا إلى مدينة الفيوم وأفردت لهم بلدة تغل عليهم ما يكفيهم، فلم يستقرّوا بها وتفرّقوا ورجع كثير منهم إلى القاهرة. وفيها اشتد إنكار السلطان المنكر، وأراق الخمور وعفّى آثار المنكرات، ومنع الخانات[5] والخواطئ بجميع أقطار مملكته بمصر والشام؛ فطهرت البقاع من ذلك. وقال القاضي ناصر الدين أحمد بن محمد بن منصور بن أبي بكر بن قاسم بن مختار بن المنير قاضي الإسكندرية، لما وردت إليه المراسيم بالإسكندرية وعفّى متوليها أثر المحرمات :

(١) تقع هذه البلدة، وهي قارة المذكورة في ياقوت (معجم البلدان، ج ٤، ص ١٢ — ١٣)، على الطريق من دمشق إلى حمص.

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر، ص ١٥١، في Rec. Hist. Or. I) انظر (النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٩٠؛ ابن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ١٥٢، وما بعدها) حيث توجد تفاصيل كثيرة في هذا الصدد.

(٣) المقصود بمتملك سيس هنا ليون (Leon III)، المذكور في ص٢٥٢، سطر ١

(٤) فوق هذا اللفظ في س إشارة إلى عبارة أراد المقريزي استدراكها هنا، غير أنه لا يوجد بين العبارات الواردة بهامش الصفحة ما يصح أن يثبت بعد اللفظ المشار إليه، هذا فضلا عن أن كل العبارات المذكورة أدمجت في مواضعها المناسبة.

(٥) الخانات — والمفرد خانة — أماكن العيث والاستهتار (Dozy : Supp. Dict. Ar.)، وقد ترجمها (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 86) إلى (les cabarets, les lieux de débauche)

ليس لإبليس عندنا أرب * غير بلاد الأمير مأواه
حَرَمْتَهُ الخمرَ والحشيشَ معا * حَرَمْتَهُ ماءه ومرعاه

وقال أبو الحسين الجزار :

قد عُطِّل الكوب من حَبابه * وأُخْلِىَ الثغر من رِضابه
وأصبح[1] الشيخ وهو يبكى * على الذى فات من شبابه

وفيها قدم علىّ بن الخليفة المستعصم من الأسر عند التتار[2].

ومات[3] فى هذه السنة من الأعيان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ، بعد فتح صفد . وتوفى الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الرحمن بن أمين الدين أبى الغنائم[4] سالم ابن الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى التغلبى الدمشقى ، ناظر الدواوين بها ، عن تسع وستين سنة . وتوفى جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل بن عبد الكريم الموقانى المقدسى الشافعى ، المحدث الأديب .

* * *

سنة خمس وستين وستمائة . فى المحرم بعث السلطان الأمير سيف الدين بكتمر الساقى ، والأمير شهاب الدين بوزبا ، فى عدّة من العسكر ورجال جَبَلِيّة[5] . فقطعوا أقصاب الفرنج ، وعادوا إلى صفد . وفيه قدمت نجدة للفرنج من قبرس[6] ، [وعدّتها]

---

(١) توجد قبالة هذا اللفظ بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية ، ونصها مصححا : "وفيها نزل السلطان الملك الظاهر إلى القاهرة فى الليل متنكراً ، فرأى بعض الشرط وقد عرى امرأة سراويلها ولم يقدر أحد ينهاه ، فلما أصبح قبض جماعة من المقدمين والولاة وأصحاب الأرباع والخفراء ، وقطع أيدى الجميع "؛ وقد تقدم هذا كله بلفظه وترتيب عبارته فى هامش ص ١٣٩ ب من س ، وأثبت بالمتن فى موضعه (انظر ص ٥٤٠ ، سطر ٩ ، وما يليه) .

(٢) انظر ص ٥٤٩ ، حاشية ٧ .

(٣) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة فى س بين الصفحتين ١٣٤ ب ، ١٣٥ ا ، وقد وضعت هناك خطأ . انظر (النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٩ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٤ ، وما بعدها) .

(٤) فى س "الغنام".

(٥) المقصود بهذا الوصف أهل البلاد الجبلية بالشام ، مثل جبل القدس وجبل الخليل وجبل نابلس . (Quatremère : Op. Cit .1. 2. p. 38. n. 43) .

(٦) أرسل هذه النجدة تلك السنة (Hugh of Antioch, Regent of Cyprus) . انظر (King. The Knights Hospitallers In The Holy Land, p. 261) .

نحو ألف (١٤٣ ا) ومائة فارس، وأغاروا على بلد طبرية . فخرج العسكر إلى عكا ، وواقع الفرنج فقتلوا منهم كثيراً ، وانهزم الباقى إلى عكا وعمل فيها عزاء من[1] قُتل .

وفى ثانيه خرج السلطان من دمشق بعساكره إلى القَوّار [يريد الديار المصرية[2]] ، وسار منه جريدة إلى [الكرك ونزل ببركة] زَيْزَاء ، [وركب ليتصيد] فتقطّر عن فرسه فى ثامنه ، وتأخر هناك أياما حتى صلح مزاجه ، وأكثر من الإنعام على جميع عساكره وأمرائه بجميع كلفهم من غلات الكرك ، وعمّ بذلك الخواص والكتاب ، وفرّق فيهم جملا كثيرة من المال . واستدعى [السلطان] أمراء غزة وأحسن إليهم ، وطلب الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك وأعطاه ألف دينار وخلع عليه ، وسيّر الخلع إلى أهل الكرك ثم سار فى محفة على أعناق الأمراء والخواص إلى غزة ، وسار منها إلى بلبيس ، فتلقاه ابنه بركه فى ثالث صفر ومعه الأمير عز الدين الحلى ، وزيّنت القاهرة . فلم يزل [السلطان موعوكا] إلى غرة شهر ربيع الأول ، فركب الفرس وضربت البشائر لعافيته ، وسار إلى باب النصر فأقام هناك إلى خامسه . وصعد [السلطان إلى] القلعة ، وقدم عليه رسول[3] التكفور هيتوم صاحب سيس يشفع فى ولده للسلطان ، ففَكّ قيده فى ثانى عشربه وكتب له مُوَادَعَة[4] على بلاده إلى سنة ، وركب مع السلطان لرماية البندق فى بركة الجب[5] .

---

(١) بلغت خسارة الاسبتارية وحدهم فى تلك الوقعة ثلاثة وأربعين . انظر (King : Op. Cit. p. 262) .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٥٦ ، وما بعدها) .

(٣) اسم رسول هيتوم إلى السلطان بيبرس هـــذه السنة فاساك (Vassak) ، وهو أخو هيتوم المذكور . (العينى : عقد الجمان ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) .

(٤) المقصود بالموادعة المسالمة والمصالحة والمهادنة . (محيط المحيط) .

(٥) توجد قبالة هذه العبارة فى س ورقة ملصقة بين الصفحتين ١٤٢ ب ، ١٤٣ ا ، وبها نبذة تفسيرية لتاريخ مملكة هيتوم المذكور ، ونصها مصححا : "آترنا حور" (كذا) وناحور أخو إبراهيم الخليل عليه السلام ، دخلوا فى دين النصرانية قبل ظهور الملة الإسلامية . وكانت سكناهم بأرمينية ، وقاعدتها خلاط كرسى المملكة ، ويقال لملكهم تكفور . فلما ملك المسلمون أرمينية وضربوا عليهم الجزية ، ثم خربت خلاط ، انتقلوا إلى سيس وأدوا الضريبة . وأول من أعله من ملوكهم مليح بن أليون فى زمن نور الدين الشهيد ، و [قد] ملك أذنة والمصيصة وطرسوس من الروم . ثم قام بعده جماعة إلى أن ملك هيتوم هذا ، وترهب ونصب ابنه ليفون عوضه ، فكان من أمره ما ذكر ، وأسر وضربت سيس". انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٠ ، وما بعدها) .

وفى آخر ربيع الأول بعث السلطانُ الأتابكَ [فارس الدين أقطاى المستعرب[١]] ، والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين بن حنا ، لكشف مكان يعمله جامعا بالحسينية . فسارا واتفقا على مناخ الجمال السلطانية ، فلما عادا قال السلطان : " [لا والله ! لا جعلت الجامع مكان الجمال ، و] أولى ما جعلت ميدانى الذى [ألعب فيه الكرة ، — و] هو نزهتى — جامعا " . وركب [السلطان] فى ثامن ربيع الآخر ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة إلى ميدان قراقوش ، ورتّب بناءها جامعا ، وأن يكون بقية الميدان وقفا عليه[٢] . وعاد إلى المدرسة التى أنشأها بين القصرين ، وقد اجتمع بها الفقهاء والقرّاء ، فقال : " هذا مكان جعلته لله تعالى ، فإذا مِتّ لا تدفنونى هنا ، ولا وتغيّروا معالم هذا المكان " ، وصعد إلى القلعة .

وفيه وردت مكاتبة المنصور صاحب حماة ، يستأذن فى الحضور إلى مصر ليشاهد عافية السلطان ، فأجيبَ إلى ذلك وقدم فى سابع عشريه . فخرج السلطان إلى لقائه بالعباسية ، وبعث إليه وإلى من معه التشاريف ، وعاد إلى القلعة . فسأل المنصور الإذن بالمسير إلى الإسكندرية فأذن له ، وسار معه الأمير سنقرجاه الظاهرى ، وحملت له الإقامات حتى عاد .

(١٤٣ ب) وفى يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر من القاهرة ، وكانت قد بطلت منه منذ ولى قضاء مصر صدر الدين عبد الملك بن درباس ، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب[٣] . [وقد ظل كذلك] إلى أن سكن الأمير عزالدين أيدمر الحلى بجواره ، فانتزع كثيرا من أوقاف الجامع كانت مغصوبة بيد جماعة ، وتبرّع له بمال جزيل ، واستطلق له من السلطان مالا ، وعمر الواهى من أركانه وجدرانه وبيّضه وبلطه ورمّ سقوفه ، وفرشه واستجدّ به مقصورة وعمل فيه منبرا . فتنازع الناس فيه هل تصحّ

---

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠) . (٢) الجامع المقصود هنا هو الجامع الظاهرى ، ويوجد بالمقريزى (نفس المرجع والجزء ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠) ، وكذلك ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٦٠ — ١٦١) ، تفصيلات بصدده أكثرها هنا .

(٣) يرجع ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٥٦ ، وما بعدها) بتاريخ إبطال الجمعة من الجامع الأزهر إلى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، أى فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى .

إقامة الجمعة فيه أم لا ، فأجاز ذلك جماعة من الفقهاء ، ومنع منه قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وغيره . فشكى الحلىّ ذلك إلى السلطان ، فكلّم فيه قاضى القضاة فصمّم على المنع ، فعمل الحلى بفتوى من أجاز ذلك وأقام فيه الجمعة . وسأل السلطان أن يحضر فامتنع من الحضور ما لم يحضر قاضى القضاة ، فحضر الأتابك والصاحب بهاء الدين وعدّة من الأمراء والفقهاء ، ولم يحضر السلطان ولا قاضى القضاة تاج الدين . وعمل الأمير بدر الدين بيليك الخزندار بالجامع مقصورة ، ورتّب فيها مدرّسا وجماعة من الفقهاء على مذهب الشافعى ، ورتّب محدثا يسمع الحديث النبوى والرقائق[1] ، ورتب سبعة[2] لقراءة القرآن العظيم ، وعمل على ذلك أوقافا تكفيه .

وفى جمادى الآخرة وصلت رسل الدعوة بجملة من الذهب ، وقالوا : "هذا المال الذى كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين ، لينفق فى المجاهدين" . وقد كان أصحاب بيت الدعوة فيما مضى من الزمان يَقْطَعُون مصانعات[3] الملوك ، ويجبون القطيعة من الخلفاء ، ويأخذون من مملكة مصر القطيعة فى كل سنة ، فصاروا يحملون القطيعة للملك الظاهر لقيامه بالجهاد فى سبيل الله .

وفيه عمرت قلعة قاقُون[4] عوضا عن قيسارية وأرسوف ، وعمرت الكنيسة التى كانت للنصارى هناك جامعا ، وسكن هناك جماعة فصارت بلدة عامرة بالأسواق وفيه اهتم

(١) الرقائق — والمفرد رقيقة ، ويقال الرقاق أيضا ومفرده رقيق — لفظ اصطلاحى يطلق فى كتب الحديث الكبرى على باب خاص من أبواب الحديث النبوى ، وسميت أحاديث ذلك الباب بهذا الاسم لأن فيها من الوعظ والرحمة) والتنبية ما يجعل القلب رقيقا رحيما ؛ فيقال باب الرقائق ، وباب الرقاق والتسمية الثانية أكثر شيوعا . (أحمد أمين) .

(٢) فى س "سعا" .

(٣) الراجح أن المقصود بالمصانعات هنا أموال الرشوة والمداراة ، ففى محيط المحيط "صانعه مصانعة رشاه وداراه وداهنه" ، انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، حيث توجد عدّة أمثلة لاستعمال فعل "صانع" بهذا المعنى ، ومنها : "صانعهم أهلها بعشرين ألف دينار" .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى حصن بفلسطين قرب الرملة (ياقوت معجم البلدان ، ج ٤ ، س ١٨) ، واسمها فى الحوليات الصليبية (Caco, Chaco, Quaquo) . انظر (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 475)

السلطان باستخراج الزكاة من سائر الجهات : فاستخرج من بلاد المغرب زكاة مواشيهم وزكاة زروعهم ، واستخرج من جهات سواكن وجزائرها الزكاة . وبعث [السلطان] إلى الحجاز الأمير شكال بن محمد ، فطلب المداد من الأمير جماز أمير المدينة النبوية ، فدافعه فمضى إلى بنى خالد يستعين بهم على عرب جماز ، ثم (١٤٤ ا) خاف و بعث إلى السلطان يطلب إرسال من يستخلفه على استخراج حقوق الله .

وفى سابع عشريه توجه السلطان فى جماعة من أمرائه إلى الشام ، وترك أكثر العساكر [بالديار المصرية[1]] . و [كان] معه المنصور صاحب حماة ، فنزل [السلطان] غزة ، ومضى صاحب حماة إلى مملكته بعد زيارة القدس فقدمت رسل الفرنج على السلطان بغزة ، ومعهم الهدايا وعدة من أسرى المسلمين ، فكسا الأسرى وأطلقهم . ورحل [السلطان] إلى صفد ، فورد الخبر [عليه هناك] بتوجه التتار إلى الرحبة ، فسار إلى دمشق [مسرعا] فدخلها فى رابع عشر رجب . وجاء الخبر بقدوم التتار إلى الرحبة ، وأن أهلها قتلوا وأسروا منهم كثيرا وهزموهم ، فأقام بدمشق خمسة أيام ، وعاد إلى صفد فى رابع عشريه . [ورتب السلطان أمر عمارة صفد] ، وقسم خندقها على الأمراء ، وأخذ لنفسه نصيبا وافرا عمل فيه بنفسه ، فتبعه الأمراء والناس فى العمل ونقل الحجارة ورمى التراب وصاروا يتسابقون . فوردت عليه رسل الفرنج يطلبون الصلح ، فرأوا الاهتمام فى العمارة .

ثم إنه [بلغه فى بعض تلك الأيام أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة وتبقى ظاهرها إلى ضحوة ، فسرى ليلة ببعض عسكره و] أمر بالركوب خفية[2] فركب وقد اطمأن الفرنج ، فلم يشعروا به إلا وهو على باب عكا ؛ ووضع السيف فى الفرنج ، وصارت الرءوس

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة والتى تليها من العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٤ ، فى (Rec. Hist. Or. II. 1.

(٢) كان مما فعله السلطان لإخفاء هذه السرية ، التى كانت مكونة من فرقتين من الخيالة ، أنه ألبس عسكر إحداها ملابس الفرسان الاسبتار ، والثانية ملابس فرسان الداوية (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 262).

تحمل إليه من كل جهة . وكان الحرّ ، فعملت عباءة على رمح ليستظل بها ، وبات تلك الليلة وأصبح على حاله ، ثم عاد إلى صفد . وقدمت رسل سيس بالهدية ، فرأوا رسل الفرنج ورأوا رءوس القتلى على الرماح . وقدمت الأسرى من هذه الغارة فضرب أعناقهم ، وطلب [السلطان] رسل الفرنج وقال لهم : "هذه الغارة فى مقابلة غارتكم على بلاد الشقيف" ؛ وردّهم من غير إجابتهم إلى الصلح .

ثم ركب [السلطان] فى حادى عشرى شعبان وساق من صفد إلى عكا ، فما علم به الفرنج حتى وقف على أبوابها : فقسّم البنائين والحجارين والناس على البساتين والأبنية والآبار لهدمها ، فاقتسموا ذلك وشرعوا فى الهدم وقطع الأشجار . وعمل [السلطان] اليزك بنفسه على باب عكا ، وصار واقفا على فرسه وبيده رمح مدّة أربعة أيام ، حتى تكامل الإحراق والهدم وقطع الأشجار . ثم رجع إلى صفد ، فوردت رسل سيس ورسل بيروت(١) فأجيبوا عن مقاصدهم .

وفى شهر رمضان وردت رسل صور(٢) يطلبون استمرار الهدنة ، فأجيبوا إلى الصلح ، وكتبت هدنة لمدّة عشر سنين لصور وبلادها — وهى مائة قرية إلا قرية — ، بعد ما أحضروا دية السابق شاهين(٣) الذى قتلوه لأولاده ، — وهى خمسه عشر ألف دينار صورية ، قاموا بنصفها وأمهلوا بالباقى — وأحضروا [أيضا] عدّة أسرى مغاربة(٤) . وقدمت

(١) أى رسل بيروت تلك السنة من قبل صاحبتها الأميرة (Isabel d'Ibelin) ، وكان سبب مجيئهم حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٥ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، أن أخا هذه الأميرة كان "قد غدر بمركب الأتابك ، فيه جماعة من التجار كانوا متوجهين إلى قبرس ، فطالبهم السلطان بمال التجار . فالتزموا به والتزموا إطلاق التجار ، وتقرر الصلح". انظر King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 262) ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) .

(٢) كان صاحب صور تلك السنة (Philip de Montfort) . انظر(King : Op. Cit. p. 262) .

(٣) كان السابق شاهين المذكور غلاما للسلطان بيبرس ، وكان قد قتل فى صور ، فاشترط السلطان لأجل استمرار الهدنة أن تدفع صورديه لأولاد القتيل ، كما ورد بالمتن . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ٩١) .

(٤) فى س"مغاونة"، والصيغة المثبتة هنا من (Quatremère : Op. Cit. 2. p. 42) . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) ، حيث ورد هذا اللفظ برسم "المغازية".

(١٤٤ ب) رسل بيت الإسبتار من الفرنج يطلبون الصلح على حصن الأكراد والمرقب ، فأجيبوا وتقررت المدنة لعشر سنين وعشرة أشهر [وعشرة[١] أيام] وعشر ساعات ؛ وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وعن حماة وشيزر وأفامية وعن أبى قبيس[٢]، وقد تقدم ذلك ؛ وبطل أيضا ما كان على عَيْناب[٣]، وهو خمسمائة دينار صورية وعن كل فدان مكوكان غلة وستة دراهم .

وقدم الشريف بدر الدين ملك بن منيف بن شيحة من المدينة النبوية يشكو من الشريف جماز أمير المدينة ، وأن الإمرة كانت نصفين بين أبيه ووالده جماز . فكُتب لجماز أن يسلمه نصف الإمرة ، وكُتب له تقليد بذلك وبنصف أوقاف المدينة النبوية التى بالشام ومصر وسُلّمت إليه ؛ فامتثل جماز ما رُسم به .

وفى ذى الحجة نَزَحت بئر السقاية التى بالقدس حتى اشتد عطش الناس بها ، فنزل شخص إلى البئر فإذا قناة مسدودة ، فأعلمَ الأميرَ علاء الدين الحاج الركنى نائب القدس . فأحضر [الأمير] بنائين وكشف البناء ، فأفضى بهم فى قناة إلى تحت الصخرة ، فوجدوا هناك باباً مقنطرا قد سُدّ ، ففتحوه فخرج منه ماء كاد يغرقهم . فكُتب بذلك إلى السلطان ، وأنه لما نقص ماء السقاية دخل الصناع فوجدوا سداً نقب فيه الحجارون قدر عشرين يوما ، ووُجد سقف مُقَلْفَط[٤] فنُقب فيه قدر مائة وعشرين ذراعا بالعَمَل[٥]، فخرج الماء وملأ القناة .

(١) ليس لما بين القوسين وجود فى س ، ولكنه فى ب (١٧١ أ) ، وفى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ س ٩١) .

(٢) فى س "بوقبيس" .

(٣) كذا فى س بهذا الضبط والنقط ، وهى فى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ س ٩١) "عناب"، ولعلها عينتاب المعروفة ، وقد رجحها (Quatremére :: Op. Cit. I. 2· p. 42) إلى ذلك .

(٤) هذا اللفظ اسم مفعول من قلفط ، وهو تحريف فعل جلفط ، ومعناه سدّ دروز ألواح السفينة بالخيوط أو بالخرق والقير ، وتسمى المواد المستعملة لهذا الغرض باسم الجلفاط أو الجلنفاط . (محيط المحيط) ومن فعل قلفط — أو جلفط — أخذ الفعل الفرنسى (calfater) ومعناه سدّ .(Quatremère . Op. Cit. I, 2. p. 43 n. 51)

(٥) المقصود بذلك الذراع المعمارى ، الذى تقاس به أرض البنيان من الدور وغيرها ، وقياسه ثلاثة أشبار بشبر الرجل المعتدل ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٦) .

وفى هذه السنة أنشأ السلطان قنطرة على بحر أبى المنجا بناحية بيسوس[1] ، وتولى عملها الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، فجاءت من أعظم القناطر . وفيها أنشأ السلطان القصر الأبلق بدمشق بالميدان[2] الأخضر [على نهر بَرَدَى] ، فتولى عمل ذلك الأمير أقوش النجيبى نائب دمشق ، فعمره بالرخام الأبيض والأسود ، و [جعل] جانبا عظيما [منه] تحفة به البساتين والأنهار من كل ناحية ، ولم يعمل بدمشق قبله مثله . وما زال عامرا تنزله الملوك ، إلى أن هدمه تيمورلنك فى سنة ثلاث وثمانمائة ، عند حريق دمشق وخرابها .

وفيها جلس منكوتمر[3] بن طغان بن باتوقان بن دوشى خان بن جنكزخان على كرسى مملكة القفجاق بمدينة صَرَاى ، عوضا عن الملك بركه[4] خان بن دوشى خان ابن جنكزخان ، بعد وفاته [هذه السنة[5]] . وكان بركه خان قد مال إلى دين الإسلام ، وهو أعظم ملوك الططر ، وكرسى مملكته مدينة صراى .

وفيها[6] مات قاضى القضاة تاج الدين [أبو محمد] عبد الوهاب بن خلف [بن أبى القاسم] العلامى [الشافعى] ، المعروف بابن بنت الأعز ، فى سابع عشرى شهر رجب ،

---

(١) كذا فى س ، وهى قرية صغيرة بمديرية القليوبية الحالية ، وموقعها على الشاطىء الشرقى لفرع دمياط ، وكانت من مراكز الطير المرتبة من القاهرة إلى دمياط ، واسمها الحالى باسوس . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ٢٥) .

(٢) فى س "والميدان" ، وقد عدل هذا اللفظ بحرف الجر ، وأضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Damascus ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، س ٤٠) .

(٣) انظر الحاشية التالية .

(٤) فى س ، وفى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، س ١٥٢ ، فى Rec. Hist. Or. I) "بركه خان ابن صاين خان بن دوشى خان ..." . انظر (Enc. Isl. Art. Berke) ، حيث جاء أيضا أن بركه خان توفى ولم يترك ولدا ، فآل ملكه إلى منكوتمر (Mongke-Timur) المذكور هنا ، وهو ابن أخيه باطوخان .

(٥) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Berke) .

(٦) هذه الوفاة مكررة فيما يلى ، (انظر الصفحة التالية ، حاشية ٣) ، وقد اضيف ما بين الأقواس مما جاء بالرواية الثانية من الزيادات .

[عن إحدى وخمسين سنة[1]]. فولى قضاء القاهرة والوجه البحرى تقى الدين محمد بن الحسين ابن رزين الشافعى ، وولى قضاء مصر محيى الدين عبد الله بن شرف الدين محمد بن عبد الله ابن الحسن بن عبد الله بن على بن صدقة بن حفص ، المعروف بابن عين الدولة ، فى يوم الخميس تاسع شعبان ، بمرسوم ورد عليه عقيب وفاة تاج الدين ابن بنت الأعز، بأن يتولى قضاء مصر والوجه القبلى . وفيها حج الأمير الحلى ، وتصدق بمال بعثه به السلطانُ الملك الظاهر ، وحج الصاحب محيى الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنا .

ومات[2] فى هذه السنة الأمير ناصر الدين حسين بن عزيز القيمرى ، نائب السلطنة بالساحل[3] . وتوفى شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان — المعروف بأبى شامة — المقدسى الشافعى ، بدمشق عن ست وستين سنة[4] .



(١٤٠ ا) سنة ست وستين وستمائة . فى صفر وردت الزكاة والعشر من المدينة النبوية ، وعدّتها مائة وثمانون جملا ومبلغ عشرة آلاف درهم ، فاستقل السلطان ذلك

---

(١) توجد بالنويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٢ ، وما بعدها) ترجمة وافية للقاضى ابن بنت الأعز ، ومنها أن "العلامى" نسبة إلى قبيلة بنى علامة وهى بطن من لخم ، وأنه اشتهر باسم "ابن بنت الأعز" نسبة إلى جده لأمه ، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام بن القاضى كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر ، أحد وزراء السلطان الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب .

(٢) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٤٤ ب ، ١٤٥ ا ، وليس ثمت شك فى مناسبتها هنا . (انظر النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٢ ، وما بعدها ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٧ ، وما بعدها) .

(٣) يلى هذا فى س ذكر وفاة قاضى القضاة ابن بنت الأعز ، التى سبق ذكرها أول وفيات هذه السنة ، (انظر ص٥٦١ ، سطر ١١) ، ونص هذه الرواية الثانية مصححا كالآتى : "وتوفى قاضى القضاة تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن خلف بن أبى القاسم ابن بنت الأعز العلامى الشافعى فى ليلة الأحد ثامن عشرى رجب عن إحدى وخمسين سنة" .

(٤) توجد فى آخر (Rec Hist. Or. V. p. 207 et seq.) ترجمة طويلة لشهاب الدين أبى شامة ، وهو مؤلف كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية المتداول هنا بالحواشى ، وقد عرف بأبى شامة لأنه كان فوق حاجبه الأيسر شامة كبيرة .

وأس بردّه . فورد بنو صخر وبنو لام وبنو[1] عنزة من عرب الحجاز ، والتزموا بزكاة الغنم والإبل ، فبعث السلطان معهم شادين لاستخراج ذلك . وفيه قُسّمت عمارة صفد على الأمراء ، وأخذ السلطان لنفسه نصيبا وافرا ، وأقيم فى عمارة القلعة وأبراجها الأمير سيف الدين الزيفى . وعُمِل لها أبواب سرّ إلى الخندق ، فلما كملت كتب على أسوارها : "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أمَرَ بتجديد هذه القلعة وتحصينها ، وتكميل عمارتها وتحسينها ، بعد ما خلّصها من أسر الفرنج اللاعين ، وردّها إلى يد المسلمين ، ونقلها من حوزة الديوية إلى حوزة المؤمنين ، وأعادها إلى الإيمان كما بدأ بها أول مرّة ، وجعلها للكفار خسارة وحسرة ، واجتهد وجاهد حتى بدّل الكفر بالإيمان والناقوس بالأذان والإنجيل بالقرآن ، ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه بنفسه وبخواصه على الرءوس ، السلطان الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس . فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الإسلام ، ومن سكنها من المجاهدين ، فليجعل له نصيبا من أجره ، ولا يُخْلِه من الترحّم فى سرّه وجهره . فقد صار يقال عمر الله صرحها ، بعد ما كان يقال عجل الله فتحها ، والعاقبة للمتقين إلى يوم الدين" .

وفيه كتب [السلطان] إلى الملك منكوتمر القائم مقام الملك بركه ، بالتعزية والإغراء بولد هولاكو . وفيه رسم [السلطان] بعمارة مسجد الخليل عليه السلام ، فتوجه الأمير جمال الدين ابن نهار لعمل ذلك ، حتى أنهى عمارته . وفيه سار السلطان من صفد إلى القاهرة ، فدخل قلعة الجبل سالما فى ......[2] . وقدمت رسل [السلطان المظفر شمس الدين يوسف[3] ابن عمر بن رسول ملك] اليمن ، بعشرين فرسا عليها لامة الحرب ، وفيلة وحمارة وحش عتابية اللون وعدّة تحف وطرف . فجُهِّزت له خلعة وسنجق ، وهدية فيها قميص من ملابس السلطان كان قد سأل فيه ليكون له أمانا ؛ وسُيِّر [إليه] أيضا جوشن[4] وغيره من آلة

(١) فى س "بنو" ، فى الأحوال الثلاث . (٢) بياض فى س .

(٣) انظر ص ٥٤٣ ، حاشية ٣ .

(٤) الجوشن هنا الدرع (محيط المحيط) ، ويقابله فى الفرنسية لفظ (cuirasse) . انظر (Quatremère : Op. Cit. I, 2, p. 49) .

الحروب ، وقيل له : "قد سيّرنا إليك آلة السلم وآلة الحرب مما لاصق جسدنا فى مواطن الجهاد" ، وكُتب له : "المقام العالى (١) المولوى السلطانى" ، وكَتب له السلطان بخطه "المملوك (٢)" .

وفيه اجتاز السلطان (١٤٥ ب) على السَّدِيْر (٣) قرب العباسة ، فأعجبه فاختار منه مكانا بنى فيه قرية سماها الظاهرية ، وعمر بها جامعا . و بينا هو فى الصيد [هناك] إذ بلغه حركة التتار على حلب ، فعاد إلى القلعة وأمر بخروج الخيام ، فلم يعجبه خيام جماعة فأدّبهم وجزمهم . وخرج البريد إلى الشام بتجهيز العساكر ، فلما خرجوا وساروا إلى بانياس أخرج البريدى كتبا مختومة باسم الأمير علم الدين الحصنى والأمير بدر الدين الأتابكى ، وفيها منازلتهم الشقيف ؛ فلم يشعر الفرنج إلا بالعساكر على قلعة الشقيف .

وسار السلطان من مخيمه بباب النصر فى ثالث جمادى الآخرة إلى غزة ، فبلغه عن جماعة من الجمالين أنهم تعرّضوا إلى زرع فقطع أنوفهم ، و بلغه عن الأمير علم الدين سنجر الحموى أنه ساق فى زرع ، فأنزله عن فرسه وأعطاه بما عليه من السرج واللجام لصاحب الزرع . ثم رحل (٤) [السلطان] إلى العوجاء .

فلما كان يوم العشرين منه ساق السلطان من العوجاء إلى يافا ، وحاصرها حتى ملكها من يومه ، وأخذ قلعتها وأخرج من كان فيها ، وهدمها كلها وجمع أخشابها ورخامها

(١) يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٤٥ — ٣٧٠) خمس صيغ لافتتاح المكاتبات الصادرة من سلاطين المماليك بمصر إلى ملوك بنى رسول باليمن ، ومنها الصيغة الواردة هنا بالمتن ، وكلها تدل بوجه عام على أن ملوك بنى رسول كانوا غالبا فى المرتبة الثالثة من كبار ملوك الدول الإسلامية . ويوضح ذلك ما جاء فى القلقشندى (نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢٦) فى باب ألقاب المكتوب إليهم من الملوك عن الأبواب السلطانية ، ونصه : "الطبقة الأولى مايصدر بالمقام ، وأعلاها المقام الأشرف .... ودونه المقام العالى ...." . انظر أيضا ص ٤٠٣ ، حاشية ١ .

(٢) جرى المصطلح فى دولة المماليك أن ينعت السلطان نفسه بهذا اللفظ فى المكاتبات الصادرة منه إلى الملوك الكبار . انظر (القلقشندى : نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ٣٠٤ ؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 49 n. 58)

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو واد بين العباسة والخشبى ، وكانت تنصب فيه فضلات مياه النيل إذا زاد ، فيصير غيضة ذات مستنقعات . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦١ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٦) .

(٤) فى س "ورحل" .

وحمله فى البحر إلى القاهرة . فعُمل من الخشب مقصورة الجامع الظاهرى بالحسينية ، ومن الرخام محرابه . وأمر [السلطان بيناء الجوامع بتلك البلاد ، وأزال منها ومن [قرية](١) لُدّ المنكرات ، ورتّب الخفراء على السواحل وألزمهم بدركها . ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يخلط بغيره ، وجعله لمأكله ومشربه . وأعطى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس منها قرية ، وأعطى الأمير علم الدين سنجر الحموى قرية ، [و] ملّكهما إياها . وأنزل التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها ، وقرّر عليهم خيلا وعدة ، فتجدّد له عسكر بغير كلفة . وفيه رسم بتجديد عمارة الخليل عليه السلام ، ورسم أن يكون عمل الخوان الذى يَمُدّ ناحيةً عن مسجد الخليل .

وجهز [السلطان] عسكرا إلى الشقيف ، ثم سار إليها بنفسه فنزل عليها فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب(٣) ، وقَدِم الفقهاء والفقراء للجهاد . ونصب [السلطان] عليها ستة وعشرين منجنيقا ، وألح عليها حتى أخذها يوم الأحد سلخ رجب ، وأخرج منها نساء

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية قرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٥٤) .

(٢) فى س "عد ناحيه" ، والمقصود بذلك أن يكون مكان إقامة الخوان بعيدا عن الحرم . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص٩٢) ، حيث العبارة فى هذا الصدد كالآتى : "وعمل مكان الخوان ناحية عن الحرم" .

(٣) يوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٦٤ ، وما بعدها) تفصيل لحيلة توسل بها السلطان للاستيلاء على الشقيف ، ونصه : "رحل [السلطان] ...... طالبا للشقيف ، فنزل عليها يوم الثلاثاء ثامن عشر رجب ، فوقع على كتاب من جهة الفرنج الذين بعكا يتضمن إعلام النواب بالشقيفين [أن] المسلمين لا يقدرون على أخذ الحصن إن احتفظتم به ، فجدوا فى أمركم . فلما اطلع السلطان على ذلك انفتح له باب فى أخذه ، فاستدعى من يكتب بالفرنجى وأمره أن يكتب كتابا يذكر فيه أمارات بينهم وبين أهل عكا استفادها من الكتاب الذى وقع له ، ويحذر المسكندور (كذا ، والمتواتر لفظ السكندور ، وهو معرب اللفظ الفرنسى commandeur ، أى المقدم) المقيم بالشقيف من (١٦٥) الوزير [كليام] المقيم عنده ومن جماعة كانت أسماؤهم فى الكتاب ، وكتابا آخر للوزير [كليام] يحذره من المسكندور ، ويأمره إن احتاج إلى مال [أن] يأخذه من ملك كان اسمه فى الكتاب ، وأوصل الكتب إليها بحيلة . فلما وقف أهل الشقيف على الكتب وقع الخلف بينهم مع شدة الحصار الذى كانوا فيه ، فألجأهم الخلف بينهم إلى أن سيروا إلى السلطان الملك الظاهر وقرروا معه تسليم الحصن ، على ألا يقتلوا من فيه . فتسلم [السلطان] الحصن فى تاسع وعشرين [من] رجب ، وكان قد ملكه الباشورة بالسيف ، واصطنع المسكندور . وكان عدة من بالحصن أربعمائة وثمانين مقاتلا ، فركبهم الجمال إلى صور ، وبعث معهم من يحتفظ بهم" . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٢ — ٩٣) .

الفرنج وأولادهم إلى صور ، وقيّد الرجال كلهم وسلّمهم للعساكر . وهدم [السلطان] قلعة استجدّها الفرنج [هناك] ، واستناب على القلعة الأخرى الأمير صارم الدين قايماز الكافرى ، ورتّب بها الأجناد والرجالة ، وقرّر فيها قاضيا[1] وخطيبا ، وولى أمر عمارتها الأمير سيف الدين بلبان الزينى وفيه وردت كتب من (١١٦٤) الكرج[2] .

وفى شعبان وصل رسول صاحب بيروت بهدية وتجار كانوا قد أخذوهم فى البحر من سنين ، فما زال السلطان حتى خلّصهم وخلّص أموالهم[3] .

وفى عاشره رحل السلطان من الشقيف إلى قرب بانياس ، و بعث الأثقال إلى دمشق . وجهّز الأمير عز الدين أوغان بجماعة لجهة ، وجهز الأمير بدر الدين الأيدمرى فى جماعة إلى جهة أخرى ، فحفظت العساكر الطرقات .

ثم سار [السلطان] إلى طرابلس وخيّم عليها فى النصف منه ، وناوش أهلها القتال وأخذ برجا كان هناك ، وضرب أعناق من كان من الفرنج[4] . وأغارت العساكر على من فى تلك الجبال ، وغنموا شيئا كثيرا وأخذوا عدة مغاير بالسيف ، وأحضروا الغنائم والأسرى إلى السلطان فضرب أعناق الأسرى ، وقطع الأشجار وهدم الكنائس ، وقسّم الغنائم فى العسكر .

ودخل [السلطان عن طرابلس[5]] فى رابع عشريه ، فتلقّاه صاحب صافيتا وأنطرسوس بالخدمة ، وأحضر ثلاثمائة أسير كانوا عنده ، فشكره السلطان ولم يتعرض لبلاده . ونزل [السلطان] على حمص ، وأمر بإبطال الخمر والمنكرات . ثم دخل إلى حماة ولا يعرف أحد

(١) فى س "قاضى" . (٢) انظر ص٥٢٧ ، حاشية ١ . (٣) انظر ص٥٥٩ ، حاشية ١ .

(٤) اقتصرت حركات جيوش السلطان هنا على مهاجمة البلاد المحيطة بطرابلس ، ولم يستطع الأمير بيموند السادس (Bohemond. VI) ، وهو صاحب طرابلس وأنطاكية ، أن يوجه أى مقاومة ضد السلطان الظاهر بيبرس . راجع (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 263) . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٣ — ٩٤) ، حيث توجد فى هذا الصدد تفصيلات كثيرة .

(٥) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٤) . ويلاحظ أن عبارة السلوك هنا ، وفيما سبق من أخبار إغارات السلطان بيبرس على المدن الصليبية ، مشابه تماما لما يقابلها فى نهاية الأرب .

أى جهة يقصد ، فرتّب العسكر ثلاث فرق : فرقة صحبة الأمير بدر الدين الخازندار ، وفرقة مع الأمير عز الدين إيغان ، وفرقة مع السلطان . فتوجه الخازندار إلى السُّوَيْدِيَّة[1] ، وتوجه إيغان إلى درب بساك ، فقتلوا وأسروا . ونزل السلطان أفامية ، ووافاه الجميع على أنطاكية .

وأصبح أول شهر رمضان والسلطان مغير على أنطاكية[2] ، وأطافت العساكر بها من كل جانب ، فتكملوا بخيامهم فى ثالثه . وبعث [السلطان] إلى الفرنج يدعوهم وينذرهم بالزحف عليهم ، [وفاوضهم فى ذلك[3]] مدّة ثلاثة أيام وهم لا يجيبون ، فزحف عليها وقاتل أهلها قتالا شديدا . وتسور المسلمون الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة ، ونزلوا المدينة ففرّ أهلها إلى القلعة ، ووقع النهب والقتل والأسر فى المدينة ، فلم يُرْفع السيف عن أحد من الرجال وكان بها فوق المائة ألف . وأحاط الأمراء بأبواب المدينة حتى لا يفرّ منها أحد ، واجتمع بالقلعة من المقاتلة ثمانية آلاف سوى النساء والأولاد ، فبعثوا يطلبون الأمان فأمّنوا . وصعد السلطان إليهم ومعه الحبال ، فكتّفوا وفرّقوا على الأمراء ، والكتّاب بين يدى السلطان ينزلون الأسماء .

وكانت أنطاكية للبرنس بيموند بن بيموند ، وله معها طرابلس ، وهو مقيم بطرابلس . وكتبت البشائر بالفتح إلى الأقطار [الشامية والمصرية والفرنجية ، وفى الجملة كتاب[4] إلى صاحب أنطاكية — وهو يومئذ مقيم بطرابلس — وهو من إنشاء ابن عبد الظاهر رحمه الله تعالى] .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى حصن وميناء لأنطاكية ، واسمها فى الحوليات الصليبية (Port Simon, Le Soudin) . راجع (Le Strange : Palest Under Moslems. p. 540) .

(٢) فى س "وأصبح أول رمضان مغيرا عليها" ، وعدلت الجملة على النحو المثبت هنا من أجل البدء فى فقرة جديدة .

(٣) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٤) ، حيث وردت تلك الأخبار بتفصيل .

(٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبى الفضائل : (كتاب النهج السديد ، ص١٦٧) . ويوجد بهذا المرجع (ص ١٦٧ ، وما بعدها) ، وكذلك بالعينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٩ ، وما بعدها ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، والنويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٤ ، وما بعدها) ، نص الكتاب المرسل إلى صاحب أنطاكية ، ومن هذا المرجع الثالث نقله وترجمه إلى الفرنسية : (Quatremére Op. Cit. I, 2. p. 190 et seq) . ولهذا الكتاب ترجمة باللغة الألمانية فى (Weil : Geschichte der chaliphen. IV pp. 68 - 67) ، وأخرى بالإنجليزية فى (Yule : Marco Polo. I. P. 2. 5) راجع (Lane - Poole : A. Hist of Egypt In The Middle Ages. p. 269. n. I) ، وانظر النص العربى لهذا الكتاب فى ملحق رقم ٢ ، فى آخر هذا الجزء .

وسلم السلطان القلعة إلى (١٤٦ ب) الأمير بدر الدين بيليك الخازندار والأمير [بدر الدين] بيسرى [الشمسى[1]] ، وأمر بإحضار المغانم لتقسّم ، وركب وأبعدَ عن الخيام وحمل ما غنمه وما غنمته مماليكه وخواصه ، وقال : "والله ماخبأت شيئا مما حمل إلىّ ولا خلّيت مماليكى يخبئون شيئا ، ولقد بلغنى أن غلاما لأحد مماليكى خبأ شيئا لا قيمة له فأدّبته الأدب البالغ ، وينبغى لكل أحد منكم أن يخلّص ذمته ، وأنا أحلّف الأمراء والمقدمين ، وهم يحلّفون أجنادهم ومضافيهم" . فأحضر الناس الأموال والمصاغ الذهب والفضة حتى صارت تلالا بها ، وقسّمت فى الناس ، وطال الوزن فقسّمت النقود بالطاسات . وقسّمت الغلمان على الناس ، فلم يبق غلام إلا وله غلام ، وتقاسم النساء والبنات والأطفال ، وأبيع الصغير باثنى عشر درهما والجارية بخمسة دراهم . وأقام السلطان يومين وهو يباشر القسمة بنفسه ، وقصّر الناس فى إحضار الغنائم فعاد [السلطان] مغضبا ، فلم تزل الأمراء به يلتزمون بالاجتهاد والاحتراز ويعتذرون إليه ، حتى وقف على فرسه وما ترك شيئا حتى قسّمه .

ثم ركب [السلطان] إلى القلعة وأحرقها ، وعم بالحريق أنطاكية ، فأخذ الناس من حديد أبوابها ورصاص كنائسها ما لا يوصف كثرة . وأقيمت الأسواق خارج المدينة ، فقدم التجار من كل جهة . وكان بالقرب من أنطاكية عدة حصون ، فطلب أهلها الأمان ، فتوجّه إليهم الأمير بيليك الأشرفى [و] تسلمها فى حادى عشره ، وأسر من فيها من الرجال .

وكان التكفور[2] [هيتوم] ملك سيس لم يزل يسأل فى إطلاق ولده ليفون ، ويعرض فى فدائه الأموال والقلاع . وكان التتر قد أسروا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من حلب ، لما ملكوها من الملك الناصر ، فاقترح السلطان على ملك سيس إحضار سنقر عوضا عن ولده ، وردّ القلاع التى أخذها من مملكة حلب ، [وهى بَهَسْنا[3] ودَرْبَسَاك ومَرْزَبان ورَعْبَان

(١) كل هذا الاسم من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٦)

(٢) فى س "تكفور ملك سيس" .

(٣) أضيف مابين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٠٢ ، فى Rec. Hist. Or. I.) وضبط من ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٧٠ ؛ ج ٢ ، ص ٦٤٧ ، ٧٩١ ؛ ج ٣ ، ص ٩٥) .

وشيح الحديد[١]] ؛ فسأل [هيتوم] المهلة سنة إلى أن يبعث إلى الأردو[٢]. فلما كان في هذه الأيام ، بعث [هيتوم] إلى السلطان بأنه وجد سنقر ، و [أنه] أجيب إلى إطلاقه ، فكتب إليه بإحضاره . فأحضر [هيتوم] كتاب سنقر إلى السلطان بأماير[٣] ، إلا أنه غيّر قوله في تسليم القلاع ، فكُتب إليه . "إذا كنت تقسو على ولدك وولي عهدك ، فأنا أقسو على صديق ما بيني و بينه نسب ، ويكون الرجوع منك لا مني . ونحن خلف[٤] كتابنا ، فهما شئت[٥] افعل بسنقر الأشقر" . فلما وصلت إليه الكتب من أنطاكية خاف ، وتقرّر الصلح على تسليم قلعة بهسنا[٦] ودربساك (٥١٤٠ ا) وكل ما أخذه من بلاد الإسلام ، وأن يردّ الجميع بحواصلها كما تسلمها ، و يطلق سنقر الأشقر ، ويطلق السلطان ولده وابن أخيه وغلمانهما ، وأنه يحضر رهينة حتى يتسلم السلطان القلاع ؛ فكتبت الهدنة بأنطاكية . وتوجه الأمير بلبان الرومي الدوادار ، والصدر فتح الدين بن القيسراني كاتب الدرج ، لاستحلافه . وتوجه الأمير بدر الدين بجكا الرومي لإحضار الملك ليفون من مصر على البريد في ليلة الثالث عشر من رمضان ، فوصل إلى القاهرة وخرج منها ثاني يوم دخوله بالملك ليفون ، فوصل إلى دمشق ليلة الاثنين سادس عشريه ، فكان بين خروجه من أنطاكية وعوده إلى دمشق ثلاثة عشر يوما . وحلف التكفور هيتوم صاحب سيس في سابع عشريه ، فانتظم الصلح[٧] .

---

(١) سمى العيني (عقد الجمان ، ص ٢٣٥ ، في Rec Hist. Or. II. 1) هذا البلد باسم "شيح الحديد" .

(٢) الأردو لفظ مغولي معناه المعسكر ، وقد استعمل في المراجع العربية والفارسية في هذا العصر للدلالة على معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس ، (le campement impérial du souverain des Mongolsde l' Iran) ، انظر ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، ٢٤٠ ، ٣٧٣) .

(٣) الأماير جمع أمارة بفتح الهمزة ، ومعناها العلامة المكتوبة أو الشفوية التي تتخذها الجهات الرسمية وغيرها عثابة علامة سرية متفق عليها ، للاطمئنان على صحة ما يتبادل من مراسلات أو مشافهات بين طرفين . وترجم (Quatremère Op. Cit. I. 2 P. 55) العبارة كلها إلى الصيغة التالية :- (En même temps, Bibars recut de cette écrite en chiffres).

(٤) في س "حلف" .

(٥) في س "سيت" .

(٦) بغير ضبط في س ، وهي قلعة بين مرعش وسميساط . (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٧٠) .

(٧) انظر ما يلي ص ٥٧٠ ، سطر ٥ .

ورحل السلطان من أنطاكية إلى شيزر ، وسار منها على البرّية إلى حمص وهو يتصيد ، فدخل حماة فى ثلاثة نفر : وهم الأمير بيسرى ، والأمير بدر الدين الخازندار ، والأمير حسام الدين الدوادار ؛ ونزل العسكر حماة . ثم سار السلطان من حمص إلى دمشق ، فدخلها فى سادس عشريه ، والأسرى بين يديه و [ليفون[1] ابن] صاحب سيس فى خدمته ، فأحسن إليه . وحلف [ليفون] للسلطان فى ثالث شوّال على النسخة التى حلف عليها أبوه ، وهو قائم مكشوف الرأس ؛ وسار إلى بلاده فى حادى عشره صحبة الأمير بجكا على البريد ، حتى قرّره فى مملكته . ووصلت الرهائن فأحسن السلطان إليهم وأكرمهم ، ولم يزالوا إلى أن تسلم نوّاب السلطان القلاع من أهل سيس ، فأعيدت الرهائن إليهم بما أنعم عليهم . وعند ما وصل ليفون إلى سيس أطلق سنقر الأشقر ، وبعث به إلى السلطان . فتلقّاه [السلطان] وهو فى الصيد من غير أن يعرف أحد بقدومه ، وقدم به وهو مختف وأنزله عنده فى الدهليز ، وبات معه . فلما أصبح ، واجتمع الناس فى الخدمة ، خرج السلطان ومعه سنقر الأشقر ، فبهت الناس لرؤيته . وأخرج له السلطان المال والخلع والحوائص ، والخيل والبغال والجمال والمماليك ، وسائر ما يحتاج إليه . وحمل إليه الأمراء التقادم ، وبالغ [السلطان] فى الإحسان إليه ، وبنى له دارا بقلعة الجبل . ولما حضر [سنقر] إلى القاهرة أعطاه [السلطان] إمرة ، وعمله من خواصه .

وفى ثالث عشره تسلّم الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى أستادار السلطان حصن بغراس من الفرنج [الداوية[2]] و [كانوا] قد فرّوا عنها [وتركوا الحصن[3] خاليا] حتى لم يبق بها سوى عجوز واحدة ، فوجدها [الأمير شمس الدين] عامرة بالحواصل والذخائر .

(١) انظر ما يلى بالسطر التالى ، وسطر ٩ أيضا .

(٢) أضيف ما بين القوسين من العينى (عقد الجمان ، ص ٢٤٣ ، فى (Rec. Hist. Or. II. 1.

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٠٢ ، فى (Rec. Hist. Or. I.

وفيه وردت رسل [صاحب[1]] عكا بهدية ، فحصل الاتفاق على أن تكون حيفا للفرنج ولها ثلاث ضياع ، وأن تكون (١٤٧ ب) مدينة عكا و بقية بلادها مناصفة وعلى و بلاد الكرمل[2] ، وأن بلاد صيدا الوطاة للفرنج والجبليات للسلطان ، وأن المدنة لعشر سنين ، وأن الرهائن تطلق . و بعث السلطان لصاحب عكا هدية فيها عشرون[3] نفساً من أسرى أنطاكية ، وتوجّه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث[4] لاستحلافه ، فدخلا عكا فى عشرى شوّال ، وقد وصّاهما السلطان ألا يتواضعا له فى جلوس ولا مخاطبة . فلما دخلا كان الملك على كرسى ، فلم يجلسا حتى وضع لهما كرسيين جلسا عليهما قبالته ؛ ومدّ الوزير يده ليأخذ الكتاب فلم يرضيا حتى مدّ الملك يده وأخذه ، ولم يوافق على أشياء فتركوه ولم يحلف .

وفى ثامن عشر ذى القعدة خرج السلطان من دمشق وسار إلى القاهرة ، فخرج الملك السعيد إلى أم الباردة[5] وهى السعيدية ، وعيّد مع السلطان بها . وسارا إلى قلعة الجبل فى حادى عشر ذى الحجة ، وحمل [السلطان] عن الناس كلفة الزينة .

وفيها مات السلطان ركن الدين قلج أرسلان بن كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بيغو بن سلجوق ، ملك الروم . وقام من بعده ابنه غياث الدين كيخسرو ، وعمره أربع سنين ؛ فقام بأمر المملكة معين الدين

(١) كان صاحب عكا تلك السنة ، حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٣٦ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، "اوك بن هرى (كذا) ابن أخت صاحب قبرص" (Hugh III of Cyprus) وأبوه (Henry, Son of Bohemond IV of Antioch) ، وأمه (Isabella, daughter of Hugh I of Cyprus) . انظر (Stevenson : Crusaders In The East p. 342 n. 9 ; King : The Knights Hospitallers In The Holy Land, pp. 264 - 265) .

(٢) بغير ضبط فى س ، والكرمل حصن بالجبل المشرف على حيفا بسواحل الشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٦٧) .

(٣) فى س " عسرين " .

(٤) فى س " شيث " .

(٥) كذا فى س ، انظر ص ٤٠١ ، حاشية ٥ .

سليمان البرواناه[١] . وكان موت ركن الدين خنقا بالوتر ، وذلك أن[٢] معين الدين البرواناه اتفق مع الططر المقيمين معه على قتل ركن الدين فخنقوه[٣] .

ومات[٤] فى هذه السنة من الأعيان كمال الدين أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن محمد ابن الشهيد أبى صالح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن بن العجمى الحلبى كاتب الإنشاء ؛ ظاهر صور من الساحل . وتوفى الصاحب عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن منصور ابن محمد بن وداعة الحلبى وزير دمشق ، بالقاهرة . وتوفى الأديب عفيف الدين أبو الحسن على بن عدلان بن جماد بن على الموصلى بدمشق ، عن ثلاث وثمانين سنة . ومات الأمير عماد الدين أبو حفص عمر بن هبة الله بن صديق الخلاطى الأديب الفاضل بحماة ، عن ثمان وستين سنة . وتوفى الشيخ المعتقد أبو داود مُسَلَّم[٥] السُّلَمى شيخ الطائفة المسلمية ، فى يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الأول ، ودفن بالقرافة ؛ وكان فى ابتداء أمره قاطع طريق ، وأخذ عن الشيخ مروان أحد أصحاب الشيخ مرزوق ، وقدم القاهرة ، وعنى به الصاحب بهاء الدين محمد بن على بن حنا .

---

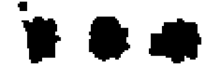
(١) البرواناه لفظ فارسى معناه فى الأصل الحاجب (chambellan) ، وقد أطلق فى دولة السلاجقة الروم بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر (le principal ministre) . راجع : (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 57. n. 69) وكان الوزير معين الدين المذكور هنا متسلطا فى الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى منذ سنة ٦٤٢ ، وعلى يده كان مقتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان كما يلى هنا بالمتن . انظر أيضا ص ٤٠٨ ، حاشية ١ ، وكذلك (Enc. Isl. Arts. Kilidj Arslān IV; Mu' in al - Din Sulaimān Parwāna)

(٢) فى س "ابن".

(٣) يلى هـذا فى س عبارة طويلة أولها : "وفيها تنكر الخان ... " ، وقد كتبها المقريزى هناك خطأ ، ثم أدرك غلطته فكتب فوقها " ينقل الى سنة ثمان وسبعين [وستمائة] " ، وهذا خطأ أيضا والصحيح ثمان وستين وستمائة ، وقد أدمجت فى موضعها تحت تلك السنة . (انظر ص ٥٨٨ ، حاشية ١ ، ٢) .

(٤) الوفيات التالية إلى آخر السنة واردة على ورقة لصقت خطأ بين الصفحتين ١٤٩ ب ، ١٥٠ ا فى س ، وليس ثمت شك فى مناسبة هذه الوفيات لهذه السنة . (انظر ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٢٣ ؛ ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٥٩) . هذا وليس لهذه الوفيات وجود البتة فى ب (١٧٤ ب) ، أو فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 58) .

(٥) هذان اللفظان مضبوطان هكذا فى س .



سنة سبع وستين وستمائة . فى أول المحرم ركب السلطان حتى شاهد جامعه بظاهر القاهرة ، وسار لفتح بحر أبى المنجا ، وعاد إلى القلعة . وفيه احتفل السلطان برمى النشاب وأمور الحرب ، وبنى مسطبة بميدان العيد خارج باب النصر من القاهرة ؛ وصار ينزل كل يوم من الظهر ويرمى النشاب ، فلا يعود من الميدان إلى عشاء الآخرة . و [أخذ السلطان] يحرّض الناس على الرمى والرهان ، فما بقى أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله ، وتوفّر الناس على لعب الرمح ورمى النشاب . وفيه قدمت الرسل من جميع الأقطار تهنئ السلطان بما فتحه الله عليه .

وفى يوم الخميس تاسع صفر جلس الملك السعيد بركة فى مرتبة الملك ، وحضر الأمراء فقبلوا الأرض ، وجلس الأمير عز الدين الحلى و [الأمير[1] فارس الدين] الأتابك بين يديه ، والصاحب بهاء الدين وكتاب الإنشاء والقضاة والشهود . وحلف له الأمراء وسائر العساكر .

وفى ثالث عشره ركب [الملك السعيد] الموكب كما يركب والده ، (١٤٨ ا) وجلس فى الإيوان وقرئت عليه القصص . وفى العشرين منه قرئ بالإيوان تقليده[2] بتفويض السلطنة إليه ، واستمر جلوسه فى الإيوان مكان والده اقتضاء الأشغال ، و [صار] يوقّع ويطلق ويركب فى الموكب . وأقام السلطان الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائبا عنه ، عوضا عن الأمير عز الدين الحلى .

وفى ثانى عشر جمادى الآخرة خرج السلطان ، ومعه الأمير عز الدين الحلى وأكابر الأمراء ، فى عدّة من العسكر يريد بلاد الشام ، وترك أكثر العسكر عند الملك السعيد . فلما وصل إلى غزة أنفق فى العسكر ، ونزل أرسوف لكثرة مراعيها . فقدم [عليه] كتاب متملك سيس بأن رسول أبغا بن هولاكو قدم ليحضر إلى السلطان ، فبعث إليه الأمير ناصر

(١) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٨) .

(٢) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٨ ، وما بعدها) نص هذا التقليد ، وذكر أنه كان من إنشاء المولى فخر الدين بن لقمان . (انظر ملحق رقم ٣ ، فى آخر هذا الجزء) .

الدين بن صيرم مشدّ حلب ليتسلمه من سيس ، ويحترز عليه بحيث لا يمكنه أن يتحدّث مع أحد . فسار به إلى دمشق ، ولم يحتفل به عند وصوله إلى دمشق ، وأُنزل في قلعتها . فورد الخبر بذلك ، فركب السلطان من أرسوف وترك الأثقال بها ، وأخذ معه الأمراء ودخل إلى دمشق . وأحضر الرسول [إليه] ، فكان من جملة كتابه : "إن الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ، ومن خالفه هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا ، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا" . وكان في المشافهة : "إنت مملوك وأبعت في سيواس(١) ، فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض ؟" فأجيب وأعيد الرسول .

وفي أوّل شعبان مات الأمير عز الدين الحلي بدمشق . وفيه خرج السلطان من دمشق ، وودّع الأمراء كلهم وسيرهم إلى مصر ؛ ولم يتأخر عنده من الأمراء الكبار سوى الأمير الأتابك ، والمحمدي ، والأيدمري ، وابن أطلس خان ، وأقوش الرومي . فسار بهم إلى قلعة الصبيبة ثم إلى الشقيف وصفد ، وكتب بحضور الأثقال إلى خربة اللصوص من أرسوف ، فأحضرها الأمير آقسنقر الفارقاني الأستادار ، وقدم السلطان إليها فأقام بها أياما .

وخطر للسلطان أن يتوجه إلى ديار مصر [خفية(٢)] ، فكتم ذلك وكتب إلى النوّاب بمكاتبة الملك السعيد والاعتماد على أجوبته ، ورتّب أنه كلما جاء بريد يقرأ عليه وتخرج علائم على بياض تكتب عليها الأجوبة . فلما كان في رابع عشره أظهر [السلطان] أنه تشوّش في بدنه ، واستدعى الحكماء إلى الخيمة ، ووقع احتفال في الظاهر (١٤٨ ب) بتوعكه ، وأصبح الأمراء فدخلوا عليه وشاهدوه محتمما على هيئة متألم ؛ وكتب إلى دمشق باستدعاء الأشربة .

(١) يجب أن تسدّ هذه العبارة فراغا في ترجمة الظاهر بيبرس ، إذ أن كل المعروف عن أصله وحداثته لا يعدو أنه ولد في سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٣ م) ببلاد القبشاق ، وأنه بيع بدمشق للأمير علاء الدين أيدكين البندقدار . (انظر ص ٣٥٠ ، حاشية ٢ ؛ ص٤٣٦ ؛ Enc Isl. Art. Baibars I.) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر ، ص ١٥٢ ، في Rec. Hist. Or. I.) ، هذا وعبارة المقريزي هنا مشابهة في ترتيبها وألفاظها لما يقابلها في النويري (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٩ ، وما بعدها)

وتقدّم [السلطان] إلى الأمير بدر الدين الأيدمرى ، والأمير سيف الدين بكتوت جرمك الناصرى ، بالتوجه إلى حلب على خيل البريد وصحبتهما بريدى ، فتوجهوا ليلة السبت سادس عشره ؛ و [كان السلطان قد] أوصاهم أنهم إذا ركبوا يأتوا خلف الدهليز حتى يتحدّث معهم مشافهة . وجهز [السلطان] الأمير آقسنقر الساقى على البريد إلى مصر ، وأعطاه تركاشه وأمره أن يقف خلف خيمة الجدارية من وراء الدهليز ، فوقف حيث أمر . ولبس السلطان جوخة مقطّعة ، وتعمّم بشاش دخانى عتيق ، وقصد أن يخرج ولا يعلم به الحراس ، فوجد قماش نوم لبعض المماليك ، فاستدعى خادما من خواصه وقال له : "أنا خارج بهذا القماش ، احمله وامش قدّامى ، فإن سألك أحد فقل هذا بعض البابية[1] معه قماش بعض الصبيان ، حصل له مرض وما يقدر يحضر الخدمة الليلة ، وهذا غلامه خارج إليه بقماشه" . فخرج [السلطان] بهذه الحيلة ولم يفطن به أحد ؛ وكان قد أسرّ إلى الأمير شمس الدين الفارقانى أنه يغيب مدة أيام عيّنها .

ولما خرج[2] [السلطان] من الدهليز مشى إلى الجهة التى واعد آقسنقر الساقى إليها ، و [كان قبل ذلك] قد أقام هناك أربعة أرؤس من الخيل سيّرها مع الأمير بهاء الدين أمير آخور ، [وأمره أن] يقف بها فى مكان . فأخذ آقسنقر الخيل ، وسيّر بهاء الدين أمير آخور إلى التل ، فوجد الأيدمرى ورفقته . فصار إليهم السلطان ، واختلط بهم فى السّوْق وهم لا يعرفونه[3] ، فلما طال سَوْقهم قال السلطان للأيدمرى : "تعرفنى" فقال : "أى والله !"

(١) البابية جمع بابا ، وهو حسبما ورد فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٠) " لقب عام لجميع رجال الطشت خاناه ، ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك . وهو لفظ رومى معناه أبو الآباء ... وكأنه لقب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه ، من تنظيف قماشه وتحسين هيئته ، أشبه الأب الشفيق ، فلقب بذلك" . انظر أيضا (Quatremère : Op,. Cit. I. 2. pp. 194—195) .

(٢) عبارة المقريزى هنا مضطربة قليلا ، ونصها : " ولما خرج من الدهليز مشى إلى الجهة التى واعد آقسنقر إليها وقد أقام هناك أربعة أرؤس من الخيل سيرها مع الأمير بهاء الدين أمير اخور وقف بها فى مكان فأخذ آقسنقر الخيل ثم سير إليه أمير آخر (كذا) سار به فوجد الأيدمرى ورفقته ..." ، وقد أصلحت العبارة وأضيف ما بين الأقواس من النويرى (نهاية الأرب ، ج ، ٢٨ ، ص ٥٠) .

(٣) فى س "لا يعرفوه"

وأراد أن ينزل عن فرسه ليقبّل الأرض ، فمنعه . وقال [السلطان] لجرمك : "تعرفنى ؟" .فقال : "إيش هذا ياخوند ؟" ، فقال له : "لا تتكلم" . وكان معهم الأمير علم الدين شُقير مقدّم البريدية ، فصارت جملتهم خمسة أنفس ، ومعهم أربعة جنائب من خيل السلطان الخاص .

فساقوا إلى القصير المعينى ووافوه نصف الليل ، فدخل السلطان إلى الوالى ليأخذ فرسه ، فقام إليه بنحو خمسين راجلا ليهاوشه وقال ، "الضيعة ملك السلطان ، ما يقدر أحد يأخذ منها فرسا ، تروحوا وإلا قتلنا كم" . فتركوه وساقوا إلى بيسان ، وأتوا دار الوالى وقالوا : "نريد خيلا للبريد" ، فأنزلهم . وقعد السلطان عند رجلى الوالى وهو نائم ، ثم التفت إلى الأيدمرى وقال : "الخلائق على بابى ، وأنا على باب هذا الوالى لا يلتفت (١٤٩ ا) إلىّ ، ولكن الدنيا نوبات" . وطلب [السلطان] من الوالى كوزا ، فقال : "ما عندنا كوز . إن كنت عطشان[1] اخرج واشرب من برّا" ؛ فأحضر إليه الأيدمرى كرّازا[2] شرب منه . وركبوا وصبحوا جينين ، فوجدوا بها خيلا للبريد عُرْجاً مُعَقَّرة[3] ، فركب السلطان منها فرسا لم يكد يثبت عليه من رائحة عقوره . وساروا فلما نزلوا تل العجول بقى كل منهم ماسكا فرسه ، فلما وصلوا إلى العريش قام السلطان والأمير جرمك ونَقَّيا الشعير ، وقال السلطان لجرمك : "أين السلطنة والأستادار وأمير جاندار ؟ وأين الخلق الوقوف فى الخدمة ؟ هكذا تخرج الملوك من ملكهم ، وما يدوم إلا الله سبحانه" . ولم يبق معهم من الجنائب الأربعة إلا الذى على يد السلطان يقوده ، ووصل معه إلى الصالحية .

---

(١) فى س "عطشانا".

(٢) الكُرَاز — والكَرّاز أيضا — القارورة ، أو كوز ضيق الرأس ، والجمع كرزان (محيط المحيط) . ويستعمل الكراز لحفظ الماء صالحا للشرب (fraiche) ، وأصل اللفظ من لهجة العراق ، وقد انتقل الى اسبانيا واللغة الإسبانية ، حيث يقال (alcarraza) . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) المراد بوصف خيل البريد بهذا الوصف أنها كانت بجرحة الظهر ، إذ يقال تعقر ظهر الدابة أى دبر وتقرح ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit : I. 2. p. 64) لفظ معقرة إلى (couverts de plaies)

وصعدوا إلى القلعة ليلة الثلاثاء الثلث الأول من الليل ، فأوقفهم الحراس حتى شاوروا الوالى . ونزل السلطان فى باب الإسطبل وطلب أمير آخور ، وكان قد رتب مع زمام الآدر[1] أن لا يبيت إلا خلف باب السر ، فدق السلطان باب السر وذكر للزمام العلائم التى بينه وبينه ، ففتح الباب ودخل السلطان ورفقته . وأقاموا يوم الثلاثاء والأربعاء ، وليلة الخميس الحادى والعشرين من شعبان ، ولا يعلم بالسلطان أحد إلا الزمام فقط . وصار [السلطان] يتفرج فى الأمراء بسوق الخيل : فلما قدم الفرس للملك السعيد يوم الخميس على العادة قدم أمير آخور للسلطان فرسا آخر ، وعندما خرج الملك السعيد ليركب ما أحس إلا والسلطان قد خرج إليه ، فرعب منه وقبل له الأرض . وركب السلطان وخرج على غفلة والوقت بغلس ، فأنكر الأمراء ذلك وأمسكوا قبضات سيوفهم ، ونظروا فى وجه السلطان حتى تحققوه ، فقبلوا له الأرض . وساق السلطان إلى ميدان العيد ، وعاد إلى القلعة وقضى أشغال الناس . وأقام بقية يوم الخميس ويوم الجمعة ، ولعب بالكرة يوم السبت . وتوجه يوم الأحد إلى مصر ، ورمى الرجال بالشوانى قدامه ، وركب فى الحراريق وعاد إلى القلعة . فلما كان ليلة الاثنين خامس عشرى شعبان ، ركب [السلطان خيل] البريد من القلعة ، وعاد إلى معسكره بخربة اللصوص .

وأما ما جرى فى معسكر (١٤٩ ب) السلطان بالخربة ، فإن الأمير شمس الدين الفارقانى لما أصبح ، وقد فارق السلطان الدهليز ، أظهر الأمراء أن السلطان منقطع لضعف حصل له ، واستدعى الأطباء وسألهم عما يصلح المتوعك الذى يشكو صداعا وخدرا[2]

---

(١) صحة هذا الاسم المركب بالإضافة "زمام دار" ، وخطأ المقريزى وغيره من الكتاب فى رسمه كما بالمتن راجع إلى الاعتقاد بأن لفظ "دار" عربى ، ولذا كان جمعه على "ادر" (انظر ما يلى بنفس الحاشية) . أما الزمام دار فتحريف من الزنان دار ، "وهو لقب على الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام والخصيان ، وهو مركب من لفظين فارسيين : أحدهما زنان ... ، ومعناه النساء ، والثانى دار ومعناه ممسك ... ، فيكون المعنى ممسك النساء بمعنى أنه الموكل بحفظ الحريم ... إلا أن العامة والخاصة قد قلبوا النونين فيه بميمين ، فعبروا عنه بالزمام دار ... ظنا أن الدار على معناها العربى ، والزمام بمعنى القائد ... ." (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ٤٥٩ — ٤٦٠) (انظر أيضا (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 65. n. 77) .

(٢) الخدر تشنج يعترى العضو فلا يطيق الحركة (المحيط المحيط) .

وتهكتبلا وعطشه ؛ وأوهمهم أن السلطان يشكو ذلك ، فوضعوا له ما يوافق . وأمر [الأمير شمس الدين] الشراب دارية فأحضروا الشراب ، ودخل إلى الدهليز بنفسه ليوهم العسكر بصحة ذلك ؛ إلى أن وصل ليلة الجمعة تاسع عشريه إلى قرب الدهليز .

فأمر [السلطان] الأيدمرى وجرمك بالتوجه إلى خيامهما ، وأخذ على يده جراب البريد وفى كمه فُوطة[(١)] ، ومشى على قدميه إلى جهة الحراس ، فمانعه حارس وأمسك طوقه ، فاجتذبه منه السلطان ودخل باب الدهليز . و بات [السلطان] ، فلما أصبح أحضر الأمراء وأعلمهم أنه كان متغير المزاج ؛ وركب فضربت البشائر لعافية السلطان . ومشى كل ما وقع على العسكر ، ولم يعلم به سوى الأتابك والأستادار والدوادار وخواص الجامدارية

وكانت فى هذه المدة ترد المكاتبات وتكتب أجوبتها كما رتب السلطان ، والأحوال جميعها ماشية كأنه حاضر لم يختل شيء من الأمور ، وقصد بما فعل أن يكشف حال مملكته ويعرف أحوال ابنه الملك السعيد فى مصر ، فتم له ما أراد .

وكتب [السلطان] بإزالة الخمور و إبطال الفساد والخواطئ من القاهرة ومصر وجميع أعمال مصر فطهرت كلها من المنكر ، ونهبت الخانات[(٢)] التى جرت عادة أهل الفساد الإقامة بها ، وسلبت جميع أحوال[(٣)] المفسدات وحبس حتى يتزوجن ، ونفى كثير من المفسدين . وكتب [السلطان] إلى جميع البلاد بمثل ذلك ، وحط المقرر على هذه الجهة من المال ، وعوض المقطعين جهات[(٤)] حلالا .

وورد الخبر بحصول زلزلة فى بلاد سيس خرب منها قلعة سَرْفَنْد[(٥)] وعدة قلاع ، وهلك كثير من الناس حتى سال النهر دما ، وتلفت عدة جهات . وورد الخبر بأن الفرنج

(١) الفوطة هنا مرادف البقجة ، وهى قطعة من قماش من الحرير الإسكندرى ، تحمل فيها الأوراق الرسمية سرية إلى حضرة السلطان . (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 218. N. 98) .

(٢) فى س "الحانات" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 67. n. 79) .

(٣) والأحوال جمع حال ، ومعناها هنا الأموال (argent, richesses) انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) فى س "جهاتا" .

(٥) بغير ضبط فى س . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) .

شنعوا بموت السلطان ، وحضر رسولهم يطلب المهادنة : وكان قد هرب من المماليك السلطانية أربعة وصاروا إلى عكا ، فبعث [السلطان] بإحضارهم فامتنع الفرنج من إحضارهم إلا بعوض ؛ فأنكر السلطان ذلك وأغلظ عليهم ، فسيروا المماليك وقد نصّروهم . فعند ذلك قبض [السلطان] على رسل الفرنج وقيّدهم ، وكتب إلى النواب بوقوع الفسخ ، وأغار عليهم[1] (١٥٠ ا) الأمير أقوش الشمسى وقتل وأسر منهم جماعة . وركب السلطان فى العشرين من رمضان وساق إلى صور ، وقتل وأسر جماعة ، وعاد إلى المخيم وأمهل مدة ، ثم جرد طائفة لأخذ المُغَلّ وقطع الميرة عن صور .

وفى سادس عشريه تسلّم نواب السلطان بلاطُنُس[2] [من عز الدين عثمان صاحب[3] صهيون] ، وهى حصن عظيم . وفيه سارت العساكر من البيرة إلى كَرْكَر[4] فأسرقوا وغنموا ، وأخذوا قلعة كانت بينها و بين كَخْتَا[5] ، وقتلوا رجالها وغنموا كثيرا ، وأخرجوا منه الخمس للديوان .

وفيه كان خلف فى مكة بين الشريف نجم الدين أبى نمى و بين عمه الشريف بهاء الدين إدريس[6] أميرى مكة ، ثم اتفقا فرتّب لهما السلطان عشرين ألف درهم نقرة فى كل سنة ، ألا يؤخذ بمكة من أحد مكس ، ولا يمنع أحد من زيارة البيت ولا يتعرض لتاجر ، وأن يخطب باسم السلطان فى الحرم والمشاعر ، وتضرب السكة باسمه . وكُتب لهما تقليد بالإمارة ، وسُلّمت أوقاف الحرم التى بمصر والشام لنوابهما .

---

(١) توجد بين الصفحتين ١٤٩ ب ، ١٥٠ ا فى س ، ورقة منفصلة بها وفيات تابعة لسنة ٦٦٦هـ وقد أدرجت هناك . (انظر ص ٥٧٢ ، حاشية ٤) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وبلاطنس حصن بساحل الشام مقابل اللاذقية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧١٠) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٠٣ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٤) بغير ضبط فى س ، ويوجد فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٦٢) عدة مواضع بهذا الاسم ، وكركر المقصودة هنا حصن على الفرات بين آمد وملطية ، واسمها فى المراجع الفرنجية (Guerguer, Gargar) أى الحصن المنيع . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة قديمة على نهير كختاصو (Khiakhta - Su) ، وتقع على مسافة أربعين ميلا تقريباً من الجنوب الشرقى من ملطية . (Enc. Isl. Art. Kiakhta) .

(٦) يلى هذا فى س لفظ "قبلا" وهو مشطوب .

وفيها سلم السلطان للشريف شمس الدين قاضي المدينة النبوية وخطيبها ووزيرها — وقد حضر في رسالة الأمير عز الدين جماز أمير المدينة — الجمال التي نهبها أحمد بن حجي لأشراف المدينة، وهي نحو الثلاثة آلاف جمل، وأمره أن يوصلها لأربابها. وفيها قدم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي شيخ خدام الحجرة النبوية، فأكرمه السلطان وضرب له خيمة بشقة[1] على باب الدهليز، وناله زيادة على مائتي ألف درهم نقرة؛ وسافر صحبة القاضي والجمال مع الركب الشامي، وجهز من الكسوة لمكة والمدينة.

وفيه قدم رسول الفرنج من بيروت بهدية وأسارى مسلمين، فأطلقوا بباب الدهليز، وكتبت لهم هدنة. وفيه وصل الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا إلى الدهليز ومعه جماعة من أمراء العرب، فأوهمه السلطان أنه يريد الحركة إلى العراق، وأمره بالتأهب ليركب إذا دعي، وأمره فانصرف إلى بلاده؛ وكان السلطان في الباطن إنما[2] يريد بحركته الحجاز.

وفيه أعطى [السلطانُ] ناصرَ الدين محمد ولد الأمير عز الدين أيدمر الحلي إمرة أربعين فارسًا؛ ورسم للأمير قلاون والأمير أوغان والأمير بيسرى والأمير بكتاش الفخري أمير سلاح أن يباشروا الحوطة على مال الحلي لورثته، ولم يتعرض السلطان لشيء من موجوده مع كثرته.

ودخل شوال والسلطان على عزم الحركة للحجاز، فأنفق في العساكر جميعها، وجرد عدة مع الأمير (١٠٠ ب) أقوش الرومي السلاح دار ليسيروا مع السلطان. وجرد البقية مع الأمير آقسنقر الفارقاني الأستادار إلى دمشق، فنزلوا بظاهرها وأقاموا بها. ثم توجه السلطان إلى الحج، ومعه الأمير بدر الدين الخازندار[3]، وقاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي، وفخر الدين بن لقمان، وتاج الدين بن الأثير، ونحو ثلاثمائة مملوك وأجناد من الحلقة. وسار [السلطان] بهم إلى الكرك كأنه يتصيد، ولم يجسر أحد يتحدث بأنه متوجه إلى الحجاز.

(١) الشقة هنا قطعة من قماش الكتان أو شعر الماعز، توضع واحدة منها أو أكثر حول الخيمة أو على بابها لتميزها من سائر الخيم، وجمعها شقاق وأشقاق. (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٢) بل هذا لفظ "كانت"، وهو مشطوب.

(٣) في س "الخزندار".

وذلك أن الأمير جمال الدين ابن الداية الحاجب كتب إلى السلطان : "إنى أشتهى أتوجّه صحبة السلطان إلى الحجاز"، فأمر بقطع لسانه ، فما تفوّه أحد بعدها بذلك .

وسار السلطان من القوّار يوم الخميس خامس عشريه ؛ ووصل إلى الكرك مستهل ذي القعدة . وكان قد دبّر أموره خفية من غير أن يطلع أحد على ذلك ، حتى أنه جهز البشماط[1] والدقيق والروايا والقرب والأشربة ، والعربان المتوجهين معه والمرتبين فى المنازل ، ولا يشعر الناس بشيء من ذلك . فلما وصل [الكرك] وجد الأمور كلها مجهزة ، فأعطى المجردين معه الشعير بقدر كفايتهم . وسار الثقل فى رابعه ، وتبعهم [السلطان] فى سادسه ومعه المجردون ، فنزل الشوبك ورسم بإخفاء خبره ، وتوجه فى حادى عشره . وسار البريد إلى مصر ، فجهزت الكتب إليه مع العربان من جهة الكرك فكتبت أجوبتها من هناك .

ووصل [السلطان] إلى المدينة النبوية فى خامس عشريه ، فلم يقابله جماز ولا مالك أميرا[2] المدينة وفرّا منه . ورحل منها فى سابع عشريه ، وأحرم فدخل مكة فى خامس ذى الحجة ، وأعطى خواصه جملة من المال ليفرقوها سرّا ، وفرّق كساوى على أهل الحرمين وصار كواحد من الناس ، لا يحجبه أحد ولا يحرسه إلا الله ، وهو منفرد يصلى ويطوف ويسعى . وغسل البيت ، وصار فى وسط الخلائق ، وكل من رمى إليه إحرامه غسله وناوله إياه . وجلس على باب البيت ، وأخذ بأيدى الناس ليطلعهم إلى البيت ، فتعلق بعض العامة بإحرامه ليطلع فقطعه ، وكاد يرمى السلطان إلى الأرض ، وهو مستبشر بجميع ذلك . وعلق كسوة البيت بيده وخواصه ، وتردد إلى من بالحرمين من الصالحين .

هذا وقاضى القضاة صدر الدين سليمان بن عبدالحق الحنفى مرافقه طول الطريق ، يستفتيه ويتفهم منه أمر دينه . ولم يغفل [السلطان] مع ذلك تدبير الممالك ، وكتاب الإنشاء تكتب عنه فى المهمات ؛ وكتب إلى صاحب اليمن [كتابا] ينكر عليه أمورا ، ويقول فيه : "سطرتها من مكة المشرفة ، وقد أخذت طريقها فى سبع عشرة خطوة" — يعنى بالخطوة

---

(١) البشماط هو البقسماط (محيط المحيط) .

(٢) فى س "امرى".

المنزلة ويقول له : "الملك هو الذى يجاهد فى الله حق جهاده ، ويبذل نفسه فى الذبّ عن حوزة (١٠١ ا) الدين ، فإن كنت ملكا فاخرج التق التتار"

وأحسن [السلطان] إلى أميرى مكة ، [وهما الأمير نجم الدين[1] أبى نمى والأمير إدريس بن قتادة] ، وإلى أمير ينبع وأمير خُلَيْص[2] وأكابر الحجاز وكتب منشورين لأميرى مكة ، فطلبا منه نائبا تقوى به أنفسهما ، فرتّب الأمير شمس الدين مروان نائب أمير جاندار بمكة ، يرجع أمرهما إليه ويكون الحل والعقد على يديه . وزاد أميرى مكة مالا وغلالا فى كل سنة بسبب تسبيل البيت للناس ، [وزاد أمراء الحجاز إلا جماز ومالك أميرا المدينة ، فإنهما انتزحا من بين يديه] .

وقضى السلطان مناسك الحج وسار من مكة فى ثالث عشره ، فوصل إلى المدينة فى العشرين منه ، فبات بها وسار من الغد ، فجدّ فى السير ومعه عدّة يسيرة حتى وصل الى الكرك بكرة يوم الخميس سلخه . ولم يعلم أحد بوصوله إلا عند قبر جعفر الطيار بمؤتة ، فالتقوه هناك . ودخل [السلطان] مدينة الكرك وهو لابس عباءة ، وقد ركب راحلة ، فبات بها ورحل من الغد .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير عز الدين أيدمر الحلى الصالحى نائب السلطنة ، عن نيف وستين سنة ، بدمشق فى [أوّل شعبان[3]] . ومات الأمير أسد الدين سليمان بن داود ابن موسك الهذبانى ، بعد ما ترك الخدمة تعففا ، وله فضل ونظم جيد . وتوفى مجد الدين أبو محمد عبدالمجيد بن أبى الفرج بن محمد الرُّوذْرَاوَرِى[4] بدمشق . وتوفى نورالدين أبو الحسن

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥١ — ٥٢) ، ويلاحظ أن عبارة السلوك هنا مشابهة تماما لما يقابلها فى نهاية الأرب .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهو حصن بين مكة والمدينة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٦٧) .

(٣) موضع ما بين القوسين بياض فى س ، وقد أضيف التاريخ من ص ٥٧٤ ، سطر ٦ هنا . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٤) .

(٤) فى س "الرودراوروى". انظر (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٨٢) .

على بن عبد الله بن إبراهيم ، الشهير بسيبويه المغربى النحوى ، عن سبع وستين سنة بالقاهرة ، وله شعر جيد . وتوفى شيخ الأطباء بدمشق شرف الدين أبو الحسن على بن يوسف بن حيدرة الرحبى ، وله شعر جيد .

• • •

سنة ثمان وستين وستمائة . فيها صلى الملك الظاهر صلاة الجمعة غرة المحرم بالكرك ، وركب فى مائة فرس و بيد كل فارس فرس ، وساق إلى دمشق . [هذا] والناس بمصر والشام لا يعرفون شيئا من خبر السلطان : هل هو فى الشام أو الحجاز أو غيره ، ولا يستطيع من مهابته والخوف منه أحد يتكلم . فلما قارب السلطان دمشق سيّر[1] أحد خواصه على البريد بكتب إلى دمشق ، وفيها البشارة بسلامته وقضاء الحج . فأحضر الأمير جمال الدين النجيبى نائب دمشق الناس لسماع كتب البشارة ، فبينا هم فى القراءة إذ بلغهم أن السلطان فى الميدان ، فساروا إليه فإذا هو بمفرده ، وقد أعطى فرسه لبعض منادية سوق الخيل ، فقبّل النائب له الأرض وحضر الأمير آقسنقر الأستادار والأمراء المصريون ، فأكل [السلطان] شيئا وقام يستريح ، وانصرف الناس . فركب [السلطان] فى نفر يسير وتوجه إلى حلب ، وحضر أمراء دمشق للخدمة فلم يجدوا السلطان . ودخل السلطان إلى حلب والأمراء فى الموكب ، فساق إليهم و بقى ساعة ولا يعرفه أحد ، حتى فطن به بعضهم فنزلوا وقبّلوا الأرض . ودخل [السلطان] دار نائب السلطنة وكشف القلعة ، وخرج من حلب ولم يعرف به أحد . فوصل دمشق فى ثالث عشره ، ولعب فيها بالكرة ، وركب فى الليل وسار إلى القدس ، وزار الخليل وتصدّق . وكان العسكر المصرى قد سار به الأمير آقسنقر الفارقانى من دمشق ونزل بتلى العجول ، فخرج السلطان من القدس إلى تل العجول . وكل ذلك فى عشرين يوما (١٠١ ب) ، ما غيّر [السلطان] فيها عباءته التى حج فيها .

ثم سار [السلطان] من تل العجول بالعساكر فى حادى عشريه إلى القاهرة ، فخرج الملك السعيد إلى لقائه بالصالحية ، وعاد معه إلى قلعة الجبل . فأقام [السلطان] بها إلى ثانى

---

(١) فى س "وسير".

عشر صفر ، ثم خرج منها ومعه الأمراء والمقدمون ، فركب فى الحراريق إلى الطرّانة . ودخل [السلطان] البرية وضرب حلقة ، فأحضر إلى الدهليز ثلاثمائة غزال وخمسة عشرة نعامة : أعطى عن كل غزال بَغْلَطَاق(١) بسنجاب ، وعن كل نعامة فرسا ثمينا بسرجه ولجامه

ودخل [السلطان] إلى الإسكندرية فى حادى عشريه ، وكان الصاحب بهاء الدين ابن حنا قد سبق إليها وحصل الأموال والقماش . فخلع السلطان على الأمراء ، وحمل إليهم التعابى والنفقة ، ولعب الكرة ظاهر الإسكندرية ، وتوجّه إلى الحمامات ونزل بالَّليُونة(٢) وابتاعها من وكيل بيت المال .

فبلغه هناك حركة التتار ، وأنهم واعدوا فرنج الساحل ، فعاد إلى قلعة الجبل . فورد الخبر بغارة التتار على السّاجُور(٣) بالقرب من حلب ، فجرّد [السلطان] الأمير علاء الدين البندقدار فى جماعة من العسكر ، وأمره أن يقيم فى أوائل البلاد الشامية على أهبة . وسار [السلطان] من قلعة الجبل فى ليلة الاثنين حادى عشرى ربيع الأول ومعه نفر يسير ، فوصل إلى غزة ، ثم دخل دمشق فى سابع ربيع الآخر ؛ ولحق الناس فى الطريق مشقة عظيمة من البرد ، فخيم على ظاهر دمشق . ووردت الأخبار بانهزام التتار عند ما بلغهم حركة السلطان ، وكان قد ألقى الله فى أنفس الناس أن(٤) [السلطان وحده يقوم مقام العساكر الكثيرة فى هزيمة الأعداء ، وأنّ اسمه يردّ الأعداء من كل جانب . فورد الخبر بأن جماعة من الفرنج خرجوا من الغرب(٥) ، وبعثوا إلى أبغا بن هولاكو بأنهم واصلون لمواعدته من جهة سيس

(١) البغلطاق — أو البغلوطاق — لفظ فارسى ، وهو قباء بلا أكمام — أو بأكمام قصيرة جدا — يلبس تحت الفرجية . وكان يصنع من القطن البعلبكى الأبيض ، أو من السنجاب (petit - gris) كالمذكور هنا ، أو من الحرير اللامع (satin) ؛ وكثيرا ما يزين بجواهر ثمينة . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . انظر أيضا (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٩ ؛ (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 75 n. 63 .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من أعمال صربوط . (ابن دقاق : كتاب الانتصار ، ج ٥ ، ص ١٢٦) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو نهر بجهات منبج ، وتقع عليه عينتاب وتل باشر : (Le Strange : Palest. Under Moslems. pp. 42, 406 415, 527) ؛ ياقوت معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨) .

(٤) فى س "انه" .

(٥) يذكر النويرى (نهاية الأرب ج ٢٨ ، ص ١٠٠) أن الفرنج الذين وصلوا من الغرب تلك السنة كانوا من عند ملك أرجونة (Aragon) ، وهذا نص ما ورد به مصححاً "فى هذه السنة بلغ السلطان أن الفرنج وصل إليهم منفاتة من جهة الريدركون أحد ملوك الغرب ، فيها جماعة من أصحابه وأقاربه وكتبه ، يقول فيها إنه واعد أبغا بن هولاكو أنه يوافيه فى البلاد الإسلامية ، وإنه واصل لمواعدته ... ..." .

فى سفن كثيرة ، فبعث الله على تلك السفن ريحا أتلفت عدّة منها ، ولم يسمع بعدها لمن بقى فى الأخرى خبر . وورد الخبر أنه قد خرج فرنج عكا وخيّموا بظاهرها ، وركبوا وأعجبتهم أنفسهم بمن قدم إليهم من فرنج الغرب ، وتوجهت[1] طائفة منهم إلى عسكر جينين[2] وعسكر صفد .

فخرج السلطان من دمشق على أنه يتصيّد فى مَرْج[3] بَرْغُوث ، وبعث من أحضر إليه المدد ومن أخرج العساكر كلها من الشام ، فتكاملوا عنده بكرة يوم الثلاثاء حادى عشريه بمرج برغوث . وساق بهم إلى جسر يعقوب فوصل آخر النهار ، وساق بهم فى الليل فأصبح فى أول المرج . وكان [السلطان] قد سيّر (١٠٢ ا) إلى عساكر عين جالوت وعساكر صفد بالإغارة فى ثانى عشريه ، فإذا خرج إليهم الفرنج انهزموا منهم ، فاعتمدوا ذلك . ودخل السلطان الكمين ، فعند ما خرج [جماعة[4] من] الفرنج لقتال عسكر صفد تقدّم إليهم الأمير إيغان ، ثم بعده الأمير جمال الدين الحاجبى ، ومعهما أمراء الشام . ثم ساق الأمير أيتمش السعدى ، والأمير كند غدى أمير مجلس ، ومعهما مقدمو الحلقة ؛ فقاتل الأمراء الشاميون أحسن قتال . وتبع السلطان مقدمى الحلقة ، فما أدركهم إلا والعدو قد انكسر ، وصارت الخيالة بخيلها مطرحة فى المرج . وأسر [السلطان] كثيرا من أكابرهم ، ولم يعدم من المسلمين سوى الأمير فخر الدين الطونبا الفائزى ؛ فسارت البشائر إلى البلاد .

وعاد السلطان إلى صفد والرءوس بين يديه ، وتوجّه منها إلى دمشق فدخلها فى سادس عشريه ، والأسرى ورءوس القتلى قُدّامه . وخلع على الأمراء ، ثم سار إلى حماة وخرج منها إلى كفر طاب ، ولم يعلم أحد قصده . وفرّق العساكر وترك الثقل ، وأخذ خيار عسكره وساق

---

(١) فى س "توجه" .

(٢) فى س "حسنين" .

(٣) فى س "مرج برغوث" بغير ضبط ، ومرج برغوث جهة على الطريق بين دمشق وجسر يعقوب . (انظر ما يلى ، سطر ٧ ، وأيضا أبا شامة ، كتاب الروضتين ، ص ٢٨٤ ، فى .(Rec. Hist. Or. IV

(٤) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٠) ، وكان مقدم تلك الجماعة من الفرنج ، حسبما جاء فى نفس المرجع والجزء والصفحة ، "كندا وفيز المسمى ريخون" .

إلى جهة المَرْقَب[١] ، فأصابته مشقة زائدة من كثرة الأمطار ، فعاد إلى حماة وأقام بظاهرها تسعة عشر يوما . وتوجّه على جهة المرقب ، فانتهى إلى قريب بلاد الإسماعيلية ، وعاقته الأمطار والثلوج فعاد .

ثم ركب [السلطان] فى ثالث جمادى الآخرة بمائتى فارس من غير سلاح ، وأغار على حصن الأكراد[٢] ، وصعد الجبل الذى عليه حصن الأكراد ومعه قدر أربعين فارسا . فخرج عليه عدّة من الفرنج ملبّسين ، فحمل عليهم وقتل منهم جماعة . وكسر باقيهم وتبعهم حتى وصل إلى خنادقهم ، وقال وهو يستخف بهم : "خلّوا الفرنج يخرجوا ، فما نحن أكثر من أربعين فارسا بأقبية بيض" ، وعاد إلى مخيمه ؛ ورعى الخيول مروجها وزروعها .

[وفى أثناء ذلك حضر إلى خدمة[٣] السلطان كثير من أصحاب البلاد المجاورة] ، فلم يبق أحد إلا وقدم على السلطان : مثل صاحب حماة ، وصاحب صهيون ، إلا نجم الدين حسن بن الشعرانى صاحب قلاع الإسماعيلية ، فإنه لم يحضر بل بعث يطلب تنقيص القطيعة التى حملوها لبيت المال ، بدلا مما كانوا يحملونه[٤] إلى الفرنج . وكان صارم الدين[٥] مبارك بن الرضى — صاحب العُلَّيْقَة[٦] — قد تغيّر السلطان عليه من مدّة ، فدخل صاحب صهيون بينه و بين السلطان

(١) بغير ضبط فى س ، وهو بلد — وحصن أيضا — بساحل الشام ، بينه وبين أنطرسوس ثمانية أميال واسمه فى الحوليات الصليبية (Castrum Merghatum) . انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٠٠ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p, 504 et seq.) .

(٢) يقع هذا الحصن على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب ، بين بعلبك وحمص . ويقال له قلعة الحصن أيضا ، وهو الذى اتخذته هيئة الفرسان الإسبتارية مركزا رئيسيا لهم بعد سقوط بيت المقدس فى يد المسلمين ، ومن هـذا سمى (Krak de Chevaliers) . انظر ياقوت معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 414 et seq.) .

(٣) أضيف ما بين الأقواس بهـذه الفقرة كلها والتى تليها بعد مراجعة النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٧٦) .

(٤) فى س "يحملوه" .

(٥) كان صارم الدين هذا صهرا للشيخ نجم الدين حسن بن الشعرانى . النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٧٦) .

(٦) بغير ضبط فى س ، وهى إحدى حصون الإسماعيلية بالشام . انظر (Le Strange : Palest. Under Moslems, pp 352, 507.) ، حيث توجد أسماء جميع حصون الإسماعيلية ، وستضبط أسماء هذه الحصون فيما يلى من نفس المرجع بغير تعليق .

فى الصلح ، وأحضره إلى الخدمة . فقلده السلطان بلاد الدعوة استقلالا ، وأعطاه طبلخاناه ، وعزل نجم الدين [حسن بن الشعرانى] وولده (١٠٢ ب) من نيابة الدعوة ؛ وتوجه [صارم الدين إلى مَصْياف كرسى بلاد الإسماعيلية] فى سابع عشرى[1] [جمادى الآخرة] ، وصحبته جماعة [لتقرير أمره] .

ويقال بل الذى قام فى حقه[2] الملك المنصور صاحب حماة ، و [إنه] شفع فيه إلى أن عفى عنه السلطان ، وحضر بهدية فأكرمه السلطان ؛ وكتب له منشوراً بالحصون كلها : وهى قلعة الكَهْف وقلعة الخَوَابِى والمَيْنَقَة[3] والعُلَيْقَة والقَدْمُوس والرُّصافة ، ليكون نائبا عن السلطان ؛ وكتب له بأملاكه التى كانت بالشام ، على أن تكون مَصْياف وبلادها خاصا للسلطان . وبعث [السلطان] معه نائبا بمصياف ، [وهو] الأمير عز الدين العديمى [أحد مقاردة الشام ؛ وجرد معه جماعة من شيزر وغيرها] ، فلما وصلوا إلى مَصْياف امتنع أهلها من تسليمها لصارم الدين ، وقالوا : " لا نسلمها إلا لنائب السلطان " ، فقال العديمى : " أنا نائب السلطان " . فلما فتحوا الباب هجم صارم الدين عليهم وقتل منهم جماعة ، وتسلم الحصن فى نصف رجب . فلم يجد نجم الدين وولده بدًّا من الدخول فى الطاعة ، فسألا فى الحضور فأجيبا ، وحضر نجم الدين حسن وعمره تسعون سنة ، فرق له السلطان وولاه النيابة شريكا لصارم الدين بن الرضى ، وقرر عليه حمل مائة وعشرين ألف درهم نقرة فى كل سنة ؛ وتوجه [نجم الدين] وترك ابنه شمس الدين فى الخدمة . وتقرر على صارم الدين ابن مبارك بن الرضى فى كل سنة ألفا[4] دينار ، فصارت الإسماعيلية يؤدون المال بعد ما كانوا يجبون من ملوك الأرض القطائع .

ثم رحل السلطان من حصن الأكراد إلى دمشق ، فدخلها فى ثامن عشريه . وقدم الخبر بأن الفرنسيس[5] وعدة من ملوك الفرنج قد ركبوا البحر ولا يُعلم قصدهم ، فاهتم [السلطان]

(١) فى س "سابع عشرينه" (٢) ضمير الهاء عائد هنا على صارم الدين بن الرضى .

(٣) فى س "المنيعة". (٤) فى س "الفى".

(٥) المقصود بالفرنسيس ملك فرنسا لويس التاسع (Louis IX) ، وكان قد أعد لتلك السنة حملة أريد بها أولا معاودة الكرة على الديار المصرية ، ثم حولت وجهتها الى تونس حيث انتهت بموته دون أن تحقق أى غرض صليبى . وقد ذكر المقريزى هذه الحملة استطرادا تلو أخبار الحملة الصليبية التى انتهت =

بالثغور والشوانى ، وسار إلى مصر فدخلها فى ثانى شوّال . وفيه تمت عمارة الجامع الظاهرى بالحسينية خارج القاهرة ، فرتّب السلطان أوقافه ، وجعل خطيبه حنفى المذهب ، ووقف عليه حكر ما بقى من الميدان . وفيه بعث [السلطان] عدة رسل بهدايا إلى بلاد الفرنج .

وفى هذه السنة قتل الشريف إدريس بن قتادة بخليص ، بعد أن ولى مكة منفردا أربعين يوماً ؛ فاستبدّ ابن أخيه أبو نمى بإمرة مكة وحده . وفيها مات الطواشى جمال الدين محسن الصالحى النجمى ، شيخ الخدام بالمسجد النبوى .

وفيها[1] تنكّر الخان منكو تمر بن طغان ، ملك التتر ببلاد الشمال ، على الأشكرى ملك قسطنطينية . فبعث [الخان] جيشا من التتر حتى أغاروا على بلاده ، وحملوا عز الدين كيقباد بن كيخسرو — وكان محبوسا كما تقدّم فى قلعة — ، وساروا به و بأهله إلى منكو تمر ، فأكرمه وزوّجه وأقام معه حتى مات فى سنة سبع وسبعين . فسار ابنه مسعود بن عز الدين وملك بلاد الروم ، كما يأتى ذكره إن شاء الله[2] .

وفيها انقرضت دولة بنى عبد المؤمن[3] بقتل الواثق أبى العلاء إدريس — المعروف بأبى دبّوس — بن عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، فى محرم على يد بنى مرين . و بنو مرين قبيلة من البربر — يقال لهم حمامة — كان مقامهم قبلى تازا[4] ، فخرجوا عن طاعة الموحدين بنى عبد المؤمن ، وتابعوا الغارات حتى ملكوا مدينة فاس ، سنة

= بوقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ ، (انظر ص ٣٦٤ ، سطر ١٠ ، وما بعده) ، ثم أوردها مرة أخرى تحت سنة ٦٦١ هـ خطأ (انظر ص ٥٠٢ ، سطر ٨ — ١٠) ، ولم يفطن الناشر إلى هذا الخطأ فأوردها هناك ، جاريا فى ذلك ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ١٢١ — ١٢٢ ؛ و (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 224) .

(١و٢) الفقرة الواردة هنا بين الرقمين موجودة فى س على هامش ص ١٤٧ ب ، وقد كتبها المقريزى هناك خطأ ، وأدرك هو ذلك فكتب فوقها "ينقل الى سنة ثمان وسبعين [وستمائة]"، وهذا خطأ أيضاً والصحيح ثمان وستين وستمائة كما هنا . راجع (Enc. Isl. Arts. Kaika' us II, Mangü Timur) ؛ وانظر أيضا (ص ٤٠٨ ، سطر ٢٠) .

(٣) فى س "المومنين" .

(٤) فى س "تازه" (انظر ص ٣٠٠ ، حاشية ١)

بضع[1] وثلاثين وستمائة : وأوّل من اشتهر منهم أبو بكر بن عبد الحق بن محيو بن حمامة ، ومات سنة ثلاث وخمسين . فملك بعده يعقوب بن عبد الحق ، وقوى أمره وحصر مراكش وبها أبو دبوس ، وملكها وأزال ملك بنى عبد المؤمن فى أوّل سنة ثمان وستين هذه ، وملك مراكش .

ومات فى هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة بدمشق محيي الدين أبو الفضل يحيى بن محيي الدين أبي المعالى محمد بن زكى الدين أبى الحسن على بن المجد أبى المعالى محمد بن زكى الدين أبي الفضل [يحيى بن][2] على [بن عبد العزيز العثمانى] المعروف بابن الزكى القرشى الأموى الشافعى ، عن اثنتين وسبعين سنة بالقاهرة . وتوفى الوزير الصاحب زين الدين أبو يوسف يعقوب بن عبد الرفيع بن بكر بن مالك القرشى الزبيرى ، عن اثنتين وثمانين سنة بالقاهرة ، بعد عزله ومحنته ، وله شعر جيد . وتوفى زين الدين أبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى الحنبلى . وقد انتهى إليه علو الإسناد ، عن ثلاث وتسعين سنة بدمشق . وتوفى الولى العارف داود الأعزب بناحية تَفَهْنا[3] ، فى ليلة الجمعة سابع عشرى جمادى الآخرة ، وبها دفن ؛ وقبره مشهور يتبرّك الناس بزيارته ، ومناقبه وكراماته شهيرة قد جُمعت فى مجلد . وتوفى الولى العارف تقى الدين أبو المكارم عبد السلام بن سلطان بن ...[4] ... الماجرى من هوارة ، فى يوم الأحد ثامن ذى الحجة ، بناحية قليب[5] ؛ وله كرامات كثيرة ،

(١) كذا فى س ، والمعروف أن بنى مرين ملكوا مدينة فاس لأول مرة سنة ٦٤٦ هـ ، (١٢٤٨م) . انظر (Enc. Isl. Arts. Fās, Marīnids) ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٩٦) .

(٢) أضيف ما بين الأقواس من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٣) ، حيث ورد أن وفاة قاضى القضاة هذا كانت بفسطاط مصر فى رابع عشر شهر رجب من هذه السنة ، وأنه دفن بالقرافة ، وأن مولده كان بدمشق فى ليلة الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ست وتسعين وخمسمائة .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى قرية بمركز زفتا من مديرية الغربية ، وتقع على طريق السكة الحديدية بين بنها وزفتى ، وتسمى أيضا تفهنا العزب . مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٣٩ ، وما بعدها) .

(٤) بياض فى س .

(٥) فى س "قليب" ، وقد ترجم (Quatre mère : Op. Cit. I. 2. p. 82) هذا اللفظ إلى (Kalib) و (Kalioub) مع التشكك .

وأخذ الطريق عن الشيخ أبى الفتح الواسطى عن الشيخ أحمد بن أبى الحسن الرفاعى ، وقبره يُزار بقليب ويتبرّك به .

***

سنة تسع وستين وستمائة . فى المحرم ورد كتاب بيسو نوغاى قريب الملك بركه ملك التتار ، وهو أكبر مقدمى جيوشه ، يخبر فيه أنه دخل فى دين الإسلام ، فأجيب بالشكر والثناء عليه . وفيه (١٠٣ ا) ورد الخبر بمسير الفرنسيس[1] وملوك الفرنج إلى تونس ومحاربة أهلها ، فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العساكر إليه نجدة له على الفرنج ؛ وكتب إلى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجدته ، وأمرهم حَفْرَ الآبار فى الطرقات برسم العساكر ؛ وشرع فى تجريد العساكر . فورد الخبر بموت الفرنسيس وابنه وجماعة من عسكره ، ووصول نجدات العربان[2] إلى تونس وحفر الآبار ، وأن الفرنج رحلوا عن تونس فى خامس صفر .

وفى سابعه توجّه السلطان إلى عسقلان ، ليهدم ما بقى منها خوفا من مجىء الفرنج إليها ، فنزل عليها وهدم بنفسه ما تأخّر من قلعتها وأسوار المدينة حتى سوّى بها الأرض وعاد إلى قلعة الجبل فى ثامن ربيع الأول . وفى حادى عشريه هلك الملك الجير هيتوم[3] بن قسطنطين متملك سيس .

وفى عاشر جمادى الآخرة سار السلطان من القاهرة — ومعه ابنه الملك السعيد — إلى الشام ، فدخل دمشق فى ثامن رجب ، وخرج إلى طرابلس فقتل وأسر . واتصلت الغارات إلى صافيتًا . وتسلم [السلطان] صافيتا من الفرنج [الديوية][4] وأنزلهم منها ، وعدتهم سبعمائة رجل سوى النساء والأطفال ، وتسلّم الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد [مثل تل خليفة وغيره] .

(١) انظر ص ٥٨٧ ، حاشية ٥ .

(٢) ف " العرب " .

(٣) ف س " هينوم " .

(٤) أضيف ما بين الأقواس بهذا الفقرة من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٠) ، حيث توجد فى هذا الصدد تفصيلات كثيرة .

وفى تاسع[١] [رجب] نازل السلطان حصن الأكراد ؛ وقدم عليه صاحب حماة ، وصاحب صهيون ، وصاحب دعوة الإسماعيلية الصاحب نجم الدين . وفى آخره نصب [السلطان] عدة مجانيق على الحصن ، إلى أن أخذ القلعة عنوة فى سادس عشر[٢] شعبان . فطلب أهلها الأمان فأمّنهم [السلطان] على أن يتوجّهوا إلى بلادهم ، فخرج الفرنج منها فى رابع عشريه . ورتّب [السلطان] الأمير صارم الدين الكافرى نائبا بحصن الأكراد ، وأمر بعمارته[٣] .

وبعث صاحب أنطرسوس — [وهو مقدم[٤] بيت الداوية] — يطلب الصلح [من السلطان] ، فصولح على أنطرسوس خاصة ، خارجا عن صافيتا وبلادها . واسترجع [السلطان] منهم[٥] جميع ما أخذوه فى الأيام الناصرية ، وعلى أن جميع ما لهم من المناصفات والحقوق على بلاد الإسلام يتركونه ، وعلى أن تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان

(١) فى س " تاسعه " ، وقد أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، س ١٠١) .

(٢) فى س " عشره " . وفوقها إشارة إلى لفظ " شعبان " بهامش الصفحة ، وهو بخط المتن ، وواضح من هذا أن المقريزى أضاف الشهر ونسى حذف الهاء . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، س ١٠١) .

(٣) كتب السلطان بيبرس بعد تسلم الحصن إلى رئيس فرسان الإسبتار ، وهو صاحب حصن الأكراد ، خطابا أورده العينى (عقد الجمان ، س ٢٣٧ — ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، وهذا نصه " إلى إفرير (frère) أول جمله الله ممن لا يعترض على القدر ، ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر ، ولا يعتقد أنه ينجى من أمر الله بالقدر ، ولا يحمى منه (٢٣٨) محجور البناء ولا مبنى الحجر . نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذى حصلته وبنيته وخليته ، وكنت الموفق لو أخليته . وتكلفت فى حفظه على إخوتك فما نفعوك ، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك . وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى ، أو يخدم سعيدا ويشقى " . هذا وفى الجملة الأخيرة من هذا الكتاب تورية ، فإن المقصود بلفظ " سعيدا " هنا ابن السلطان بيبرس وولى عهده ، وهو الذى حاصر الحصن فعلا . (نفس المرجع ، س ٢٣٨) . أما رئيس هيئة الفرسان الإسبتار تلك السنة فهو (Hugh Revel) ، انظر (King: The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 271)'

(٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة العينى (عقد الجمان ، س ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، وكذلك (Stevenson: Crusaders In The East p. 343) .

(٥) الضمير هنا عائد على الداوية والإسبتارية معاً . انظر (Stevenson : Op. Cit. p. 343) ؛ وكذلك ما يلى ، س ٥٩٥ ، حاشية ١) . هذا وعبارة المقريزى هنا مشابهة فى ألفاظها وترتيبها لما يقابلها فى العينى (عقد الجمان ، س ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) .

و بين الإسبتار ، وعلى ألا تجدّد عمارة فى المرقب . فتمّ الصلح ، وأخلى الفرنج عدة حصون تسلمها السلطان .

وفى سابع عشر رمضان نازل السلطان حصن عكار[1] ونصب عليه المجانيق ، [وجدّ أهله[2] فى المناضلة](١٠٣ ب) وقاتلهم [السلطان قتالا شديدا] ، فقتل الأمير ركن الدين منكورس الدوادارى وهو يصلّى فى خيمته بحجر منجنيق أصابه . ولما كان فى تاسع عشرينه سأل الفرنج الأمان ، ورفعت السناجق السلطانية على الأبراج ، وخرجوا منه فى سلخه ، وعيّد السلطان بالحصن ، ورحل إلى مخيمه بالمرج ، وكتب إلى متملك طرابلس يحذره وينذره[3] .

وفى رابع شوّال ركب السلطان بجميع عساكره جريدة من غير ثقل يريد طرابلس ، وساق [إليها] . فبينما هو عازم [على ذلك] ، إذ ورد عليه الخبر بأن ملك الإنكتار[4] وصل إلى عكا فى أواخر رمضان ، بثلاثمائة فارس وثمانى بطس وشوانى ومراكب تكملة ثلاثين مركبا ، غير ما سبقه صحبة أستاداره[5] ؛ وأنه يقصد الحج إلى القدس . فغيّر [السلطان] عزمه ونزل قريبا من

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهو حصن مبنى على جبل يسمى بنفس الاسم ، وموقعه شمالى طرابلس . انظر (Le Strange : Palest. Under Moslems. pp. 80, 390) . ويسمى هذا الحصن أيضاً باسم حصن ابن عكار ، وقد أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٢ — ١٠٣) أن قيام صاحب طرابلس حديثا بعمارته كان السبب فى إغارة السلطان بيبرس عليه وأخذه .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة العينى (عقد الجمان، ص ٢٢٨، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) .

(٣) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٣) نص كتاب التحذير والإنذار الذى أرسله السلطان بيبرس إلى صاحب طرابلس بعد الاستيلاء على حصن عكار ، وهو منقول من هذا المرجع فى ملحق رقم ٤ بآخر هذا الجزء من كتاب السلوك .

(٤) فى س " الانكتار " ، والصيغة المثبتة هنا بالمتن أقرب إلى الاسم الأصلى (Angleterre) ، وهى المتداولة فى مؤلفات المؤرخين المسلمين زمن الحروب الصليبية . (انظر ص ٣٦٤ ، حاشية ٥) . هذا و " ملك الانكتار " الذى وصل عكا تلك السنة هو الأمير (Edward) الذى صار فيما بعد ملكا على إنجلترة باسم (Edward I) ، وكان هذا الأمير قد انضم للحملة الصليبية التى توجهت إلى تونس ، وقد وصل إلى شواطىء تونس بعد وفاة (Louis IX) ملك فرنسا ، وبعد إمضاء الهدنة بين الصليبيين وملك تونس . ولم يعجب الأمير الإنجليزى اختتام الحملة الصليبية على النحو الذى انتهت إليه ، فانصرف إلى الشام ووصل عكا كما بالمتن . (King: The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 268) .

(٥) كان برفقة الأمير الإنجليزى أخوه (Prince Edmund) وأيضاً (Count of Brittany) ، ولعل الثانى هو الذى كان يملأ الوظيفة المذكورة هنا . انظر (King : Op. Cit. p. 268) .

طرابلس ، و بعث إليهم[1] الأتابك والأمير الدوادار فاجتمعا بصاحبها ، وجرت أمور آخرها أنهم سألوا السلطان الصلح فكتبت الهدنة لمدة عشر سنين ؛ وجهز الأمير فخر الدين ابن جلبان ، والقاضي شمس الدين الإخنائي[2] شاهد الخزانة ، بثلاثة آلاف دينار مصرية لفكاك الأسرى. وعاد السلطان إلى مخيمه ، وسار إلى حصن الأكراد فدبر أمر عمارته ؛ ورتب أحوال تلك الجهات .

وفي حادي عشره استولى السلطان على حصن العُلَيْقَة من حصون الإسماعيلية ، واستخدم به الرجال . ورحل إلى دمشق فدخلها للنصف منه ، ورحل منها في رابع عشريه ، فنزل صفد وحمل منها المجانيق إلى القُرَيْن[3] وساق إليه ونازله حتى أخذه في ثاني ذي القعدة ؛ وركب منه فما أصبح إلا على أبواب عكا مُطَلِّبا[4] ، فما تحرك أحد من الفرنج ، فعاد إلى مخيمه بالقرين ، وهدم القلعة في رابع عشرى ذي القعدة ؛ ورحل منه إلى قريب عكا ، ونزل اللَّجُّون[5] .

وكان [السلطان] قد كتب إلى مصر بتسفير الشواني لقصد[6] قبرس ، فسارت في شوال حتى قاربت قبرس ، فانكسرت كلها . وشعر بهم أهل قبرس فأسروا جميع من كان فيها من الرجال ، و بعث صاحب قبرس كتابا إلى السلطان يقرّعه فيه بأن شوانى مصر

(١) الضمير هنا عائد على أهل طرابلس وصاحبها . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٢) .

(٢) في س " الاخنايى " ، ولعل النسبة إلى إخنا ، وهى حسبما جاء في ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٦٦) مدينة قديمة قرب الإسكندرية .

(٣) بغير ضبط في س ، وهو حصن في أرض مغليا قرب صفد ، (Le Strange: Palest. Undst Moslems. p. 495) واسمه في الحوليات الصليبية (Montfort) أو (Starkenburg) ، وكان المركز الرئيسى لهيئة الفرسان التيوتون (Teutonic Knights) في الشرق . انظر (King: The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 271) .

(٤) المعنى أن السلطان جعل عساكره أطلابا (جمع طلب) ، أى سرايا مرتبة .

(٥) بغير ضبط في س ، ويوجد بالشام وفلسطين أكثر من بلد بهذا الاسم ، (Le Strange: Palest. Under Moslems. Index) والمقصود هنا بلد بالأردن ، بينه وبين طبرية عشرون ميلا ، وبينه عن الرملة أربعين ميلا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٥١) .

(٦) أصل مشروع غزو قبرس ، حسبما جاء في العينى (عقد الجمان ، ص ٢٣٩ ، وما بعدها في (Rec. Hist. Or. II. 1.) ، أنه بلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد (انظر ص ٥٩٩ ، سطر ٥) أن صاحب جزيرة قبرس ركب بجيشه إلى عكا نجدة لأهلها ، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة ، فبعث جيشا كثيفا في ستة عشر شينيا لأخذ جزيرة قبرس في غيبة صاحبها . انظر أيضاً ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٩٧ ، وما بعدها) .

وهى أحد عشر شينيا — خرجت إلى قبرس فكسرها الريح ، وأخذتها [وأسرت[١] من فيها] . فلما قرأه السلطان قال : "الحمد لله ! منذ ملكنى الله تعالى الملك ما خُذلت لى راية ، ولكنتى أخاف من إصابة عين ، فبهذا ولا بغيره" وكتب إلى القاهرة بإنشاء عشرين شينيا ، وإحضار خمس شوانى كانت بقوص[٢] ، وكتب إلى قبرس جوابا أرعد فيه وأبرق[٣] .

---

(١) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٥) .

(٢) فى س " بعوص " . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٥) .

(٣) يوجد فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٤٠ ، وما بعدها ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) رواية مفصلة لما حدث فى هذا الصدد ، ونصها : " فلما وصلت [الشوانى] إلى مرسى النمسون (Limassol) تحت قبرص بجهد الليل ، وتقدم الشينى الأول داخلا على أنه يقصد الميناء ، فصادف الشعاب فى الظلماء فانكسر ، وتبعه الشوانى واحدا فواحدا ولم يعلم بما أصابه ، فانكسروا فى دجى الليل جميعا ، وأسرهم أهل قبرص . وكان ابن حسون المقدم قد أشار برأى تطير (فى الأصل تقلير) الناس منه ، وهو أن يطلى [الشوانى] بالقار ، ويعمل عليها الصلبان ليشبه على الفرنج بشوانيهم ، فتحرك من موانيهم (مضبوطة هكذا) ، فاقتضى تغيير (فى الأصل تعبير) شعارها ما أراد الله من انكسارها . وورد كتاب صاحب قبرص إلى السلطان ، يخبر بأن شوانى مصر وصلت إلى قبرص ، وكسرها الريح وأخذتها (كذا) وهى أحد عشر شينيا . فأمر [السلطان] بأن يكتب إليه جوابه ، فكتب إليه هذه المكاتبة :

إلى حضرة الملك أوك ، ذكر بيالى (كذا ، انظر حاشية ١ بالأصل) جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده (٢٤١) بخير منه أو مثله . نعلمه أن الله إذا أسعد إنسانا دفع عنه الكثير من قضائه باليسير ، وأحسن له بالتدبير فيما جرت به المقادير . وقد كنت عرفتنا أن الهوى (كذا) كسر عدة من شوانينا ، وصار بذلك ينجح وبه يفرح . ونحن الآن نبشره بفتح القرين ، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين . وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد ، وخشب الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب . وقد قال وقلنا ، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح ، واتكل واتكلنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح . وما النصر بالهواء مليح ، إنما النصر بالسيف هو المليح . ونحن ننشئ فى يوم واحد عدة قطايع ، ولا ينشئ (كذا) لكم من حصن قطعة ؟ ونجهز مائة قلع ، ولا تجهز لكم فى مائة عام قلعة . وكل من أعطى مقدافا قدف (كذا) ، وما كل من أعطى سيفا أحسن الضرب به أو غرف (كذا ، ولعلها عرف) . وإن عدمت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب ألوف ، وأين الذين يطعنون بالمقاديف فى صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح فى صدر الصفوف ، وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول ، وفرق بين من يجزيها كالبحار ومن يقف به فى الوصول ؟ وفرق بين من يتصيد على الصقور من الخيل العراب (كذا) ، وبين من إذا (٢٤٢) افتخر قال تصيدت بغراب . فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة ، فكم أخذنا لكم من قرية معمورة ؟ وإذ استوليتم على سكان ، فكم أخلينا بلادكم من سكان ؟ وكم كسبت وكسبنا ، فيرى أينا أغنم ، ولو أن فى الملك سكوتا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم " . انظر أيضا (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٥ — ٥٦) .

وقدمت رسل صاحب[1] صور (١٥٤ آ) تطلب الصلح ، فوقع الاتفاق على أن يكون للفرنج من بلاد صور عشرة بلاد فقط ، ويكون للسلطان خمسة بلاد يختارها ، وبقية البلاد تكون مناصفة ؛ ووقع الحلف على ذلك .

وسار السلطان إلى القاهرة ، ودخل قلعة الجبل فى ثانى عشر ذى الحجة ، فبلغه أن الشهرزورية قد عزموا على سلطنة الملك العزيز عثمان بن صاحب الكرك الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وكان السلطان قد جعله أحد أمراء[2] مصر . فقبض عليه وعلى عدة أمراء منهم الأمير بهاء الدين يمقوبا[3] ، وقبض أيضاً على عدة أمراء كانوا قد اتفقوا على قتله[4] وهو بالشقيف : منهم الأمير علم الدين سنجر الحلبى ، والأمير أقوش المحمدى ، والأمير أيدغدى الحاجبى ، والأمير إيغان سم الموت ، والأمير سنقر المساح ، والأمير بيدغان الركنى ، والأمير طرطح الآمدى ؛ وسجنهم بقلعة الجبل .

و [فيه] جهز [السلطان] الأمير آقسنقر الفارقانى بعسكر إلى الشام . وفيه وردت هدية صاحب اليمن ، وفيها تحف ودب أسود وفيل . وفيه أكثر السلطان من الركوب إلى مصر لمباشرة عمل الشوانى ، حتى كملت ضعفى ما انكسر . وفى سابع عشريه أمر [السلطان] بإحراق الخمور ، وأبطل ضمانها وكان فى كل سنة ألف دينار ، وكتب بذلك توقيعاً قرى على المنابر . وفيه خلع السلطان بالميدان ، وفرق على ألف وسبعمائة شخص أثمان خيل ، وفرق ألفا وثمانمائة فرس ، كل ذلك هو جالس حتى فرغ . وفيه لازم [السلطان] الصناعة بمصر

---

(١) كان صاحب صور تلك السنة (John de Montfort) ، ويلاحظ أن السلطان كان قد عقد هدنة فى السنة الفائتة مع كل من هيئتى الإسبتار والداوية . (King: The Knights Hospitallers In the Holy Land, p. 272) .

(٢) انظر ص ٤٩٣ ، سطر ٢ .

(٣) كذا فى س ، وفى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٤) .

(٤) الضمير هنا عائد على السلطان بيبرس . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦) ، حيث توجد تفصيلات وافية فى صدد كل هذه الحوادث .

عدّة أيام لرعى النشاب . و[فيه] ورد الخبر بأن الفرنج أغاروا على جهة الشّاغُور ، وأخذوا غلة وخربوا وأحرقوا (١) غلالا .

وفيها عزل شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان عن قضاء الشافعية بدمشق ، وأعيد عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبد القادر بن عبد الباقى بن خليل بن مقلد بن جابر ، الشهير بابن الصائغ . وفيها وصل سيل عظيم إلى دمشق ، فأخذ كثيراً من الناس والدواب ، وقلع الأشجار وردم الأنهار ، وخرب الدور وارتفع حتى نزل مرامى السور ، وذلك زمن الصيف . وفيها ولى قضاء المالكية بمصر نفيس الدين أبو البركات محمد المخلص ضياء الدين أبى الفخر هبة الله بن كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر المالكى . ولم يحج [أحد] فى هذا العام من مصر ، لا فى البرّ ولا فى البحر . وهجم مكة سيل عظيم فى شعبان حتى دخل الكعبة .

[ومات (٢) فى هذه السنة من الأعيان الأمير علم] الدين سنجر الصيرفى ، فى سادس صفر بدمشق . وتوفى قاضى القضاة المالكى شرف الدين عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى ابن عبد الملك بن موسى بن خالد بن على بن عمر بن عبد الله بن إدريس بن إدريس ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب السبكى ، فى ليلة الخامس والعشرين من ذى القعدة ، عن أربع وثمانين (٣) سنة . وولى بعده قضاء المالكية بالقاهرة نفيس الدين أبو البركات محمد بن القاضى المخلص ضياء الدين هبة الله أبو الفخر بن كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر .

---

(١) كان فرنج عكا هم الذين قاموا بهذه الإغارة وحفزهم إلى تلك الحركة وغيرها غياب السلطان بيبرس فى مصر . (Stevenson: Crusaders In The East. p. 344) .

(٢) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٠٣ ب ، ١٠٤ ا فى س . والسطر الأول منها — وهو الوارد هنا بين القوسين — محجوب بين ملتصق الصفحتين ، لكنه فى ب ، (١٨١ ب) . هذا وليس ثمت شك فى وقوع هذه الوفيات تلك السنة ، انظر (النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٦ — ٥٧ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ — ٣٣١) .

(٣) القطع الثانى من هذا اللفظ محجوب فى س ، وكذلك كلمة سنة ، للسبب المذكور بالحاشية السابقة ، ولكنهما فى ب (نفس الصفحة) . انظر أيضاً النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٦ — ٥٧) .

وتوفى الشريف إدريس بن على بن قتادة بن إدريس الحسنى أمير مكة ، قتيلا بظاهر مكة ؛ فانفرد بعده أبو نمى بن أبى سعد . وتوفى قاضى حماة شمس الدين أبو الطاهر إبراهيم ابن المسلم ابن هبة الله بن حسان بن محمد بن منصور البارزى الجهنى الحموى الشافعى ، عن تسع وثمانين سنة بحماة . وتوفى الأديب تاج الدين أبو المكارم محمد بن عبد المنعم بن نصر الله بن جعفر بن شقير المغربى الحنفى بدمشق ، عن ثلاث وستين سنة . وتوفى قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين(١) المرسى الصوفى بمكة ، عن نحو خمسين سنة(٢) .



سنة سبعين وستمائة . أهلت والسلطان متشدد فى إراقة الخمور وإزالة المنكرات ، فكان لذلك يوما مشهودا . وفيه أفرج [السلطان] عن الأمير سيف الدين بيدغان الركنى ، وأعطاه إقطاعا بالشام . ثم أحضره بعد قليل ، هو وسيف الدين ملاجا الركنى ، واشتراهما(٣) ورتبهما سلاح دارية . (١٠٤ ب) وورد الخبر باختلاف الحال بين عيسى بن مهنا وبين

(١) توجد فى ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ — ٣٣٠) ترجمة طويلة لابن سبعين هذا ، وهو الفيلسوف المعروف ، وكانت بينه وبين الإمبراطور فردريك الثانى مراسلات فلسفية مشهورة . انظر (Lane-Poole: A Hist. Of Egypt. p. 226) .

(٢) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٦ — ٥٧) ، ضمن وفيات هذه السنة ، وفاة سليل من أبناء البيت الأيوبى اسمه الملك الأمجد تقى الدين عباس ، ونصه : " وفيها كانت وفاة الملك الأمجد تقى الدين أبى الفضائل عباس بن السلطان العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وهو آخر من مات من أولاد الملك العادل . وكان محترما عند الملوك الأيوبية ، معظما عند السلطان الملك الظاهر ، لا يرتفع عليه أحد فى المجلس ولا الموكب . وكان رحمه الله تعالى دمث الأخلاق سمحا كريما عاقلا حازما ، وكانت وفاته بدمشق فى يوم الجمعة ثانى عشرى جمادى الآخرة (٥٧) ، ودفن بسفح قاسيون ، وليس له عقب " .

(٣) كذا فى س وترجم (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 92) هذه العبارة إلى (il les acheta tous deux, et leur donna le rang de Silah-dâr) ، وهذا لا يخرج عن المدلول الحرفى المفهوم . إنما الغريب هنا أن " يشترى " السلطان أميرين من أمراء المماليك كأنهما رقيقان ، إذ المعروف فى تاريخ الدولة المملوكية أن المماليك كانوا يعتقون صغاراً ، وأنهم كانوا لا يصلون إلى رتبة الإمارة — كأمير خمسة أو عشرة أو خمسين أو مائة أو أكثر — إلا بعد تحريرهم وتنقلهم فى الوظائف والولايات والنيابات بمصر والشام . انظر ما يلى ، ص ٧٢٠ ، سطر ٢٠ .

العربان ، وأنه يريد التوجه إلى التتار . فخشى السلطان أنه إن استدعاهم لا يحضروا ، وإن توجّه إلى الشام تسحّبوا ؛ فكتم أمره .

ونزل [السلطان] إلى الميدان فى سابعه ، وفرّق فى خواصه مبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة ، واثنى عشر ألف دينار عينا ، ونيفا وستين حياصة . وأمر بتجهيز العساكر إلى عكا بعد الربيع ، ولازم النزول إلى الصناعة فى كل يوم حتى تنجّزت الشوانى . ونزل الأمير آقسنقر الفارقانى بمن معه من العسكر على جينين .

فلما كان ليلة السابع عشر منه توجّه السلطان بعد المغرب ، ومعه جماعة يسيرة من خواصه ، وأخفى حركته . ورسم بأن أحدا من المجردين معه لا يشترى عليقا ولا مأكولا ، وقرّر لهم ما يحتاجون إليه . وسار إلى الزّعْقة[1] ، ثم عرج منها فى البرية إلى الكرك ، ودخلها من غير أن يعلم به أحد فى سادس صفر ، ونزل بقلعتها . وقرّر [السلطان] فى نيابة الكرك علاء الدين أيدكين الفخرى ، ونقل الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك إلى نيابة الشام . ولم يظهر [السلطان] ذلك حتى تسلم أيدكين نيابة الكرك فى ثامنه ، واستدعى عز الدين أيدمر وأفهمه أنه طلبه لنيابة حصن الأكراد .

وسار [السلطان] إلى دمشق فدخلها فى ثالث عشره من غير أن يعلم أحد بحضوره ، وكان قبل دخوله إلى دمشق قد كتب القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر بين يديه ثمانين كتابا فى يوم وليلة ، إلى النواب والأمراء : بتفويض نيابة الشام لعز الدين أيدمر الظاهرى ، عوضا عن أقوش النجيبى . وسيّر [السلطان] تشريفا للنجيبى نائب دمشق ، وأمره أن يتوجه إلى مصر و يسلم الأمر لعز الدين أيدمر ، فاعتمد ذلك .

وأنفق السلطان فيمن خرج معه مالا وافرا[2] وخيولا ، وركب بهم فى ليلة السادس عشر منه ،

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة واقعة قرب الحدود بين مصر والشام ، يمر بها القاصد من مصر إلى الكرك (G.-Demombynes : La Syrie, p. 6, n. 2) .

(٢) فى س " وفرا " ، والصيغة الواردة هنا من ب (١٨٥ ب) .

ونزل خارج حماة بالجَوْسَق[١] ؛ ونزل صاحب حماة فى خيمة . ورتب السلطان أستادارا[٢] وأمير جاندار وحاشية السلطنة ، فإنه كان [قد] خرج من مصر جريدة ؛ وقام[٣] له صاحب حماة بالأسمطة . وقدم عليه [وهو بحماة[٤]] جماعة من أكابر العرب فأكرمهم ، وكتم عنهم أمره [وما أظهر لهم شيئا] ؛ وكتب إلى عيسى بن مهنا يطلب منه خيولا عيّنها له ليطمّنه ، وكتب إليه : " إنك بعثتَ وأنا بمصر تطلب الحضور ، فكتبتُ إليك لا تحضر حتى أطلبك ؛ وقد حضرتُ إلى حماة فإن أردتَ الحضور فاحضر " . فحضر [عيسى] وسأله السلطان عما نقل عنه ، فقال : " نعم ! والصدق أنجى من الكذب " ، فأحسن [السلطان] إليه وإلى أكابر (١٥٠ ا) العرب .

وفى سادس عشريه قدم شمس الدين بن نجم الدين صاحب الدعوة الإسماعيلية ، فقبض عليه وعلى أصحابه وسيروا إلى مصر ؛ واستمرت مضايقة حصونهم حتى تسلم نواب السلطان حصن الخَوَابى وحصن العُلَيْقَة .

وفى أول شهر ربيع الأول ركب السلطان من ظاهر حماة بعد عشاء الآخرة ، من غير أن يعلم أحد قصده ، وسار على طريق حلب . ثم عرج من شيزر وأصبح على حمص ، وتوجه إلى حصن الأكراد وحصن عكّار وكشف أمورها . وسار إلى دمشق ، وكتب إلى مصر كتابا يقول فيه لأكابر الأمراء : " ولدكم " ، ولبقيتهم : " أخوكم ووالدكم يسلّم عليكم ويتشوّق إليكم ، وإيثاره ألا يفارقكم . وإنما قدّمنا راحتكم على راحتنا ، فطالما تعبوا واسترحنا . ونعلمهم بالمتجدّدات ليكونوا لها كالمشاهدين ، وكمشاركينا فى أكثر المجاهدين : فمنها حديث الإسماعيلية وحديث العربان ، وقد ورد الخبر بحركة التتار[٥] ، ولو عدنا لجفلت

---

(١) الجوسق معرب اللفظ الفارسى كوشك ، ومعناه القصر ، ويجمع على جواسق ، ويجوز فى الشعر مجموعا على جواسيق أيضا . (محيط المحيط) .

(٢) فى س " استادار " .

(٣) فى س " واقام " .

(٤) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٧ — ٥٨) ، حيث توجد تفصيلات كثيرة فى هذا الصدد .

(٥) الإشارة هنا إلى إغارة التتر على عينتاب وعمق الحارم ، وكان السلطان حين ذاك مقيما بدمشق . (أبو الفداء المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٤ فى Rec. Hist. Or., I.)

أهل البلاد . وأما الفرنج فعملوا سلالم من حديد[١] ، وعزموا على مهاجمة صفد ووردوا بيروت[٢] ؛ فلما وصلنا البلاد انعكست آمالهم . ومما يدلّ على التمسكين تارة بالسيف وتارة بالسكين ، أن صاحب سَرْقِيَة[٣] الذى أخذنا بلاده توجه إلى التتار مستصرخا ، وسيرنا وراءه فداوية ، وقد وصل أحدهم وذكر أنهم قد قفزوا عليه وقتلوه . و بلغتنا حركة التتار . وأنا والله لا أبيت إلا وخيلى مشدودة ، وأنا لابس قماشى حتى المهماز » .

وورد الخبر بأن التتار أغاروا علىٰ عينَ تاب ، وتوجهوا على العَمْق[٤] فى نصف ربيع الأول ، فكُتب إلى مصر بتجريد الأمير بيسرى بثلاثة آلاف فارس . وخرج البريد من دمشق فى الثالثة من يوم الأحد ثامن عشره ، فدخل القاهرة الثالثة من ليلة الأربعاء حادى عشريه ، فخرج بيسرى والعسكر بكرة يوم الأربعاء المذكور . وقدم التتار إلى حارم وقتلوا جماعة ، وتأخر العسكر الحلبى إلى حماة ، ووصل آقسنقر بالعسكر من جيبين . فجفل أهل دمشق ، و بلغ ثمن الجمل ألف درهم ، وأجرته إلى مصر مائتى درهم . ودخل الأمير بيسرى بالعسكر المصرى إلى دمشق فى رابع ربيع الآخر ، فخرج السلطان بالعساكر إلى حلب ، وجرّد الأمير آقسنقر ومعه عدة من العربان إلى مرعش ، وجرّد الحاج طيبرس الوزيرى والأمير عيسى بن (١٤٩ ب) مهنا إلى حرّان والرّها . فوصل العسكر إلى حرّان وقتل من بها من التتار ، وهزم باقيهم .

فورد الخبر بأن الفرنج قد أغاروا على قاقون بمواعدة التتار ، وقتل الأمير حسام الدين أستادار ، وجرح الأمير ركن الدين الجالق ، ورحل بجكا العلائى و إلى قاقون . فخرج السلطان من حلب ، ومنع أحدا أن يتقدّم حتى لا يعلم الفرنج خبره ، ودخل إلى دمشق و بين يديه عدّة من التتار المأسورين من حران . وسار الأمير أقوش الشمسى بعسكر عين جالوت ، فولى

---

(١) فى س " حرير " والصيغة المثبتة بالمتن منقولة من ب (١٨٠ ب) .

(٢) فى س " ووردوا بيروت " ، وهى فى ب (١٨٠ ب) " ووردوا بيزوت " ، ولم يستطع (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 100) أن يجد لها معنى أو اسما جغرافيا معقولا ، فنقلها فى ترجمته بحروفها العربية .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة بساحل الشام قرب حمص . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٠٦) .

(٤) المقصود هنا عمق الحارم . انظر العينى (عقد الجمان ، ص ٢٤٥ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.

الفرنج منهزمين من قاقون ، وتبعهم العسكر فاسترجعوا منهم عدة من التركمان ، وقتلوا كثيراً حتى أنه عدّ ما تلف من خيل الفرنج وبغالهم فكان خمسمائة رأس .

وخرج السلطان من دمشق فى ثالث جمادى الأولى ، ومعه عساكر مصر والشام للغارة على عكا . فتكاثرت الأمطار عليه فى مرج برغوث ، وزاد الأمر عن الوصف ، فكاد الناس يهلكون لعدم ما يستظلون[1] به ، فرد [السلطان] عسكر الشام وسار إلى مصر ، فدخل قلعة الجبل فى ثالث عشرينه .

وقدمت هدية صاحب تونس ، وفى مكاتبته تقصير فى المخاطبة ، ففرقت هديته على الأمراء ، وكتب إليه بالإنكار عليه فى التظاهر بالمنكرات واستخدام الفرنج ، وكونه لم يخرج إلى الفرنج[2] لما نازلوه ، وكان مستخفياً ؛ وقيل له : " مثلك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين " ، وخوّف وأنذر . وقدمت رسل رجار[3] وهو يشفع فى صاحب عكا ، والسلطان فى الصناعة جالس بين الأخشاب والصناع ، والأمراء تحمل بأنفسهم آلات الشوانى وهى تمدّ ، فراعهم ما شاهدوا .

وفى رجب خرج السلطان متصيّدا بجهة الصالحية ، فورد الخبر بحركة التتار فعاد إلى القلعة ، وخرج فى ثالث شعبان إلى الشام . وأتته رسل الفرنج بعكا — وهو بالسّواد[4] — تطلب الهدنة ، فسار وبعث إليهم الأمير فخر الدين أياز المقرى ، والصدر فتح الدين ابن القيسرانى كاتب الدرج ، فى حادى عشرى رمضان . ونزل السلطان بمروج قيسارية ، فعقد الهدنة مع الفرنج لمدّة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات من التاريخ المذكور . وخرج أهل عكا لمشاهدة العسكر ، فركب السلطان ولعب هو وجميع العسكر بالرمح .

(١) فى س " يستظلوا ".

(٢) يشير المؤلف هنا إلى حوادث الحملة الصليبية التى تقدم ذكرها فى ص ٥٩٩ ، سطر ٥ ، وما بعده .

(٣) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 102) هذه الأسم إلى (Roger) ، بغير تعليق .

(٤) فى س " السواده " ، والسواد المقصود هنا موضع بنواحى البلقاء . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٧٤ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems, p. 285) .

ورحل [السلطان] إلى دمشق فدخلها ثانى شوّال ، وحضرت رسل التتار فى طلب الصلح . فجهّز [السلطان] إليهم الأمير مبارز الدين الطورى أمير طبر ، والأمير فخر الدين المقرى الحاجب ، ومعهما الرسل وهدية لأبغا بن هولاكو وغيره . فساروا فى خامس عشره ، فلما قدما على أبغا أكرمهما (١٠٦ ا) وأخلع عليهما وأعادهما .

وفيه كثر اشتغال السلطان بعمل النشّاب بيده ، فاقتدى به جميع الأمراء والخواص ، وكتب إلى الملك السعيد وسائر النوّاب بذلك ، فلم يبق أحد إلا وهو متوفّر على العمل . فعمل السلطان جملة نشّاب بيده ، نحتها وريّشها ونصّلها .

فلما ضحّى [السلطان] توجّه إلى حصن الأكراد ، ووصل إليه فى حادى عشرى ذى الحجة ، وشاهد العمارة [به] ، وأمر جميع من معه من الأمراء بنقل حجارة المنجنيق إلى داخل القلعة ، ونقل معهم بنفسه ؛ ثم نزل وعمل بيده فى مرمّة مكان بالخندق ، وحفر [بنفسه] . ثم سار إلى حصن عكّار ، وعمل فى عمارته بيده أيضاً ، وأمر برمى المنجنيقات ليعرف مواضع سقوط أحجارها . وعاد إلى حصن الأكراد ، وخلع على من به من الأمراء وأرباب الوظائف ؛ وخرج يتصيّد ، فكان الذى خلعه خمسمائة تشريف على من أحضر إليه الصيد .

وفى هذه السنة امتحن قاضى القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد بن على ابن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر المقدسى الحنبلى : وذلك أن القضاة الأربعة[١] الذين ولاهم [السلطان] الملك الظاهر بديار مصر ، كان كل منهم يستنيب قضاة عنه فى النواحى ، وكان لتقى الدين شبيب الحرّانى أخ ينوب عن قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى بالمحلة[٢]

(١) فى س " الأربع " .

(٢) بغير ضبط فى س ، والمقصود بهذا الاسم هنا مدينة المحلة الكبرى التى كانت مقر ولاية الغربية ، وكان قد غلب عليها اسم المحلة فقط حتى صار لا يفهم عند الإطلاق إلا هى . هذا وفى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٠١) أن هذه المدينة كانت تعرف باسم محلة الدقلا ، وقد ذكر ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٢٩) أنها كانت تسمى أيضاً باسم محلة شرقيون ، وأن هذه التسمية الثانية ناشئة من تكوين المدينة نفسها ، لأنها " ذات جنبين ، أحدهما سندفا والآخر شرقيون " .

فعزله . فغضب شبيب لذلك ، وكتب ورقة للسلطان بأن عند قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام ، بجملة كبيرة وقد ماتوا . فاستدعاه السلطان وسأله عن ذلك ، فأنكر وحلف وورّى فى يمينه ، فأمر السلطان بالهجم على داره ، فوُجد فيها كثير مما ادّعاه شبيب : بعضه قدمات أهله ، وبعضه لقوم أحياء فأخذ [السلطان] مما وجد الزكاة لمدة سنين ، وسلّم لمن كان حيا وداعته وغضب السلطان عليه واعتقله ، وأوقع الحوطة على داره فى يوم الجمعة ثانى شعبان .

وسار [السلطان][1] إلى الشام [وقاضى القضاة شمس الدين الحنبلى فى الاعتقال بمصر] ، فتسلط شبيب عليه وادّعى أنه حَشَوِىّ[2] ، وأنه يقدح فى السلطان ؛ وكتب بذلك محضراً . فأمر الأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنة بعقد مجلس ، فعُقد فى يوم الاثنين حادى عشره ؛ وحضر الشهود ، فنكل بعضهم وأقام بعضهم على شهادته ، فأخرق[3] النائب بمن شهد وجرّسهم[4] ، وذلك أنه تبيّن له تحامل تقى الدين شبيب على القاضى ؛ واعتُقل شبيب ووقعت الحوطة على موجوده ، وأعيد القاضى إلى (١٠٦ ب) اعتقاله بقلعة الجبل ، فأقام معتقلا سنتين ، ولم يولّ السلطان بعده قضاء الحنابلة أحداً .

(١) أضيف ما بين الأقواس بهـذه الفقرة من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، س ٥٦) ، ويلاحظ أن عبارة المقريزى هنا مشابهة كثيراً لما يقابلها فى النويرى .

(٢) ترجم (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 105. n. 123) هـذا اللفظ إلى (parleur inconsidéré) أى شخص معدوم القيمة أو المنفعة ، وقد دلل على هذا المعنى بأمثلة عديدة منها " الحشوية من العوام " . على أنه يوجد فى محيط المحيط ، ما يفهم منه أن الحشوى نسبة إلى مذهب معين ، ونصه ثم " الحشوية نسبة إلى الحشو ، ... أو الحشوية نسبة إلى الحشا ، [وهم] طائفة تمسكوا بالظواهر ، وذهبوا إلى التجسيم وغيره " .

(٣) المعنى أن النائب عاقب الشهود بالضرب أو غيره ، وتوجد فى (Quatrémere : Op. Cit. I. 2. p. 105. n. 125) أمثلة عديدة لاستعمال فعل " أخرق " مقرونا بالباء بهذا المعنى ، ومنها : " كان قصد الوزير الإخراق به بالضرب " .

(٤) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 105 et n. 126) هذا الفعل إلى (le naïb les fit promener ignominieusement) ، وهذا مطابق لما جاء فى محيط المحيط ، ونصه : " جرّس بالقوم سمّع بهم وأشهر عيوبهم وقبائحهم ، والعامة تقول جرّسهم بالمصادر " . هذا ويظن (Quatremére: Op. Cit.) أن استعمال هذا الفعل بمعنى التعجيب راجع إلى أن جرسا كان يدق على طول الطريق أمام المحكوم عليهم .

وفيها قدم الشريفان جماز وغانم بن إدريس مكة ، وملكاها أربعين يوما ؛ ثم قدم أبو نمى فملكها منهما . وفيها ولدت زرافة بقلعة الجبل فى جمادى الآخرة ، فأرضعتها بقرة . و [فيها] ولدت امرأة بدمشق فى بطن واحد سبعة[1] بنين وأربع بنات ، وكانت مدة حملها أربعة أشهر وعشرة أيام ؛ فماتوا كلهم وعاشت الأم .

ومات[2] فى هذه السنة من الاعيان تاج الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن رضى الدين أبى عبد الله محمد بن عماد الدين أبى حامد محمد بن يونس الموصلى الشافعى ، عن اثنتين وسبعين سنة ببغداد . وتوفى كمال الدين أبو الفضل سلار بن الحسن بن عمر بن سعيد الإربلى الشافعى ، بدمشق عن سبعين سنة . وتوفى عماد الدين أبو عبد الله محمد بن سنى الدين أبى الغنائم[3] سالم بن الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى التغلبى[4] الدمشقى ، بها عن سبعين سنة . وتوفى أمين الدين أبو الحسن على بن عثمان بن على بن سليمان الإربلى الأديب الشاعر ، وقد ترك الجندية وتنسك ، عن ثمان وستين سنة ، بطريق الفيوم . ومات ببلد الخليل عليه السلام الشيخ على البكا ، الرجل الصالح ، فى أول شهر رجب ، وله كرامات كثيرة .

* * *

سنة إحدى وسبعين وستمائة . فى خامس المحرم دخل السلطان إلى دمشق ، وقد تواترت الأخبار بحركة التتار : فركب خيل البريد من دمشق فى ليلة سادسه بعد عشاء الآخرة ، ومعه الأمير بيسرى ، والأمير أقوش الرومى ، وجرمك السلاح دار ، وجرمك الناصرى ،

---

(١) فى س " سبع ".

(٢) ليس للوفيات الآتية وجود هنا فى س ، بل هى واردة فى ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٦٠ ب ، ١٦١ ا ، حيث وضعت خطأ . هذا وليس ثمت شك فى مناسبة هذه الوفيات هنا ، فبعضها مذكور تحت تلك السنة فى ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٣١ — ٣٣٣) ، وهى واردة كما هنا فى ب (١٨٤ ا) : انظر أيضاً (Quatremére : Op. Cit. 1. 2. p, 108. n. 129) .

(٣) فى س " الغنام " ، والصيغة المثبتة هنا من ب (١٨٤ ا) .

(٤) فى س " الثعلبى " . انظر ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٣٢) ، حيث ورد هذا اللفظ برسم " الثعلبى " .

وسنقر الألفي السلاح دار ، وعلم الدين شقير مقدم البريدية ، وساق فدخل قلعة الجبل في يوم السبت ثالث عشره على حين غفلة [و] لم يشعر الناس إلا وقد دخل باب القلعة راكبا ؛ ثم ركب إلى الميدان ولعب بالأكرة ، وأمر بتجهيز العساكر إلى الشام . وكتب [السلطان] إلى الأمراء [المقيمين][1] بدمشق ، [وذكر في الكتب] أنه سطرها من البيرة بحكم أنه توجه لتدبير أمورها ، وسيرها إليهم بخطه ليكتب عليها من دمشق أجوبة البريد للأطراف ؛ وكان الأمير سيف الدين الدوادار قد أقام بقلعة دمشق ليجهز الكتب والبريدية .

وفي يوم الاثنين خامس عشره ركب السلطان إلى مصر ، وركب في البحر ولعبت الشواني قدامه . وفي ليلة الأربعاء سابع عشره[2] جهز العسكر المجرد إلى الشام . وفي ليلة تاسع عشره توجه السلطان إلى الشام بمن حضر معه على البريد ، فدخل قلعة دمشق ليلا .

وفي صفر قدمت رسل الملك أبغا ورسل الروم ، فلم يحتفل بهم ، وأمروا أن يضربوا جوكا[3] قدام نائب حلب وقدام صاحب حماة . وكان مجيؤهم[4] بأن يحضر سنقر الأشقر حتى يمشي في الصلح ، ثم غيروا كلامهم وقالوا : " يمشي السلطان أو من يكون بعده في المنزلة إلى أبغا لأجل الصلح " . فقال السلطان للرسل : " إن أبغا إذا قصد الصلح يمشي هو فيه أو أحد من إخوته " وأمر [السلطان] بلبس العساكر فلبسوا عدد الحرب ولعبوا في الميدان خارج دمشق ، والرسل تشاهد ذلك ؛ ثم سفروا في رابع ربيع الأول . وفيه تسلم

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة بعد مراجعة النويري (نهاية الارب ، ج ٢٨ ، ص ٤١) . انظر أيضاً (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 109, n. 131) .

(٢) في س " عشرينه " ، وكذلك في النويري (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤١) . انظر ما يلي بنفس السطر ، وكذلك (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 109) .

(٣) في س " جوك " بغير ضبط ، وهو لفظ تركي معناه الجلوس على الركبتين كعادة المغول في حضرة ملوكهم ، ومعنى العبارة كلها أنه طلب إلى الرسل المذكورين أن يؤدوا لنائب حلب وصاحب حماة مثل ما يؤدون لملوكهم من شعائر الاحترام والخضوع . انظر (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 109 n. 132) ؛ (Dozy : Supp. Dict. Ar.) وكذلك ص ٩٤٥ ، حاشية ٥) .

(٤) في س " مجهم " .

السلطان صهيون من سابق الدين وفخر الدين ، ولدى سيف الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان، ابن منكبرس بعد موته[1] ؛ [وكان هذا] بوصيته[2] لهما بذلك . فأقرهما [السلطان] وأحسن إليهما ، وقدم أهلهما إلى دمشق .

و [فى خامس[3] جمادى الأولى] ورد الخبر بنزول التتار على البيرة ونصبهم[4] المجانيق عليها، وأنهم قد حفظوا مخاوض[5] الفرات ونزلوا عليها ، ليعوقوا من يصل إليهم . فجهز السلطان الأمير فخر الدين الحمصى بعدة من عسكر مصر والشام إلى جهة حارم ، وجهز الأمير علاء الدين الحاج طيبرس (١٠٧ ا)[6] الوزيرى فى جماعة ، ورحل [هو] من ظاهر دمشق [فى ثامن عشر جمادى الأولى] ، ومعه مراكب مفصلة محمولة . وجد [السلطان] فى المسير حتى وصل إلى الفرات ، فوجد التتار على الشط ، فألقى المراكب التى حملها معه فى الفرات وأشحنها بالمقاتلة ، فتراموا هم والتتار . واقتحم الأمير قلاون[8] [الألفى الصالحى] الفرات ، فخاض ومعه عدة وافرة ، وصدم التتار صدمة فرقهم بها ومزقهم . فألقت الأطلاب أنفسها فى الفرات ، وساقوا فيها عوما الفارس إلى جانب الفارس ، وهم متماسكون بالأعنة ومجاديفهم

(١) كذا فى س ، وقد توفى منكبرس هذا — واسمه منكورش أيضاً — تلك السنة . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٠٤ ، فى Rec. Hist. Or. I.).

(٢) ضمير الهاء عائد على منكبرس .

(٣) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢١١ وما بعدها) ، حيث توجد تفصيلات وافية عما حدث للسلطان بيبرس مع التتر تلك المرة .

(٤) فى س " نصب " .

(٥) فى س " مخاضى " . انظر محيط المحيط .

(٦) يوجد بين الصفحتين ١٠٦ ب ، ١٠٧ ا فى س ورقة منفصلة ، بها وفيات تابعة لسنة ٦٧٤ هـ ، وقد أثبتت فى موضعها المناسب تحت تلك السنة . (انظر ص ٦٢٤ ، حاشية ٩) .

(٧) كانت تلك المراكب للصيادين ببحيرة قدس القريبة من حمص ، وقد فصلت وحملت على ظهور الجمال إلى نهر الفرات كما بالمتن . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢١٢) .

(٨) كان الأمير قلاون ــ حسبما جاء فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢١٣) ــ " أول من أرمى نفسه من الفرات ... ، ثم تبعه الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، ثم تبعهما السلطان بنفسه مع العساكر ... " .

رماحهم ، وعليهم وعلى خيولهم الحديد . وازدحموا فى الماء ، فكان لقعقعة السلاح وأمواج الماء هول مفزع . وطلع السلطان فى أوّلهم ، وصلّى فى منزلة العدوّ ركعتين شكراً لله تعالى ؛ وبثّ العساكر يميناً وشمالا ، فقتلوا وأسروا عدداً كثيراً .

وبات العسكر ليلة الاثنين ، فورد الخبر بهزيمة التتار عن البيرة مع مقدمهم دربای[1] ، وتركهم الأثقال والأزواد ؛ وأن أهل البيرة أخذوا ذلك فتقوّوا به . وأقام السلطان ينتظر من يلاقيه من التتار فلم يأت أحد ، فعدى بجميع عساكره فى الفرات كما فعلوا أول مرة ، ونزل بهم فى ذلك ما لا يوصف من كثرة المشقة ، وعَظُم الهول حتى طلعت العساكر إلى البرّ. وسار [السلطان] إلى البيرة ، وخلع على نائبها وأعطاه ألف دينار ، وعمّ بالتشاريف والإنعام أهل البيرة ، وفرّق فيهم مائة ألف درهم فضة ، وجرّد هناك عدّة من العسكر زيادة على من كان فيها ؛ وسار إلى دمشق فدخلها فى ثالث جمادى الآخرة والأسرى بين يديه .

وخرج [السلطان] إلى مصر ، فوصل قلعة الجبل فى خامس عشريه ؛ وأفرج عن الأمير عز الدين الدمياطى ، وأنزله بدار الوزارة وأجرى عليه الرواتب . ثم استدعاه وشرب معه القمز[2] ، وقد حضر أكابر الأمراء لذلك ، فلما ناوله السلطان الهناب[3] بيده وهو مملوء قال [عز الدين] : "ياخوند ! قد شبنا وشاب نبيذنا" . وعمّ [السلطان] بالخلع الأمراء والوزراء والقضاة والمقدمين ؛ وجهّز رسل الملك منكوتمر ورسل الملك الأشكرى ورسل الدعوة ، فساروا فى شعبان .

---

(١) كذا فى س ، بنقطتين تحت الياء ، وهو مترجم فى (Quatremère : OP. Cit. I. 2. p. 111) إلى (Derbaï) ، ووارد فى (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 464) بصيغة (Derbaï) . انظر أيضاً ابن أبى الفضائل (كتابه النهج السديد ، ص ٢١٥ ، حاشية ١) .

(٢) القمز نبيذ يعمل من لبن الخيل ، واللفظ تترى الأصل ، وقد كان السلطان بيبرس شغفاً بهذا النوع من الشراب . انظر (Dozy : Supp' Dict. Ar.) ، وما به من المراجع ؛ Lane-Poole : A Hist. of Egypt. p. 278)

(٣) فى س " الهنابه " بغير ضبط ، والهناب قدح الشراب ، ويقابله فى الفرنسية (hanap) ، وفى الإيطالية (anappo) ، وفى الألمانية (napf) . انظر (Dozy :Supp. Dict. Ar.) ، وما هناك من مراجع) .

وفى ثانى عشر شوّال قبض على الشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى شيخ السلطان ، [وكان السلطان قد استدعاه إلى القلعة ، وأحضر جماعة ليحاققوه[1] على أشياء كبيرة بدت منه كاللواط والزنا وغيره ، فأمر السلطان باعتقاله] ؛ وسجن بقلعة الجبل .

وفى ثانى عشرى ذى الحجة استولى السلطان على بقية حصون الدعوة الإسماعيلية : وهى المَيْنَقَة[2] والقُدْمُوس والكَهْف ؛ وأقيمت هناك الجمعة وتُرُضِّى عن الصحابة بها ، وعُفِّيت المنكرات منها ، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره .

وفى هذه السنة سار والى قوص من أسوان حتى قارب دمقلة من بلاد النوبة ، وقتل وأسر ثم عاد . وفيها استولى (١٠٧ ب) السلطان على عامة مدن برقة وحصونها . وفيها حصل الاحتفال بأمر الشوانى ونصب المجانيق على أسوار الإسكندرية ؛ فكمل هناك نصب مائة منجنيق ، وذلك لكثرة الإشاعة بحركة الفرنج لقصد ثغور ديار مصر . وفيها فتحت قلعة كَيْنُوك من بلاد الأرمن ، على يد الأمير حسام الدين لاجين العنتابى . وفيها تنجّزت عمارة صخرة بيت المقدس . وفيها نزل السلطان يعوم فى النيل وهو لابس زردية مُسْبَلَة[4] ؛ وعمل بسطا كبيرة ، وأركب فوقها الأمير حسام الدين الدوادار ، والأمير علاء الدين أيدغدى الأستادار ، وجرّها وجرّ فرسين — وهو يعوم لابس الزردية — من البرّ إلى البرّ[5] .

---

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢١٧) . انظر أيضاً النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤١ — ٤٢) ، حيث توجد تفصيلات كثيرة فى هذا الصدد .

(٢) فى س " المنيعة " .

(٣) بغير ضبط فى س ، وفى (Quatremère Op. Cit. I. 2. p. 113. n. 137) ، أن هذه البلدة هى بلدة الحدث ، وعلى هذا يكون موقعها بين ملطية وسميساط ، ويقال لها الحمراء أيضاً . انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٨) .

(٤) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 113) هذه العبارة إلى "Il était revêtu d'une cuirasse flottante" ، أى أن زردية السلطان كانت واسعة مرخاة وتطفو على الماء .

(٥) قبالة هذه العبارة فى هامش الصفحة فى س إشارة إلى هذه الحادثة ، وهى مكتوبة بخط مخالف ونصها : " عوم السلطان الظاهر (كذا) فى البحر " .

ومات[١] فى هذه السنة من الأعيان شهاب الدين أبو صالح عبيد الله بن الكمال أبى القاسم عمر بن الشهيد شهاب الدين أبى صالح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن بن العجمى الحلبى ، بها عن اثنتين وستين سنة . وتوفى فخر الدين أبو محمد عبد القاهر بن عبد الغنى ، ابن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن تيمية الحرانى الحنبلى ، عن نحو ستين سنة بدمشق . وتوفى الأديب مخلص الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن هبة الله بن قرناص الحموى . وتوفى الشريف شرف الدين أبو عبد الله محمد بن رضوان الحسينى ، الناسخ الكاتب المجوّد المؤرخ ، عن تسع وستين سنة[٢] .

* * *

سنة اثنتين و سبعين وستمائة : فى المحرم نُقض باب القصر المعروف بباب البحر تجاه المدرسة الكاملية بين القصرين ، [لأجل نقل عمد منه لبعض العمائر السلطانية] ، فوُجد فيه صندوق فى داخله صورة من نحاس أصفر ، [مُفَرّغ] على كرسى شكل هرم ارتفاعه قدر شبر بأرجل نحاس ، والصنم جالس عليه و يداه مرتفعتان تحملان[٣] صفيحة دورها ثلاثة أشبار مكتوبة [بالقبطى ، و إلى جانب الكتابة فى الصفيحة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة ، و إلى الجانب الأخر شكل ثان وعلى رأسه صليب ، وشكل ثالث فى يده عكاز وعلى رأسه صليب .] ووجد [مع هذا[٤] الصنم] فى الصندوق لوح من ألواح الصبيان ، قد تكشط أكثر ما فيه من الكتابة و بقى فيه بيبرس[٥] ؛ فتُعُجّب من ذلك .

---

(١) ليس للوفيات الآتية وجود هنا فى س ، على أنها واردة فى ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٥٩ ب ، ١٦٠ ا ، حيث ألصقت خطأ . انظر (ابن العماد شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ — ٣٣٥ ؛ وكذلك النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٢ — ٤٣) .

(٢) فى هذه السنة أيضاً ، حسبما ورد فى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٢) كانت وفاة الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك الفائز إبراهيم بن الملك السلطان العادل سيف الدين أبى بكر محمد ابن أيوب ، وقد توفى فى معتقله بجب خزانة البنود بالقاهرة ، ودفن بالقرافة بجوار ضريح الإمام الشافعى .

(٣) فى س " مرتفعه يحمل " .

(٤) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة بعد مراجعة المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٣) ، حيث توجد تفصيلات وافية بصدد هذه الموجودات . انظر أيضاً (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 114 n. 141) .

(٥) فى س " بيرس " . انظر المراجع المذكورة بالحاشية السابقة .

وفيه وردت الأخبار بحركة الملك أبغا ، فخرج السلطان من قلعة الجبل فى ليلة سادس عشريه ، ومعه الأمير سنقر الأشقر ، والأمير بيسرى ، والأمير أتامش السعدى . فلما وصل [السلطان] عسقلان كتب إلى القاهرة بخروج العساكر جميعها والعربان من ديار مصر ، صحبة الأمير بيليك الخازندار ؛ ورسم بأن كل من فى سائر مملكته له فرس فإنه يخرج إلى الغزاة ، وأن تخرج كل قرية من قرى الشام رجالة يركبون الخيل على قدر حالهم ، ويقوم من بالقرية بكلفة من يتوجه . ودخل السلطان إلى دمشق فى سابع عشر صفر .

فخرج من عساكر مصر فى حادى عشره عدة أربعة آلاف فارس ، صحبة مقدميهم : وهم الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى ، وجمال الدين أقوش الرومى ، وعلاء الدين قطليجا[1] ، وعلم الدين ططح[2] . ثم خرج فى ثامن عشره الأمير بيليك الخازندار بطائفة كبيرة ، فورد مرسوم السلطان على الأمير بيليك بالنزول قريبا من يافا . وعند ما قارب عسكر مصر دمشق ركب السلطان من دمشق فى نحو أربعين نفسا جرائد بغير (١٠٨ ا) ركبدار ، وقد طلب العسكر وقارب المنزلة فاعترض السلطان العسكر ، وكان قد تلثم هو وجماعته ، فظنهم الحجاب من بعض التركمان ، فأمروهم بالترجل فأبوا . وساق السلطان بمفرده ، وجاء خلف السناجق وحسر لثامه عن وجهه ، فعرفه السلاح دارية . ودخل [السلطان] وساق فى موكبه ، فنزل الناس وقبلوا الأرض ، وسار حتى نزل ورتب العسكر . وأصبح [السلطان] فركب فى موكبه ، وقضى أشغال الناس إلى أن أمسى ، [ثم] ركب بمن حضر معه إلى دمشق ، وأصبح راكبا فى موكبه . وفى مدة غيبته كان الأمير سيف الدين الدوادار يرتب الأمور بدمشق ، ويكتب الأجوبة على علائم فوق أوراق بيض

(١) كذا فى س ، واسمه " عز الدين قطليجا " فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢١٨) ، وأورده النويرى (نهاية الأدب ، ج ٢٨ ، ص ٤٤) على أنه " شمس الدين أقش المعروف بقطليجا " .

(٢) كذا فى س ، وهو وارد " طرطج " فى ابن أبى الفضائل (نفس المرجع والصفحة) ، " وطردح " فى النويرى (نفس المرجع والجزء والصفحة) .

وفيه فرّ الأمير شمس الدين بهادر بن الملك فرج[1] [من التتار إلى السلطان بيبرس] .
وكان [الملك] فرج [فى أول أمره] أمير طشت[2] السلطان جلال الدين خوارزم شاه ،
وكان له سميساط ، وبعد وفاة جلال الدين ملك قلعة كَيْرَان[3] وعدة قلاع بناحية نَقْجَوَان[4] .
ثم وصل [الملك فرج هذا] إلى [بلاد السلاجقة] الروم ، فأقطع بها ناحية أقْصَرَا[5] .
وكان بهادر قد كاتب السلطان [بيبرس وراسله وتقرّب إليه بإعلامه بحقيقة أخبار المدن]
فعلم به التتار فأمسكوه وحملوه إلى الأردو ، فهرب وحضر إلى البيرة ، ووصل إلى دمشق وبها
الملك الظاهر ، فأكرمه وأعطاه بمصر إمرة عشرين فارسا .

وخرج السلطان من دمشق إلى مصر ، فدخل قلعة الجبل فى رابع عشرى جمادى
الآخرة . فتواترت الأخبار بحركة التتار ، فرُسِم للأمير عيسى بن مهنا أمير العرب بالغارة ،
فأغار ووصل إلى الأنبار فى ثامن عشر شعبان . فظنّ التتار أن السلطان [قد] قدم ،
فانهزموا إلى أبغا ، فرجع إلى بلاده .

وفى نصف شعبان أفرج عن قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى . وفى شهر رمضان رسم
للعسكر بالتأهب للعب القبق ورمى النشاب ، فركب من كل عشرة فارسان فى أحسن زيّهم
وقت الحرب ، وركب السلطان فى مماليكه ودخلوا فى الطعن بالرماح . ثم أخذ [السلطان]
الحلقة ورمى النشاب ، وجعل لمن أصاب من الأمراء فرسا من خيله الخاص بتشاهيره ،

---

(١) فى س " فرح " ، وقد صحح هذا الاسم ، وأضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها ، بعد مراجعة النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٤) ، حيث توجد تفصيلات كثيرة بصدد هذا الملك الشريد . انظر أيضاً (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p.116. n. 143) .

(٢) فى س " اميرطست " .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة بآذربيجان بين تبريز وبيلقان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٣٢) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من نواحى أران وتسمى أيضا نخجوان ، ويذكر ياقوت أيضاً (نفس المرجع والجزء ، ص ٨٠٢) أن النسبة من نقجوان " نشوى " ، وقد سأل فى آذربيجان عن سبب ذلك الاشتقاق الغريب فلم يستطع أحد أن يخبره بعلته .

(٥) فى س " اقصر " . انظر(Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 116) .

والحلقة والبحرية بخلطاق . فاستمر ذلك أياما ؛ تارة يكون اللعب فيها بالرمح وتارة بالنشاب وتارة بالدبابيس ؛ وفرّق [السلطان] فيها من الخيل والبغالطيق جملة . وساق السلطان يوما على عادته في اللعب ، وسلّ سيفه فسلّت مماليكه سيوفها ، وحمل هو ومماليكه الخواص حملة رجل واحد واصطدموا ، فكان منظرا مهولا . وأطلق [السلطان] من التشاريف ما عمّ به سائر من في خدمته : من ملك وأمير ووزير ، ومقدمى الحلقة والبحرية ، ومقدمى المماليك والمفردية ، ومقدمى البيوتات السلطانية ، وكل صاحب شغل ؛ وجميع الكتاب والقضاة ، وسائر أرباب الوظائف .

وفي يوم عيد الفطر خُتن الأمير نجم الدين خضر ابن السلطان وعدّة من أولاد الأمراء ؛ وجرى السلطان على عادته في عدم تكليف الناس ، فلم يقبل من أحد هدية (٥٨ ا ب) ولا تقدمة ، ولم يبق من لا شمله إحسانه من سائر الطوائف ، إلا المغانى وأرباب الملاهى فإنه لم تنفق لهم في طول أيامه سلعة ، ولا نالهم منه رزق البتة .

وفي ثاني عشر شهر رمضان سار الملك السعيد من قلعة الجبل في عدّة من الأمراء جريدة إلى الشام ، من غير أن يعلم به أحد . فدخل دمشق في سادس عشريه على حين غفلة من النائب ، بحيث لم يشعر به العسكر إلا وهو بينهم في سوق الخيل ، فقبّلوا له الأرض . ودخل [الملك السعيد] إلى القلعة وأراد لعب القبق خارج دمشق ، فمنعته كثرة الأمطار . وفي ليلة عيد الفطر خلع [الملك السعيد] على أمراء الشام والمقدمين والمفاردة والأكابر ، وخرج يتصيّد بالمرج ، وسار إلى الشقيف وصفد ، وتوجّه إلى القاهرة فوصل قلعة الجبل في حادى عشرى شوال

وفي هذه السنة كان بمصر وأريافها وباء ، هلك فيه خلق كثير أكثرهم النساء والأطفال . وحصل في بلاد الرملة وبلاد القدس مرض وحميات ، فقدم رجل نصرانى إلى الأمير غرس الدين بن شاور والى الرملة ، وقال [له] : " هذه الآبار قد حاضت ، كما جرى في السنة التى جاء التتار فيها إلى الشام . وإن الفرنج بعثوا إلى قرية عابُود[1] في الجبل ، [و] أخذوا

(١) في س " عابور " بغير ضبط أو نقط ، وعابود قرية جبلية بنواحى بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٨٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٠) .

من مائها وصبّوه فى الآبار فزال الوخم " ، وأشار بعمل ذلك فبعث والى الرملة إلى القرية المذكورة ، وأخذ من مائها وصبّه فى الآبار التى بيافا ، وكان الماء قد كثر فيها فنقصت إلى حدّها المتعارف . وكُتب إلى السلطان بذلك وقيل [له] : " إن هذه الآبار إناث تحيض ، وآبار الجبل ذكور ومنها آبار قرية عابود[1] المذكورة " .

وفيها ولى تقى الدين أبو عبد الله محمد بن ...[2] بن يحيى الرقى قضاء الشافعية بحلب ، بعد وفاة محيى الدين محمد بن الأستاذ .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير فارس الدين أقطاى الصغير المستعرب الصالحى النجمى ، أتابك العساكر بديار مصر ، عن سبعين سنة فى تاسع جمادى الأولى . ومات الأمير حسام الدين لاجين الأيدمرى المعروف بالدرفيل ، دَاوَدَار السلطان . وتوفى قاضى حلب محيى الدين أبو المكارم محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بن الأستاذ الشافعى بها ، و [قد] قدم القاهرة ودرّس بالمَسْرُوْرِية[3] . وتوفى قاضى قضاة دمشق كمال الدين أبو الفتح عمر بن شدّاد بن على التفليسى الشافعى ، عن سبعين سنة بالقاهرة . وتوفى مؤيد الدين أبو المعالى أسعد بن المظفر بن أسعد بن حمزة بن القلانسى التميمى ، خارج دمشق عن ثلاث وسبعين سنة ، بعد ما قدم القاهرة . وتوفى النحوى جمال الدين أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن مالك الطائى الجَيّانِى[4] بدمشق ، عن بضع وسبعين سنة . وتوفى تقى الدين أبو محمد إسماعيل بن ابراهيم بن شاكر بن أبى اليسر التنوخى المعرّى ، المحدث الأديب كاتب الإنشاء ، عن ثلاث وثمانين سنة بدمشق . وتوفى المسند نجيب الدين أبو الفرج عبد اللطيف

(١) فى س " عابور " .

(٢) بياض فى س .

(٣) المسرورية اسم مدرسة كانت فى الأصل دارا لشمس الخواص مسرور ، فجعلت مدرسة بعد وفاته . وكان مسرور هذا ممن اختص بالسلطان صلاح الدين الأيوبى ، فقدمه على حلقته ولم يزل مقدما إلى الأيام الكاملية ، ثم انقطع إلى الله ولزم داره حتى مات . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٨) .

(٤) فى س " الحيانى " ، والجيانى نسبة إلى بلدة جيان التى تبعد سبعة عشر فرسخا عن قرطبة بالأندلس . (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٣٩ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٦٩ — ١٧٠) .

ابن عبدالمنعم بن على بن نصر الحرّانى ، مدرّس دار الحديث الكاملية ، عن خمس وثمانين سنة بالقاهرة . وتوفى جمال الدين أبو عيسى عبد الله بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد ابن علاقة الأنصارى ، عن ست وثمانين سنة . وتوفى أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبى بالإسكندرية ، عن بضع وثمانين سنة . ومات ببغداد العلامة نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسى الإمام المشهور ، فى [ذى الحجة[1]] . و[قد] خدم أولا صاحب الألموت ؛ ثم خدم هولاكو وحظى عنده ، وعمل له رصدا بمراغة ، وصنّف كتبا عديدة ؛ وكان مولده فى جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

* * *

سنة ثلاث وسبعين وستمائة . فى المحرم قدم الملك المنصور [محمد] صاحب حماة إلى قلعة الجبل ، ومعه [إخوه[2]] الملك الأفضل على ، وولده المظفر تقى الدين محمود . فأنزل بمناظر الكبش ، وعندما حلّ بها وصل إليه الأمير آقسنقر الفارقانى الأستادار بالسماط ، فقدّمه بين يديه ووقف كما يقف بين يدى السلطان فلم يدعه الملك المنصور يقف وما زال به حتى جلس ، فلما فرغ السماط قُدِّمت الخلع والتعابى وغيرها .

وفى ثامن صفر توجّه السلطان من قلعة الجبل ، وسار (١٥٩ أ) إلى الكرك فأقام بها ثلاثة عشر يوما ، وكشف أحوال الشوبك ، وعاد إلى قلعة الجبل ثانى عشرى ربيع الأول .

---

(١) موضع ما بين القوسين بياض فى س ، وقد أضيفت " ذى الحجة " من ابن أبى العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٠) ، حيث توجد ترجمة أطول مما هنا لنصير الدين المذكور .

(٢) أضيف ما بين الأقواس من (Lane-Poole: Saladin Table II, in pocket) ، والمنصور محمد هذا سليل الملك المظفر تقى الدين عمر ، الذى أقطعه عمه صلاح الدين الأيوبى حماة سنة ٥٧٤ هـ (١١٨٧ م) . وقد ظلت حماة بيد أبناء هذا الفرع الأيوبى ، وكان صاحبها أيام غارات التتر على الشام المنصور محمد المذكور ، فخضع لهولاكو والتتر ، ثم انقلب بعد هزيمتهم إلى مصادقة سلاطين المماليك والاعتراف بسيادتهم ، كما هو واضح من المتن . هذا والأفضل على هو أبو المؤيد أبى الفداء ، صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر المتداول فى هذه الحواشى ، وقد ولد أبو الفداء هذا سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) بدمشق ، وتولى حماة بعد عدة سنين من انتهاء ولاية المظفر تقى الدين محمود بن المنصور محمد عليها . (Enc. Isl. Arts. Hamāh, & Abu-l-Fida,)

ثم توجّه إلى العباسة ومعه الملك السعيد ، فصرع الملك السعيد أوزة خبية[١] . وقيل له : "لمن تدعى ؟" فقال : "لمن أدعو بحياته ، ومن أتقرّب إلى الله بدعواته ، الذى حسبي افتخارا أن أقول والدى ، ومن يتمرّن اصرع أعدائه ساعدى." ؛ فقبّله السلطان ووهبه من كل شيء .

[وفيها تحيّل السلطان على استخلاص[٢] رؤساء الشوانى الذين أسروا بقبرس على ميناء نمسون] : وكان الفرنج لما كسرت الشوانى على قبرس وأسروا من فيها ، بعث السلطان الأمير فخر الدين المقرى الحاجب إلى صور لابتياع الأسرى ، فتغالى الفرنج فى الرؤساء و باعوا القوّاد والرماة لطائفة منهم . ففادوا بهم أسرى أطلقهم السلطان ، و بقى الاحتفاظ على الرؤساء وهم ستة : منهم رئيس الإسكندرية ورئيس دمياط ؛ فحبسوهم بعكا فى قلعتها . فبعث السلطان إلى الأمير سيف الدين خطلوا — وهو بصفد — يأمره بالتحيّل فى سرقتهم ؛ فأرغب الموكلين بهم بالمال حتى وصل إليهم بمبارد[٣] ومناشير ، وسُرقوا من جبّ قلعة عكا ، وساروا فى مركب إلى خيل قد أعدّت لهم ، فركبوها ووصلوا إلى القاهرة ولم يشعر بهم الفرنج حتى قدموا على السلطان ، فكانت بعكا لأجلهم فتنة بين الفرنج .

وقدم كتاب متملك الحبشة وهو الحَطِّى[٤] يعنى الخليفة ، يخاطب السلطان فيه [بعبارة] : "أقل المماليك يقبّل الأرض وينهى" ؛ وسأل فيه أن يُجَهِّز له مِطْران[٥] من

---

(١) كذا فى س بغير نقط على التاء ، وفى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ، ٤٧) ، أن الملك السعيد صرع "اوزه جنيه" . انظر أيضاً العينى (عقد الجمان ، ص ٢٤٨ ، فى ,Rec. Hist, Or. II. 1) حيث ورد أن الملك السعيد صرع "طيرا من الطيور الواجبة" ، وهذه العبارة الأخيرة مترجمة بالفرنسية فى نفس المرجع والصفحة إلى "un des oiseaux fixés comme but" ، أى أحد الطيور المعينة للرماية . انظر ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٦ .

(٢) أضيف ما بين القوسين من العينى (نفس المرجع والصفحة) .

(٣) فى س "بمارد" .

(٤) انظر ص ٦١٦ ، سطر ٢٨ .

(٥) يقابل هذا اللفظ فى الفرنسية (métropolitain) ، ومرادفه فى اللغات الأوروبية الأخرى قريب من هذا ، وفى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٣) أن المطران كان فى عصره هو القاضى الذى يفصل فى الخصومات بين أهل طائفته .

عند البطرك ، فأجيب[1] . وسار السلطان إلى الإسكندرية ، وأمر ببناء ما تهدّم من المنار ، وعاد إلى قلعته . وكتب [السلطان] بأن تخرج عساكر حلب للغارة ، فخرجت وأغارت على بلاد سيس ، وغنموا وقلعوا أبواب ربض مرعش .

وفى ثالث شعبان توجه السلطان من قلعة الجبل إلى الشام ، فدخل دمشق فى سلخه ، وخرج منها فى سابع رمضان فدخل حماة ، ثم سار منها بالعساكر والعربان . وجرّد [السلطان]

(١) يوجد فى مفضل ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢١٩ ، وما بعدها) تفصيلات كثيرة فى هذا الصدد ، وهى تحت سنة ٦٧٢ هـ ، ونصها : " وفيها ذكر [محي الدين] بن عبد الظاهر [فى كتابه السيرة الظاهرية] أن فى هذه السنة ورد كتاب ملك الحبشة على السلطان الملك الظاهر ، على كتاب صاحب اليمن ، وهو يقول إن سلطان الحبشة قد قصد الملوك فى إيصال كتابه إلى السلطان . وكان ضمن كتاب ملك الحبشة يقول أقل المماليك عرا ملالك (كذا) يقبل الأرض وينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر (٢٢٠) خلد الله ملكه ، إن رسولا وصل من جهة والى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا ، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده . فليرسم مولانا السلطان للبطرك أن يعمل لنا مطرانا يكون رجلا جيدا عالما ، لا يحب ذهبا ولا فضة ؛ ويسيره إلى مدينة عوان (كذا ولعلها سوان أى أسوان ، أو لعلها عدن ، وهذا الفرض الثانى معتمد على الجملة التالية هنا) . فأقل المماليك يسير إلى نواب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه ، وهو يسيره إلى أبواب السلطان ؛ وما أخرت الرسل إلى الأبواب ، إلا أنى كنت فى يكار ، فإن الملك داود قد توفى وقد ملك ولده . وعندى فى عسكرى مائة ألف فارس من المسلمين ، وإنما (كذا) النصارى فكثير لا يعدوا ، كلهم غلمانك وتحت أمرك ، والمطران الكبير يدعو لك ، وهذا الخلق كلهم (٢٢١) يقولون آمين . وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسفرهم كما يحبون ، والرسول الذى حضر إلينا من جهة والى قوص مريض ، وبلادنا وخمة أى من مرض بها ما يقدر أحد يدخل إليه ، ومن يشم رائحته يمرض ويموت . قال ابن عبد الظاهر ، فرسم [السلطان] بكتب الجواب ، فكتبت : ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل فى مملكته حطى ملك أمحرة ، أكبر ملوك الحبشان ، الحاكم على مالهم من البلدان ، نجاشى عصره وفريد مملكته فى دهره ، سيف الملة المسيحية ، عضد دولة دين النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين ، سلطان الامحرة ، حرس الله نفسه ، وبنى على الخير أسه — ، فوقفنا عليه وفهمنا ما فيه . فأما طلب (٢٢٢) المطران ، فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب ، وإنما كتاب السلطان الملك المظفر ورد مضمونه أنه وصل من جهته كتاب وقاصد ، وأنه أقام عنده حتى يعود إليه الجواب . وأما ما ذكره من كثرة عساكره ، وأن من جملتها مائة ألف مسلمين ، فالله تعالى يكثر فى عسكرنا المسلمين . وأما وخم بلاده ، فالآجال مقدرة من الله تعالى ، وما يموت أحد إلا بأجله ، ومن فرغ أجله مات . قال ابن عبد الظاهر ، لما ذكرنا مكاتبة صاحب الحبشة أردنا أن نذكر شيئاً من بلاده : أما أمحرا فإنه إقليم من أقاليم الحبشة ، وهو الإقليم الأكبر وصاحبه يحكم على أكثر الحبشة ، مثل بلاد الداموت والحرلى . وصاحب بلاد أمحرا يسمى حطى يعنى الخليفة ، وكل من يملكها يلقب بهذا اللقب ؛ ومن ملوك الحبشة (٢٢٣) يوسف بن ارسماية ، وهو صاحب بلاد حداية وشوا وقلعور وأعمالها ، وقومهم ملوك المسلمين . وأما الزيلع وقبائلها فلها فيها ملوك ، إلا أنهم سبع قبائل ، وهم مسلمون وخطباؤهم يخطبون بأسماء مقدميهم السبعة " . انظر أيضاً (النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٥ — ٤٦ ؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 122. n. 161) .

عيسى بن مهنا ، والأمير حسام الدين العنتابى ، بعسكر إلى البيرة ؛ وجهّز الأمير قلاوون الألفى ، والأمير بيليك الخازندار ، [بعسكر إلى بلاد سيس[1]] ؛ فساروا وهجموا أمنيصة[2] على الأرمن ، وقتلوا من بها . وكانت المراكب قد حُملت معهم على البغال وهى مفصّلة ، ليمدوا فيها من [نهر] جهان[3] والنهر[4] الأسود ، فلم يُحتج إليها .

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٢٥ ، وما بعدها) ، وفى نفس المرجع تفسير لتولية السلطان اهتمامه هذه السنة صوب هذه الجهات ، ونصه : " (٢٢٦) وكان سبب خروج السلطان هذه المرة ما ذكره عز الدين ابن شداد ، فى الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، وذلك أن معين الدين البرواناه كتب إلى السلطان الملك الظاهر يحرضه على الدخول إلى البلاد ويقصد (كذا) الروم . وذلك أنه لما ضاق ذرعه من (٢٢٧) أجاى (Atchai) بن هولاوون و [وهو] أخو أبغا ، وعزم اجاى على قتله ، فحمله الخوف على مكاتبة السلطان فى السنة الحالية ؛ وسير [أيضا] إلى أبغا وذكر له أمورا توجب أن يستدعى أجاى إليه . فسير أبغا وطلب أجاى فتوجه نحوه ، فوافق خروجه من البلاد دخول السلطان إلى الشام . فأفاق البرواناه على نفسه ، فسير يقول السلطان أقصد هذه السنة سيس ، وفى السنة الآتية أملكك البلاد . فقصد السلطان سيس " . حسبما فى المتن ؛ انظر أيضا (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 471 et seq.) ، حيث توجد أسباب أخرى .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة على شاطىء نهر جيحان ، وتسمى فى الحوليات الصليبية (Mamistra) (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 124) ؛ وهى تقارب طرسوس ، وبينها وبين أذنة تسعة أميال . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥٧ ، ومابعدها . Le Strange : Palest. Under Moslems, pp. 505 et seq

(٣) بغير ضبط فى س ، وهذه التسمية عامية ، والصحيحة نهر جيحان ، واسمه فى الخرائط الأوربية (Pyramus) . ويخرج هذا النهر من بلاد الروم عند زبطرة (Zabatrah) ، وتقع عليه المصيصة ويصب فى البحر الأبيض المتوسط على مسافة قريبة منها . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤١٧ ، Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 62) . انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ٢٢٩ ، وما بعدها) ، حيث يوجد الوصف التالى لهذا النهر ، ونصه : "وأما نهر جاهان فهو نهر جيحان ، والأرمن تجعل الحاء هاء . وهذا النهر أجل الأنهار الثلاثة ، وهم (كذا) شيحان وجيحان وبردان ، وهى أنهار طرسوس والمصيصة وأذنة ؛ [وقد] ذكر ذلك هبة الله ابن الإكليلى فى كتاب صفة الأرض ، قال ويخرج من بلاد الروم ثم يقصد إلى البحر المالح ، وأما نهر جيحون فهو النهر الذى ينحدر متبحرا إلى خوارزم . وأول نهر جيحان جرفا (كذا) ينحدر نحو الجنوب حتى يمر بمدينة سيسة من بلاد الروم ، ويمر بين جبلين منحرفا عن المغرب (٢٣٠) إلى أن يصير إلى مدينتين كانتا للروم يقال لهما ترسا وزبطرة فيمر فيهما بينهما ، ثم يمر بين جبلين راجعا إلى البحر الشامى . وطول هذا النهر من أوله إلى مصبه سبعمائة وثلاثون ميلا ، والجبال المحيطة بسيس وبلادها هو جبل اللكام ، طوله مائة ميل ، والميل من الأرض منتهى مد البصر ، والفرسخ ثلاثة أميال " .

(٤) بغير ضبط فى س ، واسم هذا النهر عند الترك ، وفى الخرائط الأوربية أيضا "قراصو" (Kara Sou) ومنبعه فى بلاد الروم ، ومجراه غربى بلاد المصيصة وطرسوس ، وهو أحد فروع الفرات الأعلى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٣٤ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 60) .

ووصل السلطان على الأثر، بعدما قطع بعساكره النهر الأسود وقاسوا مشقة ، وملكوا الجبال، وغنموا منها ما لا يحصى كثرة ، ما بين أبقار وجواميس وأغنام . فدخل [السلطان] إلى سيس (١٠٩٦ ب) وهو مُطَلَّب[١] فى تاسع عشريه وعيّد بها ، وانتهبها وهدم قصور التكفور ومناظره وبساتينه . وبعث إلى دَرَبَنْد[٢] الروم ، فأحضر إليه من سبايا التتار عدة نساء وأولاد . وسيّر إلى طرسوس ، فأحضر إليه منها ثلاثمائة رأس من الخيل والبغال . وبعث إلى البحر عسكرا فأخذ مراكب ، وقتل من كان فيها . وانبثّت الغارات فى الجبال ، فقتلوا وأسروا وغنموا . وبعث [السلطان] إلى أياس[٣] العساكر ، و [كانت] قد أخليت[٤] ، فنهبوا وحرقوا وقتلوا جماعة ؛ وكان قد فرّ من أهلها نحو الألفين — ما بين فرنج وأرمن — فى مراكب ، فغرقوا بأجمعهم فى البحر . واجتمع من الغنائم ما لا يحصره قلم لكثرته ؛ ووصلت العربان والعسكر إلى البيرة وساروا إلى عين تاب وغنموا ، فانهزم التتار منهم وعادوا .

فرحل السلطان من سيس إلى المصيصة[٥] من الدربند ، فلما قطعه جمل الغنائم بمرج أنطاكية حتى ملأته طولا وعرضا . ووقف بنفسه حتى فرّقها ، ولم يترك صاحب سيف ولا قلم حتى أعطاه ، ولم يأخذ لنفسه منها شيئا . فلما فرغ من القسمة سار إلى دمشق ، فدخلها فى النصف من ذى الحجة .

وفيها ولى قضاء الحنفية بدمشق مجد الدين أبو محمد عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن النديم ، بعد وفاة شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الأذرعى .

(١) انظر ما سبق ، ص ٥٩٣ ، حاشية ٤ .

(٢) بغير ضبط فى س ، واسم هذا الموضع فى المراجع الأوربية (Passus Portellae) . انظر أيضا (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 124. n. 154) ؛ ابن أبى الفضائل ، كتاب النهج السديد ، ص ٢٢١) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى ثغر بأرمينية الصغرى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 405) .

(٤) فى س " اخليت " .

(٥) يرى (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 124. n. 154) أن هنا هفوة قلمية وأن المقريزى أراد أن يكتب " أنطاكية " فكتب المصيصة .

ومات[1] فيها من الأعيان قاضى القضاة الحنفى بدمشق شمس الدين أبو محمد عبد الله ابن محمد بن عطاء بن الحسن بن عطاء الأذرعى ، عن ثمان وسبعين سنة . وتوفى أمين الدين أبو بكر محمد بن على بن موسى بن عبد الرحمن الخزرجى المحلى النحوى الأديب . وتوفى الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود بن أحمد الأسدى الدمشقى المعروف باليغمورى ، بالمحلة من أعمال القاهرة ، عن نيف وسبعين سنة . وتوفى الحافظ وجيه الدين أبو المظفر منصور بن سليم بن منصور بن فتوح بن العماد الهَمْدانى[2] ، الإسكندرى المالكى المؤرخ ، عن ست وستين سنة بالإسكندرية .

* * *

سنة أربع وسبعين وستمائة . فى ثامن المحرم وصل الأمير سيف الدين بلبان الدوادار إلى طرابلس فى تجمل كبير ، ومعه كتاب السلطان إلى متملكها ، فما زال حتى قرّر عليه فى كل سنة عشرين ألف دينار صورية وعشرين أسيرا[3] .

وفى رابع عشريه خرج الأمير بدر الدين الخزندار من دمشق لإحضار الملك السعيد ، ومعه أولاد الأمراء ؛ فوصل إلى قلعة الجبل وخرج بالملك السعيد على خيل البريد فى سلخه ، فوصل إلى دمشق فى سادس صفر ، وتلقاه السلطان ودخل به إلى قلعة دمشق[4] .

---

(١) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة فى س . بين الصفحتين ١٥٩ ب ، ١٦٠ ا ، وهى من غير شك متعلقه بهذه السنة . (انظر النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٧) . هذا ويوجد أيضاً بين هاتين الصفحتين فى س ورقة منفصلة أخرى ، بها وفيات تابعة لسنة ٦٧١ هـ ، وقد أوردت هناك . (انظر ص ٦٠٩) .

(٢) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى همدان إحدى القبائل اليمنية الكبرى . (Enc. Isl. Art. Hamdān) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤١) .

(٣) تقدم ذكر عقد معاهدة صلح بين السلطان بيبرس وصاحب طرابلس (Bohemond VI) ، سنة ٦٦٩ هـ (انظر ص ٥٩٣) ، وسبب هذه المعاهدة الجديدة المذكورة هنا أن صاحب طرابلس توفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م) ، فاقتضى ذلك تجديد الحلف مع الأمير الجديد (Bohemond VII) . انظر (Stevenson : Crusaders In The East. p. 345) ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص ٤٠٨) .

(٤) كان السبب فى استدعاء السلطان ولده الملك السعيد إلى دمشق هو الشروع فى تزويجه بغازية خاتون ابنة الأمير سيف الدين قلاون الصالحى ، وقد تم الزواج تلك السنة . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٥ ، فى Rec. Hist. Or. I. ؛ النويرى : نهاية الأرب : ج٢٨ ، ص ٤٧ ـ ٤٨) . انظر أيضاً ما يلى ، ص ٦٢٣ .

وفى صفر هذا توجه السلطان أبو يوسف بن عبد الحق ملك المغرب لجهاد الفرنج ، فقتل الطاغية[1] فى المعركة فى نحو ستة آلاف ، ولم يقتل من المسلمين إلا نحو ثلاثين رجلا وبلغت الغنائم من البقر مائة ألف وأربعة وعشرين[2] ألفا ، وبلغ الأسرى سبعة آلاف أسير ، وعجزت القدرة عن إحصاء الغنم ، حتى أبيعت الشاة بدرهم ، وحمل الكراع[3] على أربعة عشر ألف وستمائة جمل .

وفيها نبش عمال بنى مرين قبور خلفاء الموحدين ، وأخرجوا عبد المؤمن بن على وابنه يعقوب المنصور من قبريهما ، وقطعت رأساهما[4] ، وضربت أعناق من كان بجبل تِينْمِل[5] ، وصلبوا بمراكش وأخذت أموالهم . وفيها بنيت فاس الجديد[6] ، وصارت دار ملك بنى مرين .

وفى ثالث عشرى جمادى الأولى أخذ السلطان القُصَيْر[7] حصن أنطاكية ، وحمل أهله

(١) ترجم (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 125) هذا اللفظ إلى (le prince des chrètiens) بغير تعليق ، على أنه يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٩٦) ما يساعد على التعريف بهذا " الطاغية " ، إذ ورد به أن السلطان أبا يوسف حارب " النصارى بالأندلس أربع مرات حتى أذعن له شانجة بن أدفونش وسأله فى عقد السلم له ، فعقد له على شروط اشترطها عليه " .

(٢) فى س " عشرون " .

(٣) الكُراع هنا ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤونة . (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 126. n. 156).

(٤) فى س " راسيهما " .

(٥) كذا فى س ، وهو بلد بجبال مراكش فى الجنوب الغربى من مدينة مراكش نفسها ، واسمه فى (Timplel, Tinamallal) (G.- Demombynes : Masālik El Absār, Index).

(٦) تتكون مدينة فاس المعروفة بمراكش من بلدين ، وهما فاس البالى — أى القديم ، ويسمى المدينة — وفاس الجديد ، وهو الذى بدأ بناءه يعقوب بن عبد الحق ، فى شوال سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٦ م) ، كما بالمتن . وقد أطلق على هذا البلد الجديد اسم المدينة البيضاء ، ثم غير إلى فاس الجديد تمييزا له من فاس البالى . (Enc. Isl. Art. Fās).

(٧) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة جنوبى أنطاكية ، وكانت لهيئة الفرسان الداوية . (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 489) انظر أيضاً (Stevenson : Crusaders In The East. Map.). هذا ووجد فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٣٦ ا ، وما بعدها) تفصيلات كثيرة متعلقة بتلك القلعة ، منها أنها كانت " للبطرك من داخل البحر ، وبها نائب من جهة البطرك اسمه سير كليام (Sir William) ، وهو رجل جيد يحب المسلمين " . انظر أيضاً النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٧ — ١٠٨) . أما البطرك المذكور فهو بطريق أنطاكية (The Latin Patriarch of Antioch) ، وكان قد ترك ميدان النضال يائسا من مقاومة السلطان ، فلقى حتفه فى تلك الموقعة . راجع (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 274).

إلى الجهات التى قصدوها . وقدم الخبر بورود التتار إلى البيرة ، فجمع [السلطان] العساكر وأنفق(١) ، وخرج من دمشق إلى حمص ، فجاء الخبر برجوع التتار فعاد إلى دمشق .

وفى هذه الأيام اختلفت أمراء الروم على البرواناه ، ففارقه جماعة من قيسارية ؛ وقدم منهم إلى السلطان الأمير ضياء الدين محمود بن الخطير ، والأمير سنان الدين موسى بن طرنطاى ، ونظام الدين أخو مجد الدين الأتابك ، بعيالاتهم يريدون الانتماء (١٦٠ ا) إليه ؛ فجهزهم [السلطان] إلى القاهرة . ثم إن محمود بن الخطير سعى بهم ، فاعتقلوا بقلعة الجبل مدة ثم أطلقوا .

وفى مستهل رجب توجّه السلطان من دمشق إلى مصر ، فدخل قلعة الجبل فى ثامن عشره . وقدمت هدية [صاحب] اليمن ، ومن جملتها كَرْكَدَن وفيل وحمار وحش عتابى ؛ فسيّر [السلطان] إليه هدية مع رسله . وجهز [السلطان] هدية الملك منكوتمر مع الأمير عز الدين أيبك الفخرى ، وجهز رسل الملك الأشكرى ، ورسل الفنش(٢) ، ورسل جَنَوَة(٣) .

و [فيها] حضر ابن أخت ملك النوبة واسمه مشكد(٤) ، متظلّما من داود ملك النوبة . فجرّد السلطان معه الأمير آقسنقر الفارقانى ، بعدة من العسكر وأجناد الولاة والعربان ، ومعه الزرّاقون(٥) والرماة ورجال الحراريق والزردخاناه . فخرج فى مستهلّ شعبان حتى عدى أسوان ، وقاتل [الملك داود ومن معه من] السودان ، فقاتلوه على النُجُب ، وهزمهم وأسر

(١) فى س " نفق " .

(٢) المقصود هنا (Alphonso of Seville) ملك أشبيلية ، وكان بينه وبين السلطان بيبرس معاهدة تجارية منذ ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) . انظر (Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 266) ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٨ ، ٦٩) ، حيث توجد تفاصيل كثيرة بشأن هذه السفارة .

(٣) ضبط هذا الاسم من القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٥) .

(٤) كذا فى س ، واسم هذا الأمير " شكندة " فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٤) و "مرقشنكز" فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٧) . انظر أيضا (النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٨ — ١٠٩ ؛ (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 127. n. 157) . هذا ويوجد فى ابن أبى الفضائل (نفس المرجع ، ص ٢١١ ، ٢٣٤ ، وما بعدها) تفصيلات كثيرة بصدد علاقات السلطان بيبرس بملوك تلك البلاد وأمرائها ، وكل ما هنا بالمتن من الإضافات مأخوذ من هذا المرجع .

(٥) فى س " الزراقين " .

منهم كثيراً . وبعث [الأميرُ آقسنقر] الأميرَ عز الدين الأفرم ، فأغار على قلعة الدَّو(١) وقتل وسبى ؛ ثم توجه [الأميرُ سنقر] في أثره يقتل ويأسر حتى وصل إلى جزيرة ميكائيل — وهي رأس جنادل النوبة — فقتل وأسر . وأقرَّ [الأمير آقسنقر] قمرَ الدولة صاحب الجبل(٢) — وبيده نصف بلاد النوبة — على ما بيده ، ثم واقع الملك داود حتى أفنى مُعظم رجاله قتلا وأسرا ؛ وفرَّ [داود] بنفسه في البحر وأسر أخوه شنكو(٣) ، فساق العسكر خلفه ثلاثة أيام ، والسيف يعمل فيمن هناك حتى دخلوا كلهم في الطاعة ؛ وأسرت أم الملك [داود] وأخته .

وأقيم مشكد في المملكة ، وألبس التاج وأجلس في مكان داود ، وقررت عليه القطيعة في كل سنة : وهي فيلة ثلاثة(٤) ، وزرافات ثلاث ، وفهود إناث خمس ، [و] صهب جياد مائة ؛ [و] أبقار جياد منتخبة(٥) مائة . وقرر أن تكون البلاد مشاطرة ؛ نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ؛ وأن تكون بلاد العلي(٦) و بلاد الجبل للسلطان — وهي قدر ربع بلاد النوبة — لقربها من أسوان ؛ وأن يحمل القطن والتمر مع الحقوق الجارى بها العادة من القديم وعرض عليهم الإسلام أو الجزية أو القتل فاختاروا الجزية ، وأن يقوم كل منهم بدينار عينا في كل سنة . وعملت نسخة يمين بهذه الشروط ، وحلف عليها مشكد وأكابر النوبة ؛ وعملت [أيضاً] نسخة للرعية بأنهم يطيعون(٧) نائب السلطان ما دام طائعا ، ويقومون(٨) بدينار عن كل(٩).

(١) ضبط هذا الاسم على منطوقه في (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 128) .

(٢) في س " صاحب الخيل " . انظر . (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 128 n. 158) ، وكذلك ما يلي سطر ١٠ . (٣) كذا في س ، واسم هذا الأمير " سنكوا " في النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٨) . (٤) في س "ثلاث" . (٥) في س " متتحبه" . انظر (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 128) . (٦) ضبط هذا الاسم على منطوقه في : (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 128, et n. 159) . هذا وقد أورد ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٠) في هذا الصدد ما يساعد على التعريف بهذه البلاد ، ونصه : " وقرروا أيضا أن تكون دو وابريم ، وهما قلعتان حصينتان قريبتان من أسوان بينهما سبعة أيام ، خاصا للسلطان " .

(٧) في س "يطيعوا" . (٨) في س "يقوموا" .

(٩) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٩) نص هذين اليمينين ، وهما منقولان من هذا المرجع في ملحق رقم ٥ في آخر هذا الجزء ، انظر أيضا (Quatremére : Op. Cit. I. 2. 129. n. 160) هذا ونص اليمين الأول فقط موجود في ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦ وما بعدها) .

بالغ . وخربت كنيسة سوس(١) [التي كان يزعم داود أنها تحدثه بما يؤديه] ، وأخذ(٢) ما فيها من الصلبان الذهب وغيرها ، فجاءت مبلغ أربعة آلاف وستمائة وأربعين دينارا ونصف ، وبلغت الأواني الفضة ثمانية آلاف وستمائة وستين دينارا . وكان داود قد عرها على أكتاف المسلمين الذين أسرهم من عيذاب وأسوان . وقُرِّر على أقارب (١٦٠ ب) داود حمل ما خلفه من رقيق وقماش إلى السلطان ، وأطلقت الأسرى الذين كانوا بالنوبة من أهل عيذاب وأسوان ، وردّوا إلى أوطانهم . وغنم العسكر من الرقيق شيئاً كثيراً ، حتى أبيع كل رأس بثلاثة دراهم ، وفضل بعد القتل والبيع عشرة آلاف نفس . وأقام العسكر بمدينة دمقلة سبعة عشر يوما ، وعادوا إلى القاهرة فى خامس ذى الحجة بالأسرى والغنائم . فرسم [السلطان] للصاحب بهاء الدين بن حنا أن يستخدم عمالا على ما يستخرج من النوبة من الخراج والجزية بدمقلة وأعمالها ، فعُمل لذلك ديوان .

وفى ثانى عشره اجتمع القضاة والأمراء والأعيان بقلعة الجبل ، وعُقد للملك السعيد على غازية(٣) خاتون ابنة الأمير قلاون الألفى ، بوكالة الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة عن الملك السعيد . فقبل العقد عن الأمير قلاون الأميرُ آقسنقر الفارقانى به على صداق مبلغه خمسة آلاف دينار ، المعجّل منها ألفا دينار . وكتب الصداق بخط القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، وإنشائه ، ومن جملته : " هذا كتاب تحاسدت رماح الخط وأقلام الخط على تحريره ، وتنافست مطالع الأنوار ومشارق الأنوار على تسطيره . وأضاء نوره بالجلالة وأشرق ، وهطل نوره بالإحسان وأغدق ، وتناسبت فيه أجناس تجنيس لفظ الفضل فقال الاعتراف هذا ما تصدّق ، وقال العرف هذا ما أصدق(٤) " .

وفيه شنق السلطان الطواشى شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز — وكان قد تمكن منه تمكنا عظيما — من أجل أنه شرب الخمر ، وعلّقه تحت قلعة الجبل .

(١) كذا فى س ، وقد أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٩) .

(٢) فى س " واحدوا " .

(٣) فى س " غاريه " . انظر ص ٦١٩ ، حاشية ٤ .

(٤) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٩ — ٧٠) هذا النص كاملا غير مختصر كما هنا .

وعند ما انقضى أمر العقد ، ركب السلطان من يومه على الهجن فى نفر يسير ، وسار إلى الكرك فدخلها فى ثالث عشريه ، وهو يريد القبض على الأمير سابق الدين عبية[1] . فلما بلغه حضور السلطان قدم عليه ، فرعى له ذلك وزاد إقطاعه . ونظر [السلطان] فى أمر أهل الكرك ، وقطع أيدى ستة منهم اتهموا بأنهم قد عزموا على إثارة فتنة ؛ وزتّب رجالا بها عوضا عمن كان فيها[2] .

وفيها أقام حجاج مصر بمكة ثمانية عشر يوما ، وبالمدينة النبوية عشرة أيام ، وهذا لم يعهد مثله .

ومات فى[3] [هذه السنة] من الأعيان الأمير ركن الدين خاص ترك الكبير ، أحد الأمراء الأكابر بدمشق ، فى ثالث عشر ربيع الأول . ومات الأمير حسام الدين قياز الكافرى ، نائب حصن الأكراد والسواحل والفتوحات . وتوفى[4] سعد الدين أبو العباس الخضر بن التاج أبى محمد عبد الله بن العماد أبى الفتح عمر بن على بن محمد بن حمويه الجوينى ، شيخ الشيوخ بدمشق ، بها عن نيف وثمانين سنة . وتوفى تاج الدين أبو الثناء[5] محمود بن عابد بن[6] الحسين ابن محمد بن على التميمى الصرخدى الحنفى ، بدمشق عن ست وتسعين سنة . وتوفى زين الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن جبريل ، كاتب الإنشاء بقلعة الجبل فى ......[7] . وتوفى

(١) فى س ، " عبيه " وهو مترجم فى (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 134) إلى (Aïbah) .

(٢) يلى هذا اللفظ بياض فى س ، يسع كلمتين تقريبا .

(٣) فى س " فيها .

(٤) الوفيات التالية واردة هنا كما فى ب (١٨٩ ب — ١٩٠ ا) ، وهى فى س على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٥٦ ب ، ١٥٧ ا ، وقد أشير إلى ذلك فى موضعه . انظر (النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٧١ — ٧٢ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٢ — ٣٤٤) .

(٥) فى س " الثنا " ، وفى ب (١٩٠ ب) " البقا " .

(٦) فى س "عايذ" ، وفى هامش الورقة عبارة تصحيحية لهذا الاسم ، وهى بخط مخالف ، ونصها : إنما هو عابد بالباء الموحدة والدال المهملة " . انظر ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٤) .

(٧) بياض فى س .

كمال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحيم بن على بن إسحاق بن على شيث الأموى .... [١]
وتوفى الأديب أبو الحسن على بن أحمد بن المُقَيب [٢] العامرى ببعلبك .



سنة خمس وسبعين وستمائة . فى المحرم سار السلطان من الكرك ، فدخل إلى دمشق فى رابع عشره . وقدم عليه عدة من أمراء الروم مغاضبين للبرواناه ، وهو معين الدين سليمان بن على بن محمد بن حسن . [وكان] منهم الأمير حسام الدين بيجار [٣] الرومى ، وبهادر ولده ، وأحمد بن بهادر ، واثنا عشر من أمراء الروم بأولادهم ونسائهم ، من جملتهم قرمشى [٤] وسكتاى [٥] ابنا قراجين بن جيغان نوين . فأحسن السلطان إليهم ، وبعث حريمهم إلى القاهرة ، وأجرى عليهم الأرزاق . ثم وصل الأمير سيف الدين جندر [٦] بك صاحب الأبلستين [٧] والأمير مبارز الدين [سوار [٨] بن الجاشنكير] ، فى كثير من أمراء الروم ؛ فتلقاهم السلطان بنفسه وأكرمهم . ثم كتب [السلطان] إلى الأمراء بمصر يستشيرهم فى بعث عسكر إلى الروم ، وأن يحضر الأمير بيسرى والأمير (١٦١ ا) [٩] أقش بما يتفق الرأى عليه ، فحضرا على

---

(١) بياض فى س ، يسع ثلاثة ألفاظ تقريبا .

(٢) هذا الاسم مضبوط هكذا فى س .

(٣) فى س " بيجار " . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٩) .

(٤) كذا فى س ، واسمه " جاورجى " فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٩) .

(٥) فى س " سكتاى " ، واسمه " نيكتاى " فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٩ ، حاشية ٢ ، من الترجمة الفرنسية) .

(٦) فى س " حندو " . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٤٣) . هذا وفى (D'Ohsson Op. Cit. III. p. 480.) أن اسم هذا الأمير (Haïdar-Bey)

(٧) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة ببلاد الروم اسمها الحالى البستان ، وهى قريبة من أفسوس (Ephesus.) مدينة أهل الكهف . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٩٤) . انظر أيضاً (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 277) .

(٨) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٤٣) .

(٩) يوجد بين الصفحتين ١٦٠ ب ، ١٦١ ا فى س ورقة بها وفيات تابعة لسنة ٦٧٠ هـ ، وقد أوردت فى موضعها المناسب هناك . (انظر ص ٦٠٤ ، حاشية ٢) .

البريد ؛ ووصل [أيضا] الأمير سنقر الأشقر . وتتابع وصول حريم أمراء الروم ، فأكرمهم السلطان وجهزهم إلى القاهرة . وسار [السلطان] إلى حلب ، وجرد منها الأمير سيف الدين بلبان الزيني الصالحي في عسكر ، فوصلوا إلى عين تاب .

وعاد السلطان من حلب إلى مصر ، فدخل قلعة الجبل في رابع عشر ربيع الأول ؛ ورسم بتجهيز مهمات العرض : فأخذ الناس في التجهيز ، وغلت الخيول والأسلحة ، وعدم صناع صقل العدد من القاهرة لاشتغالهم بالعمل عند الأمراء ، وعز وجود صناع النشاب ومقومي الرماح .

وفي خامس جمادى الأولى وقع العرض ، فركبت العساكر بكمالها في يوم واحد وقد لبسوا أجلى العدد ، وقصد السلطان بركوبهم في يوم واحد حتى لا يستعير أحد من أحد شيئا . وفرق السلطان على مماليكه العدد الجليلة ، وركب الأمراء الروميون ومن حضر من الرسل ، وعرض الجميع على السلطان . ونزلوا من الغد في الوطاقات للعب ، وقد لبس المماليك السلطانية الجواشن والخوذ ، وعملت الأبرجة الخشب على الفيلة ، ودخلوا في الحلقة وساقوا . ثم نصب القبق بالميدان الأسود [تحت القلعة][1] ورموا النشاب ، وأنعم السلطان على كل من أصاب القبق من الأمراء بفرس من الجنائب الخاص ، بسرجه ولجامه وتشاهيره بالمراوات الفضة وغيرها ؛ وأنعم على من أصاب من المماليك والأجناد بالخلع . [كل ذلك] والسلطان يسعى ، وقد تنوع في لامات حربه ، وصار يأخذ بقلوب الناس ويحسن إليهم وساق [السلطان] بالرمح أحسن سوق حتى تعجبوا من فروسيته ، إلى أن انقضى النهار على هذا .

وفي اليوم الثالث ركب السلطان ، ولعب الناس ورموا في القبق ، والسلطان يطاعن بالرمح . وفي الغد ترتب العسكر من جهتين . واصطدما وتطاعنت الفرسان ؛ [وكان] السلطان يلقى ترّاه الناس آخرا قد شاهدوه أولا ، [وهو] لا يسأم من الكر والفر ، وشاهد الناس منه ومن الملك السعيد ما يبهر العقول . وتواصل الطعن بغير جراح ، والسلطان بين تلك الصفوف لا يخاف .

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٠٧) .

وفى يوم الثلاثاء أنعم [السلطان] على جميع الأمراء والمقدمين والقضاة والمتعممين بالتشاريف ، ولبس السلطان تشريفا كاملا بشربوش ، ثم أنعم به على الأمير سيف الدين قلاون الألفى ؛ ولعبوا على عادتهم . وحصل الاهتمام (١٦١ ا) بأمر السماط ، ونقل له من أصناف الحوائج مالا يعد ، وسيق من الأغنام ألوف كثيرة . ومدت الأسمطة ، وحضر السلطان والناس فى خدمته إلى أن أخذوا حاجتهم من الطعام والحلاوات ؛ ثم نقل جميع ذلك وأخذ . وحضرت التقادم ، فقبل السلطان منها اليسير مثل قطعة(١) أو رمح أو شئ لطيف ، وما قام من مجلسه حتى أتم بذلك فى وقته . ودخل الملك السعيد على ابنة الأمير قلاون .

وشرع السلطان فى السفر لأخذ بلاد الروم ، وبعث إلى الأمراء الروميين الخيول والخيام وكل ما يصلح من أمور السفر . وتقرر الأمير آقسنقر الفارقانى نائب الغيبة بقلعة الجبل ومعه الصاحب بهاء الدين بن حنا ، ليكونا فى خدمة الملك السعيد . وتعين الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين لوزارة الصحبة(٢) .

وخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس العشرين من رمضان ، ورحل فى يوم السبت ثانى عشريه ومعه الأمراء والعساكر الإسلامية يريد البلاد الشامية . فدخل دمشق يوم الأربعاء سابع عشر شوال ، وخرج منها إلى حلب فى العشرين منه ، فوصل إلى حلب مستهل ذى القعدة ، وخرج منها يوم الخميس ثانيه إلى حيلان(٣) . وجرد [السلطان] الأمير

---

(١) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 138) هذا اللفظ إلى (robe) أى ثوب . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) يكون صاحب هذا المنصب وزيرا متنقلا ، يرافق السلطان فى أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف شؤونها معه ، وذلك ليتسنى للوزير الأصلى أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله . ويتضح هذا الترتيب من عبارة المتن ، فإن الصاحب بهاء الدين بن حنا هو الوزير وقد تركه السلطان ينوب بالقاهرة ، وعين الصاحب زين الدين ليكون وزير الصحبة . ولهذا التقسيم أشباه فى كثير من الوظائف السلطانية ، وقد نشأت من نفس السبب الذى اقتضى وجود وزيرين ، ومن هذه وظيفة ناظر الصحبة ، ومشد الصحبة ومستوفى الصحبة . (Quatremère : OP. Cit. I. 2. p. 139.n 171) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى من قرى حلب ، تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء ، تسيح إلى حلب وتدخل إليها من قناة ، وتتفرق إلى الجامع وإلى جميع مدينة حلب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٢٨) .

نور الدين على بن مجلى[١] نائب حلب ليقيم على الفرات بعسكر حلب ، ويحفظ معابر الفرات لئلا يدخل أحد من التتار إلى بلاد الشام ؛ ووصل [إلى الأمير نور الدين[٢]] الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا .

وكان السلطان منذ خرج من مصر إلى أن وصل إلى حلب ، لم يمر بمملكة إلا أخذ معه عسكرها وخزائنها وأسلحتها . فترك بعض الثقل بحيلان ، وسار منها يوم الجمعة ثالثه إلى عين تاب ، وقطع الدربندات في وطاة[٣] . وتوجهت العساكر جرائد على الأمر المعهود ، وخففوا كل شيء . وتقدم الأمير سنقر الأشقر جاليشا[٤] في عدة من العسكر ، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار [ومقدمهم يسمى كراى[٥]] ، فانهزموا قدامه وأسر منهم جماعة ، [وكان ذلك يوم الخميس تاسع الشهر] . و بلغ ذلك الملك [أبغا] ، فجهز جماعة من عرب خفاجة لينازلوا عسكر حلب على غرة . فبلغ ذلك نائب حلب وهو على الفرات ، فركب إليهم وقاتلهم وهزمهم ، وأخذ منهم ألفا ومائتى جمل .

وورد الخبر على السلطان بأن عسكر التتار [ومقدمهم تناوون] ، وعسكر الروم [ومقدمهم معين الدين البرواناه] ، قد اتفقوا جميعا على لقائه . فرتب عساكره وتأهب للقاء ، وطلع بعساكره على جبال (١٦٢ أ) تشرف على صحراء هونى[٦] من بلد أبلستين . وترتب المغل أحد عشر طلبا ، كل طلب يزيد على ألف فارس ، وعزلوا عسكر الروم عنهم وجعلوه طلبا بمفرده [لئلا يكون مخامرا عليهم] . وأقبلوا فانصبت الخيول الإسلامية عليهم من الجبل

(١) كذا في س ، وفي النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١١) ، وهو في ب (١٩١ أ) "مجلى".

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٥٨) .

(٣) المقصود بالوطاة هنا الأرض السهلة (une plaine) غير الجبلية ، على أن الصحيح أن يقال "وطاء" (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 140 n. 172) ؛ محيط المحيط ؛ وكذلك س ٥٧١ ، سطر ٣) .

(٤) في س "جاليش" ، ومعناها هنا حسب ترجمة (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 140) (l'avant garde) أى الطليعة .

(٥) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها والتي تليها من ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ٢٥٩ ، وما بعدها) .

(٦) في س "صحرا هونى" ، وفي النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ١١١) "صحرا حونى" ، وفي ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ٢٥٩) "صحراء البلستين" .

انصباب السيل ، ووقفوا وقفة رجل واحد . وقدّم السلطان عدة من مماليكه وخواصه ، فقاتلوا قتالا شديدا ؛ ثم ردفهم بنفسه ، وحمل وحملت العساكر معه حملة شديدة . فترجّل التتار عن خيولهم ، وقاتلوا قتال من يطلب الموت حتى عظم القتل فيهم ، فولّى طائفة منهم وأدركهم العسكر فأحاط بهم . ونجا معين الدين سليمان البرواناه زعيم الروم ، فانهزم أصحابه ، وصار [هو] إلى قيساوية [فوصلها] بكرة يوم الأحد ثانى عشر ذى القعدة ، [وأشار على سلطانها غياث الدين كيكاوس بن كيخسرو وجماعة الأمراء بالخروج منها ، فإن التتر المنهزمين متى دخلوا قيسارية قتلوا كل من فيها حنقا على المسلمين] . ثم أخذ[1] [البرواناه] السلطانَ غياثَ الدين كيكاوس بن كيخسرو صاحب الروم ، و [جماعة من] أعيان البلد ، وسار [بهم] إلى تَوْقَات[2] ، [وبينها و بين قيسارية مسيرة ثلاثة أيام] .

وأما السلطان فإنه نزل بعد هزيمة التتار فى منزلتهم ، وأحضر إليه من أسر من أمراء المغل ، فمنّ عليهم وأطلقهم . وقتل فى المعركة الأمير ضياء الدين بن الخطير ، والأمير سيف الدين قيران العلائى أحد مقدمى الحلقة ، وسيف الدين قفجاق[3] الجاشنكير ، وعدة من العسكر ؛ وجرح جماعة . وقتل [تناوون][4] مقدم التتار فى المعركة . وأمر السلطان بقتل من أسر من التتار ، وأبقى من أسر من أمراء الروم وأعيانهم معه : وفيهم أم البرواناه ، وابنه [مهذب الدين على] وابن ابنته .

وجرّد [السلطان] الأمير سنقر الأشقر فى جماعة ، لإدراك المنهزمين [من التتر والتوجّه إلى قيسارية] ، وكتب معه كتابا إلى أهل قيسارية بالأمان و إخراج الأسواق والتعامل

(١) فى س " واخذ " .

(٢) بغير ضبط فى س . وهى بلدة واقعة بين قونية وسيواس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٩٠) .

(٣) فى س " قبجاق " ، وهو فى ب (١٩٨ ب) " قنجاقر " ، وفى ابن أبى الفضائل (كتابه النهج السديد ص ٢٦٦/١) " قليجق " .

(٤) انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٥ ، فى Rec. Hist. Or. I.) حيث ورد هذا الاسم " تناون " .

بالدرام الظاهرية ، فمرّ [الأمير سنقر] بفرقة من التتار معهم البيوت ، فأخذ منهم جانبا ، وأدركه الليل فتفرّق من بقى منهم

ورحل السلطان فى يوم السبت حادى عشره يريد قيسارية الروم(١) ، فاستولى فى طريقه على عدّة بلاد . وفى يوم الأربعاء خامس عشرة تلقّاه أهل قيسارية من العلماء والأكابر والنساء والأطفال ، واحتفلوا به الفقراء الصوفية وتواجدوا ، إلى أن قرب من دهليز السلطان غياث الدين(٢) صاحب الروم وخيامه ، وقد نصبت فى وطاة بالقرب من المناظر التى كانت لملوك الروم . فترجّل وجوه العساكر المصرية والشامية على طبقاتهم ، ومشوا بين يديه إلى أن وصلها ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل . وأقبل الروم(٣) من كل جهة ، وضربت نوبة آل سلجوق على عادتها ؛ وحضر أصحاب الملاهى كما هى عادة الروم ، فنهوا عن الضرب بالآلات(٤) وعن الغناء [أيضا] ، وقيل لهم : هذه الهيئة لا تتفق عندنا ، وما هذا موضع (١٦٢ ب) الغناء ، بل موضع الشكر " . وشرع السلطان فى إنفاق المال ، وعيّن لكل جهة شخصا ، وكتب إلى أولاد قرمان(٥) أمراء التركمان ، وأكّد عليهم فى الحضور ، واستمال النازحين ، فما خرج البرواناه عن المطاولة إلى أن علم السلطان منه أنه لا يحضر .

---

(١) توجد قبالة هذا اللفظ بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية ، ونصها مصححا : " قيسرية ويقال أقصرا ، هى وقونية مدينتا بلاد الروم ، يقال إن عدد بلادهما وما يليهما ستمائة ألف وست وأربعون ضيعة ، من ذلك قلاع أربعمائة [و] أربع وخمسون قلعة ، ومدن كبيرة بأسوار ستة وأربعون مدينة " .

(٢) فى س " صا الدين " ، وهفوة المقريزى هنا قلمية . انظر (Quatremère : Op. Cit. 1. 2. p. 143).

(٣) يلى هذا اللفظ فى س عبارة " اهل بلاد الروم " ، وهى مشطوبة

(٤) فى س " بالات " .

(٥) تأسست دولة بنى قرمان (Karaman Oghlu) بجهات أرمناك وقسطمونى بجنوبى آسيا الصغرى ، فى أواسط القرن السابع الهجرى . وهى أهم الدول التركمانية التى نشأت زمن تفكك دولة الروم السلاجقة ، ومؤسسها قرمان بن نورا صوفى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٩ م) ، وقد تولاها بعده ابنه محمد بن قرمان ، وهو وعمه وإخوته هم المقصودون هنا بالمتن ، (Enc. Isl. Art. Karaman Oghlu; Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 184-185) انظر أيضاً القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ ؛ ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٦٦) .

وركب [السلطان] فى يوم الجمعة سابع عشريه وعلى رأسه جتر بنى سلجوق ، ودخل قيسارية دار السلطنة ، وعبر القصور وجلس على تخت آل سلجوق . وأقبل الناس للهناء وقبلوا الأرض ، وحضر القضاة والفقهاء والوعاظ والقرّاء والصوفية وأعيان قيسارية وذوو المراتب ، على عادة الملوك السلجوقية فى أيام الجمع . ووقف أمير المحفل — وهو عندهم ذو حرمة ومكانة ، ويلبس أكبر ثوب وعمامة — ، فرتّب المحفل على قدر الأقدار ، وانتصب قائما بين يدى السلطان منتظرا ما يشير به . وقرأ القرّاء أحسن قراءة ، ورفعوا أصواتهم بالتلاحين العجيبة إلى أن فرغوا ، فأنشد أمير المحفل بالعربية والعجمية مدائح فى السلطان . ومُدَّ سماط الطعام فأكل من حضر ، ثم أحضرت دراهم عليها السكة الظاهرية . وتهيأ السلطان لصلاة الجمعة ، وقام السلطان إلى الجامع ، وخطب الخطيب بنعوته وصلّى ، وخطب له الخطباء بجوامع قيسارية وهى سبعة .

فلما قضى السلطان صلاة الجمعة ، حمل إليه ما تركته كُرْجى[1] خاتون امرأة البرواناه من الأموال التى لم تقدر على حملها معها ، وما خلّفه سواها ممن انتزح منها . وظهر لها ولزوجها معين الدين البرواناه موجود نفيس ، فأخذ السلطان ذلك

و بعث البرواناه يهنىء السلطان [بيبرس][2] بجلوسه على تخت الملك ، فكتب إليه أن يفد عليه ليقرّه مكانه ، فبعث يسأل النظرة إلى خمسة عشر يوما . ورجا [البرواناه] بذلك أن يصل الملك أبغا — وكان قد أرسل يستحثّه على القدوم بنفسه — ليدرك الملك الظاهر وهو ببلاد الروم . فلما بلغ السلطان ذلك خرج من قيسارية فى ثانى عشريه ، بعد ما أعطى الأمراء والخواص الخيول والأموال . و [لما وصل السلطان إلى خان كيقباد] بعث إلى الأرمن [بجهة الرمانة] الأمير طيبرس الوزيرى ، فحرق وقتل وسبى [من بها من الأرمن] وعاد ؛ [وسبب ذلك أنهم كانوا قد أخفوا جماعة من التتر] . فسار السلطان إلى الأبلستين ، ومرّ على مكان المعركة ليرى رمم القتلى من التتار ، فذكر أهل الأبلستين أنهم عدّوا من القتلى ستة آلاف

---

(١) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى ترجمة (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 144) .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٦٧ ، وما بعدها) .

وسبعمائة وستين ، وضاع الحساب بعد ذلك . فأمر السلطان بجمع من قُتل من عساكره ودُفنوا ، وترك منهم قليلا بغير دفن ؛ وقصد بذلك نكاية التتار فى إظهار كثرة من قُتل منهم وقلة من قُتل من عسكره ؛ ثم رحل(١)

(١) توجد بين الصفحتين ١٦١ ب ، ١٦٢ ا فى س ورقة منفصلة ، بها ملخص لما وقع للسلطان بيبرس من يوم أن ترك حلب إلى أن دخل قيسارية بآسيا الصغرى ، وهو مكتوب على وجهى الورقة بخط صعب القراءة مع مشابهته لخط المتن ، وقد كتب فوقه على أحد الوجهين بقلم ثلث ثخين العبارة الآتية : " يغنى عن الوصايا المجددة والاشارات " ، وفيما يلى نص الملخص المذكور مصححا ، ما عدا ما تعذرت قراءته فقد أشير إلى موضعه :

"رحل الملك الظاهر من حلب يريد بلاد الروم حتى خرج من الدربند ، وبات فى وطاة . فتقدم سنقر الأشقر فى الجاليش ، فوقع فى ثلاثة آلاف فارس من التتار مقدمهم كراى ، فانهزموا من بين يديه فأسر وقتل منهم جماعة ؛ وبات التتر على تعبئة . فلما كان يوم الجمعة عاشر ذى القعدة سنة [خمس وسبعين] تابع الصغر (؟) بقربهم ، فعبأ السلطان عساكره وطلع بهم من جبال مشرفة على أبلستين . وكان التتر ليلتهم تلك بائتين على نهر زبان ، وهو أصل نهر جهان وأصل اسمه جيحان . فترتب المغل أحد عشر طلبا كل طلب يزيد على ألف فارس ، وعزلوا عسكر الروم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلبا بمفرده . فوقعت الحرب ، فقتل كثير من التتر وفر الباقون ، فأخذ أكبرهم (؟) ، وغنمت منهم عدة غنائم وأسر كثيرا (كذا) . ووصل البرواناه مدينة قيصرية سحر يوم الأحد ثانى عشره ، وأخذ زوجته وابنها والسلطان غياث الدين صاحب الروم إلى أبغا بن هلاون وتوجهوا إلى توقات ، وهو حصن [يبعد] عن قيصرية أربعة أيام ، وتبعه أمراء الروم إلا قليلا منهم . ورحل السلطان الملك الظاهر ، وكتب إلى أصحاب حصن سمند وإلى قلعة درندة وإلى قلعة دالوا ، فكلهم أطاع . فلما كان يوم الأربعاء نصفه ركبت العساكر ، وقد خرج أهل قيصرية لقاء السلطان فأكرمهم ، وكان شعار السلطان غياث الدين صاحب الروم وحزامه (؟) وشعار سلطنته قد بقى جميعه فى وطاة ، فرحل الناس بأجمعهم فى ركاب السلطان ، ونزل ملك (موضع هذا ألفاظ ممحوة محوا تاما) سلجوق على باب دهليزه ، وحضر أصحاب الملاهى فلم يمكنوا ومنعوا . وحكم السلطان ونفذ أشغال سلطنته ، ثم ركب يوم الجمعة سابع عشريه ، ونصب جتر بنى سلجوق على رأسه ، ودخل قيصرية بكرة النهار وقد فرشت دار السلطنة لدولته (؟) وهيء تخت بنى سلجوق بجلوسه (؟) فجلس السلطان فى مرتبة الملك ، وأتاه الناس يهنئون ، وأقبل القضاة والفقهاء والصوفية ، وذوو المراتب من أصحاب العمائم على عادة بنى سلجوق فى كل جمعة . ووقف أمير المحفل وهو كبير عندهم ، فرتب المحفل على قدر الأقدار ، ووقف ينتظر ما يرسم [السلطان] له به . وشرع القراء فى قراءة القرآن حتى فرغوا ، فصرح أمير المحفل علو (؟) ثم أنشد بالفارسية طويلا . ثم مد السماط وأكل الناس وقام السلطان إلى موضع راحته ، فأقام قليلا وخرج إلى مخيمه ، وتوجه لصلاة الجمعة بقيصرية ، حتى انقضت الصلاة . فدعى للسلطان (موضع ألفاظ تعذرت قراءتها) باسمه ، وأحضرت إليه الدراهم فى هذا اليوم . واستولى [السلطان] على موجود معين الدين سليمان وزوجته كرجى خاتون ، ثم رحل يوم الاثنين عشريه ، بعد ما أعطى الأمراء والخواص كلما جهز إليه . واستصحب [السلطان] معه أكابر الروميين حتى نزل أبلستين ، وعبر على مكان المعركة ، وأخبره رجل أنه عد من قتلى المغل ستة آلاف وسبعمائة وسبعين وضاع الحساب . ثم رحل [السلطان] بعد يومين " .

ودخل السلطان إلى الدربند فى رابع ذى الحجة ، وأصاب الناس فيه مشقّة (١٦٢ ب) عظيمة ؛ ونزل بحارم فى سادسه وعيّد هناك . فورد كتاب الأمير شمس الدين محمد بن قرمان أمير التركمان ، يتضمّن أنه جمع التركمان وحضر فى عشرين ألف فارس وثلاثين ألف راجل مُتَرْكَشَة[1] للخدمة ، فوجد السلطان قد عاد ؛ وحضر أيضا أمراء بنى كلاب ، ووفود التركمان . [ثم رحل السلطان[2] طالبا دمشق] .

وقدم الملك أبغا بن هولاكو بالتتار لمحاربة السلطان ، فوافاه البرواناه [فى الطريق] . و [كان] السلطان[3] قد رحل فتبعه [أبغا] ، وسار إلى الأبلستين حتى عاين القتلى بالمعركة وليس فيهم من الروم ولا من عساكر السلطان إلا القليل ، مع كثرة رمم التتار[4] التى هناك فشقّ عليه ذلك . وكان قد وُشى إليه بالبرواناه أنه هو الذى كاتب الملك الظاهر حتى أقدمه إلى بلاد الروم ، فحنق لقلة عدد قتلى الروم . وعاد [أبغا] إلى قيسارية ، فنهبها وقتل من بيلاد الروم من المسلمين . وأغار التتار مسيرة سبعة أيام ، فيقال إنه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا مايزيد على مائتى ألف نفس ، ولم يقتل أحد من النصارى . وشمل القتل من أرزن الروم إلى قيسارية ، فيقال إن عدة القتلى كانت خمسمائة ألف . ثم سار أبغا ومعه السلطان غياث الدين[5] صاحب الروم ، ووكل بالبرواناه من يحفظه . وسار السلطان [بيبرس] من حارم إلى أنطاكية ، ونزل بمروجها .

ومات فى[6] [هذه السنة] من الأعيان الأمير عز الدين إيغان المعروف بسم الموت ، أحد أمراء مصر ، وهو بقلعة الجبل مسجونا ، فدفن خارج باب النصر وفيها حج الصاحب

---

(١) الجنود المتركشة هى التى تكون حاملة تركاشها ، والتركاش جعبة النشاب ، ويقابله فى الفرنسية لفظ (carquois) ، ويجمع على تراكيش ، وهو معرب من كلمة تركش الفارسية . (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٢) أضيف ما بين القوسين ، وما يليه من الإضافات الفقرة التالية ، من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٦٩ ، وما بعدها) . (٣) فى س " وقد رحل السلطان فتبعه وسار إلى الابلستين ... ... " .

(٤) عبارة س كالآتى : " وسار إلى الابلستين حتى عاين القتلى بالمعركة وليس فيهم من الروم ولا من عساكر السلطان إلا القليل فشق ذلك عليه مع كثرة رمم التتار التى هناك ... ... "

(٥) فوق هذا اللفظ إشارة إلى سقطة أراد المقريزى إثباتها بهامش الصفحة فى س ، ثم أغفل ذلك أو نسيه . (٦) فى س " فيها " .

تاج الدين بن حنا ، وكان بمكة غلاء عظيم . وتوفى[١] شمس الدين أبو عبدالله محمد بن [عبد[٢] الوهاب بن] منصور الحرّانى الحنفى بدمشق ، بعد ما أقام بالقاهرة حينا ؛ و[كان قد] ولى قضاء بعض الأعمال . وتوفى بدر أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن عبدالرحمن بن محمد بن الفُوَيرة[٣] ، الحنفى الفقيه الأديب ، نحو أربعين سنة بدمشق . وتوفى فخر الدين أبو الوليد محمد بن سعيد بن محمد بن هشام بن عبد الحق الكنانى الشاطبى ، الحنفى النحوى الأديب ، عن ستين سنة بدمشق . وتوفى قطب الدين أبو المعالى أحمد بن عبد السلام ابن المطهر بن أبى سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن على بن المطهر بن أبى عُصْرون[٤] التميمى الموصلى الشافعى ، عن ثلاث وثمانين سنة بحلب . وتوفى الأديب شهاب الدين أبو المكارم محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيبانى التَّلَّعْفَرِى[٥] ، عن اثنتين وثمانين سنة بحماة . ومات الشيخ أبو العباس خضر بن أبى بكر بن موسى المهرانى العَدَوى[٦] الكردى ، فى محبسه بقلعة الجبل ، فى يوم الخميس سادس المحرّم عن نيف وخمسين سنة ، ودفن بزاويته خارج باب الفتوح ومات متملك تونس أبو عبدالله محمد المستنصر بن السعيد أبى زكريا يحى بن عبد الواحد بن

(١) الوفيات التالية واردة فى س على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٦٢ ب ، ١٦٣ أ ، وهى واردة فى ب (١٩٢ ب) كما هنا ، ولا شك فى مناسبتها لهذه السنة . (انظر ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٩ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٧٣) .

(٢) موضع ما بين القوسين ألفاظ ممحوة فى س ، وقد أضيفت من ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٨) .

(٣) مضبوط هكذا فى س .

(٤) مضبوط هكذا فى س .

(٥) فى س " التلعفرى ، والنسبة إلى تل يعفر المعروف أيضا باسم تل أعفر ، وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل . وتل أعفر أيضا بليدة بين حصن مسلمة بن عبد الملك والرقة ، من نواحى الجزيرة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٦٣ — ٨٦٤ ، ٨٧٣) .

(٦) مضبوط هكذا فى س ، ويوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٩١ ، وما بعدها) تحت سنة ٦٧٤ هـ ترجمة طويلة لهذا الشيخ . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٩ — ١٢١) ، حيث ذكرت هذه الوفاة تحت سنة ٦٧٦ هـ أيضا .

أبى حفص ، فى عاشر ذو الحجة ، فكانت مدته ثمانيا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام ؛ وبويع بعده ابنه أبو زكريا يحيى الواثق[١] .

* * *

سنة ست وسبعين وستمائة . فى خامس المحرم دخل السلطان من أنطاكية إلى دمشق بعساكره ، ونزل بالقصر الأبلق . فكثرت الأخبار بقدوم أبغا إلى الأبلستين وأنه يريد بلاد الشام ، فضرب الدهليز على القصر ليخرج السلطان إلى لقائه ، فورد الخبر برجوع أبغا إلى بلاده فرد الدهليز إلى دمشق .

ولما كان فى يوم الخميس رابع عشره جلس السلطان لشرب القمز ، وقد عظم سروره وفرحه وتناهى سعد ، فأكثر من الشرب . وانقضى المجلس فتوعك بدنه ، وأصبح يشكو فتقيا ، وركب بعد الصلاة إلى الميدان ، ثم عاد إلى القصر الأبلق آخر النهار وبات فيه . فلما أصبح وهو يشكو حرارة فى باطنه ، استعمل دواء [لم يكن عن[٢] رأى طبيب] ، فلم ينجح وتزايد ألمه . فاستدعى الأطباء ، فأنكروا استعماله الدواء ، واتفقوا على أخذ مسهل وسقوه فلم يفد ، فحركوه بدواء آخر فأفرط به الإسهال ، وتضاعفت الحمى ورمى دما[٣] يقال إنه كبده فعولج بجواهر ومات .

وقال الشيخ قطب الدين (١٦٣ب) اليونينى فى تاريخه : إن الظاهر كان مولعا بعلم النجوم ، فقيل له إنه يموت بدمشق فى سنة ست وسبعين هذه ملك بالسم ، فاهتم من ذلك . ويقال إنه كان فيه حسد ، فلما دخل معه إلى بلاد الروم الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك ابن الملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب ، أبلى فى المصاف بلاء عظيما أنكى[٤] به العدو ،

---

(١) أورد ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٦) تحت هذه السنة وفاة الشيخ السيد أحمد البدوى المشهور ، صاحب المزار الكبير بمدينة طنطا الحالية .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٧٧) .

(٣) دال هذا اللفظ محجوبة بورقة ملصقة فوقها فى س ، وهو كامل فى ب (١٩٣ ا) .

(٤) فى س "انكى" .

وتعجّب الناس لعظم شجاعته ؛ فأثّر ذلك عند السلطان . واتفق أن السلطان كان منه ذلك اليوم فتور ، وظهر عليه الخوف والندم على ما فعله من توريط نفسه وعساكره ببلاد الروم ، فأنكر عليه الملك القاهر وقبّح فعله ، فأسرّ له [السلطان] ذلك إلى أن قدم دمشق . فسمع [السلطان] الناس تلهج بما فعله الملك القاهر فى وقت المصاف ، فاشتدّ حنقه وأخذ يتحيّل فى سمه ، ليصحّ فيه ما دلّت عليه النجوم من موت ملك بالشام ، فإنه يطلق عليه اسم ملك . فعمل دعوة لشرب القمزّ حضرها الملك القاهر ، وقد أعدّ السلطان سمّا من غير أن يشعر به أحد . وكان له ثلاث هنّابات تختص به مع ثلاثة سقاة لا يشرب فيها غيره ، أو من يكرمه فيناوله أحدها بيده . فلما قام الملك القاهر لقضاء حاجته ، جعل السلطان السمّ الذى أعدّه فى هنّابه وأمسكه بيده ، فلما عاد الملك القاهر ناوله إياه ، فقبّل الأرض وشرب جميع ما فيه . وقام السلطان لقضاء الحاجة ، فأخذ الساقى الهناب من يد الملك القاهر ، وملأه على العادة من غير أن يشعر بما عمله السلطان من السم فيه ، وأمسكه بيده ووقف مع السقاة . فلما عاد السلطان من الخلاء تناول ذلك الهناب بعينه ، وشرب ما فيه وهو لا يعلم أنه الهناب المسموم . فعندما شربه أحس بالتغيّر ، وعلم أنه قد شرب بقايا السم الذى كان فى الهناب ، فتقيّأ فلم يفد ، وما زال به حتى مات .

وذكر [ركن الدين] بيبرس [المنصورى المؤرخ[1]] إن القمر خسف جميع جرمه ، ودلّ على موت رجل جليل القدر . فلما بلغ الملك الظاهر هذا خاف ، وقصد صَرْف ذلك إلى غيره ، فسمّ الملك القاهر فى كأس قمزّ . وأحسّ [الملك القاهر] بالشر فقام ، وغلط الساقى فملأ الكأس وسقاه السلطان ، فأحسّ بالنيران وأقام أياما يشكو ولا يُعلم الأطباء ، حتى تمكّن منه ومات .

وكانت وفاته يوم الخميس سابع عشرى المحرم بعد الزوال ، فكانت مدّة مرضه ثلاثة عشر يوما ؛ وقد تجاوز الخمسين سنة ، ومدّة ملكه سبع عشرة سنة وشهران[2] واثنا عشر يوما .

---

(١) أضيف ما بين الأقواس من (Enc. Isl. Art. Baibars al-Mansūri) ، وبيبرس هذا مؤلف كتاب زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، وكتاب التحفة الملوكية أيضا .

(٢) فى س " شهرين واثنى " .

وكان قفجاق الأصل ، طويل القامة أسمر اللون ، فى عينيه زرقة وبإحدى عينيه نقطة صغيرة ، صوته جهوريا ؛ وكان شجاعا عسوفا عجولا . [وكان قد] حضر من البلاد[1] مع تاجر إلى حماة ومعه مملوك آخر ، فلما عرضا على الملك المنصور محمد صاحب حماة لم يعجبه[2] . وأبيع بدمشق بثمانمائة درهم ، فردّ مشتريه لبياض فى إحدى عينيه ، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو بحماة معتقل بها ، (١١٦٤) وأقام فى خدمته مدّة . ثم أخذ منه الملك الصالح ، فترقّى فى الخدم ، وتنقّلت به الأحوال إلى ملك مصر والشام .

وكانت الأمراء تخافه مخافة شديدة ، حتى إنه لما مرض لم يدخل أحد منهم عليه إلا بإذن . وكان مقداما خفيف الركاب طول أيامه ، يسير على الهجن وخيول البريد لكشف القلاع والنظر فى الممالك ؛ فركب لعب الكرة فى الأسبوع يومين بمصر ويوما بدمشق ، وفى ذلك يقول سيف الدولة المهمندار[3] من أبيات يمدحه بها :

---

(١) انظر ص ٥٧٤ ، سطر ٧ ، وحاشية ١ .

(٢) أورد ابن واصل (مفرج الكروب ، ص ٤٠٤ ب) فى هذا الصدد قصة طريفة عن سبب رفض الملك المنصور شراء بيبرس ، وقد تلاها بما حدث لبيبرس بعد ذلك بتفصيل ، ونصها مصححا : "وكان السلطان الملك المنصور إذ ذاك فى سن الصبا ، وكان [من] عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر وتراه (كذا) الصاحبة والدته ، ومن أشارت بابتياعه أخذ . وكان الملك المنصور لما بلغه وصول الملك الظاهر وهو مع التاجر تقدم بإحضاره ، فأحضر ومعه خشداش له . وعرضا على الصاحبة فرأتهما من داخل الستارة ، فلما استأذنها السلطان ولدها فى شرائهما قالت له خذ المملوك الأبيض ، والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة — يعنى الملك الظاهر — فإن عينيه فيهما الشر لائح ؛ فردّهما جميعا على التاجر ، فسرها ذلك . وبلغ الأمير علاء الدين البندقدار حضور هذين المملوكين الذين جلبا ، فطلبهما إلى عنده ، فلما رآهما صلحا له ، فاشتراهما وهو فى الاعتقال إلى أن أفرج الملك الصالح نجم الدين أيوب أستاذه عنه ، وتوجه بهما إلى مصر فأخذهما الملك الصالح منه ..." .

(٣) شرح القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٩) هذه الوظيفة فقال ، إن صاحبها "هو الذى يتصدّى لتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان ، وينزلهم دار الضيافة ويتحدث فى القيام بأمرهم وهو مركب من لفظين فارسيين ، أحدهما مهمن بفتح الميمين ومعناه الضيف ، والثانى دار ومعناه ممسك ... ويكون معناه ممسك الضيف ، والمراد المتصدى لأمره" .

يوما بمصر ويوما بالحجاز وبالشــام يوما ويوما فى قرى[١] حلب

وكانت عدّة عسكره اثنى عشر ألفا ، ثلثها بمصر وثلثها بدمشق وثلثها بحلب. و [كان] هؤلاء خاصته ، فإذا غزا خرج معه أربعة آلاف يقال لهم جيش الزحف ، فإن احتاج استدعى أربعة أخرى ، فإن اشتدّ به الأمر استدعى الأربعة آلاف الثالثة . وافتتح من البلاد قيسارية وأرسوف وهدمها ، وفتح صفد وعمرها ، وفتح طبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وخربها ، و [استولى على] بغراس والقُصَير وحصن الأكراد والقُرين وحصن عكّار وصافيتا ومرقية وحليا ، وناصف الفرنج المرقب وبانياس وأنطرسوس ، وأخذ من متملك سيس دربساك ودركوش وتلميش[٢] وكفر دنين ورعبان ومرزبان . وملكَ دمشق وعجلون وبصرى ، وصرخد والصلت وحمص ، وتدمر والرحبة وتل باشر ، وصهيون وبلاطنس ، وقلعة الكهف والقدموس والمينقة والعليقة والخوابى والرصافة ومصياف ، والكرك والشوبك وبلاد الحلب وشيزر وبلاد النوبة وبرقة ، وسائر إقليم مصر والشام . وملك قيسارية من بلاد الروم . وقد قال فيه بعض الأدباء:

تدبّر الملك من مصرٍ إلى يمنٍ إلى العراق وأرض الروم والنوبى

وله عدة أوقاف بمصر : منها وقف الطرحاء لتغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم ، وهو من أكثر الأوقاف نفعا . ومنها تربة الظاهر بالقرافة ، والمدرسة الظاهرية بخط بين القصرين من القاهرة ، والجامع الظاهرى خارج باب الفتوح من القاهرة . وعمر [السلطان بيبرس] الجسر[٣] الذى يسلك عليه إلى دمياط ، وأنشأ عليه ست عشرة قنطرة ؛ وعمر قنطرة بحر

---

(١) هذا البيت وارد فى س كالآتى ، بدون فاصلة : " يوما بمصر ويوما بالحجاز ويوما بالشام ويوما فى قرى حلب " .

(٢) كذا فى س .

(٣) الجسر هنا الطريق المبنى على حافة النهر أو الترعة ، لحفظ المياه وضبطها لأغراض الرى ، ولوقاية البلاد المجاورة من الفيضان ، وفى (Quatremère : Op Cit. I. 2. p. 142. n. 187) أمثلة كثيرة للدلالة على هذا المعنى ، ومنها : " الجسور الممتدة التى يصرف عليها إذا عملت كما ينبغى ربع الخراج ، ليحفظ عند ذلك ماء النيل حتى ينتهى رى كل مكان إلى الحد المحتاج إليه . " . وكانت الجسور فى مصر زمن المماليك على نوعين ، سلطانية وبلدية : فالجسور السلطانية هى الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة ، وكانت تعمر =

أبى المنجا ، وهى أجلّ قناطر أرض مصر . وعمل قناطر السباع بين القاهرة ومصر على الخليج الكبير ؛ وحفر خليج الإسكندرية وبحر طناخ وبحر الصمامم بالقليوبية ؛ وحفر خليج سردوس[1] ؛ وأصلح بحر دمياط وردم فمه بالصخور .

ومن غريب (١٦٤ ب) أمره أنه أوّل ما فتح من البلاد قيسارية من بلاد الساحل ، وآخر ما فتح مدينة قيسارية من بلاد الروم . وأول جلوسه على مرتبه الملك يوم الجمعة سابع عشرى ذى القعدة ، وآخر جلوسه على تخت الملك بسلطنة آل سلجوق فى قيسارية الروم يوم الجمعة سابع عشرى ذى القعدة ، وأوّل من بنى مدينة أنطاكية اسمه بالعربية الملك الظاهر ، والذى أخربها الملك الظاهر . وأوّل من قام بدولة الترك السلجوقية ركن الدين طغرلبك ، والملك الظاهر ركن الدين بيبرس هو القائم فى الحقيقة بدولة الترك من يوم وقعة المنصورة . وركن الدين طغرلبك هو الذى ردّ الخلافة على بنى العباس فى نوبة البساسيرى ، وركن الدين بيبرس هو الذى ردّ الخلافة على بنى العباس فى نوبة هولاكو . والخطبة بديار مصر كانت بعد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى للظاهر لإعزاز دين الله ، وكذا وقع [له ، فقد] كانت الخطبة بعد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى للملك الظاهر بيبرس .

وكان[2] راتب مخابزه وعليقه ، لخاصة نفسه ومماليكه ، فى كل سنة مائة ألف وعشرين ألف أردب . وكان يطعم فى كل ليلة من ليالى شهر رمضان خمسة آلاف نفس ، ويكسو[3] فى كل

= فى كل سنة من الديوان السلطانى بالوجهين القبلى والبحرى . وكان للجسور السلطانية فى كل عمل من أعمال مصر كاشف يرسل لعمارتها كل سنة ، ويعبر عنه بكاشف الجسور ، وفى خدمته خولة ومهندسون لذلك الغرض . أما الجسور البلدية فهى الخاصة ببلد دون بلد ، ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية فى إقطاعاتهم . راجع (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٨ — ٤٥٠ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٦٥ — ١٧٢) .

(١) بغير ضبط فى س ، وهو أحد فروع النيل ، ومخرجه من سردوس بين باسوس وقليوب ، وكان يروى كثيرا من أراضى الشرقية . (P. Omar Toussoun : Anc. Branches Du Nil. pp. 72-76, et Pl. III.) انظر أيضا (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٧) .

(٢) العبارة التالية إلى حاشية رقم٢ بالصفحة التالية واردة بهامش الصفحة فى س ، وهى ليست فى ب (١٩٤ أ) أو فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 153) .

(٣) فى س " يكو " .

سنة ستمائة كسوة خارجا عما يطلقه(١) من يده من الكساوى ، وكان له من الخبز ألفا قنطار وخمسمائة فى كل(٢) [يوم] . إلا أنه كان كثير المصادرات للدواوين ، كثير الجباية للأموال من الرعية . وأحدث وزيره ابن حنا فى أيامه حوادث جليلة ، وقاس أملاك الناس بمصر والقاهرة ، وصادر أرباب الأموال حتى هلك كثير منهم تحت العقوبة ؛ وأخذ جوالى الذمة مضاعفة ، وأمر بإحراقهم كلهم ، وجمع لهم الأحطاب وحفر لهم حفرة عظيمة قدام دار النيابة بقلعة الجبل ، ثم عفى عنهم وقرر عليهم أموالا أخذت منهم بالمقارع ، ومات أكثرهم فى العقوبة . ولما توجه [السلطان بيبرس] إلى بلاد الروم كلف أهل دمشق جباية مال لإقامة الخيل ، وفرض عليهم ألف ألف درهم نقرة تجبى من المدينة ومن الضياع .

ولم يل الوزارة له سوى الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا(٣) ؛ وقضاته بمصر قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز إلى أن أحدث القضاة الأربعة ، واستمر ذلك من بعده . ورؤى [السلطان بيبرس] بعد موته فى النوم ، فقيل له : "ما فعل الله بك ؟" فقال : "ما رأيت شيئا أشد على من ولاة قضاة أربعة(٤) ، وقيل لى فرقت الكلمة" . و [كان] كل من ولاه [بيبرس] فى مملكة أو عمل أبقاه ، ولم يغير عليه ولا عزله . وتزوج [بيبرس] من النساء — وهو ببلاد غزة ، قبل أن يلى الملك — امرأة من طائفة الشهرزورية ، ثم طلقها بالقاهرة . وتزوج ابنة حسام الدين بركه خان بن دولة خان التترى(٥) ، وابنة الأمير سيف الدين نوكلى التترى ، وابنة الأمير سيف الدين كراى بن تماجى التترى ، وابنة الأمير

---

(١) فى س " يطلبه " .

(٢) انظر حاشية ٢ بالصفحة السابقة .

(٣) عبارة النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٦) فى هذا الصدد كالآتى : ووزراؤه الصاحب زين الدين بن الزبير مدة يسيرة ، ثم استوزر بعده الصاحب بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنا ... " .

(٤) فى س " اربع " .

(٥) سيلاحظ القارئ أن المقريزى سمى هذا الأمير فيما يلى بالصفحة التالية (سطر ٣) الخوارزمى بدل التترى ، وهذه التسمية باسم الخوارزمى واردة أيضا فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٩١) والنويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١١٦) .

سيف الدين ...(١) التترى . وولد [له] من الأولاد (١٦٩٠) عشرة : الذكور منهم ثلاثة — وهم الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قان ، وولد فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة بمنزلة(٢) العش ، من بنت حسام الدين بركة خان الخوارزمى ؛ والملك العادل بدر الدين سلامش ؛ والملك المسعود نجم الدين خضر — ، والإناث سبع .

ولما مات [السلطان بيبرس] كتم الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة موته عن العساكر ، وحمله فى محفة من القصر الأبلق خارج دمشق إلى القلعة(٤) فى الليل ، وجعله فى تابوت وعلقه فى بيت ، وأشاع أنه مريض ورتب الأطباء على العادة ، ثم أخذ العساكر والخزائن ، ومعه محفة محمولة وأوهم أن السلطان فيها مريض ؛ وخرج من دمشق يريد مصر ، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان . واستمر الحال على ذلك حتى وصلت العساكر إلى القاهرة ، وصعدت الخزائن والمحفة إلى قلعة الجبل ، فأشيع حينئذ موته . وبالجملة فلقد كان من خير ملوك الإسلام(٥) .

السلطان الملك السعيد ناصر الدين

محمد بركة قان بن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى . لما مات الملك الظاهر بدمشق ، كتب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار إلى الملك السعيد وهو

(١) بياض فى س ، واسم هذا الأمير فى النويرى (نفس المرجع والجزء والصفحة) " الأمير سيف الدين بماجى (كذا) التتارى."

(٢) بغير ضبط فى س ، ومنزلة العش من ضواحى القاهرة . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٩١) .

(٣) انظر ص ٦٤٠ ، سطر ١٥ ، وحاشية ٥ .

(٤) المقصود هنا قلعة دمشق . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٦ ا)

(٥) يوجد فى ابن واصل (مفرج الكروب ، ص ٤٤ ب) جزء من وصية أرسلها السلطان بيبرس إلى ابنه الملك السعيد ، ونصها : " ولما أحس [الملك الظاهر] بالموت رحمه الله كتب تذكرة إلى ولده الملك السعيد وهو بمصر ، ومن جملتها : إنك صبى ، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى ، فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك ، وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه فى وقته ولا تعتقله ، ولا تستفتر (فى الأصل تستشير) أحدا فى هذا ؛ وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك .

بقلعة الجبل كتابا بموت أبيه . فأظهر [الملك السعيد] عند ورود الكتاب فرحا كبيرا ، وأخلع على من أحضره ، وأشاع أن الكتاب يتضمن البشارة بعود الملك الظاهر إلى ديار مصر . وأصبح فركب الأمراء على العادة تحت القلعة ، من غير أن يظهر عليهم شيء من الحزن .

وسار الأمير بيليك بالمحفة والأطلاب ، حتى قدم إلى القاهرة يوم الخميس سادس عشري صفر وهو تحت السناجق الظاهرية ، وصعد قلعة الجبل . وجلس الملك السعيد بالإيوان ، وسلم إليه الأمير بيليك الخزائن والعساكر ووقف بين يديه ، فصاح الحجاب حينئذ . "يا أمراء ! ترحموا على السلطان الملك الظاهر" . فارتفع الضجيج والعويل ، ووقع الأمراء إلى الأرض يقبلونها للملك السعيد . فجددت الأيمان ، وحلف له سائر العسكر والقضاة والمدرسين والأعيان ، وتولى تحليفهم الأمير [بدر الدين] بيليك [الخازندار] بحضرة القضاة . وأقر الملك السعيد الأمير بدر الدين بيليك على نيابة السلطنة[1] ، وأقر الصاحب بهاء الدين بن حنا على وزارته ، وخلع عليهما وعلى الأمراء والمقدمين والقضاة وأرباب الوظائف .

---

(١) يوجد في القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٦ ، وما بعدها) في باب الوظائف السلطانية الكبرى ، وصف لاختصاص نيابة السلطنة ، ونصه : "ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية ... وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعلم في التقاليد والمناشير ، وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل ما يعلم عليه السلطان ... ، (١٧) وجميع نواب الممالك تكاتبه فيما تكاتب فيه السلطان ، ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان . و [لنائب السلطنة] أن يستخدم الجند من غير مشاورة السلطان ، ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر ، وقل ألا يجاب فيما يعينه . وهو سلطان مختصر بل هو السلطان الثاني ، وعادته أن يركب بالعسكر في أيام المواكب ، وينزل الجميع في خدمته . فإذا مثل في حضرة السلطان وقف في ركن الإيوان ، فإذا انقضت الخدمة خرج إلى دار النيابة بالقلعة والأمراء معه ويجلس جلوسا عاما للناس ، ويحضره أرباب الوظائف ، ويقف قدامه الحجاب ، وتقرأ عليه القصص ؛ ثم يمد السماط للأمراء كما يمد لهم السلطان ، فيأكلون وينصرفون . وإذا كانت النيابة قائمة على هذه الصورة ، لم يكن السلطان يتصدى لقراءة القصص وسماع الشكاوى بنفسه ، ويأمر في ذلك بما يرى من كتابة مثال ونحوه ؛ ولكنه لا يستبد بما يكتب من الأبواب السلطانية بنفسه ، بل يكتب بإشارته وينبه على ذلك ، وتشمله العلامة الشريفة بعد ذلك . أما ديوان الجيش فإنه لا يكون له خدمة إلا عنده ولا اجتماع إلا به ، ولا اجتماع لهم بالسلطان في أمر من الأمور . و [أما] ما كان من الأمور المعضلة التي لابد من إحاطة علم السلطان بها ، فإنه يعلمه بها تارة بنفسه وتارة بمن يرسله إليه . غير أن هذا النائب تارة ينصب ، وتارة يعطل جيد المملكة منه ... ، وإذا كان منتصبا اختص بإخراج بعض الإقطاعات دون بعض ، ويكون صاحب ديوان الجيش هو الملازم له ، وناظر الجيش ملازم للسلطان " . انظر أيضا (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٤ ؛ O-Demombynes : La Syrie. Introd p. LV et seq) .

وفى يوم الجمعة سابع عشره (٦٩٠ ب) دعا الخطباء على منابر الجوامع بمصر والقاهرة للملك السعيد ، وصلى بها على الملك الظاهر صلاة الغائب . وخرج البريد إلى دمشق بموت الملك الظاهر ، وتحليف العساكر للملك السعيد فحلفوا

وفى يوم الأربعاء سادس عشر ربيع الأول ركب الملك السعيد بالعصائب على عادة أبيه ، ومعه الأمراء والأعيان وعليهم الخلع ، وسيّر إلى تحت الجبل الأحمر ، وعاد إلى القلعة من غير أن يشق القاهرة ؛ وكان يوما مشهودا .

وفى سادس ربيع الآخر مات الأمير بدر الدين بيليك النائب ، واتُّهم أن الملك السعيد سمّه — وذلك أنه اختص بجماعة من المماليك الأحداث[1] ، فأوهموه من الأمير بيليك ، وكانت جنازته حفلة[2] ؛ ومن بعده اضطربت أمور الملك السعيد . وأقام [الملك السعيد] بعده فى نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى ، وكان حازما ، فضمّ إليه جماعة : منهم شمس الدين أقوش ، وقطليجا الرومى ، وسيف الدين قلج البغدادى ، وسيف الدين بيجو[3]

(١) وضع هذا اللفظ يحتمل معنيين ، وكلاهما فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، أحدهما حديثو السن أو العهد بالخدمة (jeunes gens) ، والآخر الأوباش والسفلة (la canaille) ؛ والمعنى الأول هو المقصود هنا . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٩٩) ، حيث يقول إن الأمور كانت مفسودة فى فى عهد الملك السعيد " بتحكم الصبيان الجهلة من الخاسكية (كذا) " .

(٢) يوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠) تفصيلات كثيرة عن وفاة الأمير بدر الدين ، ونصها : " دخل [الأمير بدر الدين] إلى الستارة عند والدة الملك السعيد ، على أنه يعزيها بالسلطان ويهنئها بالملك السعيد ، فشكرت له فعله ودعت له ، وأخرجت له هنابا مملوءا سكرا وليمونا وحلفت عليه أن يشربه بعدها ، وأوهمت أنها شربت منه . فشرب جرعتين لا غير ، وفى الثالثة من كثرة ما لجوا عليه تخيل ودفعه من يده ، وكانت القاضية فيه . فتوجه إلى داره ، فتوعك وحصل له تقطع المعاء (كذا) ، وادعى أنه قولنج . وكان طبيبه عماد الدين ابن النابلسى ، فبعثوا إليه ثلاثة آلاف دينار ، وقالوا له خذ هذه وساعدنا فى هلاكه ، ولا تعرفه أنه سقى . فأخذ الذهب (٢٩٠) وتغافل عنه ، ووصف له ما يقوى سقيته فمات " . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٧ — ١١٨) حيث ذكرت هذه القصة ، يتلوها ترجمة قصيرة لهذا الأمير .

(٣) فى س " بجوا " وهو مترجم إلى (Nadgou) فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 158) .

اليغنادي ، وعز الدين ميغان[1] أمير شكار[2] ، وسيف الدين بكتمر السلاح دار . فثقل[3] [الأمير آقسنقر] على خاصكية[4] السلطان ، وحدثوا السلطان في أمره ، واستعانوا بالأمير سيف الدين كوندك الساقي — وكان الملك السعيد قد قدمه وعظمه ، لأنه ربى معه في المكتب . فقبض على آقسنقر وهو جالس في باب القلة[6] ، وسجن وأهين ونتفت لحيته وضرب ، ثم أخرج بعد أيام يسيرة ميت . فاستقر بعده في النيابة الأمير شمس الدين سنقر الألفي المظفري ، فكرهه الخاصكية وقالوا : " هذا ما هو من الظاهرية " ، وخيلوا الملك السعيد منه أنه يريد أن يثور بخشداشيته مماليك الملك المظفر قطز ، فعزله سريعا . وولى

(١) كذا في س ، وهو مترجم في (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 158) إلى (Igan)

(٢) يعدث صاحب هذه الوظيفة على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها ، وعلى سائر أمور الصيد ؛ وشكار لفظ فارسي معناه الصيد ، فيكون المراد أمير الصيد . وهناك وظيفة أخرى متعلقة بالصيد وهي حراسة الطير ، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثا على حراسة الطيور في الأماكن والمزارع التي يتركها السلطان للصيد . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢ ؛ ج ٥ ، ص ٤٦١)

(٣) في س " فنقل " .

(٤) الخاصكية هم من المماليك السلطانية ، يختارهم السلطان من الأجلاب الذين دخلوا خدمته صغارا ، ويجعلهم حرسه الخاص (G.-Demombynes : La Syrie. Introd. pp. XXXIII, L, XCIX) . هذا وقد أورد (Quatremère : Op, Cit. I, 2. p. 158. n. 3) تعريفين للخاصكية ، وقد نقل أولهما من (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٥ ، وما بعدها) ، ونصه : "الخاصكية هم الذين يلازمون السلطان في خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف ، ويتعينون بكوامل الكفال ، ويجهزون في المهمات الشريفة . و[هم] المتعينون للإمرة" (١٦٦) والمتقربون في المملكة ...... ، ومنهم من هو صاحب وظيفة ، ومنهم من ليس له وظيفة ...... " . أما النص الثاني فقد نقله (Quatremère) من كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادي إلى صناعة الإنشا للخالدي ، ونصه : "وقد جعل ذلك [الاسم] علما عليهم ، لأنهم يحضرون على الملك في أوقات خلواته وفراغه ، وينالون من ذلك ما لا يناله أكابر المقدمين ، ويحضرون طرفي كل نهار في خدمة القصر والإسطبل ، ويركبون لركوب الملك ليلا ونهارا ، ولا يتخلفون في قربه ولا بعده . ويتميزون عن غيرهم في الخدمة بحملهم سيوفهم ، ولباسهم الطرز الزركش . ويدخلون على الملك في خلوته بغير إذن ، ويتوجهون في المهمات الشريفة ، ويتأنقون في مركوبهم وملبوسهم" .

(٥) ضبط هذا الاسم من ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٩٩ ، حاشية ٢ ، من الترجمة الفرنسية) .

(٦) انظر ما سبق ، ص ٢٩٥ ، حاشية ١

الأمير سيف الدين كونذك الساقى نيابة السلطنة - وهو شاب ، فحضده الأمير سيف الدين قلاون الألفى ومال إليه .

وكان من جملة المماليك السلطانية الخاصكية شخص يعرف بلاجين الزينى ، وقد غلب على الملك السعيد فى سائر أحواله ، وضم إليه عدة من الخاصكية . وأخذ [لاجين] لهم الإقطاعات والأموال الجزيلة ، وصار كلما انحل خبز[1] أخذه لمن يختار . وتنافر النائب [والمذكور[2]] ، فتوغرت بينهما الصدور ، ودبت بينهما عقارب الشرور ، وأعمل كل منهما مكره فى أذية الآخر . وضم النائب إليه جماعة من الأمراء الكبار ، وصار العسكر حزبين ، فآل الأمر إلى ما آل إليه من الفساد .

وتغير السلطان على الأمراء ، وقبض فى سابع عشره على الأمير جودى القيمرى الكردى فنفرت منه قلوب الأمراء لاسيما الصالحية : مثل الأمير سيف الدين قلاون ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير علم الدين سنجر الحلبى ، والأمير بدر الدين بيسرى ، وأقرانهم . فإنهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون أنهم أحق منه بالملك ، فصار ابنه الملك (١٦٦ ا) السعيد يضع من أقدارهم ، ويقدم عليهم مماليك الأصاغر ، ويخلو[3] بهم وكانوا صباح الوجوه ، ويعطيهم مع ذلك الأموال الكثيرة ، ويسمع من رأيهم ويبعد الأمراء الكبار .

[واستمر الحال على هذا] إلى أن كان يوم الجمعة خامس عشريه ، [وفيه] قبض [السلطان] على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير بدر الدين بيسرى ، وسجنهما بالقلعة ثلاثة وعشرين يوما . فزادت الوحشة بينه وبين الأمراء ، ودخل خاله الأمير بدر الدين محمد بن بركه خان إلى أخته أم السلطان ، وقال لها : "قد أساء ابنك التدبير بقبضه على مثل هؤلاء الأمراء الأكابر ، والمصلحة أن ترديه إلى الصواب ، لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه" .

(١) تقدم شرح المعنى الاصطلاحى لهذا اللفظ فى ص ٦٥ ، حاشية ١ .

(٢) ليس لهذا اللفظ وجود فى س ، ولكنه فى ب (١٩٥ ب) .

(٣) فى س " يخلوا " .

فلما بلغ الملك السعيد ذلك قبض عليه واعتقله، فلم تزل به أمه تعنّفه وتتلطّف به، حتى أطلقهم وخلع عليهم وأعادهم إلى ما كانوا عليه؛ وقد تمكّنت عداوته من قلوبهم.

وتوهّم منه بقية الأمراء، وخشوا أن يعاملهم كما عامل الأمير بيليك الخازندار، مع حفظه له الملك وتسليم الخزائن والعساكر إليه، فلم يكافئه إلا بأن قتله بالسم. فاجتمع الأمراء وهمّوا أن يخرجوا عنه إلى بلاد الشام، ثم اتفقوا وصعدوا كلهم إلى قلعة الجبل، ومعهم مماليكهم وألزامهم وأجنادهم وأتباعهم، ومن انضمّ إليهم من العساكر؛ فامتلأ منهم الإيوان ورحبة القصر. ثم بعثوا إلى الملك السعيد: "بأنك قد أفسدت الخواطر، وتعرّضت إلى أكابر الأمراء، فإما أن ترجع عما أنت عليه، وإلا كان لنا ولك شأن". فلاطفهم في الجواب، وتنصّل مما كان منه، وبعث إليهم التشاريف فلم يلبسوها. وتردّدت الأجوبة بينهم وبينه إلى أن تقرّر الصلح، وحلف لهم أنه لا يريد بهم سوءا، وتولى تحليفه الأمير بدر الدين الأيدمرى، فرضوا وانصرفوا.

وكتب [السلطان الملك السعيد] إلى دمشق أن يدفن الملك الظاهر داخل المدينة. فاشترى الأمير عز الدين أيدمر نائب الشام دار العقيقى[1] داخل باب الفرج تجاه المدرسة العادلية بستين ألف درهم، وجعلها مدرسة وبنى بها قبة، وابتدأ بالعمارة فى يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى، وفرغ منها فى آخر جمادى الآخرة. وخرج من القاهرة الأمير علم الدين سنجر المعروف بأبى خرص، والطواشى صفى الدين جوهر الهندى؛ وسار إلى دمشق فدخلا [ها] فى ثالث رجب. فلما كان فى ليلة الجمعة خامسه، حمل الملك الظاهر من قلعة دمشق ليلا على أعناق الرجال، ووضع فى جامع بنى أمية وصُلّى عليه، (١٦٦ ب) وحمل حتى دفن بالقبة من المدرسة التى بنيت له، بحضور نائب الشام. وألحده قاضى القضاة عز الدين محمد بن عبد القادر ابن عبد الخالق بن خليل بن مقلد أبو المفاخر المعروف بابن الصائغ؛ وترتب القراء من ثانى يوم.

---

(١) كذا فى س، وفى ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٥٠)، وهو واردا برسم "العقيق" فى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١١٦).

ثم وقف عز الدين بن شداد وكيل الملك السعيد هذه المدرسة ، ووقف عليها قرية من شعرا بانياس(١) ، وغير ذلك .

وفى ثامن عشر ذى القعدة صرف قاضى القضاة محيى الدين عبد الله بن عين الدولة عن قضاء مصر والوجه القبلى ، وأضيف إلى قاضى القضاة تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين ؛ فكمل له قضاء القضاة بديار مصر . وأعيد قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان إلى قضاء دمشق فى سابع عشرى ذى الحجة ، فكانت مدة عزله سبع سنين .

وفيها ولى شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن شمس الدين أبى المعالى أحمد بن الخليل بن سعادة الخوىّ(٢) قضاء القضاة الشافعية بحلب ، بعد وفاة تقى الدين محمد بن حياة الرقى .

وفى هذه السنة عمّ ماء النيل أرض مصر كلها ، ورخص سعر الغلة حتى أبيع الأردب القمح بخمسة دراهم ، والأردب الشعير بثلاثه دراهم ، والأردب من بقية الحبوب بدرهمين .

وفيها قتل الملك أبغا البرواناه فى صفر ، واسمه معين الدين سليمان بن على بن محمد بن حسن ، ومعنى البرواناه الحاجب ؛ وكان شجاعا حازما كريما عارفا ، فيه دهاء ومكر(٣) .

---

(١) كذا فى س . (٢) بغير ضبط فى س ، والخوى اسم لعدة أماكن ، ومنها بلد من أعمال آذربيجان ينسب إليه الثياب الخوية . (يا قوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٠٠ — ٥٠٣) .

(٣) يوجد بين الصفحتين ١٦٦ ب ، ١٦٧ ا فى س ، ورقة عليها ترجمة للبرواناه ، وقد جاء فى سياقها سبب قتل الملك أبغا له ، ونصها : " سليمان بن على بن محمد الصاحب معين الدين برواناه بن مهذب الدين . قدم أبوه من بلاد العجم إلى الروم ، وعلم أولاد مستوفى الروم القرآن . ثم ناب عنه واستقر مكانه فى أيام السلطان علاء الدين ، فظهرت كفائته فاستوزره . ثم وزر من بعده لابنه غياث الدين حتى سنة اثنتين وأربعين [وستمائة] ، فوثب من بعده ابنه سليمان هذا فى وزارته ، وعظم شأنه إلى أن استولى على ممالك الروم ، وصانع التتار . فعمرت البلاد على يده ، وكاتب السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ؛ فلما دخل السلطان [بيبرس] بلاد الروم ، وواقع التتار وعاد ، قدم الملك أبغا فنسب البرواناه إلى أنه هو الذى جسر السلطان على ذلك . وبكت خواتين أبغا وشققن ثيابهن بين يديه ، وقلن البرواناه هو الذى قتل رجالنا ولا بد من قتله . فقتله أبغا أشنع قتلة ، فإنه قطع يديه ورجليه وهو حى ، وألقاه فى قدر وسلقه (كذا) ، وأكل المغل لحمه غيظا وحنقا ؛ وقتلوا معه من الروم عدة خلائق ، وذلك فى سنة ست وسبعين وستمائة . وكان من دهاة العالم وشجعانهم ، له إقدام على الأهوال وخبرة بجمع الأموال " . انظر (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٧٣ ، وما بعدها ؛ Enc. Isl. Art. Mu'in al-din Sulaimān Parwāna)

وفيها عزل نفسه قاضي القضاة صدر الدين سليمان بن أبي العز الحنفي من القضاء في سلخ المحرم ، فشغر منصب قضاء الحنفية بعده .

ومات في هذه السنة من الأعيان الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة ، في سادس شهر ربيع الآخر ؛ وكان جوادا عارفا بالتاريخ جيد الكتابة . وتوفي قاضي القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن عماد الدين أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الحنبلي وهو مصروف ، في يوم السبت ثاني عشري المحرم ؛ ودفن بالقرافة ، وله من العمر ثلاث وسبعون سنة . وتوفي قاضي القضاة بحلب تقي الدين أبو عبد الله محمد بن حياة ابن يحيى بن محمد الرقي الشافعي بتبوك ، وهو عائد من الحج . وتوفي الشيخ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري[1] بن الحسن بن الحسين بن جمعة بن حرام النووي[2] الشافعي ، عن نيف وأربعين سنة ، بقرية نوى . وتوفي الواعظ نجم الدين أبو الحسن علي ابن علي بن أسفنديار البغدادي بدمشق ، عن ستين سنة . وتوفي الشريف شهاب الدين أحمد ابن أبي محمد الحسيني الواسطي الغراقي ، بالإسكندرية . وتوفي الشيخ نظام الدين أبو عمرو عثمان بن أبي القاسم عبد الرحمن بن رشيق المالكي . وتوفي أبو الحسن علي بن عدلان ابن حماد بن علي الربعي الموصلي النحوي المترجم ، بالقاهرة[3] .

* * *

سنة سبع وسبعين وستمائة . في سابع عشري المحرم عمل عزاء الملك الظاهر ، عند تمام سنة من وفاته ، بالأندلس[4] من قرافة مصر . ومدت هناك الأسمطة في الخيام للقراء والفقهاء ، وفرقت الأطعمة على أهل الزوايا ، وكان من الأوقات العظيمة ، لكثرة من اجتمع فيه من

---

(١) في س " مرا " . انظر ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٥٤) .

(٢) بغير ضبط في س ، والنسبة إلى نوى المذكورة بالسطر التالي . ونوى اسم لبلدتين ، إحداها من أعمال حوران وبينها وبين دمشق منزلتان ؛ والأخرى قرية من قرى سمرقند على بعد ثلاثة فراسخ منها . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨١٥) .

(٣) تقدمت وفاة ابن عدلان هنا في وفيات سنة ٦٦٦ هـ ، انظر ما سبق هنا ، ص ٥٧٢

(٤) كذا في س .

الناس على اختلاف طبقاتهم . وعُمل بجمع آخر بجامع ابن طولون ، وفى الجامع الظاهرى ، والمدرسة الظاهرية ، والمدرسة الصالحية ، ودار الحديث الكاملية ، والخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، والجامع الحاكمى وعمل التكاررة[1] والفقراء خوان حضره كثير من أهل الخير .

وفى عاشر جمادى الأولى ولى قاضى القضاة صدر الدين سليمان بن أبى العز بن وهيب الحنفى قضاء الحنفية بدمشق ، عوضاً عن مجد الدين عبد الرحمن بن عمر بن العديم بحكم وفاته . فلما مات [صدر الدين] بعد أربعة أشهر ، ولى عوضاً عنه فى تاسع عشرى رمضان حسام الدين حسن بن أحمد بن حسن الرازى ، قاضى الروم الواصل من قيسارية .

وفى ......[2] شوال خرج الملك السعيد من قلعة الجبل يريد التفرج فى دمشق ، ومعه أخوه نجم الدين خضر ، وأمه وأمراؤه وعساكره ؛ فدخل إلى دمشق فى خامس ذى الحجة .

وفى سلخ ذى القعدة مات الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا ، فكتب من دمشق بالحوطة على موجوده . وقبض الملك السعيد على الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين ، وأخذ خطه بمائة ألف دينار ، (١٦٧ ا) وسيّره على البريد إلى مصر ، ليستخرج منه ومن أخيه تاج الدين محمد وابن عمه عز الدين محمد بن أحمد بن على تكملة ثلاثمائة ألف دينار . واستقر فى الوزارة — عوضاً [عن] الصاحب بهاء الدين بن حنا — قاضى القضاة برهان الدين الخضر بن الحسن السنجارى ، وكان بينه وبين ابن حنا عداوة ظاهرة وحقود كامنة ، فبلغ من التمكن فى أولاده وأمواله ما كان يؤمله . وساعده على ذلك عدة من الأمراء : منهم عز الدين الأفرم ، وبدر الدين بيسرى ، لما فى نفوسهم من بهاء الدين بن حنا . وولى وزارة الصحبة فخر الدين بن لقمان ، عوضاً عن تاج الدين محمد بن حنا .

---

(١) التكاررة أهل بلاد التكرور ، وهى أحد الأقاليم الإفريقية الواقعة فى الجهة الجنوبية الغربية من مصر وقاعدتها مدينة تكرور ، وأهلها أشبه الناس بالزنوج . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٦١) .

(٢) بياض فى س ، يسع ثلاث كلمات تقريباً .

وفى سادس عشرى ذى الحجة جلس الملك السعيد بدار العدل فى دمشق ، وأسقط عن أهل الشام ما كان قد قرره الملك الظاهر عند سفره إلى بلاد الروم على البساتين فى كل سنة . وفيه أشار خاصكية السلطان عليه بإبعاد الأمراء الأكابر عنه ، فجهز الأمير قلاون الألفى بعسكر ، وجهز الأمير بيسرى بعسكر ، وأنفق فيهم الأموال . فساروا إلى جهة سيس ، وفى نفوسهم من ذلك إحن .

وفيها ولى الأمير علاء الدين أيدغدى الكبكى[1] نيابة حلب ، عوضا عن الأمير نور الدين على بن مجلى[2] المكارى[3] . وفيها كثر الرخاء بمصر حتى أبيع ثلاثمائة أردب فولا بمبلغ تسعمائة درهم ، انصرف منها حمولة ومكوس ، بحيث لم يتأخر منها غير خمسة وثمانين درهما . وفيها مات عز الدين كيكاوس ملك الروم ، بعد ما جرت له خطوب . فملك أبغا بن هولاكو من بعده ابنه مسعود بن كيكاوس سيواس وأرزن الروم وأرزنكان[4] . وفيها حصلت زحمة عظيمة بباب العمرة من المسجد الحرام بين الحجاج عند خروجهم إلى العمرة بعد صلاة الصبح ، فمات منهم ستة وثلاثون إنسانا ، وذلك فى ثالث عشر ذى الحجة .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى نائب الشام ، فى خامس ربيع الأول بالقاهرة ، عن نحو سبعين سنة[5] . ومات الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى الصالحى نائب السلطنة ، عن نحو خمسين سنة . ومات الأمير علاء الدين أيدكين الشهابى نائب حلب ، وهو مصروف ، عن نحو خمسين سنة بدمشق . وتوفى قاضى القضاة

---

(١) كذا فى س ، وهو مترجم له فى (Kelbi) (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 161) .

(٢) كذا فى س .

(٣) يلى هذا فى س عبارة ذهب معظم كلماتها ، وأولها لفظ "وولى" وهو مشطوب ، وكأن المقريزى تعمد إزالة العبارة كلها .

(٤) بغير ضبط فى س ، واسم هذا البلد أرزنجان بالجيم ، وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف كما هنا ، وهى بلدة من أرمينية ، قريبة من أرزن الروم . (ياقوت معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٥) .

(٥) تلى هذه الكلمة وفاة مشطوبة ، ونصها : " ومات الأمير بدر الدين محمد بن بركه خان بن دوله خان المطرى الخوارزمى ، خال السلطان الملك السعيد " .

الحنفية بدمشق مجـد الدين أبو محمد عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن العديم ، عن أربع وستين سنة . ومات قاضى القضاة الحنفية بدمشق صدر الدين أبو الفضل سليمان بن أبى العز بن وهيب الأذرعى ، بعد ثلاثة أشهر من ولايته ، عن ثلاث وثمانين سنة . ومات الوزير الصاحب بهاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن سليم بن حنا ، سلخ ذى القعدة . وتوفى مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أبى شاكر بن الظهير الإربلى الحنفى ، عن خمس وسبعين سنة بدمشق وتوفى نجم الدين أبو المعالى محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل الشيبانى الدمشقى الصوفى الأديب ، عن أربع وسبعين سنة بدمشق . وتوفى الأديب جمال الدين طه بن إبراهيم ابن أبى بكر الهذبانى الإربلى ، بالقاهرة . وتوفى الأديب موفق الدين أبو محمد عبد الله بن عمر ابن نصر الله الأنصارى البعلبكى ، بالقاهرة[1] .



سنة ثمان وسبعين وستمائة . فى المحرم قرر الخاصكية مع الملك السعيد القبض على الأمراء عند عودهم من سيس ، وعينوا إقطاعاتهم لأناس منهم ؛ وكان الأمير كوندك النائب مطلع على ذلك[2] . واستغرق السلطان فى لذاته ، وبسط يده بعطاء الأموال الكثيرة لخاصكيته ، وخرج عن طريقة أبيه . وفى أثناء ذلك حدث بين الأمير كوندك النائب وبين الخاصكية منافرة ، بسبب أن السلطان أطلق لبعض مماليكه ألف دينار فتوقف النائب

(١) فى هذه السنة كان مولد النويرى مؤلف كتاب نهاية الأرب المتداول فى هذه الحواشى ، وهو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم بن منجا (كذا) بن على بن طراد بن خطاب بن نصر ابن إسماعيل بن إبراهيم بن جعفر بن هلال بن الحسين بن ليث بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، وكان مولده بأخميم من صعيد مصر . حسبما ورد فى النويرى (نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص١٢٣).

(٢) تقدمت الإشارة إلى مكانة الأمير كوندك هذا عند السلطان الملك السعيد ، بسبب صداقتهما منذ الصغر (انظر ص ٦٤٤ سطر ٣) ، وقد حفظ السلطان الملك السعيد للأمير كوندك هذه الصداقة أيام سلطنته ، فسمح له " أن يجلس بين يديه ، ولا يوقع لأحد إلا بقلمه وعلمه ، ومكنه تمكينا لم يكن لأحد قبله ؛ وكان [كوندك] ذكيا فطنا " . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٣٠٠).

فى إطلاقها . فاجتمع الخاصكية عند النائب وفاوضوه فى أمر المبلغ ، وأسمعوه ما يكره وقاموا على حردهم ، وتكلموا مع السلطان فى عزله عن النيابة فامتنع . وأخذ الخاصكية فى الإلحاح عليه بعزل كوندك ، وعجز عن تلافى أمرهم معه .

وأما الأمراء فإنهم غزوا سيس وقتلوا وسبوا ، وسار الأمير بيسرى إلى قلعة الروم ، وعاد هو والأمراء إلى دمشق ونزلوا بالمرج . فخرج الأمير كوندك إلى لقائهم على العادة ، وأخبرهم بما وقع من الخاصكية فى حقهم وحقه ، فحرك قوله ما عندهم من كوامن الغضب . وتحالفوا على الاتفاق والتعاون ، وبعثوا من المرج إلى السلطان يعلمونه[1] أنهم مقيمون بالمرج ، وأن الأمير كوندك شكى إليهم من لاجين (١٦٧ ب) الزينى شكاوى كثيرة ، " ولابد لنا من الكشف عنها " ؛ وسألوا [السلطان] أن يحضر إليهم حتى يسمعوا كلامه وكلام كوندك .

فلما بلغ ذلك السلطان لم يعبأ بقولهم ، وكتب إلى من معهم من الأمراء الظاهرية يأمرهم بمفارقة الصالحية ودخول دمشق . فوقع القاصد الذى معه الكتب فى يد أصحاب كوندك ، فأحضر إلى الأمراء ووقفوا على الكتب التى معه ، فرحلوا من فورهم ونزلوا على الجسورة من جهة داريا . وأظهروا الخلاف ، ورموا الملك السعيد بأنه قد أسرف وأفرط فى سوء الرأى وأفسد التدبير .

فخاف [السلطان] عند ذلك سوء العاقبة ، وبعث إليهم الأمير سنقر الأشقر ، والأمير سنقر التكريتى الأستادار ، ليلطفا بهم ويعملا الحيلة فى إحضارهم ؛ فلم يوافقوا على ذلك . وعادا إلى السلطان فزاد قلقه ، وترددت الرسل بينه وبين الأمراء ، فاقترحوا عليه إبعاد الخاصكية ، فلم يوافق . وبعث [السلطان] بوالدته مع الأمير سنقر الأشقر لتسترضيهم ، فحدثتهم وخضعت لهم فما أفاد فيهم ذلك شيئا ، وعادت بالخيبة .

فرحل الأمراء بمن معهم من العساكر إلى مصر ، وتبعهم الملك السعيد ليلحقهم ويتلافى أمرهم فلم يدركهم ، فعاد إلى دمشق وبات بها . وأصبح [الملك السعيد] فجهز أمه وخزائنه

(١) فى س " تعلمونه ".

إلى الكرك ، وجمع من بقى من عساكر مصر والشام ، واستدعى العربان وأنفق فيهم ، وسار من دمشق بالعساكر يريد مصر ، فنزل بلبيس فى نصف ربيع الأول . و[كان] قد سبقه الأمير قلاوون بمن معه إلى القاهرة ، ونزلوا تحت الجبل الأحمر .

فبلغ ذلك الأمراء الذين بقلعة الجبل ، وهم الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار ، والأمير أقطوان الساقى ، والأمير بلبان الزَّرَّبِقِي[١] ؛ فامتنعوا بها وحصّنوها ، وتقدّموا إلى متولى القاهرة فسدّ أبوابها . فراسلهم قلاوون والأمراء فى فتح أبواب القاهرة ، ليدخل العسكر إلى بيوتهم ويُبْصِروا أولادهم ، فإن عهدهم بَعُد بهم . ونزل الأمير لاجين البركخاى[٢] وأيبك الأفرم وأقطوان إلى الأمراء لمعرفة الخبر ، فقبضوا عليهم وبعثوا إلى القاهرة ففتحت أبوابها ، ودخل كل أحد إلى داره . وسجن الثلاثة الأمراء فى دار الأمير قلاوون بالقاهرة ، وزحفوا إلى القلعة وحاصروها ، وقد امتنع بها بلبان الزربقى[٣] .

وأما السلطان فإنه لما نزل بلبيس وبلغه خبر الأمراء ، خامر عليه من كان معه من عسكر الشام وتركوه فى بلبيس ، وعادوا إلى دمشق وبها الأمير عز الدين أيدمر نائب الشام ، فصاروا إليه . ولم يبق مع السلطان إلا مماليكه ، ومنهم الأمير لاجين الزينى ، ومغلطاى الدمشقى ، ومغلطاى الجاكى ، وسنقر التكريتى ، وأيدغدى الحرانى ، والبكى الساقى ، وبكتوت الحمصى ، وصلاح الدين يوسف بن بركه خان ، ومن يجرى مجراهم ؛ ولم يبق معه من الأمراء الكبار إلا الأمير سنقر الأشقر فقط . فسار [السلطان] من بلبيس ، ففارقه سنقر الأشقر من المَطَرِيَّة[٤] ، وأقام بموضعه .

---

(١) فى س " الزربقى " ، والمل النسبة إلى قبيلة زريق إحدى قبائل الأنصار . انظر ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩٢٩) .

(٢) فى س " البركخاى " ، وقد أثبت الرسم الوارد هنا من (Quatremère : Op. Cit. I. 2 p. 169) ، حيث هذا الاسم مترجم إلى (Berekekhai) .

(٣) فى س "الزربقى" .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قرية بقرب عين شمس القديمة بالشمال الشرقى من القاهرة ، وكانت مشهورة فى عالم القرون الوسطى بالشرق والغرب بشجر البلسان ، الذى يستخرج منه الدهن المعروف بذلك الاسم . انظر ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٦٤ — ٥٦٥) .

وبلغ الأمراء أن السلطان جاء من خلف الجبل الأحمر ، فركبوا ليحولوا بينه و بين القلعة ، وكان الضباب كثيرا فنجا منهم ،واستتر عن رؤيتهم وطلع إلى القلعة . فلما انكشف الضباب بلغ الأمراء أن السلطان بالقلعة ، فعادوا إلى حصارها . وعندما استقر السلطان بالقلعة تشاجر لاجين الزيتى مع الزربقى(١) ، فنزل [الزربقى] إلى الأمراء وصار معهم ، وتبعه المماليك شيئا بعد شيء . وصار السلطان يشرف من برج الرفرف(٢) المطل على الإسطبل ، ويصيح بهم : "يا أمراء ! أرجع إلى رأيكم ، ولا أعمل إلا ما تقولونه(٣)" ، فلم يجبه أحد منهم . وأظهروا كتبا عنه يطلب فيها جماعة من الفداوية لقتالهم ، وأحاطوا بالقلعة وحصروه . وكان الأمير سنجر الحلبي معتقلا بالقلعة ، فأخرجه السلطان وصار معه ؛ فاستمر الحصار مدة أسبوع .

وكان الذى قام فى خلع(٤) [السلطان(٥) جماعة كثيرة من الأمراء ، وهم] الأمير بيسرى ، والأمير قلاون ، والأمير أيتمش السعدى ، والأمير أيدكين البندقدار ، والأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح ، والأمير بيليك الأيدمرى ، والأمير سنقر البكتوتى ، والأمير سنجر طردج ، والأمير بلبان الحبيشى ، والأمير بكتاش (١٦٨ ا) النجمى ، والأمير كشتغدى الشمسى ، والأمير بلبان المارونى ، والأمير بجكا العلائى ، والأمير بيبرس الرشيدى ، والأمير كندغدى الوزيرى ، والأمير يعقوبا الشهرزورى ، والأمير أيتمش بن أطلس خان ، والأمير بيدغان اركنى ، والأمير بكتوت بن أتابك ، والأمير كندغدى أمير مجلس ، والأمير بكتوت جرمك ، والأمير بيبرس طقصو ، والأمير كوندك النائب ، والأمير أيبك الحموى ، والأمير سنقر الألفى ، والأمير سنقر جاه الظاهرى ، والأمير قلنج

(١) فى س " الزرىق " .

(٢) أورد المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص٢١٢ — ٢١٣) تاريخا لهذا البرج من عهد السلطان الملك الأشرف خليل (٦٨٩ — ٦٠٣ هـ ، ١٢٩٠ — ١٢٩٣ م) ، ونصه " عمره الملك الأشرف خليل بن قلاون (٢١٣) وجعله عاليا ليشرف على الجيزة كلها ، وبيضه وصور فيه أمراء الدولة وخواصها ، وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها . وكان مجلسا يجلس فيه السلطان ، واستمر جلوس الملوك به حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وعمل بجواره برجا بجوار الإصطبل ، [و] نقل اليه المماليك " .

(٣) فى س " ما تقولوه " . (٤) فى س " خلعه " .

(٥) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة والتى تليها من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٢٦) .

الظاهرى ، والأمير ساطلمس[١] ، والأمير جقار الحموى ؛ ومن انضاف إليهم من الأمراء الصغار ومقدمى الحلقة ، وأعيان المفاردة والبحرية[٢] .

ولما طال الحصار بعث [السلطانُ] الخليفةَ الحاكم بأمر الله أحمد ، يقول : " يا أمراء ! إيش غرضكم ؟ " فقالوا : " يخلع الملك السعيد نفسه من الملك وتعطيه الكرك[٣] " . فأذعن السعيد لذلك ، وحلف له الأمراء ، وحضر الخليفة والقضاة الأعيان ، وأنزل بالملك السعيد ، وأشهد عليه أنه لا يصلح للملك . وخلع [السعيد] نفسه ، وحلف أنه لا يتطرّق إلى غير الكرك ، ولا يكاتب أحدا من النواب ، ولا يستميل أحدا من الجند . وسُفِّر من وقته إلى الكرك مع الأمير بيدغان الركنى ، وذلك فى سابع شهر ربيع الآخر ، فكانت مدة ملكه من حين وفاة أبيه إلى يوم خلعه سنتين وشهرين وثمانية أيام . فوصل إلى الكرك وتسلّمها فى خامس عشرى جمادى الآخرة ، واحتوى على ما فيها من الأموال وكانت شيئا كثيرا .

ولم يقتل فى هذه الحركة سيف الدين بكتوت الحمصى ، فإنه كان بينه وبين سنقرجاه الظاهرى مشاجرة ، فلما طلع الملك السعيد إلى قلعة الجبل يوم وصوله من بلبيس صادفه سنقرجاه — وهو من حزب الأمير قلاون ومن معه — ، نطعنه فى حلقه فحمل إلى قبة القلندرية[٤] ، فمات من يومه ودفن بها . وكانت أيامه رخيّة الأسعار .

---

(١) كذا فى س .

(٢) البحرية هنا طائفة من الأجناد السلطانية ، وكان عملهم المبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان فى السفر كالحرس . انظر القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٦) ، حيث ورد أيضا أن أول من رتب هذه الطائفة وسماها بهذا الاسم هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٣) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٢٦) فى هذا الصدد أن السلطان الملك السعيد أرسل إلى الأمراء أثناء الحصار ، " وسألهم أن يكون الشام بكماله لهم ، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه من الملك . فالتمس من سيف الدين قلاون والأمير بدر الدين بيسرى أن يعطوه قلعة الكرك فأجاباه إلى ذلك ، ونزل من القلعة .... " .

(٤) يوجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ — ٤٣٣) مكان اسمه زاوية القلندرية ، والراجح أنه المقصود هنا ؛ وموضع هذه الزاوية خارج باب النصر من الجهة التى فيها الترب والمقابر بالقاهرة ، وقد أنشأها الشيخ حسن القلندرى الجوالقى ، أحد فقراء العجم القلندرية . أما لفظ =

السلطان الملك العادل بدر الدين سُلَامِش (١)

[وهو] ابن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى . لما تم خلع الملك السعيد وسافر إلى الكرك ، عرض الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاون الألفى فامتنع وقال : " أنا ما خلعتُ الملك السعيد طمعا فى السلطنة ، والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرّية الملك الظاهر (٢) " . فاستُحْسِن ذلك منه لأن الفتنة سكنت فإن الظاهرية كانوا معظم العسكر ؛ وكانت القلاع بيد نواب الملك السعيد ، وقصد قلاون بهذا القول أن يتحكّم حتى يغيّر النوّاب ويتمكّن مما يريد . فمال الجميع إلى قوله وصوّبوا رأيه ، واستدعوا سلامش ، واتفقوا أن يكون الأمير قلاون أتابكه ، [وأن يكون] إليه أمر العساكر وتدبير الممالك . فحضر سلامش وله من العمر سبع سنين وأشهر ، وحلف العسكر جميعه على إقامته سلطانا ،

= القلندرية فنسبة إلى مؤسس هذه الفرقة الصوفية ، وهو قلندر يوسف العربى الأصل الإشبانى الوطن ، (انظر Enc. Isl. Arts. Kalandar, Kalandari) . وقد وصف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ — ٤٣٣) هذه الطائفة وصفا وافيا ، ونصه : " القلندرية طائفة تنتمى إلى الصوفية ، وتارة تسمى أنفسها ملامتية . وحقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات ، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شىء من اللذات (٤٣٣) المباحة ، واقتصروا على رعاية الرخصة ، ولم يطلبوا حقائق العزيمة ؛ والتزموا ألا يدخروا شيئا ، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا ، ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا ، وزعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك . وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد ، سوى ما هم عليه من طيب القلوب . والفرق بين الملامتى والقلندرى أن الملامتى يعمل فى كتم العبادات ، والقلندرى يعمل فى تخريب العادات . والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ، ويرى الفضل فيه إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ، ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه تسترا للحال حتى لا يفطن له ، وهو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات . والقلندرى لا يتقيد بهيئة ، ولا يبالى بما يعرف من حاله وما لا يعرف ، ولا ينعطف إلا على طيب القلوب ، وهو رأس ماله " .

(١) ضبط اسم هذا السلطان على منطوقه فى الترجمة الفرنسية لابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٣٠٧) .

(٢) لم يقصد الأمير قلاون بامتناعه وتفضيله المبدأ الوراثى أنه كان يحترم هذا المبدأ ، وقد وضح غرضه من هذه العبارة الداهية فيما بعد ، (انظر ما يلى ، سطر ٦) . والواقع أن مبدأ الوراثة لم يكن مقبولا أو معقولا لدى أمراء المماليك ، وقد حتمت عليهم نشأتهم أن تكون المؤهلات للسلطنة عندهم الأقدمية والمهارة الحربية والقدرة على الدس من وراء ستار ، وغير ذلك مما ليس له علاقة البتة بالمبدأ الوراثى ؛ وتطبيق هذه الضوابط فقط واضح فى تاريخ دولتى المماليك بعصر كله .

وإقامة الأمير قلاوون (١٦٨ ب) أتابك العساكر - ولقبوه الملك العادل بدر الدين ، فاستقر الأمر على ذلك - وأقيم الأمير عز الدين أيبك الأفرم فى نيابة السلطنة ، واستقر قاضى القضاة برهان الدين خضر بن الحسن السنجارى فى الوزارة .

وأما عسكر الشام فإنه لما سار من بلبيس ودخل إلى دمشق ، كان بجانب الأمير عز الدين إزدمر العلائى ، والأمير قراسنقر المعزى ، والأمير أقوش الشمسى ، والأمير برلغوا(١) ، فى نحو ألفى فارس . فساروا إلى دمشق ولقوا العسكر القادم من بلبيس ، فاتفقوا [مع الأمراء(٢) الذين بدمشق] على إقامة الأمير أقوش الشمسى [مقدما على الجيوش] ، والقبض على الأمير عز الدين أيدمر نائب دمشق ، [لأنه ترك ابن أستاذه وخامر عليه ورجع من بلبيس] . فأخذه الأمير أقوش إلى داره ، فجاء الأمير أزدمر العلائى وركن الدين الجالق إلى دار أقوش ، وأخذا الأمير أيدمر وصعدا به إلى قلعة دمشق ، وسلماه إلى الأمير علم الدين سنجر الدوادارى نائب القلعة .

فلما تقرر الحال على إقامة الملك العادل سلامش والأمير قلاون كُتب إلى الشام بذلك ، وسار الأمير جمال الدين أقوش الباخلى وشمس الدين سنقرجاه الكنجى بنسخة الأيمان ، فحلف الناس بدمشق كما وقع الحلف بمصر .

وفى النصف من جمادى الأولى ، استقر قاضى القضاة صدر الدين عمر ابن قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، فى قضاء القضاة بديار مصر ، عوضا عن قاضى القضاة تقى الدين محمد بن رزين بحكم عزله . وصُرف أيضا قاضى القضاة معز الدين النعمان الحسن ابن يوسف الخطيبى الحنفى ، وقاضى القضاة نفيس الدين أبو البركات محمد بن مخلص الدين هبة الله بن كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر المالكى ؛ ثم أعيدا . وولى عز الدين عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسى الحنبلى ، قاضى القضاة الحنابلة . واستقر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر فى نيابة السلطنة بدمشق ، فدخلها فى ثامن جمادى الآخرة ومعه

(١) كذا فى س .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٣٠٧ ، وما بعدها) .

جماعة من الأمراء والعسكر ، فعامله الناس معاملة الملوك . وأنزل الأمير سنقر الدوادارى من القلعة لمباشرة الشد ، وقرئ تقليد النيابة يوم الجمعة بمقصورة الخطابة ، ولم يحضر النائب قراءته .

وفى تاسع رجب قبض على فتح الدين عبد الله بن محمد بن القيسرانى ، وزير دمشق . وفيه استقر الأمير جمال الدين أقوش الشمسى فى نيابة السلطنة بحلب ، عوضا عن أيدغدى الكبكى .

وشرع الأمير قلاون فى القبض على الأمراء الظاهرية ، فقبض على أعيانهم وبعثهم إلى الثغور فسجنوا بها ، وأمسك [أيضا] كثيرا من الظاهرية وملأ الحبوس بهم . وأعطى [قلاون] ومنع وقطع ، ووصل واستخدم وعزل ، فكان صورة أتابك وتصرفه تصرف الملوك ، واشتغل الأمير يسترى باللهو والشرب ، فانفرد الأتابك قلاون بالمملكة وأخذ فى تدبير أحواله ، وفرّق [قلاون] الأموال على المماليك واستمالهم ، وقرّب الصالحية وأعطاهم الإقطاعات (١٦٩ ا) ، وكبّر منهم جماعة كانوا قد نسوا وأهملوا ، وبعث عدّة منهم إلى البلاد الشامية واستنابهم فى القلاع ، وتتبع ذراريهم وأخذ كثيرا منهم كانوا قد تعلقوا بالصنائع والحرف ، فرتّب طائفة منهم فى البحرية[1] ، وقرّر لجماعة منهم جامكية . فعادت لهم السعادة ، وقوى بهم جانبه وتمكنت أسبابه . ثم جمع [قلاون] الأمراء فى العشرين من رجب وتحدث معهم فى صغر سن الملك العادل ، وقال لهم : " قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل " ، إلى أن اتفقوا على خلع سلامش فخلعوه ، وبعثوا به إلى الكرك . وكانت مدة ملكه مائة يوم ، ولم يكن حظه من الملك سوى الاسم فقط ، وجميع الأمور إلى الأتابك قلاون .

---

(١) لعل المقصود بهذه العبارة أن السلطان قلاون أدمج أفراد تلك الطائفة ، وهم ذرارى المماليك البحرية الصالحية ، ضمن فئة البحرية التى جددها فى أوائل سلطنته ، ويوضح ذلك ما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٧) فى هذا الصدد ، ونصه : " واستجد السلطان الملك المنصور قلاون طائفة سماها البحرية ، وهو أن البحرية الصالحية لما تشتتوا بعد قتل الفارس أقطاى فى أيام المعز أيبك ، بقيت أولادهم بمصر فى حالة رذيلة ، فعند ما أفضت السلطنة إلى قلاون جمعهم ورتب لهم الجوامك والعليق واللحم والكسوة ورسم أن يكونوا جالسين على باب القلعة وسماهم البحرية ، وإلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية " . غير أنه تقدمت الإشارة إلى استعمال لفظ البحرية للدلالة على طائفة الأجناد المكلفين بالمبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان (انظر ص ٦٥٥) ، فلعل المقصود هنا أن السلطان قلاون رتب ذرارى الصالحية المذكورين فى تلك الطائفة .

كَمُلَ طبع القسم الثانى من الجـــزء الأول
من كتاب السـلوك المقريزى بمطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر فى يوم الخميس ٢٣
شوال سنة ١٣٧٦ . (٢٣ مايو سنة ١٩٥٧) .